العماد أول

مصطفى طلاس

الفكر العسكري للمارشال جوكوف



الفكر العسكري للمارشال جـوكـوف

الطبعة السادسة ـــ ٢٠٠١م

العماد أول
مصطفى طلاس

الفكر العسكري للمارشال
جوكوف

تم الدفاع عن هذه الأطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في
العلوم التاريخية أمام المجلس العلمي لمعهد التاريخ العسكري في روسيا،
بدرجة امتياز بتاريخ ١٣ نيسان من العام ١٩٩٠ .



أهم المصادر الجديدة التي اعتمدنا عليها في الطبعة السادسة :

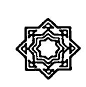
- كتاب جوكوف . نيقولاي ياكوفليف ١٩٩٢ .
- كتاب أصالة جوكوف وعظمته في فن القيادة . محمود أحمد وفيتش غاربيف ١٩٩٧ .
- بعض الصحف الحديثة مثل النجم الأحمر والبرافدا والتاريخ العسكري .... وغيرها .
- بعض الكتب والمجلات الفرنسية والانكليزية والأمريكية .
- الخطب والدراسات التي ألقيت في موسكو بالذكرى المئوية لولادة جوكوف عام ١٩٩٧ .

نوان الكتـــاب باللغة الإنكليزيـــة

The Military Thought of Marshal Joukov

By

General Moustafa Tlass



عدلت هذه الطبعة السادسة

على أساس المعطيات الجديدة التي نشرت

عن المارشال جوكوف

بعد أن كان الكثير منها محظوراً قبل البيريسترويكا

وقد عمدنا إلى وضع المخططات والخرائط في نهاية الكتاب.

الفكر العسكري للمارشال جوكوف / مصطفى طلاس . ــ ط٦. ــ دمشق
: دار طلاس ، ٢٠٠١ . ــ ٣٧٦ص ؛ ٢٥سم.

بالأصل أطروحة دكتوراه ــ المجلس العلمي لمعهد التاريخ العسكري، روسيا ،
١٩٩٠.

١ ــ ٩٢٣,٥: جوكوف ط   ٢ ــ ٩٤٠,٥٤ ط ل ا ف

٣ ــ العنوان   ٤ ــ طلاس

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ٢٠٠١/٧/١١٣٩   رقم الإصدار ٨٤٩

رقم: ٦٠٨٠٤

تاريخ: ٢٠٠١/٧/١

«أنا سعيد لأنني ولدت روسياً، وقاسمت شعبي مرارة الخسائر العديدة وسعادة النصر في الحرب المنصرمة».

غ. ك. جوكوف

المقدمة

من يقرأ التاريخ العسكري، يتبين له بوضوح، أن الصراع في كل زمان ومكان .. ومنذ أن استخدم الإنسان فيه السكين الحجرية إلى استخدامه القنبلة النووية، كان دائماً وأبداً، يتوج بقادة عظام توصلوا، بمعاناتهم وممارستهم، إلى اكتشاف المبادئ الأساسية لفن الحرب .. تلك المبادئ التي لم تفقد أهميتها حتى يومنا هذا والتي تكاد تكون ثابتة نظرياً، يستخدمها القادة لتخطيط استراتيجيتهم وتكتيكهم الخاص كل وفق موهبته وثقافته وشجاعته وتجاربه. بيد أن ذلك لا يعني أن مجرد الأخذ بها وتطبيقها يمكن من بلوغ النصر. فقد عدد القائد العسكري الفرنسي العظيم نابليون بونابرت، مجموعة من الأخطاء الأساسية الفاحشة التي ارتكبها أعداؤه في موقعة «واترلو» والتي يؤدي خطأ واحد منها، نظرياً، إلى هزيمة أي جيش في العالم. ومع ذلك فقد مني بالهزيمة هو وليس هم، رغم تطبيقه السليم على ما يبدو لهذه المبادئ. وكانت هزيمته في تلك الموقعة هي التي وضعت حداً لأمجاده العسكرية والسياسية معاً.

والحروب ليست متشابهة الواحدة مع الأخرى، فهي تختلف باختلاف أماكنها وظروفها ووسائط الصراع المسلح المستخدمة فيها .. فكلما تعقدت الآلة الحربية كلما احتاجت مسارح الأعمال الحربية إلى قادة أوسع أفقاً وأكثر كفاءة وقدرة على استيعاب أعقد التقنيات واستخدامها وفق تزامن وتناغم معين يتدعونه ليؤمن لهم الاستفادة الكاملة من سائر الطاقات الموضوعة تحت تصرفهم. ويظهر تفوق بعضهم على بعض في أسلوب اللعب بسيناريو المعركة الحديثة المشتركة: أي استخدام مبادئ فن الحرب بشكل مبتكر بما يتناسب مع ظروف المعركة الراهنة .. والانعطافات الحادة .. في المواقف القتالية المعقدة.

ولقد أفرزت الحرب العالمية الثانية ــــ وهي أضخم صراع مسلح عرفه تاريخ البشرية حتى الآن ــــ عدداً كبيراً من القادة العسكريين النابغين في الطرفين المتحاربين وكان أوسعهم أفقاً ، برأيي ، وأقدرهم على استخدام مبادئ فن الحرب بإبداع ، وأسطعهم نجماً ، في تلك الحرب الضروس ، القائد السوفييتي الكبير المارشال جوكوف بطل الاتحاد السوفييتي أربع مرات .

وإذا عمدنا إلى تقويم العمليات الاستراتيجية التي خطط لها وقادها جوكوف ، وسلطنا الضوء على أعماله الحربية بكاملها لأمكننا القول بكل ثقة : إن المارشال جوكوف ، لم يكن قائداً عصامياً ومنظماً ومفكراً ... فحسب ، بل كان يتمتع أيضاً بمواهب فذة وثقافة عالية بحيث تمكن من استيعاب أسرار التقنية العسكرية وخوض الأعمال القتالية .. وكان صاحب نظرة ثاقبة على النطاقين الاستراتيجي والتكتيكي معاً ...

أضف إلى ذلك أنه كان نتيجة لتجاربه المتواصلة قائداً فذاً من طراز فريد وجديد وجندياً محنكاً .. مزوداً بالمعارف الحديثة مما جعله قادراً على التجاوب مع سمات الحرب الجديدة .

وما من شك في أن هناك قادة عظاماً آخرين أوصلوا الجيش الأحمر إلى النصر المؤزر ، منهم على سبيل المثال : باغراميان ، فاسيليفسكي ، فاتوتين ، غوفوروف ، يريومنكو ، تشيمنكو ، كونييف ، مالينوفسكي ، ميريتسكوف ، رودميستروف ، روكوسوفسكي ، تولبوخين ، تشيرنياخوفسكي ، غريتشكو ، سوكولوف .

إلّا أن جوكوف ، باعتراف الشعب والحكومة ، كان يحتل مركز الصدارة بين هؤلاء القادة . وكان بفنه العسكري وذكائه الحاد نابغة في جميع المعارك والوقائع والملاحم التي خاضها ، وقد نوه المارشال باغراميان بعبقرية هذا القائد قائلاً :

« تميّز المارشال جوكوف ، كقائد ، بموهبته وكفاءته في التنبؤ بالأحداث الحربية الضخمة وبذهنه التحليلي الذي مكنه دائماً وأبداً من تقدير الموقف وتقويمه ، مهما كان معقداً ، في أقصر فترة من الزمن ، ومن اتخاذ القرارات الخارقة

المفاجئة للعدو ، وكان علاوة على ذلك ، يتمتع بموهبة تنظيمية هائلة ، وبإرادة فولاذية مكنته من تخطي جميع العقبات التي كان من الممكن أن تحول دون بلوغه الهدف » .

كان هذا رأي أحد أقرانه به . ولقد أظهر جوكوف ، في الواقع ، منذ الحرب العالمية الأولى والحرب الأهلية ، مواهب عسكرية فذة ، زانها إقدام بطولي ، واستهانة بالموت في سبيل الوطن .

ولعلني في استعراضي هنا نبذة من تاريخ حياته العسكرية وبعض المسائل والنظريات التي كشف عنها ، إنما أرغب قبل البدء بالدراسة العلمية ، موضوع أطروحتي هذه ، أن أعطي صورة موجزة عنه كرجل ، تسهل فيما بعد معرفة الأهمية الكبرى لوجهات نظره بالنسبة للحرب ، التي أسهمت دون شك إسهاماً كبيراً في تطوير العلم العسكري .

أظهر جوكوف ، منذ السنوات الأولى لبناء الجيش الأحمر ولعاً كبيراً في الشؤون العسكرية ، وعمل دون هوادة على توسيع آفاقه الفكرية والعسكرية هذا ما ساعده على استيعاب أسس العلم العسكري وتحسين تنظيم القوات المسلحة ووضع المبادئ لتحضير الأعمال الحربية وخوضها . وكان من شأن المعارك التي دارت على نهر خالخين — غول ، خلال شهري آب وأيلول من العام ١٩٣٩ بين القوات السوفييتية والقوات اليابانية التي اقتحمت منغوليا ، أن تقدم أول دليل عملي على عبقرية المارشال جوكوف .

فقد تمكن جوكوف ، في تلك المعارك ، من استخدام قواعد خوض أعمال القتال بشكل متناغم ، كما استطاع ، بعد تنظيم دقيق وسري خفي على القيادة اليابانية ، أن يطوق قوات تتفوق على قواته عدة مرات في العدد والعدة وأن يدمرها .

ثم ما لبث ، بعدها ، أن أظهر عبقريته المتألقة وفكره العسكري الفذ خلال سنوات الحرب العالمية الثانية .

كان جوكوف ، قبيل نشوب الحرب ، يشغل منصب رئيس الأركان العامة للجيش السوفييتي ، فعمل بجد ، لتبني فكرة إنشاء خطوط دفاعية ، غربي البلاد ، في أماكن بعيدة جداً عن الحدود ، ولسد النقص الحاصل في تنظيم القوات وتدريبها القتالي .

وما أن بدأ الهجوم الألماني الكاسح حتى قام باتخاذ التدابير الحاسمة لسد الفراغات في قيادات الجيوش العاملة المختلفة وتقديم المساعدة للقوات المطوقة وإجراء المناورات اللازمة بالقوى والوسائط المتوفرة لديه من أجل توقي ضربات العدو .

نتيجة للسيطرة الجوية الألمانية في المرحلة الأولى من الحرب ، ألحَّ جوكوف على قواته البرية لتوسيع أعمالها القتالية ليلاً ، بهدف تطويق وتدمير التجمعات المدرعة المتوغلة بعيداً عن الأنساق الأساسية للجيش الألماني والقضاء على حشوده الميكانيكية .

تبدت ، في تلك المرحلة الصعبة ، عبقريته الخاصة في حل أعقد المهام واستطاع ، بما أوتي من سعة أفق وقدرة على تقدير الموقف العام والخاص في الجبهة والمؤخرة ، أن ينفذ إلى صميم أفكار القيادة الألمانية الاستراتيجية ، فجابهها بقراراته الجريئة والحكيمة .

كان جوكوف كثيراً ما يلجأ إلى الطريقة الحاسمة في الأعمال القتالية ألا وهي تطويق العدو ، والإجهاز عليه بصورة حاسمة . ولقد كان هو مبتدع الهجوم المعاكس الأول الذي قام به الجيش السوفييتي في شهر آب من عام ١٩٤١ على مشارف (يلنيا) حينما كان قائداً لقوات الجبهة الاحتياطية . فقد أنهك واستنزف تحشدات الألمان هناك بتحضيره ضربات موجعة لمجنبات العدو ، رغم عدم كفاية قواته . وقام بمناورة ناجحة استطاع بها الضغط على عنق نتوء (يلنيا) ، ووضع الألمان في وضع الهزيمة المحتومة بعد أن أصبحوا في حالة يائسة حاولوا تداركها بعملية اختراق ليلية باءت بالفشل . ولم يتمكنوا ، بالتالي إلا من القيام بسحب جزئي لقواتهم .

كانت محصلة خسائر الألمان في منطقة يلنيا حتى خمس فرق . وقد وصلت خسائرهم في الأفراد إلى ٤٥ ـــ ٤٧ ألف بين قتيل وجريح . تميز جوكوف ، بعبقريته التنظيمية وإرادته الفولاذية وقدرته على اجتياز أعقد وأصعب العقبات .. تبدى ذلك بدوره القيادي البارز في إنقاذ لينينغراد من الاحتلال الألماني ، وبدوره البارز في ملحمة موسكو .

كما استطاع ، بفكره العبقري النفاذ ، تحديد اللحظة الأكثر ملاءمة وجدوى لهجوم القوات السوفييتية العام المعاكس أمام موسكو ، الأمر الذي كان سبباً في بدء الانعطاف الجذري خلال الحرب لصالح الاتحاد السوفييتي . ولقد تمكن من عقد ألوية النصر للجيش السوفييتي ، رغم تعادل القوى بصورة عامة ، ورغم تفوق الألمان بالدبابات وببعض الأنواع الأخرى من الأسلحة .

وبعد أن أصبح المارشال جوكوف نائباً للقائد الأعلى للقوات المسلحة السوفييتية ، جعل دأبه تعليم القادة الكبار والقادة الآخرين فن الانتصار على العدو ، بأقل الخسائر ، وبأقصر الأوقات .

أشرف جوكوف ، بنفسه على وضع الخطط الكبرى للعمليات الاستراتيجية الضخمة : عملية موسكو ، عملية ستالينغراد ، عملية كورسك ، عملية أوكرانيا ، عملية روسيا البيضاء ، عملية فيسلا أودر ، عملية برلين ، وكللت هذه العمليات الاستراتيجية جميعاً بالنصر المؤزر .

كان جوكوف هو الذي خطّ السمات المميزة للعلم العسكري السوفييتي في مرحلة الحرب العالمية الثانية : كالاختيار الصحيح لاتجاه الضربة الرئيسية والاندفاع الجامح للقوات والتحرر من النظريات التقليدية . فأجاد العزف على آلة الحرب ، ووضع أهم مبدأ من مبادئ الحرب الحديثة ألا وهو تكثيف القوى والوسائط ضد التجمعات الأساسية للعدو . خطب المارشال جوكوف في المؤتمر العسكري الذي عقد ما بين شهري تشرين الثاني وكانون الأول من العام ١٩٤٥ ، مشيراً إلى أهم منجزات فكره العملياتي الاستراتيجي ، تلك المنجزات التي أصبحت أساساً للاستراتيجية العسكرية اليوم ، فقال :

« أحب أن أتوقف عند المسائل الرئيسية التي تؤثر على نجاح العملية الاستراتيجية ، لأنني طوال الحرب كنت أهتدي بهديها ، عند تحضير العمليات جميعها . ولقد لاحظت في الوقت نفسه أن القادة ، حينما كانوا يهملون هذه المسائل أو يتعاملون معها شكلياً ، كان الفشل يلازمهم دوماً »[١] .

أما تلك المسائل التي كان يرى جوكوف أن من الواجب إيلاءها أكبر عناية للوصول إلى النصر فقد كانت عنده كما يلي :

المسألة الأولى : معرفة العدو بصورة ممتازة، التحديد الصحيح لخطة عمله ، تقدير قواه وإمكاناته بشكل دقيق . وأشار جوكوف إلى : « أن معرفة نواحي القوة والضعف لدى العدو .. ومعرفة ما يستطيع العدو عمله وما لا يستطيع ، ومعرفة من أين يمكن أن نمسك بتلابيبه ... هذا هو مضمون المسألة الأولى : مسألة الاستطلاع » .

استخدم جوكوف منهج تعميم الموقف الراهن ، على القادة ، واطلاعهم عليه أثناء سير العمليات وذلك بإرساله لهم باستمرار عبر توجيهات تتضمن استنتاجاته حول المعلومات المتوفرة عن العدو .. مقدماً بذلك تقديره الشخصي إلى قادة الجبهات ، وبخاصة ما يتعلق بالمسائل التي يعاني منها العدو وبمكامن قوته وضعفه على السواء .

كان لهذه المعلومات والتقديرات فائدة كبيرة ، كما أثبت التطبيق العملي صحتها .

المسألة الثانية : معرفة قواتنا وتحضيرها الدقيق والهادف لخوض العملية الاستراتيجية .

المسألة الثالثة : تحقيق المفاجأة على المستوى العملياتي والتكتيكي . وكان جوكوف يرى في ذلك العامل الأكبر الذي يؤثر على نجاح العملية .

---

(١) « مجلة الفكر العسكري » السوفييتية . الإصدار الخاص بمناسبة مرور ٤٠ عاماً على النصر العظيم . عدد شباط ١٩٨٥ موسكو ص٢٦ .

ركز جوكوف على خطط خداع العدو وتضليله بشتى الوسائل في مجرى العملية ، كما حض بإصرار على ضرورة اندفاع القوات إلى العمق العملياتي للعدو . وطالب القادة من المستويات كافة بإيلاء عناية خاصة لخداع العدو في كل عملية أو معركة .

أما اندفاع القوات في العمق ، فكان يقصد منه خرق الدفاع التكتيكي للعدو بسرعة مع الانتشار العنيف للأعمال الحربية في المنطقة العملياتية للقضاء على احتياطات العدو بسرعة . يقول جوكوف :

« إن الاندفاع العنيف هو الواسطة الرئيسية الحاسمة ضد جميع تدابير العدو ، سواء من عمق الجبهة أو من القطاعات الأخرى . فالاندفاع العنيف هو الواسطة الرئيسية للقضاء على العدو بسرعة ويجب العمل دائماً بسرعة ، بحيث يصبح العدو ، في كل مكان وزمان ، متأخراً » .

المسألة الرابعة : الحساب الدقيق لقوى ووسائط خوض العملية الاستراتيجية .

يقول جوكوف في هذه المسألة : « أنا شخصياً أعتقد أن من الأفضل الإقلال من تنفيذ المعارك والعمليات الهجومية وأن لا ندع أنفسنا نستنزف بمعارك صغيرة . وعدم التورط في معارك صغيرة بل العمل على ادخار القوى والوسائط وحشدها من أجل خوض عمليات أكثر نجاعة » .

المسألة الخامسة : التأمين المادي للعمليات : لا يجوز في حال من الأحوال تنفيذ عملية غير محضرة من الناحية المادية . وقد يدفع الموقف القيادة العليا إلى سرعة تنفيذ العملية . لكن لا يمكن المباشرة بها إلا بعد تحضير وتأمين من النواحي كافة .

المسألة السادسة : تركيز القوى والوسائط على الاتجاه الحاسم . وهذا لا يتحقق في الظروف الحديثة عن طريق دفع كمية كبيرة من القوات على الاتجاه المختار ، بل يتحقق بشكل رئيسي عن طريق تكثيف وسائط التدمير . يقول جوكوف : « إذا اضطر الأمر إلى حشد تجمعات ضخمة من القوات فهذا يجب أن يكون لفترة قصيرة فقط وعن طريق التحرك الحثيث من مختلف الاتجاهات » .

تلك هي المسائل الست التي طرحها جوكوف في خطابه والتي وجد أنها جديرة بالاهتمام والتطبيق ، للوصول إلى النصر .

أما النظريتان الاستراتيجيتان اللتان طورهما هذا القائد العبقري ، بشكل لم يسبقه إليه أحد واللتان غيرتا كثيراً من الأساليب التقليدية ، ورفدتا العلم العسكري ، لتصبحا من القواعد الاستراتيجية لتنفيذ العمليات الاستراتيجية فهما :

النظرية الأولى : الضربة الجبهية .

قلب جوكوف الاعتقاد السائد بأن الضربة الجبهية مفهوم تكتيكي أكثر منه مفهوم عملياتي واستراتيجي . فهو لم يعتبر الخرق هدفاً بحد ذاته ، بل رأى فيه أحد أهم مراحل بلوغ الأهداف وتحقيقها . أما الهدف الرئيسي فيتحقق بعد الخرق ، أما خرق عدة قطاعات مستقلة فلم يكن جوكوف يفضله بل كان يركز على الاتجاه الرئيسي فقط ومن هناك يقوم بعمليات الالتفاف التي تقطع أوصال دفاع العدو .

لم يكن جوكوف ينفذ الخرق لمجرد خرق قوات العدو ، بل لأجل تمكين القوات من التفوق في المناورة ، لتوجيه ضربة قاضية إلى العدو ، في الاتجاه الأكثر ملاءمة للقوات الصديقة .

هكذا أوجد جوكوف نظرية « تقليص الجبهة » وأطلق على هذه النظرية طريقة ، أو منهج « الضربة المائلة » وطبقها في عمليات ستالينغراد الاستراتيجية ، وفي جبهة الدون وغيرها ، لتوجيه الضربات الجبهية ، وقد ظهر ذلك واضحاً ، بالأخص في جبهة كيشينف ، وفي عملية برلين الاستراتيجية .

النظرية الثانية : التنبؤ بمجريات العملية الاستراتيجية .

كان المارشال جوكوف ، ينظر إلى التنبؤ بمجريات العمليات الاستراتيجية كأهم عمل من أعمال القادة . وكان يعتقد أن (التنبؤ هذا) هو الذي يمكن من البحث عن طرائق جديدة لا يتوقعها العدو ، وهو الذي يجعل في الإمكان السير

بخطى واثقة في سائر أعمال تحضير العملية الاستراتيجية ، وتأمينها من الوجوه كافة . كما يعزز الثقة بقيادة القوات أثناء سير تلك العملية .

نوه المارشال سوكولوف وزير الدفاع السوفييتي بعبقرية جوكوف في نظرياته الاستراتيجية بقوله : « طبع المارشال جوكوف جميع العمليات الاستراتيجية الهامة في تاريخ الحرب الوطنية العظمى (الحرب العالمية الثانية) بطابعه الشخصي وهو أحد أكثر قادتنا عبقرية . وقد كشفت هذه الحرب عن مدى عبقريته القيادية » . وقال أيضاً : « في جميع المراكز ، التي عهد فيها الحزب إلى جوكوف بالعمل ، أظهر إرادة لا تلين ، وشجاعة وعبقرية تنظيمية لا تجارى » .

وجهت إلى جوكوف في سني ما بعد الحرب انتقادات .. منها : أنه عندما كان قائداً لجبهة روسيا البيضاء ، كان عليه أن لا يتوقف عند نهر الأودر ، وأن يتقدم إلى برلين لاحتلالها فوراً . لكن جوكوف آثر في شباط ١٩٤٥ ، التريث للم شعث قواته ، وكان قراره هذا صحيحاً لأن معلوماته عن العدو لم تكن كافية : ولم يكن بدوره ، يحب المغامرة بالرغم من شجاعته المأثورة عنه .

استمع إلى ما قال مدافعاً عن نفسه : « يجب على القائد أن لا يفقد صوابه ، حتى ولو كان النصر المؤزر حليفه على الدوام . إنكم تظنون أن الرفيق تشويكوف[٢] لم يكن يريد الوثوب على برلين ، أو أن جوكوف لم يرد احتلالها . غير أنكم لم تعلموا أن العدو آنذاك كان من الممكن أن يوجه لنا ضربة من الشمال وأن يخترق مشاتنا ، وأن يصل إلى معابر نهر الأودر واضعاً بذلك الجبهة في مأزق حرج . أكرر القول أن علينا أن نكون دائماً قادرين على امتلاك زمام أنفسنا وأن لا نقع في الغواية ، أو في براثن المغامرة ، ومهما كان الوضع فعلى القائد أن لا يضيّع في قرارته الفكر السليم » .

---

(٢) مارشال سوفييتي حصل على وسام بطل الاتحاد السوفييتي مرتين ، ذاع صيته في ستالينغراد . كان قائداً للجيش (٦٢) الذي أصبح فيما بعد الجيش الثامن — حرس .

لقد أخذ اليوم، اسم جوكوف، مكانه إلى جانب القادة الروس العظام أمثال: سوفوروف، وكوتوزوف، كما فرض على حلفاء الاتحاد السوفييتي في تلك الحرب الاعتراف بنبوغه وعبقريته وقدراته. كتب الجنرال «دوايت ايزنهاور»، القائد العام لقوات الحلفاء في أوروبا عامي ١٩٤٤ ــ ١٩٤٥، في مذكراته: «الحملة الصليبية في أوروبا»[٣] عن جوكوف ما يلي:

«اكتسب كقائد مسؤول عن العمليات الضخمة خلال سنوات عدة من الحرب، خبرات عظيمة أكثر من أي قائد في عصرنا الحالي. فقد كان يتوجه دائماً إلى قطاعات الجبهة الأكثر حسمية. وكان تقديره لقوام القوات والأرض، التي سيحتدم عليها الصراع، من الأسباب التي كانت تحثه على اتخاذ هذه القرارات الاستراتيجية، أو تلك، ويتضح لنا بصورة جلية، أننا أمام جندي مفعم بالخبرة».

كما صدر في الولايات المتحدة كتاب «الملاحم العظمى للمارشال جوكوف» عام ١٩٦٩ للناشر الأمريكي هاريسون سولسبري وأعيد نشره مراراً. وجاء فيه عن جوكوف ما يلي: «حينما يكمل التاريخ جهوده المضنية في التقويم، وحينما تتغربل بذور المنجزات الحقيقية عن قشور الشهرة، عندئذ يشرق فوق سائر القادة العسكريين الآخرين اسم هذا الشخص الجبار الحاسم، قائد القادة العظام في خوض الحرب بجيوش جماهيرية. لقد غير مجرى الملاحم ضد النازيين وضد هتلر ليس مرة بل مراراً.

لقد اعترف العالم كله بجوكوف، كقائد عظيم فذ، وكمفكر عسكري حديث. ومن هذا المنطلق رأيت أن أختار نهجه الاستراتيجي، موضوعاً للبحث العلمي في مجال التاريخ العسكري. واخترت كلمة النهج لأنها تشمل النظرية والتطبيق في آن واحد، ثم رأيت أن عنوان البحث يجب أن يكون: (الفكر العسكري للمارشال جوكوف) بدلاً من النهج الاستراتيجي.. معللاً ذلك بأن

---

(٣) دوايت ايزنهاور، الحرب الصليبية في أوروبا دار نشر Double-day and Company نيويورك ١٩٤٨ ص٥٢١.

هامش البحث النظري في هذه الدراسة أكبر بكثير من تحليل الأعمال الميدانية التي قام بها المارشال جوكوف .. وقررت ذلك وبالرغم من معرفتي الشخصية للمارشال جوكوف . أود أن أصارح القارئ بأن كل ما كتبته عنه لم يكن ناجماً فقط عن المحبة والإعجاب الذي أكنه في نفسي لهذا القائد التاريخي ... فأنا هنا أمام دراسة موضوعية وأطروحة علمية تتوخى الابتعاد عن العواطف الخاصة ... والاستناد إلى وقائع ثابتة ومنهجية علمية دقيقة غرضها الوصول إلى الحقيقة ووسيلتها التحليل الدقيق للوقائع من خلال الأرشيف الضخم للموقعات والحملات والملاحم ... التي خيضت في الحرب العالمية الثانية وإلى مذكراته الشخصية التي نشرها في حياته .

وبمناسبة التحدث عن مذكرات المارشال جوكوف ، في هذه المقدمة ، حضرتني واقعة جرت معي ، متعلقة بها لا بدّ من سردها هنا ، فهي تدل على مقدار تقدير ضباط القوات المسلحة السورية لهذا القائد العسكري الفذ . عندما صدرت في الاتحاد السوفييتي مذكرات جوكوف بعنوان : « مذكرات وآراء » في موسكو في العام ١٩٦٩ وذلك قبل وفاته بخمس سنين وكنت في تلك الفترة رئيساً لأركان القوات المسلحة العربية السورية منذ ١٩٦٨/٢/١٤ . سارعتُ إلى الحصول على نسخة منها وطلبت إلى لجنة من خيرة الضباط الذين تلقوا العلم العسكري في الاتحاد السوفييتي العمل على ترجمتها إلى العربية . وعندما أصبحت الترجمة الخطية ، جاهزة على طاولتي ، قرأتها بشغف على الرغم من علمي أن أكثر من مائة صفحة قد اقتلعت من مخطوط هذه المذكرات قبل الطبع كما روى لي أثناء زيارتي له في منزله في موسكو .

وقبل تسليم مخطوط النسخة العربية إلى المطبعة ، أصدرتُ تعميماً إلى الضباط جميعهم ، أعلمهم فيه بقرب صدور المذكرات طالباً منهم الاكتتاب لشراء الكتاب مع حسم قدره ٥٠ بالمائة وما مرت عدة أيام حتى كانت الطلبات تنهال من قبلهم جميعاً بلا استثناء علينا ، وأذكر أن السيد اللواء عواد باغ كان في زيارتي في مكتبي وسألني : كم نسخة ستطبعون من هذا الكتاب ؟ فأجبته فوراً : خمسة آلاف نسخة ، فأجابني وأمارات العجب بادية على وجهه قائلاً : لا يمكن لهذا

العدد الضخم من الكتاب أن ينفذ، وإنكم لن تبيعوا منه غير مئات قليلة من النسخ . فأجبته مبتسماً ابتسامة الواثق من نفسه : سيباع الكتاب بحسم قدره ٥٠٪ من ثمنه وقد غطت طلبات الاكتتاب فيه أكثر من خمسة آلاف نسخة . وهكذا نفذت الطبعة الأولى منه فوراً فعدنا إلى طباعته طبعة ثانية وأتبعناها بثالثة بعد صدور الصفحات المنتزعة من الكتاب التي طلبت وضعها بعد ترجمتها في متن الكتاب . لقد نفذت الطبعات الثلاث من المذكرات بشكل أثار عجبي فقد دلني ذلك على شدة إعجاب الضباط السوريين وتقديرهم الرفيع لهذا القائد الفذ، وكلفهم الشديد بمعرفة أسرار انتصاراته وعبقريته العسكرية وسيرته الظافرة التي أطاحت بأقوى جيش في العالم وأحدثه تجهيزاً . كما يدل — إن دل — على شغف ضباط القوات المسلحة العربية السورية بالقراءة، والاستفادة من الثقافة العسكرية .

لقد سعيت إلى لقاء المارشال جوكوف في بيته في كل مرة زرت فيها الاتحاد السوفييتي قبل أن تخترمه يد المنون . وكان يحلل الحروب السابقة العربية — الإسرائيلية بكل اهتمام . وكان يرى أن أسباب إخفاق القوات المسلحة العربية في حرب عام ١٩٦٧ كان بسبب الاستعمار الأجنبي وعدم توحيد الدول العربية في دولة واحدة، وتفرق كلمتهم . وكان أول المهنئين والمحللين لحرب تشرين التحريرية عام ١٩٧٣ .

كنت أغني كل طبعة من الطبعات العربية الخمس السابقة والطبعتين الروسيتين والطبعة الفرنسية من كتابي هذا « الفكر العسكري للمارشال جوكوف » بآخر ما صدر من دراسات علمية حول فكر جوكوف العسكري ونهجه القيادي الظافر وكنت أتلقى خلال هذه الطبعات من ضباطنا في القوات المسلحة السورية والقوات المسلحة في الدول العربية ثناءاتهم والكثير من أسئلتهم حول بعض التفاصيل من حياة جوكوف العسكرية وأسباب محاربة السلطات السوفييتية له بعد الحرب في زمن ستالين وخروشوف ومالنكوف وغيرهم له وهو العصامي الذي لم يتخرج من أية أكاديمية عسكرية وعندما كثرت المطالبات الملحة علي من الضباط السوريين والعرب والروس والفرنسيين لتقديم الطبعة

السادسة الحالية، عملت بإمكاناتي كلها، على جمع آخر ما كتب عنه، في روسيا الاتحادية وأوربا وأمريكا والولايات المتحدة بصورة خاصة وإضافتها بعد دراستها بإمعان ومقارنتها ببعضها بعضاً. وقد أعجبني ما كتب عن جوكوف بمناسبة الذكرى المئوية الأولى على ولادته، في الشرق والغرب على حد سواء، وقارنت ذلك بما سمعته، من بعض أعضاء المجلس العلمي أثناء مناقشة الأطروحة في العام ١٩٩٠، حول استغرابهم وتفاجئهم أعظم مفاجأة، عندما قرؤوا أن الأطروحة التي سيناقشونها قد تم تأليفها من قبل ضابط سوري، في حين أن أحداً من كبار الكتاب العسكريين الروس قد تقاعسوا عن ذلك، ولم يكتبوا أي موضوع يتعلق بالفكر العسكري للمارشال جوكوف الذي قادهم إلى النصر في الحرب العالمية الثانية وأن تكون أول أطروحة بحث في الفكر العسكري لجوكوف تأتي من جانب ضابط سوري وليس من ضابط روسي!

وقد طلب مني أحد مراكز البحوث العسكرية الأمريكية مؤخراً أن أعمل على ترجمة الكتاب إلى الإنكليزية وهو قيد الترجمة في هذه الأيام لاعتقادهم بأنه أفضل كتاب عن جوكوف.

بمناسبة مرور مائة عام على ولادة المارشال جوكوف دعيت لإلقاء كلمتي في الاحتفال الكبير الذي نظمته الحكومة الروسية، في عام ١٩٩٧، ولما كانت الظروف متأزمة بعد استلام حكومة الليكود برئاسة نتنياهو الغادر، فقد طلبت من العقيد بسام اسخيطة لإلقاء كلمتي بهذه المناسبة الكريمة في قاعدة الأعمدة في موسكو ولاقت استحساناً من الحاضرين الذين قاطعوا الخطاب بالتصفيق الطويل وخاصة عند ذكر اسم رئيس الجمهورية العربية السورية الراحل الفريق حافظ الأسد.

كما قلدتني لجنة الاحتفالات وسام وميدالية جوكوف بهذه المناسبة باعتباري أول من كتب عن عبقرية جوكوف.

وأخيراً أتوجه بالشكر إلى جميع الذين ساعدوني في إنجاز هذا العمل والجنرال بيلوف ميخائيل ايفانوفيتش الذي أمن لي معظم مصادر البحث من معهد التاريخ العسكري في موسكو.

وإني بعد هذا أرجو أن أكون بعملي قد رفدت الفكر العسكري ولو بقطرة من بحر ..

نحن في سورية والكلام للرئيس الراحل حافظ الأسد: «وإن كنا دعاة سلام بين الشعوب كافة لا دعاة حرب.. غير أن سلاماً لا يجد من يدافع عنه، لا يمكن أن يدوم أبداً».

الشآم في ١/٣/٢٠٠١ العماد الأول مصطفى طلاس

الفصل الأول

منابع الفطنة

«لقد حافظ غ. ك. جوكوف المنحدر من صميم الشعب الروسي الكادح بأخلاقه على ملامح الرجل الوطني المتفاني طيلة حياته».

(مارشال الاتحاد السوفييتي س. ل. سوكولوف)

بغض النظر عن معنى النشاط القيادي لجوكوف لدى الكتاب والصحفيين من ذوي الاتجاهات السياسية المتنوعة وفي الأقطار المختلفة، فقد تصدر اسمه التاريخ العالمي، وأصبحت الانتصارات التي أحرزت بفضل موهبته التنظيمية من أهم منجزات الحرب العالمية الثانية. كما أن المآثر البارزة لجوكوف في المجالات العديدة من النشاط الحربي، لا سيما قيادة القوات في العمليات الظافرة من خالخين غول في ١٩٣٩ حتى برلين في ١٩٤٥ هي مفخرة للاتحاد السوفييتي عموماً. فهو الوحيد الذي حاز على وسام بطل الاتحاد السوفييتي أربع مرات، زد على ذلك أنه منح وسام «النصر» مرتين، وعدداً كبيراً من الأوسمة والميداليات السوفييتية والأجنبية الأخرى.

يقترن اسم جوكوف مباشرة ببناء القوات المسلحة السوفييتية وجعلها إحدى القوتين العظميين في العالم.

لم يكن صعود جوكوف إلى ذروة المجد والموهبة القيادية محض صدفة. فطريقه في الحياة من فتى قروي حتى مارشال ــ استراتيجي عبقري يمكن أن يعزى إلى تفوقه في عدة مجالات. ولا يشبه طريق المجد الذي شقه جوكوف سوى طريق بعض المارشالات الفرنسيين من عصر نابليون مع بعض التقريب. غير أن عظمة أفكاره وإنجازاته تفوق كل ما في الفن القيادي من إبداع. ودخل التاريخ العسكري قائداً عظيماً. وفي الحقيقة لن تجد له مثيلاً في روسيا بعد القائد سوفوروف الذي هزم نابليون وحرر روسيا من الاستعمار الفرنسي.

قدر لجوكوف منذ مولده أن يكون الابن الشرعي للتجارب الحياتية القاسية ولتنفيذ المهام الصعبة. وقيض له أن يمر بأصعب زمن من التغيرات الاجتماعية. ومع تفتح قدراته ومواهبه العسكرية واجه أعنف التجارب في لهيب الحرب الأهلية، وفي خالخين ـــ غول، وفي سنوات الحرب الوطنية العظمى.

هناك جانب آخر في شخصيته لا يخفى على أحد، وهو إقباله على العمل الدؤوب والمبادأة، وهذا ما غرس في نفسه صفة القائد العسكري الكبير، واستطاع أن يتعلم من تجاربه الخاصنة بكل إتقان وإبداع، وأن يعلم الآخرين بشكل مبتكر في زمن السلم والحرب. يتحدث جوكوف عن بداية طريقه الشاق في كتاب «مذكرات وتأملات». وأرى من المناسب أن نعرض باختصار في بداية كتابنا هذا أهم المعلومات حول نشوء هذه الشخصية البارزة.

١ ـــ في مستهل الطريق

ولد جوكوف في قرية ستريلكوفكا، في أواسط روسيا، كان كونستانتين جوكوف والد يغور جوكوف مدقع الفقر. وكانت والدة جوكوف أوستينيا جوكوفا امرأة رائعة ذات شخصية حازمة عنيدة، وقوة جسمية لا مثيل لها في القرية. أنجبت طفلة وطفلاً بفارق سنة واحدة وهما ماشا ويغور الذي ولد في ١٨٩٦/١٢/١، وفي سن الأربعين أنجبت طفلاً أسمته الكسي، توفي بعد عام.

بيد أن الطفولة هي الطفولة مهما كانت بائسة فقيرة. ومع أن الأب كان يعتبر القشاط أحسن وسيلة للتربية، ويستعمله بلا هوادة، وكانت الأم قاسية أحياناً، فقد كان يغور يحب أبويه حباً جماً ويحترم ذكراهما طيلة حياته، فقد فهم الصبي منذ نعومة أظفاره، أن أمه وأباه يحاولان، ولو بأسلوب قاس، إرشاده وهدايته، بالطبع حسب مداركهما. وجاء الخريف التالي، ويخاطبه الأب: «إيه، يغور، لقد كبرت، سرعان ما تبلغ السابعة، آن الأوان لتبدأ العمل. وأنا في مثل سنك كنت أعمل مثل الكبار».

ودخل غمار العمل الفلاحي. وبدأ موسم الحصاد المرهق لجمع الغلال، وابتاعت الأم منجلاً خاصاً لابنها. وحان وقت الذهاب إلى مدرسة الأبرشية الموجودة في قرية فيليتشكوفو، على بعد كيلو متر ونصف عن ستريلكوفكا عبر المروج.

درس يغور بمستوى عشرة على عشرة، بالرغم من وقوع خدمة البيت الشاقة تدريجياً على كتفيه العريضتين.

كان العام ١٩٠٦ نقطة تحول في حياة الصبي . ففيه أنهى بامتياز الدراسة في مدرسة الأبرشية ذات الثلاثة صفوف . وحصل على شهادة تقدير . وفي هذه السنة عاد الأب من موسكو إلى القرية للعمل والاستقرار فيها . لم يكن صانع الأحذية يتصف بالدماثة على الاطلاق وقد سجلت الشرطة اسمه في لائحة العناصر الساخطة المضربة عن العمل والمشاغبة . ومن الآن فصاعداً حظر على كونستانتين جوكوف الإقامة في العاصمة . وتقديراً لتفوق ابنه في الدراسة خاط له بيديه حذاء ، وأهدته أمه قميصاً .

قرأ يغور العديد من الكتب ، وربما كل ما حوته المكتبة المتواضعة في المدرسة . وبالتدريج توصل الصبي إلى خلاصة وهي أن الحكمة في الحياة تتجلى في الكتب ، وإذا كان الأمر كذلك لا بدّ من التواجد في وسط صناع الكتب . لكن أين تجهز ؟ لا شك في المطبعة . وراقت الفكرة للأب ، لكن يا للأسف لم يجد من معارفه أحداً يتولى قبول يغور في المطبعة . ويصف الابن في مذكراته كيف صار الأب ، حتى ذلك الوقت ، يميل إلى الدعة ، بعد أن ازداد مرتبه .

كان المخرج في متناول اليد . فقد نشأ أخو اوستينيا ، ميخائيل بيليخين ، خال يغور جوكوف أيضاً في فقر إلا أنه أصبح معلم فراء ولديه ورشة خاصة . وتفاهمت الأم مع أخيها وقاد الأب يغور إلى معلمه المقبل .

وكما اتضح منذ اليوم الأول لوصول يغور إلى موسكو أنه لا وجود للمعجزات التي حلم بها هناك . فقد أوصلوه إلى ورشة بيليخين ، وتعرف على المعلمين والصبية . ودعوه إلى طعام الغداء حيث يقول جوكوف في مذكراته : « هنا حصل معي فصل غير متوقع . لم أكن عارفاً النظام المتبع بحيث في البداية يتناولون من القصعة الكبيرة شوربة الكرنب دون اللحم وفي الأخير ، حينما ترن المعلمة الكبيرة بالصحن ، يمكن تناول قطعة من اللحم . إلا أنني على الفور انتشلت قطعتين من اللحم وابتلعتهما بكل سرور ، وما أن بدأت بانتشال الثالثة حتى تلقيت فجأة ضربة قوية بالملعقة برز على رأسي منها نبيره ... » .

وأثبت لي الصبي الأقدم هناك ، واسمه كوزما ، أنه فتى لطيف جداً . إذ خاطبني بعد الغداء قائلاً :

ـــ لا بأس عليك ، اصبر ما داموا بدؤوا بالضرب ، فالمثل يقول ـــ « هات واحداً مضروباً وخذ اثنين غير مضروبين » .

* * *

هكذا انضم يغور الذي له من العمر اثنتا عشرة سنة، صبياً متدرباً إلى ورشة بيليخين. حيث بدؤوا بتعليم يغور من الصفر أي من اتقان مسك الابرة. وكان إلى جانبه أمهر الفرائين الذين لم يخلوا من الأشخاص الطيبين المهذبين الذين أهلوا متدربيهم لممارسة فن تصنيع الفراء الصعب. وانكب يغور على التعلم مكتسباً بسرعة المهارات اللازمة للعامل الماهر. وكانت الحوافز أمام عينيه: ها هم بعض المتدربين لدى بيليخين لم يمض عليهم وقت كبير حتى أصبحوا يعملون لحسابهم الخاص، وسرعان ما جنوا ثروة طائلة.

بيد أن نظام الحياة والتعليم كان رهيباً. كان الصبي المتدرب عرضة للضرب من الجميع ــ من رب العمل والمعلمين والمعلمات، «ولم تقصر عنهم ربة المنزل». وبالطبع لم يكن يغور حملاً وديعاً، فكان كل مرة يرد الرد المناسب على أترابه. وحينما كِبر صار هو نفسه يكيل اللكمات إلى رقاب الصبية المتدربين.

إذا أردنا التحدث عن الجو الروحي فقد كانت خواطر يغور متجهة إلى تعلم كل ما فيه فائدة عملية. ها هو ذا الكسندر، الابن البكر لبيليخين، يتعهد بتعليم يغور الأصغر منه بسنة واحدة، ما لم يكن هو. كما يبدو، يعرفه بإتقان، بما في ذلك اللغة الألمانية. وبدا التلميذ لحوحاً، بل والأهم من ذلك محباً للمعرفة، ليس فقط لأن الكسندر كان يعترف في منهجه التربوي بفائدة المجلات التي كان يدسها في جيب يغور بداعي الاطلاع فقد كان التلميذ يقرأ الصحف بفهم بعد انصراف المعلمين، ويقتني الكتب.

كان يغور، الذي غدا بالتدريج فتى قوياً، غالباً ما يكلف بإيصال الفرو إلى الزبائن ويمنحونه أم الخمسة أو أم العشرة أجرة عربة إذا كان المشوار بعيداً. وكان يغور يفضل أن يقيس الأميال بقدميه في شوارع موسكو. وبالدراهم الموفرة يشتري كتاباً. وبالطبع كان من المفترض أن يقتني بطلنا المراجع العلمية التي توسع أفق المعرفة. لكن لم يتح ليغور، في ذلك الوضع مع الأسف، أن يبني لنفسه تصوراً متناسقاً للاهتمامات العلمية، فقد هرع لتتبع مغامرات «شرلوك هولمز» ورجل المباحث المغمور «نيك كارتر» ملتهماً الكتب التي تتضمن مغامراتهما العجيبة.

تحولت الدروس مع الكسندر تدريجياً إلى دروس مستقلة واستمرت نحو سنة وسرعان ما أدرك يغور، الذي بلغ رشده، أنه لا يمكن متابعة الدراسة دونما منهاج محدد. فانتسب إلى دورات مسائية للثقافة العامة وأنهى الدورات ذات الثلاث سنوات بامتياز، واعتباراً من العام ١٩١١، حين أنهى يغور عامه الخامس عشر صاروا يلقبونه غيورغي كونستانتينوفتيش، زيادة في الاحترام. وانتقل إلى مستوى الصبية الأقدم وصار يتبع له ثلاثة من الصبية المتدربين.

تلقى غيورغي في العام ١٩١٢، أول مرة إجازة لمدة عشرة أيام زار فيها أهله في ستريلكوفكا، وكان قد تقدم السن بوالديه بعد أربع سنوات، ووجد أخته عروساً. أما الأم فقد عكرت اللقاء «بالحديث عن الفاقة التي تعيش فيها». وقد تذكر غ. ك. جوكوف جيداً أنه أهدى أمه في تلك الإجازة الأولى ثلاثة روبلات، ورطلين من السكر، ونصف رطل من الشاي ورطلاً من السكاكر.

في آخر المطاف انتهى العام ١٩١٢ واختتم التدريب عند بيليخين. وحسب التقاليد المتبعة منح غيورغي جائزة لا بأس بها وتجهيزات كاملة: بدلة من ثلاث قطع، معطف خفيف، معطف شتوي من الفرو مع قبة من الفرو الاستراخان، ألبسة داخلية، حذاء. هكذا يفترض أن يلبس المعلم الجديد المتخرج من مؤسسة بيليخين المشهورة حينذاك. لقد تميز غيورغي، الشريف الذي لا غبار عليه والمتقن لعمله إلى أقصى الحدود، من بين العاملين لدى بيليخين، فصار يوكل إليه يوماً بعد يوم المهام الأكثر مسؤولية: إيصال البضائع، تسلم الأموال من المصرف بموجب شيكات أو دفعها إلى الحساب الجاري. وقد عمل غيورغي لنفسه هذه المفاضلة بين الورشة والمتجر. ففي الأخير «يمكن التعامل مع أناس أكثر أو أقل ثقافة والإصغاء إلى أحاديثهم الجارية».

كان غيورغي أكثر توفيقاً. فقد استأجر سريراً في بيت في «اخوتني رياد» من الأرملة «ماليشيفا» وأغرم غيورغي بابنتها «ماريا» وقرر الزواج.

لم لا؟ لقد كان في العام ١٩١٤ عريساً مرموقاً في محيطه ومعلم فراء يتقاضى ٢٥ روبلاً في الشهر. وهذا بالمناسبة يعادل ما يدفعه بيليخين لابنه البكر الكسندر.

جاء العام ١٩١٤ ليقلب مصائر الشعوب، فحينما ترامت الأخبار إلى موسكو عن إعلان النمسا والمجر وألمانيا الحرب عجت «بيلوكامينايا» بالتظاهرات. وكان من الصعوبة بمكان على غيورغي أن يفهم مغزى الشعارات، وكان بإحساسه المهني يقف خلف واجهة الدكان يرقب كيف كان الوطنيون المتحمسون يحطمون مخازن الشركات النمساوية والألمانية. وقد تعرضت للمصير ذاته المخازن التابعة للأجانب بشكل عام وذلك لمجرد وجود الأسماء الأجنبية على اللافتات فوق المخازن. وفي غمرة الابتهاج الوطني كان يرقب عن بُعد، دون الدخول إلى أماكن التجمعات الليلية للوطنيين: طرازات مشبوهة ضمن الجموع الغاضبة لا تظهر غضباً حقيقياً بمقدار ما تتخاطف البضائع وتسرقها.

اختطفت الموجة الوطنية الشباب في ميعة الصبا، فقد انخرط الفتيان ولما يبلغوا وقتئذ سن التجنيد وهو ٢٠ سنة في صِفوف المتطوعين. وعمد بعضهم تحت ذرائع صحيحة أو غير

صحيحة إلى تجاوز الأفواج الاحتياطية ، وانضموا رأساً إلى الكتائب الجاهزة للمسير لإمداد الجبهة ، أملاً في حضور العرض العسكري لتدشين انتصار القوات الأرثوذكسية في فيينا وبرلين .

تطوع غيورغي الشاب خلسة عن أبويه وسيق إلى الجبهة .

ها هي ذي رحى الحرب تأخذ بالدوران . ففي تموز ١٩١٥ أعلن عن سحب الشباب في سن أبكر إلى الجيش كسن جوكوف . ووقع القدر . ها هو ذا يسارع إلى القرية ، حيث ساعد الشيوخ في جمع المحصول وودع أصدقاءه ودون تحميس من أحد توجه بكل وقار ورباطة جأش إلى مركز القضاء مالا ياراسلافيتش من محافظة كالوغا ، حيث أصبح في ٧ آب ١٩١٥ معبأ للخدمة في الجيش . وعلى السؤال حول مستوى الثقافة كتب بيد مرتجفة : صفان في مدرسة الأبرشية ــ وهذا ما حدد له رأساً أن يخدم برتبة مجند . ولزم جوكوف الصمت حيال اتباعه دورة في معهد المدينة لأسباب غاية في الأهمية بنظره كما قال في مذكراته :

« كان مما أثر على قراري تلك الزيارة التي قمت بها إلى قريتي قبل ذلك . التقيت هناك في البيت اثنين برتبة مرشح من قريتنا بحالة من السوء والرعونة جعلتني مجرد النظر إليهما أتأمل بشكل عفوي كيف سأنهي أنا ، الفتى في التاسعة عشرة ، كلية المرشحين وأتوجه لقيادة فصيلة وأتأمر على جنود محنكين ، على ذوي اللحى المسدلة وأغدو في نظرهم تماماً مثل هذين المرشحين الذين صادفتهما في القرية . ولم أكن أتلهف لهذا ، فهو أمر محرج » .

استغرقت الشكليات في مركز التجنيد دقائق معدودات وأخيراً : أصبح جندياً ، يا للفرحة فعلى غير توقع سحبوه إلى الخيالة ، ونظر الرفاق نظرة حسد إلى هذا السعيد الحظ ، فقد سيقوا كلهم دون استثناء إلى المشاة .

* * *

في الحرب المواضعية تراجع دور الخيالة التقليدي . وكان أن نبذ العسكريون المحترفون في معظمهم ، مع الأسف ، الفكرة السابقة عن بهاء وفعالية الهجمات في نسق الخيالة . غير أن أسطورة الصنف الأصيل من القوات ــ الخيالة ــ ما زالت مستقرة في قلوب الشباب . لم يكن غيورغي يحلم بأن يؤول مصيره إلى احتراف الخدمة العسكرية . ولم يأت ذلك دفعة واحدة . فبعد التدريب الأولي في كالوغا ، وجد الجنود المسكوفيون ، في شهر أيلول فقط ،

أنفسهم في فوج الخيالة الخامس الاحتياطي المتمركز في مدينة « بالاكلييا » من مقاطعة خاركوف ، هنا أُعِدَت الإمدادات لفرقة الخيالة (١٠) التابعة للجبهة .

لقد رأى جوكوف ، وهو لا يزال في المحطة ، أنه انتقل إلى عالم آخر . وكان في استقبال الجنود الأغرار ثلة من صف الضباط المتأنقين من فرسان الهوسار والاولان والدراغون .

يبدو أن حماس الخيّال الشاب وابتهاجه قد ساعده على مواكبة التدريب بنجاح . وكان التدريب في الفوج الاحتياطي يجري بطريقة وحشية ، وبالإضافة إلى التدريب الشخصي جاءت العناية بالحصان . كان الاستيقاظ في معسكر الخيالة يبدأ في الخامسة صباحاً ويتوجب تنظيف الحصان ثلاث مرات . ومع أن الجبهة المتعطشة امتصت كل الدماء الجديدة فإن تدريب الأفراد في الفرسان لم يتميع من جراء ذلك . وتحت الرقابة اليقظة ، بل الطاغية أحياناً ، من جانب صف الضباط الخبيرين ، أمكن للشبان اكتساب مبادىء الخدمة العسكرية . وتحلى الشبان بالصبر حتى تقطر الدم من أقدامهم من الفرك عند المطاردة على صهوة الجياد . « صبروا إلى أن أخذوا مقعدهم بثبات على السرج » . لكنهم لم يكونوا ليتحملوا تمادي مدربهم صف الضابط الحديث العهد بالرتبة ، إذ كان يستخدم اللكمات الشديدة في تربية عناصره . فقد ردوا له الصاع صاعين وطرحوا على هذا الجلاد سرج الفرس وضربوه ضرباً مبرحاً . وكأن شيئاً لم يكن .

في مطلع ربيع ١٩١٦ انتهت الدورة التدريبية ، وشكلت كوكبة خيالة للسير ، وجاء شبان من القرعة الجديدة ليحلوا محل المغادرين . وهنا صدر أمر بإرسال مفرزة من المتفوقين — وعددهم (٣٠) لاتباع دورة صف ضابط . وكان من بينهم طبعاً ، جوكوف الذي كان تحصيله بدرجة امتياز . وحاول تجنب الانضمام إلى المفرزة التدريبية ، غير أن قائد الفصيلة المتزن الحكيم أثناه عن عزمه .

عانى جوكوف الأمرين في المفرزة التدريبية في مدينة « ازيوم » . فقد كان صف الضابط الأقدم يكرهه كرهاً شديداً ، وهذا الرجل القوي البنية الذي كان يصرع الجنود وينهال عليهم باللكمات ، لم يجرؤ مع ذلك على مس غيورغي بأصبعه ، وأغلب الظن أنه قدر عرض أكتاف الدراغون الفتي ونظرته بالجبين المقطب التي لا تبشر أي معتد بالخير . أما عن قوته العضلية فقد عرفها من السماع فقط ، وعليه أصبح يبغضه بغضاً مضاعفاً . ولم يكن بالإمكان توجيه أي لوم إلى جوكوف فيما يتعلق بالتدريب القتالي . فقد كان دوماً في المقدمة ، « وتصيدوا » الجندي البغيض في أمور تافهة من النظام يترتب عليها عقوبات انضباطية . لم يكن أحد يشك في الفصيلة التدريبية في أن جوكوف سيتخرج صف ضابط حديث وهي رتبة يكافأ بها

أكثر المتدربين جودة ونشاطاً . وقد حاول غريمه الحاقد أن يفصل جوكوف من المفرزة بحجة سوء انضباطه . وجاءت النجدة من رئيس المفرزة التدريبية الذي حصل على رتبة ضابط من بين صفوف الجنود ، ويحمل عقدة مزدانة بالصلبان الجيورجية وبذلك أصبح جوكوف لدى تخرجه ، كالآخرين ، نائب صف ضابط ، أي مرشحاً لرتبة صف ضابط .

في مطلع العام ١٩١٦ توجه (١٥) دراغوناً شجاعاً من القادة المستجدين من (خاركوف) إلى فرقتهم العاشرة فرسان . وتقدم النسق ببطء . وسار المستجدون عبر مؤخرة الجبهة الجنوبية الغربية المكتظة بالقوات . كان خرق بروسيلوف الشهير في آخر مراحله وكانت الجيوش الباسلة للجبهة الجنوبية الغربية تسعى لخرق مواقع العدو بالرغم من عدم حصولها على دعم من الجبهات الأخرى لكن دون جدوى . ففي الهجمات القليلة الجدوى ازداد عدد الضحايا في صفوف الضباط والجنود .

في تلك الفترة تأتي المشاركة المباشرة لجوكوف في المعارك ، لقد طبق تطبيقاً رائعاً المهارات المكتسبة في فوج الاحتياط والمفرزة التدريبية . والمهم وجود الحصافة مقرونة بالجرأة . كان جوكوف يتبرم من حرب الخنادق ، ولم يسره القعود في الخنادق المغمورة بأمطار الخريف . فكان أن تطوع في الاستطلاع لصالح القوات ، وتجول مراراً مع رفاقه أمام خط الجبهة ، واستطاع بأعماله المتسمة بالمخاطرة أن يأسر ضابطاً ألمانياً . وكوفئ بالصليب الجيورجي لبطولته . وكادت الإغارة التالية التي قام بها في نهاية تشرين الأول تؤول إلى نهاية مفجعة : فقد اصطدمت الدورية الرأسية ، التي كان فيها جوكوف ، بلغم وأصيب اثنان بجراح خطيرة . وأصيب جوكوف برضوض ووقع من على السرج . ولم يعد إلى وعيه إلا بعد (٢٤) ساعة . النتيجة كانت مستشفى وصليباً جيورجياً ثانياً .

في أواخر السنة ، مع أن جوكوف لم يشف من الإصابة ، فقد خرج من المستشفى وأعيد إلى المفرزة التدريبية (التي أوفد منها إلى الجبهة) المتمركزة في قرية « لاغيري » على مقربة من « بالاكليا » حيث كان يتمركز الفوج (٥) خيالة احتياطي ، ونظر المستجدون إلى صف الضابط المقاتل وعلى صدره صليبان جيورجيان نظرة تقدير واحترام . لقد أدى الصمم الذي أصيب به نتيجة للإصابة القريبة العهد ، إلى تغيير تعابير وجه جوكوف . وحار المرؤوسون في فهم ما تخفيه وراءها هذه الرصانة الخارجية . ونادراً ما كان يخطر في بالهم أن جوكوف إنما كان يصغي إلى صوت ضميره . لقد استمع إلى ما فيه الكفاية لكي يقتنع بأن تذمراً خطيراً يخيم على كوكبة الفرسان الاحتياطية . ففي بادئ الأمر صار الجنود يتلمسون بحذر طبائع جوكوف فهو لم يكتم قناعته في أن « الحرب لا تخدم إلا الأغنياء » إذن هذا الرقيب هو « صديق وفي » .

في صباح ٢٧ شباط ١٩١٧ استنفرت الكوكبة وتوجهت إلى « بالاكليبيا » ولم يكن أحد يدري ماذا يحدث . واصطفت الكوكبة على الساحة قرب أركان الفوج إلى جانب القطعات الأخرى . وهنا وفد إلى الفرسان عمال يحملون رايات حمراء ، وارتفع صوت الخطباء : لقد تنازل نيقولاي الثاني عن العرش . والشعب بحاجة إلى السلام والأرض والإرادة . ودوت هتافات « اورا » لقد اندلعت الثورة !

وفي اليوم التالي اختير صف الضابط جوكوف رئيساً للجنة الجنود في الكوكبة . ودخل في قوام لجنة الفوج . واعتقل عدد من الضباط . وكثر القيل والقال والمشاحنات . ويعود المارشال جوكوف بذاكرته إلى تلك السنين ليقوّم إمكاناته في مواجهة نصف قرن من الزمان ويقول :

« لا يمكن الادعاء بأنني كنت حينذاك رجلاً واعياً من الناحية السياسية . كان كل من يحرص على أي شعار مطروح في ذلك الوقت في أوساط الجنود ، ليس من جانب البلاشفة فحسب بل والمناشفة والاشتراكيين الثوريين أيضاً ، يلقى اهتماماً كبيراً وأذناً صاغية . وبالطبع كان هناك إحساس عام حول الاتجاه المطلوب السير بموجبه . لكن في تلك اللحظة وفي سن الشبّاب كان من الممكن أن يحيد المرء عن سكة الصواب . وهذا أيضاً لم يكن مستبعداً . ومن يدري ما كان سيحصل لو لم أكن جندياً بل كنت ضابطاً ، لو أنني أنهيت مدرسة المرشحين وبرزت في المعارك ومنحت رتباً أخرى في سلك الضباط ثم اندلعت الثورة ، إلى أين كنت سأتوجه تحت وطأة الأوضاع التي كنت سأجد نفسي فيها ؟ ومن يدري فقد يكتب علي حينذاك أن أمضي بقية حياتي في المهجر . طبعاً لم يمض علي سوى سنة حتى غدوت رجلاً واعياً ، ورسمت الطريق لنفسي . وعرفت إلى أين أسير وفي سبيل أي شيء أقاتل . ولحسن الحظ لم أكن قد بلغت رتبة ضابط في بداية الثورة وإلا فلم يكن يعرف ماذا ستكون العاقبة . كما برز أشخاص إلى موقع المسؤولية من بين صفوف الشعب مثلما حصل معي ... » .

أقبل صيف ١٩١٧ الحافل بقضه وقضيضه ، والكوكبة لا تزال رابضة في « ليسكي » وساد الحماس كل مكان في القرى والمدن . وإذا علمنا الطبع الحاد لصف الضابط من « الدراغون » يسهل علينا أن نتصور كيف كانت تنتهي الأحاديث بينه وبين القوميين الذين كانوا يظهرون أحياناً في موقع القطعة . ووقفت اللجنة الخاصة بالجنود التي بدأت تسير بالنهج البلشفي ، موقف اللامبالي . وما إن حل خريف ١٩١٧ حتى قطعت عملية انحلال الجيش المسماة « التحويل الديمقراطي » شوطاً بعيداً . وأعلنت بعض القطعات أنها ستنحاز إلى صف « بتلورا » الذي برز اسمه ولم يعرف من أين ظهر .

أقنع جوكوف لجنة كوكبة الفرسان بصرف الجنود إلى بيوتهم . ولم يجد أمامه مخرجاً غير ذلك ، فقد ظهرت الشراسة في أعين القوميين حتى أنهم هددوا بالسلاح . وأكدت اللجنة للشبان الروس العائدين إلى بلادهم الواقعة في مقاطعتي موسكو وكالوغا بأن يحملوا معهم البنادق والذخيرة . وقامت مفارز الحماية في منطقة خاركوف بمصادرة السلاح . والظاهر أن جوكوف أصبح شخصية لامعة وأعاق بشدة أسلوب الذين يقفون على الحياد . وقام فرسان « الغايداماك » الأوكرانيون القوميون بالبحث عن هذا الصف ضابط المتمرد ، ولو استطاعوا القبض عليه لكان مصيره مظلماً .

بعد أن غدا جوكوف في مستوى عال من التدريب العسكري قرر عدم الدخول في نزاع مع العدو المتفوق عليه بالقوة والذي ازداد شراسة ، وأن يختفي عدة أيام تارة في « بالاكلييا » وتارة في « ليسكي » . لقد كان مروّعاً حتى الأعماق : فالذين كانوا في عداد العقلاء ما لبثوا أن انقلبوا إلى متعصبين متهورين ، يسيرون وراء الحمقى والمتشدقين . ونظر حوله فرأى القوميين في غلوائهم ، وسئم من فئة اللامبالين الواقفين على الحياد ، وإذا به يعود خفية إلى موسكو حيث أعلنت الثورة في (٣٠) تشرين الثاني ١٩١٧ ، وتبين له أن بيليخين ، الرجل البعيد النظر ، قد ألغي مؤسسته منذ العام الماضي ، وتفرق المعلمون كل في سبيله . وتجول غيورغي في المدينة متأملاً اللافتات الحمراء المتوهجة المليئة بشعارات السلطة السوفييتية الجديدة . وفي هذا الجو من البلبلة والضياع لم يجد جوكوف لنفسه مكاناً ، ورأى خيراً له أن يشد الرحال إلى قريته ستريلكوفكا .

كان أبوه (والفلاحون والقرويين) يعتبرون ، ولو ليس بالإجماع ، أن البلاشفة يعملون لصالح الشعب ، وما دام الأمر كذلك لا ضير في تقديم خدماته في المجال الذي درب عليه ، أي التطوع في الجيش . وحدد لنفسه إجازة شهرين ، وفي نهاية كانون الثاني ١٩١٨ عقد العزم على السفر إلى موسكو وتقديم طلب للتطوع في الجيش . ولم يبال غيورغي في أنه سمي بالجيش الأحمر . غير أنه أصيب بمرض التيفوس الطفحي ، وفي نيسان أصيب بنكسة وعاوده المرض . ولم يتماثل للشفاء إلا في صيف ١٩١٨ . وفي آب انخرط في صفوف الجيش الأحمر ، في فوج الخيالة الرابع من فرقة الخيالة المسكوفية الأولى التي كانت في بداية تكوينها أول تشكيل استراتيجي من الفرسان يدخل في قوام الجيش الأحمر . ويصعب اليوم إعطاء حكم فيما إذا كان من الضروري تقسيم سلاح الفرسان إلى مستوى محلي ومستوى استراتيجي . ومن الناحية النظرية كانت فرقة جوكوف معدة لتنفيذ المهام العملياتية لصالح الجيش والأسطول . ويفترض أن تعمل بصورة مستقلة في معزل عن القوات الصديقة .

حظيت فرقة الخيالة المسكوفية الأولى بعناية فائقة . لم يكن أفرادها بحاجة إلى إعادة تأهيل أو إكمال تدريب ، فقد انضم تحت لوائها صف ضباط وجنود جلهم من ذوي الخبرة الذي خدموا في عداد الجيش القديم . ولم يبق سوى التدريب السياسي الذي كان يأتي في المقام الأول من حيث الأهمية ، فقد هيأوهم ، علاوة على الأغراض الأخرى ، للانتساب إلى الحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) . وكانت كوكبة جوكوف تضم مجموعة من المتعاطفين — شيوعيي المستقبل . وكان جوكوف أحد أفرادها الخمسة . كانوا يتلقون التدريب على يد مفوض الفوج وسكرتير المكتب الحزبي وكانت الأحاديث تمتد أحياناً إلى منتصف الليل . ولم يكتفوا في استظهار منهاج وميثاق حزب العمال والفلاحين البلشفي (ح ع ف — ب) بل كانوا يتحدثون « عن الوضع الداخلي والدولي » وكيف وصل البلاشفة إلى السلطة .

كتب جوكوف في مذكراته : « في (١) آذار قبلت عضواً في « ح ع ف — ب » لقد نسيت الكثير منذ ذلك الوقت ، غير أن يوم قبولي عضواً في الحزب ترسخ في ذاكرتي مدى الحياة . ومنذئذ درجت على إخضاع كل أفكاري وجهودي وأعمالي بما يتلاءم والتزامات عضو الحزب ، وحينما وصل الأمر إلى حد الاشتباك مع أعداء الوطن ، كنت ، باعتباري شيوعياً ، أدرك متطلبات حزبنا بأن أكون مثالاً في التفاني لخدمة شعبي » .

انطلقت فرقة الخيالة المسكوفية الأولى في أيار ١٩١٩ إلى الجبهة الشرقية ضد « الكولتشاك » . وفي أتون الحرب الأهلية أصبح الجندي الأحمر جوكوف شيوعياً ، يقاتل من أجل حياة أفضل .

٢ — مدرسة اكتوبر

كانت عودة جوكوف من الجبهة نتيجة تفكك الجيش القيصري . وقررت الثورة المضادة الداخلية والدول الاستعمارية استغلال هذه اللحظة المناسبة لخنق الجمهوريات السوفييتية الناشئة . ففي الشمال نزلت القوات الأمريكية ، وفي الجنوب — الفرنسية والانكليزية ، وفي الشرق — اليابانية ، بينما كانت القوات الألمانية تهاجم من الغرب .

في هذا الحين شرع الحزب الشيوعي والدولة السوفييتية بتنفيذ المهمة الأولى — إنشاء الجيش الجديد ، جيش العمال والفلاحين .

كان جوكوف بين المتطوعين الأوائل في الجيش الأحمر . وقاتل في قوام قطعات الخيالة للجيش الأحمر على جبهات الحرب الأهلية ضد قوات الحرس الأبيض التي يقودها كولتشاك

ودينيكين وفرانغيل ومفارز الثورة المضادة التي يقودها انطونوف وأظهر غ . ك . جوكوف خلال هذه السنوات جرأة شخصية وموهبة قيادية ، متدرجاً من مقاتل فرد حتى قائد كوكبة خيالة .

ربما كان ذلك الزمان من أصعب السنوات التي مرت بها الجمهوريات السوفييتية الفتية ، كان هناك ست جبهات ، على امتداد ثمانية آلاف كيلو متر . سعى الأعداء إلى خنق الدولة الاشتراكية الناشئة بطوق حديدي . يكتب جوكوف فيما بعد في مجال تقدير ذلك الزمن العصيب : « لا يمكن أن نفهم كيف استطاع الجيش الأحمر أن يهزم العدو الذي يفوقه بالأسلحة ، إلا بعد أن نأخذ بعين الاعتبار تبصر القيادة الحزبية اللينينية للبلاد وفعاليتها والروح الثورية العالية والصفات المعنوية والسياسية الاستثنائية لقوات العمال والفلاحين المدافعين عن حرية واستقلال وطنهم الاشتراكي الجديد » .

من الخبرة القتالية الضخمة لفترة الحرب الأهلية ، أبرز جوكوف في مذكراته ثلاثة مبادئ مقررة في أساس بناء القوات المسلحة السوفييتية لسنوات طويلة .

أولاً ــ وحدة الجيش والشعب ، فقد أظهرت الحرب الأهلية بجلاء وحدة الجبهة والمؤخرة وتفوق البلاد العسكري تفوقاً كبيراً بعد أن تحولت إلى معسكر حربي موحد . وكان الأساس الموضوعي لهذه الوحدة هو النظام الاجتماعي لدولة العمال والفلاحين السوفييتية .. أما أساسها الذاتي فهو وحدة أهداف الجيش والشعب . فإذا كان الحراس البيض يضايقون السكان المحليين بكل السبل ولاسيما الفقراء منهم ، منتزعين منهم على وجه الخصوص آخر كسرة خبز ، أصبح جنود الجيش الأحمر ، على العكس منهم ، يقدمون العون الشامل إلى أفقر الفلاحين وإلى عائلات جنود الجيش الأحمر .

يتذكر غ . ك جوكوف في إحدى المرات ، قطعة الخيالة التي خدم فيها والتي عملت عدة أيام لإصلاح بيوت السكن والانشاءات العامة والأدوات الزراعية في القرية الفقيرة التي أقامت فيها هذه القطعة ثم يقول : « عندما انتهت جميع الأعمال ــ قام القوزاق بدعوتنا جميعاً إلى غداء رفاقي ، ودارت الأحاديث الودية أثناء الغداء ، ووجهوا لنا الشكر على العون المقدم » .

إذا كان جوكوف قد شارك في سنوات الحرب الأهلية بمساعدة السكان المحليين كعامل فرد فإنه نظم هذه المساعدة كقائد جبهة في سنوات الحرب الوطنية العظمى بقوى جبهته . وهكذا اتخذ المجلس الحربي لجبهة روسيا البيضاء ، بمبادأة من جوكوف ، قراراً « حول تدابير العون من جانب الجبهة لتجديد اقتصاد جمهورية روسيا البيضاء » . ومن جملة ما جاء فيه « إن المجلس الحربي للجبهة يلزم جميع الجيوش والفرق والمؤسسات بتقديم كل ما يمكن

تقديمه من المساعدات في موسم الزراعة الربيعي دون المساس بالنشاط القتالي للقوات. وينبغي استخدام كل جرار وكل حصان للقيام بالحراثة وبذر البذور إذا سمح الموقف .. والمجلس الحربي يهيب بالضباط الأمراء والضباط والأجهزة السياسية كافة بأن تشارك كل قطعة كبيرة وصغيرة - إذا لم تكن في الخط الأمامي ــ في هذا العمل الكبير : الحراسة ، البذر ، إصلاح الأدوات الزراعية ، أبنية الكولخوزات ــ المزارع التعاونية ــ وبعض البيوت التي تخص الأرامل واليتامى .. » .

حينما كان لا يزال هناك أكثر من عام لبلوغ نهاية الحرب والمعارك الدامية التي تتطلب أعباء جسدية ومعنوية هائلة ، كان الجيش يعيش بأفكار الشعب حول إصلاح الاقتصاد الوطني . إن مثل هذا الجيش لا يهزم ! فقد كتب الجنرال الإنكليزي نوكس إلى حكومته في سنوات الحرب الأهلية بأنه « يمكن التغلب على جيش يعد مليوناً من البلاشفة ، لكن عندما يكون ١٥٠ مليوناً من الروس لا يريدون البيض ، بل يريدون الحمر ، فإن مساعدة البيض تكون غير هادفة » .

ثانياً ــ الدور القيادي للحزب في المسائل العسكرية الصرفة . انطلاقاً من وجهة النظر الحربية يتمتع الدور القيادي للحزب الحاكم في البلاد ، حيث تسود فيها الملكية الجماعية لوسائل الانتاج ، بأهمية كبيرة . فبفضل ذلك يتأمن عند الضرورة تركيز قوى ووسائط الاقتصاد الشعبي على الاتجاهات الحربية الهامة بصورة لا مثيل لها ، وتتوفر الامكانية الاستثنائية للمناورة بالموارد المادية والبشرية الضخمة وتنفيذ سياسة عسكرية واحدة والوصول إلى إلزامية تنفيذ التوجيهات في مجال المسائل العسكرية للأفراد والجماعات .

أما فيما يتعلق بالعمل الحزبي ــ السياسي فبفضله تحقق العمل الواعي المخلص لقضية الثورة وقضية الحزب وقضية الشعب . فقد توجه الناس إلى الجيش والجبهة بهدف واحد وهو رفد منابع البطولة الجماعية .

نفذ الحزب سياسته في الجيش عن طريق المفوضين السياسيين والفروع السياسية التابعة للمجالس الحربية الثورية في الجيش والأسطول ، وعن طريق التنظيمات الحزبية في القطعات والوحدات . وفي الأول من أيار ١٩١٩ أصبح جوكوف شيوعياً أيضاً . وهنا يتذكر جوكوف تلك الفترة قائلاً : « ربما نسيت الكثير ، ماعدا اليوم الذي قبلت فيه عضواً في الحزب فهو سيمثل في الذاكرة طيلة الحياة . وحرصت منذ ذلك الحين على إخضاع جميع أفكاري ومساعي وأعمالي لعقيدتي الحزبية . وعندما وصلت إلى الصراع مع أعداء البلاد فهمت ، كشيوعي ، متطلبات حزبنا بأن أكون قدوة في خدمة شعبي بتفان » .

أما كيف خدم جوكوف شعبه عندئذ مدافعاً عن الجمهورية السوفييتية الفتية، فيتحدث أمر صدر بمناسبة تكريمه: «يمنح قائد الكوكبة الثانية من فوج الفرسان الأول من لواء الفرسان المستقل وسام الراية الحمراء نظراً لما أظهره في المعركة التي جرت في ٥ آذار ١٩٢١ عند قرية فيازوفايا بوتشتا من مقاطعة تامبوف، إذ تمكن مع كوكبته وبغض النظر عن هجمات عدو بقوة ١٥٠٠ ــ ٢٠٠٠ عسكري، من إيقاف الهجوم المعادي طيلة ٧ ساعات، ومن ثم الانتقال إلى الهجوم المعاكس. وقد تمكن من سحق فلول العصابة المعادية بعد ست معارك من قتال التلاحم».

وعلى مر السنين، غابت عن ذاكرته صعوبات الحرب الأهلية، التي كان عليه أن يجتازها مع الشعب كله. إلا أنه لن تمحى أبداً من ذاكرته أنهم اهتدوا أنئذ وفي سنوات الحرب الوطنية العظمى بالإيمان الراسخ بعدالة المبادئ التي نادى بها حزب لينين في أيام تشرين الأول ــ اكتوبر. وقد ضاعف هذا الإيمان من قوته وساعده على إيجاد مخارج للأوضاع التي بدت وكأن ليس لها مخرج، وأعان على تركيز عزيمته وبصيرته لتنفيذ المهام الأساسية أنئذ، كما أعطاه الحق كرئيس عسكري أن يطلب من مرؤوسيه التنفيذ الطوعي للواجب العسكري وأن لا يضنّوا بحياتهم في الدفاع عن مجد الوطن.

كتب جوكوف: «أن الكتب والدراسات الأجنبية التي ظهرت منذ نهاية الستينات وحتى هذا اليوم كثيراً ما تصف الشيوعيين والعاملين الحزبيين «كنخبة» أو كطبقة ذات امتيازات في مجتمعنا، ولعلي كرجل عسكري أرغب في أن يكون في أي بلد مثل هذه «النخبة» التي يكون ممثلوها على هذا القدر من التفاني والبطولة وأن يموتوا في سبيل الوطن ...».

ثالثاً ــ يلحظ جوكوف المركزية الصارمة والإمرة الوحيدة والانضباط الفولاذي كجزء من المبادئ الأساسية في بناء القوات المسلحة السوفييتية.

من خلال الكثير من الوثائق التأسيسية التي وقعت في مؤتمرات الحزب، واجتماعات اللجنة المركزية والعمل التطبيعي، خاض البلاشفة صراعاً عنيفاً ضد محاولات إحلال أشكال من تنظيمات الأنصار محل مبادئ بناء الجيش النظامي، والقيادة المركزية الموحدة في جميع مستويات الجيش والتقيد الصارم بالطاعة والانضباط. وقد فرضت الإمرة الوحيدة في الجيش الأحمر بتوافق دقيق مع الشروط التاريخية الواقعية، مع الأخذ بعين الاعتبار القوام الطبقي للكوادر القيادية ونضوجها السياسي وتدريبها العسكري ومراعاة استعداد الجماهير لتقبل هذا الشكل من القيادة أو ذاك.

كان جوكوف أول من عين آمراً مطلقاً لأحد الأفواج في الفرقة السابعة فرسان في شتاء العام ١٩٢٦ . قال قائد الفيلق س . ك تيموشنكو في حديث معه بهذه المناسبة « نحن نعرض عليك أن تأخذ على عاتقك بآن واحد واجبات قائد الفوج وواجبات مفوض الفوج أي أن تكون آمراً مطلقاً ، والقيادة والفرع السياسي يعتبرانك مؤهلاً لذلك » . وهكذا أصبح جوكوف آمراً مطلقاً مما وضع على عاتقه واجبات جديدة وزاد من مسؤوليته أمام الحزب والحكومة عن جميع نواحي الحياة في القطعة التي ائتمن عليها ، وللإشراف على التربية السياسية بصورة صحيحة يجب أن يكون القادة الأقدم أكثر ثقافة من مرؤوسيهم في هذا المضمار .

بعد أن أصبح جوكوف آمراً مطلقاً ، شعر ببعض جوانب ضعفه في مجال الثقافة السياسية إلا أنه لم يخجل أن يأخذ درساً من العاملين السياسيين الخبيرين .

يتذكر جوكوف قائلاً : « إن أمين سر المكتب السياسي ونائبي للشؤون السياسية كانا يساعداني في مجال العمل التنظيمي والايديولوجي ، ولم أشعر بأي حرج عندما كان عليهما أن يقدما لي النصيحة الطيبة في مجال التصحيح من الناحية الحزبية ، فقد كان من الطبيعي أن أرتكب بعض الأخطاء في بادئ الأمر ، وكانت هذه التصحيحات تؤخذ دائماً بعين الاعتبار .

مع فرض واجب الإطاعة المطلقة في الفوج ، كما ينوه جوكوف ، ترسخ الانضباط وارتفعت جاهزيته القتالية إلى حد كبير ، وكقائد ـــ آمر وحيد ـــ فهم جوكوف الدور الرائد التنظيمي للحزب في بناء قطعات الجيش الأحمر ونشاطه اليومي بشكل أعمق ، فهو كقائد كان صارماً لا يطيق أخطاء مرؤوسيه ، وكمرب كان يجد دائماً الوقت للتحدث مع المقاتلين ، مطلعاً على حياتهم ، مقدماً العون بالكلمات والأفعال ، وكقائد كان دائم الاعتناء بالتدريب القتالي ، وكمرب كان مهتماً بالحالة المعنوية ـــ السياسية لدى المرؤوسين .

منذ ذلك الزمن البعيد وحتى نهاية خدمته في القوات المسلحة ، كان جوكوف يعير انتباهاً متواصلاً لوحدة هذين العاملين الأساسيين ـــ التدريب القتالي والحالة المعنوية السياسية ـــ اللذين تشترطهما الجاهزية القتالية العالية للوحدة والقطعة والتشكيل التكتيكي والتشكيل العملياتي ، وفي آخر المطاف النجاح في المعركة والعملية .

كان جوكوف في أثناء عمله كرئيس في جميع المناصب ، سواء في سنوات ما قبل الحرب أو ما بعدها ، يستفهم فور وصوله إلى أية قطعة (تشكيل) عن الحالة السياسية ـــ المعنوية للقوات سواء لدى قائدها أو لدى نائب القائد للشؤون السياسية ، وكان يلاحظ أن

القطعات التي يتمتع فيها القائد ونائبه للشؤون السياسية باطلاع دقيق على مثل هذه المسائل ، كانت الوحدات التي في إمرتهما على مستوى عالٍ من الجاهزية القتالية .

وعن تقدير وحدة القيادة ودورها في بناء القوات المسلحة يكتب جوكوف : « إلى جانب الانضباط الفولاذي المبني على فهم المحاربين العميق وتنفيذهم الواعي لواجباتهم في الذود عن حياض الوطن ، تصبح وحدة القيادة لدى القائد ، المحور الذي تتضافر حوله عزيمة القوات ومعارفها وتوجهها » .

تتميز كل فترة من تطور الدولة السوفييتية بملامح جديدة وبمستوى أرفع في بناء القوات المسلحة وترسيخ جاهزيتها لصد العدوان ، وقد حظيت خبرة ومبادئ العمل العسكري المنبثقة من لهيب الحرب الأهلية وبمساهمة لينين الشخصية ، ولاسيما تلك التي لفتت انتباه جوكوف ، بتطور لاحق في سنوات الثلاثينات والأربعينات ، وأصبحت جزءاً من سطوة هذا الجيش الذي حطم الفاشية في الحرب العالمية الثانية .

٣ ـــ العلم العسكري السوفييتي

بعد الشروع بالبناء السلمي ، في أعقاب الانتصار البطولي في الحرب الأهلية ، واجه الشعب السوفييتي صعوبات هائلة في مجال تجديد الاقتصاد الوطني ، وتطلبت الحالة الحرجة للصناعة والزراعة والنقل تركيز جميع جهود البلاد على الجبهة الاقتصادية . وبآن واحد كان ينبغي الحفاظ على دفاع البلاد وتوطيده .

كان من الضروري في ظروف البناء السلمي لذلك الزمان وضع مذهب عسكري واحد وتعزيز الجيش الأحمر النظامي والنهوض بتدريب الكوادر الحربية والسياسية .

كان جوكوف في ذلك الوقت يقود فوج فرسان ، وله من العمر ٢٥ سنة ، منها ٨ سنوات قضاها في الحربين العالمية الأولى والأهلية ، اللتين أكسبتاه خبرة في العمل العسكري . كانت قيادة الفوج تعتبر دائماً أهم درجه في اتقان الفن الحربي .

الفوج هو القطعة القتالية الأساسية ، حيث ينظم من أجل المعركة التعاون لجميع صنوف القوات البرية . وعلى قائد الفوج أن يعرف جيداً وحداته وكذلك وسائط التعزيز التي تلحق بالفوج في الموقف القتالي ، كما يطلب منه أن يكون قادراً على انتقاء الاتجاه الرئيسي في القتال وتركيز الجهود الرئيسية عليه .

كان جوكوف قد أنهى في الجيش القيصري القديم دورة تدريب صف الضباط ، أما في الجيش الأحمر فقد أنهى دورات خيالة للقادة الحمر . لذلك كان يشعر بنفسه أنه أقوى في مجالات الممارسة مما هو في مسائل التنظير ، فقد أعطته سنوات الحرب خبرة غنية . كما عرف جيداً أصول التدريب القتالي ، وأولع به.. أما في مجال التنظير ، فقد قصر عن تلك المتطلبات التي قدمتها له الحياة كقائد فوج . كما نوّه في مذكراته : « من خلال التأمل توصلت إلى استنتاج : ألا أضيع الوقت وأن أتعلم بدأب » . وقد وجد الوقت لذلك بإضافة ٣ ــ ٤ ساعات إضافية على دوام يوم عمله من أجل الدراسة الفردية على حساب النوم وأوقات الراحة .

ترسخت المعارف التي استمدها جوكوف من المراجع في المشاريع والمناورات والحملات . وهكذا يتحسن التمرس القتالي للقائد مع جميع أفراد الفوج .

كان ينفذ التدريب القتالي النشيط في الميادين وحقول الرمي والمعسكرات . ويعطي انتباهاً خاصاً للتدريب التكتيكي الميداني للوحدات والقادة والأركان وللقطعة ككل . يكتب جوكوف : « من بين جميع المقررات الدراسية العسكرية كنت أحب التكتيك أكثر من غيره ، وكنت أشعر برضى تام عندما انكب عليه » .

ولاستخلاص الخبرات التكتيكية ، جرى في الفوج ، الذي كان يقوده جوكوف ، العديد من الدروس البيانية ودروس دور المدرب المنهجية في مجال التدريب على الاستطلاع وتنظيم المعركة والتعاون مع وسائط الصراع الفنية . كما كانت تولى عناية كبيرة للتربية البدنية والرياضية . وقد أحس قائد الفوج ، كجندي محنك قبل غيره ، بأن المقاتلين المستعدين الأقوياء هم فقط القادرون على تحمل أعباء الحرب القاسية ، وأن نجاح القطعة ككل يتعلق بالتدريب الفردي لكل مقاتل . كان جوكوف عند تنظيم التدريب القتالي للفوج يهتدي بوصية سوفوروف دائماً : « كلما كان التدريب صعباً كان القتال سهلاً » . ويكتب في مذكراته : « الجيش كما هو معروف أداة الحرب ، وهو موجود للصراع المسلح ضد أعداء الوطن ، ويجب أن يعد من الناحية التكتيكية قبل كل شيء من أجل هذا الصراع وإلا فيكون مضطراً إلى استكمال تعليمه في سنوات المعارك مما يكبده خسائر كبيرة » .

تعتبر مشاريع ومناورات القوات تتويجاً للتدريب التكتيكي ككل في القطعات كما هو معروف . ومن أجل جميع المشاريع التي كانت تجري سنوياً ، كان جوكوف يعد نفسه ويعد أيضاً الفوج الذي في عهدته بعناية . وليس عجباً أن الأوامر كانت تنوه بامتياز فوجه بالتدريب القتالي الراقي . تميز جوكوف في هذه الفترة بالتفكير المبدع والتقدير السريع للموقف

وبالقدرة على إيجاد القرارات الأمثل لتنفيذ المهام المسندة للفوج . ففي بعض الحالات ينفذ المناورة الحثيثة من أجل الضربة المفاجئة إلى « جانب العدو » ، وفي حالات أخرى ، دون أن يضيع الوقت بتعريف القادة بالموقف وشرح المهمة القتالية ، يعمد إلى تنظيم دفع قطعات الفوج بسرعة للاستيلاء على الخط المناسب قبل « العدو » . كما كان يعرف دائماً كيف يركز القوى الرئيسية للفوج على الاتجاهات الحاسمة .

كان جوكوف في تدريبه العملياتي ـــ التكتيكي يوازي القادة الأقدم وأبطال الحرب الأهلية ف . ك . بلوخر ، م . أ . توخاتشيفسكي ، غ . د . غاي ، فقد تعلم منهم وأخذ من خبرتهم القتالية الغنية . كان قائد الفرقة « غاي » يرقب بانتباه نمو قائد الفوج الشاب ، إذ رأى فيه صفات الرئيس العسكري ، ولذلك قال له ذات مرة : « إن العمل الحربي لا يقف في مكانه ، والقادة العسكريون لدينا بحاجة إلى معرفة جذرية أكثر في دراسة المسائل العسكرية . لذلك فأنا أعتقد بأن عليك أن تذهب في الخريف إلى مدرسة الفرسان العليا . وسيكون ذلك مفيداً جداً من أجل نشاطك المستقبلي » .

تلقى التعليم مع جوكوف في تلك الدورة آنئذ كل من ك . ك . روكاسوفسكي ، ي . خ . بغرميان ، آ . ا . يريمينكو وغيرهم ، وأصبحوا فيما بعد قادة مشهورين . وكانت أعباء التعليم كبيرة جداً ، إذ كان يجب الانكباب فترة طويلة على التحضير الذاتي بعد المحاضرات . . .

بعد أن عاد جوكوف إلى الفرقة بقوة جديدة ومعارف حديثة ، شرع بالتدريب القتالي للفوج . وقد كتب يقول : « بعد انتهاء الدورة أصبح العمل علي أسهل ، وشعرت بالثقة والاستقلالية عند معالجة مسائل التدريب القتالي والسياسي وقيادة الفوج » .

قاد جوكوف فوج الفرسان سبعة أعوام تقريباً ، وكان له بمثابة المدرسة العسكرية الجيدة . فبالإضافة إلى الممارسة الحربية الفنية ، حاز خلال هذه الفترة على تدريب نظري وعملياتي ـــ تكتيكي كبير من خلال مشاركته بمناورات المنطقة العسكرية ومناورات الفرقة والفيلق والمعسكرات الحربية . وفي هذه الفترة بالذات أرسى حجر الأساس كقائد مستقبلي شهير . « إن القائد الذي يستوعب جيداً نظام قيادة الفوج ويصبح قادراً على تأمين جاهزيته القتالية يكون دوماً رئيساً عسكرياً طليعياً في جميع الدرجات القيادية اللاحقة سواء زمن السلم أو الحرب » ـــ هذا ما كتبه فيما بعد جوكوف مقدراً دور قيادة الفوج وتأهيل الرئيس العسكري .

لاحظت قيادة الجيش الأحمر نجاح جوكوف في العمل العسكري كقائد أكثر تأهيلاً وسعة أفق. وأوفد في نهاية ١٩٢٩ إلى موسكو لاتباع دورة لتحسين قادة المستوى الأعلى. ونفذت الدورة على مستوى رفيع جداً. نوقشت جميع المحاضرات والتقارير المتعلقة بمسائل العلم العسكري على أساس أمثلة من الحرب الأولى والحرب الأهلية. وكان جميع المدرسين من كبار الاختصاصيين في مجال التكتيك وفن العمليات على حد سواء. تمتع جميع الدارسين في الدورة بالتنظير الحربي، وتلقفوا الكتب الجديدة، وجمعوا كل ما أمكن جمعه من المراجع التي تتعلق بالمسائل العسكرية لاصطحابها معهم إلى القطعة. ففي ذلك الوقت تبلور العلم العسكري السوفييتي.

كان جوكوف يرى أن لينين بفضل تبصره الذي فطر عليه كشخصية سياسية وعسكرية عظيمة، قد توقع حتمية الهجمة المعاكسة المسلحة من جانب الرجعية الداخلية والعالمية ضد الثورة الاشتراكية في روسيا قبل انتصارها بزمن كبير. يعتبر لينين منشئ البرنامج العسكري للثورة البروليتارية، ومؤسس العلم العسكري السوفييتي.

إن المكانة المرموقة التي تحققت للعلم العسكري السوفييتي مدينة لأعمال م. ف. فرونزة التي درسها جوكوف بعناية. وقد ساعدت أعمال فرونزة على تطوير المسائل المتعلقة بتناسب الانسان والعتاد في الحرب المقبلة وبطبيعة هذه الحرب، وبتناسق التطور لدى أنواع القوات المسلحة كافة ودور المؤخرة والجبهة. ودافع فرونزة عن ضرورة وضع مذهب عسكري واحد يحدد طبيعة بناء القوات المسلحة وأساليب التدريب القتالي للقوات وممارستها على أساس وجهات النظر السائدة في الدولة وطبيعة وأساليب حل المهام الحربية. عمل على تعميم خبرة الحرب الأهلية بعمق، وتطوير الأحكام التي أدرجت فيما بعد في أساس الأنظمة العامة والاختصاصية التي بدونها لا يمكن لأي جيش أن ينهض.

بدأ جوكوف أثناء فترة تدريبه في الدورة، بنشر أعمال أحد المنظرين الحربيين الموهوبين السوفييت م. ن. توخاتشيفسكي. إذ تضمنت أعماله الكثير من الأفكار التي تتصف بالفطنة حول طبيعة الحرب المقبلة وتعليل الأفكار الجديدة في التكتيك والاستراتيجية وفن العمليات، كما أبرزت الصلة الوثيقة بين مبادئ البناء العسكري وممارسته من جهة والنظام الاجتماعي والقاعدة الانتاجية للبلاد من جهة أخرى.

تمخضت المناقشات الحادة بين الدارسين في الدورة عن الكتاب الذي وضعه نائب رئيس أركان الجيش الأحمر ف. ك. ترياندا فيلوفا «طبيعة عمليات الجيوش الحديثة». يتناول الكتاب وجهات نظر جريئة وعميقة حول حالة ومستقبل تطور جيوش ذلك الزمان. ويعلل

السبل الأساسية والتجهيز الفني والتنظيم . ويبحث مشاكل الفن العملياتي ومعطيات الإمكانيات الهجومية والدفاعية للفرقة والفيلق والجيش ومجموعة الجيوش ، كما يستعرض مسائل مدة العملية وعمقها وعرض جبهة الهجوم والعمليات الدفاعية ... الخ .

استوعب جوكوف مع الدارسين الآخرين في الدورة ، أحكام العلم العسكري السوفييتي ودرس المواضيع العملياتية ــ التكتيكية والاختصاصية الهامة ، وعرف نماذج الأعتدة والأسلحة الحديثة التي زود بها الجيش الأحمر .

ساعدت الدراسة في الدورة على توسيع الفكر عند جوكوف وإغناء معارفه العسكرية وإعداده النظري . لم يساعد مستوى التدريب النظري والعملي جوكوف على استخدام أحكام الأنظمة بصورة مبدعة فحسب ، بل على الاهتمام بمسائل وضع التنظير الحربي وممارسته أيضاً . بدأ جوكوف محاولاته الأولى في هذا المجال عندما عمل في هيئة تفتيش خيالة الجيش الأحمر في مجال الإشراف على التدريب القتالي .

علاوة على تفتيش القطعات كانت إدارة التدريب القتالي تقوم بتنفيذ مشاريع قيادة وأركان ولعب الحرب والمشاريع الميدانية ودورات ودروس مختلفة لتبادل الخبرة الطليعية في مجال التدريب القتالي للقوات ، ووضع الأنظمة العامة والاختصاصية لصنوف القوات وخدماتها . كما أعطيت لوضع أنظمة الجيش والارتقاء بها أهمية بالغة ، إذ رسخت هذه الأنظمة ثمار العلم العسكري على أساس المستوى الحديث لتطور الأعتدة والأسلحة وتنظيم القوات ووجهات النظر حول طبيعة الحرب والعمليات . شارك جوكوف أثناء عمله في هيئة تفتيش الخيالة في تعليل التنظيم الجديد لقطعات وتشكيلات الخيالة ومنظومات الأسلحة وطرائق خوض القتال . وكانت إعادة التنظيم هذه ترمي إلى زيادة القدرة النارية للخيالة ، مما يؤمن الاستقلالية لتشكيلات الفرسان عند خرق دفاع العدو ، وقد وضعت أنظمة القتال الجديدة القائمة على الأحكام المتعلقة بخوض العملية العميقة والمعركة العميقة ، وذلك بالعلاقة مع مفهوم التنظيم الجديد لبنية الفرسان .

لم يتطور العلم العسكري السوفييتي على أساس وسائط الصراع الموجودة آنئذ فحسب ، بل على أساس الوسائط المستقبلية أيضاً . وبفضل تبصر هذا العلم ، ظهر في الاتحاد السوفييتي بالذات نظرية العملية والمعركة العميقة ، التي حافظت على أهميتها حتى يومنا هذا .

تميزت العملية العميقة على وجه العموم ، حسب تصورات التنظير الحربي السوفييتي ، بالاستخدام الكثيف للدبابات والطيران والمدفعية والانزالات الجوية . انحصرت المهمة الأولى

للعملية بتحطيم جبهة العدو بضربة على كامل عمقها التكتيكي. والمهمة الثانية ـــ بالزج الفوري للقوات الميكانيكية في الخرق، والتي يجب أن تهاجم بالتعاون مع الطيران على كامل عمق الدفاع العملياتي للعدو حتى دحر تجميعه بالكامل، حيث كانت تلحظ عندئذ أعمال حاسمة على جبهات تجميعات العدو ومؤخرتها بهدف تطويقها وتدميرها.

لما كان جوكوف المساهم المباشر بوضع هذه النظرية ومنعكساتها في أنظمة القتال العامة والاختصاصية، فقد فهم وأدرك بعمق المنظور المستقبلي لأحكامها الأساسية. وقد عمل فيما بعد إبان الحرب العالمية الثانية على تطوير أحكام العلم العسكري هذه بتعديلها حسب العتاد الجديد والسلاح الجديد والإمكانيات الجديدة للتشكيلات، ناهيك عن العلاقة مع مستوى القدرة القتالية للعدو المقابل.

عند استعراض العمليات التي نفذت تحت إشراف جوكوف، تشعر ببصماته على هذه المبادئ الأولى للعملية العميقة: خرق الدفاع على قطاع ضيق من الجبهة على كامل العمق التكتيكي، زج التشكيلات المتحركة على هذا القطاع، المناورة الحثيثة لتطويق القوى الرئيسية للعدو في العمق العملياتي.



الفصل الثاني

المراحل المشهورة

« ... على نهر خالخين غول ، كانت بداية طريق القائد
اللامع غيورغي كونستانتينوفيتش جوكوف » .
(مارشال الاتحاد السوفييتي ف . غ . كوليكوف)

بالرغم من فشل المحاولات العديدة التي قامت بها الثورة المضادة والدخلاء لخنق الدولة الاشتراكية الفتية كان جوكوف القائد الشاب واثقاً من أن الموقف الدولي المتناقض الصعب لن يعطي البلاد السوفييتية سوى فترة هدوء قصيرة . فأعداء الاشتراكية يسعون حقاً للانتقام من الهزيمة التي لحقت بهم في سنوات التدخل والحرب الأهلية . وما دامت المسألة على هذا الشكل ، فيجب الاستعداد لمعارك جديدة ، ومن واجبه أن يحضر لذلك القطعة التي في عهدته . وأن يتذكر دوماً أن الحياة لا تقف في مكانها . ففيها تتغير أساليب ووسائط الصراع المسلح .

تقدم قائد المستقبل في مراتب الخدمة : في سنوات ١٩٣٣ ـــ ١٩٣٦ رُفع إلى رتبة قائد فرقة ، في العام ١٩٣٧ قائد فيلق ، وبعد عام ـــ نائب قائد منطقة عسكرية . وفي صيف العام ١٩٣٩ تراه ، وهو على رأس مجموعة جيش ، يلحق هزيمة ساحقة بالجيش الياباني في سهول منغوليا . ثم بعد سنة ونصف يقود قوات منطقة كييف العسكرية ، واعتباراً من شباط العام ١٩٤١ يصبح رئيساً للأركان العامة .

في الوقت نفسه كان مواظباً على الدراسة . ففي العام ١٩٢٥ التحق بدورة تحسين لقادة الفرسان . وفي سنة ١٩٣٠ اتبع دورة أكاديمية لتدريب قادة المستوى الأعلى . إلا أن الدراسة الأعمق تمثلت بالعمل الذاتي . إن مثابرته في التعرف على أسس الفن الحربي قد أدهشت كل زملائه . قال المارشال بغراميان في معرض تذكره : « لقد تميز من بيننا جميعاً ليس بالإرادة الفولاذية لبلوغ الهدف المنشود فحسب ، بل بأصالة التفكير أيضاً . إذ كثيراً ما يأتي

بمفاجأة ما أثناء الدروس. كان قراره مثيراً للجدل الكثير دائماً، غير أنه كان يستطيع أن يدافع عنه بمنطق نادر. ولمعرفتي الجيدة بقدراته لم أكن لأفاجأ بسرعة ترقيته حتى بالنسبة لتلك السنوات من المهنة العسكرية. وخلافاً لبعض الرؤساء العسكريين الآخرين في زمن ما قبل الحرب، كان جوكوف يتمتع، ليس بالنبوغ العسكري فقط والذي بدونه لا يمكن لأحد في سنوات محن الحرب أن يصبح قائداً بارزاً، بل بطبيعة قاسية لا ترحم الناس عديمي الضمير أيضاً... زد على ذلك صفة أخرى لجوكوف لفتت نظري، فهو لا يحب أبداً اتباع الخطوة البطيئة والأسلوب الحذر عندما يريد الحصول على أي شيء، بل يمشي ثابت الخطوة على خط مستقيم».

١ ـ من قائد فرقة إلى نائب قائد منطقة عسكرية

إن العمل في إدارة التدريب القتالي للجيش الأحمر علم جوكوف الكثير ووسع أفقه العملياتي التكتيكي، وطور مقياس تفكيره. إلا أن جوكوف كقائد ميداني، كان يصبو دائماً للعمل في القوات والممارسة العملية. لهذا تلقى بسرور نبأ ترشيحه لتولي قيادة فرقة فرسان.

كانت الفرقة قد غيرت إقامتها، قبل أن يتولى قيادتها جوكوف بفترة قصيرة، إلى مكان جديد، فكان عليها أن تبني بنفسها الثكنات والأركانات وبيوت السكن والمستودعات والقاعدة التدريبية بالكامل. سعى جوكوف منذ الأيام الأولى لقيادته الفرقة، لإيجاد سبل الخروج من الوضع الناشئ.

أوحت إليه خبرة القائد الغنية بأنه من دون معرفة الناس ونقاط قوتهم وضعفهم، ومن دون معرفة خصائص الرؤساء، لا يمكن قيادة القوات بنجاح، ولا سيما في تشكيل كبير من الجند. وبدأ قائد الفرقة الجديد من النقاط التالية بالذات: الدراسة العميقة لعناصر القيادة في الفرقة، دراسة الموقف في القطعات والوحدات مباشرة، تحديد النقائص وأسباب ظهورها.

بعد العمل الجاد ضمن صفوف قطعات ووحدات الفرقة عرف جوكوف أن انحطاط المستوى لا يعود إلى الأسباب الموضوعية التي تتعلق بالبناء فقط، بل إلى سوء إدارة القطعات أيضاً. فقد كانت الرقابة على سير التدريب القتالي سيئة، مما جعل الدروس تتوقف. زد على ذلك عدم المطالبة بتنفيذ الأوامر، وعدم دراسة الخبرة الطليعية للتدرب القتالي وتعميمها ونشرها. فكل قطعة كانت «تطهي بمرقتها»، فتجد قطعة قد «اكتشفت» أساليب أكثر

تحسيناً لهذا النوع من التدريب أو ذاك ، بينما قطعة أخرى تستخدم مثل هذه الأساليب منذ زمن بعيد .

حدد غ . ك . جوكوف سبل تصحيح الأوضاع في الفرقة بعد استخلاص النتائج ومناقشتها مع الهيئة القيادية في الفرقة . فرأى أن الاتجاه الرئيسي ينحصر بالتنظيم الفوري للتدريب القتالي المخطط ، أما البناء والأعمال الإدارية فيقع تنفيذها في الأيام التي تحددها الخطة .

في مجال التدريب القتالي ركز جوكوف الجهود الأساسية في مجال التدريب المنهجي لمستويات الهيئة القيادية كافة ، وتدريب القادة على إدارة القطعات والوحدات . وهكذا رأى قائد الفرقة شروط الارتقاء بالتدريب القتالي للتشكيل ، إذ لا يمكن توقع النتائج الإيجابية إلا عندما تنفذ الدروس على أرفع مستوى وبنجاعة عالية . وفيما يتعلق بالتدريب الفردي للهيئة القيادية ، ركز الانتباه الأساسي على تدريبها التكتيكي . ويعلل جوكوف قراره قائلاً « أقنعتني الخبرة والممارسة الطويلة ، بأن القادة المؤهلين تكتيكياً فقط هم القادرون على تدريب القطعة المقاتلة زمن السلم ، وعلى القيام بأعمال ظافرة بأقل ضحايا زمن الحرب » .

كان جوكوف يخطط القسم الأكبر من وقت التدريب لإجراء التمارين الميدانية حيث تعالج تفصيلياً مسائل تنظيم وخوض المعركة في الشروط الصعبة .

استفادت الهيئة القيادية في الفرقة من التحركات السريعة الحثيثة في قاعدة الانطلاق ومن الظروف الصعبة التي كانت توضع فيها حسب موقف معين .

ساعد جوكوف القادة على إتقان فن قيادة القطعات في المعركة المتصفة بالحركية الشديدة .

هنا اعتبر قائد الفرقة إتقان فن القيادة في ظروف الأعمال المفاجئة التصادمية إحدى المهام الرئيسية في إعداد القيادة والأركانات . تطلب ذلك الإقلاع عن اتباع أسلوب القيادة المألوفة بواسطة الأوامر المكتوبة والهواتف وكل ما له علاقة بمد خطوط الاتصال السلكية . وقد طلب جوكوف من القادة الانتقال الحتمي إلى القيادة لا سلكياً ، والتي بموجبها تعطى تعليمات القتال شفهياً . مما يجعل شخصية قائد الفرقة ونغمة صوته جلية .

وهكذا عندما نفذ مشروع تحت إشراف قائد المنطقة العسكرية بموضوع « المعركة التصادمية لفرقة مشاة مع فرقة فرسان » ، أعطى جوكوف بعد اتخاذ القرارات ـــ دون إضاعة للوقت ـــ أوامر قصيرة إلى قطعات الفرقة باللاسلكي . كما أرسل نائبه ورئيس قسم العمليات

إلى الأفواج من أجل تنفيذ الأمر بجميع تفاصيله وتقديم العون في تنظيم المعركة . وقام قائد الفرقة شخصياً بإسناد المهمة للقوى الرئيسية المكلفة بالالتفاف من الجانب حول تجميع « العدو » ومهاجمته من المؤخرة .

ساعدت مثل هذه البراعة في إسناد المهمة إلى قطعات ووحدات الفرقة على اختصار زمن تنظيم المعركة إلى حد كبير ، وفي سبق « العدو » بالانتشار وتوجيه الضربات ، وهو ما يضمن النجاح في المعركة التصادمية .

لما كانت الخيالة الصنف الأكثر حركية في القوات البرية حينذاك ، فقد كانت تكلف بالالتفاف والإحاطة بسرعة وتوجيه الضربات إلى جوانب العدو ومؤخرته . وانطلاقاً من ذلك كانت تجري في الفرقة ، على وجه العموم ، معالجة مواضيع هجومية .

كان جوكوف يطالب قطعات الفرقة في جميع المشاريع بالاندفاع إلى الانتشار بتراتيب القتال ، وسرعة فتح النار على العدو ، والوثبات الجريئة للقوى الرئيسية نحو مناطق الانطلاق لمهاجمة العدو والمثابرة على مطاردة فلوله المنسحبة .

كان قائد الفرقة ، عند إجراء المشاريع للقطعات ، يحرص على خلق مواقف صعبة ، كي يعلم الهيئة القيادية والجند ويكسبهم الخبرات من أجل الخروج بشرف من أي موقف عصيب .

ما هي التدابير التي اتخذها جوكوف من أجل ذلك ؟

كانت فكرة المشروع تحاط عادة بسرية تامة . كان الفوج المتدرب يستنفر بإشارة إنذار ، وتحدد له منطقة التحشد ، حيث كانت قيادة الفوج تتلقى الموقف التكتيكي وأمر القتال للقيام بمسيرة عبر مناطق صعبة الاجتياز ومن ثم خوض الأعمال القتالية . وكان يعطي أثناء ذلك انتباهاً خاصاً لإخفاء أعمال القطعات والوحدات بعناية بغية تأمين المفاجأة في توجيه ضربة إلى « العدو » .

كانت مثل هذه المشاريع ثقيلة الوطأة من الناحية الجسمانية إلى حد كبير . فقد كان الجند ينهارون من التعب أحياناً بسبب قلة النوم والتغذية . إلا أن كل ذلك كان للجند والقادة بمثابة السقاية للفولاذ ، فقد تعلموا عدم الخوف من الصعوبات ، والبحث عن حلول وقرارات جريئة لبلوغ الأهداف الموضوعة .

أمضى جوكوف أكثر من أربع سنوات في وظيفة قائد فرقة وعاش هذه السنوات بفكرة واحدة : أن يجعل الفرقة التي في عهدته من أفضل تشكيلات الجيش الأحمر ، بل التشكيل

الأول . جرى تكريس الكثير من الجهد والطاقة لسد الثغرات التي اكتشفها في تدريب الفرقة ، وتعليم الكوادر القيادية والأركان فن التكتيك الحديث والتنظيم وأساليب قيادة وحدات وقطعات الفرقة . ويتذكر تلك السنوات السعيدة التي كان يلمس فيها كل شهر وكل سنة تحسن دلائل الانضباط والتدريب القتالي والخدمة وتنظيم قطعات ووحدات الفرقة . منح جوكوف أعلى وسام حكومي ــ وسام لينين من أجل النجاح الذي تحقق في مجال التدريب القتالي في القوات . إلا أن المكافأة الأكبر لقاء عمله كان التنويه بأن نشاطه كقائد قد حقق فائدة محسوسة للوطن .

أولى جوكوف عناية كبيرة لاستيعاب العتاد الجديد . ففي هذه الفترة كانت بداية إنشاء القطعات والتشكيلات الميكانيكية الأولى في الجيش الأحمر . وأصبح لديه قطعة ميكانيكية في فرقته . إلا أن استيعاب العتاد الجديد ، ولاسيما استخدامه في القتال ، لم يكن يسير دائماً بنجاح . وذلك بسبب المستوى الثقافي غير الكافي لدى الكثير من الجنود والقادة مما أدى في كثير من الأحيان إلى وقوع حوادث وأعطال فنية ، زد على ذلك عدم كفاية الكوادر الفنية . فتعالت الأصوات المتشائمة ، وظهر بعض انعدام الثقة بالعتاد .

وضع جوكوف حداً لمثل هذه الآراء ، لقناعته بوجود آفاق كبيرة لاستخدام القطعات الميكانيكية في المعركة الحديثة . كما تلّمس مزاياها في سرعة الالتفاف والإحاطة والانتشار في تراتيب القتال وفتح النار وأعمال المناورة الواسعة في العمق العملياتي ــ التكتيكي للعدو . لذلك كان يطالب المقاتلين والقادة بأن يتقنوا معرفة العتاد القتالي والسياقة وفتح النار من أسلحة المدرعات . استمع إلى ما كتبه جوكوف « كان من الواضح بأن المستقبل سيكون من نصيب الدبابات والتشكيلات الميكانيكية إلى حد كبير ، لذلك استوعبنا بالتفصيل مسائل التعاون مع قوات الدبابات وتنظيم الدفاع المضاد للدبابات سواء في المعركة أو العملية » .

حينما عين جوكوف قائد فيلق فرسان كان عليه أن يهتم بالمسائل العملياتية لاستخدام تشكيلات الخيالة ــ الميكانيكية . فانكب على دراسة المسائل العملياتية الاستراتيجية ، لشعوره بالتقصير في هذا المجال . فالأمر واضح إذ أنه يعرف حق المعرفة بأن على قائد الفيلق الحديث أن يعلم الكثير . لذلك واظب على دراسة العلوم العسكرية الحديثة بجد .

من دراسة الخبرات التاريخية للحروب الماضية والمراجع الكلاسيكية المتعلقة بفن الحرب والمذكرات المختلفة ، خرج باستنتاجات عن الطبيعة المحتملة للحرب الحديثة . سعى جوكوف إلى تنفيذ جميع مواضيعه النظرية في أثناء التدريب القتالي للقوات . فكان يضع

الوظائف العملياتية ــ التكتيكية بنفسه عند تنفيذ لعبة الحرب ومشاريع القيادة والأركان ومشاريع القوات على مستوى الفرقة والفيلق.

ومن خلال تنفيذ مثل هذه المشاريع، نمت خبراته في مجال التطور العملياتي ــ الاستراتيجي، كما طالب مرؤوسيه بالحرص الدائم على استيعاب الاستراتيجية والتكتيك ومسائل العلم العسكري كافة. قال جوكوف في معرض تقديره لعمله بوظيفة قائد فيلق: «كنت أشعر بعد كل مشروع كهذا، بأنني أزداد معرفة وخبرة أكثر فأكثر، وكان ذلك ضرورياً جداً ليس من أجل ارتقائي الذاتي فحسب، بل من أجل ارتقاء الكوادر الفنية التي في عهدتي أيضاً».

انفتحت أمامه منظورات مستقبلية أيضاً لاستيعاب المسائل العملياتية ــ الاستراتيجية المتعلقة بخوض العمليات عند تعيينه بوظيفة نائب قائد المنطقة العسكرية في روسيا البيضاء. إذ مارس هنا إدارة التدريب القتالي لقطعات وتشكيلات الفرسان والدبابات المكلفة بالعمل المشترك ضمن خطة عملياتية واحدة.

وشارك أيضاً في حل المسائل التي كانت تعتبر في ذلك الوقت من المعضلات الكبيرة. كان إنشاء التشكيلات الميكانيكية السوفييتية وتجربتها العملية بمثابة قاعدة جيدة لصالح تطوير نظرية الاستخدام الواسع للقوات الميكانيكية لاحقاً، تلك القوات التي لعبت دوراً بارزاً في سنوات الحرب الوطنية العظمى.

لم تتأخر المكافآت، فقد منحت فرقته وسام لينين وحصل هو على الوسام ذاته كما أعطيت الجوائز الحكومية لكثير من القادة والأفراد. وبعد ذلك استمر التدريب في سباق مع الزمن فعولجت مواضيع التعاون مع الصنوف الأخرى من القوات. وعملت الخيّالة جنباً إلى جنب مع الدبابات، وحلقت الطائرات أكثر وأكثر في الجو. ومما أثلج صدر جوكوف إعادة تسمية الفرقة في نيسان ١٩٣٦ إلى فرقة الدون (٤) القوزاقية. وأخيراً أعيد الاعتبار لكلمة «قوزاق» وكانت مفاجأة للجميع حين ارتدت الفرقة زياً قوقازياً خيط لها خصيصاً: زين السروال بشريط أحمر عريض، والقبعة بإكليل من الزهور كاد أن ينسى، وبالنسبة للشباب جعل للقبعة ناصية من تحتها، وكان جوكوف أول من لبسها على طريقته الخاصة، نازلة في الرأس بحيث تصل إلى العينين. ورأى نفسه في المرآة فارساً قوزاقياً مقداماً.

أظهرت الفرقة في أول مشروع نفذته على مستوى المنطقة عام ١٩٣٦ أنها ند للقوزاق. وقد جرى المشروع في منطقة نهر بيريزينا مع اشتراك العديد من قطعات وتشكيلات منطقة بيلوروسيا العسكرية. وكان مفوض الشعب فوروشيلوف ومعه رئيس

الأركان يغوروف، ترافقهما حاشية كبيرة من قادة موسكو، يتابعون بعيون مفتحة سير «المعركة» المليئة بالمواقف الحساسة. وتعالى ضجيج محركات الدبابات وعبرت الدبابات ب ت — ٥ نهر بيريزينا في أعماق تتجاوز ارتفاع الدبابة ذاتها. وتعالت أصوات المحركات في الجو فقد قذفت قوات إنزال ضخمة وتعاون قوزاق جوكوف ببراعة مع القطعات الميكانيكية. وقد رسخت في المناورات المهارات المكتسبة في عدد من المشاريع المنفذة قبل المناورة.

تألقت فرقة الدون (٤) خيالة بشكل خاص بعد أن أظهرت براعتها في تطويق قطعات العدو الوهمي. ولم يبخل مفوض الشعب، أثناء النقد، بكلمات الإطراء لهذه الفرقة في المجالات كافة. وبعد انتهاء المشاريع على مستوى المنطقة جرى عرض تذكاري للقوات وبدأ فوروشيلوف بالاستعراض من فرقة جوكوف وحيا بحرارة ورثة المجد العسكري للفرقة — ١ خيالة. ولقد كان من الصعب انتزاع إعجاب قادة الخيالة في ذلك الحين، لكن جوكوف فعل. فقد استمال بطريقة ما اوبوريفتش، المعروف بعناده، إلى تسيير الفرقة ليس خبباً بل جرياً في أرض المشروع. ووافق على ذلك، وبعدها لم يكن بالإمكان التراجع عن هذا القرار.

كان قائد الفرقة، في كل خطوة يخطوها، يضرب المثل كيف يجب أن يكون القائد. ففي عام ١٩٣٦ أقلع بالمرة عن التدخين: «ذات يوم تناولت علبة السجائر وعلى الفور دعكتها بيدي ورميتها ولم أعد أدخن في الحرب ولا بعدها، في أحلك الأيام ولا سيجارة واحدة. بالرغم من أنني كنت تواقاً لها». هكذا يشاطرنا المارشال بإباء ذكرياته عن تلك السنوات البعيدة. لا غرو فإن قوة إرادته لا يشك فيها أحد، إلا أن غيورغي كونستانتينوفتش أقلع عن التدخين لسبب خطير جداً، فقد كان يكابد مرض الحمى المالطية وبذل الأطباء جهدهم في الحفاظ على صحة جوكوف، وأضافوا بأنه إذا أراد الشفاء الكامل لا بدّ له من الإقلاع عن التدخين نهائياً. ولم يعد أحد يرى جوكوف يدخن حتى في أوقات التسلية. وبالفعل لم يدخن طيلة حياته.

انطوت الأيام في أسابيع، والأسابيع في شهور، والشهور في سنين، ومع دوران عجلة الخدمة العسكرية تلقى الجيش الأحمر أحدث العتاد الحربي وبادر الجنود والقادة إلى إتقانه. وكان جوكوف يعتبر: «يمكن أن أقول، وأنا مرتاح الضمير، إن القادة والعاملين السياسيين لم يدخروا وسعاً في تدريب الفرقة حينذاك، وكل ما كان في وسعهم قدموه بالتمام والكمال». ويبشر المستقبل بنجاحات جديدة، لكن...

ناء عام ١٩٣٧ بكلكلة على كاهل البلاد، ووقع الجيش الأحمر تحت ضربات التعسف المريعة. وإذا بالقادة العسكريين الأمجاد يغدون، كما كان يقال وقتئذ «أعداء

للشعب » . وداست عجلة القمع بلا رحمة ولا هوادة أفضل العناصر منهم . وقد فارق أولئك الذين كان جوكوف يحترمهم ويعتبرهم حجة في الأمور العسكرية ، الحياة بوصمة الخيانة والتجسس ... الخ .

قدم رئيس الأركان العامة يغوروف ، وكبار القادة أمثال كورك ، اوبوريفتش ، ياكير وسواهم ، بناء على كلمات جوكوف « خدمات ثمينة ومفيدة لكل عسكري محترف » . لكن في عز الصبا نجد توخاتشيفسكي ذا الـ ٤٣ سنة وكورك ذا الـ ٥٠ سنة واوبوريفتش وياكير كل منهما ٤٠ سنة ، يعدمون رمياً بالرصاص عام ١٩٣٧ . وقد أعدم واضطهد معهم وبعدهم ظلماً وعدواناً كبار القادة حسب إحصاءات الجنرال تودورسكي : ثلاثة من خمسة مارشالات ، ثلاثة من خمسة قادة جيوش من الدرجة الأولى ، جميع قادة الجيوش العشرة من الدرجة الثانية ، ٥٠ من أصل ٥٧ قادة فيالق ، ١٥٤ من أصل ١٨٦ قادة فرق ، جميع مفوضي الجيوش من الدرجة الأولى والثانية وعددهم ١٦ ، ٢٥ من أصل ٢٨ مفوض فيلق ، ٥٨ من أصل ٦٤ مفوض فرقة ، ٤٠١ من أصل ٤٥٦ عقيداً . وقد كتب بطل الحرب الأهلية راسكولنيكوف في رسالة مفتوحة إلى ستالين في ١٧ آب ١٩٣٩ بلهجة مأساوية ما يلي :

« عشية الحرب تقوم أنت بتخريب الجيش الأحمر الذي يمثل حب وكرامة البلاد ومعقل قوتها . أنت أزلت رأس الجيش الأحمر والأسطول الأحمر . أنت قتلت أكفأ القادة الذين تربوا على خبرة الحرب العالمية والحرب الأهلية ، الذين أعادوا تشكيل الجيش الأحمر وفقاً للكلمة الأخيرة للتقنية وجعلوه لا يقهر . في اللحظة التي بلغ فيها خطر الحرب ذروته إذا بك تستمر في افناء كبار قادة الجيش والقادة من المستويين الأوسط والأدنى . أين هو المارشال بلوخر ؟ أين المارشال يغوروف ؟ أنت اعتقلتهما يا ستالين . ولتهدئة العقول المضطربة أنت تخادع البلاد بادعائك أن الجيش الذي دب فيه الوهن نتيجة للاعتقالات والإعدامات غدا أقوى من ذي قبل . ومع أن قانون العلم العسكري يتطلب الوحدة في قيادة الجيش من مستوى القائد العام وحتى قائد فصيلة ، نراك وقد كرست مؤسسة المفوضين العسكريين التي برزت إلى الوجود في إشراقة الجيش الأحمر ، حينما لم يكن لدينا بعد قادة منا ، حين كان من الضروري ممارسة الرقابة السياسية على الاختصاصيين العسكريين . وبعدم ثقتك بالقادة الحمر فإنك تزرع في الجيش ازدواجية السلطة ، وتدمر الانضباط العسكري . وتحت ضغط الشعب السوفييتي فإنك تبعث على سبيل الرياء ، عبادة الأبطال الروس التاريخيين : الكسندر نيفسكي وديمتري دونسكي وكوتوزوف ، أملاً في أن يساعدوك في الحرب المقبلة أكثر من المارشال والجنرالات المعدومين » .

ما زالت موجة القمع تستفحل حتى بلغت مستوى القادة الأحداث، مدمرة أكبر دعائم الخدمة العسكرية. وساد جو من الريبة والحذر الشامل، وازداد عدد المخبرين المفسدين ليس يوماً بعد يوم بل ساعة بعد ساعة. ولم يكن جوكوف مستاء لما يحدث فحسب لكنه كان مسحوقاً. ها هم أولئك قادة الفرق المبرزون الذين نشأ في ظلهم وهو يقود في مستوى فوج أمثال: كاشيرين، غاي، شميدت، سيرديتش، مرميون في أقبية السجون. ولم يكن يعرف عن مصيرهم شيئاً سوى وصمة العار بأنهم أعداء الشعب.

لم يمض أكثر من أسبوعين على اعتقال سيرديتش ــ كان قائداً للفيلق (٣) خيالة ــ حتى استدعي جوكوف إلى مينسك، بموجب الأمر التالي: للحضور إلى مقطورة قائد قوات المنطقة، وهناك كان بانتظاره ليس قائد المنطقة مولين (يصفه جوكوف بأنه شخص «بهي الطلعة») بل شخص قميء ذو عينين مضطربتين. كان ذلك هو غوليكوف عضو المجلس العسكري المعين في المنطقة حديثاً، وقام باستجواب جوكوف عن علاقاته بأعداء الشعب المعتقلين. وببرود أجاب جوكوف: «لا أدري لماذا اعتقلوهم، أظن أن هناك خطأ ما في الموضوع». ورمى المحقق الورقة الرابحة، حيث ورد في تقرير مفوض الفيلق بأنه جرى بمعرفة جوكوف، في الكنيسة، تعميد الطفلة إيللا المولودة حديثاً. وأجاب جوكوف بازدراء «هذا تلفيق غبي».

دخل مولين المقطورة، وإذا بغوليكوف يبادره بوشاية المفوض. وقرأ قائد المنطقة الوشاية بقرف ثم أعلن: جوكوف اختير ليصبح قائد الفيلق (٣) خيالة. وسرعان ما عاد جوكوف إلى سلوتسك بانتظار الأمر من موسكو، وفي هذه الأثناء جرى اعتقال مولين وباعتراف جوكوف: «أقول بصراحة، كان مسروراً لحد ما، إذ لم يتسلم منصباً أعلى، فقد نشطت حينذاك بشكل ملحوظ عملية اقتناص القادة الكبار على يد أجهزة أمن الدولة. ما أن ينعموا على شخص بمنصب أعلى حتى تراه وقد داهمه الاعتقال بتهمة «عدو الشعب» ويعاني هذا المسكين الأمرين في أقبية مفوضية الشعب للشؤون الداخلية. وتبددت مخاوف جوكوف حينما تسلم الفيلق في تموز ١٩٣٧، وكان أول نبأ سمعه في أركان الفرقة أن المفوض المفتح العينين كذلك رهن الاعتقال. «في الحقيقة كنت مسروراً ضمناً لأن الرجل النمام كوفئ على خدماته ــ لقد حفر حفرة لأخيه فوقع فيها». هذه كانت ملاحظة جوكوف الرجل النادر في تسامحه ودماثته.

أدى استشراء الوشاية إلى جعل القادة يتهاونون في فرض سيطرتهم خشية أن يحكم عليه الكسالى والديماغوجيون باتباع «نهج عدائي» في تدريب الجنود الحمر. وصار جوكوف يعمل كعادته زاجراً بشدة أولئك الوشاة المستبيحين كرامة الناس. وسرعان ما اكتسحت

سحابة الوشاية كل العسكريين . ولم يعبأ جوكوف لذلك ، وفوق ذلك فقد مد يد الصداقة لقائد الفرقة (٢٧) خيالة فاسيلي يفلاميفتش بيلاكوسوف . وما لبث أن وقف على آلية القمع : يبدؤون بالاستبانة في اجتماع حزبي ، ثم بالإدانة ، ثم بالفصل من الحزب ، وبعد ذلك تظهر على المسرح مفوضية الشعب للشؤون الداخلية التي تلقي بالقائد المهدور شرفه في السجن . وفي الاجتماع الذي أعد للتنديد بفاسيلي يفلاميفتش حضر أيضاً قائد الفيلق جوكوف ، وتكلم الجميع ، ولو أن البعض أغمضوا أعينهم ، وأدانوا قائد فرقتهم في كل الذنوب المعقولة وغير المعقولة . وكان يقود قطيع المتعطشين للدماء مفوض الفيلق .

ثلاث ساعات تحمل جوكوف فيها سيل الافتراءات ، ثم أخذ الكلمة . وأشار إلى أنه لا يعرف لماذا اعتقل ابوروفيتش وسيرديتش وروكوسوفسكي . ولا يجوز على هذا الأساس إعلان إدانتهم « بالاتصال » بأعداء الشعب . وبهذا كسر جوكوف إرادة الاجتماع الحزبي المتعطش للدماء الذي اكتفى بإدانة بيلوكوسوف . ومد فاسيلي يفلاميفتش يده والدموع تنهمر من عينيه وصافح بشدة غيورغي كونستانتينوفتش . وبذلك نجا القائد الرائع الذي أنهى خدمته في الجيش في أواخر الخمسينات كأحد نواب وزير الدفاع . ولخص جوكوف هذا التاريخ بالكلمات التالية : « مع الأسف ، لقي كثير من الرفاق حتفهم دون أن تمتد إليهم يد المعونة المخلصة عند التحقيق معهم في المنظمات الحزبية » .

نقل جوكوف في آذار ١٩٣٨ إلى الفيلق (٦) خيالة وكان في غاية السرور إذ كانت فرقة الدون (٤) خيالة العزيزة إلى قلبه ضمن قوام الفيلق . كان جوكوف عازماً على الدخول في مجرى العمل الاعتيادي . لكن لم يتمكن من ذلك . فقد كان كابوس الاعتقالات آخذاً مجراه . وسرعان ما استدعي قائد المنطقة المعين بدلاً من المحكوم بالإعدام اوبوريفتش وهو بيلوف ولقي نفس مصير سلفه . ولم يبق أمامه إلا أن يضرب كفاً بكف : « مهما كان الأمر فلا يعقل أن بيلوف يغدو ، بين عشية وضحاها ، عدواً للشعب ، وبالطبع لم يكن أحد ليصدق هذه الترهات » . هكذا لاحظ جوكوف . وفي هذا الوقت المشحون بالقهر عين نائباً له القائد غورباتوف ، الذي كان مصيره اللاحق محفوفاً بالمخاطر . وغورباتوف هذا رجل من طراز جوكوف ، تمسط كذلك من أجل الرفاق المهددين بالإعدام . ووقف غورباتوف في مواجهة الاجتماع الحزبي حيث قذفوا بأوساخهم المعتقل غريغوريف قائد الفيلق الذي كان يخدم فيه . وأسفاه « كما لو أن صوتي ضاع في خضم هذه الجوقة الشريرة » . حقاً ، لقد ثبت أن اللباقة وحدها لا تكفي ، لكن لم يكن الكل يتمتعون بقوة الاقناع والشخصية الموجودة لدى جوكوف . وجاءت العواقب سريعاً ، إذ فصل غورباتوف من الحزب وسرح . أعيد إلى الحزب وألحق بجوكوف . يجب التفكير ، كيف كان أعضاء الهيئات السياسية ومفوضية

الشعب للشؤون الداخلية يتربصون الدوائر بهذين الاثنين . فقد كتب غورباتوف : « استقبلني جوكوف استقبالاً جيداً ، وأسكنني في الطابق الثاني للدار التي كان يقطنها هو بالذات . وكنت تواقاً للعمل وسرعان ما اندمجت فيه » .

فجأة ، قبل الاجتماع بيوم ، أعلن المفوض لجوكوف أنه سيجري التحقيق معه في مجلس نشطاء الشيوعيين التابعين للفرقة (٤) خيالة والفيلقين (٣ و ٦) خيالة . وحضر الاجتماع (٨٠) شخصاً . واشتكى المفترون من « خشونة » جوكوف وأنه لم يرقِّ « الكوادر الخبيرة » . وسألهم بتهكم لماذا لاذ الوشاة بالصمت قرابة السنتين ؟ وتلقى إجابة لا مثيل لها . « كنا نخاف جوكوف ، إلا أن الوقت مختلف اليوم ، فقد فتحوا لنا الآن عيوننا بالاعتقالات » . واقتنع جوكوف هذه المرة أن العامل السياسي ــ رئيس الفرع السياسي للفرقة (٤) تيخوميروف قدم وشايات مريعة .

أحدثت رجولة جوكوف انطباعاً لدى الحاضرين ، وأخذ هؤلاء الأعداء حجمهم كأقلية واكتفى الاجتماع بهذه الكلمات وكما كتب جوكوف : « كان قرار هذا الاجتماع بالنسبة لي دعماً كبيراً ، وعلى فرض أن المنظمة الحزبية أصغت إلى تيخوميروف وما دونه ، ماذا ستكون العاقبة ؟ لا شك في أن مصيري سيتقرر في أقبية مفوضية الشعب للشؤون الداخلية ، على غرار ما جرى للآخرين من رجالنا الشرفاء » . حينئذ أقدم جوكوف على خطوة جريئة فيها مخاطرة ، فقد طير برقية احتجاج إلى ستالين وفوروشيلوف بأنهم يجلبونه إلى المسؤولية الحزبية دونما حق . ويصعب القول إلى أي درجة أثر هذا النداء على مصير القضية . وعلى أقل تقدير تركوا جوكوف وشأنه في الوقت الحاضر .

في كانون الأول ١٩٣٨ عين جوكوف نائباً لقائد منطقة روسيا البيضاء العسكرية (لشؤون الخيالة) ، وفارق أصحابه متألماً ، وترك الفيلق لغورباتوف . إذ أوصى به قائداً بعده . لكن الأجهزة السياسية ومفوضية الشعب للشؤون الداخلية كان لها رأي آخر ، ما إن غادر جوكوف إلى سمولينسك للعمل الجديد ، حتى استدعي غورباتوف إلى موسكو ثم أصبح أثراً بعد عين . وعلى غرار الألوف من القادة المبرزين كان عليه أن يمشي طريقه متنقلاً بين المعتقلات والزنزانات والمعسكرات .

بالرغم من كل ما يجري استمرت الحياة . وفي سمولينسك كان غيورغي تحت وطأة شعور أشبه بالفزع ، وتأكد له أن إعداد عناصر القيادة انهار بشكل حاد ، وغلّت أيدي الناس واطلع على مهام وظيفته : زمن السلم الإشراف على التدريب القتالي للخيالة والألوية المدرعة المتعاونة معها . والمهمة الرئيسية بقيت طي الكتمان : في حال نشوب حرب يترتب على جوكوف قيادة مجموعة خيالة ميكانيكية مؤلفة من (٤ ــ ٥) فرق .

٢ ــ الانتصار في خالخين غول

أخذت دلائل اندلاع الحرب تظهر بوضوح في الثلاثينات، ففي الغرب عقد تحالف عسكري بين ألمانيا وإيطاليا اللتين بدأتا بالتفاوض مع اليابان لضمها إلى هذا التحالف. وبعد أن رصت ألمانيا وإيطاليا واليابان صفوفها في «حلف مضاد للكومنترن»، أعلنت حرباً شعواء على الشيوعية. رحب المجتمع الدولي الغربي بهذه الخطوة ووقفت لندن وباريس وواشنطن تنتظر بفارغ الصبر تداعي الاتحاد السوفييتي من الغرب إلى الشرق.

جاءت الخطوة الأولى من اليابان، التي ينتشر جيش كوانتونغ في منشوريا، وهو يضم أفضل قطعات الجيش الياباني. حولت قيادة جيش كوانتونغ حدود الشرق الأقصى السوفييتية إلى جبهة ملتهبة. وأقدمت على استفزاز تلو استفزاز، موجهة رمايات حادة من المدفعية على مناطق سوفييتية، متخطية بصورة مفاجئة الحدود السوفييتية بقوى كبيرة. وفي مطلع العام ١٩٣٩ اقتحمت القوات اليابانية بصورة مفاجئة أقساماً من منغوليا التي كان الاتحاد السوفييتي قد التزم بالدفاع عنها ضد العدوان الخارجي بموجب اتفاق بين البلدين. وهنا دخلت القوات السوفييتية في هذه القضية فأعاقت، مع الجيش المنغولي، تقدم العدو المهاجم وأوقفته عند الضفة الشرقية لنهر خالخين ــ غول. فهمت القيادة العليا السوفييتية أنه في حال نجاح الهجوم الياباني، فإن الحكومة اليابانية لن تتوقف في سهوب منغوليا، بل ستقوم بعدوان على الاتحاد السوفييتي عاجلاً أم آجلاً. لذا كان من الواجب إيقاف الزخم العسكري الياباني المشهور وإخماد الرغبة في القتال ضد الاتحاد السوفييتي لفترة طويلة. ولم يكن ذلك ممكناً إلا بأعمال قتالية حاسمة. ولخوضها كان من الضروري على الأقل وجود قائد حازم يتمتع بموهبة تنظيمية وعزيمة حديدية ومعارف عسكرية عميقة وقدرة على تخطي العقبات في طريقه نحو الهدف مهما كانت الصعوبات.

في أواخر أيار ١٩٣٩ أجرى جوكوف في منطقة مينسك مشروع قيادة وأركان في الميدان وطبقت مختلف احتمالات أعمال مجموعة الخيالة الميكانيكية. وفي (١) حزيران بينما كان يجري تحليلاً للمشروع، إذا بجرس الهاتف يقطع التحليل: عليك الحضور في اليوم التالي إلى موسكو على الفور. اتصل جوكوف هاتفياً بعضو المجلس العسكري للمنطقة سوسايكوف وقال: «في العام ٣٩ أفكر ماذا يعني هذا الاستدعاء؟» ربما خطر في باله غورباتوف، الذي استدعي «فوراً» إلى موسكو. لكن سوسايكوف لم يكن على اطلاع بالأمر: «أحقاً ينبغي عليك أن تكون صباحاً في مضافة فوروشيلوف؟» فالعسكريون يعرفون الكثير من القادة الكبار الذين انطلقوا إلى موسكو بطلب من فوروشيلوف ووقعوا في قبضة السفاحين في مفوضية الشعب للشؤون الداخلية.

ليس في اليد حيلة . الأمر هو أمر . ودون المرور على البيت ، عرَّج على المحطة ، وركب أول قطار متجه نحو العاصمة .

« لماذا ولأي سبب ؟ » هذه الأسئلة ظلت تراوده وهو جالس في عربة (زيس ــ ١٠١) المسرعة في شوارع موسكو . ولم يقل الضابط الأنيق ، الذي استقبله في المحطة ، سوى أن مفوض الشعب بانتظاره . وفي المضافة ذهل للنبأ : يجري إعداد الحقيبة لسفر بعيد .

استقبله فوروشيلوف في وسط الغرفة ، وبعد أن استفسر عن صحته انتقل فوراً إلى صلب الموضوع :

توغلت القوات اليابانية بصورة مفاجئة في أراضي منغوليا الصديقة التي تعهدت الحكومة السوفييتية بحمايتها من العدوان الخارجي بموجب اتفاقية ١٢ آذار ١٩٣٦ . ها هي ذي الخارطة مع الموقف بتاريخ ٣٠ أيار أمامك .

تأمل جوكوف الخريطة ، حقاً لقد توغلت قوات العدو في أراضي منغوليا شرقي نهر خالخين غول . وعلى الفور خطرت في باله فكرة : ما دامت المعارك تدور لماذا يسألونه ؟ .

لم يكن ليعرف أن اجتماعاً عقد لدى فوروشيلوف عشية (١) حزيران وعرض رئيس الأركان العامة مارشال الاتحاد السوفياتي شابوشنيكوف الموقف في خالخين غول . واحتاروا في أمرهم ، ومن جهته كان فوروشيلوف ، لسبب ما ، يعتصر الكلام من فمه : « لقيادة الأعمال القتالية هناك أكثر ما يناسب قائد خيالة جيد » . وبعد التداول خطرت فكرة ندب جوكوف ، وتبين أن قيادة الأركان العامة كانت تقدره عالياً كقائد مؤهل ومفكر . وتمسك فوروشيلوف باقتراح الأركان العامة الوجيه .

وعليه انطلق فوروشيلوف إلى ستالين ، ووجد عنده تيموشنكو وسكرتير اللجنة المركزية للحزب في روسيا البيضاء بونوماريكو . وأدرك فوروشيلوف أن ستالين لم يكن راضياً عن الوضع في خالخين غول ، وربما انفلت عليه . وهذا ما حدث . لا بدّ من قائد عام جديد .

تدخل تيموشنكو مقترحاً « قائد فيلق الخيالة جوكوف » . وفكر ستالين ملياً ، وهو يردد الاسم الذي لم يوح إليه بشيء . وأوحى إليه فوروشيلوف :

ــ إنه جوكوف ذاته ، الذي بعث ببرقية من بيلاروسيا السنة الماضية ، محتجاً على تقديمه للمسؤولية الحزبية دون حق .

ــ بماذا انتهى الموضوع ؟ تساءل ستالين بفتور .

ـــ دون شيء ، أجاب فوروشيلوف ، إذ لم يكن هناك أساس للبحث في الأمر ، ولم تظهر أية استنتاجات ، وأضاف بونومارينكو أن جوكوف قائد رائع . . .

واتفقوا على إرسال جوكوف إلى خالخين غول .

ها هو ذا « قائد الخيالة الجيد » المتزن الوقور ، يدرس الخريطة أمام مفوض الشعب وهو مقطب الجبين . وإذا بصوت فوروشيلوف يوقظه من استغراقه في التفكير :

ـــ هناك مغامرة عسكرية خطيرة تدبر . هلا طرت إلى هناك على الفور ، وتسلمت عند الضرورة قيادة القوات ؟ اعتدل جوكوف في جلسته وقال : مستعد للطيران هذه اللحظة . وكانت آخر وصية تلقاها في الأركان العامة قبيل السفر : إن الشيء الهام هو الوقوف أخيراً على مجريات الأمور قرب خالخين غول ورفع المقترحات حول الأعمال المقبلة .

أرسل غيورغي كونستانتينوفتش في المساء رسالة وداع إلى البيت :

« عزيزتي شوريك ! (زوجته)

كنت اليوم عند مفوض الشعب . استقبلني استقبالاً منقطع النظير . أنا ذاهب في مهمة طويلة . قال مفوض الشعب : استعد لسفرة ثلاثة أشهر .

لي عندك رجاء : أولاً لا تندبي حظك بالدموع ، حافظي على ثباتك ووقارك ، حاولي أن تتحملي بشرف الفراق الكريه . يجب أن تأخذي ، يا عزيزتي ، في الحسبان أنني كلفت بمهمة شاقة وحساسة ، وأنا ، لكوني عضواً في الحزب ، وقائداً في جيش العمال والفلاحين الأحمر ، يجب علي أن أنفذها بشرف وبصورة نموذجية . وكما تعرفينني ، لم أتعود على تأدية الخدمة كيفما اتفق ، ولذا يجب أن يكون فكري مرتاحاً حيالك وحيال البنات . أرجوك أن تتيحي لي هذه السكينة . حاولي جهدك ، وستصلين إلى مبتغاك وإلا فلن تستطيعي اعتباري رفيق حياتك . أما بالنسبة لي فكوني مطمئنة ١٠٠ بالمئة .

وفي الختام لقد تأثرت كثيراً لدموعك . لكن ما العمل ، فأنا متفهم الوضع الصعب الذي أنت فيه .

قبلاتي الحارة ، الحارة لك وللبنات .

جوكوف » .

في الساعة ١٦٠٠ من ٢ حزيران أقلعت طائرة جوكوف من مطار موسكو المركزي. وبدا من تحت الجناح شارع لينيغراد وحديقة ملعب دينامو وأخذت منحاها نحو الشرق.

كان أمامه أن يطير ما يزيد على اليومين، مع المبيت في الأراضي السوفييتية. وكان جوكوف طوال الطريق متوتر الأعصاب يفكر فيما ينتظره هناك في المدينة المنغولية تامتساك بولاك. وسرعان ما سيرى كل شيء بعينيه: سهلاً مترامي الأطراف، فيه ساحة للطيران مرسومة بعجلات الطائرات والسيارات، وعلى مقربة منها عدة عشرات من بيوت «اليورتا» للبدو الرحل في آسيا الوسطى، تضيع في وسطها الأبنية المصنوعة من اللبنات الطينية القليلة العدد. هذه هي المدينة!

وفي صباح (٥) حزيران وصل جوكوف إلى أركان الفيلق (٥٧) العامل في منغوليا الذي صد المعتدين بالاشتراك مع الجيش المنغولي. فهم من محتوى المذكرات المقدمة في قيادة الفيلق بأن الموقف غير مدروس بشكل كاف. لا عجب في ذلك، فأركان الفيلق كانت بعيدة عن القطعات الأمامية، ولم يكن هناك اتصال مضمون معها. وكان أول سؤال طرحه على القائد: ـــ أليس من الصعب قيادة القوات على بعد (١٢٠) كيلو متراً من مواقع القتال؟. ودون أن يكمل جوكوف الاستماع للشروح، انطلق إلى القوات، لاعتقاده بأنه لن يتمكن من اتخاذ القرار الصحيح دون معرفة العدو ونقاط ضعفه وقوته بالتفصيل. وفي دراسته للعدو المقابل كان يعطي الأفضلية دائماً للرصد الشخصي: «إذ لا شيء يعدل نظرة القائد». وقد اتبع جوكوف هذه القاعدة في ممارسته الطويلة للحرب كما طالب مرؤوسيه بذلك أيضاً.

بعد عدة أيام كانت عربة جوكوف تجوب السهوب حيث قدّر شخصياً بعين خبيرة وضعية القوات السوفييتية ـــ المنغولية القليلة العدد وكذلك الجيش الياباني وأوحى إليه حدس الجندي الخبير بأن العدو على وشك الانتقال إلى الهجوم الحاسم، إذ كانت القيادة اليابانية تدفع ليلاً ونهاراً بقوى جديدة إلى الضفة الشرقية من النهر الذي يعتبر خط الجبهة.

عند استخلاص الاستنتاجات تبين لجوكوف أن الموقف العام الناشئ هو لصالح اليابانيين مع الأسف. فقد انتقى العدو بمهارة مكان الغزو. وكانت مرابض وسائطه النارية ومناطق انطلاقه متاخمة لسفوح سلسلة جبال خينغان الضخمة، التي تساعد ليس على إخفاء القوات فحسب بل ومؤخراتها أيضاً... كان يمتد إلى خط الجبهة في الجانب الياباني خطان حديديان وعدة طرق يابانية. أما السوفييتي ـــ المنغولي فكان عبارة عن سهب متواصل، مرصود من قبل العدو على كامل عمقه. كانت تبعد الحدود السوفييتية (٦٥٠) كيلو متراً، ولا يأتي منها سوى طريق ترابي واحد.

اتضح لجوكوف، من تحليل الموقف، أن القيادة السوفييتية ـــ المنغولية لن تكون قادرة بتلك القوى المتوفرة لديها على وضع حد للعدوان الياباني ولاسيما إذا انتشرت الأعمال على عدة اتجاهات بوقت واحد. فأرسل تقريراً فورياً إلى موسكو: يجب تعزيز الطيران السوفييتي، وإرسال ما لا يقل عن ثلاث فرق مشاة ولواء دبابات تحت تصرفه.

بانتظار التعزيزات، سارع جوكوف إلى تمتين الدفاع، لاسيما على رأس الجسر خلف النهر. وحسب التناسب العام للقوى كان اليابانيون يتفوقون على القوات السوفييتية ـــ المنغولية بالمشاة والمدفعية بمعدل (٣) مرات وبالفرسان بمعدل (٤٫٥) مرة. إلا أنه كان تحت تصرف جوكوف مجموعة مدرعة ميكانيكية تضم نحو (١٥٠) دبابة وعدداً مماثلاً من المصفحات. وقرر القائد الاستفادة من هذه الميزة لخوض الدفاع النشيط فوضع جميع تشكيلات المشاة والفرسان في الدفاع، ووضع جميع الألوية الميكانيكية وألوية الدبابات في الاحتياط للقيام بهجمات معاكسة قوية مستخدمة قدرتها النارية ومناورتها لصد العدو المتفوق من أية اتجاهات. كان ذلك قراراً صحيحاً، إذ لم يكن بالإمكان في تلك الظروف التنبؤ باتجاه الضربات الرئيسية للعدو، كما أن القوات السوفييتية ـــ المنغولية لا تستطيع أن تكون قوية في كل مكان.

بعد أن وثقت القيادة اليابانية بتفوقها، دون أن يخامرها شك في النصر، أعدت عمليتها الهجومية. كانت خطتها تهدف إلى توجيه ضربات جبهية إلى مركز الجبهة لتقييد القوات الرئيسية السوفييتية ـــ المنغولية ثم اختراق الدفاع بضربة قوية على الجنب الشمالي وتطويق التجميع المركزي بمناورة نحو الجنب والمؤخرة. بعد تخطيط مثل هذه العملية النموذجية، استدعت القيادة اليابانية المراسلين الأجانب والملحقين العسكريين لمراقبة الأعمال الظافرة المقبلة. سارت العملية في بدايتها حسب الخطة المرسومة: خاضت القطعات السوفييتية ـــ المنغولية معارك ضارية في مركز الجبهة وهي تصد الدبابات وأنساق المشاة الكثيفة المعادية. وفي ليلة (٣) حزيران تمكن اليابانيون من خرق الجبهة على الجنب الشمالي للفرقة المنغولية وتأمين عبور (١٠) آلاف جندي مع (١٦٠) مدفعاً. وفي معرض تقييم مؤرخين عسكريين غربيين بارزين لهذه العملية جاء في كتاب «آلة الحرب الروسية اليابانية (١٩١٧ ـــ ١٩٤٥)»: «لقد حسب اليابانيون حساب كل شيء، ماعدا ردة الفعل الفورية لدى جوكوف».

ما أن علم جوكوف بأن العدو قد استولى على رأس جسر على الضفة الغربية للنهر، حتى أدرك الخطر المحدق بتوجيه ضربة إلى جانب ومؤخرة التجميع الرئيسي. ناهيك عن أنه من أجل ذلك احتفظ بالقطعات الميكانيكية في الاحتياط: ففيه كان يوجد لواء مدرع، إلا

أن زجه في المعركة دون مشاة محمولة ، ضد القطعات اليابانية التي تتمتع بتدريب عال في مجال الدفاع المضاد للدبابات لهو ضرب من المجازفة ، ولم يكن هناك مخرج آخر . وكان الابطاء لا يجوز ، حتى لا يتمكن العدو من التشبث على رأس الجسر وتنظيم الدفاع المضاد للدبابات بشكل جيد .

أقدم جوكوف على مغامرة لا مثيل لها ، إذ أعطي الأمر للواء المدرع كي يهاجم العدو من الحركة ، دون انتظار المشاة . وفي الساعة (١٠ر٤٥) صباحاً انتقلت (١٥٠) دبابة إلى الهجوم على الدفاع المعادي المحضر على عجل . بينما لم يصل فوج المشاة المحمولة المستدعى إلا عند الظهر . عمل جوكوف بنفس الوقت على تركيز جميع نيران المدفعية وضربات الطيران على المعابر لقطع دابر الأنساق الثانية والاحتياطات المعادية .

دارت معركة عنيفة طيلة النهار والليل . ولم تتحطم مقاومة اليابانيين إلا في صبيحة ٥ تموز فأخذوا ينسحبون على عجل نحو المعابر ، حيث رأوا نقابيهم يفجرونها خشية اختراق الدبابات السوفييتية إلى الضفة الشرقية . فراح الضباط والجنود اليابانيون المذعورون يلقون بأنفسهم مع تجهيزاتهم بالماء حيث ابتلعتهم مياه النهر .

تعرض الجيش الياباني إلى هزيمة شديدة ، بعد أن خسر حوالي (١٠) آلاف شخص ، وكل دباباته تقريباً وقسماً كبيراً من المدفعية . قال جوكوف ، عند استخلاص النتائج : « بأن هذه الملحمة تعتبر عملية كلاسيكية في الدفاع الفعال لقوات الجيش الأحمر ، إذ لم تعد القوات اليابانية للمجازقة مرة ثانية ، بعد ذلك ، بالعبور إلى الضفة الغربية لنهر خالخين ــ غول » .

إلا أن قيادة جيش كوانتونغ لم ترضخ لهذه الهزيمة ، ولم تضن بشيء في محاولات يائسة لإنقاذ ماء الوجه . وراحت القوات الجديدة تتدفق إلى خالخين ــ غول لتتشبث بالأرض المنغولية .

اتضح لجوكوف أن العدو لن يستكين لذلك . فالتباطؤ بطرد المعتدي تنجم عنه آثار بمنتهى الخطورة . وكان ذلك مفهوماً في موسكو أيضاً . خرجت الأركان العامة باقتراح لتنفيذ سلسلة من العمليات بهدف نقل الأعمال القتالية إلى خارج منغوليا . فقال ستالين : « إذا أردتم أن تخوضوا حرباً كبيرة في منغوليا ــ فإن العدو سيرد على التفافاتنا بدفع قوات إضافية ، وستتسع بؤر الصراع حتماً لتأخذ طبيعة حرب طويلة الأمد ، يجب قسم ظهر اليابانيين على نهر خالخين ــ غول » بالذات .

ادخل ذلك في خطة العملية التي تهدف أساساً إلى سحق القوى الرئيسية للجيش السادس الياباني الغازي لمنغوليا ، وعدم تمكينها من الخروج إلى ما وراء الحدود .

بعد أن تلقى جوكوف مثل هذه المهمة شرع بوضع خطة العملية . موجهاً الانتباه الأساسي لاستطلاع العدو بعناية . فبدون معرفة العدو وتوضع قواته الدقيق ونقاط ضعفه وقوته ، فإن نجاح العملية والمعركة غير ممكن أبداً .

استخدم الطيران على نطاق واسع في مجال استطلاع العدو ، فأعطى صوراً جوية جيدة لدفاع القوات اليابانية ــ إلا أن القائد لم يطمئن لها ... ولما كان العدو قد استخدم النماذج المزيفة وأعمال الخداع الأخرى فقد طلب جوكوف تدقيق معطيات الاستطلاع الجوي . لهذا استخدمت مجموعات استطلاع صغيرة على نطاق واسع ، تسللت إلى عمق دفاع العدو وحددت أكثر من مرة ما هو حقيقي وما هو كاذب .

استعدت القوات اليابانية تماماً لشن عملية هجومية جديدة حاشدة لذلك (٧٥) ألف جندي وضابط و (٥٠٠) مدفع وهاون و (١٨٢) دبابة وما يزيد على (٣٠٠) طائرة قتالية .

خططت القيادة اليابانية أن تبدأ الهجوم في ٢٤ آب . قرر جوكوف استباق العدو بتوجيه الضربة . وبعد أن أدرك ضعف إجناب العدو وعدم وجود احتياطات كبيرة لديه لدفعها نحو الاتجاهات المهددة ، قرر مارشال المستقبل تثبيت العدو من الجبهة بقسم من القوى ، ومهاجمة الجوانب بالقوى الرئيسية وتطويق وتدمير القوات اليابانية الغازية لمنغوليا بين نهر خالخين ــ غول والحدود . وطبقاً لذلك انشئت ثلاث مجموعات من القوات : جنوبية ومركزية وشمالية مع احتياط . أما من أجل تطويق العدو بسرعة بعد اختراق دفاعه على الجانبين ، فقد لحظ زج القوات المدرعة من هذين الجانبين للقيام بأعمال إحاطة حثيثة . تم تحشيد قوات ووسائط لم يعهد مثلها من قبل على اتجاه الضربتين الرئيسيتين ــ وهكذا تحشد حتى (٨٠٪) من القوات المهاجمة على الجانبين في قوام تجميعي الإحاطة .

وكما هو الحال في العمليات التالية ، فقد كان الشرط الحاسم للتنفيذ الناجح لفكرة جوكوف ، هنا في منغوليا ، متمثلاً بالمفاجأة العملياتية ــ التكتيكية التي تؤمن قبل كل شيء بإجراءات التمويه الصارمة . فبدون ذلك لم يكن بالإمكان تحشيد عدد كبير من القوات على اتجاهات الضربات الرئيسية بصورة مخفية في شروط الأرض السهبية المفتوحة .

من أجل التمويه وإخفاء تدابير التحضير للهجوم ، قامت أركان مجموعة الجيش تحت إشراف جوكوف بصياغة خطة تفصيلية للخداع العملياتي ــ التكتيكي ، استهدفت خلق

انطباع لدى العدو بعدم وجود أية تدابير تحضيرية ذات طابع هجومي على الجانب السوفييتي ـــ المنغولي ، وإظهار القوات وكأنها تقوم بالانتشار لإنشاء الدفاع ، والدفاع فقط .

لهذا تقرر أن تجرى جميع التحركات والتحشدات وإعادة التجميع في الليل فقط . كما لم يسمح بدخول القوات إلى المناطق التي يخطط منها توجيه الضربات إلى جنب التجميع الرئيسي للعدو ومؤخرته ، إلا قبل يوم واحد من بداية العملية . وكان على عناصر القيادة عند قيامها بالاستطلاع الشخصي أن لا تذهب إلى الأرض إلا بلباس الأفراد وعلى الشاحنات .

وضع برنامج مكالمات لا سلكية وهاتفية لتضليل العدو . وجرت المكالمات عن إنشاء الدفاع فقط ، كما تبودلت برقيات لاسلكية بشيفرة يسهل فك رموزها . ووزعت على القوات مناشير وإرشادات عن القتال في الدفاع ، كما نفذت مشاريع قيادة وأركان للقطعات بمواضيع دفاعية .

جرى تمويه التحركات الليلية كافة بأجهزة صوتية وضجيج يمثل مرور طائرات ونيران مدفعية وأسلحة خفيفة ، نفذت حسب برنامج مرتبط بالتنقل . اقتصر وضع خطة العمليات في أركان مجموعة الجيش على مجموعة محدودة من الضباط : القائد ، رئيس الفرع السياسي ، رئيس الأركان ورئيس فرع العمليات . بينما عمل قادة صنوف القوات ورؤساء المصالح فيما يخص شؤونهم فقط مع تحضير المذكرات والحسابات والتعليمات الضرورية . كما اقتصر الأمر على ضاربة آلة كاتبة واحدة من أجل طبع خطة العملية والأوامر وتعليمات القتال . لم يطلع عناصر القيادة على خطة العملية إلا قبل (١ ـــ ٤) أيام من بدئها . تلقى قادة الوحدات والمقاتلون مهام القتال قبل ثلاث ساعات من الهجوم . وأخيراً اختير يوم عطلة ـــ الأحد من أجل الهجوم ، إذ كانت القيادة اليابانية تمنح الجنرالات والضباط إجازة الأحد .

نجحت تدابير التمويه العملياتي ـــ التكتيكي بالكامل ، وأخذ العدو على حين غره . في ليلة ١٩ ـــ ٢٠ آب تحشد التجميعان المخصصان لضرب الجانبين ، وفي الساعة (٥ر١٥) نفذت المدفعية صبيباً نارياً شديداً على تراتيب قتال قطعات الدفاع الجوي المعادي . قامت بعض المدافع برمي القذائف الدخانية على الأهداف المخطط ضربها من الجو . واشترك في القصف الجوي (١٥٠) قاذفة مغطاة بنحو مائة طائرة مقاتلة . وبعد القصف الجوي بدأ رمي المدفعية ، ثم تكررت الضربة الجوية . كانت ضربات الطيران والمدفعية شديدة لدرجة أصبح العدو معها مشلولاً من الناحيتين المعنوية والجسمانية . ولم يكن قادراً خلال الساعة والنصف الأولى من تنظيم ضربة مدفعية جوابية وهي ما تسمى بمعاكس التمهيد .

بعد أن تمكن تجميعا الجانبين من سحق العدو ، عمدت القوات السوفييتية المنغولية إلى زج القطعات المدرعة والميكانيكية في الخرق ، حيث قامت بتطويق القوى الرئيسية للجيش السادس الياباني في نهاية ٢٣ آب . وبحلول ٢٧ آب أصبحت هذه القوى مقسومة إلى قسمين ، وكانت المجموعة الجنوبية منها مدمرة بالكامل . كما فشلت محاولات القيادة اليابانية ، طيلة ثلاثة أيام ، لفك الحصار عن قسم من القوات المنشورية المطوقة .

في ٣١ آب أعلن جوكوف نجاح العملية ، وقال في معرض استخلاص النتائج : « تعتبر العملية الهجومية للجيش هذه عملية نموذجية لتطويق العدو وتدميره » . شارك في المعارك من كلا الجانبين حوالي (١٣٢) ألف مقاتل ، أكثر من (١٠٠٠) مدفع ، (١٠٦٥) دبابة ومدرعة وأكثر من (٨٠٠) طائرة . خسر اليابانيون (٦١) ألف شخص ، بينما خسرت القوات السوفييتية ـــ المنغولية (١٨ر٥) ألف مقاتل .

يعود لجوكوف الفضل الأكبر في سحق خيرة القوات اليابانية . ففي سهوب منغوليا تفتحت لديه موهبة القائد وذهن المفكر العسكري وهو يقارع وجهاً لوجه عدواً قوياً قاسياً . ثمنت المأثرة البطولية التي قام بها جوكوف عالياً . فمنح وسام بطل الاتحاد السوفييتي ورتبة عسكرية جديدة ـــ فريق أول General D'armee .

كان جوكوف بالذات أول من بدأ باستخدام القوات المدرعة والميكانيكية للقيام بالمهام العملياتية كقوة ضاربة أساسية في تجميعات الجوانب التي تناور من أجل التطويق . دلت الخبرة على أن تطويق العدو بسرعة يتطلب من تجميعات الالتفاف أن تقوم بأعمال حثيثة وحاسمة بالتعاون مع القوات التي تعمل من الجبهة . من المناسب أن لا يجري تدمير التجميع المطوق بطريقة الضغط على الحلقة ، بل بأسلوب تجزئتها ومن ثم تدميرها على أقسام . تلعب المدفعية والطيران الدور الأهم في التدمير السريع للعدو .

أجبرت النهاية الماهرة للعملية ، التي نفذها جوكوف ، الحكومة اليابانية على إعادة النظر بآرائها حول القدرة القتالية للقوات المسلحة السوفييتية . يقول الكاتب الأمريكي الكبير سولسبري في كتابه « الملاحم الكبرى للمارشال جوكوف » : « لقن جوكوف اليابانيين درساً قاسياً ، فالقيادة اليابانية اعترفت بالقوة النارية السوفييتية الرهيبة . لقد لعب كل ذلك الدور الأهم عندما كفت القيادة العسكرية اليابانية عن التصدي للسوفييت من الشرق في أشد الأوقات إحراجاً لروسيا ـــ إبان اشتباكها الفتاك مع النازيين في الغرب » .

في أيام ١٩٤٠ استدعي جوكوف إلى موسكو حيث استقبله ستالين .

رأى ستالين في جوكوف آنئذ قائداً عسكرياً موهوباً ، فقرر أن يستشيره في عدد من المسائل العسكرية . وأثناء الحديث الأول الذي لا يُنسى تكلم جوكوف بالتفصيل عن نقاط الضعف والقوة للجيش الياباني والقوات السوفييتية ، وقارن بين عدد من نماذج الأسلحة اليابانية والسوفييتية ، وأبرز النواحي الإيجابية والنقائص التي ظهرت لدى القوات أثناء المعارك .

٣ ــ على رأس منطقة كييف العسكرية

بعد خالخين ــ غول عُين جوكوف قائداً لقوات منطقة كييف العسكرية الخاصة . وكان واضحاً أن الحرب أصبحت هناك على الأعتاب . وإذا به يبدأ ، بما عرف عنه من الطاقة الفياضة ، بالانغماس في إعداد الخطط العملياتية والتعبوية وتحضير أجهزة القيادة والقوات المرؤوسة لتنفيذ المهام المسندة إليها ، آخذاً بعين الاعتبار كل ما اكتسبه من خبرة والدروس المستفادة من الحرب السوفييتية الفنلندية والحرب العالمية الثانية التي كانت في بدايتها . فأقدم على خوض الأعمال القتالية بوتائر عالية لإنشاء ونشر التشكيلات والقطعات الميكانيكية والجوية والمدفعية وغيرها .

اعتبر جوكوف تعيينه قائداً لأكبر منطقة عسكرية شرفاً كبيراً له . وقد فهم مسؤولية هذه الوظيفة العالية تماماً في ظروف اقتربت فيها الحرب العالمية الثانية من حدود الاتحاد السوفييتي ، حيث تعمل منطقة كييف العسكرية على تغطية الخطوط الجنوبية الغربية منها .

في ذلك الوقت كان لا يزال بالإمكان إيقاف الألمان ، وبذل الاتحاد السوفييتي كل ما في طاقته لانقاذ السلام .

أهابت الحكومة السوفييتية بالدول المحبة للسلام قائلة : « قد يكون الغد متأخراً ، أما اليوم فلا يزال لدينا متسع من الوقت فيما إذا أخذتم أنتم أيتها الدول ولاسيما العظمى منكم موقفاً واضحاً تجاه قضايا الإنقاذ الجماعي للسلام » .

وراحت « الدول العظمى » التي أعمتها معاداة الشيوعية تعمل كل ما في وسعها كي تدفع هتلر للهجوم على الاتحاد السوفييتي . وكان من المؤسف في مؤتمر الدول الغربية المعروف في ميونيخ ٢٩ ــ ٣٠ أيلول ١٩٣٨ أن وافقت انكلترة وفرنسا على أن تأخذ ألمانيا منطقة السوديت التشيكوسلوفاكية . وكان الاتحاد السوفييتي مستعداً لمساعدة تشيكوسلوفاكيا ، إذ وضع الطائرات ودبابات أربعين فرقة في حالة الجاهزية القتالية . إلا أن الدوائر الحاكمة في تشيكوسلوفاكيا رفضت هذه المساعدة معتبرة إياها بمثابة الاستسلام المخزي .

كما رفضت حكومة بولونيا العون السوفييتي أيضاً. إذ عمدت بمهارة إلى تحصين الخطوط الدفاعية على حدودها مع الاتحاد السوفييتي. بينما التفت القوات الهتلرية في أيلول ١٩٣٩ من الشمال إلى الجنوب بعد أن وضعت الجيش البولوني في مرجل ضخم.

وحتى بعد أن أعلنت حليفتا بولونيا ــ انكلترة وفرنسا ــ الحرب على ألمانيا لم تتحركا من أماكنهما طالما أن القنابل لم تنفجر بعد في أراضيهما. فقد أدت المصالح الدولية للحلفاء القدامى في صراعهم ضد الدولة الاشتراكية الأولى إلى ناحية واحدة، إذ نكصوا على أعقابهم أمام هتلر، آملين أن يدفعوه في اللحظة الأخيرة نحو الاتجاد السوفييتي. اعترف يودل رئيس أركان القوات الألمانية في محاكمة نورمبورغ قائلاً ــ «يعود السبب في عدم اندحارنا أثناء حربنا مع بولونيا في عام ١٩٣٩ إلى وقوف (١١٠) فرق فرنسية وانكليزية تقريباً على الجبهة الغربية بلا عمل ضد (٢٣) فرقة ألمانية».

وهكذا في مثل هذا الوقت العصيب المفعم بخطر وقوع الاعتداء الألماني تسلم جوكوف قيادة منطقة كييف العسكرية.

ولما كان جوكوف مؤمناً بالنصيحة التي تقول ــ يجب أن تعرف الناس الذين ستقاتل معهم، شرع بالتعرف على الموقف الراهن في المنطقة بالتفصيل. وقد تمكن خلال تموز ١٩٤٠ من زيارة جميع القطعات والتشكيلات تقريباً. حيث قام بالتفتيش وتنفيذ مشاريع القيادة والأركان، آخذاً بعين الاعتبار النزاع السوفييتي ــ الفنلندي والأعمال القتالية في منغوليا، والأهم من ذلك ــ طبيعة الأعمال القتالية للحرب العالمية الثانية التي كانت في بدايتها. أسند قائد المنطقة العسكرية المهمة إلى القوات: «تعلّم اليوم ما ستحتاجه غداً في الحرب. اعط الانتباه الأساسي للاستطلاع وللاستخدام القتالي للأرض لأغراض الهجوم والدفاع على حدٍ سواء.

طلب جوكوف من القادة والأركان في جميع المستويات تغيير نظام التدريب والتربية القتالية في القوات على أساس وجهة نظر واحدة قائلاً: «اجعلوا التدريب قريباً من شروط الواقع القتالي، دربوا الأفراد على الأعمال في الموقف الذي يتطلب جهداً جسمانياً طويل الأمد. نفذوا الدروس التكتيكية نهاراً وليلاً في أي وقت، أي مع عامل المفاجأة، متبعين المبدأ القائل ــ كن دائماً بحالة الجاهزية القتالية».

طالب قائد المنطقة جميع قادة القطعات المشتركة بالدراسة العميقة للإمكانيات والقدرات القتالية لصنوف القوات الأخرى، حتى يمكنهم التعاون معها في جميع أنواع القتال الحديث السريع الجريان.

جرى تلقين المقاتلين وصف الضباط بأن الوحدة والقطعة لا تصبح قوة تخيف العدو إلا عندما يصبح قوامها بالكامل مدرباً بصورة ممتازة .

وبدأ القصاص في ١٠ أيار ١٩٤٠ حيث شنت ألمانيا الهتلرية هجومها على الغرب . وخرت فرنسا صريعة بعد شهر ونصف . كان هذا جزاء اللعبة السياسية القصيرة النظر مع هتلر . اهتز العالم بحرب « الصاعقة » واندلعت التشكيلات الميكانيكية للفيرماخت (Wehrmacht)(١) إلى الأمام دون أن تعبأ بالجوانب .

تساقط المظليون من السماء زارعين البلبلة والفزع في الأعماق .

لم يسمح الفريق جوكوف لنفسه بالانفعالات ، حاول أن يفهم مقومات نجاح الفيرماخت ، فالألمان لديهم عتاد مماثل لما لدى الفرنسيين والإنكليز ، حتى أن كميته لدى هؤلاء تفوق ما لدى القوى الهتلرية . ولكن ها هم الهتلريون يحشدون كل عتادهم تقريباً على اتجاهات منتقاة ، وينهالون بكامل قواهم محطمين كل شيء أمامهم . وهكذا فهم جوكوف تكتيك القوات الألمانية : يعتمد الألمان على المفاجأة التي تشترط تركيز القوى السريع ، التضليل الأعلامي ، المناورة الحثيثة بالقطعات الميكانيكية في العمق العملياتي . ولم يكن ذلك جديداً على جوكوف ــ إذ سحق اليابانيين على المنوال نفسه . علاوة على ذلك ، أقدم على تنفيذ الأعمال بوتائر عالية لإنشاء ونشر التشكيلات والقطعات الميكانيكية والجوية والمدفعية وغيرها .

كان على قائد المنطقة الجديد أن يهتم ، في الوقت نفسه ، بتحضير وشن حملة بالقوات السوفييتية لتحرير بوكوفينا الشمالية وبيسارابيا . وحسب الاتفاق المعقود مع الحكومة الرومانية ترتب على القوات السوفييتية أن تتقدم بمعدل (٢٠) كم يومياً على أعقاب انسحاب القوات الرومانية . وكان على الرومان حينذاك أن يتركوا القطارات وتجهيزات المنشآت الصناعية على حالها . لكنهم خلافاً لهذا الاتفاق ، حاولوا أن يحملوا معهم بعض التجهيزات . وحيال ذلك نجد جوكوف يتخذ قراراً بمبادهته الشخصية ، بإنزال لواءين مظليين في مناطق المعابر فوق نهر بروت ودفع قطعات من الدبابات لملاقاتها خوفاً من حدوث ردود فعل غير منّسقة من جانب السلطات الرومانية التي أثارت ضجة وطلبت من جوكوف تفسيراً لإجراءاته ، وما كان من ستالين إلا أن أيده في ذلك . وقد اكتسب جوكوف ، من خلال تحضير وتنفيذ الحملة ، خبرة عملية في السيطرة على قوات الجبهة ، وتوفرت لديه الإمكانية لاختبار القدرة القتالية لقوات

---

(١) القوات المسلحة الألمانية .

المنطقة المخصصة للاشتباك في حال اندلاع الحرب على أهم اتجاه استراتيجي وهو الاتجاه الجنوبي الغربي .

للمرة الأولى ، في أواخر كانون الأول ١٩٤٠ وبداية كانون الثاني ١٩٤١ ، يعقد مؤتمر عملياتي للعناصر القيادية في الجيش الأحمر تحت قيادة مفوض الشعب للدفاع المارشال س . ك . تيموشينكو . وخلافاً للمؤتمرات المعقودة في سنوات ما بعد الحرب ، ففي هذا المؤتمر لم يقتصر إلقاء التقارير والمحاضرات على العناصر القيادية لمفوضية الشعب للدفاع فحسب ، بل انضم إليهم كذلك قادة ورؤساء أركان المناطق العسكرية . وهذا ما سمح من جهة أولى بمراعاة آرائهم وخبرتهم بشكل أكمل ، ومن جهة أخرى بتحقيق تدريب أكثر رسوخاً واشتراك فعال وممتع في دروس العناصر القيادية للقوات .

كُلف قائد منطقة كييف العسكرية الخاصة ، الفريق جوكوف في أثناء المؤتمر ، بإلقاء كلمة كانت من أهم الكلمات التي ألقيت حول معضلات العمليات الهجومية . وفيها قدم تحليلاً مستفيضاً لخبرة العمليات الهجومية التي قام بها الجيش الألماني في بولونيا وفي أوروبا الغربية ، وأعمال القوات السوفييتية في خالخين ــ غول وفي الحرب السوفييتية ــ الفنلندية ، وأوضح إمكانات الجيش من مختلف الصنوف والجبهة في خوض العمليات الهجومية ، والبنية القتالية الأكثر جدوى وأبعاد هذه العمليات والوتائر الممكنة لتنفيذها .

كان جوكوف يرى أن أفضل الدروس المستفادة من خبرة الحرب العالمية الثانية الناشئة هو الاستخدام الكثيف للطيران والتشكيلات المدرعة والميكانيكية ، والاستخدام الواسع للإنزالات الجوية . وحازت كلمته اهتمام المشاركين في المؤتمر لعمق التحليل والنظرة المبدعة التي قدمها عند تحليل عدد من الظواهر الجديدة في فن الحرب ، والحجج الدامغة للمبادئ التي قدمها ، والدقة في التعبير عن أفكاره .

أكد في ختام تقريره أنه « في حال تعادل القوى والوسائط سيكون النصر حليفاً للجانب الأكثر براعة في القيادة وتهيئة ظروف المفاجأة واستخدام القوى والوسائط . فالمفاجأة في العملية الحديثة من العوامل الحاسمة لبلوغ النصر ... » وإذا ما قرأت التقرير المعمول منذ (٥٧) سنة وقارنته بما حدث فيما بعد فسترى بوضوح أن جوكوف كان في ذلك الوقت قد استوعب ، من حيث المبدأ ، استيعاباً صحيحاً جوهر التغيرات الرئيسية التي طرأت حينذاك على أساليب تحضير وتنفيذ العمليات الهجومية .

هذا ما بدا للعيان بشكل خاص لدى تنفيذ اللُّعب العسكرية الاستراتيجية خلال هذا المؤتمر . فقد أجريت اللعبة العسكرية الأولى فيما بين ٢ و ٦ والثانية فيما بين ٨ و ١١

كانون الثاني ١٩٤١ . وفي هذه اللعبة مثلت الجبهات أو الجيوش فقط بمجموعات عملياتية غير كبيرة ولم تعالج قيادة القوات بحجمها الكامل . وبالتحديد مثل دور قيادة الجبهة ، إلى جانب قائد قوات الجبهة (جوكوف) ستة أشخاص (رئيس الأركان ، رئيس فرع العمليات في الأركان ، نائب رئيس أركان الجبهة للمؤخرة ، مدير إدارة الإعلام العسكري ، قائد ورئيس أركان القوى الجوية) ، ومثل قيادة الجيوش بمعدل ثلاثة أشخاص من كل جيش (قائد الجيش ، رئيس الأركان ، قائد القوى الجوية) . جرى تقويم أعمال المتدربين بشكل أساسي حسب القرارات المتخذة من قبلهم والحسابات العملياتية والتوجيهات العملياتية وأوامر القتال المسندة إلى الجيوش .

تسلم جوكوف في اللعبة الأولى قيادة الجبهة الشمالية الشرقية « للجانب الغربي » وكان في مواجهته الجبهة الشمالية الغربية « للجانب الشرقي » بقيادة العماد د . ت . بافلوف . وفي اللعبة الثانية تسلم جوكوف قيادة الجبهة الغربية « للجانب الشرقي » وكان في مواجهته الجبهة الجنوبية « للجانب الغربي » بقيادة اللواء ف . ي . كوزنتسوف .

أعطيت وضعية الطرفين للموقف العملياتي الابتدائي في اللعبة العسكرية لليوم العاشر من الحرب . لذلك لم تعالج أشد المسائل صعوبة وهي الانتشار الاستراتيجي وخوض العمليات في بداية الحرب . ومن هنا يتضح أن هذه المعضلة لم تلق عموماً التقدير الكافي من جانب القيادة العسكرية العليا . واتخذ المتدربون قراراتهم حسب الموقف الناشئ في مجرى الحرب الناشئة . وقد أظهر تحليل القرارات بموجب هذا الموقف ، من قبل قيادة اللعبة العسكرية ، أن احراز التفوق الحاسم في كلتا اللعبتين كان من نصيب الجانب الذي قاده جوكوف . وحسب النتيجة التي توصلت إليها القيادة فقد تمكنت قواته من تحقيق النصر في (الموقعة) . إذ تمكن من تحليل الموقف تحليلاً أكثر عمقاً سواء عن قواتنا أو عن قوات العدو ، وركز بشكل يفوق كل تصور ، على النواحي الأكثر ضعفاً في الوضعية العملياتية للجانب المعادي وإمكاناته القتالية ، وقدر الأرض بمهارة ، وفي قراراته كان ، كقاعدة عامة ، يستبق العدو في إعادة تجميع القوات وفي تصعيد الجهود وفي انتزاع السيطرة في الجو ، وفي تكثيف القوى والوسائط تكثيفاً حاسماً على اتجاه الضربة الرئيسية متوخياً الحصول على أفضل وضع لقواتنا يمكّنها من تسديد ضرباتها إلى أجناب تجميعات العدو الرئيسية .

أبدى جوكوف هنا معرفة جيدة بوجهات النظر الاستراتيجية للجيش الألماني . وكانت تنشأ ، في مجرى اللعبة ، لحظات مأساوية بالنسبة للجانب الشرقي . وتبين أنها شبيهة إلى حد كبير بتلك التي نشأت إبان انقضاض ألمانيا النازية على الاتحاد السوفييتي في حزيران ١٩٤١ .

وهكذا إذا كان جوكوف قد أظهر ، في تقريره للمؤتمر ، عمق معلوماته النظرية ومقدرته على التفكير بالأسلوب الحديث ، فقد تجلت لديه في أثناء الألعاب العسكرية ظاهرة التوفيق بين النظري والعملي ، والمقدرة على دراسة الظروف الراهنة للموقف والتوصل منها ببراعة إلى حل المهام الاستراتيجية ــ العملياتية المعقدة . علماً بأن القرارات العملياتية كانت تدعم بحسابات منطقية مع اتخاذ التدابير اللازمة لتنظيم التعاون والتأمين المادي والتقني للقوات في العملية المقبلة . كانت قراراته مقنعة إلى حدٍ جعل حتى قادة الطرف المقابل (المعادي) وبصورة خاصة د . غ . بافلوف مجبرين على الاعتراف بأن قواتهم أصبحت في نهاية المطاف في وضع أقل ملاءمة . وعلى العموم أحدثت تقارير جوكوف وأعماله القيادية في مجملها انطباعاً رائعاً لدى القيادة السياسية والعسكرية على أعلى مستوى .

الفصل الثالث

رئيساً للأركان العامة

بعد مرور يوم على تحليل اللعبة العسكرية إذا بستالين يستدعي جوكوف ويعرض عليه منصب رئيس الأركان العامة. وحسب كلام جوكوف حاول الاعتذار بحجة أنه خدم طيلة وقته في وظائف قيادية، وليس لديه خبرة في عمل الأركان. لكن ستالين أصرَّ على قراره. وبدأت مرحلة جديدة في حياة جوكوف. بقي يعمل في منصب رئيس الأركان العامة نحو سبعة أشهر في أشد الفترات توتراً وتعقيداً عشية الحرب وفي مستهلها، منها خمسة أشهر ونصف قبل نشوب الحرب. وطبيعي أن لا يتمكن أحد بما في ذلك جوكوف خلال هذه البرهة من الزمن أن يستوعب استيعاباً تاماً هذا المنصب المعقد ذا المسؤولية العالية. وكانوا يرون دوماً أن لا بدّ من ممارسة العمل (٣ ــ ٤) سنوات على الأقل ليصبح رئيساً للأركان بكل معنى الكلمة. ها هو ذا مولتكه ترأس الأركان العامة الألمانية مدة (٣٠) سنة. وهناك نواح من وجهة نظر تنظيم السيطرة على القوات المسلحة ودقة التخطيط الاستراتيجي وإعداد منظومة أكثر تكاملاً للحفاظ على الجاهزية القتالية والتعبوية للقوات (القوى) قد لا يتمكن من تحقيقها، لأن ذلك يحتاج إلى رئيس أركان أكثر خبرة. مما أدى إلى الوقوع في الكثير من الأخطاء والتجاوزات حيال هذه المسائل عشية الحرب.

غير أنه لا بدّ من الاعتراف بجوانب أخرى: فمن وجهة نظر البراعة في تقدير الموقف والاعتماد على الذات والمبادهة والمبدئية وقوة الشكيمة في اتخاذ الكثير من التدابير وإعداد القوات المسلحة لصد العدوان في الموقف المتشكل حينذاك، قد يتعذر على شابوشنيكوف أو أي رئيس أركان خبير آخر تحقيق ما أمكن لتيموشينكو وجوكوف عمله. وعلى كل حال لولاهما ربما لم تكن لتظهر إلى الوجود بعض القرارات مثل التعبئة الجزئية (دعوة ٨٠٠ ألف مكلف) لإكمال ملاكات المناطق العسكرية الحدودية، وتحريك أربعة جيوش من العمق إلى خطّ نهر الدنيبر، مما سمح، بدءاً من منتصف تموز عام ١٩٤١، بإنشاء جبهة جديدة للدفاع شمال مصب نهر بيريزينا، بل ربما لم يكن للتوجيه القاضي بتحضير القوات لصد هجوم

ألمانيا الفاشية أن يوقع مساء ٢١ حزيران ١٩٤١ بالذات، وربما وقعت المناطق العسكرية المتاخمة للحدود في وضع أكثر حرجاً إذا لم نقل في وضع لا مخرج منه. أضف إلى ذلك كان جوكوف يتمتع بعدد من المزايا التي لا غنى عنها للقائد الذي سيتولى رئاسة الأركان العامة في ظروف عصيبة كما في العام ١٩٤١. وهي قبل كل شيء الفكر المتيقظ والذاكرة الرائعة والمقدرة على التقاط جوهر الموقف الأكثر تعقيداً وتناقضاً والتنبؤ بمسار تطوره الممكن والحفاظ على التوازن ورباطة الجأش، والرجولة والمبدئية في الدفاع عن القرارات المقترحة.

كان آ. م. فاسيليفسكي، و ن. ف. فاتوتين، و آ. آ. غريتشكو، وغيرهم من الجنرالات والضباط العاملين في الأركان العامة مع بداية الحرب ينوهون بأن جوكوف، بالنسبة لهم جميعاً، كان يعتبر تجسيداً للثقة التامة بالنفس وقوة الشكيمة والهدوء والإيمان الذي لا يتزعزع بأن الوضع القاسي الناشئ يمكن تغييره وقلبه لصالح قواتنا.

ومما كان له أهمية كبيرة بشكل خاص قدرته الهائلة على العمل. فقبل اندلاع الحرب كنت تراه يعمل بمعدل (١٥ ـــ ١٦) ساعة في اليوم، حتى إذا بدأت الحرب أصبح يعمل على مدار الـ (٢٤) ساعة تقريباً. فبدون مثل هذه القدرة على التحمل والعمل، مهما كانت بقية المزايا والمواهب عالية، لا يمكن لأي ضابط أركان، ولاسيما رئيس الأركان العامة، أن يفصح عن أفضل المزايا لديه، ويتحمل الأعباء والجهود المضنية على غرار تلك التي يترتب على الأركانات من مختلف المستويات معاناتها زمن الحرب.

كل هذه المزايا ظهرت لدى جوكوف على أكمل وجه، وبفضلها ربما يكون الجيش قد تدارك الكثير من المحن التي كادت أن تحيق به.

من الجدير بالذكر أنه بعد تحرير روسيا البيضاء الغربية، وأوكرانيا الغربية، وبوكوفينا الشمالية، وبيسارابيا، وانتهاء الحرب السوفييتية ـــ الفنلندية تغيرت معالم الحدود الدولية من ناحية الغرب وتقدمت التجميعات الأساسية للقوات حتى (٣٠٠) كم إلى الأمام.

لذلك أصبح لزاماً إعادة النظر في كل خطط العمليات والتعبئة وإيصالها إلى المناطق العسكرية وتنظيم تنفيذها.

وبموجب هذه الخطط قامت الأركان العامة بإبلاغ المناطق العسكرية المهام المدققة لتغطية الحدود الدولية في بداية أيار ١٩٤١. ولم تتمكن أركانات المناطق من تعديل خططها إلا في بداية حزيران ثم رفعتها إلى «مفوضية الشعب للدفاع» من أجل التصديق. أما في التشكيلات والقطعات، فقد بقي هذا العمل غير مكتمل.

١ ـــ التحضير لصد العدوان

نظراً للاستعدادات السافرة للعدوان الفاشي فقد ظهرت ضرورة ملحة لرفع الجاهزية القتالية للقوات . إلا أن القيادة السياسية العليا كانت تسوف على الدوام في إصدار مثل هذه القرارات :

وفي الآونة الأخيرة ظهرت تفسيرات كثيرة مختلفة حول المذكرة التي رفعتها الأركان العامة بتاريخ ١٥/٥/١٩٤١ باقتراح إنزال ضربة استباقية إلى القوات الألمانية ـــ الفاشية .

تعكس المذكرة بالطبع الروح الجوكوفية ومزاياها القيادية . إلا أن ظهور مثل هذه الوثيقة في أيام ١٩٤١ لم يكن عرضياً ، ولم تكن لتتولد بمبادهة جوكوف وضباط الأركان العامة فقط . وفي الواقع كان « للنزعة الهجومية » مكانتها في أوساط القيادة السياسية . وقد أشاد ستالين في خطابه أمام خريجي الأكاديميات العسكرية في ٥ أيار ١٩٤١ بالروح الهجومية المتوثبة .

إضافة إلى ذلك ، كما قال مولوتوف في حديث له مع الكاتب ف . تشويف ، فإن الأخذ بخيار « السياسة الهجومية » لم يكن له أهداف عدوانية ولن يحرض ألمانيا على شن « حرب وقائية » . فعلى الصعيد السياسي كانت هذه الطروحات الهجومية محسوبة على الأكثر لرفع الروح المعنوية للجيش والشعب .

كانت تلك المذكرة المؤرخة في ١٥/٥/١٩٤١ مكتوبة بخط فاسيليفسكي بغية توقيعها من قبل مفوض الشعب للدفاع تيموشينكو ورئيس الأركان العامة جوكوف . لكن الوثيقة حفظت في الأرشيف دون توقيع . ولا ندري هل رفعت إلى ستالين وهل درست على الطريقة المتبعة حينذاك . هناك عدة روايات غير مؤكدة بهذا الخصوص . من حيث المبدأ نجد أن من واجب أية أركان عامة استعراض الاحتمالات والطرائق المختلفة للعمل . والخطة الهجومية الجوكوفية المشار إليها كانت مخصصة للمرحلة التالية التي يفترض أن تكون قد أُمنت فيها الجاهزية الضرورية للبلاد وللقوات المسلحة فيما إذا اضطر الأمر إلى إصدار قرار سياسي للقيام بأعمال استباقية . ومما يثير العجب بشكل أكبر لماذا لم تظهر مثل هذه الخطة قبل وصول جوكوف إلى الأركان العامة .

غير أن قرائن كثيرة في ذلك الوقت كانت تثبت أن الضربة الاستباقية من جانب الاتحاد السوفييتي ، على الأقل في العام ١٩٤١ ، كانت مستبعدة عملياً ولا يمكن تحقيقها حتى ولو كان هناك من يريد تنفيذها . وهذا راجع إلى :

أولاً ــ لم يكن هناك قرار سياسي للحرب الوقائية ضد ألمانيا . ولم يكن للقيادة السوفييتية أن تتجاهل حقيقة أن البلاد وقواتها المسلحة لم تصل بعد إلى درجة الاستعداد للحرب . فالاقتصاد لم يكن قد تحول إلى حالة الحرب . وإنتاج النماذج الحديثة من الدبابات والطائرات وغيرها من أنواع الأسلحة كان في بدايته . والجيش الأحمر كان في طور إعادة التنظيم الجذري . وكان الاتحاد السوفييتي بحاجة ماسة إلى تأخير بداية الحرب ولو لسنة أو سنتين .

علاوة على ذلك ، ظل هتلر ماضياً في لعبته السياسية حتى اللحظة الأخيرة ، محاولاً أن يكسب إلى جانبه انكلترا التي تضم في داخلها قوى ذات نفوذ تؤيد ألمانيا . وقد أوفد إلى هناك مندوبه (هيس) بالذات لإقامة علاقات مع هذه القوى .

ماذا كان يعني توجيه ضربة استباقية إلى ألمانيا في مثل هذا الموقف ؟ قد يظهر الاتحاد السوفييتي أمام العالم أجمع على أنه معتدٍ ، وفي انكلترا بالذات يمكن أن تظهر قوى تطالب بالاتحاد مع ألمانيا . وقد أعلم الاستطلاع السوفييتي ستالين عن كل ذلك ، ولهذا نراه يتجنب بشتى الوسائل كل خطوة قد تشعل نار الحرب .

ثانياً ــ لا بدّ لتوجيه الضربة الاستباقية من توفر جيش معبأ ومنتشر للحرب . ولكن ستالين ، حسب التصورات المذكورة ، لم يشأ أن يُقدم على التعبئة الكاملة والانتشار العملياتي للقوات المسلحة . أما التعبئة الجزئية لـ (٨٠٠) ألف شخص ودفع بعض الجيوش من عمق البلاد (ما مجموعه ٢٨ فرقة) كل ذلك لم يكن ليسمح بإنشاء التجميعات اللازمة لإجراء العمليات الهجومية . وبدونها لا يمكن بدء الحرب .

لقيتِ محاولات قادة المناطق تقديم ولو جزء يسير من القوى الإضافية إلى الحدود الدولية معارضة شديدة . فقد طلب ستالين ، ومعه مفوض الشعب للدفاع ، من الأركان العامة المبادرة إلى إيقاف مثل هذه الأعمال فوراً . وفي ١٩٤١/٦/١١ نرى رئيس الأركان العامة جوكوف يوجه برقية إلى قائد منطقة كييف العسكرية الخاصة تتضمن ما يلي :

« أمر مفوض الشعب للدفاع بما يلي :

١ ــ لا يحتل نطاق الحيطة بقطعات الميدان والتحصينات إلا بموجب أمر خاص . تنظم حراسة المنشآت من قبل عناصر الحراسة والدوريات .

٢ ــ تلغى على الفور التعليمات الصادرة عنكم حول احتلال نطاق الحيطة بقطعات التحصينات » .

واقتضى الأمر إصدار عدد من التعليمات المماثلة .

دع الذين يتمسكون بأوهام الحرب الوقائية من جانبنا يفكروا ولو دقيقة واحدة : كيف يمكن التحضير للضربة الاستباقية والتعليمات كما ترى ؟

وكما لاحظ جوكوف : « لم يكن بالإمكان تنفيذ التدابير الواردة في الخطط العملياتية والتعبوية إلا بقرار خاص من الحكومة ولم يصل هذا القرار الخاص إلا ليلة ٢٢ حزيران ١٩٤١ ، ومع ذلك ليس بالكامل » .

حتى مع بداية الحرب لم يفقد ستالين في الساعات الأولى الأمل بإمكان النجاح في تخطي الأزمة . لا شك في أنه أخطأ خطأً جسيماً ، لكنه كان واثقاً ضمناً بوجود إمكانية لتجنب الحرب .

وكما كتب تشرشل في مذكراته أن ستالين قال له في آب ١٩٤١ : « لم أكن بحاجة إلى أية تحذيرات . فأنا عارف بأن الحرب ستنشب ، لكنني ظننت أن بإمكاني كسب ستة أشهر أخرى أو نحوها » . فقد كان ستالين يسعى إلى هذا في تلك المرحلة وليس إلى الضربة الاستباقية .

ثالثاً ـــ لم يكن هناك خطة مصدقة للانتشار من أجل تسديد ضربة استباقية ، ليس فقط في الأركان العامة بل وفي المناطق العسكرية . وهذه الأخيرة لم تتلق أية مهام بهذا الصدد .

كان لدى المناطق العسكرية مهمة تتعلق بالمسائل العملياتية وهي : يتم الانتقال إلى الهجوم بقوى قوات التغطية صد هجوم العدو وبعد النشر الكامل للقوى الرئيسية للجبهات . ومن الواضح أن الانتقال إلى الهجوم بعد صد هجوم العدو لا يمت بصلة إلى الضربة الاستباقية . مثلاً بموجب « خطة أعمال القوات للتغطية في أراضي المنطقة العسكرية الغربية الخاصة » المرفوعة للتصديق إلى مفوض الشعب للدفاع في حزيران ١٩٤١ حددت المهام العامة التالية لقوات المناطق للدفاع عن الحدود الدولية :

آ ـــ بالدفاع الصامد عن التحصينات الميدانية على الحدود الدولية وعلى المناطق المحصنة القيام بما يلي :

١ ـــ منع العدو الأرضي والجوي من الاقتحام إلى أراضي المنطقة .

٢ ـــ التغطية القوية لتعبئة قوات المنطقة وتحشدها وانتشارها . . . ؛

يظن الذين ليس لديهم اطلاع على مسائل التخطيط العملياتي وتطبيقها عملياً أنه يكفي عقد اجتماع والتحدث إلى القيادة الأعلى حول طريقة أو أخرى من الطرائق المرغوبة ، من وجهة نظرهم ، لأعمال الجيش ، وبعدها تنفذ مباشرة . غير أنه بعد تصديق خطة عمليات الأركان العامة ، فإنه لإعداد الخطط المقابلة لها في الجحافل والتشكيلات والقطعات

(مع تخصيص عدد محدود من المنفذين) والتنظيم العملي لتنفيذها، يلزم ما لا يقل عن (٣ ــ ٤) أشهر مع إجراء العمل بشكل مكثف ومتواصل. ومن الواضح تماماً أن خطة الأعمال المبينة في المذكرة المؤرخة في ١٩٤١/٥/١٥، حتى ولو كانت مصدقة، لا يمكن في حال من الأحوال أن تطبق عملياً.

هناك بعض الكتّاب من يحاول تعليل الرواية الخاصة بالضربة الاستباقية المحضرة من قبل الجانب السوفييتي، بأن قوات الجبهات لم تكن متمركزة ضمن تجميع دفاعي ولم تكن الخطوط الدفاعية في العمق مجهزة تجهيزاً هندسياً. لكن هذا كله لا يمت بصلة لفكرة الضربة الاستباقية. هذه الهفوات مرتبطة بالتصور المتخلف لطبيعة الأعمال الحربية في الفترة الابتدائية للحرب والتقصير العام في تقدير الدفاع العملياتي والاستراتيجي في السنوات السابقة للحرب. فلم تكن العمليات الدفاعية فقط غير محضرة كما يجب، بل والعمليات الهجومية أيضاً.

هكذا، إذا أردنا أن نلخص ما قيل أعلاه، يمكن أن نصل إلى استنتاج بأن الاتحاد السوفييتي لم يكن قادراً في العام ١٩٤١ على تسديد أية ضربة وقائية ضد ألمانيا.

ما هي إذن فكرة الأعمال الاستراتيجية التي كانت في واقع الأمر لدى الجيش الأحمر، هل هي هجومية أم دفاعية؟ ففي حال اندلاع الحرب كانت تراعي أن تصد تشكيلات التغطية هجوم العدو ثم بعد إكمال تعبئة القوات تنتقل إلى الهجوم الحاسم. لكن مثل هذا الأسلوب في الأعمال ليس له أية علاقة مشتركة مع الأعمال الاستباقية ولاسيما مع الحرب الوقائية.

إذا علمنا، فوق ذلك، أن القوات السوفييتية لم تكن موضوعة في الجاهزية القتالية، وحتى بعد أن وقع الهجوم على الاتحاد السوفييتي، كانت الأوامر الموجهة إلى القوات تقتضي القيام بصد هجوم العدو دون أن تتخطى الحدود الدولية، هنا لا يمكن الحديث عن أي هجوم كان (يكفي أن نمعن النظر فقط فيما يلي: هل يعقل تحضير ضربة استباقية ثم مع بداية الحرب نطلب من القوات عدم تخطي الحدود!).

مع ذلك يمكن القول بكل ثقة أنه لو بدأت الأعمال الحربي في الأول، كما اقترح جوكوف، ما كانت قوات الجيش الأحمر لتتكبد مثل تلك الخسائر الفادحة ولاسيما في الطيران، ولعملت بانتظام أكبر مما عملت في حزيران ــ تموز ١٩٤١. وحتى في حال عدم نجاح العمليات الهجومية والموقعات التصادمية لفتحت أمامها إمكانية الانتقال إلى الدفاع في ظروف أفضل. ولحرم العدو من إمكانية تسديد الضربات الكاسحة المفاجئة.

أتيحت أفضل فرصة لتسديد ضربة استباقية على الجيش الألماني في أيار ـــ حزيران ١٩٤٠ حينما كانت تدور الأعمال القتالية ضد فرنسا ، لكن مثل هذه الأعمال لم تخطر على بال الاتحاد السوفييتي .

مما يلفت النظر أن السياسيين والمؤرخين الذين يثيرون ضجة حيال خطة جوكوف هذه يعتبرون الضربة الوقائية التي سددها هتلر في ١٩٤١ عملاً شرعياً ويستنكرون بحدة فقط خطة جوكوف المقترحة .

إذا أردنا الكلام بشكل إجمالي نجد أنه بالرغم من العمل الجبار الذي قامت به قيادة البلاد السوفييتية من حيث الاستعداد الصناعي والتقني ـــ العسكري للحرب ، ففد ارتكبت عشيتها أخطاء وهفوات خطيرة ، معروفة اليوم على نطاق واسع ، بما فيها ما ارتكب على يد الأركان العامة التي كان يترأسها جوكوف .

لم تعالج ولم تستوعب بما فيه الكفاية أشكال وطرائق الدفاع الاستراتيجي والعملياتي ، وهذه المهام بالذات هي التي ترتب تنفيذها في الفترة الابتدائية من الحرب . فقد جرى تقييم طرائق خوض العمليات في الفترة الابتدائية من الحرب تقييماً غير صحيح بتاتاً . فلم يؤخذ بعين الاعتبار إمكان انتقال العدو إلى الهجوم رأساً بكل تجميعات القوات المنتشرة مسبقاً على سائر الاتجاهات الاستراتيجية في آن واحد . ويعترف جوكوف أيضاً بكل هذا على سبيل النقد الذاتي ، فقد كتب بهذا الخصوص : «عند إجراء تعديل الخطط العملياتية في ربيع ١٩٤١ لم تؤخذ بعين الاعتبار بشكل كامل عملياً خصائص خوض الحرب الحديثة في مرحلتها الابتدائية . فكانت مفوضية الشعب للدفاع والأركان العامة تعتبران أن الحرب ما بين دولتين كبيرتين كألمانيا والاتحاد السوفييتي يجب أن تبدأ حسب خطة مرسومة سابقاً : أي أن يجري زج القوى الرئيسية في القتال بعد مضي عدة أيام على المعارك الحدودية . وفيما يتعلق بفترات التحشد والانتشار وُضعت ألمانيا الفاشية في ظروف واحدة معنا . وفي واقع الأمر كانت القوى والظروف غير متساوية إلى حد كبير » .

لا شك في أن خبرة الحرب المندلعة في أوربا مع استخدام العديد من الطرائق الحديثة في الأعمال الاستراتيجية لم يجر تقويمها كما يجب . كان مفوض الشعب للدفاع تيموشينكو يعتبر أن خبرة الحرب في أوربا لا تعطي أية ثمار جديدة من حيث الإبداع الاستراتيجي .

كان للاستخفاف في أهمية الدفاع والتقدير غير الصحيح لطبيعة الفترة الابتدائية للحرب عواقب وخيمة أكثر مما يتصورون أحياناً في المؤلفات العسكرية . فالقضية لا تنحصر

في الاعتراف الشكلي أو عدم الاعتراف بالدفاع، بل قبل كل شيء في الدروس المستفادة والتدابير العملية المنبثقة من ذلك:

أولاً — حسب الخبرة، كان يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار إمكان وقوع غزو مفاجئ على يد عدو معبأ ومستعد سلفاً للعدوان. كان هذا يتطلب بالمقابل جملة من الاستعدادات القتالية والتعبوية للقوات المسلحة تؤمن لها جاهزية عالية ودائمة لصد مثل هذا الغزو، كما يتطلب تصعيداً أكثر حزماً وسرية للجاهزية القتالية للقوات.

ثانياً — يقتضي الإقرار بإمكان وقوع هجوم مفاجئ للعدو، أن يكون هناك في المناطق العسكرية الحدودية خطط معدة إعداداً متقناً لصد هجوم العدو، خطط لتنفيذ عمليات دفاعية، حيث أن صد هجوم قوى متفوقة للعدو لا يمكن تحقيقه بشكل ارتجالي كمهمة ثانوية. فلهذه الغاية يلزم تنفيذ سلسلة كاملة من الموقعات والعمليات الدفاعية العنيفة والطويلة الأمد. فلو كانت هذه المسائل محضرة نظرياً وعملياً وهذه الخطط جاهزة لتمركزت بموجبها تجميعات القوى والوسائط في هذه المناطق بشكل مختلف وبالتحديد مع مراعاة المهام الدفاعية، ولنظمت القيادة بنمط آخر، ولنسقت الاحتياطات المادية وموارد التعبئة بشكل آخر.

كانت الجاهزية لصد العدوان تتطلب أيضاً عدم الاكتفاء بأن تكون الخطط للعمليات الدفاعية مرسومة فحسب بل وأن تكون هذه العمليات محضرة بالحجم الكامل بما في ذلك من النواحي المادية والتقنية والهندسية، وأن تكون مستوعبة من جانب القادة والأركانات. ومن الواضح تماماً أنه في حال وقوع هجوم مفاجئ من جهة العدو لن يتاح أي وقت لتحضير مثل هذه العمليات. غير أن هذه التحضيرات لم تنفذ في المناطق العسكرية المتاخمة للحدود. وإذا ما رجعنا إلى التدريب العملياتي النظري والعملي الذي كان مطبقاً في الأركانات والأكاديميات لوجدنا أن الدفاع لم ينفذ على غرار ما اقتضى تنفيذه في عام ١٩٤١ — ١٩٤٢، بل كان ينظر إليه كنوع من الأعمال القتالية يُلجأ إليه بفترة وجيزة على الاتجاهات الثانوية بحيث يمكن صد هجوم العدو على جناح السرعة والانتقال بعدها إلى الهجوم. من هذه المواقع الخاطئة انطلقوا عند إسناد المهام للقوات عشية الحرب وفي مستهلها.

استهوت الفكرة القائلة بحتمية نقل الحرب منذ بداية نشوبها إلى أراضي العدو (وهي لا ترتكز لا على أساس علمي ولا على تحليل الموقف الراهن ولا على الحسابات العملياتية) بعض العناصر القيادية العسكرية، إلى درجة أن إمكانية خوض الأعمال الحربية على الأراضي

السوفييتية أصبحت مستبعدة عملياً . كل هذا أثر تأثيراً سلبياً ليس على تحضير الدفاع فحسب ، بل بشكل عام على تحضير مسارح الأعمال الحربية في عمق الأراضي السوفييتية .

كان من المفروض إنشاء شبكات جديدة من المطارات وعدد كبير من الطرق والجسور وتوسيع خطوط وعقد الاتصال . إلا أن القوى والوسائط اللازمة لذلك لم تكن في متناول اليد .

سارت عملية بناء المنشآت الدفاعية سيراً بطيئاً . كانت المناطق المحصنة على الحدود الدولية مفككة جزئياً وكانت أسلحة المدفعية مرفوعة من مرابضها ، ولم يكتمل بعد بناء المنشآت المستديمة على الحدود الجديدة ، ولم تكن منظومة الدفاع في المناطق المحصنة الجديدة مهيأة ، وتركت ما بين المناطق المحصنة فواصل تصل إلى (٥٠ ــ ٦٠) كم .

ارتكبت عيوب جسيمة في تنظيم قيادة القوات المسلحة زمن الحرب . وأثر تأثيراً سلبياً انفصال مفوضية الشعب للدفاع عن مفوضية الشعب للقوى البحرية الحربية . فقد عمدت قيادة القوى البحرية إلى تسوية مشاكلها في معزل عن الأركان العامة . وهذا التصرف غير صحيح تجاه الأركان العامة التي هي الجهاز الأساسي للقيادة العملياتية للقوات المسلحة كافة .

حتى بعد أن تحولت أركان جيش العمال والفلاحين الأحمر لتصبح هيئة الأركان العامة سنة ١٩٣٥ حجبت عنها صلاحيات تحديد السياسة التقنية ــ العسكرية وتحديد البنية التنظيمية واستكمال القوات المسلحة . وعلى وجه التحديد كانت مسائل التنظيم والتعبئة من صلاحية إدارة خاصة تابعة مباشرة لنائب مفوض الشعب ي . آ . شادينكو . وقد أدى ذلك إلى ظهور نقص في تنسيق التدابير المتعلقة بهذين النوعين من الفعالية وربطها بمؤسسات أخرى لمفوضية الشعب للدفاع في معزل غن المهام الاستراتيجية ــ العملياتية . وحتى جوكوف لم يظهر حزماً كافياً لإيقاف تشكيل ذلك العدد من التشكيلات الميكانيكية وتشكيلات الإنزال الجوي ، مما أدى إلى تشتيت الدبابات والوسائط الأخرى لدرجة كبيرة .

والغريب أن إدارة الاستطلاع الرئيسية لجيش العمال والفلاحين الأحمر لم تكن خاضعة لرئيس الأركان العامة (كانت إدارة الاستطلاع الرئيسية برئاسة نائب مفوض الشعب للدفاع) ، وفي الواقع كانت خاضعة لستالين بالذات . ومن هنا يتضح بجلاء أن الأركان العامة لم تكن مخولة صلاحية اتخاذ القرار في مسألة الاستخدام الاستراتيجي للقوات المسلحة ما دامت لا تملك جهاز استطلاع يأتمر بأمرها .

لم يكن هناك في مفوضية الشعب للدفاع جهاز موحد للسيطرة على المؤخرة، فقد كانت مؤسسات الإمداد خاضعة للمفوض ولعدد من نوابه المختلفين.

كانت منظومة قيادة القوات المسلحة بكاملها مصابة بحمى التقلبات السريعة مع كثرة حدوث التنقلات لعناصر القيادة ضمن الجهاز المركزي وفي المناطق العسكرية. فخلال الخمس سنوات السابقة للحرب تغير أربعة رؤساء أركان عامة. وخلال سنة ونصف قبل الحرب (١٩٤٠ ــ ١٩٤١) جرى تبديل مدراء إدارة الدفاع الجوي خمس مرات (وسطياً مرة كل ٣ ــ ٤ أشهر)، واعتباراً من ١٩٣٦ حتى ١٩٤٠ جرى تبديل خمسة مدراء لإدارة الاستطلاع وغيرها. لذلك لم يتح لمعظم الشخصيات المسؤولة الوقت الكافي للإلمام بواجباتهم المتعلقة بتنفيذ دائرة واسعة من المهام المعقدة قبل الحرب. وبالمناسبة ظلت هذه الممارسات مستمرة حتى في أثناء الحرب بالذات. وقد تحدث جوكوف إلى ستالين عدة مرات بهذا الخصوص لكن دون جدوى.

هناك مسألة لم تكن حتى مطروحة على بساط البحث عشية الحرب وهي: من سيتولى القيادة العامة للقوات المسلحة في حال نشوب الحرب؟. من حديث المبدأ كان من المفترض أن يتولى ذلك مفوض الشعب للدفاع. لكن ما أن نشبت الحرب حتى أخذ ستالين هذه الوظيفة على عاتقه. وحتى الآن يصعب علينا أن نفهم لماذا لم تكن محضرة حتى قبل الحرب مراكز سيطرة محمية للقيادة العامة والأركان العامة والجبهات. فقد اقتضى الأمر القيام بإعادة تنظيم مفوضية الشعب للدفاع والأركان العامة من الحركة وبشكل مرتجل للتلاؤم مع زمن الحرب. كل ذلك كان لا بدّ له أن يؤثر تأثيراً سلبياً على السيطرة على الجيش العامل وهيئات إمداده.

بذلت محاولات لتعويض الضعف الذي ألَمَّ بالقيادة الاستراتيجية للجبهات في بداية الحرب عن طريق إنشاء مفوضيات رئيسية للاتجاهات الشمالي ــ الغربي، والغربي، والجنوبي ــ الغربي. وقد أدى ذلك إلى زيادة تعقيد السيطرة على القوات وسرعان ما صرف النظر عنها.

كان الاتصال ضعيف التنظيم على كل المستويات ولاسيما الاتصال اللاسلكي، مما سهل على العدو، فيما بعد، قطع الاتصال السلكي في الجبهات والجيوش والفرق منذ الساعات الأولى للحرب، وهذا ما أدى في كثير من الحالات إلى فقدان السيطرة على القوات.

كان هناك إهمال خطير ارتكبته الأركان العامة، وبالدرجة الأولى ب. م. شابوشنيكوف، وهو عدم إعداد نظام واضح لوضع القوات في أعلى درجات الجاهزية

القتالية . وما كانت خطط العمليات والتعبئة مرنة بما فيه الكفاية فلم تكن لتراعي الدرجات الوسيطة لرفع الجاهزية القتالية والتعبوية للقوات ، وكذلك تحويلها بشكل دوري إلى الجاهزية القتالية . فكان على القوات أن تبقى في مواقع الإقامة الدائمة أو تنتشر رأساً بصورة كاملة . ولم تكن محددة في الأركان العامة حتى الإشارات (الإيعازات) المختصرة على غرار ما هو متبع في الأسطول البحري لسرعة إيصال التعليمات من أجل وضع القوات في الجاهزية القتالية .

في الظروف التي ألقي فيها على كاهل جوكوف ، دفعة واحدة ، عدد كبير من المسائل التي بحاجة إلى حل ، وكان الوقت ضيقاً للغاية ، لم يكن في مقدوره النظر إلى تلك العيوب وإزالتها في الوقت المناسب .

حاول جوكوف مع بداية نشاطه في منصب رئيس الأركان العامة طرح وحلّ بعض هذه المسائل . لكن من العسير جداً التطرق إليها .

لم يكن تمركز الطيران وتوضّع مستودعات الاحتياطات المادية ليتماشيان مع مصالح خوض العمليات الحربية في مستهل الحرب . فقد كانت المطارات مقامة على مقربة من الحدود كما كان التزاحم على أشده في تمركز الطائرات في المطارات القليلة العدد .

وبشهادة مارشال الاتحاد السوفييتي فاسيليفسكي كان جوكوف وأجهزة الإمداد في مفوضية الشعب للدفاع يعتبرون من الأفضل وجود الاحتياطات المادية الأساسية قبل بدء الحرب بعيداً عن الحدود الدولية ، أي على وجه التقريب على خط الفولغا . لكن ظهر هناك بعض النشطاء أمثال كوليك ، ميخليس ، شادينكو ، ممن عارضوا بشدة هذا الرأي . كانوا يعتبرون أن العدوان سيُصَدُّ بسرعة وستنتقل الحرب في الأحوال كافة إلى أراضي العدو . ومع الأسف تغلبت هذه النظرية وكانت النتيجة أن وقع الطيران السوفييتي والمخزونات المادية في الأيام الأولى للحرب تحت ضربات العدو .

كانت لدى الدولة السوفييتية ، على العموم ، خطط واسعة ترمي إلى إعادة تشكيل ورفع القدرة القتالية للجيش الأحمر والأسطول البحري الحربي موزعة على عدة سنوات . ها هو ذا ستالين يصرح : « حينما يتسنى لنا عمل كل هذا لن يجرؤ هتلر على غزو الاتحاد السوفييتي » . لكن هذا كله مع الأسف لم يقيض له أن يتحقق . فقد اندلعت الحرب وكان لدى القوات المسلحة الكثير من الإجراءات غير المكتملة من حيث إعادة تسليح وتنظيم وتحضير الجيش والأسطول وإقامة الخطوط الدفاعية وإعادة بناء الصناعة وإنشاء الاحتياطات على مستوى الدولة والمخزونات المتحركة .

اكتسب الاستطلاع أهمية خاصة عشية الحرب. فقد كُتب وقيل الكثير بعد الحرب بخصوص قيام الاستطلاع، في الوقت المناسب، بالإبلاغ عن التدابير الأساسية لتحشد القوات الألمانية قرب الحدود السوفييتية وعن تأهبها للهجوم. وهذا من شأنه أن يبسط الموقف الناشئ حينذاك زيادة عن اللزوم ولا يأخذ بعين الاعتبار أنه إلى جانب التقارير التي تؤكد الاستعداد لغزو الاتحاد السوفييتي هناك معطيات تدحض مثل هذه المعلومات.

ففي العام ١٩٤١ كان للضغط الثقيل الذي مارسته الأجهزة السياسية تأثير هائل ليس على الاستطلاع فحسب، بل وعلى سائر الفعاليات العملية في تنظيم الدفاع عن البلاد.

كان ستالين، وهو يسعى إلى المماطلة في اندلاع الحرب، يتابع محاولة تأمين سلامة البلاد بالوسائل السياسية والدبلوماسية، في حين كان الجانب الآخر قد حول منحى سياسته إلى جادة الحرب. في مثل هذا الموقف، وخصوصاً عشية الحرب، كان يتطلب الأمر مشاركة مباشرة، وبفعالية أكبر من جانب مفوضية الدفاع والأركان العامة، في إعداد القرارات السياسية ــ العسكرية، غير أن «أرباب» السياسة اعتبروا أنهم في غنى عن ذلكِ كله.

طلب بعض القادة (لاسيما م. ب. كيربونوس) من موسكو السماح لهم بتسديد ولو ضربات نارية تحذيرية لإعاقة أعمال الطيران الفاشية التي كانت تحلق فوق أراضيهم دونما حق. لكنهم تلقوا الإجابة التالية: «ماذا دهاكم، هل تريدون إشعال نار الحرب؟». فلم يكن في نية ستالين إعطاء هتلر أي مسوغ لإشعال نار الحرب. لكن هتلر لم يكن بحاجة إلى أي مبرر كما حصل مثلاً عند اجتياح بولونيا.

نتيجة لذلك يمكن أن نؤكد مرة أخرى أنه من الصعب تقييم فعالية جوكوف، كرئيس للأركان العامة، وتقييم كل ما حدث في مستهل الحرب دون أخذ الموقف بمجمله بعين الاعتبار مع ما كان يفرض عليه من الأعلى.

٢ ــ تأملات واستنتاجات

بالرغم من الهفوات الكبرى ومن الموقف غير الطبيعي الذي خلق صعوبات في إعداد القوات لصد العدوان فقد قامت القيادة السوفييتية عشية الحرب باتخاذ عدد من التدابير الهامة لتعزيز القدرة القتالية للقوات المسلحة لاسيما في المناطق العسكرية الغربية. وبفضل إصرار تيموشينكو وجوكوف تم استدعاء نحو (٨٠٠) ألف مكلف لاتباع دورات تدريبية، وكان هذا بمثابة تعبئة جزئية. كما أدخل في قوام هذه المناطق (٢٨) فرقة من المناطق الشرقية

للبلاد . وأمكن تحقيق ارتفاع كبير في إنتاج نماذج جديدة من الأسلحة . واستمر العمل في الإنشاءات الدفاعية بخطوات متسارعة . ودققت الخطط العملياتية والتعبوية بما يتناسب والتغيرات في ظروف الموقف . هذا ولم يكن للحرب السوفييتية الفنلندية نتائج سياسية عسكرية سلبية فحسب بل كان لخبرة هذه الحرب أهمية إيجابية أيضاً . إذ أصبحت القدرة القتالية للجيش الأحمر تقوَّم بشكل أكثر موضوعية وحزماً ، وعلى هذا الأساس اتخذت التدابير الفورية لإزالة العيوب ونقاط الضعف المكتشفة في بنائه وإعداده . وتحت قيادة المفوض الجديد للدفاع مارشال الاتحاد السوفييتي تيموشينكو بذل الكثير من المجهودات الرامية إلى تعزيز وحدة القيادة والنظام والانضباط وإلى تنشيط تدريب القوات وتقريبه إلى أقصى حد من ظروف الواقع القتالي . وقد بذل في هذا المجال خلال (١ ـــ ٥ر١) سنة أكثر مما بذل خلال الثلاثينات . كما نفذت عشية الحرب تدابير أخرى في سبيل رفع القدرة القتالية للجيش والأسطول .

من الممكن طبعاً توجيه لوم شديد إلى تيموشينكو وجوكوف لأنهما لم يفلحا في إقناع ستالين بضرورة اتخاذ تدابير أكثر حسماً في رفع الجاهزية القتالية للقوات . إلا أنه لم يكن بالإمكان عمل كل ما هو ضروري في ظل نظام القيادة الستاليني . وبالمقارنة مع ما كان يجري في الجانب الألماني ، يذكر المؤرخ الألماني صاحب مجلة « شبيغل » رودولف أوغشتاين بالمشهد التالي : حينما ظهر لدى واضع خطة « بربروسا » وهو الجنرال ماركس وكذلك رئيس الأركان العامة غالدير والقائد العام للقوات البرية براوخيتش ، شك في واقعية الخطة على أساس أن طاقة القوات المسلحة الألمانية ستستنزف حتى نهاية ١٩٤١ أو في ١٩٤٢ ، لم يقدموا على إعلام هتلر بذلك . في حين نرى أن تيموشينكو وجوكوف رفعا مقترحاتهما إلى ستالين بكل إصرار . مما جعل أوغشتاين مضطراً للاعتراف بأن القائدين السوفياتيين كليهما « .... في ظروف مفعمة بالمجهود النفسي الكبير تصرفا برجولة أكبر بكثير مما تصرف به براوخيتش وغالدير » .

إن أسباب النكسات العسكرية التي مني بها الاتحاد السوفييتي ، شأنها شأن الأسباب التي مكنته من الصمود في نهاية الأمر سنة ١٩٤١ ، تنحصر في الأوضاع المذكورة أعلاه بخصوص تحضير القوات المسلحة لصد العدوان . غير أن المصاعب تفاقمت أيضاً بسبب العيوب التي ظهرت في السيطرة العملية على القوات المسلحة مع بدء العدوان الفاشي . وحتى حينما ظهرت دلائل غزو الاتحاد السوفييتي بكل وضوح ثم بدأت الحرب بالفعل لم يكن لدى ستالين تقدير قطعي لما حدث . وهذا هو السر في اللجوء إلى أنصاف الحلول وعدم الحسم في الأعمال والتأخر في إسناد المهام للقوات . حتى أن التوجيه الخاص بوضع المناطق

العسكرية المتاخمة للحدود في الجاهزية القتالية لم يصدر إلا في الساعة (٣٠ر٠) من يوم ٢٢ حزيران ١٩٤١. وتسلمته الجيوش في الساعة (٣ — ٤) صباحاً بعد أن اندلعت الأعمال الحربية.

مع ذلك كان هذا التوجيه في غاية التناقض والحذر والغموض. ففي بادئ الأمر أعد رئيس الأركان العامة جوكوف توجيهاً أكثر وضوحاً حول وضع القوات في حالة الجاهزية القتالية لصد العدوان. غير أن ستالين، كما ذكرنا، اعتبر (وهذا كان قبل الحرب بسويعات) أن إعطاء مثل هذا التوجيه سابق لأوانه، على أمل أن تحل القضية بالطرائق السلمية.

لم يكن ليُسمح، بموجب التوجيه الصادر، حتى بوضع خطة تغطية الحدود الدولية موضع التنفيذ بكل إبعادها.

كان التوجيه ينص على وضع القوات في الجاهزية القتالية في أماكن تمركزها واحتلال النقاط النارية على الحدود، أما عن احتلال التشكيلات مواضعها الدفاعية فلم يُذكر شيء. وبهذا الشكل لم تسند للقوات مهمة الدفاع والأعمال الحاسمة لصد هجوم العدو وإنما كانت المهمة في عدم الانسياق وراء أية أعمال استفزازية من شأنها إحداث أوضاع محرجة خطيرة. وهذا المشهد وحده يعطي دليلاً واضحاً على عدم تفهم ستالين الأسس البدائية للقيادة العسكرية، وعلى مكره، ويمكن القول على استخفافه بالقوات المرؤوسة. وكما هو معلوم فإن إسناد المهام للقوات يتطلب الجلاء والوضوح بحيث لا يحدث لدى المنفذين سوء فهم والتباس. غير أنه ظهر في الصياغة المدققة على يد ستالين التباس كامل في المهمة المسندة. فكان من غير الممكن أن يفهم منها حتى ما إذا كانت الحرب وشيكة الوقوع أم أن المتوقع هو حدوث أعمال استفزازية فقط. فإذا لم تكن القيادة العليا، المستوعبة للموقف الاستراتيجي استيعاباً كاملاً، قادرة على حل هذه المسألة فكيف يمكن حلها في ميدان المعركة؟ كيف يمكن تنفيذ المهمة القتالية وكيف يمكن تحديد أن الأعمال الخاصة بصد هجوم العدو لن تخلق تعقيدات خطيرة؟ فعوضاً عن تقدير الموقف من قبل مُصدر الأوامر بالذات وتحديد طبيعة الأعمال المقبلة للقوات وتحمل مسؤولية ذلك على عاتقه، كانت التعليمات معطاة بصيغة تسمح، في حال ظهور عواقب وخيمة، برفع المسؤولية عن نفسه وإلقاء اللوم على من نفذها. وحتى قادة وأركانات المناطق العسكرية والجيوش لم يكونوا قادرين على استيعاب المقصد من عملهم وكيف سيتصرفون لدى تنفيذ المهمة. وكما يكتب مالينوفسكي: «عندما طرح سؤال استيضاحي: هل يمكن فتح النار إذا ما اقتحم العدو أراضينا جاء الجواب التالي: إياك أن تنساق وراء الاستفزازات وإياك أن تفتح النار».

يتحدث كتاب مقتطفات من ذكريات الألمان المشاركين في الحرب عن أنه في صباح ٢٢ حزيران التقطت أركان مجموعة جيوش المركز استفساراً صادراً عن محطة لاسلكية عسكرية سوفييتية يقول «إنهم يرشقوننا بالنيران، ماذا نفعل؟». كان جواب الأركان الأعلى: «لا شك أنك مختل العقل، لماذا لم ترمز برقيتك!».

نظراً لتأخر القيادة العامة في إصدار التوجيه، لم تصل التعليمات من أركانات المناطق والجيوش إلى معظم التشكيلات والقطعات بشكل عام، مما أدى إلى تحويل مثل هذه القطعات إلى الجاهزية القتالية تحت وابل من نيران العدو.

كانت القوات قبيل الحرب في الوضع المتعارف عليه زمن السلم، أي متمركزة في أماكن الإقامة الدائمة وفي المعسكرات والثكنات. وكانت الأسلحة والمعدات مخزنة في المستودعات. ها هي ذي معظم التشكيلات في غمرة الأعمال القتالية وتحت الضربات المكثفة من الطيران والمدفعية المعادية، تبدأ تحركاتها إلى الحدود الدولية وجهاً لوجه أمام تجميعات دبابات العدو الزاحفة، دون أن تفلح في احتلال الخطوط الدفاعية المخصصة لها في المنطقة الحدودية. فمن أصل (٥٧) فرقة مخصصة لتغطية الحدود لم تلتحق سوى (١٤) فرقة حسابية (أفواج وكتائب متفرقة) أو (٢٥٪) من القوى والوسائط المخصصة لهذه الغاية، في احتلال مناطق الدفاع المخصصة لها. وفوق ذلك كان هذا بشكل رئيسي على أجناب الجبهة السوفييتية ـــ الألمانية. وكانت أفواج المدفعية والقطعات المضادة للطائرات التابعة للفرق والفيالق حينذاك قد غادرت معسكراتها لاتباع دورات تدريبية (على مسافة بعيدة عن تشكيلاتها) ولذلك زجت القوات في القتال دون دعم مدفعي أو تغطية جوية.

كانت النتيجة أن تكبدت القوات في الساعات والأيام الأولى خسائر فادحة دون أن تتمكن من إبداء مقاومة منظمة كما ينبغي لها في وجه قوى العدو المهاجمة.

وقعت القوى الجوية السوفييتية في مأزق حرج. فالطيران الذي لم يلحق بالانتشار خسر معظم طائراته وهي جاثمة في المطارات. مثلاً خسر طيران الجبهة الغربية خلال اليوم الأول من الحرب (٧٣٨) طائرة من مجموع (١٧٨٠) طائرة متوفرة لديه. وبلغ مجموع ما خسره الطيران السوفييتي في اليوم الأول (١٢٠٠) طائرة، مما أتاح للطيران الألماني إحراز التفوق في الجو مع بداية الحرب، وبضرباته المكثفة إعاقة الانسحاب المنظم للقوات السوفييتية وتمسكها بالخطوط الدفاعية الجديدة ومنع وصول الاحتياطات والأنساق الثانية إليها وتعذر نقل الوسائط المادية إلى ميدان المعركة.

أما الجيش الألماني فقد تمكن منذ بداية الحرب، من انتزاع زمام المبادرة. ونتيجة لانتقاله المفاجئ إلى الهجوم واستخدامه الكثيف للقوى والوسائط على الاتجاهات الرئيسية. فقد أتيح له في اليومين الأولين التوغل مسافة (١١٠ ـــ ١٥٠) كم وتشكيل تهديد بتطويق تجميعات ضخمة من القوات السوفييتية وتمزيق جبهة دفاعها.

نظراً لعدم حصول القيادة العامة للقوات السوفييتية على معطيات موثوقة عن الموقف في الوقت المناسب، وعدم معرفتها حقيقة ما يجري في الجبهة، فقد أصدرت تعليمات غير واقعية للقوات وغير متناسبة مع ظروف الموقف الناشئ.

وهكذا منيت الأعمال الدفاعية للجبهات في الأيام (١٥ ـــ ١٨) الأولى بالفشل الذريع. وتوغلت القوات الألمانية ـــ الفاشية على الاتجاه الشمالي ـــ الغربي على عمق يصل إلى (٤٥٠) كم، وعلى الاتجاه الغربي إلى (٤٥٠ ـــ ٦٠٠) كم، وعلى الاتجاه الجنوبي ـــ الغربي إلى (٣٥٠) كم. واستمر تقهقر القوات السوفييتية وهي تخوض معارك قاسية.

مع ذلك وفي هذا الموقف الشديد الوطء ما زالت القيادة العامة للقوات السوفييتية ماضية في تقديرها الخاطئ للموقف.

كان من الأفضل، بعدما انهار صمود الدفاع الاستراتيجي وظهرت فجوات خطيرة، من جراء توغل تجميعات ضخمة للعدو على عمق كبير، تجهيز الدفاع في وقت مسبق على امتداد نهري الدفينا الغربي والدنيبير بغية سحب القوات وتوجيهها إلى هذا الخط. غير أن مثل هذه القرارات لم تتخذ في الوقت المناسب. ففي محاولة الحفاظ على كل خط بأي ثمن وعدم السماح بالانسحاب وجدت القوات نفسها في وضع أسوأ، وهذا ما أدى إلى توالي عمليات التقهقر.

لدى تحليل الهزائم التي وقعت سنة ١٩٤١ تورد أسباب مختلفة أكثرها مأخوذ من الواقع. ولكنها كلها تعتبر محصلة لسببين رئيسيين كان لهما تأثير حاسم وقاتل على مجرى الأحداث المأساوية في مستهل الحرب.

أولهما ـــ مرتبط بظاهرة، كثيراً ما تتكرر في التاريخ، وهي إغفال المبدأ الأساسي القائل بأن الحرب ظاهرة ذات حدين. وقد وصل عدم فهم ستالين لهذه الحقيقة البديهية وعدم رغبته في أخذها بعين الاعتبار إلى حد السخافة، فكان غالباً ما يفوته أنه في حال الصراع العسكري والسياسي المتصاعد بين طرفين لا يجوز الانطلاق من رغباته ودوافعه الشخصية دون مراعاة ما يخفي الطرف الآخر من أهداف وماذا سيتخذ من إجراءات. ومما

ورّطه بشكل خاص المكابرة من جانب واحد إلى حد السذاجة في تقدير الموقف السياسي ـــ العسكري دون قبول أية خيارات في تطوره. فلو فرضنا أنه كان عازماً على تأجيل بداية الحرب عدة سنوات تراه واثقاً من أن هتلر أيضاً لا يمكنه أن يشن هجومه قبل هذا الوقت. ولما كانت القدرة الحربية لفرنسا عام ١٩٤٠، انطلاقاً من حسابات ستالين، تسمح لها بمجابهة ألمانيا مدة طويلة نسبياً. فهذا سيكون ضمانة لتأجيل العدوان ضد الاتحاد السوفييتي.

لم تكن الحياة العملية لتجد لها مكاناً في مخطط تفكيره المرسوم. ففي ١٣ حزيران تقدم مفوض الشعب للدفاع تيموشينكو مع جوكوف باقتراح إلى ستالين من أجل وضع القوات في حالة الجاهزية القتالية، فما كان منه إلا أن طلب منهما في اليوم التالي قراءة الخبر المنشور في وكالة تاس ومفاده أن هتلر غير عازم على الهجوم. ولقناعته بأنه معصوم عن الخطأ، ولتعوده على خضوع كل شيء داخل البلاد لإرادته يبدو أن ستالين توهم بأن هذا يسري على كل الميادين الأخرى.

والسبب الثاني للهزائم والنكسات العسكرية عام ١٩٤١ في روسيا يفسر بالمركزية اللامعقولة التي يصعب تصديقها في السيطرة على كل نواحي الحياة والفعاليات في الدولة والدفاع عن البلاد وبناء وإعداد القوات المسلحة. ومن حيث المبدأ كانت مثل هذه المركزية لازمة عشية الحرب وما بعدها.

غير أن المركزية المفرطة التي فرضها ستالين على القيادة والسيطرة بحيث تجاوزت كل حدود المعقول، وإلقاء الشبهة على الناس وإساءة الظن بهم واضطهادهم وإرهابهم، كل ذلك أدى إلى تضييق الخناق على مجالات العمل العامة وحرم منظومة القيادة من ثمرات الإبداع والمبادهة التي من دونها لا يمكن أن تعمل إلا بشكل عمودي من فوق إلى تحت ضمن إطارات مرسومة، وتصبح غير مؤهلة للإحاطة بكل صعوبات الواقع الحقيقي والتجاوب مع متغيراته. فمثل هذه المنظومة للقيادة لم تستطع أن تثبت فعاليتها، بل شلت المجهودات الرامية إلى إعداد البلاد وقواتها المسلحة لصد العدوان.

هذا ولم يقتصر الأمر على عدم تمكن ستالين من الإحاطة بكل المسائل، بل إنه فوق ذلك احتكر حق إقرارها لنفسه، وقمع بقسوة أية استقلالية في التفكير والعمل. فكان على القادة الآخرين وأجهزة القيادة على مختلف المستويات أن يقفوا مكتوفي الأيدي بانتظار ورود التعليمات، وأن يقتصر عملهم على التنفيذ الآلي فقط.

انقلبت مثل هذه الممارسة للقيادة وللسيطرة على القوات إلى مأساة حقيقية . إذ كان كثير من المقترحات الصادرة عن لجنة تخطيط الدولة ومفوضية الشعب للدفاع يبقى مدة طويلة مرمياً على الرف ويؤجل البت بالمسائل الملحة مراراً وتكراراً . وبالنتيجة لم تتخذ قرارات ، قبل بدء الحرب ، بتحويل الصناعة للمجهود الحربي وتسريع انتاج الأنواع الجديدة من الأسلحة . ولم تُصدَّق أو تدخل حيز التنفيذ خطط العمليات والتعبئة الجديدة بدلاً من القديمة التي لم تكن تتماشى مع الظروف الجديدة . ولم يجر قبل الحرب تعبئة القوات المسلحة ، والشيء الأهم ، لم توضع القوات السوفييتية قبل بدء الأعمال الحربية في الجاهزية القتالية لصد العدوان المرتقب ، وإنما بقيت في وضعها العادي زمن السلم . وهذا يعني ببساطة أن العدو الذي جهز نفسه من كل النواحي ، سدَّد ضربته إلى جيش بقي قبل بدء الهجوم فترة من الزمن منزوع السلاح ، وفي واقع الأمر لم يتأهب لخوض الأعمال القتالية .

لا يمكن لجيش أن يوضع في وضع أكثر هولاً وأكثر ضياعاً من ذلك . ففي مثل هذه الظروف لن يتمكن الجيش من تجسيد إمكاناته ولا إبراز مهاراته القتالية . حتى ولو لم يكن هناك أية أخطاء أخرى (كالتأخر في تعبئة الجيش وتشتيت العتاد القتالي في تشكيلات كثيرة والتحديد الخاطئ لاتجاه الضربة الرئيسية للعدو وغيرها كثير) يكفي خطيئة واحدة في وضع القوات في الجاهزية القتالية لكي تبطل مفعول كل التدابير المنفذة . وكان لهذا الوضع عواقب مفجعة قدرت على روسيا تحمل الهزائم والكوارث في مستهل الحرب .

هل يمكن إلقاء اللوم في كل ما حدث على رئيس الأركان العامة الجنرال جوكوف ؟ نعم ، لم يكن ذنبه هيناً . فقد اعترف بمسؤوليته عن ذلك غير مرة . لكن لا جوكوف ولا غيره كان قادراً على الوقوف في وجه النظام الستاليني في القيادة حينذاك . إلا أن فضله يتمثل في أنه حتى تحت الظروف التي لا تطاق تمكَّن من إزاحة الكثير من المصائب وتحقيق إنجازات لا يستهان بها .

أودّ هنا أن أعبر عن أملي بأن لا يغيب عن البال ، حتى في الظروف الحديثة ، أن الطابع الدفاعي للعقيدة العسكرية ليس من شأنه أن يخفف من أهمية الجاهزية القتالية العالية للقوات المسلحة ، بل على العكس يرفع من أهميتها بما لا يقبل القياس ، إذ أن المعتدي حين يختار اللحظة المناسبة للهجوم بستعد لذلك مسبقاً . في حين نجد الطرف المدافع مضطراً للجوء إلى الأعمال الجوابية . كذلك الحياة تدلنا على أن الأركان العامة لن تتمكن من إظهار نشاطها المبدع المليء بالحياة إذا كانت مكبلة بقيود قاسية من جانب القيادة السياسية .

كتب المارشال كونيف في عام ١٩٥٧ ، بعدما تلقى إيعازاً بأن يرمي جوكوف بشباكه ما يلي :

« لكونه رئيس الأركان العامة ، كان جوكوف مكلفاً بإمعان النظر في الموقف وإعداد مقترحات محددة وإحالتها إلى اللجنة المركزية للحزب والحكومة بهدف رفع الجاهزية القتالية للقوات المسلحة . مع ذلك ، كما هو معلوم للجميع ، كان هناك تدابير عاجلة مرتبطة بوضع القوات مسبقاً في الجاهزية القتالية واحتلالها خطوطاً دفاعية مناسبة لمجابهة العدو بشكل منظم ومحضر ، لم يجر تنفيذها » .

حقاً لم تنفذ ، لكن كونيف لم يأت على ذكر السبب الكامن وراء عدم تنفيذها .

خلافاً لكثير من القادة والمؤرخين لم يعمد جوكوف إلى القاء اللوم بالكامل على عاتق ستالين بل قام ، عن طريق النقد الذاتي ، بتحليل أسباب الأخطاء المرتكبة قائلاً : « أنا لا أرفع المسؤولية عن كاهلي لأنني ، ربما لم أوفق إلى حد ٍ كاف ، أمام ستالين ، في تعليل ضرورة وضع جيشنا في الجاهزية القتالية التامة لصد العدوان المرتقب . فلم أكن لا أنا ولا من كان قبلي مثل شابوشنيكوف وميريتسكوف ولا جهاز القيادة في الأركان العامة حاسبين أن العدو سيقوم بتحشيد مثل تلك الكثافة من القوات المدرعة والآلية ودفعها في أول يوم بتجميعات ضخمة متراصة على كل الاتجاهات الاستراتيجية بهدف إنزال ضربات ساحقة ماحقة » .

ومما زاد الطين بله أن مدراء أجهزة الاستطلاع وسواهم من الشخصيات المسؤولة الذين روعتهم الممارسات القمعية في البلاد (يكفي فقط أن نعرف أن ثلاثة من مدراء إدارة الاستطلاع كانوا قد أعدموا في سني ما قبل الحرب) كانوا يحاولون أن يرفعوا فقط التقارير المتماشية مع تقديرات ستالين . ففي مستهل نشاطه في منصب رئيس الأركان العامة اقترح جوكوف على ستالين بعض التدابير العاجلة لتعزيز الدفاع على الحدود الغربية ، وإذ بمولوتوف ، الذي كان حاضراً وقتئذ ، يرد عليه بامتعاض : « ماذا دهاك يا رجل ، أتريد أن نشتبك مع الألمان ؟ » . حدث ذلك في حين كانت الاستعدادات لهجوم ألمانيا على الاتحاد السوفييتي في أوجها ، ولم يبق سوى عدة أشهر لاندلاع الحرب . هذا وبالرغم من كل تقارير الاستطلاع حول تحشد (١٧٠) فرقة ألمانية قرب الحدود السوفييتية يأتي بيريا ليؤكد لستالين في أيار ١٩٤١ قائلاً : « أنا ورجالي نعي كل الوعي يا يوسف فيساريونوفتش ، توقعاتك الحكيمة بأن هتلر لن يهجم علينا في عام ١٩٤١ » .

ها هو ذا مدير إدارة الاستطلاع ف . ي . غوليكوف ، بعد أن يبلغ ستالين مغطيات الاستطلاع عن استكمال ألمانيا استعداداتها للعدوان يقدم له الاستنتاج التالي :

« لا بدّ لنا من النظر إلى الإشاعات والوثائق القائلة بحتمية وقوع حرب ضد الاتحاد السوفييتي ربيع هذا العام على أنها تضليل موجه من الاستطلاع البريطاني بل وربما يكون من

الاستطلاع الألماني » . ومثل هذا الاستنتاج ورد في المذكرة التي رفعها إلى ستالين مفوض الشعب للأسطول البحري الحربي الأميرال ن . غ . كوزنتسوف .

يكتب جوكوف بعد الحرب : « بالطبع علينا تقع ، نحن العسكريين ، المسؤولية في أننا قصرنا في المطالبة بوضع الجيش في الجاهزية القتالية والمبادرة إلى اتخاذ سلسلة من التدابير الضرورية في حال وقوع الحرب . ولا يخفى أنه كان علينا أن نفعل ذلك بحسمية أكبر مما فعلنا ، لاسيما أنه ، بغض النظر عن كل السلطة المطلقة التي بيد ستالين ، كانت تعشعش في قرارة نفسه بذور الشك وتهتاج مشاعر الخطر حيال الهجوم الألماني . طبعاً لا بدّ من أن تتصور ماذا كان يعني حينذاك السير خلافاً لرأي ستالين في تقدير الموقف السياسي العام . لا تزال السنوات المنصرمة القريبة تعشعش في ذاكرة الجميع . فإذا ما تجرأت وأعلنت على الملأ أن ستالين غير محق وأنه يخطىء فهذا قد يعني حينئذ ببساطة ، قبل أن تخرج من المبنى ، أنك ذاهب لا محالة لتشرب القهوة في مضافة بيريا .

كل هذا ليس سوى وجه واحد للحقيقة ، وأشعر أن من واجبي ذكر الحقيقة برمتها . لم أكن لأشعر وقتئذ ، قبل الحرب ، أنني أكثر ذكاء وأبعد نظراً من ستالين وأنني أقدّر الموقف أفضل منه وأعرف أكثر منه . لم يكن لدي ذلك التقدير الذاتي للأحداث الذي يمكنني من مجابهة ستالين به على أنه أصح من تقديراته . لم يكن لدي مثل هذه القناعة . على العكس كان لدي إيمان راسخ بستالين ، بفكره السياسي ، ببعد نظره ، بكفاءاته في إيجاد مخارج من أكثر الأوضاع صعوبة . ولا سيما بمقدرته ، في هذا الخصوص ، على تجنب التورط في الحرب وإزاحتها من الطريق . كان الخوف يحز في النفس . لكن الإيمان بستالين وبأن كل شيء سيسير في المجرى الذي خطه بيده كان أقوى . ومهما نظرنا إلى هذه الأمور اليوم فهذه هي الحقيقة » .

كانت الأركان العامة ذاتها غير مستعدة بما فيه الكفاية قبيل اندلاع الحرب . أضف إلى ذلك أن ستالين قام ، في الأيام الأولى من الحرب ، بإيفاد كل العناصر القيادية في مفوضية الشعب للدفاع والأركان العامة إلى الجبهات مما أدى إلى زيادة تعقيد السيطرة على القوات . والمثال على ذلك جوكوف الذي أوفد إلى قوات الجبهة الجنوبية الغربية . هذا وارتكب قادة القوات أخطاء جسيمة ، لاسيما قائد قوات الجبهة الغربية الجنرال بافلوف . وكتب المؤرخون أكثر من مرة أنه حتى لو كان جوكوف مكان بافلوف لم يكن ليتغير شيء على الإطلاق . في الواقع ظهر موقف استراتيجي عام بحيث لم يكن أكثر القادة كفاءة ، مثل جوكوف ، قادراً على تنظيم ضربة معاكسة على درجة كافية من الفعالية بعدة فيالق ميكانيكية من الجبهة الجنوبية ـــ الغربية ضد تجميع العدو المدرع في منطقة سوكول . بالرغم من أن هذه الضربة

المعاكسة بالذات، بالمقارنة مع الضربات الأخرى، ربما يكون لها نصيب كبير من النجاح، ومن شأنها أن تنزل خسائر فادحة بالعدو وتوقف زحفه. هذا ما جعل غالدير مكرهاً على الاعتراف به في يومياته.

بيد أن جوكوف، حتى في هذا الموقف العصيب، تراه يثبت مقدرته ليس فقط في النفوذ إلى صميم الموقف المتشكل بل وفي التنبؤ بتطوره على المدى البعيد.

٣ ــ في مواجهة الخطر الرهيب

وهكذا بفضل حدة بصره النادرة ومقدرته على إعمال فكره، ليس فقط في موقف الصديق بل وفي موقف العدو أيضاً، وإزالة النقاب عن سير الأحداث ليس فقط الجارية منها بل والوشيكة الحدوث أيضاً، فقد تمكن جوكوف من تشخيص خطة القيادة الألمانية المتعلقة بتحويل المجموعة الثانية الميدانية والمجموعة الثانية دبابات التابعتين للقوات الألمانية نحو الجنوب الشرقي لتسديد ضربات إلى الجناح الأيمن للجبهة الجنوبية الغربية ومؤخرتها. وقد لقيت مثل هذه الخطة معارضة حتى من جنرالات هتلر الأكثر خبرة. وفي غمرة الموقف الناشئ حينذاك بدا ببساطة من غير المعقول الإقدام على سحب القوى من اتجاه موسكو الرئيسي، حيث أحرز العدو أكبر نجاح له، وتحويلها إلى الاتجاه الجنوبي الشرقي. أما جوكوف فبعد التشاور مع مدير إدارة العمليات في الأركان العامة زولوبين ومعاونه فاسيليفسكي، أدرك أن هناك إمكانية لمثل هذا القرار واقترح إجراء تدابير معينة لاستباق العدو وإحباط مخططاته.

والجدير بالذكر أن مثل هذا التنبؤ بالتطور الممكن للأحداث لم يكن ثمرة للحدس السليم فحسب، بل ارتكز على تحليل متقن للموقف وإلى حسابات عملياتية وفهم عميق للمنطق الكامن في تطور الأعمال الحربية.

قبل كل شيء أخذ جوكوف بعين اعتباره أن القوات الألمانية، بالرغم من النجاحات الضخمة التي حققتها، تكبدت خسائر كبيرة. واتسعت الجبهة العامة للعدو اتساعاً كبيراً. وبدأت الكثافة العملياتية للقوات تنخفض بشكل حاد بحيث أصبحت الآن غير كافية لمتابعة الهجوم في آن واحد على سائر الاتجاهات الاستراتيجية. كان العدو لا يزال قوياً وخطيراً جداً، لكنه مع ذلك أصبح مرهقاً. لذلك توصل جوكوف إلى استنتاج بأن القيادة الألمانية لن تغامر في الوقت الحاضر بشن هجوم على موسكو. فهي لم تكن مستعدة لمثل هذه العملية، إذ لم يكن في يدها ما يكفي من القوات الضاربة، ناهيك عن النوعية المطلوبة.

دلت الدراسة المتقنة لمختلف احتمالات الأعمال الممكنة للعدو على أنه ، كما يبدو ، لن يصرف انتباهه عن قطاع هام بالنسبة لمجموعة جيوش « المركز » أمام جناحها الأيمن ، وأنه سيسعى في المستقبل القريب إلى سحق الجبهة المركزية التي كانت تضم في قوامها جيشين فقط .

كان واضحاً أنه إذا ماحدث ذلك ستتاح أمام القوات الألمانية الفرصة للنفوذ إلى جنب ومؤخرة الجبهة الجنوبية الغربية وسحقها . وإذا مااستولت على كييف تكون قد فازت بحرية العمل على الضفة اليسارية لأوكرانيا . لذلك سيتمكن الهتلريون من البدء بالزحف على موسكو بمجرد زوال الخطر المحدق بهم على جنب التجميع المركزي من ناحية الاتجاه الجنوبي الغربي .

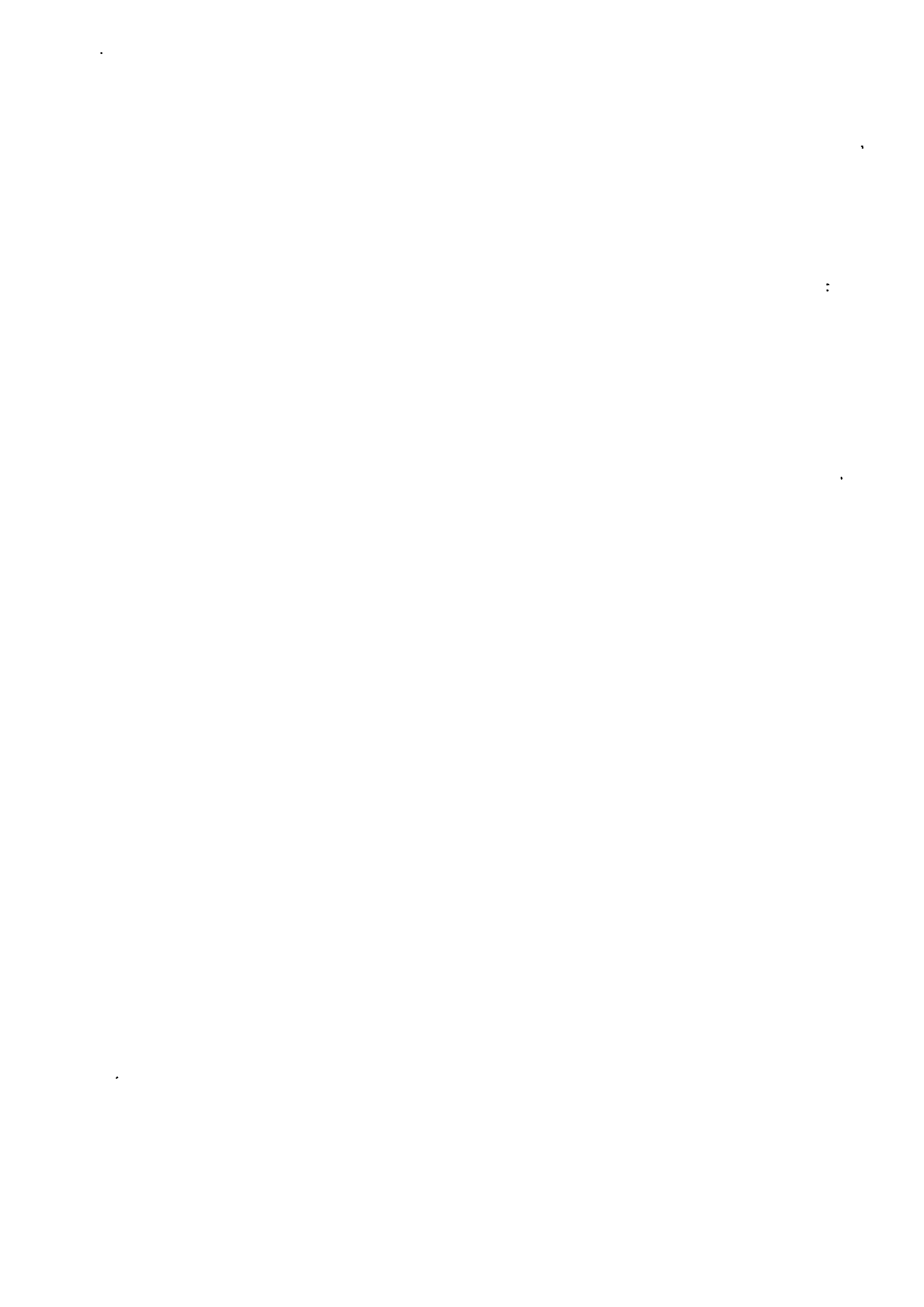
كان استعداد القيادة الألمانية لشن هجومها الحاسم على موسكو مرهوناً كذلك بما ستحققه المعارك الدائرة على اتجاه لينينغراد . فهي بعد الاستيلاء على لينينغراد والاتصال مع الجيش الفنلندي ستتمكن من تحويل قواها أيضاً إلى موسكو ملتفة حولها من الشمال الشرقي ، ومؤمّنة بشكل موثوق الجنب الأيسر لمجموعة جيوش « المركز » .

غير أن ستالين لم يتفق مع جوكوف حيال هذه الحجج وهذا التقدير للموقف . فقد تقدم جوكوف ، بعد سرد تقديره للموقف ، باقتراح إلى ستالين لتعزيز الجبهة المركزية بما لا يقل عن ثلاثة جيوش معززة بالمدفعية . على أن يُسحب جيش واحد من الاتجاه الغربي ، وجيش ثان من الجبهة الجنوبية الغربية ، وثالث من احتياط هيئة القيادة العليا ، مع وضع قائد محنك ونشيط على رأس الجبهة . وعلى وجه التحديد ، اقترح تعيين ن . ف . فاتوتين . (كانت الفكرة الأخيرة هامة أيضاً ، إذ أن آ . ي . يريمنكو بتأكيداته العشوائية ضلّل ستالين بخصوص الموقف المتشكل بالفعل) .

رفض ستالين كل هذه الحجج خوفاً من أن يضعف اتجاه موسكو . غير أن جوكوف كان على ثقة بأن العدو لن يتحرك إلى الأمام على هذا الاتجاه ، كما كان بمقدور ستالين خلال (١٢ ــ ١٥) يوماً ، تحويل مالا يقل عن ثماني فرق جاهزة للقتال من الشرق الأقصى واستخدامها لتعزيز الدفاع عن موسكو . وجاءت الأحداث اللاحقة لتثبت صحة مثل هذه الاستنتاجات . هناك اقتراح وجيه قدمه جوكوف وهو يقضي بسحب قوات الجبهة الجنوبية الغربية في حينه إلى الضفة الشرقية لنهر الدنيبير . وفي الوقت ذاته اقترح تحشيد الاحتياطات الضرورية في منطقة كونوتوب وبريلوكا لمواجهة ضربة العدو على جنب الجبهة الجنوبية الغربية . وكان لإصرار جوكوف في دفاعه عن هذا الاقتراح أن أثار حفيظة ستالين فعزله من منصب

رئيس الأركان العامة . وأدّى الاستخفاف برأي جوكوف إلى تطويق قوات الجبهة الجنوبية الغربية وتعرضها لهزيمة نكراء . وأحدق بموسكو ، في أيلول ــ تشرين الأول ١٩٤١ ، خطر الموت .

لو أصغى ستالين باهتمام أكبر لرأي الأركان العامة ، ولو كان جوكوف ، بوصفه رئيساً للأركان العامة ، يملك صلاحية إقرار المسائل العملياتية ــ الاستراتيجية باستقلالية أكبر ، لاسيما في العام ١٩٤١ ، لأمكن للقوات أن تعمل بدرجة أكبر من التنظيم والنجاح . لكن جوكوف كان محقاً حينما كتب: « ليس هناك أسهل من العودة إلى بداية الأحداث وإصدار أحكام مختلفة ازاءها حين تكون كل عواقبها ظاهرة للعيان . وليس هناك أصعب من الغوص في جملة المسائل ... والأخبار والحقائق والخوض فيها وهي لا تزال في مجراها التاريخي الراهن » . والحق أن غيورغي كونستانتينوفتش جوكوف نفسه لم يكتف بالعودة إلى الوراء وتقويم الكثير من الأحداث الفائتة والحكم عليها فحسب ، بل كان قادراً كذلك ، حتى قبل أن تقع الأحداث ، على التنبؤ بها وإيجاد القرارات الرشيدة التي تنسجم إلى حد كبير مع الموقف الناشئ في ذلك الوقت . ولم يقيض لكل استنتاجاته ومقترحاته البارعة أن تجد سبيلها للتطبيق ، وذلك للأسباب المبينة أعلاه ، غير أن التجربة المأساوية لعام ١٩٤١ علّمت جوكوف الكثير ، وكانت بمثابة لبنة ضخمة في أساس بناء فنه القيادي .



الفصل الرابع

منظم معارك التحوّل

«تميز المارشال جوكوف كقائد بارز بموهبة التنبؤ بتطور الأحداث القتالية على مقياس كبير وبعقل محلل، مما سمح له بتقييم الموقف بصدق وسرعة مهما كانت صعوبته، واتخاذ قرارات غير عادية لا يتوقعها العدو».

(مارشال الاتحاد السوفييتي ي. خ. بغراميان)

عملت أحداث الحرب المضنية التي كثيراً ما كانت مأساوية بالنسبة للدولة السوفييتية، على إظهار موهبة القيادة لدى جوكوف التي تتجلى في: شمولية النظر في الموقف الحربي والعسكري ــ السياسي، عمق النفوذ إلى أفكار العدو وأعماله، الواقعية في تقدير تناسب القوى والوسائط، العزيمة التي لا تلين لتحقيق الأهداف المسندة في أصعب الشروط، النشاط الكبير لفرض إرادته على العدو، الحسمية وعدم التردد عند تنفيذ القرارات العملياتية ــ الاستراتيجية، الثقة بالنفس في المواقف الصعبة والمبهمة.

تمتع المارشال جوكوف بميزة التنظيم التي تتجلى في المقدرة على رص الصفوف ودعوة القادة وضباط الأركان للعمل النشيط، كان منظماً ممتازاً للعمل القتالي في هيئات عسكرية كبيرة، إنه حبيب الشعب السوفييتي بأجمعه، وليس عبثاً أن صوره كانت تقتطع من صحف ما بعد الحرب لتعلق في أماكن بارزة في الشقق والبيوت.

فقد حمل على عاتقه عبء تلك الحرب الطويلة والصعبة، ناهيك عن أنه كان يمجد ذكرى الذين سقطوا على الدرب من أجل القضية العادلة، وكان الشعب الروسي قد تعلق في زمن سابق بكوتوزوف أيضاً والذي تحت قيادته استطاع الجيش الروسي في الحرب الوطنية عام ١٨١٢ أن يهزم نابليون الذي قهر أوروبا بأكملها قبل ذلك.

بهذه المناسبة أريد أن أسجل حادثة جرت في ربيع العام ١٩٦٥. كان ذلك إبان الاحتفال المهيب الذي جرى بمناسبة الذكرى العشرين للانتصار على النازية.

ففي صباح ١٩٦٥/٥/٩ جرى عرض عسكري كبير في الساحة الحمراء، وفي المساء أقيم مهرجان خطابي حافل في قاعة الاجتماعات بالكريملن... وفي الساعة السادسة مساءً ألقى السيد ليونيد بريجنيف كلمة الحزب الشيوعي بهذه المناسبة، وكان كلما مر على مقطع هام يقاطعه الحفل الحاشد بالتصفيق لمدة عشر ثوان تقريباً... إلى أن وصل بريجنيف إلى المقطع الخاص بإعادة الاعتبار إلى بطل الشعب السوفييتي... المارشال جوكوف... وكان نيكيتا خروشوف قد أعفاه من منصب وزير الدفاع وأحاله إلى المعاش... وعندما نطق بريجنيف باسم جوكوف موجهاً كلامه إلى الحفل بقوله: بمناسبة هذه الذكرى الحبيبة إلى قلوبنا قررنا إعادة الاعتبار إلى المارشال جوكوف بطل الاتحاد السوفييتي أربع مرات ووضعه في الخدمة العاملة... وقف الحضور وهم ممثلو الحزب الشيوعي السوفييتي في الجمهوريات كافة وكان عددهم يربو على الستة آلاف، وبدؤوا بالتصفيق لمدة خمس دقائق، ثم جلسوا ليستمعوا إلى بقية الخطاب... وهذا يدلنا دلالة عميقة على مدى المحبة التي كان يكنها الشعب السوفييتي لبطله العظيم.

كانت موهبة القائد جوكوف معروفة لدى القادة العسكريين الأجانب، يكتب د. آيزنهاور في كتابه «حرب صليبية في أوربا»: «اكتسب كقائد مسؤول في الموقعات الكبيرة خلال عدة سنوات من الحرب خبرة تفوق أي قائد عسكري آخر في زماننا، إذ كانوا يرسلونه عادة إلى ذلك القطاع من الجبهة الذي يبدو حاسماً في اللحظة المعنية. ومن خلال تقديره لقوام القوات وأرض المعركة والدوافع التي تحمله على اتخاذ القرار الاستراتيجي أو ذاك، يتضح أنه جندي محنك».

وفي الواقع دل سير الحرب على أن الواقعية كانت تلازم إمرته دائماً، ففي الموقعات المريرة ولاسيما في الفترة الأولى من الحرب كانت القوات السوفييتية تحت إمرته تتمتع بقوة تفوق طاقة البشر.

١ ـ عملية يلنيا

بعد إعفاء جوكوف من منصب رئيس الأركان العامة، تسلم بتاريخ ٣٠ تموز ١٩٤١ قيادة الجبهة الاحتياطية. وبعد أن تفهم الموقف وتأكد من الثبات النسبي لوضع قوات الجبهة باشر في التحضير لعملية «يلنيا».

كانت هذه العملية المنفذة فيما بين ٨/٣٠ و ١٩٤١/٩/٨ أول عملية هجومية نفذت بنجاح خلال الحرب العالمية الثانية. وقبلها باءت بالفشل محاولات كثيرة للجوء إلى

الأعمال الهجومية. وكان من الأمور الهامة، بشكل منقطع النظير، تحقيق انعطاف في هذا الخصوص. وجاء ذلك على يد المارشال جوكوف.

قبل كل شيء، حينما كان يمارس عمله في الأركان العامة، انتبه في الوقت المناسب إلى خطورة نتوء يلنيا المتشكل نتيجة للخرق الذي نفذته المجموعة المدرعة الألمانية الثانية، في أواسط تموز، إلى الجنوب من سمولنسك واستيلائها (في ١٩ تموز) على مدينة يلنيا. وتوفرت لدى القيادة الألمانية الإمكانية لتوجيه ضربة من رأس الجسر هذا إلى جنب الجبهة الغربية، وتطوير الهجوم على موسكو من أقصر اتجاه.

أصبح معلوماً، فيما بعد أن قيادة مجموعة جيوش «المركز» تقدمت بطلب إلى هتلر للسماح لها بالتخلي عن نتوء يلنيا، متذرعة بالخسائر التي منيت بها هذه المجموعة. لكنه رفض هذا الطلب لاعتقاده بأن منطقة يلنيا هي رأس جسر مناسب لتسديد ضربة إلى موسكو.

وُفِّق جوكوف أيضاً في اختيار اللحظة المناسبة لسحق تجميع العدو في هذه المنطقة حينما كانت القوى الرئيسية للقوات الألمانية ـــ الفاشية مشتبكة في القتال على القطاعات الأخرى من موقعة سمولنسك، إذ تحركت القوى الرئيسية للمجموعة المدرعة الثانية بقيادة غودريان نحو الجنوب، ولم يبق في عمق الدفاع الألماني احتياطات متحركة كبيرة. وانطلاقاً من ذلك اقترح جوكوف على ستالين بأن يتم القضاء على رأس جسر يلنيا قبل المباشرة بالمعارك الحاسمة للدفاع عن موسكو. وقد لجأت القوات خلال شهر آب إلى الهجوم عدة مرات لكنها لم تحظ بأي تقدم.

استمع إلى ما قاله جوكوف في مذكراته: «كانت عملية يلنيا أول عملية معتبرة وأول اختبار للكفاءات العملياتية التكتيكية الشخصية في الحرب الكبرى مع ألمانيا الهتلرية. أعتقد أنه ليس خافياً على أحد ما هو القلق الذي انتابني وما هي العناية والحرص والحذر التي بذلتها حينما باشرت بتنظيمها وتنفيذها».

على أثر بقائه، في الأيام الأولى لتسلمه قيادة الجبهة، في مقر قيادة الجيش (٢٤) الذي وقع عليه العبء الأكبر في العملية المقبلة، وفي تراتيب قتال التشكيلات والقطعات، توصل إلى قناعة وهي أن العدو تمكن من التشبث بشكل أساسي بنتوء يلنيا، لذلك فبدلاً من المطالبة بمتابعة الهجوم بأي ثمن، كما كان مقرراً قبل وصوله إلى الجبهة، فقد قرر جوكوف، تجنباً لوقوع خسائر زائدة وبغية تأمين نجاح العملية، إيقاف الأعمال الهجومية مؤقتاً وإعادة

تشكيل القوى ، ومن ثم القيام بتحضير عملية هجومية جديدة تكون على مستوى أعلى من الإتقان .

اقتضت فكرة العملية القيام بمناورة عملياتية حاسمة ، وذلك بإحاطة النتوء من الجانبين بحيث يتم ، بضربات من الشمال والجنوب على قاعدة نتوء يلنيا ، تطويق وتدمير تجميع العدو في هذه المنطقة . وفي الوقت ذاته روعي إجراء أعمال هجومية نشيطة من الشرق لتجميد العدو وتمزيقه وتدميره على أقسام . وبالرغم من نسبة القوى[1] المتعادلة على وجه التقريب ، فقد تمكن قائد قوات الجبهة من إنشاء تفوق حاسم على العدو في القوى والوسائط على اتجاهات الضربات .

في ٣٠ آب ١٩٤١ ، وبعد تمهيد مدفعي قصير ، انتقلت قوات الجيش (٢٤) تحت قيادة الجنرال راكوتين إلى الهجوم ، وبعد اجتيازها المقاومة العنيفة للعدو اخترقت دفاعه المحصن ، وما أن حل يوم ٦ أيلول حتى شكلت خطراً بتطويق تجميع يلنيا بكامله . وهرعت القيادة الألمانية إلى زج أربع فرق مشاة إضافية في الموقعة ، غير أن هجمات العدو المعاكسة صُدت بكاملها ولو أنه ظهرت أحياناً مواقف حرجة للغاية . وتحسباً من الوقوع في تطويق كامل ، بدأت القيادة الألمانية بسحب قواتها على جناح السرعة . أما القوات السوفييتية فقد تقدمت مسافة (٢٥) كم وهي تطارد العدو ، وبذلك حررت مدينة يلنيا وسحقت تجميع العدو الذي كان يشكل خطراً عليها . ونظراً لوجود كمية محدودة جداً من الدبابات والطيران لم تتمكن هذه القوات من إحكام الطوق والوصول إلى السحق الكامل لتجميع يلنيا التابع للقوات الألمانية ــ الفاشية .

في بادئ الأمر رد ستالين على اقتراح جوكوف تنظيم ضربة معاكسة في منطقة يلنيا بقوله : هذا هراء فالخبرة دلت على أن قواتنا غير قادرة على الهجوم ، وكانت هذه النفسية تعم البلاد . لذلك لم تحظ عملية يلنيا ذات الأبعاد المحدودة بأهمية عملياتية ــ استراتيجية فحسب ، بل كان لها أهمية معنوية ــ نفسية كبيرة ، إذ أظهرت بجلاء أن قوات الجيش الأحمر ، في حال توفر التنظيم المناسب والقيادة الحازمة ، بإمكانها ليس فقط الدفاع بل وشن هجوم ناجح ضد القوات الألمانية ــ الفاشية ، الأمر الذي كان من الصعوبة والأهمية بمكان تحقيقه قبل وقت بعيد من الانقلاب الذي حدث في مجرى الحرب .

---

(١) كان لدى الألمان قبيل بدء العملية في منطقة نتوء يلنيا ٧٠ ألف مقاتل و ٥٠٠ مدفع وهاون و ٤٠ دبابة . وكانت القوات السوفييتية تملك : ٦٠ ألف مقاتل و ٨٠٠ مدفع وهاون و ٣٥ دبابة .

ومن ناحية إظهار فن القيادة لدى جوكوف ، نجد أن ما يلفت النظر هو :

- أوليت عناية كبيرة لاستطلاع العدو بما في ذلك الرصد الشخصي لأعماله على الاتجاهات الأساسية للهجوم المزمع إجراؤه. وكان لهذه الناحية أهمية كبيرة بالنسبة لنجاح العملية ، ذلك لأن أحد الأسباب الأساسية لفشل العمليات الهجومية السابقة كان ينحصر في أن المدفعية كانت تطلق النار بشكل عشوائي على مساحات من الأرض دون أن يكون لديها أهداف دقيقة .
- خلافاً للعمليات الهجومية المحدودة المنفذة قبل ذلك في العام ١٩٤١ على مختلف الجبهات ، حيث كانت المواقف السلبية على القطاعات الأخرى تسمح للعدو بنقل قواه من الاتجاهات الأخرى وحصر الهجوم وتضييق الخناق عليه ، نجد في عملية يلنيا أنه لمساعدة الجيش (٢٤) وتأمين النجاح له قامت قوات الجيشين (١٦ و ٢٠) من الجبهة الغربية بأعمال هجومية على اتجاه روسلافل .
- الفكرة الجريئة للعملية والأعمال الحاسمة بهدف تطويق وتدمير العدو .
- تحضير العملية في فترة وجيزة ، التأثير الشخصي بلا انقطاع على القوات وتقديم العون اللازم في تنظيم الأعمال القتالية ليس على مستوى الجيش فحسب ، بل وعلى مستوى الفرق والأفواج أيضاً .

هنا ، كما في خالخين ــ غول ، نجد جوكوف يتخذ ، علاوة على التمويه المتقن للهجوم ، سلسلة من التدابير الرامية إلى تضليل العدو متظاهراً بانتقال قواته إلى الدفاع ، ويتوصل إلى تحقيق المفاجأة في الضربة في ظروف تُظهر أن الأعمال الهجومية على هذه الاتجاهات قد انتهت ولا مجال لحدوث أية أعمال مفاجئة فيها .

- نجد جوكوف في مجرى العملية ، بالرغم من محدودية القوى والوسائط ، يناور باستمرار بالقوات ويصعد القوى بإلحاح على الاتجاهات التي ظهر فيها النجاح . ونجده يستخدم الطيران ببراعة وبشكل مكثف بالدرجة الأولى لإعاقة انسحاب قوات العدو ومنع وصول احتياطاته من العمق .

كنت تراه على امتداد العملية هذه بكاملها متواجداً في مقر قيادة الجيش (٢٤) وغالباً في صفوف التشكيلات والقطعات المهاجة ، الأمر الذي سمح له بإمكانية التصرف في الوقت المناسب تجاه تغيرات الموقف والتأثير شخصياً على مجرى الأعمال القتالية . وحينما ركز الجهود الرئيسية على قيادة عملية يلنيا كان جوكوف يتتبع الموقف ضمن نطاقات الجيوش الأخرى ويسيطر بشكل حازم على قوات الجبهة بالرغم من أن الموقف كان يزداد تعقيداً بشكل حاد ، تارة على قطاع وتارة على قطاع آخر . وهكذا ففي ٩ أيلول بعد أن تلقت إحدى

فرق الجيش (٤٣) مهمة الاستيلاء على رأس جسر على الضفة الغربية لنهر ستريانا بدأت بالتقدم إلى الأمام دون أن تؤمن كما يجب جناحها الأيسر بعد اقتحام النهر ودون أن تجري الاستطلاع المناسب. واستغل العدو ذلك الإهمال الصادر عن قائد الفرقة القليل الخبرة، فشن هجوماً معاكساً بالدبابات اكتسح به تراتيب قتال الفرقة. وعلى الفور هرع جوكوف إلى مقر رصد هذه الفرقة وظل حتى مساء هذا اليوم جنباً إلى جنب مع قائد الفرقة يتخذ التدابير اللازمة لصد الهجوم المعاكس وتصحيح الوضع المتأزم.

رفع جوكوف إلى هيئة القيادة العليا تقريراً شاملاً حول نتائج العملية. وعلى أساسه أصدرت هيئة القيادة العليا والأركان العامة أمراً وتوجيهات عممت فيها خبرة عملية يلنيا على كل الجيش الأحمر. وبغية غرس الروح الهجومية في القطعات، أُنشئ الحرس السوفييتي. وعلى وجه الخصوص كانت فرق المشاة أرقام (١٠٠ و ١٢٧ و ١٥٣ و ١٦١) أول من حاز على لقب «الحرس».

استمع إلى ما ورد في أمر مفوض الشعب للدفاع رقم (٣٠٨) تاريخ ١٩٤١/٩/١٨:

«لماذا نجحت فرق مشاتنا هذه في ضرب العدو وسوق القوات الألمانية الضاربة أمامها؟

لأنها أولاً ــ عند الهجوم لم تتقدم إلى الأمام مغمضة العينين لا تلوي على شيء وإنما فقط بعد إجراء استطلاع متقن وبعد تحضير جدي، وبعد أن لمست أماكن الضعف لدى العدو وأمّنت حراسة جوانبها.

لأنها ثانياً ــ عند خرق جبهة العدو لم تكتف بالتحرك إلى الأمام بل حاولت توسيع الخرق بتحركاتها إلى أقرب مؤخرات العدو إلى يمين ويسار الخرق.

لأنها ثالثاً ــ بعد الاستيلاء على الأرض من العدو قامت بتثبيت الأرض المحتلة وتحصنت في المكان الجديد منظمة حراسة قوية في الليل ومرسلة إلى الأمام استطلاعاً قوياً لكي تتحسس من جديد إلى أين انسحب العدو.

لأنها رابعاً ــ حينما كانت تحتل موقعاً دفاعياً لم تنشئ عليه دفاعاً سلبياً بل دفاعاً جاداً... ولم تكن لتنتظر اللحظة التي يقوم العدو بضربها وردّها إلى الوراء، بل كانت تنتقل تلقائياً إلى الهجمات المعاكسة لكي تضع يدها على أماكن الضعف لدى العدو وتحسّن مواضعها، وفي الوقت ذاته ترفع من همّة أفواجها من خلال الهجمات المعاكسة لتؤهلها للهجوم المقبل.

لأنها خامساً ـــ حين التعرض إلى ضغط من جانب العدو ، كانت هذه الفرق ترد بشكل منتظم بضربة على ضربة العدو .

أخيراً لأن القادة والمفوضين في هذه الفرق كانوا يتصرفون كرؤساء شجعان وصارمين ، قادرين على إرغام مرؤوسيهم على تنفيذ الأوامر دون أن يترددوا في فرض العقوبات على من يخالف الأوامر والنظام » .

إليك الاستنتاجات التي وضعها جوكوف لنفسه وسجلها في دفتر مذكراته قبل توجهه إلى جبهة لينينغراد :

« كان لتنظيم وتنفيذ العملية الهجومية بنجاح من أجل تصفية نتوء يلنيا والعمل المعقد من النواحي كافة في منصب رئيس الأركان العامة في الأسابيع الخمسة الأولى من الحرب ، أن أتاحا لي فوائد جمة لممارسة النشاط القيادي على المستوى العملياتي ـــ الاستراتيجي ولتفهم مختلف الطرائق لإجراء العمليات .

والآن أدركت أفضل بكثير كل ما ينبغي على القائد أن يتقنه من أجل تنفيذ المهام الملقاة على عاتقه تنفيذاً ناجحاً . واقتنعت من الأعماق أنّ من يحرز النصر في الصراع هو الذي يكون قد أعد القوات المؤتمن عليها إعداداً سياسياً معنوياً ، وتمكن أن يوصل إلى مدارك قواته ، وبوضوح أكبر ، هدف الحرب والعملية المقبلة ، وأن يتفهم الروح القتالية للقوات ، وهو الذي يبذل جهده للتفاني في تنفيذ المهمة ، والذي لا يهاب القتال في الظروف العصيبة والذي يثق بمرؤوسيه .

لعل أهم شرط من شروط النجاح في خوض المعركة أو العملية هو اكتشاف نقاط الضعف في الوقت المناسب لدى قوات العدو وقيادته . فقد اتضح من استجواب الأسرى أن القيادة الألمانية وقواتها تعمل وفق قوالب جامدة دون استعمال المباداهة المبدعة وتكتفي بتنفيذ الأوامر تنفيذاً أعمى . لذلك ما أن يتغير الموقف حتى يفقد الألمان صوابهم ويقفون موقفاً سلبياً بانتظار الأمر من القائد الأعلى ، وهذا الأمر لا يمكن أن يصل دوماً في الوقت المناسب ضمن الموقف القتالي الناشئ .

من مراقبتي سير المعركة وأعمال القوات ، تولَّدت لديَّ قناعة بأنه حيثما كانت قواتنا المدافعة لا تكتفي بمجرد الدفاع بل تستغل الفرص لتشن هجوماً معاكساً على العدو ليلاً أو نهاراً كانت تحقق النجاح على الدوام تقريباً ولاسيما ليلاً . إذ كان الألمان في الليل يعملون غير واثقين من أنفسهم إلى أبعد حدود بل يمكنني أن أقول إنهم كانوا يعملون بشكل سيئ .

من خبرة إجراء العمليات الأولى خرجت باستنتاج وهو أن الفشل كان، في أغلب الأحيان، من نصيب القادة الذين لم يخرجوا شخصياً إلى الأرض التي ستعمل عليها القوات وإنما اكتفوا بدراستها على الخريطة وإعطاء الأوامر الخطية. فينبغي على القادة المقبلين على تنفيذ المهام القتالية أن يعرفوا من كل بد، معرفة جيدة الأرض وتراتيب قتال العدو بحيث يتمكنوا من استغلال نواحي الضعف في تمركزه ويوجهوا لها الضربة الرئيسية.

ومما له تأثير سلبي على مجرى العملية أو المعركة بشكل خاص تسرع القادة العسكريين في اتخاذ قراراتهم دون إعادة تمحيص مفصل للمعطيات المستلمة ودون الأخذ بعين الاعتبار المزايا الشخصية لأولئك الذين يرفعون التقارير عن الموقف، ونقصد بذلك المعلومات العسكرية والخبرة ورباطة الجأش وضبط النفس.

ومما له أهمية كبيرة في إحراز النصر على أي مستوى كان هو التعاون المنسق جيداً على الأرض (أو في الحالات الاضطرارية على صندوق الرمل) لأنواع وصنوف القوات كافة سواء في الجحافل العملياتية أو في التشكيلات التكتيكية ...».

بعد مرور نحو (٥٥) سنة على تنفيذ جوكوف عملية يلنيا قرر بوريس سوكولوف، الدكتور في علوم اللغة، تكليف أحد المارشالات بإجراء تحليل لهذه العملية ولأعماله فيها، وبعد أن وافق هذا الدكتور على الانتقادات التي قدمها آ. ميرتسالوف بحق جوكوف تراه يكتب ما يلي:

«لكن ميرتسالوف، على ما يبدو، ميّال بشكل عام إلى نفي وجود أية كفاءات عسكرية لدى جوكوف ولاسيما في سنوات الحرب الأولى. ولو أنها تبدت، على مقياس غير كبير لدى جوكوف، في العام ١٩٤١، فارضة عليه الاستخفاف على نمط خاص بأرواح الجنود، والمقدرة على كسب رضا القائد الأعلى ستالين. والكلام يدور حول عملية يلنيا في آب ــ أيلول ١٩٤١، فحينما كان جوكوف يقود الجبهة الاحتياطية، كان يتنبأ منذ نهاية تموز، حسب تأكيداته، أن الألمان سيسددون الضربة الرئيسية في الجنوب، ضد كييف، وبذلك حصل من ستالين على الموافقة على شن هجوم بقوى جبهته على رأس الجسر الذي يحتله الألمان في يلنيا بدلاً من إفراز عدة فرق إلى الجوار الجنوبيين الواقعين تحت ضربة الألمان القوية. في الظروف الناشئة لم تعد القيادة الألمانية تتمسك بيلنيا، مفضلة تطويق الجيوش السوفييتية في منطقة كييف.

بعد انقضاء أسبوعين، استطاع الألمان ومن دون الاحتفاظ بيلنيا سحق جيوشنا في الغرب... (كان جوكوف في ذلك الوقت يقبع بارتياح في جبهة لينينغراد الثانوية دون أن يتحمل ذنب الهزيمة)».

كل شيء يمكن أن ينشر، لكن مثل هذا الهراء والجهل والصفاقة قد يثير حفيظة البعض. وما هذا إلا شقاوة أطفالٍ في ميدان التاريخ. ويصعب عليك أن تتصور قائداً عسكرياً أو دكتوراً في العلوم العسكرية يتصدى لمناقشة بحث خاص بفقه اللغة. أما في ميدان الاستراتيجية العسكرية فترى أي شخص يعتبر نفسه ضليعاً بها. ولكن احتراماً للشخص المناقش سنحاول الإجابة بتحفظ، آخذين بعين الاعتبار قبل كل شيء ليس الكاتب (ويبدو أنه غير مهتم بجوهر المسألة) وإنما قراء الجريدة صاحبة النفوذ من ذوي الاطلاع غير الكافي الذين قد تضللهم مثل هذه المقالة.

أولاً ــ عن أي استرضاء لستالين يدور الكلام؟ فقد تقدم جوكوف باقتراحين إلى ستالين لتحويل قوات الجبهة الجنوبية الغربية إلى الضفة الشرقية لنهر الدنيبير. ولم يحصل أن رد على القائد الأعلى مرة بكلمة نعم، بل كان يتحدث معه بلهجة حازمة إلى أبعد الحدود.

على أغلب الظن أن فصل جوكوف من منصب رئيس الأركان العامة لم يكن بسبب ميله «لاسترضاء» ستالين، بل هو بسبب معاكسته له وإصراره على سحب تلك القوات. والآن لماذا يعتبر تنفيذ عملية يلنيا استرضاء لستالين إذا كان القائد الأعلى معارضاً منذ البداية لإجراء هذه العملية. ولم يوافق عليها فيما بعد إلا بعد إصرار جوكوف عليها.

ثانياً ــ قدم جوكوف اقتراحات محددة حول إعادة تجميع ليس عدة فرق، بل قوى أكثر ضخامة، أي ما لا يقل عن جيشين اثنين إلى الاتجاه الجنوبي الغربي. لكن اقتراحه هذا مُني بالرفض. لماذا إذن يحاول كاتب المقالة ــ الاستراتيجي الحديث العهد ــ أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء ويعلّم هذا القائد ويقترح عليه ما توصل إليه منذ (٥٥) سنة وعلى مقياس أكبر؟

ثالثاً ــ كانت المهمة في تموز ــ آب ١٩٤١ لا تنحصر فقط في دفع قوى إضافية إلى الجنوب، بل وفي تجميد قوى العدو على الاتجاه الغربي وعدم إتاحة الفرصة أمامه لدفع تشكيلات جديدة إلى اتجاه كييف. وقد تحقق هذا الهدف جزئياً بتنفيذ عملية يلنيا. وكانت لدى القيادة الألمانية النية بسحب قواتها من نتوء يلنيا منذ تموز، لكن هتلر لم يعط الموافقة. لذلك فلا أساس لتأكيد كاتب المقالة بأن القوات الهتلرية لم تكن لتتمسك بهذا النتوء. كلا، فهي قاومت بضراوة لكنها اضطرت إلى الانسحاب بالقوة. وقد سبق لنا الكلام عن الأهمية العملياتية الإيجابية والأهمية المعنوية التربوية لأول عملية هجومية ناجحة منذ بدء الحرب.

على ضوء ما ذكر ليس من الصعب أن نفهم إلى أي حد كانت تأكيدات سوكولوف مليئة بالكلام الفارغ حيال عملية يلنيا.

في واقع الأمر تم إحراز نصر عملياتي ـــ استراتيجي وسيكولوجي هام في يلنيا. فالمارشال جوكوف والقوات التي كانت تحت قيادته انتزعوا، بالحرف الواحد، النصر في يلنيا تحت ظروف موقف استراتيجي في غاية الخطورة، حينما كانت القوات تتراجع في كل مكان، وكانت إمكانية ضرب العدو، ناهيك عن تطويقه وإجباره على التراجع حينذاك، من رابع المستحيلات. كان هذا هو الشعاع الصغير الذي لمع لفترة قصيرة فقط، بزغ بفضل عبقرية جوكوف وبسالة قطعات الخيالة. لكنه زرع الآمال وأضاء بنوره أكثر سطوعاً نقاط العلام الدالة على الطريق الواجب سلوكه بغية تعلم كيفية خوض الحرب كما يجب.

٢ ـــ في ملحمة لينينغراد

حينما كان جوكوف ينهي عملية يلنيا إذا بستالين يستدعيه ويطلب إليه أن يستقل الطائرة إلى لينينغراد على الفور ويتسلم قيادة جبهة لينينغراد. (صدر أمر التعيين في ١٩٤١/٩/١٠). وحسب رواية سوكولوف فإن جوكوف ذهب «ليتوارى في جبهة لينينغراد التي تسير فيها الأمور على ما يرام». وكان على هيئات تحرير الجرائد أن تدرك أنه ليس جوكوف وحده بل وملايين الأشخاص هبوا لحماية المدينة وكان ذلك بالنسبة لهم مأساة ورمزاً للمجد، وإذا بكلمات الإهانة تنهال عليهم بأنهم «تواروا في جبهة لينينغراد الممتعة». في حين كانت الظروف الناشئة هناك في واقع الأمر من أخطر ما يكون. وإلا لما تطلب الأمر إيفاد جوكوف إلى هناك على جناح السرعة.

ويأتي المؤرخ آ. ميرتسالوف فجأة ليقدم «اكتشافه»، كما لو أن القيادة الهتلرية لم تكن عازمة على احتلال لينينغراد. لذلك عبثاً بذل جوكوف وغوفوروف وغيرهما من حماة المدينة جهودهم. لكن الحقيقة تقول إن أحد الأهداف المدرجة في خطة «بربروسا» كان الاستيلاء على لينينغراد. ولتحقيق من ذلك يجب عدم التكاسل وإنما يجب الحصول على هذه الوثيقة وقراءتها. وقد نشرت مراراً وتكراراً.

قام هتلر في مجرى الحرب بتاريخ ٢١ تموز بزيادة أركان مجموعة جيوش «الشمال» وحث الفيلد مارشال ليب «على الإسراع في احتلال لينينغراد». استمع إلى ما ورد في اليوميات العسكرية للقيادة العليا للفيرماخت في هذا الصدد: «من الضروري احتلال لينينغراد بأسرع ما يمكن... نتيجة للتأثير المضني للمعارك انهارت الروح المعنوية للشعب السلافي انهياراً خطيراً، وإذا ما خسرنا لينينغراد فسنصاب بكارثة خطيرة».

كيف إذن يجوز القول على ضوء كل هذا، إن القيادة الهتلرية لم تكن عازمة على احتلال لينينغراد؟ ها هو ذا كونستانتين سيمونوف يكتب بعد الحرب ما يلي: «من المفهوم أيضاً أن لينينغراد لم تسقط وإنما صمدت في الحصار، وأن الألمان تم إرجاعهم القهقرى على مشارف موسكو — كان ذلك ليس مأثرة تاريخية لشخصين ولا لعشرين شخصاً بل لملايين كثيرة من الأشخاص العسكريين وغير العسكريين... مع ذلك إذا أردنا الكلام عن دور الشخصيات في التاريخ ولاسيما بالنسبة إلى جوكوف لرأينا اسمه أصبح محفوراً في ذاكرة الشعب سواء مع إنقاذ لينينغراد أو مع إنقاذ موسكو».

كان ستالين بالطبع فاهماً أهمية وضرورة التمسك بلينينغراد، لكنه بدأ في آب ١٩٤١، تحت ضغط الأوضاع المتشكلة، يميل إلى إمكان تسليم المدينة بالرغم من أنه ظل يتخذ كل التدابير الممكنة للحيلولة دون ذلك. ومما زاد في قلقه أن قائد قوات الجبهة المارشال فوروشيلوف وعضو المجلس العسكري جدانوف بدَءَا بسرعة كبيرة في اتخاذ التدابير وجهزت السفن للتفجير. وفي حديثه مع جوكوف صرح ستالين أنه لم يمر سوى بضعة أيام إلا وتكون لينينغراد في حكم المفقودة. فالمدينة كما قال، تكاد تكون في وضع ميؤوس منه.

ويأتي جوكوف، المتتبع باستمرار للموقف على سائر الجبهة السوفييتية الألمانية، ليرد على ستالين منذ البداية الأولى: لا يجوز تسليم لينينغراد في حال من الأحوال. فبعد الاستيلاء على لينينغراد سيتحرر لدى العدو تجميع ضخم من القوات، وسيزج مجموعة جيوش «الشمال» بكاملها فوراً في الهجوم على موسكو. ولصد مثل هذه الضربة على موسكو من الشمال يتطلب الأمر منا نشر جبهتين جديدتين في هذا الاتجاه على أقل تقدير، بينما يصعب علينا إيجاد احتياطات تكفي لإنشاء جبهة واحدة. وظل ستالين ومولوتوف بعد ذلك ينظران بعين الارتياب لإمكان الاحتفاظ بلينينغراد. إلا أن التصريح الحازم والثابت لجوكوف بأنه مستعد لقيادة جبهة لينينغراد والاحتفاظ بالمدينة أحدث لديهما الانطباع اللائق، وهنا أجابه ستالين: «يترتب عليك أن تطير إلى لينينغراد وتتسلم من فوروشيلوف قيادة الجبهة وأسطول البلطيق».

حتى الآن يكتبون ويتحدثون عن الثمن الباهظ الذي دفع لقاء الدفاع عن لينينغراد. حقاً كانت الضحايا والخسائر باهظة بما لا يمكن تصديقه. لكنها لم تقع في معظمها نتيجة للدفاع عن المدينة بل من جراء عدم اتخاذ لجنة الدفاع الحكومية التدابير في الوقت المناسب من أجل إجلاء السكان حين داهمهم الخطر وبسبب العديد من الإهمالات في تنظيم الدفاع عن المدينة ولاسيما على المنافذ البعيدة المؤدية إليها. ونجد الكاتب ف. ب. استرافيف وبعض الناشرين والمؤرخين الآخرين يعتبرون تسليم لينينغراد كان هو الأفضل. وحسب «منطق»

مثل هؤلاء الأشخاص، كان من الضروري بشكل عام الإسراع بالاستسلام وعدم مجابهة الغزو الفاشي على الاطلاق. وهنا نجدهم ينسون أن هتلر كان يخطط إبادة عشرات الملايين من أهالي روسيا وتحويل شعوبها إلى العبودية. وكان يولي عناية خاصة للاستيلاء على لينينغراد وموسكو معتبراً ذلك أهم أهدافه الاستراتيجية. وبالتالي فإن الإحجام عن الدفاع عن هاتين المدينتين لا يمكنه إلا أن يسهل تحقيق هذه الأهداف. استمع إلى ما كتبه في يومياته في الخدمة بتاريخ ١٩٤١/٧/٨ رئيس الأركان العامة للقوات البرية الألمانية الجنرال ف. غالدير: «لا تراجع عن قرار الفوهرر بتسوية موسكو ولينينغراد مع الأرض للتخلص تماماً من سكان هاتين المدينتين. وإلا سنضطر فيما بعد إلى تقديم الغذاء لهم خلال فصل الشتاء... بذلك تحل «الفاجعة الشعبية» التي ستحرم المراكز ليس فقط من البلاشفة بل من المسكوفيين (الروس) عموماً».

والآن هل مثل هذا المصير أفضل من تحمل أهالي لينينغراد الحياة الصعبة في الحصار والدفاع عن المدينة؟ ولو قيض للهتلريين الاستيلاء على لينينغراد لكانت الخسائر البشرية والمعاناة أكبر بما لا يقبل القياس ليس فقط بالنسبة للينينغراد فحسب، بل ولموسكو والمدن الأخرى أيضاً، ولكانت العواقب العسكرية والسياسية والاستراتيجية بالنسبة لمصير هذه البلاد أشد وطأة.

مع مراعاة ذلك كله اكتسب الدفاع العنيد عن لينينغراد والتمسك بها أهمية كبيرة للغاية، وترتب على الجنرال جوكوف تحمل مسؤولية هائلة من أجل تنفيذ المهمة. كانت المدة التي قضاها في قيادة قوات جبهة لينينغراد نحو شهر لكنها تميزت بمعارك أشد وطأة وأكثر توهجاً طيلة الفترة الدفاعية للذود عن لينينغراد. وكانت تلك أشد الأيام والليالي تأزماً في الدفاع عن المدينة الأسطورية.

نتيجة لهجوم قوى متفوقة للعدو وهجماته المستميته أصبح خط الجبهة يقترب شيئاً فشيئاً من المدينة. وفي ٨ أيلول (قبيل وصول جوكوف إلى لينينغراد) شقت قوات العدو طريقها إلى بحيرة لادوغا واستولت على شليسيلبورغ وقطعت المواصلات البرية التي كانت تربط المدينة مع باقي مناطق البلاد. وترتب الآن القتال في ظروف الحصار الكامل وانهالت على المدينة ليس فقط ضربات القنابل من الجو، بل ورمايات المدفعية من المدافع البعيدة المدى.

في هذه الظروف لم يكن يكفي للدفاع الناجح عن المدينة توفر الصمود والبسالة والمجهود الجسماني والمعنوي من جانب حماة المدينة والحسمية في الصراع مع العدو حتى

النهاية، بل وتوفر الانضباط العالي والتنظيم والصرامة والسيطرة الحازمة والفعالة على القوات والاستفادة الكاملة، إلى أقصى حد، من كل ما يتوفر من قوى ووسائط.

وحسب ما جاء في مذكرات المشاركين في الدفاع عن لينينغراد كان المجلس العسكري للجبهة والهيئات الحزبية والمحلية، قبل قدوم جوكوف إلى هناك، تعقد اجتماعات مستمرة مع استدعاءات لا نهاية لها للقادة من مواضعهم الدفاعية ومدراء المؤسسات. ولم يتولد عن ذلك كله سوى التشويش وتهيج الأعصاب وتعقيد الموقف المتوتر أصلاً. والآن كيف كان يتصرف هذا القائد في تلك الظروف البالغة الخطورة؟

قبل كل شيء عمد قائد الجبهة الجديد إلى جعل القيادة مركزية وأوقف مثل هذه الاجتماعات المملة. وكان لمجرد أن يسند أية مهمة يبدأ بنفسه ويرغم القادة الآخرين على ممارسة تنظيم تنفيذ المهام المسندة. وكما كان يقود المعارك في خالخين ـــ غول نراه هنا يتجاوز كل مظاهر تعدد السلطات ويركز بصرامة كل السيطرة للدفاع عن المدينة في يده وفي يد القادة المسؤولين عن أهم قطاعات الدفاع. حتى أنه حين عين في هذا المنصب أعلن لستالين أنه يوافق على تسلم قيادة قوات جبهة لينينغراد بشرط أن يكون مستثنى تماماً من أي تدخل في حل المسائل العملياتية من جانب عضو المجلس العسكري آ. جدانوف. ووافق ستالين على هذا الشرط ووجه التحذير اللازم إلى جدانوف.

حصل جوكوف من هيئة القيادة العليا على مزية أخرى وهي إخضاع أسطول البلطيق من الناحية العملياتية لسلطة جبهة لينينغراد، وكذلك إخضاع فيلقي الطيران المطارد الثاني والسابع التابعين للدفاع الجوي المركزي، وجعل قيادة كل القوى والوسائط المتوفرة مركزية إلى أبعد حد.

والشيء الثاني الذي تبدت فيه هنا ـــ كما في اللاحق على مشارف موسكو ـــ المزية القيادية لجوكوف هو الإرادة الرائعة والعزيمة التي لا تنثني في تنفيذ المهمة المسندة والذود عن المدينة مهما كانت الظروف. وبعد أن أصبح مفعماً بهذه العزيمة حاول بالأوامر القاسية والأعمال النشيطة أن ينقل ويوحي ثقته وحسميته إلى القوات المرؤوسة وسائر حماة المدينة.

من الجدير بالذكر أنه في الموقعات مثل ملحمة ستالينغراد أو موسكو لا يتبدى فن القائد في الأشكال المبهرجة للمناورة العملياتية أو في الطرائق الأخرى غير الاعتيادية لعمل القوات، بل قبل كل شيء في إظهار قوة الإرادة الرائعة والتنظيم الدقيق الصارم والسيطرة الحازمة والقدرة على مجابهة العدو بثبات وحشد كل الإمكانات المعنوية والمادية في سبيل تنفيذ المهمة.

مع مراعاة كل هذه الأمور نرى جوكوف ، في أول اجتماع يعقد للمجلس العسكري للجبهة ، يطلب الكف عن كل الأحاديث حول إمكان تسليم المدينة وإيقاف كل التدابير التحضيرية المتعلقة بذلك . وبتصريحاته الحازمة وتصرفاته العملية جعل الكل يفهم أن المدينة يمكن بل يجب الاحتفاظ بها . ونرى قائد الجبهة يُضفي على كل الأعمال المتعلقة بالسيطرة على القوات أقصى درجات الحزم والتنظيم ويتخذ التدابير القاسية لفرض النظام والانضباط على القوات المدافعة وفي داخل المدينة .

أظهرت الأغلبية الساحقة للجنود وغيرهم من المشاركين في الدفاع عن المدينة بسالة وثباتاً وتضحية وبطولة جماعية . لكن ظهرت أيضاً حالات من الذعر والفرار من الخدمة والهروب من ميدان القتال . ومما كان له خطر بالغ الأهمية تراجع القوات مسافة عدة كيلو مترات كلما تعرضت لضغط شديد من جانب العدو . ونشأ حينذاك « مرض » بالخروج من المأزق عن طريق مثل هذه التراجعات « الصغيرة » كما كانت تبدو لهم . لكن لم يعد هناك مكان للتراجع إليه . فقد اشتعلت المعارك على تخوم المدينة . وكان لا بدّ من حدوث انعطاف نفساني حيال ذلك . وهكذا في (١٣) أيلول عام ١٩٤١ خرق العدو ، عن طريق ضربة بثلاث فرق ، دفاع القوات السوفييتية في منطقة « كراسنويه سيلو » وصار يتقدم نحو المدينة . اضطر جوكوف حيال ذلك أن يقدم على خطوة بالغة الخطورة بأن يزج في الموقعة آخر احتياط في يده وهو الفرقة (١) مشاة . وبذلك تم صد الهجمات وعادت القوات الألمانية ـــ الفاشية إلى مواضعها الأولية . إلا أنه لم يبق أية وسيلة لدرء الاختراقات الجديدة . وازداد الوضع سوءاً حينما أعاد العدو الكرة في صباح (١٥) أيلول ، وجدد هجومه بقوى ثلاث فرق مشاة وأخرى آلية تحت دعم ضربات مكثفة من الطيران والمدفعية ، وقذف بالقطعات المدافعة إلى الحدود الجنوبية ـــ الغربية للمدينة . وإن التقدم اللاحق للعدو قد يجعل من المستحيل تمركز الطيران والأسطول والإمداد عن طريق الجو وعن طريق بحيرة لادوغا بل والدفاع المنظم عن المدينة بشكل عام . هنا نجد جوكوف يلجأ إلى أكثر التدابير صرامة وعنفاً . ها هو ذا يصدر بتاريخ (١٧) أيلول أمراً يحدد فيه مايلي :

« بالنظر إلى الأهمية البالغة في الدفاع عن الطرف الجنوبي من لينينغراد ... يأمر المجلس العسكري لجبهة لينينغراد إبلاغ كل العناصر القيادية والسياسية والأفراد المدافعين عن الخط المذكور أنه في حال ترك الخط المذكور دون أمر خطي من المجلس العسكري للجبهة والجيش فإن كل القادة والعاملين السياسيين والمقاتلين سيواجهون عقوبة الإعدام رمياً بالرصاص على الفور » . وحتى جدانوف رفض في بادئ الأمر توقيع هذا الأمر ، ولم يضع توقيعه إلا بعد مشاورة ستالين .

كما نرى فقد تولد منذ ذلك الوقت، على مستوى الجبهات، النموذج الأصلي للأمر القائل «لا خطوة إلى الوراء». وقد قوبل ذلك في سنوات ما بعد الحرب ولاسيما في عهد «البيريسترويكا» (إعادة البناء) بنقد شديد واعتراضات شديدة اللهجة. أما جوكوف فقد أكد حتى بعد الحرب قائلاً: «لقد مرت سنوات كثيرة منذ ذلك العهد، وفي أواخر سني حياتي يمكنني أن أعلن بكل ثقة ومسؤولية تجاه محكمة التاريخ: لو قدر لي أن أقود مرة أخرى جبهة في مثل تلك الظروف التي نشأت على مشارف لينينغراد، لما ترددت أبداً في توقيع مثل ذلك الأمر». والحق يقال كان الأمر قاسياً لكنه اضطراري لا مفر منه. ومعناه أن لا مجال للتراجع أكثر من ذلك بل ولا يجوز ذلك. وإلا ستقع المدينة في أيدي العدو، حينئذ لن يقتصر الأمر على إعدام بعض العسكريين الذين غادروا مواضعهم الدفاعية كيفياً بل سيباد عن بكرة أبيهم كل حماة المدينة وتتحقق خطة هتلر في تخريب المدينة وتدمير سكانها. وكان لا بدّ إزاء مثل هذا التهديد بخطر الموت من السير نحو تلك الإجراءات المتطرفة التي فرضتها قساوة الحرب المفروضة. القصة أصبحت في طي النسيان، لكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن الأمر الصادر كان يقصد منه، من حيث المبدأ، التأثير النفسي إذ أنهم لم يلجؤوا للإعدام في واقع الأمر إلا في حالات استثنائية.

الاتجاه الثالث لفعالية جوكوف القيادية كان قيامه بتحقيق الهدف الاستراتيجي الرئيسي الذي وضعه بنفسه فيما يتعلق بالتمسك بلينينغراد وتحقيق عدد من التدابير التكتيكية ــ العملياتية والتنظيمة المكرسة لهذا الغرض. ها هو ذا يعزز المناصب الهامة بكوادر قوية، مثلاً عين الجنرال م. س. خوزين رئيساً لأركان الجبهة والجنرال ي. ي. فيديونينسكي قائداً للجيش (٤٢)، وبدل بعض قادة الفرق والأفواج.

أعاد جوكوف النظر في التوزيع المتساوي للقوات على طول الجبهة وركز الجهود على المنافذ الجنوبية والغربية للمدينة. وبالرغم من الكمية المحدودة من القوى والوسائط نراه يشكل الأنساق الثانية والاحتياطات ومجموعات المدفعية القوية عن طريق إعادة تجميع القوات، مما سمح بسرعة الرد على اختراقات العدو الجديدة وتنشيط الدفاع. وأمكن، عن طريق اختصار عدد الأشخاص في الأركانات والمؤخرات وقطعات الحراسة وسواها، تحسين مستوى اكتمال أفواج وفرق النسق الأول، وغدت التشكيلات والقطعات تنفذ أكثر وأكثر الاستطلاع القتالي. وتوجه الضربات النارية القوية وتشن الهجمات لتحسين وضعها التكتيكي ــ العملياتي وإحباط أعمال العدو الهجومية المحضرة. ولعبت دوراً هاماً الأعمال النشيطة التي قام بها الجيش (٨) على رأس جسر اورانينباوم، الأمر الذي شكل تهديداً مستمراً لجنب ومؤخرة تجميع العدو الذي هاجم لينينغراد. وأرسلت إلى مؤخرة العدو مجموعات استطلاع

وتخريب ونشطت أعمال الفدائيين . واتُخذ قرار جريء بدفع جزء من القوى والوسائط من برزخ كاريل إلى لينينغراد . ونُقل جزء من المدفعية المضادة للطائرات والميدانية الكبيرة العيار المتمركزة في المدينة إلى أماكن تسمح لها بالرمي بالتسديد المباشر لتعزيز الدفاع المضاد للدبابات .

استخدمت استخداماً أكثر كمالاً إمكانات أسطول البلطيق في الدفاع عن المدينة . وأصبحت مدفعية السفن تستخدم على نطاق أوسع لتسديد الضربات الكثيفة إلى تجميعات العدو البرية . وشكل من البحارة التابعين لطواقم السفن والقطعات الساحلية (٦) ألوية مشاة مستقلة لتعزيز الدفاع عن المدينة في القطاعات الأشد خطورة . ومن عناصر البحارة كان يجري أيضاً تعويض الخسائر في فرق المشاة المدافعة عن المدينة . وحصل قائد قوات الجبهة على مساعدة كبيرة من الأميرال ايساكوف وقائد أسطول البلطيق الأميرال ف . ف . تريبوتس . كان هناك في ذلك الوقت وبعده أناس يعتبرون مثل هذا الاستخدام لقوى الأسطول من المحظورات انطلاقاً من المبدأ الصحيح شكلياً القائل بأن على البحارة أن يقاتلوا في البحر أما المشاة ففي البر . غير أن المعارك البحرية حينذاك لم تكن واردة ، ومن دون دفاع بري مضمون قد يؤول مصير الأسطول بكامله والبحارة ذاتهم ، المراد استخدامهم بشكل صحيح ، إلى الوقوع في الأسر والتدمير .

فيما يتعلق بهذا المثال أمامنا قائدان وقراران مختلفان اختلافاً كلياً في الموقف ذاته . ها هو ذا فوروشيلوف يفكر كيف يمنع سفن الأسطول من الوقوع في يد العدو ويعمل على تفجيرها . من الناحية الشكلية هو محق إلى حدٍ ما . هكذا تصرفوا في حرب القرم في الفترة ١٨٥٣ ــ ١٨٥٦ . وحين يتذكر جوكوف التاريخ نجده يقف من أعماق نفسه إلى جانب ضباط البحرية الذين كانوا يؤيدون الصراع ضد الأسطول الانكلو ــ فرنسي . حقاً كان من الضروري قطع الطريق أمامه نحو مرفأ سيفاستوبول حتى ولو وصلت السفن الروسية إلى القاع في القتال . وقد تكرر مثل هذا الموقف في الحرب العالمية الأولى والحرب الأهلية . وجوكوف أيضاً لا يريد أن تقع السفن في يد العدو لكنه يأمل أن الفائدة للمصلحة العامة ستكون أكبر إذا غرقت هذه السفن ، في أسوأ الاحتمالات ، وهي تتصارع مع العدو منزلة به الخسائر ومقدمة مساهمة من جانبها في قضية الدفاع عن المدينة . وهكذا كان لتصرف جوكوف الفضل في الحفاظ على سلامة السفن في معظمها والذود عن لينينغراد في آن واحد . وكل لقطة من هذه اللقطات أتاحت الإمكانية لزج قوى جديدة في العمل والإفادة من الإمكانات الضائعة للقوات ولقوى أسطول البلطيق .

وفوق ذلك كله تم ، بتعليمات من جوكوف ، تشكيل فرقتين وعدة قطعات مستقلة من المقاومة الشعبية من عمال مؤسسات لينينغراد . وقامت المنشآت الصناعية في المدينة ، بالرغم من الجوع والقصف المستمر ، بتصنيع كمية كبيرة من السلاح والذخائر .

أُسندت مهام محددة لتحسين التجهيز الهندسي للأرض ولاسيما في عمق الدفاع . وبوتائر سريعة كانت تزرع حقول ألغام جديدة وتنصب كمية إضافية من الحواجز المضادة للدبابات والمضادة للمشاة على الطرق المحتملة لهجوم العدو .

اتخذ العديد من التدابير بهدف استخدام الطيران ووسائط الدفاع الجوي بمزيد من الكثافة والفعالية .

تدل خبرة الحرب على أنه في الكمون القتالي للقوات ولقوى الأساطيل تدخر على الدوام إمكانات أكبر مما يمكن رؤيتها لدى استعراض تعدادها وميزاتها التكتيكية — العملياتية . وتعمل السيطرة الحاذقة والتعاون الوثيق على مضاعفة القدرة القتالية للقوات إلى حدٍ كبير . وقد تمكن جوكوف من اكتشاف مثل تلك الإمكانات اكتشافاً أكثر كمالاً ومضاعفتها مع استخدامها بأقصى فعالياتها .

حين كان جوكوف يطبق وحدة القيادة بشكل صارم وتنفيذ الأوامر دون قيد أو شرط ودون اللجوء إلى حلول وسط في القضايا المبدئية ، لم يكن ليعمل منعزلاً . كان يتشاور في المسائل الأكثر أهمية مع آ . ا. جدانوف و آ . آ. كوزنتسوف وغيرهما من أعضاء المجلس العسكري للجبهة ومع رئيس اللجنة التنفيذية للبلدية ل . س . بوبكوفي ، ويعتمد على دعم المنظمة الحزبية وأجهزة السلطة السوفييتية ومدراء المؤسسات ويجتمع باستمرار وبشكل مباشر مع القادة والجنود المرابطين في المواضع الأمامية . وكانت لجنة الدولة للدفاع تقدم مساعدة كبيرة في التأمين المادي لحماة المدينة على قدر الإمكانات المتوفرة حينذاك .

نتيجة لهذه التدابير وغيرها أصبح دفاع لينينغراد ليس فقط أكثر صموداً بل وأكثر نشاطاً . وبعد أن غدا العدو يصطدم بدفاع صامد ويتكبد خسائر كبيرة أصبح مضطراً لإيقاف أعماله الهجومية ، مع أنه لم يكن يبعد أكثر من (٤ — ٥) كم عن المدينة . فقد بدأت تنهار أمام لينينغراد بالذات الخطة الهتلرية المسماة « الحرب الخاطفة » . وبدأت القيادة الألمانية برفع القطعات المدرعة من أمام لينينغراد وتحويلها إلى اتجاه موسكو ولو أنها لم تلحق في الوصول إلى ضواحي موسكو قبل بدء عملية « طيفون » لانشغالها في العمل مدة طويلة قرب لينينغراد . بعد ذلك اكتسبت الأعمال القتالية قرب لينينغراد طابعاً موضعياً مستمراً إلى أن تم خرق الحصار في كانون الثاني ١٩٤٣ .

ربح جوكوف، باعتباره قائداً، في موقعة لينينغراد، النسباق العسكري مع الجنرال فيلدمارشال الألماني «فون ليبب» الأكثر خبرة في الجيش الألماني، وهو الذي قاد مجموعة جيوش «الشمال». وقد نحاه هتلر عن منصبه لعدم تنفيذه مهمة الاستيلاء على لينينغراد. وازداد النفوذ القيادي لجوكوف أكثر وأكثر، وسرعان ما استدعاه ستالين للدفاع عن موسكو.

لقد نفذت القوات السوفييتية تحت قيادة الجنرال جوكوف مهمة ذات أهمية تاريخية كبيرة.

ها هو ذا جوكوف يقدر كل ذلك بعد الحرب ويكتب: «إنني سعيد بلا حدود إذ عُهد إلي بقيادة قوات جبهة لينينغراد في فترة اقترب فيها العدو مباشرة من حدود المدينة وخيم عليها خطر الموت».

وكان تقديره عالياً لأعمال قوات جبهة لينينغراد وبحارة أسطول البلطيق الذين بأعمالهم الحاذقة والبطولية أوقفوا العدو أمام جدران المدينة. وقد بهرته بشكل خاص البطولة الجماهيرية ورباطة الجأش التي تحلى بها سكان المدينة. فقد هب كل مواطن للدفاع عن المدينة مضحياً بكل ما يملك رغم ما كان يعانيه من فاقة وحرمان.

هذا هو بالذات الشرط الحاسم للنجاح في الدفاع عن لينينغراد. لكن التاريخ يعزي الفضل في الحشد الفعال لجهود السكان كافة إلى موهبة القيادة لجوكوف.

٣ــ في ملحمة موسكو

كانت ملحمة موسكو أهم مرحلة في النشاط القيادي لجوكوف.

تشمل ملحمة موسكو العمليات الدفاعية (من ٤/٣٠ حتى ١٩٤١/١٢/٥) والهجومية (من ١٩٤١/١٢/٥ حتى ١٩٤٢/٤/٢٠) التي نفذتها القوات السوفييتية بقصد الدفاع عن موسكو وسحق تجميعات القوات الألمانية ــ الفاشية التي هاجمتها. وقد شارك في تنفيذها قوات جبهة كالينين والجبهة الغربية والاحتياطية وجبهة بريانسك وقوات الدفاع الجوي في موسكو وتشكيلات القوات المشتركة والمدفعية والجوية التابعة لاحتياط القيادة العليا بمساعدة عظيمة ودعم من جانب أهالي موسكو ومحافظة موسكو بالكامل. كانت تلك ملحمة هائلة ذات أهمية تاريخية عظمى سواء في أهدافها السياسية ــ العسكرية والاستراتيجية أو في أبعادها. ويكفي أن نذكر أن مجموعة جيوش «المركز» كانت حتى بداية كانون الأول ١٩٤١ تضم في مواقعها (١٧٠٨) ألف شخص ونحو (١٣٥٠٠) مدفع

وهاون و (١١٧٠) دبابة و (٦١٥) طائرة . وكانت القوات السوفييتية تعد نحو (١١٠٠) ألف شخص و (٧٦٥٢) مدفع وهاون و (٧٧٤) دبابة و (١٠٠٠) طائرة .

كانت القيادة العامة للدفاع عن موسكو تدار من قبل لجنة الدولة للدفاع وهيئة القيادة العليا والأركان العامة مع اشتراك فعال للأجهزة الحكومية الأخرى والإدارات التابعة لمفوضية الشعب للدفاع . وقد لعب جوكوف دوراً بالغ الأهمية في ملحمة موسكو كونه عضواً في هيئة القيادة العليا وقائداً لقوات الجبهة الغربية ، وفي فترة الهجوم المعاكس كان قائداً أعلى لقوات الاتجاه الغربي : فقد اكتسب الخبرة في قيادة قوات الجبهة في عمليتين دفاعيتين وعملية هجومية ضخمة .

تشكل الموقف الاستراتيجي العام حتى نهاية أيلول ١٩٤١ على الجبهة السوفييتية ــ الألمانية على النحو التالي : على اتجاه موسكو بعد موقعة سمولنسك أوقفت القوات الألمانية ــ النازية هجومها مؤقتاً وصارت تستعد لاستئنافه . أما على الاتجاه الشمالي الغربي فبعد أن أخفقت في تحقيق هدفها في الاستيلاء على لينينغراد لجأت إلى حصار المدينة وبدأت بدفع قواتها المتحركة إلى اتجاه موسكو . وإلى هذا الاتجاه ذاته عادت مجموعة غودريان المدرعة الثانية وغيرها من التشكيلات بعد الاستيلاء على كييف وإلحاق الهزيمة بقوات الجبهة الجنوبية الغربية . فقد قررت القيادة الألمانية تركيز جهودها الأساسية لتوجيه ضربة كاسحة إلى القوات السوفييتية على اتجاه موسكو والاستيلاء على عاصمة البلاد . وخصصت لهذه الغاية عملية هجومية جديدة أطلق عليها اسم « طيفون » . بدأت العملية في (٣٠) أيلول عام ١٩٤١ بضربة قامت بها المجموعة (٢) المدرعة على الجنب الأيسر لجبهة بريانسك نحو اريول مع الالتفاف حول بريانسك من الجنوب الشرقي . وفي (٢) تشرين الأول انتقلت القوى الرئيسية لمجموعة جيوش « المركز » إلى الهجوم ، مسددة ضرباتها إلى فيازما على اتجاهات متلاقية ، وطوقت تشكيلات الجيوش الأربعة التابعة للجبهتين الغربية والاحتياطية . وظهر تهديد باختراق العدو إلى موسكو .

يُعزى الموقف المفجع الناشئ على اتجاه موسكو إلى أسباب ثلاثة :

أولاً : الخطيئة الفاحشة التي ارتكبها ستالين حين لم يصغ إلى اقتراحات جوكوف والأركان العامة الملحة في تعزيز الجبهة المركزية وتحويل القوى الأساسية للجبهة الجنوبية ــ الغربية إلى الضفة اليسرى لنهر الدنيبر . فلو توفر دفاع ثابت للجبهة الجنوبية ــ الغربية على نهر الدنيبر لتمكنت الجبهة المركزية من تشكيل تهديد للجنب الأيمن لمجموعة جيوش « المركز » ولما تمكن العدو من دفع قوى ضخمة من هناك إلى اتجاه موسكو .

نؤكد مرة أخرى : يعتبر التنبؤ الذي وصل إليه جوكوف ، بالتعاون مع الأركان العامة ، بأن القيادة الألمانية ، بعد موقعة سمولينسك ، بدلاً من أن تتابع هجومها على موسكو يمكنها أن تحول جانباً هاماً من قواها إلى الجنوب ، هذا التنبؤ يعتبر فريداً من نوعه ويجدر به أن يحتل مكانه ضمن روائع التاريخ العسكري . ومما يحير العقول أن القيادة الألمانية ذاتها حتى في تموز والنصف الأول من آب لم تكن تعرف عن ثقة في أي اتجاه كان عليها أن تعمل . وكانت كل الدلائل تشير إلى أن القوى الأساسية لمجموعة الجيوش ستتابع هجومها على موسكو . وحتى ستالين كان واثقاً من ذلك . وكانت معطيات الاستطلاع كذلك تؤيده في هذه الفكرة . وفي النصف الأول من آب وصلت أخبار إلى الكريملين من عنصر استطلاع موثوق وهو « آ . رادر » من سويسرة بأن قيادة الفيرماخت تعد العدة لتسديد ضربة إلى موسكو عبر بريانسك .

كان هذا في واقع الأمر مطابقاً لنوايا القيادة العامة لقوات الفيرماخت البرية . ولم يمض سوى ثلاثة أيام حتى وقع هتلر توجيهاً يقضي بتحويل قسم من قوى مجموعة جيوش « المركز » نحو الجنوب . وفي « ٢٣ » آب أوصل غالدير شخصياً هذا التوجيه إلى شقة أركان مجموعة جيوش « المركز » في بروبسوف حيث لقي استنكاراً واضحاً . وتأثر غودريان تأثراً حاداً . وفي اليوم ذاته سافر جواً مع غالدير إلى راستينبورغ ، حيث تتمركز هيئة قيادة هتلر ، لإقناع الفوهرر بضرورة الهجوم على موسكو . بيد أن غودريان وصل في (٢٤) آب إلى مقر قيادته ليقود هجوم القوات إلى الجنوب . بقي غالدير وغودريان يبذلان جهودهما لمتابعة الهجوم على موسكو . في حين نرى جوكوف يصل إلى استنتاج بأن هذا لن يحصل ، وبأن الألمان يترتب عليهم التحول إلى الجنوب ، وهذا ما حصل فيما بعد وألقى بالقوات السوفييتية في مأزق حرج .

ثانياً : لم تقدر الأركان العامة وقيادة الجبهات تقديراً كافياً أبعاد هجوم العدو واتجاهاته الرئيسية . إذ بعد أن منيت الجبهة الجنوبية الغربية بالهزيمة كان واضحاً أن القيادة الهتلرية ستجدد هجومها على موسكو . ففي العشر الأخير من أيلول وصلت إلى الأركان العامة وأركانات الجبهات معطيات استطلاعية حول حدوث إعادة تجميع للقوات وتحضير لمثل هذا الهجوم . وعمدت هيئة القيادة العليا إلى إسناد مهمة للجبهات بالانتقال إلى الدفاع الحازم وعدم تبديد قواها بالعمليات الهجومية الجزئية العديمة الجدوى . لكن بعد مضي بعض الوقت إذا بستالين يصدر تعليمات ، عن طريق الأركان العامة ، لتنفيذ أعمال هجومية ضمن نطاقات الجيوش بهدف تحسين الوضع العملياتي . وكانت النتيجة أن القوات السوفييتية لم تكن ، في بداية الهجوم الألماني ، قادرة لا على الهجوم ولا على الدفاع .

ارتكبت أخطاء جسيمة في كشف اتجاهات الضربات الرئيسية للعدو . مثلاً كان ي . س . كونيف على علم بأن الجهود الرئيسية للعدو مركزة ضمن نطاق الجيشين (٣٠ و ١٩) . لكن ما دامت هيئة القيادة العليا قد اعتبرت أن الضربة الرئيسية للعدو محتملة على اتجاه سمولينسك ـــ فيازما فقد عمد كونيف إلى حشد جهوده الرئيسية على هذا الاتجاه وليس في الاتجاه الذي كان يقتضيه الموقف .

أما يريمينكو فقد ركز جهوده الرئيسية على الجنب الأيمن في منطقة بريانسك ، في حين وجه العدو ضربته الرئيسية إلى جنبه الأيسر . بينما تمكن جوكوف ، في الموقعات الدفاعية الجارية في تشرين الأول وتشرين الثاني ١٩٤١ ، من الخروج من المأزق قبل كل شيء عن طريق التحديد الصحيح لاتجاه الضربة الرئيسية المزمعة للعدو وتحشيد جهوده الرئيسية على هذا الاتجاه .

وبدون ذلك ، بل لدى فقدان الاحتياطات القوية في العمق ، لم يكن بالإمكان درء هجوم واختراقات التجميعات الضاربة للعدو الذي يشكل على اتجاهات الضربات تفوقاً حاسماً بالمدفعية والدبابات والذي يقذف على هذه الاتجاهات كل جهود طيرانه .

ثالثاً : قام قادة الجبهة الغربية الجنرال كونيف ، والجبهة الاحتياطية المارشال بوديني وجبهة بريانسك الجنرال يريمينكو ، بتكرار الخطيئة المرتكبة في المرحلة الابتدائية للحرب حينما كانوا وقتها ، في محاولة لإيقاف العدو بأي ثمن ، يقذفون بكل التشكيلات الاحتياطية لمواجهة التجميعات المهاجمة لتعزيز قوات النسق الأول أو لشن الضربات المعاكسة دون الاهتمام بإنشاء خطوط دفاعية جديدة في العمق . كما كانت المناورة بالقوات أيضاً تجري دون حسم وبشكل خاص من القطاعات غير المعرضة للهجوم .

كان يعمل في الأركان العامة حينذاك أشخاص على جانب كبير من الذكاء . ورأوا هذه الأخطاء الكثيرة . وكان المارشال شابوشنيكوف يتمتع بذكاء نادر وهو قائد عسكري ثاقب الفكر ذو فكر عملياتي استراتيجي متطور وعميق . لكن كان ينقصه الطبع الحازم والرجولة لكي يدافع عن تقديراته السليمة للموقف وقراراته المقترحة أمام ستالين .

حينما استدعى ستالين جوكوف من لينينغراد إلى موسكو بتاريخ (٧) تشرين الأول وكلفه في بادئ الأمر بالتمحيص في الموقف الناشئ ضمن نطاق الجبهتين الغربية والاحتياطية رأى بوضوح ، بعد زيارة مقرات القيادة والقوات المنسحبة ، أن سائر الطرق المؤدية إلى موسكو مفتوحة تقريباً ، أما خط دفاع موجايسك فكانت تغطيته ضعيفة ولا يمكن الركون إليه في مواجهة اختراق قوات العدو المدرعة إلى موسكو . وتقدم إلى ستالين بعدد من التدابير

لتعزيز الدفاع عن موسكو كان أكثرها عجالة القيام بتشكيل الاحتياطات والاسراع بحشد القوات أمام موسكو من أي اتجاه ممكن ، وقد حازت اقتراحاته هذه في أساسها على القبول .

بغية توحيد جهود القوات المدافعة عن اتجاه موسكو ، والسيطرة عليها بإحكام أكثر ، اتخذت هيئة القيادة العليات قراراً في (١٠) تشرين الأول بتوحيد الجبهتين الغربية والاحتياطية في الجبهة الغربية الموحدة بقيادة جوكوف .

يكتب جوكوف متذكراً هذه الأيام : « كان الوضع أمام موسكو في تلك الأيام عصيباً جداً . ففي (١٠) تشرين الأول ، حينما عينت قائداً للجبهة الغربية ، لم يكن لدينا من القوات سوى (٩٠) ألف وبمعدل طلقة واحدة للمدفع في اليوم ... ليس هناك أي جيش في العالم أو شعب آخر يستطيع أن يصمد تحت ضغط القوات الألمانية الفاشية المتفوقة والمدربة تدريباً جيداً » . كانت الصعوبة الرئيسية في تنفيذ المهمة المسندة تكمن في كون القوى والوسائط المتوفرة محدودة إلى أبعد مدى . مثلاً كان يتمركز على خط موجايسك الدفاعي ضمن قطاع يمتد لمسافة (٢٥٠) كم تقريباً (٤٥) كتيبة ضعيفة التجهيز بدلاً من (١٥٠) كتيبة نظامية . وكان هناك نقص حاد في الوسائط المضادة للدبابات والقطعات المدرعة القادرة على صد اختراقات قوى العدو المتفوقة ، لاسيما تشكيلاته المتحركة المتراصة التي تسعى إلى النفوذ إلى موسكو عبر الستارات الدفاعية الأخيرة للقوات السوفييتية .

يجب علينا إنصاف ستالين وهيئة القيادة العليا : فقد اتخذ في هذه الفترة أكثر التدابير فعالية لتشكيل احتياطات جديدة وذفع القوات من اتجاهات أخرى وتعبئة كل قوى ووسائط الجيش الأحمر وموسكو والبلاد برمتها للذوذ عن العاصمة . ففي الأسبوع الأول فقط تلقت الجبهة الغربية (١١) فرقة مشاة جديدة و (١٦) لواء مدرعاً وما يزيد على ٤٠ فوج مدفعية . وفيما بعد تقاطرت على اتجاه موسكو قوات برية وجوية من الاتجاهين الشمالي الغربي والجنوبي الغربي ومن عمق البلاد بما في ذلك من الشرق الأقصى . وكانت تمتاز عن القوات الألمانية في أنها مزودة عموماً بالألبسة الشتوية . وكما نوه جوكوف ، فإن ستالين بإصراره الصارم يمكن أن نقول حقق المستحيل تقريباً .

وبدوره قام جوكوف ، كما في لينينغراد ، بالبحث عن قوى ووسائط إضافية بكل عزم وإصرار وسعى إلى استخدامها بشكل أكمل وأنجع ، جانياً كل الثمار الممكنة منها أنه يبحث عن القوى والوسائط في كل مكان . وهذا كان موضوع رسالته التالية التي بعث بها إلى جدانوف في لينينغراد :

«عزيزي اندريه الكسندروفيتش!

أشد على يدك أنت وكوزنتسوف بحرارة.

وأحيي أخوانك في السلاح الرفاق فيديونينسكي، خوزين، لازاريف وسواهم.

إنني كثيراً ما أتذكر الأيام والليالي العصيبة والممتعة لعملنا القتالي المشترك. وأنا شديد الأسف لعدم تمكننا من إيصال العمل إلى نهايته، ذلك ما كنت أؤمن فيه بقوة.

كما هو معلوم لديك، الآن نعمل في الغرب على مشارف موسكو.

الشيء الرئيسي أن كونيف وبوديوني أغفلا كل قواهما المسلحة.

ولم أتلق منهما سوى الذكريات. من بوديوني أركاناً و (٩٠) شخصاً ومن كونيف أركاناً وفوجين احتياطيين.

حتى الوقت الحاضر توصلت إلى تنظيم محترم وأوقفت بشكل عام هجوم العدو، وأسلوبي اللاحق معروف لديك: سأنهك قوى العدو ثم أضربها.

أتوجه بطلب إليك وإلى الرفيق كوزنتسوف: أرجو موافاتي شخصياً على رحلة دوغلاسوف التالية بمايلي:

(٤٠) هاون ٨٢مم.

(٦٠) هاون ٥٠مم.

وسنكون أنا وبولغانين ممتنين جداً لهذا، وأنت تملك فائضاً من تلك الأسلحة. وعندنا لا يتوفر منها شيء.

أرسل إليك أمرنا على سبيل المعلومات.

مرة أخرى أشد على يديك بحرارة.

٢ تشرين الثاني ١٩٤١.

صديقك جوكوف».

ازدادت المصاعب في فعالية جوكوف، شأنه شأن الأشخاص المسؤولين الآخرين، وذلك من جراء الموقف العام المتوتر المثير للأعصاب. فقد أثارت بعض القرارات الصحيحة من حيث المبدأ مثل: تطبيق حالة الطوارئ في موسكو، إخلاء المؤسسات الحكومية وأقسام من الأركان العامة ذاتها إلى المؤخرة، إعداد المصانع وغيرها من المباني في موسكو للنسف...

كل ذلك أثار في كثير من الأحيان الذعر والإشاعات المختلفة ولم يساهم في تقوية العزيمة للذود عن المدينة حتى النهاية . وحصل انعطاف محدد في هذه الناحية حينما أجري عرض عسكري في موسكو بتاريخ (٧) تشرين الثاني وشاهد الجميع أن ستالين بقي في المدينة المحاصرة بالرغم من خطر الموت المحدق .

من ناحية أولى ، خلافاً لخالخين غول أو لينينغراد ، فإن قرب وجود هيئة القيادة العليا وأجهزة السلطة المركزية ساعد جوكوف على حل مسائل تعزيز قوات الجبهة وتموينها بشكل فعال . ومن ناحية أخرى فإن كثرة وجود المفتشين والمخبرين في كل حدب وصوب وتدخلهم في أمور لا تخصهم أدى إلى تعقيد الموقف المتوتر بطبيعة الحال وإلى إضعاف السيطرة على القوات .

وهكذا في أحد الأيام المتوترة أبلغ بيريا ، أو شخص آخر على شاكلته ، ستالين بأن العدو اخترق مدينة ديدوفسك . ثم تبين في واقع الأمر أن المدينة كانت صامدة وإنما احتلت قرية صغيرة مؤلفة من عدة بيوت تسمى ديدوفو ضمن نطاق الجيش (١٦) . ولكن بعد حديث مثير بالهاتف مع ستالين وبناء على طلبه كان قائد الجبهة مرغماً على ترك كل أعماله الفورية في قيادة القوات وتنظيم استرجاع هذه القرية من العدو ، الأمر الذي لم يكن له ضرورة خاصة ، نظراً لأنها كانت تقع في وهدة وليس من المفيد من الناحية التكتيكية تمركز الوحدات هناك . لكن بينما كان جوكوف يعالج موضوع هذه القرية مصطحباً معه (بناء على طلب ستالين أيضاً ، قائد الجيش ٥ الجنرال ل . غوفوروف) إذا بالعدو يخترق ضمن نطاق الجيش ٥ واقتضى الأمر أن يتوجه قائد الجيش والجبهة على جناح السرعة إلى هناك .

في (١٨) تشرين الثاني ، قام قائد الجيش (١٦) الجنرال روكوسوفسكي من جراء ضغط العدو الشديد عليه ، بالتوجه إلى قائد قوات الجبهة بطلب السماح له بسحب قواه الرئيسية إلى خط أكثر ملاءمة وراء خزان مياه ايسترا . لكن جوكوف لم يسمح له بذلك . حينئذ توجه قائد الجيش بهذا الاقتراح مباشرة إلى رئيس الأركان العامة شابوشنيكوف حيث أعطاه الأخير الموافقة على سحب قواته . وما أن علم قائد قوات الجبهة بذلك حتى طير البرقية التالية : «أنا الذي يقود قوات الجبهة ! وأنا ألغي الأمر المتعلق بسحب القوات إلى ما وراء خط ايسترا ، آمر بالدفاع على الخط المحتل وعدم الرجوع ولا خطوة إلى الوراء. الفريق أول جوكوف» . وليس من الصعب فهم ما هي المسؤولية العظيمة التي أخذها قائد الجبهة على عاتقه . لاسيما وأن شخصاً أقدم في الوظيفة وهو رئيس الأركان العامة كان قد اتخذ القرار متحملاً المسؤولية على عاتقه حيال ذلك . لكن جوكوف مع كل ما يحمله من احترام

شخصي لشابوشنيكوف ولروكوسوفسكي ظل مصراً على قراره مظهراً الإرادة الفولاذية التي كانت تميزه .

لو أردنا أن نتحدث فقط عن الفائدة التكتيكية العملياتية للقرار لكان قائد الجيش (١٦) إلى حد ما على حق . ذلك أن العدو ، بعد أن اجتاز دفاع القوات غرب خزان المياه ، تمكن من اقتحام نهر ايسترا من الحركة على أكتاف القوات المنسحبة والاستيلاء على رأس جسر على الضفة الشرقية . أما في حال سحب القوات مسبقاً (طبعاً بشرط تحقيق ذلك بشكل سري) إلى خط نهر ايسترا لكان من الممكن إبداء مقاومة أكثر تنظيماً في وجه العدو .

لكن ينبغي أن نفهم جوكوف أيضاً ليس فقط من حيث الشكل غير الصحيح في توجه روكوسوفسكي إلى الرئيس الأقدم . فالأمر له وجه آخر وهو أن الأركان العامة أيضاً حينما وافقت على اقتراح روكوسوفسكي في تشرين الثاني ١٩٤١ لم تتشاور قبل ذلك مع جوكوف . وفيما بعد نجد روكوسوفسكي بذاته يمتدح حتى قائد الجيش (٣) الجنرال غورباتوف حينما كتب تقريراً إلى هيئة القيادة العليا حول الاستخدام غير الصحيح لجيشه ورفعه عن طريق قائد قوات الجبهة . ورفع الأخير كتاب قائد الجيش إلى ستالين . لم تكن صلابة عود جوكوف تمليها صفاته الشخصية فقط . فكان جوكوف يعتبر أن مثل هذه المسائل لا يجوز حلها فقط انطلاقاً من الوضع العملياتي لجيش واحد دون مراعاة الموقف ضمن سائر نطاق الجبهة . فانسحاب قوات الجيش (١٦) من شأنه أن يكشف أجناب الجيشين (٣٠ و ٥) المجاورين . لكن الشيء الأهم الذي انطلق منه جوكوف هو المضي بحزم في مبدأ الحسمية في الدفاع عن المواضع المحتلة دون تراجع . فالسماح بالانسحاب في مكان ما على الجبهة قد يتولد عنه ميل للانسحاب في أماكن أخرى أيضاً .

في مثل هذه الأحوال ، حينما يتلقى كل قائد جيش أو فرقة أمراً من قائده المباشر ويتخطاه ويخاطب قائداً أعلى منه ، يمكن أن يخرج من اليد عموماً كل زمام السيطرة ، الأمر الذي سيكون له عواقب وخيمة في ذلك الحين أمام موسكو .

يمكن الاقتناع بذلك أيضاً بمثال عن قائد الجيش (٣٣) الجنرال م . غ . يفريموف في أثناء الهجوم على اتجاه فيازما . فحينما وقع الجيش (٣٣) مع فيلق خيالة بيلوف في التطويق ، وكان من الضروري الإفلات للاتصال مع قوات الجبهة ، أسندت إليه مهمة الاختراق من منطقة فيازما عبر مناطق الأنصار الغابية في الاتجاه العام نحو كيروف ، حيث كانت قد حضرت ضربة تصادمية بقوات الجيش (١٠) في أضعف قطاع من دفاع العدو . وبعد أن

نفّذ فيلق الجنرال بيلوف وقسم من قوات الانزال الأمر خرجوا من التطويق. أما الجنرال يفريموف الذي كان يعتبر أن الطريق إلى كيروف طويل جداً بالنسبة لقواته المنهكة، فقد توجه مباشرة عن طريق اللاسلكي إلى الأركان العامة طالباً موافقتها له على الاختراق عبر نهر أوغرا وهو الطريق الأقصر. وفاز بدعم من ستالين. وكانت قد حضرت ضربة بالجيش (٤٣) لملاقاة مجموعة قوات الجيش (٣٣). لكن الوضع انتهى بأن اصطدمت القوى الرئيسية للجيش (٣٣) بمقاومة قوية من العدو ولم تتمكن من الخروج من التطويق. وينبغي أن نقول بشرف: لم تفعل لا الأركان العامة ولا قيادة الجبهة كل ما يجب فعله لتقديم المساعدة الفعالة للجيش (٣٣). وقد أصيب الجنرال يفريموف بجراح بليغة قرب قرية سلوبودكا (على بعد ١٠ كم من خط جبهة الجيش ٤٣)، ونظراً لعدم قدرته على الحركة فقد أطلق النار على نفسه كما فعل الجنرال سمسونوف عام ١٩١٤. كلاهما كانا من الضباط الروس المحترمين الذين وقعوا ضحية ليس لأخطائهم فحسب بل ولظروف أخرى كثيرة. كتب شابوشنيكوف في يومياته: «كان سمسونوف شخصية جذابة. صارماً في حق نفسه، ودوداً تجاه مرؤوسيه، رجلاً شريفاً إلى درجة عالية. لكن الحياة تغدو قاسية، وكثيراً ما يغدو الأشخاص الذين على غرار سمسونوف ضحية لصدماتها، أما الأنذال فيسرحون ويمرحون. إذ أنهم قادرون على الكذب والتحايل، وبإمكانهم أن يبيعوا أنفسهم عند الضرورة لقاء شوربة عدس». واليوم في حياتنا نجدهم يحولون فلاسوف، المسلّم نفسه للأسر، إلى «بطل قومي» أما الجنرال البطل الصنديد يفريموف فقد أصبح في طي النسيان.

ما إن مضى يومان على تسلم جوكوف منصب قائد قوات الجبهة الغربية حتى كلمه مولوتوف على الهاتف متوعداً إياه بالإعدام رمياً بالرصاص فيما إذا لم يفلح في إيقاف تقدم القوات الألمانية الفاشية باتجاه موسكو. وصار يؤنبه: كيف يمكن عدم الإلمام بشؤون الجبهة خلال يومين.

لو وجد الجنرال آيزنهاور أو الجنرال مونتغمري في مثل هذه الظروف لرأيتهما يكتبان تقريراً ويتركان العمل. أما جوكوف فلا سبيل له لترك العمل: كان مصير البلاد والشعب مرتبطاً بفعاليته ونشاطه.

لكن لو نظرت إلى الماضي بعين الناقد، مع مراعاة كل المحن دون الاقتصار على حرب واحدة، لفكرت دون أن تشعر بمايلي: ها هو ذا جوكوف يصدر في لينينغراد أمراً بإعدام أولئك الذين يغادرون مواقعهم، وفي أثناء المعارك الحامية في فولوكولامسك تراه يهدد رفيقه في السلاح بالتهديد ذاته، ويأتي مولوتوف (ليخوّف) جوكوف بإطلاق النار عليه.

تحت قيادة جوكوف نفذت قوات الجبهة الغربية في تشرين الأول وتشرين الثاني ١٩٤١ عمليتين دفاعيتين مشبعتين بالمعارك المتوترة والقاسية .

والآن كيف وبأي شيء تجلت الملامح العملياتية والاستراتيجية لفن القيادة لدى جوكوف في ملحمة موسكو ؟

أولاً : تجلت في رباطة جأشه العظيمة وثقته بنفسه اللتين ، كما يبدو ، سمحتا له في الموقف الميؤوس منه بإيجاد المزيد من القوى والإمكانات الجديدة والطرائق الأكثر نجاعة في حل المهمة الملقاة على عاتق قوات الجبهة .

ها هو ذا روكوسوفسكي ، الذي التحق في (١٠) تشرين الأول تحت إمرة جوكوف بصفته قائد جيش ، يعود بذاكرته إلى تلك الأيام ويكتب ما يلي : « لقد كان هادئاً وقاسياً ، وبهاتين الصفتين تجلت لديه قوة الإرادة . أخذ على عاتقه عبء مسؤولية هائلة . لا غرو فحتى وقت وصولنا إلى مشارف موجايسك ، لم يتبق في يد قائد الجبهة الغربية شيء من القوات تقريباً . ومهما يكن من أمر فهي لم تكن لتكفي حتى لإعاقة هجوم العدو على موسكو » . وجاءت هذه الصفات مثل رباطة الجأش والثقة بالنفس والإصرار على الهدف لتمسك بكل خيوط القيادة وترسخ إرادة قائد الجبهة والقادة من المستويات كافة ومعنويات القوات بتلك الأداة العسكرية التي لا تتيح فقط قابلية السيطرة الشكلية بل العملية للقوات ووحدة أعمالها وتناسقها .

حينما انتقلت ميزة ضبط النفس والثقة بالنفس من القائد إلى القوات غرست فيها قوى جديدة وخلقت فيها العزيمة التي لا تنثني في تنفيذ المهمة المسندة ، تلك العزيمة التي ساعدت في تجاوز كل الصعوبات الهائلة التي لا يصدقها العقل وفي بلوغ النصر في آخر المطاف .

ثانياً : لم يكن المطلوب من جوكوف مجرد تجديد جبهة دفاع مخروقة في بعض الاتجاهات بل تجديد جبهة منهارة بالكامل وإيقاف تقدم العدو اللاحق .

لما كان ينظر إلى الدفاع في سنوات ما قبل الحرب ، على أنه نوع مؤقت واضطراري من الأعمال القتالية ، ولم يكن وارداً حصول دفاع طويل الأجل على المستوى العملياتي الاستراتيجي ، لم تكن مشكلة إعادة إنشاء جبهة جديدة في مثل هذه الظروف واردة لا نظرياً ولا عملياً وكان لا بدّ من بذل الجهود لحلها واستيعابها من جديد . ففي ظروف جبهة منهارة بالكامل وفقدان أية احتياطات حتى لحظة تسلم جوكوف زمام قيادة قوات الجبهة لم يكن بالإمكان تعزيز قوات النسق الأول بأية قوة ولا سد الثغرات الحاصلة ولا نقل القوات من اتجاهات مستقرة نسبياً إلى أخرى مهددة أو إجراء ضربات معاكسة .

لم يبق أمام قائد قوات الجبهة من خيار سوى أن يتوجه بنفسه ويرسل ضباط الأركان إلى أخطر القطاعات ويجمع شمل القطعات المنسحبة شبه المدمرة ويسند إليها المهام للدفاع عن أهم المناطق بحيث يمكن، ولو لوقت قصير، إعاقة التقدم الحثيث لتجميعات العدو الآلية المخترقة في العمق.

كان من الممكن، بالطبع، الاكتفاء بإسناد المهام شكلياً لقادة الجيوش وإصدار الأوامر الحازمة بإيقاف التراجع كما كانوا يفعلون عادة في مثل هذا الوضع. لكن من غير الممكن في الموقف الناشئ حينذاك وصول المهام المسندة كلها إلى المنفذين. وقد لا يتوفر وقت كاف لتنفيذها. وقد أتاحت الزيارة المحفوفة بالمخاطر إلى القوات، حيث اصطدم قائد الجبهة أكثر من مرة بدبابات العدو المخترقة، الفرصة للإحاطة بالموقف بشكل أفضل وأسرع، وإقامة الحواجز بسرعة أكبر على طريق القوات الألمانية الفاشية المهاجمة وكسب الوقت ريثما تتحرك الاحتياطات المفرزة من قبل هيئة القيادة العليا وإنشاء خط دفاعي جديد في العمق.

مع مراعاة خصائص الموقف اقتضى الأمر تحديد قوام القوات المخصصة للدفاع عن المناطق الأساسية تحديداً فريداً من نوعه. ففي كثير من الأحيان كان يرد في الأوامر مايلي: تقدموا إلى أية منطقة وضعوا تحت إمرتكم كل ما تجدونه هناك بما في ذلك القطعات المنسحبة. بالطبع لم يكن مثل هذا المسلك ليتناسب مع قواعد خدمة الأركان. لكن لم يكن في اليد حيلة غير ذلك.

هذا وإن خروج قائد الجبهة إلى «الخط الأمامي» في وضع محفوف بالمهالك والتغيرات المفاجئة في الموقف كان له، من وجهة نظر استمرارية السيطرة على قوات الجبهة، بعض الجوانب السلبية. لكنه كان مضطراً لذلك. وبالإضافة إلى النواحي الإيجابية المذكورة أعلاه فقد أتاحت هذه الجولة لقائد الجبهة دراسة وضع القادة والمسؤولين الآخرين في مكان عملهم مباشرة. استمع إلى ما كتبه المارشال روكوسوفسكي: «إن دراسة طبيعة القادة هي الناحية الأكثر ضرورة للتحضير للملحمة. لماذا؟ لأن هذه الطبيعة تعد أيضاً احتياطات بيد القائد. وهذا عمل شاق، والوقت كان حينذاك من القطع النادر».

ثالثاً: انطلق جوكوف من أن أكبر اقتصاد في القوى والوسائط يأتي من المعرفة الجيدة للعدو، وعلى أساس تحديد اتجاهات أعمال قوى العدو الرئيسية عمد جوكوف إلى التركيز الأقصى لقواته على القطاعات الحاسمة. وكعادته لم يكن ليعمل على العمياني، بل كان، قبل كل شيء، ينشط عمل كل أنواع الاستطلاع بهدف كشف اتجاهاتِ أعمال التجميعات

الرئيسية للعدو وتحركات أنساقه الثانية واحتياطاته. كان يسند المهمة شخصياً لطيران الاستطلاع ويدرس نتائج الرصد الجوي مباشرة مع الطيارين والملاحين. كان يرسل على أهم الاتجاهات مجموعات استطلاعية وآلية للنفوذ إلى جوانب العدو ومؤخرته واستيضاح الموقف الحقيقي سواء للعدو أو للقطعات المنسحبة. وكان يسعى إلى الحصول في الوقت المناسب على المعطيات الواصلة من العملاء والفدائيين. وقد أتاح له هذا إمكانية تسديد ضربات الطيران بفعالية أكبر إلى أخطر تجميعات العدو.

نتيجة لتحليل معطيات الاستطلاع أصبح جوكوف يراعي أيضاً الوضع التالي: وهو أن القوات الألمانية، في محاولتها الاختراق بأسرع ما يمكن إلى عمق الدفاع، كانت لا تهاجم ضمن جبهة متراصة بل في اتجاهات مستقلة على امتداد الطرق.

مع مراعاة ذلك لم يقم جوكوف بنشر قواته بالتساوي وتشتيت القوى والوسائط لإنشاء دفاع متراص، بل ركز قواته حتى غير الرئيسية منها، أي ما كان لديه من قوى، للدفاع عن أهم المناطق الرئيسية التي دون اجتياحها لن يتمكن العدو من تطوير هجومه.

وفي آخر المطاف عمد جوكوف، في آن واحد مع الجهود الفعالة لتصعيد المقاومة في وجه العدو بقوى قوات النسق الأول، إلى إقامة خطوط دفاع جديدة في العمق. وخلافاً لما كان يتخذ في الموقعات الدفاعية في بداية الحرب، وبشكل خاص من قبل كونيف في أيلول ١٩٤١، لم يلجأ إلى دفع الاحتياطات، المرسلة من احتياط هيئة القيادة العليا، من أجل سد الثغرات في دفاع قوات النسق الأول أو تسديد ضربات معاكسة إلى تجميعات متفوقة من قوات العدو بل اتخذ على الفور قراراً بإنشاء خط دفاعي جديد على حدود موجايسك وبالتالي تركيز تجميع جديد من القوات هنا بالذات وتجديد جبهة الدفاع حيث تجري الموقعة الرئيسية ضد قوات العدو المهاجمة ويقطع الطريق المفتوح أمامها إلى موسكو. وإلى هذا الخط باشرت هيئة القيادة العليا بتحويل القوى والوسائط من مختلف الاتجاهات ومن العمق.

على أساس المناطق المحصنة المنجزة في فولوكولامسك، موجايسك، مالوياروسلافيتسك، كالوغا على خط موجايسك كان أول من احتل الدفاع أربعة جيوش وهي (١٦ — روكوسوفسكي)، (٥ — غوفوروف)، (٤٣ — غولوبيف)، (٤٩ — زاخاركين). وكانت قد أسندت إلى قائد الجيش (٣٣) مهمة توحيد التشكيلات والقطعات المتواجدة في منطقته ناروفومينسك.

نظراً للتفوق الكبير لدى العدو بالدبابات وعدم كفاية وسائط الصراع ضدها كان من الأمور البالغة الأهمية رفع القدرة على التحرك للمدفعية وسواها من الوسائط المضادة

للدبابات . وطلب قائد الجبهة أيضاً إنشاء مفارز متحركة مضادة للدبابات في سائر التشكيلات والقطعات . وكان يدخل في قوام المفرزة في الفوج عادة (١ ـــ ٢) فصيلة مشاة مسلحة برمانات مضادة للدبابات وزجاجات حارقة وعدة أسلحة (م/د) وفصيلة نقابين مع ألغام مضادة للدبابات . وكما في لينينغراد سحب جوكوف قسماً من المدافع المضادة للطائرات من منطقة دفاع موسكو ودفعها إلى القوات من أجل الصراع مع دبابات العدو .

ناور جوكوف أيضاً بوسائط أخرى . ففي (١٣) تشرين الأول ، مع قيام العدو بالاقتحام بقوى ضخمة في منطقة كالوغا ، نراه يسحب بجرأة أربع فرق من الاتجاهات الأقل تهديداً بالخطر ويدفع بها إلى منطقة نارو ـــ فومينسك وسيربوخوف . وكانت النتيجة أن تم في نطاقي الجيشين (٣٣ و ٤٣) القضاء على اختراقات العدو وإيقاف هجومه .

لكن حينما تشكل خطر بالاختراق على اتجاه فولوكولامسك ولم يتوفر حينذاك ما يكفي من الاحتياطات نجد قائد الجبهة يدفع ، ضد تجميعات العدو ، كل ما لديه من الطيران تقريباً (أكثر من ٤٠٠ طائرة) وكانت النتيجة إحباط هجوم قوات العدو على هذا الاتجاه . أما بالنسبة لتجميعات العدو الأكثر خطورة فقد سددت عليها عدة ضربات معاكسة واستخدمت الهجمات المعاكسة وغيرها من الأعمال النشيطة في التشكيلات .

بهذا الشكل ، إذا أمكن للقوات الهتلرية أن تتقدم في العمليات الهجومية السابقة مئات الكيلومترات ، نجد أنها تمكنت في هجوم تشرين الأول من التوغل في الدفاع لعمق حتى (٢٠ ـــ ٧٠) كم . فقد اعترى تجميعاتها الضاربة الوهن وتكبدت خسائر كبيرة .

نتيجة لبسالة القوات والمناورة الواسعة بالقوى والوسائط والاستخدام الكثيف للطيران والمدفعية والتغطية الجوية المتقنة بالقوى المتمركزة في منطقة موسكو للدفاع الجوي ، أمكن إيقاف التقدم اللاحق للقوات الألمانية .

في محاولة من القيادة الألمانية للاستيلاء على موسكو بأي ثمن قبل حلول الشتاء دفعت إلى اتجاه موسكو احتياطات إضافية وحاولت النفوذ إلى موسكو بضربات كثيفة من الشمال الغربي إلى الجنوب الغربي في اتجاهي فولوكولامسك وتولا . ولهذه الغاية تم دفع المجموعة (٣) المدرعة من اتجاه كالينين إلى فولوكولامسك ، وعززت المجموعة (٢) المدرعة بالمدفعية وأكملت بالدبابات والأفراد وأرسلت إلى اتجاه تولا .

تمكنت قيادة الجبهة في الوقت المناسب من اكتشاف إعادة تجميع قوات العدو وكشف فكرته . ومع مراعاة ذلك تم اتخاذ التدابير اللازمة سواء من جانب قيادة الجبهة أو هيئة

القيادة العليا . أما جوكوف ، فبعد أن أنشأ جبهة دفاع متراصة ، نجده يبدأ فوراً بتحويل جزء من التشكيلات والقطعات إلى العمق ويشكل منها احتياطات للجيوش وللجبهة استعداداً لصد هجوم العدو الضخم الجديد . حولت هيئة القيادة العليا إلى الجبهة الغربية عدة فرق من احتياطها . وعُززت الجيوش العاملة على أهم الاتجاهات بالمدفعية المضادة للدبابات وقطعات من المدفعية الصاروخية . ونقل الجيش (٥٠) من جبهة بريانسك إلى الجبهة الغربية ..

أجريت في سائر نطاق الجبهة الغربية أعمال هندسية مكثفة لاستكمال تجهيز قطاعات الدفاع وأقيمت خطوط دفاعية جديدة على المنافذ المباشرة لموسكو . وبغية تخفيف الخسائر والحفاظ على سلامة الأفراد طلب قائد قوات الجبهة في أمره الصادر بتاريخ (٣٠) تشرين الأول ١٩٤١ «على الفور تعميق جذور الدفاع بكامله في الأرض وحفر المزيد من الملاجئ ومختلف الجحور والشقوق وممرات المواصلات ... وبمسؤولية أكبر الاهتمام بتأمين الفرج بين الأفواج والفرق والجيوش . وأن يوضع خلف كل فرجة قوى ووسائط تؤمن سلامة الفرج » كما أمر بتمويه مقرات السيطرة.ومعالجة موضوع تعاون صنوف القوات في مجرى المعركة الدفاعية ونشر قطعات المؤخرة .

دون انتظار انتقال العدو إلى الهجوم الجديد ، اتخذ جوكوف عدداً من الأعمال السباقة . فقد وُجهت ضربات مكثفة منتظمة إلى احتياطات العدو المتقربة ومناطق تمركز تجميعاته الضاربة . وفي نطاق الجيش (١٦) أجري ، للمرة الأولى ، معاكس تمهيد مدفعي على المستوى العملياتي . وبغية إحباط هجوم العدو وإضعاف تجميعاته الضاربة وتحسين الوضع العملياتي للقوات شُنت عدة ضربات معاكسة على اتجاهي فولوكولامسك وسيربوخوف . وكانت أعمال الجيش (٤٩) ناجحة خصوصاً في منطقة سيربوخوف . وعلى أثر اختصار خط الجبهة والحفاظ على الوضع العملياتي للقوات في هذا الاتجاه تهيأت الفرصة لانشاء احتياطات إضافية ودفعها إلى الاتجاهات المنتظرة لهجوم العدو وبالتحديد : إلى الجنب الأيمن للجبهة ثلاث فرق مشاة وثمانية ألوية مدرعة ، إلى الجنب الأيسر فيلق خيالة وفرقة مدرعة ولواء مدرع .

حين ركز جوكوف جلّ اهتمامه لفعالية الدفاع لم تستهوه الضربات والهجمات المعاكسة ولم يحولها إلى هدف بحد ذاتها ، معتبراً أنها لا تؤتي ثمارها إلا في الظروف المناسبة لإجرائها ، أي في حال تحضيرها بصورة سرية ومتقنة وتأمينها الناري والمادي والتقني بصورة جيدة . وبقدر المستطاع قاوم وكبح توجه ستالين لدفع كل ما هنالك من احتياطات جديدة من أجل تسديد الضربات المعاكسة . لكنه لم يفلح في ذلك على الدوام . وهكذا في بداية تشرين الثاني طلب

القائد الأعلى، متذرعاً بموافقة شابوشنيكوف، تسديد ضربات معاكسة على جناح السرعة في مناطق فولوكولامسك وسيربوخوف بهدف إحباط هجوم العدو المحضّر. هنا اعترض جوكوف بشكل قطعي على ذلك وحاول إيضاح أن مثل هذه الضربات المعاكسة لن تجدي نفعاً في حين تبقى الجبهة محرومة من الاحتياطات في العمق. لكن ستالين أصر على رأيه. وكانت النتيجة أن تكبدت القوات خسائر لا مبرر لها وحرمت الجبهة من الاحتياطات التي كانت ضرورية لتعزيز القطاعات الضعيفة من الدفاع ولدرء اختراقات العدو. واقتضى الأمر بذل جهود جبارة لإعادة إنشاء ولو بعض الاحتياطات.

في الموقف الصعب يُتطلب من قائد الجبهة، بل ومن أي قائد، حين تداهمه ظروف معقدة، أن يتحلى بمزيد من الصبر والثبات والدهاء حينما يتوجب عليه خوض الصراع ليس فقط مع العدو ومع المصاعب التي تعانيها قواته بل ومع رئاسته.

لأول مرة منذ بداية الحرب العالمية الثانية يجري مثل هذا الإعداد المسبق والشامل لعملية دفاعية.

ففي (١٤) تشرين الثاني حذر قائد الجبهة قادة الجيوش من إمكان انتقال العدو إلى الهجوم، وأمرهم بوضع قواتهم في الجاهزية لصد هجماته. ففي الدفاع يعتبر تحديد هجوم العدو المزمع في الوقت المناسب وتحذير القوات بذلك هو نصف النجاح. وهذا من المظاهر الراقية لفن الحرب.

كما توقع جوكوف، بدأ هجوم القوات الهتلرية في (١٥) تشرين الثاني عام ١٩٤١ بعد تمهيد مدفعي وجوي قوي. وبعد فاصل مدته أسبوعان اندلعت من جديد المعارك الدفاعية العنيفة. وتشكل أصعب موقف على اتجاهي فولوكولامسك وتولا حيث تمكن العدو، بالرغم من المقاومة العنيفة، من خرق الدفاع على عدة قطاعات. ففي هذه الموقعات الدفاعية الختامية اكتسب كل كيلومتر من الأراضي المجاورة لموسكو قيمة خاصة، وتطلب الأمر الرد بمزيد من العنف والحيوية على كل حالات اختراق للعدو والانسحاب الاضطراري للقوات بما في ذلك في المشهد المذكور أعلاه حينما حاول روكوسوفسكي سحب قواته إلى ما وراء خزان مياه ايسترا. وتأتي الكلمات المعروفة الآن (عاشت روسيا، لا مكان للانسحاب إلى ما وراء موسكو) لتعبر عن إرادة الشعب، ولم تقتصر على المعنى الرمزي لها. فالكلام كان يدور حول موت أو حياة العاصمة والبلاد بأسرها.

خلال هجوم القوات الألمانية الفاشية في تشرين الثاني حينما ظهرت اختراقاتها ضمن نطاق الجيش (٣٠) التابع لجبهة كالينين وعلى الجانب الأيمن للجيش (١٦) من الجبهة

الغربية ، اتصل ستالين مع جوكوف بالهاتف وسأله :

« ـــ هل أنت متأكد أننا سنحافظ على موسكو ؟ أسألك عن ذلك والألم يعتصر فؤادي . قل لي بشرفك كشيوعي .

أكد له جوكوف : ـــ لا شك في أننا سنحافظ على موسكو . لكن يلزمنا أيضاً جيشان ومائتا دبابة على الأقل .

وعد ستالين بالجيشين ، أما الدبابات فأفاد بأنها غير متوفرة لدينا حالياً » .

كم هي عظيمة تلك المسؤولية التي كان على جوكوف أن يأخذها على عاتقه ، وما هي رباطة الجأش التي كان يجب أن يتحلى بها لكي يتمكن في أحلك الظروف وأكثرها تناقضاً ، حينما كان كثير من الأمور غير واضحة ، من أن يظهر مثل تلك الثقة التي كان لها تأثير على كثير من قرارات وأعمال ستالين فيما بعد .

بتاريخ (٢١) تشرين الأول عام ١٩٤١ نشرت الصحف ، بتوجيهات من ستالين ، المرسوم الصادر عن لجنة الدولة للدفاع المتضمن تعيين جنرال الجيش جوكوف مسؤولاً عن الدفاع عن موسكو وأرفقت صورته وهذا لم يكن دارجاً وقتئذ . ونظراً لتزايد الخطر أعلنت موسكو أنها في حالة الحصار . وجاء في المرسوم مايلي : « نعلن بهذا أنه أوكل الدفاع عن العاصمة على الخطوط التي تبعد مسافة (١٠٠ ـــ ١٢٠) كم غرب موسكو إلى قائد الجبهة الغربية جنرال الجيش الرفيق جوكوف » .

كان من شأن هذا الأمر أن يشهد على أن قيادة القوات السوفييتية قرب موسكو أصبحت بيد قائد جدير بالثقة يمكن للشعب أن يعتمد عليه . وفوق ذلك في حال الفشل كان سيعتبر « كبش الفداء » الذي بإمكان ستالين أن ينحي عليه بكل اللائمة لما قد يحدث .

حين فشل الهجوم بالتجميعات الجانبية ، شمال غرب وجنوب شرق موسكو ، قامت قيادة مجموعة الجيوش « المركز » في (١) كانون الأول عام ١٩٤١ بتسديد ضربة مكثفة في مركز نطاق الجبهة الغربية محاولة الاختراق نحو موسكو على امتداد أوتستراد مينسك ... وأمكن للقوات الألمانية الفاشية أن تخرق الدفاع في منطقة نارو ـــ فومينسك . وبتطوير هجومها نحو كوبينكا تمكنت من الوصول إلى جنب ومؤخرة الجيش ٥٠ لكن جوكوف تمكن من الإسراع في تجميع القوى اللازمة وصد قطعات العدو المخترقة عن طريق ضربة قامت بها قوات الجيشين (٣٣ و ٥) . ونتيجة للدفاع الصامد للقوات السوفييتية وأعمالها النشيطة لم

تتمكن القيادة الهتلرية ، خلال شهرين من الهجوم ، من الإخلال بتماسك الدفاع ، كما حدث في آب ــ أيلول ، وتحويل النجاح التكتيكي إلى عملياتي .

بالرغم من الإخفاقات والخسائر الكبيرة ، ظل هتلر يطالب بعدم إيقاف الهجوم ، وبأي ثمن الاستيلاء على موسكو . ففي (٣) كانون الأول نجد قائد مجموعة جيوش « المركز » الجنرال فيلدمارشال فون بوك ، يرفع تقريراً إلى هتلر يقول فيه : « بالرغم من الأوضاع غير الملائمة فإنني لا أفقد الأمل . ما زالت هناك إمكانية ضئيلة باحتلال موسكو . كل شيء تقرره آخر كتيبة » .

غير أن الروح المعنوية للقوات الهتلرية أصبحت محطمة ونفدت قواها الهجومية . ولم يغب عن بال جوكوف الوضع التالي أيضاً ، وهو أن القيادة الألمانية بنشرها التجميعات الضاربة على جبهة واسعة وبتلويحها بعيداً بقبضتها الفولاذية فإنها ، في مجرى ملحمة موسكو ، تكون قد باعدت بين قواتها إلى حد جعلها في المعارك النهائية ، على المنافذ القريبة من العاصمة ، تفقد قدرتها على الاختراق . ولم تكن القيادة الألمانية لتتوقع مثل هذه الخسائر الكبيرة ، كما لم تتمكن من تعويضها وتعزيز تجميعها أمام موسكو .

بالنظر لما وقع في بداية الحرب من فقدان جانب كبير من الطيران والدبابات والمدفعية ، وقعت أزمة حادة في مهام الصراع ضد طيران العدو ودباباته . فقد أدى تفوق الطيران الفاشي في الجو ، والحق يقال ، إلى فقدان الحماية الجوية جَعَلَ من الصعب إجراء المناورة بالقوات وتقدمها إلى الخطوط المرسومة لها وتسديد الضربات المعاكسة بشكل منتظم وخَلَقَ صعوبات كبيرة في السيطرة على القوات وإمدادها . لذلك سعى جوكوف إلى استخدام حتى الكمية المحدودة المتبقية لديه من الطيران ، استخداماً مكثفاً ، لتسديد الضربات إلى مطارات العدو وتجميعاته الضاربة الأكثر خطورة . كما اقتضى الأمر تجميع المدفعية المضادة للطائرات بشكل أساسي لتغطية أهم الأهداف فقط ، وكثيراً ما استخدمت كذلك للصراع مع الدبابات .

أما الدفاع المضاد للدبابات فقد اعتراه الوهن كذلك نتيجة للأحكام الخاطئة الموجودة في نظام القتال التي تطالب بتمركز المدفعية على الاتجاهات غير الصالحة لمرور الدبابات . أي أن المدفعية يجب أن تتمركز في منأى عن الاتجاهات التي عملت فيها تجميعات العدو المدرعة . ويأتي جوكوف في تموز ١٩٤١ ليصدر توجيهاً يحدد فيه عدداً من المنطلقات الجديدة للإقبال على تنظيم الدفاع المضاد للدبابات . وهذا يخص على وجه التحديد تمركز المدفعية على الاتجاهات المهددة بالدبابات .

روعي إنشاء نقاط استناد مدفعية مضادة للدبابات على المواضع الدفاعية الأولى وفي عمق الدفاع يقودها قائد مدفعي . وتطويراً لهذا التوجيه أصدر رئيس مدفعية الجيش الأحمر ن . ن . فورونوف تعليمات خاصة تم بموجبها تفصيل مسائل تنظيم نقاط الاستناد المضادة للدبابات . وبذلك وضعت البداية للانتقال من المنظومة الخطية لتمركز الوسائط المضادة للدبابات إلى إنشاء نقاط استناد مضادة للدبابات على الاتجاهات المهددة بالدبابات . وكان جوكوف قد بدأ في تطبيق مثل هذا النظام في الدفاع المضاد للدبابات وهو لا يزال قائداً للجبهة الاحتياطية ، ثم في لينينغراد ثم بشكل أكمل لدى الدفاع عن موسكو حيث أدخلت في نقاط الاستناد المضادة للدبابات ليس فقط الوسائط المدفعية بل وغيرها من الوسائط المضادة للدبابات .

كان جوكوف يزج في العمل ويجبر كل القوى والوسائط على بذل جهودها في الصراع النشيط ، بما فيها التشكيلات والقطعات الواقعة في التطويق ، التي كما يبدو خرجت من المجرى العام للصراع المسلح . وفي التعليمات التي أصدرها فيما بين (١٠ و ١٢) تشرين الأول كان يطالب قادة الجيوش الواقعة في التطويق ليس فقط بأن لا تلقي القوات أسلحتها بل وأن تتابع صراعها الرجولي ، جاذبة نحوها قوى ضخمة للعدو ومانعة إياها من التحول لتطوير الضربة على موسكو .

حين نشأ موقف صعب للغاية على اتجاه فولوكولامسك ضمن نطاق الجيش (١٦) نجد جوكوف يتخذ قراراً غريباً وهو : أن يدفع إلى نطاق هذا الجيش من الجيوش (٥ و ٣٣ و ٤٣) مايلي : من الأول سرية مشاة ، من الثاني سرية مدفعية ، من الثالث سرية دبابات . ومن حيث المبدأ فإن انتزاع بعض الوحدات من تشكيلات مختلفة يعد من أكثر الأساليب فشلاً في حل المهمة ، ذلك أن هذه التشكيلات ستخسر قسماً من قوتها كما أنه لن تنشأ قوة منظمة ومسيطر عليها جيداً في الاتجاه الذي تندفع إليه . لكن جوكوف كان يفعل ذلك عن وعي ، فمن جهة عمل على تقوية اتجاه فولوكولامسك إلى حدٍ ما ومن جهة ثانية ضلل العدو بإعطائه انطباعاً بأن على هذا الاتجاه يتم دفع ليس وحدات منعزلة وإنما تشكيلات بكاملها . ومهما يكن من أمر فقد أدى هذا التدبير إلى تحذير قطعات العدو المخترقة إلى الأمام ، فبدأت بالتوقف حتى وصول القوى الرئيسية . وبهذا الاجراء كسب قائد الجبهة الوقت لتنظيم الدفاع على مشارف موسكو . ومن الطريف أن حسابات جوكوف وجدت مبرراً لها . وكما كتب ، فيما بعد ، رئيس أركان الجيش (٤) الألماني : « لم نصدق أن الموقف يمكن أن يتغير بمثل هذه القوة » .

ها هو ذا قائد مجموعة «المركز»، فون بوك يتوصل في (٢٣) تشرين الثاني إلى استنتاج، وهو أنه لم يعد يركن إلى النجاح في الاستيلاء على موسكو. وفي اليوم (٢٩) يطرح المسألة التالية وهي إيقاف الهجوم وتحديد خط للانتقال إلى الدفاع. «أثارت وضعية القوات حفيظة قيادة مجموعة «المركز» فعلى سبيل المثال فقدت الفرق التابعة للمجموعة (٣) المدرعة في (٣٠) تشرين الثاني حتى (٧٠٪) من دباباتها، وظهرت حالات كثيرة من الإغماء لدى الجنود من جراء الارهاق ... الخ. واعتباراً من (٢٧) تشرين الثاني يلاحظ لدى بعض الجيوش عدم قابلية لمتابعة الهجوم».

بهذا الشكل أمكن للجبهة الغربية، تحت قيادة جوكوف وبالتعاون مع الجبهات المجاورة، نتيجة للعمليات الدفاعية القاسية والصعبة جداً، لكنها منفذة ببراعة، أمكن ليس فقط إيقاف هجوم العدو على موسكو بل وإضعاف تجميعاته الضاربة بشكل خطير. وبدأ الموقف أمام موسكو يتحول لصالح القوات السوفييتية.

في هذه الظروف كان أمام القوات طريقتان ممكنتان للأعمال الاستراتيجية.

الطريقة الأولى: مع متابعة الدفاع، التشبث بالخطوط المحتلة وحشد الاحتياطات ثم، بعد إجراء التحضيرات الضرورية، الانتقال إلى الهجوم المعاكس. في هذه الحال كان من الأجدى أيضاً الاحتفاظ، لهذه الغاية، بتلك الجيوش التي أفرزتها هيئة القيادة العليا في بداية كانون الأول إلى الجبهة الغربية، وهذا ما يسمح بإمكانية إكمال التشكيلات بالأفراد وتكديس الذخائر وتحضير العملية الهجومية بشكل أفضل. غير أنه ظهرت في هذا الاحتمال سلبيات كبيرة. فقد أتيحت للعدو إمكانية التشبث وإنشاء دفاع أكثر متانة، وحينئذ كان يتطلب الأمر من أجل خرقه وتطوير الهجوم قوى أكبر لا يمكن تجميعها إلا خلال (٥ر١ ـــ ٢) شهر، هذا وحتى في هذا الاحتمال كان يصعب الركون إلى النجاح الكامل للعملية الهجومية. وعلاوة على ذلك فإن قرب القوات الألمانية الفاشية من العاصمة شكل تهديداً بقصفها المستمر بالمدفعية وشن الضربات الجوية عليها، وقد يشجع العدو على تكديس قواه وشن هجوم جديد على موسكو. لذلك كان من الواجب طرده بأسرع ما يمكن عن موسكو.

الطريقة الثانية للعمل: وهي التي اختارها جوكوف في ذلك الموقف، تقضي باستخدام القوى المتوفرة والجيوش القادمة من احتياط هيئة القيادة العليا لشن ضربات معاكسة فورية على تجميعات العدو التي لما تتشبث بعد في مواقعها والتي دب فيها الوهن، دون إفساح المجال أمامها لاستكمال قواها وتطوير ضرباتها المعاكسة التي كان يجب أن تتحول إلى هجوم معاكس شامل.

كان في احتمال العمل هذا جوانب سلبية مرتبطة بصورة رئيسية بالإرهاق الذي أصاب القوات وعدم استكمالها وعدم تأهبها بما يكفي للهجوم. غير أن هذه الناحية السلبية كانت تبرر بالمفاجأة في الأعمال وتسديد الضربات إلى تجميعات معادية دب فيها الوهن ولم تلحق بالانتقال إلى الدفاع. وهذه الناحية الأخيرة كان لها أهمية خاصة نظراً لأن القوات كانت، في تلك الفترة، أضعف ما يكون في الاستعداد بالذات لخرق دفاع محضر للعدو. وقد سمح شن الضربات المعاكسة بلا تأخير، على تجميعات العدو الجانبية، بإحباط ضرباتها الجديدة على موسكو وصدها، وفي حال نجاح الضربات المعاكسة تطوير النجاح بسائر قوى الجبهة.

في (٢٩) تشرين الثاني اتصل جوكوف بالقائد الأعلى هاتفياً وطلب منه أن يسلمه امرة الجيش الأول الضارب والجيش العاشر بقصد تسديد ضربة معاكسة والانتقال إلى الهجوم المعاكس. ولم يكن ستالين واثقاً من هذه المكانة وسأله:

ـــ وهل أنت واثق من أن العدو وصل إلى حالة اليأس وليس لديه الإمكانية لزج أي تجميع ضخم جديد في العمل؟

أجابه جوكوف:

ـــ العدو منهك القوى. لكننا إذا لم نقض الآن على الاختراقات المعادية الخطيرة سيتمكن الألمان من تثبيت أقدامهم في منطقة موسكو باحتياطات ضخمة من أصل تجميعي قواته الشمالي والجنوبي، حينئذ قد يتعقد الوضع بشكل خطير.

وافق ستالين على اقتراح قائد الجبهة الغربية بعد استكمال دراسته مع الأركان العامة.

بهذا الشكل يكون جوكوف قد أدرك في الوقت المناسب الحالة المتأزمة لدى العدو وأفضل لحظة لانتقال قواته من الدفاع إلى الهجوم حينما كان العدو غير قادر بعد على الهجوم على سائر الجبهة، وفوق ذلك لم يلحق في إعادة تجميع قواته وتنظيم الدفاع والتشبث بعزم على الخطوط التي بلغها على المشارف الغربية لموسكو. علماً بأنه كان يجب إعداد الهجوم المعاكس والمباشرة به مع استمرار المعارك الدفاعية.

كانت فكرة قائد قوات الجبهة تنص على أنه، بالانتقال المفاجئ إلى الهجوم، يجري سحق تجميعات العدو الأشد خطورة التي تهدد العاصمة من الشمال الغربي والجنوب الشرقي. وحسب خطة هيئة القيادة العليا كان يجب على الجيوش من الجناح الأيسر لجبهة كالينين والجناح الأيمن للجبهة الجنوبية الغربية أن تنتقل إلى الهجوم بآن واحد مع الجبهة الغربية.

كان هناك وضعان هامان تركا طابعهما على تحضير العملية وهما : الوقت الضيق إلى أقصى حد (كان الانتقال إلى الهجوم مقرراً في ٥ ـــ ٦ كانون الأول) وعدم كفاية القوى والوسائط ولاسيما الدبابات والمدفعية والذخيرة . وفي نهاية المعارك الدفاعية أمام موسكو تم تحديد استهلاك الذخيرة بمعدل (١ ـــ ٢) طلقة للمدفع في اليوم . هذا في الظروف التي اقتضى الهجوم فيها من حيث المبدأ على عدو كان لا يزال متفوقاً في القوى الحية والدبابات والمدفعية . وقد يبدو أن جوكوف قد خرق في هذه المسألة أيضاً قوانين فن الحرب . وكانت طريقة الأعمال المختارة من قبل هذا القائد أكثر تعقيداً . فقد طالب بإجراء التخطيط في مهل أشد انضغاطاً وبالفاعلية في إسناد المهام للمرؤوسين وبمستوى الانتظام العالي في السيطرة على القوات . كل هذا أظهره جوكوف وأركانه برئاسة الجنرال سوكولوفسكي . أعلمت هيئة القيادة العليا مساء (٢٩) تشرين الثاني عن تعزيز الجبهة بالجيش (١) الضارب والجيش (١٠) وبقسم من تشكيلات الجيش (٢٠) وطلبت موافاتها بخطة الانتقال إلى الهجوم المعاكس . كانت الخطة جاهزة ، وفي (٣٠) تشرين الثاني رُفعت إلى الأركان العامة وصدقت في اليوم ذاته من قبل القائد الأعلى . ولعل ذلك كان فعالية لا يمكن تصورها في التاريخ العسكري . فقد كانت الخطة موضوعة على الخريطة مع لائحة توضيحية كتبت بيد جوكوف نفسه . وحينما ينظر اليوم بعض المؤرخين ومدربي الأكاديميات إلى هذه الوثائق المحضرة في أركان الجبهة الغربية يعتريهم الذهول لعدم توفر كثير من تفاصيل تصميم العملية ، بل أنها ليست مصاغة بالدقة (والجمال) كما هو مفترض . لكن في الموقف القتالي ليس من النادر أن يضطر الأمر إلى إهمال كل هذه الشكليات في سبيل استباق العدو وتحضير العملية في فترات مضغوطة إلى أقصى حد . والأهم من ذلك بكثير إسناد المهام بسرعة إلى المرؤوسين وإتاحة أكبر وقت ممكن لهم لتنظيم المعركة وخاصة في الحلقة التكتيكية .

هناك حالات معروفة جيداً حينما يسعى قادة الجيوش والجبهات إلى إنجاز كل شيء على مستواهم بشكل كامل دون أن يتركوا للمستويات الأدنى ما يكفي من الوقت ويضعوهم في مأزق حرج . أما جوكوف فكان يمتاز بأنه كان ، بعد اتخاذ القرار ، يركز كل الجهود (جهوده وجهود المرؤوسين) بآن واحد على تنظيم وتأمين الأعمال القتالية .

لما كانت القوات ، مع بدء الهجوم المعاكس ، مضطرة لاجتياز مقاومة تجميعات كثيفة جداً للعدو ، أصبح تقدم قوات الجبهة في بادئ الأمر بطيئاً للغاية (لم يتجاوز ٢ ـــ ٣ كم في اليوم) وعلاوة على ذلك ، نظراً لعدم توفر الخبرة في خوض المعارك الهجومية لديها فقد عملت على خط مستقيم زيادة عن اللزوم ودخلت في معارك مديدة مع مفارز الحراسة الخلفية للعدو .

كل ذلك اقتضى تصحيحه في مجرى الأعمال القتالية. واعتبر جوكوف أن على الجميع، بدءاً من قائد الجبهة وانتهاءً بالجندي العادي، أن يستخلصوا دروساً من الخبرة القتالية ويتعلموا أن يقاتلوا ليس فقط في المراحل المحضرة من العملية بل وفي تطورات الأعمال القتالية. وبعد أن رأى عيوباً كبيرة في أعمال القوات بادر، خلال عدة أيام من بدء الهجوم، إلى إصدار توجيهات حدد فيها مايلي: «تعمد بعض قطعاتنا، بدلاً من الالتفاف حول العدو وتطويقه، إلى دفعه من الجبهة بهجوم جبهي، وبدلاً من التسرب فيما بين تحصينات العدو، إلى المراوحة في المكان أمام هذه التحصينات متذمرة من صعوبة خوض المعركة ومن تكبدها خسائر كبيرة. كل هذه الطرق السلبية في خوض المعركة إنما تعمل لصالح العدو متيحة له إمكانية الانسحاب بانتظام إلى خطوط جديدة مع تحمله خسائر قليلة، وهناك يجمع شمله وينظم المقاومة من جديد في وجه قواتنا... لذلك يجب أن تترك أمام وحدات حراسة المؤخرة والمواضع المحصنة ستارات غير كبيرة ثم الالتفاف من حولها بعنف والتقدم أعمق ما يمكن إلى طرق انسحاب العدو... تشكل عدة مجموعات ضاربة من الدبابات ورماة الرشاشات والخيالة، وتحت إشراف قادة شجعان تدفع إلى مؤخرة العدو». ولمطاردة العدو مطاردة حثيثة أكثر، اقتضى تشكيل مجموعات متحركة من قطعات المدرعات والخيالة والرماة كانت في كثير من الحالات تستخدم بشكل ناجح للغاية. والمثال على ذلك المجموعة المتحركة من الجيش (٥٠)، فهي بعد أن توغلت في عمق تمركز العدو تمكنت خلال ثلاثة أيام ونصف من التقدم حتى مسافة (١٠٠) كم ووصلت إلى التخم الجنوبي الشرقي لمدينة كالوغا، مؤمنة سرعة الاستيلاء على المدينة لمجرد وصول القوى الرئيسية للجيش. وأصبح كثير من تشكيلات النسق الأول يعمل بنشاط ومناورة أكثر.

ما إن حل شهر كانون الثاني ١٩٤٢، حتى تجاوزت قوات الجبهة الغربية، بالتعاون مع الجبهات المجاورة، المقاومة العنيفة للعدو وقذفته بعيداً عن موسكو وتقدمت حتى ١٠٠ ــ ٣٠٠ كم.

كان لهزيمة القوات الألمانية الفاشية أمام موسكو وتيخفين وروستوف أن غيرت الموقف الاستراتيجي بكامله وخلقت المقدمات المواتية لتصعيد الجهود وسحق العدو. فقد اتخذت هيئة القيادة العليا قرارها بمتابعة العمليات الهجومية دون أي توقف عملياتي على سائر الجبهة السوفييتية الألمانية. ولدى مناقشة هذا القرار في هيئة القيادة العليا بتاريخ (٥) كانون الثاني ١٩٤٢ كان جوكوف العضو الوحيد في الهيئة الذي عارض مثل هذا القرار. فقد اقترح سحب الاحتياطات من كل الاتجاهات ودفعها من أجل هجوم مكثف على الاتجاه الغربي والسحق الكامل لمجموعة جيوش «المركز»، ذلك أنه مع عدم الكفاية العامة في القوى

والوسائط وتفوق العدو فإن محاولة الهجوم في آن واحد على سائر الاتجاهات سيقود إلى تبديدها ولا يحقق نجاحاً حاسماً. لكن ستالين لم يوافق على اقتراح جوكوف. والأنكى من ذلك أنه قاطعه بخشونة وأمره بالجلوس دون أن ينبس ببنت شفة. وحين قام رئيس التخطيط الحكومي ن. فوزنيسينسكي لدعم جوكوف متحدثاً عن تعذر تأمين كل هذه العمليات الهجومية بالذخيرة انتهره مالينكوف وبيريا. وكانت النتيجة أن اتخذت هيئة القيادة العليا قراراً بإجراء عدة عمليات هجومية شتاء ١٩٤٢ على طول الجبهة السوفييتية الألمانية. كان ذلك قراراً غير معقول وغير مفيد إلى أقصى حد، ولم يكن في وسع جوكوف إلا التنفيذ باعتباره قائد قوات الجبهة الغربية. وفيما بعد قائد قوات الاتجاه الغربي.

سددت الضربة الرئيسية على الاتجاه الغربي بقوى الجناح الأيسر للجبهة الشمالية الغربية وقوات جبهات كالينين والغربية وبريانسك بهدف تطويق وتدمير القوى الرئيسية لمجموعة جيوش «المركز».

وللمساعدة في إنهاء تطويق العدو تم دفع الفيلق (٤) إنزال جوي (عملياً نحو ٧ آلاف شخص)، ولواءي إنزال جوي وفوج واحد إنزال جوي بهدف قطع الطرق فيما بين فيازما وسمولينسك. كان تنظيم الانزال بلا مهارة إلى أقصى حد. فقد اختيرت منطقة الانطلاق للإنزال قريباً جداً من خط الجبهة. وتمركزت طائرات النقل بشكل متزاحم وكان التمويه ضعيفاً. وما أن اكتشف العدو هذه الاستعدادات حتى قام، قبل بدء الإنزال، بقصف المطارات وأخرج من الصف قسماً من الطائرات ورجال الإنزال الجوي. وأصبحت القوات المنزلة مبعثرة على رقعة كبيرة. وفي الليلة الأخيرة هبطت في مؤخرة العدو طائرة نقل قائد وأركان الفيلق، ولدى اقترابها من ساحة الهبوط هوجمت بطائرة انقضاض ألمانية. فقتل قائد الفيلق الجنرال آ. ف. ليفاشوف وجرح عدة ضباط أركان. وقد أثر كل هذا على فعالية أعمال الإنزال الجوي في مؤخرة العدو.

كانت عملية الهجوم الاستراتيجي في رجيف ـــ فيازما، من حيث المبدأ، استمراراً للهجوم المعاكس البادئ أمام موسكو دون أية فواصل عملياتية أو زج قوات إضافية. لكن جوكوف في هذا الموقف الاستثنائي لم يكرر أخطاء ستالين على مستوى جبهته ولم يسمح بالهجوم على قدم المساواة ضمن نطاقات الجيوش كافة. وبالرغم من النقص بالقوى والوسائط فقد تمكن من استخدامها بشكل مكثف عن طريق المناورة البارعة بها. ولأول مرة منذ بدء الحرب العالمية الثانية أنشأ على اتجاه ضربته الرئيسية تفوقاً ثلاثياً بالكتائب والمدفعية وثنائياً بالدبابات.

كل هذا أتاح ، في بادئ الأمر ، إمكانية تطوير الهجوم بنجاح كاف . وبدأت القيادة الألمانية على الفور بدفع تشكيلات جديدة من الغرب ، وازدادت مقاومة العدو أكثر وأكثر . وفي نقطة التحول هذه بالذات بالنسبة لمجرى العملية ، حينما خلق تقدم قوات الجبهة الشمالية الغربية حتى فيليكيه لوكي وفيتيبسك ، من جهة أولى ، ظروفاً ملائمة لتطوير الهجوم ومن جهة أخرى ظهر على الجناح الأيمن للجبهة (ضمن نطاق الجيش ٢٠) تهديد من جانب العدو بتسديد ضربة معاكسة ، في حين كان من الضروري الاتصال بأسرع ما يمكن مع الجيش (٣٣) وقوات الانزال الجوية المنزلة ، في هذه اللحظة الأكثر مسؤولية نجد هيئة القيادة العليا ، بغض النظر عن الوضع الحرج الذي وقع فيه جوكوف ، تستدعي من قوام الجبهة الجيش الضارب الأول وقيادة الجيش (١٦) مع قطعات الجيش وتضمها إلى احتياط القيادة العليا . وقد أدى هذا التصرف إلى تعقيد وضع قوات الجبهة وعرقلة الهجوم .

بذلت قوات الاتجاه الغربي (من جبهتي كالينين والغربية) خلال شهري آذار ونيسان ١٩٤١ أكثر من محاولة لمتابعة الهجوم ، لكنها باءت بالفشل من جراء تفوق العدو وعدم الكفاية بالقوى والوسائط والانخفاض الكبير في الإمداد بالذخيرة (من أصل الكميات المخططة لإمداد الجبهة الغربية عن شهر كانون الثاني عام ١٩٤٢ أرسل ٢٫٧٪ من الهاوون عيار ٥٠مم ، و ٥٥٪ من الهواون عيار ٨٢مم و ٤٤٪ من قذائف المدفعية . أما في شباط فلم يصل من أصل ٨١٦ مقطورة كان مخططاً لها أن تصل في العشر الأول ولا مقطورة واحدة) .

كتب جوكوف بتاريخ (١٤) شباط ١٩٤٢ إلى هيئة القيادة العليا مايلي : « كما دلت خبرة المعارك فإن النقص في الذخيرة لا يعطي الإمكانية لإجراء هجوم مدفعي . وبالنتيجة لا تدمر منظومة نيران العدو ، وقطعاتنا حين تهاجم دفاعاً غير مبطل للعدو تتكبد خسائر كبيرة ولا تحقق النجاح المطلوب » . بعد ذلك طلب ستالين في توجيهاته متابعة تنفيذ المهمة المسندة سابقاً بشكل أكثر فعالية . وحاولت جبهات الاتجاه الغربي ، في أواخر آذار وبداية نيسان ، أن تنفذ هذه التوجيهات القاضية بسحق تجميع رجيف وفيازما ، غير أن جهودها كانت عديمة الجدوى . وأخيراً أصدرت هيئة القيادة العليا في (٢٠) نيسان تعليماتها بانتقال قوات الاتجاه الغربي إلى الدفاع .

هكذا انتهت ملحمة موسكو وهي أعظم ملحمة في التاريخ . فقد تقدمت قوات الاتجاه الغربي أمام الخط الذي كانت تتواجد عليه في أول كانون الثاني أيضاً مسافة (٨٠ ــ ٢٥٠) كم ، وبهذا يكون مجموع تقدمها منذ بدء الهجوم المعاكس قد بلغ (١٠٠ ــ ٤٠٠) كم .

لو أصغى ستالين لمقترحات جوكوف ولم يشتت الاحتياطات بل حشد الجهود الرئيسية على الاتجاه الحاسم لكان نجاح الهجوم على الاتجاه الغربي أكبر من ذلك .

في نهاية ملحمة موسكو نرى القوات الألمانية الفاشية تمنى لأول مرة منذ بداية الحرب العالمية الثانية بهزيمة ساحقة وتضطر إلى الانسحاب والتحول إلى الدفاع . كان ذلك أول انتصار استراتيجي على الفيرماخت . ومنيت بالهزيمة أيضاً استراتيجية الحرب الخاطفة . وترتب الآن على القيادة الهتلرية أن تقوم بتعبئة عامة لكل موارد ألمانيا وغيرها من المناطق المحتلة من أجل متابعة الحرب . وكما نوه جوكوف : « يترتب على المؤرخين أيضاً أن يبحثوا كيف انهارت عزائم القيادة الهتلرية الواحدة تلو الأخرى على خلفية ناجحة كما كانت تبدو للفاشيين . كل ذلك كان له عواقب بعيدة المدى ... » .

أما القوات السوفييتية فقد تكبدت أيضاً خسائر كبيرة ، في مجرى ملحمة موسكو (مرة ونصف تقريباً أكبر مما تكبدته القوات الألمانية الفاشية) ، لكنها حافظت حتى نهاية الموقعات الدفاعية على قدرتها القتالية لدرجة أنها تمكنت من الانتقال إلى الهجوم المعاكس ، وانتقلت المبادرة الاستراتيجية إلى يد القيادة السوفييتية . ورأى العالم بأسره أن بالإمكان الآن اجتياح ألمانيا الفاشية . واكتسبت القوات السوفييتية الثقة بأنها قادرة ليس فقط على الدفاع بل على الهجوم أيضاً .

من الجدير بالذكر أن اللائحة التي تتضمن أسماء الحاصلين على جوائز تكريمية من أجل الدفاع عن موسكو المعممة في (٣) كانون الثاني ١٩٤٢ لم يذكر فيها اسم جوكوف . وكما أوضح فيما بعد المحرر الرئيسي للنجم الأحمر ، أنه لو حصلت مآثر قائد الجبهة الغربية على تقدير عال إلى حد كبير لهبط إلى حد ما رصيد ستالين .

كان جوكوف يعتبر ملحمة موسكو الملحمة الأكثر رسوخاً في الذاكرة بين ملاحم الحرب العالمية الثانية كافة . وفيها تبدت عبقريته القيادية بأروع مظاهرها في أحلك الظروف . فكان القائد الأول من بين القادة في لينينغراد وموسكو الذي تمكن من تنظيم دفاع لم تتمكن القوات الألمانية الفاشية من اجتيازه ، فعلى يده حلت في الواقع معضلات كثيرة منها : تجديد جبهة الدفاع المنهارة بالكامل تقريباً وإعادتها إلى ما كانت عليه ، اقتران الدفاع الصامد مع الدفاع النشيط ، الصراع من أجل الاستيلاء على زمام المبادرة الاستراتيجية والانتقال دون فاصل عملياتي من الدفاع إلى الهجوم ضد قوى معادية متفوقة .

أظهر جوكوف فعالية عالية في السيطرة على القوات منسقاً بشكل ماهر العمل الضروري ضمن مقر القيادة الرئيسية ومراكز القيادة الأمامية مع الزيارات المتكررة للقطعات

والتأثير المباشر على المرؤوسين. فقد أوجد أشكالاً وطرائق لتحضير العمليات في فترات مضغوطة إلى أقصى حد. وكان في مجرى العملية كثيراً ما يتنبأ بالأعمال التي يمكن أن تصدر عن العدو ويتصرف بحيوية حيال كل تغيرات الموقف.

هذا ومما ساعد على تحقيق النصر، قرب موسكو، قيام القيادة السوفييتية، بما فيها جوكوف، بالتقدير الصحيح لنواحي القوة والضعف لدى العدو. وجاءت الأخطاء في التقدير التي ارتكبتها قيادة ألمانيا الفاشية أيضاً لتساعد القوات السوفييتية في الصمود. فقد ظهرت لديها، قبل كل شيء، روح المخاطرة في السياسة وعدم التقدير الكافي للإمكانات الاقتصادية والسياسية ــ الاجتماعية والعسكرية للدولة السوفييتية وقواتها المسلحة، تلك الإمكانات التي كانت القيادة العسكرية الفاشية تركز بشكل أساسي على المفاجأة في الهجوم وعلى الأعمال الصاعقة المفزعة في البداية الأولى للحرب مع زج كل القوى والوسائط المتوفرة تقريباً في الضربة الأولى. ولم تكن لتنشئ الاحتياطات والمخزونات الكافية من القوى والوسائط. ولم تأخذ بعين الاعتبار حتى إعداد القوات للشتاء. وكذلك استند الحساب إلى تحطيم قابلية الجيش والشعب السوفييتي للمقاومة عن طريق خوض الحرب بأساليب قاسية تتسم بالوحشية والإبادة الجماعية للسكان الآمنين.

هذا وإن الجيش الذي أثبت جدارته في الحرب ضد بولندا وفرنسا وغيرهما من الدول الأوروبية لم يكن ليكلل بالغار في عدوانه على الاتحاد السوفييتي الذي يمتلك موارد هائلة وأراض مترامية الأطراف ولا في مجابهته الشعب السوفييتي الذي صقلته التجارب على مدى القرون في النضال من أجل الاستقلال. كما كان هناك في الجيش الهتلري كثير من الأخطاء في طرائق خوض الصراع المسلح والسيطرة على القوات. وهناك خصائص كان يختص بها الجيش الهتلري مثل: البنية التنظيمية لقواته مع إنشاء عدد أقل نسبياً من الفرق، لكنها أكثر ضخامة من السوفييتية، وفن خوض العمليات المبني على الأعمال المندفعة لتطويق العدو وتدميره لكنها لا تتجاوب بشكل كاف مع تغيرات ظروف خوض الأعمال الحربية، ومنظومة السيطرة على القوات عن طريق التوجيهات والأوامر الطويلة الأجل حيث يعمد كل مستوى إلى تنفيذ فقط الواجبات المفروضة عليه عموماً، والمزايا القتالية المعنوية للقوات ونظام تأمينها المادي والتقني وغير ذلك من المسائل الكثيرة التي أحدثت انطباعاً قوياً في الحرب ضد الأعداء الضعفاء... لكن ذلك كله لم يكن ليصمد في وجه الصراع الطويل الأمد والعنيف على الجبهة السوفييتية الألمانية. وقد كشفت بعض هذه العيوب عن نفسها حتى في مستهل الحرب.

في سنوات ما بعد الحرب صدرت منشورات وطنية وأجنبية كتب فيها أكثر من مرة، عن عدم وجود أي هجوم سوفييتي؟ كما لو أن القيادة الألمانية ــ الفاشية بدأت سحب قواتها

عن طيب خاطر منها . لكن هذه المزاعم تنفيها ، قبل كل شيء ، الوثائق الألمانية . فكان الأمر الصادر عن هتلر بتاريخ (٣) كانون الثاني ١٩٤٢ يطالب : « بالتمسك بكل نقطة مأهولة وعدم التراجع ولا خطوة واحدة ، والدفاع حتى آخر طلقة ، حتى آخر قنبلة يدوية ـــ هذا ما تتطلبه منا الخطة الحالية » .

كتب قائد فرقة المشاة (٢٣) الألمانية في أمره ما يلي : « أيها السادة القادة : يتطلب الموقف العام للأعمال الحربية ، بصورة حازمة ، إيقاف التراجع السريع لقواتنا على خط نهر لاما واحتلال دفاع صامد بالفرقة . يجب حماية المواضع على نهر لاما حتى آخر رجل . فالمسألة هي قضية حياة أو موت ... » . وإذا ما تمكنت القوات بقيادة جوكوف والقادة الآخرين من اجتياح مثل هذه المقاومة من جانب العدو ودفعه مسافة (٤٠٠) كم فهذا وحده له مدلولات كثيرة .

كان على ألمانيا الفاشية منذ نهاية ١٩٤١ أن تبدأ ، في حقيقة الأمر ، طوراً مختلفاً تماماً وجديداً من أطوار الحرب لم يكن في الحسبان لدى قيادتها . والحق يقال بهذا الخصوص أن ملحمة موسكو والنصر المحقق فيها قد وضعا نقطة البدء للانعطاف الجذري في مجرى الحرب العالمية الثانية ، أو كما كتب جوكوف ، وضعت البداية للانقلاب الجذري في الحرب ، فمن تلك اللحظة التاريخية بدأت العوامل ذات المفعول الموقت تفقد أهميتها بشكل عفوي مثل التعبئة المسبقة للجيوش الألمانية ، المبادرة الاستراتيجية المكتسبة والمفاجأة في الهجوم ، الخبرة القتالية المكتسبة في الغرب ... الخ . وأصبحت تثبت وجودها بثقل أكبر العوامل الأساسية الأكثر رسوخاً مثل : الأهداف العادلة للحرب التحريرية من جانب الشعب السوفييتي ، الروح الوطنية العالية والتضحية بالنفس في سبيل الوطن ، وجود قاعدة اقتصادية ومقدرة علمية ـــ تقنية تفوقان ما لدى ألمانيا الفاشية وهما اللتان أرسيتا الأساس الطويل الأجل لمجابهة العدو القوي وأمننا ، ليس فقط القضاء على الفجوة الكائنة في نوعية الأسلحة ، بل والتفوق الجوهري في المزايا القتالية للأنواع الأساسية للأسلحة والعتاد الحربي ، مقدرة الدولة على تعبئة كل ما هنالك من موارد واستخدامها بشكل عقلاني ، مستوى فن الحرب والروح المعنوية والمهارة القتالية لدى القوات . كل هذه العوامل غدت المصدر الأساسي لانتصارها وتم تجسيدها في ميدان القتال تحت قيادة القادة الأمجاد مثل جوكوف ، ك . ك . روكوسوفسكي ، ي . س . كونيف ، ل . آ . غوفوروف ، وقادة الفرق ي . ف . مانفيلوف ، آ . ب . بيلوبوردوف ، م . ي . كاتولوف وغيرهم كثير من القادة والجنود السوفييت .

اعترف العالم أجمع بأن نصراً عظيماً قد تحقق على مشارف موسكو بأيدي القوات السوفييتية ، واعترفت القيادة الهتلرية بهزيمتها أيضاً . حقاً ، هل بإمكانها أن لا تعترف ؟ فقد

وضع الفاشيون نصب أعينهم هدفاً وهو الاستيلاء على موسكو وسحق القوى الرئيسية للجيش الأحمر وإرغامها على الاستسلام. وانتهى كل شيء بانهيار هذه الخطط. إذ صمدت موسكو واضطرت القوات الألمانية ــ الفاشية إلى التراجع عن العاصمة بعد أن دفعت ثمناً باهظاً من الخسائر. ها هو ذا هتلر يبادر إلى تنحية القائد العام للقوات البرية الجنرال فيلدمارشال براوخيتش عن منصبه ويمسك زمام قيادتها بيده ولعله فعل ذلك ليس من فرط سعادته وليس على ما يبدو من جراء «هزيمة القوات السوفييتية» وإنما نتيجة للهزيمة الكبرى التي منيت بها قواته. كما أنه نحى الضباط الآتية أسماؤهم عن مناصبهم وهم: قائد مجموعة جيوش «المركز» الجنرال ــ فيلدمارشال فون بوك، وقائد المجموعة (٢) المدرعة الجنرال غودريان وقائد المجموعة (٣) المدرعة الجنرال هيبنير وكذلك (٣٥) جنرالاً كانوا قد حصلوا منذ وقت غير بعيد على جوائز سخية وصاروا يفتخرون بذلك في كل مناسبة.

لذلك فإن كل المحاولات التي يبذلها بعض المفترين للانتقاص من الفعالية القيادية لجوكوف في موسكو لن تصمد أمام أي نقد. بل على العكس فإن الحقائق التاريخية ومنطق الأحداث تشهد بالمآثر الرائعة لجوكوف في الدفاع عن موسكو وبمزاياه القيادية العالية.

لقد قُدّرت الأهمية الرائعة للنصر على مشارف موسكو تقديراً منصفاً سواء على لسان الأعداء أو على لسان الحلفاء. ها هو ذا الجنرال الأمريكي د. ماك آرثر يقول: «تعتبر أبعاد وتألق هجومه (أي الجيش الأحمر) الكاسح القريب العهد الذي أرغم الألمان على التراجع عن موسكو، أكبر مأثرة في التاريخ كله».

٤ ــ من موسكو إلى ستالينغراد

بقي جوكوف في النصف الأول من العام ١٩٤٢ يقود قوات الجبهة الغربية وهو لا يزال في الوقت نفسه عضواً في هيئة القيادة العليا. وبعد موقعة موسكو واستمرار هجوم القوات السوفييتية انتقل كلا الجانبين إلى الدفاع وبدءا استعدادهما للحملة الصيفية.

عندما نوقشت في هيئة القيادة العليا في آذار ١٩٤٢ خطط المرحلة القادمة اقترحت الأركان العامة (ب. م. شابوشنيكوف) وجوكوف اعتبار الانتقال إلى الدفاع الاستراتيجي الطريقة الأساسية للأعمال. واعتبر جوكوف من الممكن اللجوء إلى أعمال هجومية جزئية فقط ضمن نطاق الجبهة الغربية. واقترح شابوشنيكوف، علاوة على ذلك، إجراء عملية هجومية على اتجاه خاركوف. وهنا اعترض ستالين على اقتراحات جوكوف وشابوشنيكوف

بقوله : « لا ينبغي علينا أن نقبع في الدفاع مكتوفي الأيدي منتظرين حتى يبدأ الألمان في توجيه الضربة إلينا ! علينا نحن بالذات أن نسدد عدداً من الضربات السباقة على جبهة واسعة ونتحسس جاهزية العدو . ثم أن جوكوف يقترح نشر الهجوم على الجبهة الغربية أما على الجبهات الأخرى فيفضل الانتقال إلى الدفاع . أعتقد أن هذا حل نصفي » .

بالنتيجة اتخذ قرار بإجراء عدد من العمليات الهجومية في القرم وفي منطقة خاركوف وعلى اتجاهي لڤوف وسمولينسك وفي منطقتي لينينغراد وديميانسك . والملاحظ هنا أن اللجوء إلى الدفاع ، حسب تصور ستالين معناه ، « الجلوس مكتوفي الأيدي » .

أما فيما يتعلق بخطط القيادة الألمانية فكان القادة السوفييت يعتبرون في وقت ما كذلك من وجهة نظر ستالين أن هذه القيادة وضعت أمامها هدفاً رئيسياً وهو الاستيلاء على موسكو بالالتفاف العميق من الجنوب . لكن في الواقع نرى التوجية الصادر عن هتلر تحت رقم (٤١) تاريخ ١٩٤٢/٤/٥ ينص على أن الهدف الأساسي للهجوم الألماني صيف ١٩٤٢ هو الاستيلاء على حوض الدون والنفط في القفقاس ، وعن طريق الإخلال بطرق المواصلات في عمق البلاد وحرمان الاتحاد السوفييتي من أهم موارده الآتية من تلك المناطق . والجدير بالذكر أن الأركان العامة للقوات البرية الألمانية ، وعلى وجه الخصوص غالدير ، كانت تفضل توجيه الضربة الرئيسية على اتجاه موسكو كما جرى في العام ١٩٤١ . ومن وجهة نظر استنباط الدروس من خبرة الحرب ينبغي أن نتأمل إلى أي حد كان قرار هتلر بتوجيه الضربة نحو الجنوب معللاً بالبراهين على ضوء الموقف الاستراتيجي الناشئ حينذاك ؟

أما جوكوف فهو بتحليله الأعمال الممكنة من جانب العدو لاسيما أنه يعرف جيداً الاتجاه الغربي ، كان يعتقد أن الضربة الرئيسية على الجنوب صيف عام ١٩٤٢ أعطت للقيادة الألمانية فرصاً أكبر للنجاح نسبياً من الضربة على اتجاه موسكو .

أولاً : عند توجيه الضربة إلى الجنوب ستتشكل ظروف لتحقيق المفاجأة وإمكانات أكثر ملاءمة لتحقيق النجاح ، علماً بأن هيئة القيادة العليا كانت تتوقع من جديد في ١٩٤٢ أن يوجه العدو ضربته الرئيسية على اتجاه موسكو ، وعليه فقد حشدت هنا القوى الرئيسية والاحتياطات . ولم يتم كذلك كشف الخطة الخداعية الألمانية « الكريمل » .

ثانياً : عند الهجوم على اتجاه موسكو كان على القوات الفاشية أن تخترق دفاعاً مجهزاً ومنسقاً في العمق مع وجود احتمالات لخوض أعمال حربية طويلة الأمد . فإذ لم تتمكن القوات الفاشية عام ١٩٤١ قرب موسكو من التغلب على مقاومة الجيش السوفييتي المنسحب نتيجة لتكبده خسائر كبيرة ، فمن باب أولى أن يكون من الصعب عليها الركون إلى ذلك

عام ١٩٤٢ . أما في الجنوب فنتيجة للهزيمة الكبرى التي منيت بها القوات السوفييتية في منطقة خاركوف فقد كانت تقف في مواجهة الجيش الألماني قوات منهكة القوى إلى حد كبير ، وعلى وجه التحديد كان ذلك أضعف مكان على الجبهة السوفييتية .

ثالثاً : في حال توجيه الجيش الألماني ضربته الرئيسية على اتجاه موسكو وتمكنه ، في أسوأ الاحتمالات ، من احتلال موسكو (وهذا كان قليل الاحتمال) فإن تمسك القوات السوفييتة بمناطق ذات أهمية فائقة من الناحية الاقتصادية في الجنوب من شأنه أن يهيئ الظروف لمتابعة خوض الحرب وإنهائها بشكل ناجح .

كل ذلك يدل على أن الخطط الاستراتيجية لقيادة هتلر كانت تراعي على العموم الموقف المتشكل بشكل صحيح . ولكن حتى في هذا الظرف لم تكن القوات الفاشية لتتمكن من التوغل لهذه المسافة البعيدة والوصول إلى الفولغا لولا الأخطاء الكبيرة التي ارتكبتها قيادتها في تقدير اتجاه ضربة العدو الرئيسية المحتملة وعدم التوازن وعدم الحسم في اختيار طريقة خوض الأعمال القتالية . فمن جهة أولى ، كانت النية متجهة إلى الانتقال إلى الدفاع الاستراتيجي ، ومن جهة أخرى تم الشروع في عدة عمليات هجومية غير محضرة وغير مؤمنة من الناحية المادية مما أدى إلى تشتيت القوى ، وغدا الجيش السوفييتي غير مؤهل لا للدفاع ولا للهجوم . وهذا أمر يثير العجب ، حتى أن القوات وقعت من جديد في الوضع الغامض ذاته الذي كانت عليه في العام ١٩٤١ . وبالمناسبة فقد ارتكب الجيش المصري الخطيئة ذاتها في العام ١٩٦٧ حينما وجد نفسه مضطراً إلى صد ضربة الجيش الاسرائيلي واللجوء إلى الدفاع وقواته لا تزال في التجميع الهجومي . وفي العام ١٩٤٢ ، بالرغم من هزيمة ١٩٤١ فقد استمر التقديس المؤدلج للعقيدة الهجومية بالضغط على العقول ، وانغرس الاستخفاف بالدفاع والتصورات الكاذبة عنه عميقاً في وعي القيادة السوفييتية بحيث كان يصيبهم الحرج منه باعتباره ظاهرة لا تليق بالجيش الأحمر ولم يقدموا على استخدامه بكل أبعاده . وفي العام ١٩٥٥ حين تذكر تيموشينكو الموقف الناشئ قال مخاطباً جوكوف : « حتى الآن لا يمكنني أن أفهم لماذا لم نقرر في العام ١٩٤٢ الانتقال إلى الدفاع كما فعلنا فيما بعد في كورسك عام ١٩٤٣ ؟ » وبعد تنهد عميق أجابه جوكوف : « كانت تلزمنا خلال سنتين من الحرب التجربة المرة والرجولة والحكمة الاستراتيجية بحيث يتولد لدينا النضوج لمثل هذه القرارات » .

كان جوكوف يعتبر أن سعي ستالين في صيف ١٩٤٢ إلى أن يربط بالدفاع الاستراتيجي العمليات الهجومية الخاصة في اتجاهات عديدة ، كما حصل شتاء ١٩٤٢ ، كان من شأنه أن يقود إلى تبديد القوى والوسائط . فقد خصص لإجراء هذه العمليات قوى

ووسائط غير كافية . وكان مستوى تأمينها المادي والتقني سيّئاً ولم تحقق أهدافها . وعلى أثر الهزائم التي منيت بها القوات السوفييتية في خاركوف والقرم وفورونيج استولى العدو من جديد على المبادهة الاستراتيجية وشن هجومه الكاسح على الفولغا وعلى القفقاس .

كان هناك أسباب كثيرة لاندحار القوات السوفييتية قرب خاركوف في العام ١٩٤٢ . وحتى بعد مرور سنوات كثيرة بعد الحرب لم يأخذ أحد على عاتقه مسؤولية هذه الكارثة : لا تيموشينكو ولا خروشوف ولا بغرميان ، وهم القادة المباشرون لعملية خاركوف . ولا هيئة القيادة العليا ولا الأركان العامة . في حين والحق يقال أن كلاً منهم لم يأل جهداً في مكانه للحيلولة دون وقوع هذه الهزيمة النكراء . فقد أخطأ ستالين ، كما في العام ١٩٤١ ، بتحديد اتجاه الضربة الرئيسية للعدو ، واحتفظ بالقوى الأساسية على اتجاه موسكو ، في حين سدد العدو ضربته الرئيسية في الجنوب .

إنه لم يصغ إلى مقترحات جوكوف والأركان العامة بعدم جواز تشتيت القوى على مختلف الاتجاهات . فقد أجرت قيادة الجبهة الجنوبية الغربية عمليتها مغمضة العينين وكانت سيطرتها على القوات سيئة . وعلى الجبهة الجنوبية تفرّج مالينوفسكي وأركانه على تحشد تجميع العدو عند قاعدة نتوء بارفينكوف دون أن ينفذوا المهمة المسندة إليهم في تأمين الجناح الأيسر للجبهة الجنوبية الغربية . وكلهم مجتمعون لم يكشفوا بشكل كامل فكرة أعمال العدو قرب خاركوف ، واستهانوا بالخطر الوشيك من جهة نتوء بارفينكوف . وكان جوكوف حينذاك يقود الجبهة الغربية ولم يكن له علاقة مباشرة بالجبهة الجنوبية الغربية . لكن إذا علمنا أنه كان عضواً في هيئة القيادة العليا فهو لم ير في الوقت المناسب هذا الخطر الرئيسي .

في صيف ١٩٤٢ نشأ وضع خطير على اتجاه ستالينغراد . إذ اتخذت هيئة القيادة العليا عدداً من التدابير لتعزيز هذا الاتجاه . ففي الفترة ما بين ٧/١٧ وحتى ١٩٤٢/٩/٣٠ وجهت إلى هناك (٥٠) فرقة مشاة وخيالة و (٣٣) لواء منها (٢٤) لواءً مدرعاً .

في الوقت ذاته ، وبمشاركة من جوكوف ، خططت هيئة القيادة العليا والأركان العامة إجراء عملية رجيف ــ سيتشيفسك بهدف تجميد قوى مجموعة جيوش « المركز » وحرمان القيادة الألمانية إمكانية تحويل الاحتياطات من الاتجاه الغربي إلى الاتجاه الجنوبي . وأُخذ أيضاً بعين الاعتبار إحباط الهجمات الجاري تحضيرها من قبل العدو على اتجاهي توروبيتس وسوخينيتشي .

أجريت هذه العملية في الفترة الواقعة ما بين (٣٠) تموز و (٢٣) آب ١٩٤٢ . وكانت فكرتها تقضي بسحق القوى الرئيسية للجيش (٩) الألماني والقضاء على نتوء رجيف

عن طريق توجيه الضربات بقسم من قوى الجنب اليساري لجبهة كالينين والجنب الأيمن للجبهة الغربية ضمن الاتجاه العام المؤدي إلى سيتشيفسك. ووضع الدور الأساسي في العملية على عاتق الجبهة الغربية بقيادة جوكوف.

روعي، بقرار من قائد قوات الجبهة، إشراك تشكيلات الجيشين (٥ و ٣٣) عند الوصول إلى مرحلة تطوير الهجوم.

كان أول من بدأ الهجوم بتاريخ (٣٠) تموز الجيشان (٣٠ و ٢٩) من جبهة كالينين، لكنهما لم يوفقا في خرق دفاع العدو. أما قوات الجبهة الغربية فما أن انتقلت إلى الهجوم في (٤) آب، بعد تمهيد مدفعي استمر (٥ر١) ساعة، حتى اقتحمت نهر ديرجا واجتازت دفاع العدو القوي التحصين، وحتى نهاية اليوم التالي وسعت الخرق إلى (٣٠) كم بالجبهة وتقدمت حتى (٢٥) كم في العمق. وفي (٦) آب قام قائد الجبهة بزج المجموعة المتحركة للجبهة بقوام الفيلقين (٦ و ٨) المدرعين والفيلق (٢) خيالة بهدف تطوير النجاح في اتجاه سيتشيفسك.

وضعت هيئة القيادة العليا بتاريخ ٥ آب كل القوات (بما فيها جبهة كالينين) العاملة في منطقة رجيف تحت إمرة جوكوف. ولو أن ذلك كان من المفروض عمله في وقت مسبق في أثناء تحضير العملية.

كان جوكوف، كعادته دائماً، يتتبع تحركات احتياطات العدو بنظرة ثاقبة، وما أن اكتشف أن العدو يعد العدة لتوجيه ضربة معاكسة حتى انهال بالضربات الجوية على الاحتياطات الألمانية وهي في طور تحركها، وصوّب نحوها القوى الرئيسية للمجموعة المتحركة. وبالنتيجة جرت، في (٧) آب على مشارف نهري فازوزا وغجات، موقعة تصادمية ضخمة اشترك فيها من كلا الطرفين حتى (١٥٠٠) دبابة ومدفع ذاتي الحركة. وتمكنت تشكيلات الجيش (٢٠)، بتعاونها مع القطعات المدرعة من المجموعة المتحركة، من سحق تجميع الهجوم المعاكس المعادي وإبعاده. وبدأ أيضاً الجيشان (٣٠ و ٢٩)، من جبهة كالينين، هجومهما بشكل أكثر نجاحاً مستغلان نجاح قوات الجبهة الغربية. ووصلا إلى رجيف مباشرة وحطما رأس جسر العدو على الضفة اليسارية لنهر الفولغا. ولم يتيسر لهذه القوات الاستيلاء على رجيف، لكنها نفذت بشكل أساسي المهام الملقاة على عاتقها. وفي (٢٣) آب انتقلت قوات الجبهة الغربية وكالينين إلى الدفاع.

والشيء الهام هنا يتلخص في أن قوات مجموعة جيوش «المركز» أصبحت مجمدة بشدة، ولم تتمكن القيادة الألمانية من سحب القوى من الاتجاه الغربي وتوجيهها إلى

ستالينغراد، حيث كانت تدور في هذا الوقت معارك عنيفة وحاسمة. حتى أن ثلاث فرق مدرعة وعدة فرق مشاة كانت معدة للإرسال إلى الجنوب اضطر العدو إلى زجها في القتال على اتجاهي رجيف وسيتشيفسك. كما أحبطت أيضاً عمليات هجومية خاصة كانت قد حضرت على هذين الاتجاهين.

وإليك أهم النواحي التي كان يتميز بها فن قيادة جوكوف في عملية رجيف ــ سيتشيفسك:

أولاً: خلال دفاع العدو على الاتجاه الغربي مدة ثلاثة أشهر تمكن من إنشاء دفاع منسق في العمق ومحصن بشكل قوي، وكان اختراقه محفوفاً بمصاعب كبيرة للغاية.

ثانياً: اقتضى تنفيذ هذه العملية بقوى ووسائط محددة للغاية. فهيئة القيادة العليا لم تخصص للجبهة الغربية وجبهة كالينين احتياطات كبيرة من مختلف الصنوف والمدرعات والمدفعية والطيران. لذلك اقتضى إنشاء التجميعات الضاربة على حساب إعادة تجميع القوات المدافعة. وبالرغم من هذه الظروف تمكن جوكوف في هذه العملية الهجومية الضخمة، الأولى من نوعها في الصيف، أن يتدارك كل المعوقات الأساسية للعملية العميقة: تحقيق التفوق على العدو في قطاعات الخرق وعلى اتجاهات الضربات المراد تسديدها، إجراء الهجوم المدفعي والجوي، اختراق الدفاع بتشكيلات المشاة، زج مجموعة متحركة قوية في الموقعة.

إليك ما كتبه محمود غارييف في كتابه «أصالة جوكوف وعظمته في فن القيادة»:

قيض لي وأنا في وظيفة قائد السرية (١٢٠) من لواء المشاة المستقل، الاشتراك في الأعمال القتالية الدائرة جنوب رجيف (أصبت في ٨ آب بأول جرح ناجم عن رصاصة). ورأينا لأول مرة، نحن القادة الشبان الموجودون في الحلقة الدنيا وفي أتون الأعمال القتالية، ولمسنا بأيدينا النشاط التنظيمي لجوكوف في إعداد العملية. لم نشعر حينذاك بأي ضنى أو ملل. فقد أُسندت المهام القتالية بدقة ووضوح، وطفق القادة على كل مستوياتهم يعملون عن ثقة وبشكل هادف لتنفيذها. ونظم التعاون بعناية فائقة بين المشاة والمدفعية والدبابات والمهندسين. كما أجريت أكثر من مرة تمارين ومشاريع لتنفيذ المهام المقبلة على الأرض حيث تم تجهيز نقاط استناد شبيهة بما لدى العدو.

وتدحض خبرة هذه العملية الفكرة التي ينشرها بعض المؤرخين بأن جوكوف نفذ العمليات الهجومية فقط على الاتجاهات التي حشدت عليها احتياطات ضخمة من جانب هيئة القيادة العليا وأن بلاد الاتحاد السوفييتي ركزت جهودها لتأمين هذه العمليات. كلا،

لقد ترتب على جوكوف في هذه العملية إظهار المهارة في استخدام النذر اليسير من القوى المتوفرة لديه إلى أقصى حد وتنفيذ المهام العملياتية الضخمة بواسطتها. ومن بين قادة الحرب الماضية اكتسب الجنرال ي. ي. بتروف أكبر خبرة في تحضير العمليات وخوضها بأقل قدر من القوى والوسائط المحدودة، وكان غالباً ما يعمل على الاتجاهات الثانوية نسبياً حيث كانوا يضنّون غليه بتخصيص وسائط التعزيز اللازمة. وقد درج على إيلاء عناية خاصة بالقوات وتقدير قيمة كل مدفع أو دبابة أو طلقة، وكان مضطراً إلى إعمال ذهنه، والتحايل على الدوام كيف يستخدمها بمردود أكبر.

هاهو ذا روكوسوفسكي يعرض في مذكراته، على سبيل المثال، أعمال الجيش ٦٦ بقيادة الجنرال غالانين مركزاً على فكرة جديرة بالاهتمام وهي مدى الصعوبة التي انطوت عليها تلك المهمة في المقدرة، بالقوى المحدودة، على شل قوى العدو المتفوقة مع وجود نقص حاد في القوى والوسائط لديه. وكتب ما يلي: «لم تكن تلك مهمة سهلة، ونقول بصراحة أنها لم تكن محمودة، لكن في الحرب غالباً ما يضطر المرء إلى مثل هذا النوع من الأعمال. ويبذل القادة، الذين يقع على عاتقهم هذا النصيب، مجهودات تكون غالباً أكبر مما يبذله أولئك الذين يهاجمون على الاتجاه الرئيسي، دون أن يكون لهم أي مستقبل لبلوغ ما يستحقونه من التقدير.

كم هو سيئ حينما لا تراعي القيادة مثل هذه الأوضاع. وقد يردون عليّ أن مثل هذه الأحكام تخص ميدان علم النفس. غير أن القائد العسكري مكلف أن يكون عالماً نفسانياً جيداً يفهم ما يعانيه الجندي. فالتقدير العادل لأعمال كل قائد ومرؤوسيه، مع مراعاة كل الصعوبات الواقعة على كاهلهم، من شأنه أن يبث الحماس في نفوسهم ويرسخ إيمانهم بقوتهم».

غالباً ما كان يقع الاختيار على جوكوف للعمل على الاتجاهات الحاسمة، لكن في عام ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ كان من نصيبه، غير مرة، تنفيذ عمليات هجومية في الأوضاع التي يكتب عنها روكوسوفسكي:

«ما أن تم إنجاز الهجوم على اتجاه رجيف ــ سيتشيفسك، وتحولت القوات إلى الدفاع، حتى صدر بتاريخ (٢٦) آب قرار من هيئة القيادة العليا بتعيين جنرال الجيش غ. ك. جوكوف نائباً للقائد الأعلى مع إعفائه من منصب قائد قوات الجبهة. وفي اليوم التالي، نظراً لاقتحام تجميع العدو المدرع باتجاه ستالينغراد، وتدهور الوضع في تلك المنطقة بشكل حاد، إذا بجوكوف يستدعى إلى موسكو ويتلقى أمراً بالتوجه جواً إلى ستالينغراد لتصحيح

الأوضاع الناشئة هناك . ولكي نفهم بشكل أفضل ما هي الظروف التي ترتب على النائب الجديد للقائد الأعلى أن يعمل بها في ستالينغراد سنذكر كيف تشكل الموقف الذي ترتب عليه مواجهته .

من الجدير بالذكر أنه في المرحلة الأولى لملحمة ستالينغراد (من ٧/١٧ إلى ١٩٤٢/١١/١٨) ، لاسيما في مجرى المعارك الدفاعية على المنافذ المؤدية إلى ستالينغراد ، لم تخطط القيادة ولم تسند المهام للقوات من أجل إيقاف العدو المهاجم إلا بعد انسحابها إلى الفولغا .

طالبت تلك القيادة مراراً بإيقاف العدو على عدة خطوط كائنة على المنافذ البعيدة المؤدية إلى ستالينغراد . لماذا لم يحظ كل هذا بالنجاح بالرغم من تخصيص أعداد كبيرة من الاحتياطات ومن رجولة الضباط والجنود وبطولاتهم الجماعية ، والأعمال الحاذقة لكثير من التشكيلات والقطعات ؟ بالطبع كان هناك حالات لا يستهان بها من الضياع والذعر لاسيما بعد الهزائم القاسية في أيار ــ حزيران ١٩٤٢ . ولكي ينشأ انقلاب نفسي في القوات كان لابدّ من إحداث صدمة خطيرة لها . وفي هذا المجال لعب الأمر الصادر عن مفوضية الشعب للدفاع رقم (٢٢٧) دوره ، بالرغم من وجود بعض النواحي السلبية فيه ، فقد أعطى تقديراً صارماً وصادقاً للموقف ، مفعماً بمطلب رئيسي وهو « لا خطوة إلى الوراء » . كانت تلك وثيقة صارمة جداً وجائرة إلى أقصى الحدود ، لكنها اضطرارية في الظروف الناشئة حينذاك .

لم يعبر جوكوف في أثناء الحرب عن موقفه السلبي من هذا الأمر . لكنه سماه بعد الحرب أمراً مخزياً . وكان أكثر ما أثار حفيظة جوكوف الكلمات التي تشير إلى أن السكان « ... يفقدون ثقتهم بالجيش الأحمر ، بل أن كثيراً منهم أصبحوا يلعنون الجيش الأحمر لأنه يلقي بشعبنا تحت نير الألمان ، بينما هو يرتد على أعقابه نحو الشرق . واعتبر جوكوف أن القصد من ذلك تبرئة أنفسهم وإزالة غضب الشعب تجاههم لدعم قيامهم بالإعداد اللازم وللأخطاء المرتكبة في قيادة القوات بدءاً من هيئة القيادة العليا وحتى مستوى فرقة ضمناً » .

غير أن السبب الرئيسي للإحباطات في العديد من الموقعات الدفاعية على مشارف ستالينغراد والذي أملته الضرورة الناجمة عن التدابير الموغلة في القسوة ، كان يتجلى في أن القيادة السوفييتية كررت أخطاء عام ١٩٤١ بخصوص تنظيم الدفاع الاستراتيجي .

بعد كل خرق كبير كان يقوم به الجيش الألماني نجد ، بدلاً من القيام بتقدير واع للموقف واتخاذ القرار للدفاع على خط أو آخر من الخطوط المناسبة التي بإمكان القوات

المتراجعة أن تنسحب إليها وهي تخوض القتال، وبدلاً من أن تدفع إليها في وقت مسبق التشكيلات من العمق، نجد الأوامر تُعطى من أجل التمسك بالخطوط المحتلة مهما كان الثمن (حتى حين كان ذلك مستحيلاً) وكانت التشكيلات الاحتياطية والإمدادات القادمة تزج في المعركة من الحركة، كقاعدة، لشن هجمات وضربات معاكسة سيئة التحضير. لذلك كانت تتاح أمام العدو إمكانية ضربها على أقسام، في حين كانت القوات تحرم من إمكانية التشبث بخط ملائم وتنظيم الدفاع كما يجب على الخطوط الجديدة.

كانت ردة الفعل المتسمة بالعصبية الشديدة بعد كل انسحاب تُضخم الموقف بشكل أكبر وبالتالي تعرِّض لانسحابات جديدة.

في عمليات ١٩٤١ ـ ١٩٤٢، حين كانت القوات الألمانية تمتلك خبرة قتالية أكبر، استطاعت خوض الأعمال الهجومية بمهارة مع اللجوء إلى المناورة الواسعة الاستخدام الكثيف للتشكيلات المدرعة والآلية على الأراضي المكشوفة الصالحة لمرور الدبابات. وحينما تصطَدم بمقاومة على قطاع أو آخر كانت تسارع إلى تغيير اتجاهات ضرباتها، محاولة الوصول إلى جنب ومؤخرة القوات السوفييتية.

بعد وصول جوكوف إلى ستالينغراد في (٢٩) آب اصطدم هو أيضاً على الفور بهذه الظاهرة. وكانت مهمته الأكثر عجالة تتلخص في القيام، اعتباراً من صباح (٢) أيلول بتسديد ضربة معاكسة إلى العدو بقوى الجيش الأول حرس بقيادة موسكالينكو والإفادة من نتيجتها لتقريب القوى الرئيسية للجيشين (٢٤ و ٢٦) المستقدمين إلى هناك وتطوير الضربة المعاكسة والانتقال إلى الهجوم بقوى أضخم، بعد منع التهديد بالاستيلاء على ستالينغراد. بيد أن القوات، بما فيها الجيش الأول الحرس، لم تكن مستعدة لمثل هذه الأعمال. فكان يجب القيام من جديد بتجميعها وإعدادها للضربة المعاكسة. لكن ستالين كان على عجلة من أمره ولم يقبل الانتظار.

إن إسناد مهام غير واقعية وتعيين مواعيد لبدء الأعمال القتالية والعمليات دون الأخذ بعين الاعتبار المدة الدُنيا اللازمة للإعداد لتنفيذها، كل ذلك أفصح عن نفسه لدى إجراء الكثير من الهجمات والضربات المعاكسة في مجرى العمليات الدفاعية.

وفي ١٩٤٢/٩/٣ بالنظر للوضع الخطير ضمن نطاق جبهة ستالينغراد، إذا بستالين يوجه البرقية التالية إلى ممثل هيئة القيادة العليا: «أطلب من قادة القوات المتمركزين إلى الشمال والشمال الغربي من ستالينغراد أن يضربوا العدو فوراً ويهبوا لمساعدة أهالي ستالينغراد. لا يسمح بأي تباطؤ». كانت أمثال هذه البرقيات والطلبات كثيرة. وبالطبع كان الموقف

صعباً . لكن أي شخص لديه إطلاع ولو قليل على الشؤون العسكرية لا يصعب عليه إدراك أنها غير معقولة : إذ كيف يمكن للقوات دون أدنى تحضير وتنظيم أن تستولي « وتضرب » وتنتقل إلى الهجوم ليلاً على دفاع منظم للعدو .

وجّه اللوم إلى جوكوف بعد الحرب في أنه قذف بالقوات إلى المعركة دون أي تحضير . لكنه كان حتى في ستالينغراد يقاوم ذلك ، وفي كل مرة يحاول بإصرار أن يبرهن لستالين عدم جواز إجراء مثل هذه الأعمال غير المحضرة .

وفي هذه المرة أيضاً تراه يبلغ ستالين بالحجة المقنعة بأن الضربة المعاكسة لا يمكن تسديدها قبل (٥) أيلول . لكن ستالين وبخ جوكوف قائلاً : « أن العدو لن ينتظرك « حتى تتأرجح » وقد يحتل ستالينغراد في أية لحظة » .

بيد أن جوكوف لم يكن يقصد مجرد كسب الوقت بأي ثمن لإعداد القوات . لقد أقدم على مجازفة لها ما يبررها . فقد عمد ، بما عرف عنه من المقدرة على التحليل العميق لتطور الأحداث الممكن آخذاً بالحسبان الوضع الحقيقي لقوات العدو واحتياطاته ، إلى إقناع ستالين على أساس الحسابات الدقيقة بأن القوات الألمانية ـــ الفاشية لن تكون قادرة في (٣) أو (٤) أيلول على استئناف هجومها الكبير على ستالينغراد ، إذ ليس في يدها قوى ووسائط مستعدة لذلك . بعد ذلك فقط وافق ستالين بصعوبة كبيرة على تأجيل موعد تسديد الضربة المعاكسة . مع ذلك كان الانتقال إلى الهجوم في (٥) أيلول يقتضي أن يزج جوكوف القوى الرئيسية للجيشين (٢٤ و ٦٦) في الموقعة من الحركة ، دون القيام بالإعداد اللازم ، بعد مسيرة (٥٠) كم . بالطبع عندما انتقلت القوات إلى الهجوم لم تتقدم سوى عدة كيلو مترات ، لكنها أرغمت قيادة الجيش (٦) الألماني على سحب احتياطاته من أمام ستالينغراد ودفعها لتغطية جنبها المهدد .

في مجرى المواقع الدفاعية على مشارف ستالينغراد ، كان الدفاع الجوي ضعيفاً إلى أبعد حد ، لذلك كان لا بدّ من العمل في ظروف من التفوق الكبير لطيران العدو ، الأمر الذي جعل من الصعوبة بمكان إجراء المناورة بالقوات . كما بقي تنظيم الدفاع المضاد للدبابات غير مكتمل ، آخذاً في كثير من الأحيان طابعاً بؤرياً ومشتتاً . فإذا كانت القوات في بداية الحرب تعاني من افتقار الكوادر إلى الخبرة فإنه بعد وقوع خسائر كبيرة في ١٩٤١ وربيع ١٩٤٢ أصبحت مشكلة الكوادر أكثر حدة بالرغم من وجود عدد لا يستهان به من القادة الذين تمكنوا من تصليب عودهم واكتساب الخبرة القتالية .

كان قد ارتكب عدد لا يستهان به من الأخطاء والتقصير وحتى حالات عدم الشعور بالمسؤولية بشكل إجرامي من جهة قادة الجبهات والجيوش وقادة التشكيلات والقطعات . كل ذلك بمجموعه أدى إلى تعقيد الموقف بشكل خطير لكنه لم يصل إلى تلك الأهمية الحاسمة التي بلغتها الأخطاء المرتكبة من قبل هيئة القيادة العليا . هذا دون الحديث عن أن كثرة تبديل القادة من مختلف المستويات (فقط في تموز ـــ آب ١٩٤٢ تعاقب على جبهة ستالينغراد ثلاثة من القادة) لم يسمح لهم بتفهم الموقف بشكل جيد .

ومما كان يؤثر على صمود القوات تأثيراً سلبياً ، الخوف من وقوعها في التطويق . ولعب الدور القاتل في هذا المجال سوء الظن من الناحية السياسية وأعمال القمع ضد العسكريين الذين وقعوا في التطويق خلال هزائم عام ١٩٤١ وربيع ١٩٤٢ . وكان جوكوف يعارض مثل هذه الأساليب لكنهم لم يحاسبوه على ذلك . وحتى بعد الحرب لم يكن الضباط الذين وقعوا في التطويق ليُقبلوا من أجل إكمال تحصيلهم في الأكاديميات . فقد كان يبدو للهيئات السياسية ـــ العسكرية وكبار رؤساء وزارة الداخلية أن مثل هذا الموقف المتخذ ضد « المطوقين » يمكن أن يرفع من صمود القوات . لكن كل شيء جرى على عكس ذلك : إذ أن الخوف من التطويق أدى فقط إلى تخفيض مستوى صمود القوات في الدفاع . وهنا لم يخطر على البال أنه لم يقع في التطويق كقاعدة ، إلا القطعات المدافعة بصمود أكثر وغالباً ما يحدث ذلك نتيجة لتراجع الجوار . وهذه الفئة من العسكريين الأكثر تضحية بالنفس هي التي تعرضت بالذات إلى العسف والاضطهاد .

كان جوكوف يتواجد على الدوام ضمن القطعات ويتابع اتخاذ التدابير الفعالة لتنظيم صد هجمات العدو ، التي ازدادت ضراوة يوماً بعد يوم ، بهدف الاستيلاء على ستالينغراد ، وبالدرجة الأولى متابعة الضغط على الجنب الأيسر لتجميع قوات ستالينغراد من ناحية مجموعة القوات الشمالية . لكنه مع تعمقه في دراسة الدفاع وأعمال العدو وحالة القوات والأرض المكشوفة الشديدة الخطورة أصبح ميالاً أكثر فأكثر إلى الفكرة التالية : وهي أن السير قدماً في تسديد الضربات الضعيفة غير المحضرة بما فيه الكفاية لن يؤدي إلا إلى تبديد القوى والوسائط ولن يسمح بالتنفيذ الجذري لمهمة سحق تجميع العدو على مشارف ستالينغراد . وحين توصل إلى الاستنتاج حول ضرورة تسديد ضربات أكثر قوة بعد حشد الاحتياطات وإعدادها الإعداد اللازم قام بمشاطرة قائد الجبهة وقادة الجيوش آرائهم وازداد قناعة في صحة استنتاجاته . وبعد إمعان النظر بإحكام ، رفع تصوراته إلى ستالين . وأشار القائد الأعلى إلى ضرورة بحث هذه المقترحات في هيئة القيادة العليا ، وفي (١٢) أيلول وصل جوكوف وفاسيليفسكي إلى موسكو وعرضا في مساء اليوم ذاته على ستالين المبادئ الأولية لفكرة

سحق العدو على مشارف ستالينغراد. في بادئ الأمر كان موقف ستالين يتسم بالحذر وأوصى بأن لا تتسرب هذه الفكرة إلى أحد وأمر بمتابعة دراستها.

بعد انقضاء الحرب ظهرت وجهات نظر مختلفة حول صاحب الفكرة الأولية لشن هجوم معاكس مع تطويق وتدمير قوى العدو الأساسية، فادعى بذلك خروشوف ويريمينكو وكثير غيرهما. وإذا تكلمنا بشكل موضوعي فإن هذه الفكرة بشكل عام، كما يذكر كثير من المشتركين في الحرب، كانت بالحرف الواحد «معلقة في الهواء»، ذلك أن معالم الجبهة ذاتها كانت توحي بضرورة تسديد الضربات إلى أجناب تجميع العدو أمام ستالينغراد.

لكن المهمة الرئيسية والأكثر تعقيداً كانت تنحصر فيمايلي: كيف يمكن لهذه الفكرة أن تُحدد وتتحقق من مراعاة الموقف المتشكل، وكيف يمكن تجميع وتحشيد القوى والوسائط اللازمة لهذه الغاية في الوقت المناسب وتنظيم أعمالها، وإلى أين توجه بالتحديد الضربات وبأية مهام. فقد كان هناك أفكار أخرى أكثر حذراً. وعلى وجه الخصوص نرى ستالين، لدى استعراضه المسبق لخطة الهجوم المعاكس، يطرح الفكرة التالية: وهي أنه قد يكون من الأفضل الاكتفاء بضربة من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال على امتداد نهر الدون مما يضيّق إلى حدٍ كبير حلقة التطويق. لكن ظهرت أيضاً اقتراحات أكثر من جريئة تقضي بتسديد ضربات إلى الجنوب، مباشرة إلى روستوف، لتطويق القوات الألمانية جميعها في شمال القفقاس وعلى اتجاه ستالينغراد. ويبدو أن طرح مثل هذه المهمة كان لا يتسم بالواقعية. فمثل هذا التطويق كان في جوهره نسبياً عاماً، إذ أن تجميعات العدو بانتشارها على رقعة واسعة ستحتفظ بحرية المناورة لتسديد الضربات والإفلات من التطويق في حين قد تبدو القوات الصديقة ووسائطها غير كافية لإنشاء حلقة تطويق متماسكة.

لذلك كان هناك أساس للخروج باستنتاج: وهو أنه في ذلك الموقف المحدد تكون فكرة هيئة القيادة العليا التي تقضي بتسديد ضربات من الشمال والجنوب على اتجاهات متلاقية في كالاتش مع تخصيص قوات في الوقت ذاته لإنشاء جبهتي تطويق داخلية وخارجية، كما يبدو هي الأمثل. ويمكن اعتبار أن الفكرة الأساسية لهذه الخطة بلا شك هي من وضع هيئة القيادة العليا وفي مقدمتها جوكوف وفاسيليفسكي والأركان العامة. إذ قام جوكوف وفاسيليفسكي في أيلول برفع مقترحاتهما بخصوص عملية ستالينغراد مرتين. وكما كتب فاسيليفسكي «لم يستحسن القائد الأعلى ولا مرة مقترحاتنا، معتبراً أن البلاد في تلك المرحلة ليس بمقدورها إجراء مثل هذه العملية الخطيرة، وفي حال إجرائها قد نعرض القوات والاتحاد السوفييتي لمخاطرة كبيرة. والمطلوب منا هو الصمود، ويجب القول أن طبيعة غ. ك.

جوكوف لعبت حتى هنا الدور الأساسي». والأمر مختلف، فإن فكرة جوكوف وفاسيليفسكي لم تتولد من الفراغ، فقد اغتنت بالمقترحات والمقابلات والمناقشات مع جنرالات وضباط الجبهات. لكنها تاريخياً في نهاية الأمر تعود لمن اتخذها وتلقي على عاتقه بالمسؤولية عن تنفيذها. وحسب مذكرات روكوسوفسكي «فقد لفت جوكوف نظري منذ تشرين الأول ١٩٤٢ إلى الهجوم المعاكس المقبل».

لو أردنا الحديث عن مقترحات جبهة ستالينغراد المرفوعة إلى هيئة القيادة العليا، نرى أنها كانت تنص على هجوم معاكس محدود للغاية، مثلاً أدخل في قوام التجميع الضارب ما لا يزيد على أربع فرق مشاة وفيلق خيالة واحد ولواءان مدرعان و (٢ — ٣) ألوية مشاة محمولة. ولم تتطرق هذه المقترحات إلى الجبهة الجنوبية الغربية، ذلك أن قيادة جبهة ستالينغراد لم يكن لديها علم بتشكيلها ولا بالعدد الكبير من القوى والوسائط الأخرى المستدعاة من احتياط هيئة القيادة العليا. لذلك كان الهجوم المعاكس المنفذ أمام ستالينغراد بموجب فكرة هيئة القيادة العليا مختلفاً تماماً سواء من حيث أهدافه وأبعاده والقوى المشتركة فيه، عما اقترحه المجلس العسكري لجبهة ستالينغراد.

وهذا يخص أيضاً مختلف احتمالات خطة الهجوم المعاكس، تلك الاحتمالات التي تم إنجازها في إدارة العمليات التابعة للأركان العامة في وقت مبكر منذ تموز — آب ١٩٤٢ حينما لم تكن متوفرة لا الظروف ولا القوى ولا الوسائط الضرورية لذلك. وإذا كان الحديث يدور حول قرارات قادة الجبهات للهجوم المعاكس فقد رفعتها كل الجبهات (وليس فقط جبهة ستالينغراد) إلى هيئة القيادة العليا في فترة ٦ — ١٩٤٢/١٠/٧. وهذه القرارات أعدت من قبلها على أساس الفكرة الاستراتيجية العامة والمهام المسندة إلى الجبهات من قبل هيئة القيادة العليا. وبتعليمات من ستالين أبقى جوكوف وفاسيليفسكي خطة هيئة الأركان العليا في أقصى درجات السرية مموهين أياها بخطط أصغر للجبهتين.

بعد تصديق القائد العام الأعلى على فكرة العملية انطلق جوكوف وفاسيليفسكي ومارشال المدفعية ن. فورونوف إلى الجبهات لكي يعالجوا بالتفصيل طرق عمل القوات وينظموا الأعمال القتالية في المكان مع اشتراك قادة الجبهات والقادة الآخرين. عمل جوكوف في الجبهة الجنوبية الغربية وجبهة الدون وبذل في هذا العمل كل ما لديه من طاقة وإبداع.

وعلى العموم يجدر بنا القول أن مستوى فن الحرب لدى الكوادر القيادية والأركانات ومستوى الكفاءة القتالية لدى الأفراد حين جرى إعداد وتنفيذ العمليات الهجومية في المرحلة الثانية من ملحمة ستالينغراد، كان أعلى بكثير مما كان في العمليات الهجومية السابقة جميعاً.

ففي تلك العمليات ظهر لأول مرة الكثير من أساليب تحضير وتنفيذ الأعمال القتالية (ليس دائماً بشكل مكتمل) ثم وصلت في عمليات ١٩٤٣ ــ ١٩٤٥ إلى مستوى عال من الكمال. غير أن كثيراً منها كان ملحوظاً في ستالينغراد.

يجدر بنا أن هنا التنويه قبل كل شيء بالنجاح الذي أحرزته هيئة القيادة العليا مع المشاركة المباشرة لجوكوف في الاختيار الناجح للحظة الانتقال إلى الهجوم المعاكس حين كان هجوم العدو قد استنفد قواه وغدت تجميعات قواته مشتتة وأجنابه قد دب بها الوهن ولم يتحقق بعد الانتقال إلى الدفاع. فقد حددت اتجاهات الضربات الرئيسية بنجاح بالغ مع مراعاة الأماكن الأكثر ضعفاً (التي كانت تدافع عنها القوات الرومانية) وذلك بهدف تطويق وتدمير أقوى تجميع أمام ستالينغراد.

أظهر القائد الأعلى وممثلي هيئة القيادة العليا جوكوف وفاسيليفسكي والأركان العامة على الرغم من الظروف الصعبة المليئة باليأس والتدهور الكبير، رباطة جأش وتمكنوا في مجرى الموقعات الدفاعية من تحضير الاحتياطات الضخمة اللازمة لشن الهجوم المعاكس وحشدها والحفاظ عليها.

كان أحد أسباب الفشل أو النجاح المحدود في العمليات الهجومية المنفذة في العام ١٩٤١ وبداية ١٩٤٢ يفسر في الاخفاق في تحقيق الاستخدام المكثف للقوى والوسائط على الاتجاهات المختارة للهجوم. وقد أمكن تحقيق مثل هذا التكثيف بشكل أساسي على مشارف ستالينغراد، ولو أنه ليس على المستوى الذي بلغه في عمليات ١٩٤٤ ــ ١٩٤٥. وهكذا ففي الجبهة الجنوبية الغربية، التي كانت تحت إشراف ممثل هيئة القيادة العليا جوكوف، حشد على قطاع الخرق البالغ ٢٢ كم (٩٪ من إجمالي عرض نطاق الهجوم) ٩ فرق مشاة من أصل (١٨) فرقة، وعلاوة على ذلك ركز على هذا القطاع (٨٠٪) من مجمل الدبابات وحتى (٨٥٪) من المدفعية. ومع ذلك لم تبلغ كثافة المدفعية أكثر من ٥٦ مدفع وهاون على (١) كم من قطاع الخرق في حين بلغت في العمليات اللاحقة حتى (٢٠٠ ــ ٢٥٠) مدفع وهاون. أولى جوكوف عناية خاصة لتأمين السرية والإخفاء، وتم بشكل رئيسي تحقيق سرية التحضيرات والمفاجأة في الانتقال إلى الهجوم. ومن الجدير بالذكر أن هتلر بتاريخ (١٤) تشرين الثاني (أي قبل بدء الهجوم المعاكس بخمسة أيام) لم تكن قد وصلته بعد المعطيات عن تحشد تجميع للقوات السوفييتية في منطقة ستالينغراد وكان عازماً على الذهاب بإجازة إلى جنوب ألمانيا.

حاولت هيئة القيادة العليا، ولاسيما ستالين، هنا كعادتها في السابق استعجال القوات في بدء الهجوم (كان محدداً في بادئ الأمر يوم ٦ ــ ٧ تشرين الثاني). لكن هنا،

خلافاً لما كان يحدث في ١٩٤١ وربيع ١٩٤٢ ، فإن جوكوف وفاسيليفسكي ومعهما قادة قوات الجبهات فاتوتين وروكوسوفسكي ويريمينكو وكثير من القادة أظهروا إلى جانب النضوج القيادي ، الصلابة اللازمة والرجولة الشخصية بإصرارهم على منح القوات الوقت اللازم لتحضير الهجوم . وعليه فقد حدد بدء الهجوم المعاكس في (١٩) تشرين الثاني من عام ١٩٤٢ .

لأول مرة خلال فترة الحرب أجري في قوات جبهة الدون والجبهة الجنوبية الغربية ، تحت قيادة جوكوف ، ليس فقط التخطيط المتقن للعمليات بل بذل أيضاً عمل دؤوب بالحجم الضروري على الأرض مع القادة من مختلف المستويات في تحضير الأعمال القتالية وتنظيم التعاون والتأمين القتالي والإداري والتقني . فقد أفاد جوكوف من خبرة تحضير العملية الهجومية في الجبهة الغربية إفادة كاملة ونقلها إلى الآخرين . ولما كانت أكبر خبرة قتالية موجودة لدى الكوادر العاملة في القيادة العليا والأركان على مستوى الجبهة والجيش وإلى حد ما على مستوى الفرقة ، فقد اقتضى منهم في الكثير من الحالات تقديم المساعدة للمستويات الدنيا وفي العديد من الحالات القيام بحل المسائل الداخلة في اختصاص هذه المستويات . وتمكن الاستطلاع من كشف منظومة النيران المعادية ، ولو بشكل غير كامل ، مما سمح بإنزال إصابات نارية بالعدو بدقة أكبر مما كان في العمليات الهجومية السابقة .

لما كان مستوى التأمين بالذخائر أعلى بكثير مما في عملية رجيف ــ سيتشيفسك المنفذة في آب ١٩٤٢ ، فقد استخدم لأول مرة بالحجم الكامل الهجوم المدفعي والجوي . وبسبب كثافة الضباب في بداية الهجوم كانت أعمال الطيران محدودة . وإلى جانب ذلك فإن الظروف الجوية غير الملائمة سمحت بتحقيق إخفاء أكبر لتحشد القوات واحتلالها قاعدة الانطلاق للهجوم .

لأول مرة قبل بدء الهجوم أُجري على جبهة واسعة ضمن نطاقات كل الجيوش استطلاع قتالي من قبل الوحدات الأمامية بهدف تدقيق الحد الأمامي للعدو ومنظومة نيرانه .

استخدمت في ستالينغراد أيضاً ، لأول مرة لدى إجراء عملية هجومية ضخمة ، تراتيب قتال المشاة بما يتفق ومتطلبات الأمر الصادر عن اللجنة الشعبية للدفاع رقم (٣٠٦) أي على نسق واحد ، ليس فقط على مستوى الوحدات والقطعات بل والتشكيلات أيضاً . وقد أدت مثل هذه البنية إلى تخفيف الخسائر في القوات وسمحت بالاستخدام الأكمل للوسائط النارية التي بحوزة المشاة . لكن إلى جانب ذلك فإن فقدان الأنساق الثانية جعل من العسير تصعيد الجهود من أجل تطوير الهجوم إلى العمق .

هذا هو السبب في عدم تمكن فرق مشاة النسق الأول من خرق الدفاع واقتضى الحال زج الفيالق المدرعة في الموقعة حتى على عمق (٣ ــ ٤) كم، وكان ذلك عملاً اضطرارياً في الموقف الناشئ حينذاك. وقد توصل جوكوف بعد ذلك، أي عند تنظيم العملية الهجومية للجبهة الغربية، إلى الاستنتاج التالي: وهو ضرورة إنشاء أنساق ثانية بالتأكيد في الأفواج والفرق حين تتوفر الإمكانية لذلك. وقد أصبح هذا فيما بعد قانوناً.

كان جوكوف يطالب بتقريب مراكز السيطرة، إلى أقصى حد ممكن، من القطعات الأمامية. وأصبحت مقرات قيادة الجبهات تتوضع على بُعد (١٠ ــ ٢٥) كم، والجيوش على بُعد (٨ ــ ١٠) كم. علماً بأن قادة هذه المراكز كانوا موجودين في مقرات الرصد الكائنة على بُعد (٢ ــ ٣) كم عن الحد الأمامي.

نمت حجوم التأمين المادي والتقني للقوات نمواً كبيراً. فقد حشد على الجبهات الثلاث حتى بدء الهجوم المعاكس (٨) ملايين قذيفة مدفعية وهاون، مع أن الجيش الروسي بأكمله كان يملك في العام ١٩١٤ سبع ملايين قذيفة. لكن لو قارنا الموجود مع متطلبات التدمير الناري نجد أن العمليات الهجومية المنفذة في تشرين الثاني ١٩٤٢ لم تزود بما يكفي من الذخائر (كان لديها وسطياً ١ر٧ ــ ٣ر٤ وحدة نارية): الجبهة الجنوبية الغربية ٣ر٤ و/نا، جبهة الدون ٣ر٤ و/نا، جبهة ستالينغراد ٢ و/نا في حين وصل مستوى اكتفاء الجبهات بالذخائر في عملية روسيا البيضاء أو فيسلو ــ اودير إلى ٤ر٥ و/نا.

في أواخر تشرين الأول وبداية تشرين الثاني عقد جوكوف اجتماعات وأجرى ألعاباً عسكرية على الخرائط والنماذج المصغرة من الأرض مع الهيئات القيادية للجبهات والجيوش وبعض التشكيلات لإجراء معالجة مفصلة للتعاون وطرائق تنفيذ المهام المسندة، متوخياً أن يتفهموا تفهماً عميقاً مهامهم ومختلف احتمالات العمل في حال تبدل الموقف في مجرى العملية.

في (١٣) تشرين الثاني عاد جوكوف وفاسيليفسكي إلى موسكو ورفعا تقريراً إلى القائد الأعلى عن العمل المنفذ وعن جاهزية العمليات. ومن جديد نرى ستالين، بعد تصديق خطة الأعمال المقترحة، يكلف فاسيليفسكي بتنسيق أعمال الجبهات في عملية ستالينغراد، بينما أسند لجوكوف مهمة القيام من جديد بتحضير وتنفيذ عملية هجومية على الاتجاه الغربي بهدف شل حركة قوات مجموعة جيوش المركز وحرمان القيادة الألمانية من إمكانية دفع قواها نحو اتجاه ستالينغراد. وبالمناسبة كان جوكوف هو الذي أشار إلى القائد الأعلى بمثل هذا التوزيع للواجبات. وبعد الحرب أطلق بعض القادة العسكريين والمؤرخين

العنان لخيالهم بأن جوكوف ذاته لم يكن على ثقة تامة بنجاح عملية ستالينغراد ولهذا سعى للتوجه إلى الجبهة الغربية . لا شك في أنه انطلق من مصلحة العمل . فهو كان يعرف بشكل أفضل ظروف الاتجاه الغربي والقوات العاملة فيه ، واكتسب خبرة في إجراء عدة عمليات هجومية ضخمة على هذا الاتجاه ، لذلك كان جوكوف هنا أكثر نفعاً .

كان لوصول جوكوف إلى اتجاه موسكو وللهجوم البادئ أن دب الرعب في قيادة العدو . وتوقعوا هنا هجوماً على مقياس أضخم . كان هتلر يحتفظ على هذا الاتجاه قبل (٢٤) تشرين الثاني (في منطقة فيتيبسك) بالجنرال مانشتاين ، وما أن فهم بشكل قطعي أين تجري الأحداث الرئيسية حتى أوفد مانشتاين إلى ستالينغراد .

أما بخصوص عملية ستالينغراد فالتحضير كان قد اكتمل بشكل أساسي . لكن فيما بعد ، حينما كان جوكوف مهتماً بأعمال قوات الاتجاه الغربي كان يتتبع باستمرار الموقف على سائر الجبهة السوفييتية الألمانية وبعناية خاصة ما يجري أمام ستالينغراد . فمنذ بداية عملية ستالينغراد اشترك في أعمال هيئة القيادة العليا وخاصة بدراسة واتخاذ القرارات حول أهم مسائل قيادة القوات خلال مراحل تطور العملية .

وفي المرحلة الثانية من ملحمة ستالينغراد المتعلقة بأعمال القوات في تدمير تجميع العدو المطوق وتطوير الهجوم على الجبهة الخارجية ، اشترك جوكوف اشتراكاً أكثر فعالية في بحث وإقرار مسألتين استراتيجيتين كبيرتين :

المسألة الأولى ـــ كيف يمكن أن يُحقق بشكل أفضل تطويق العدو وتدميره بآن واحد وتطوير الهجوم في العمق . فهو منذ التخطيط والتحضير وعلى وجه الخصوص في الدروس الخاصة بتنظيم التعاون كان يوجه الانتباه إلى ضرورة القيام في أثناء التطويق أيضاً ، بتمزيق وتدمير تجميعات العدو بأقصر وقت ممكن . لكن لم يحصل كل شيء بهذا الشكل لأسباب مختلفة . وحينما غدت ضرورة تنفيذ عملية مستقلة « الحلقة » في تدمير العدو المطوق أمراً واقعاً في كانون الثاني ١٩٤٣ كان جوكوف يؤيد حل هذه المسألة عن طريق تقطيع أوصال القوات المطوقة وتدميرها على التوالي . وبناء على ذلك يقتضي الأمر تخطيط وتنفيذ العملية على عدة مراحل .

في (٢٨) تشرين الثاني ، حين كان جوكوف موجوداً في أركان جبهة كالينين وكان قد حضر الهجوم هنا ، إذا بستالين يخاطبه بالهاتف ويسأله رأيه في أفضل طريقة لتدمير القوات الألمانية المطوقة قرب ستالينغراد .

بتاريخ (٢٩) تشرين الثاني ، كتب جوكوف في تقريره إلى ستالين أن أهم شيء في هذه المرحلة هو عدم السماح لتجميع باولوس بالخروج من التطويق . وقد أفضت تأملات جوكوف في هذا الموضوع إلى مايلي :

ـــ لن تجازف القوات الألمانية المطوقة ، في الموقف الناشئ ، بالاختراق والخروج من التطويق دون ضربة مساعدة يقوم بها العدو من منطقة نيجنه تشيرسكايا ـــ كوتيلنيكوفو .

ـــ ستسعى القيادة الألمانية على ما يبدو ... إلى أن تجمع بأقصر وقت ، في منطقة نيجنه تشير سكايا ـــ كوتيلنيكوفو ، مجموعة ضاربة لخرق جبهة القوات السوفييتية ...

ـــ بغية عدم السماح باتصال تجميعي العدو في نيجنه تشيرسكايا وكوتيلنيكوفو مع تجميع ستالينغراد وتشكيل ممر لها ، من الضروري : بأسرع ما يمكن طرد تجميعي نيجنه تشيرسكايا وكوتيلنيكوفو وإنشاء ترتيب قتال متراص على خط أوربليفسكا ـــ تورموسين ـــ كوتيلنيكوفو . والاحتفاظ في منطقة نيجنه تشيرسكايا وكوتيلنيكوفو بمجموعتين مدرعتين تضم كل منهما ما لا يقل عن (١٠٠) دبابة كاحتياط . وبعد صد الضربة المؤكدة من الخارج ، كما أكد جوكوف ، يمكن المباشرة بسحق القوات المطوّقة ، وأعطى توصيات محددة عن كيفية تنفيذ ذلك .

كانت معالم « المرجل » في نهاية تشرين الثاني وهو على شكل اهليلج (قطع ناقص) ممتد من الغرب إلى الشرق مسافة (٧٠ ـــ ٨٠) كم ومفلطح من الشمال إلى الجنوب حتى (٣٥ ـــ ٤٠) كم هي التي أملت طريقة العمل وهي : شق تجميعات العدو على أقصر مسافة في الوسط تقريباً بضربات متلاقية من الشمال والجنوب ثم الإجهاز عليها على أقسام ، بدءاً من أضعف تجميع وهو الغربي . واقتضى تنفيذ ذلك على النحو التالي : توجيه ضربة قاصمة في اتجاه بول ـــ روسوشكا . وفي مواجهتها توجيه ضربة في اتجاه دوبينينسكي ـــ المرتفع (١٣٥) . والانتقال إلى الدفاع على باقي القطاعات جميعاً والعمل فقط بمفارز مستقلة بقصد إنهاك العدو واستنفاد قواه .

حدث توافق تاريخي طريف . ففي تلك الأيام بالذات ، بينما كان جوكوف يعطي تقديره للموقف قرب ستالينغراد ، توصل الجنرال مانشتاين ، المعين في (٢٧) تشرين الثاني قائداً لمجموعة قوات « الدون » المشكلة على جناح السرعة ، إلى النتيجة التالية : « لم يكن للجيش (٦) في المرحلة الأولى أن يركن إلى مساعدة تأتيه من القوات الألمانية ، حتى ولو قيض له أن يخرق جبهة التطويق التي فرضها العدو في الاتجاه الجنوبي الغربي ... كان من الواضح أن الجيش ، غير المدعوم من جانب القوات الألمانية الأخرى سيتم إيقافه عاجلاً أم

آجلاً من قبل العدو في السهوب، وهو لا يملك الكمية الكافية من الذخيرة والوقود والمواد التموينية، ربما كان التدمير محتّماً على الجيش (٦)! ويبدو أنه أضاع الفرصة حين كان بإمكانه أن يستحوذ لنفسه على الحرية دون مساعدة من الخارج».

حسب خطة مانشتاين، كان على قوات مجموعة «الدون» أن تعمل كما تنبأ جوكوف بالضبط أي: «أن تبدأ الهجوم بالقوى الرئيسية من منطقة كوتيلنيكوف» ولماذا هنا؟ يخرج مانشتاين بالاستنتاج التالي: «قد لا يكون بالإمكان اجتياز الدون. يمكن الافتراض أيضاً أن توقع العدو لمثل هذا الهجوم على الضفة الشرقية للدون سيكون في أدنى حد. وبموجب الموقف الناشئ في الجبهة فإن حشد قوى ضخمة في هذه المنطقة مرتبط بالنسبة للألمان بمخاطرة كبيرة. لذلك لم يدفع العدو في البداية سوى قوى ضعيفة نسبياً على اتجاه كوتيلنيكوف».

ويتابع مانشتاين تخطيطه قائلاً: «أما إذا كانت أعداد قوات العدو أمام كوتيلنيكوف ستزداد إلى حد كبير حينئذ كان يراعى في الأمر حل احتياطي بدفع فرق مدرعة على جناح السرعة وبشكل سري على الضفة الغربية للدون شمالاً إلى رأس جسر الدون ــ تشيرسكايا قرب نيجنه ــ تشيرسكايا وتسدد الضربة الرئيسية من هنا».

وفي الواقع عَمِلَ تجميع مانشتاين هناك كما كان ينتظر جوكوف وبالتحديد قرب كوتيلينيكوفو ونيجنه ــ تشيرسكايا.

وافق فاسيليفسكي على مقترحات جوكوف لكنها فيما بعد، عند تدمير التجميع المطوق، لم تراع بالكامل. وحتى الهفوات المرتكبة كانت تدل فقط على بُعد نظر جوكوف. ومع أخذ الحقائق الواضحة المذكورة بعين الاعتبار أود أن أقول: أيها السادة المتحاملون على جوكوف! كيف يمكن على ضوء ذلك كله القول بأن جوكوف كان قائداً عديم الموهبة.

يعتقد بعض المؤرخين والمشتركين في الحرب أن الخلل الخطير في عملية الهجوم المضاد أمام ستالينغراد هو تلك الفجوة الكبيرة المتشكلة في الفاصل ما بين تطويق تجميع العدو وتدميره. في حين أن المبدأ الكلاسيكي لفن الحرب ينص على أن تطويق وتدمير العدو يجب أن يشكلا عملية واحدة غير منفصلة وهو ما أمكن الوصول إليه بصورة أساسية في عمليتي روسيا البيضاء وياسكو ــ كيشينيف وبعض العمليات الأخرى دون أن يتيسر عمله في ستالنيغراد.

غير أن ما تيسرَ في عملية ستالينغراد كان فوزاً كبيراً في ذلك الوقت، وخاصة إذا تذكرنا أنه لم يتيسر في الهجوم قرب موسكو وفي منطقة ديميانسك وغيرها من المناطق حتى

تطويق العدو ، أما في خاركوف ، في ربيع ١٩٤٢ ، فنجد القوات بعد أن طوقت العدو وقعت هي نفسها في التطويق ومنيت بالهزيمة . علماً بأنه في الهجوم عند ستالينغراد تم توزيع القوى والوسائط مسبقاً سواء للأعمال في الجبهة الداخلية أو في الجبهة الخارجية للتطويق ، بالرغم من أن القوى لم تكن كافية بشكل واضح للعمل بآن واحد على الجبهتين كلتيهما .

وفي أثناء الهجوم المعاكس قرب ستالينغراد نجد أنه من جهة أولى ، لم تتخذ كل التدابير اللازمة لتشتيت وتدمير العدو في أثناء تطويقه ، ولو أنه من الضروري الأخذ بعين الأعتبار أيضاً الأبعاد الشاسعة للأرض التي كان يتمركز عليها العدو المطوق والكثافة الكبيرة لتجميعاته . ومن جهة أخرى فإن وجود قوى ضخمة للعدو على الجبهة الخارجية تحاول رفع الطوق عن الجيش السادس التابع لباولوس لم يتح الإمكانية لحشد ما يكفي من القوى للقضاء على القوات الألمانية المطوّقة .

وأخيراً اتخذت هيئة القيادة العليا ، في وقت متأخر ، قرارها بتوحيد قيادة سائر القوات العاملة على تدمير التجميع المطوق في يد جبهة واحدة . وفي منتصف كانون الأول فقط وصل التوجيه القاضي بنقل كل القوات العاملة أمام ستالينغراد إلى قوام جبهة الدون .

المسألة الثانيةـــ التي تشاور فيها ستالين مع جوكوف هي قرار هيئة القيادة العليا بخصوص توجيه جيش الحرس الثاني التابع لمالينوفسكي من أجل سحق تجميع مانشتاين على اتجاه كوتيلنيكوفو . وكما هو معلوم كان هذا الجيش مخصصاً للعمل ضمن قوام الجبهة الجنوبية الغربية ، ثم ، مع تغير الموقف ، تقرر نقله إلى جبهة الدون للاشتراك في تدمير التجميع المطوق . لكن مع ظهور تجميع الجنرال مانشتاين على اتجاه كوتيلنيكوفو اتخذت هيئة القيادة العليا ، بناءً على طلب الجنرال يريمينكو ، قراراً جديداً بنقله إلى قوام جبهة ستالينغراد للقتال ضد تجميع العدو على اتجاه كوتيلنيكوفو . لقي هذا الاقتراح دعماً أيضاً من قبل فاسيليفسكي الذي كان موجوداً حينذاك في مقر قيادة جبهة الدون . وقد اعترف جوكوف أيضاً في حديث له بالهاتف مع ستالين بأن هذا القرار ملائم .

تابع روكوسوفسكي إصراره على نقل جيش الحرس الثاني إلى قوام جبهة الدون بهدف الإسراع في تدمير تجميع العدو المطوق . ووقف في وجه نقله إلى جبهة ستالينغراد أيضاً فورونوف . وبعد الحرب سمى هذا القرار « خطيئة رهيبة » من جانب هيئة القيادة العليا ، وفي الواقع لو أمكن ، بإشراك هذا الجيش ، القضاء على تجميع باولوس في برهة وجيزة لكان بالإمكان تحرير ليس فقط جيش واحد ، بل سبعة جيوش دفعة واحدة لتطوير الهجوم على الجبهة الخارجية في اتجاه روستوف . واستمر روكوسوفسكي حتى بعد الحرب في الإصرار على

رأيه في أنه « كان من المناسب أكثر استخدام جيش الحرس الثاني بالشكل الذي كانت تنوي أن تفعله هيئة القيادة العليا ، أي التخلص بسرعة من التجميع المطوق » .

غير أن التحليل المتقن للموقف في ذلك الوقت ، مع قراءة وثائق الطرف المقابل التي غدت معروفة بعد الحرب ، يدل على أن قرار هيئة القيادة العليا توجيه جيش الحرس الثاني لسحق تجميع مانشتاين يبدو أنه كان هو الأنجع ، إذ لم يكن هناك أي ضمان بأنه في حال إدخال هذا الجيش في قوام جبهة الدون سيتسنى التخلص بسرعة من التجميع المطوق . وجاءت الأحداث التالية لتؤكد كم كانت غير بسيطة مهمة تدمير (٢٢) فرقة معادية وصل تعدادها إلى (٢٥٠) ألف شخص . وكانت مخاطرة كبيرة ليس لها تبرير كاف اعتبار أن اختراق تجميع مانشتاين وضرب جيش باولوس المقابل له يمكن أن يقودا إلى فك الحصار عن التجميع المطوق وعموماً إلى إحباط الهجوم اللاحق لقوات الجبهة الجنوبية الغربية وجبهة فورونيج . وأن تحويل قوى الجيش (٢١) لمواجهة تجميع مانشتاين، كما كان يتوقع روكوسوفسكي ، لن يؤمن سحقاً سريعاً لهذا التجميع المعادي .

ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أيضاً أن الأركان العامة للقوات البرية الألمانية (تسايتسلير) وقائد مجموعة الجيوش (ب) ، قبل التطويق الكامل للجيش (٦) ، كانا قد اقترحا القيام بتحويل هذا الجيش نحو الشرق . غير أن هتلر وكايتيل ويودل أصروا على إبقائه أمام ستالينغراد . هذا ويصعب القول بما كان سينتهي تحويل الجيش (٦) لكن يمكن أن نعتبر على وجه التحديد أن أعمال القوات السوفييتية في هذه الحال قد تصبح أكثر تعقيداً سواء على الجبهة الداخلية أو الخارجية لتطويق العدو .

بعد انقضاء عدد كبير من السنين ، يمكننا أن نقول على وجه التحديد أن فاسيليفسكي وجوكوف كانا على حق في هذه المسألة .

هناك حقيقة لا يعرفها الكثير ، وهي أن جوكوف كان فيما بين (٢ و ٩) كانون الثاني ١٩٤٣ موجوداً في جبهة فورونيج . ولم ينوه عن ذلك بشيء في مذكراته .

في هذه الفترة بالذات اكتمل سحق الجيش الثامن الإيطالي واكتملت الغارة التي قام بها الفيلق المدرع بقيادة ف . م . بادانوف على عمق مؤخرة العدو . وكان مانشتاين مضطراً إلى العدول عن محاولة فك الحصار عن تجميع باولوس المطوق . وفي كل ذلك تظهر بصمة جوكوف الذي كان ينسق أعمال الجبهات سواء من هيئة القيادة العليا أو بالزيارة التي قام بها إلى مكان الأحداث في كانون الثاني ١٩٤٣ .

ها هو ذا رئيس أركان الفيلق (٤٨) المدرع ف . ميلينتين ، المشارك في موقعة ستالينغراد ، يكتب فيما بعد مايلي : « أظهرت القيادة الروسية في هذا الموقف الحاد فراسة استراتيجية عميقة ــ في ذلك الوقت كان المارشال جوكوف هو الذي يمارس قيادة أعمال القوات الروسية في الفولغا والدون ... قام جوكوف بما عرف عنه من الفطنة الاستراتيجية بتأجيل الهجوم على جبهة الجيش (٨) الإيطالي إلى أن وجدت قوى غوت نفسها متورطة في الأعمال القتالية » وكان سحق التجميع الألماني في الدون الأوسط هو وحده الذي أرغم مانشتاين على العدول عن متابعة محاولاته الرامية إلى رفع الحصار عن الجيش (٦) ، وهذا ما قرر مصيره .

بعد هذا كله نجد في أمر ستالين حول عزل جوكوف عام ١٩٤٧ من منصبه وفي المقالات الجاحدة التي كتبها بعض القادة العسكريين والمؤرخين الروس أنهم قد انتهوا إلى فكرة تزعم بغياب جوكوف عن عملية ستالينغراد .

ظهرت بعد الحرب في الصحافة الغربية تأكيدات بأن أكبر نقطة انعطاف في مجرى الحرب العالمية الثانية لم تكن ملحمة ستالينغراد وإنما انتصار الحلفاء في العلمين . وفي كتاب ايزنهاور « الحملة الصليبية في أوربا » نراه يقدم تنازلاً ويضع ملحمة ستالينغراد على قدم المساواة مع انتصار الحلفاء الغربيين على القوات الألمانية الإيطالية في تونس . وبالطبع لكي نكون موضوعيين ، يجب الاعتراف بأن الحلفاء قد حققوا في العلمين نصراً كبيراً كان له باع طويل في قضية سحق العدو المشترك . ومع ذلك فإن موقعة العلمين بأبعادها الاستراتيجية ونتائجها لا يمكن أن تدخل في أية مقارنة مع ملحمة ستالينغراد .

مثلاً استمرت ملحمة ستالينغراد (٢٠٠) يوم (من ١٩٤٢/٧/١٧ إلى ١٩٤٣/٢/٢) بينما موقعة العلمين ١١ يوماً (من ١٠/٢٣ إلى ١٩٤٢/١١/٤) . ولن نتحدث عن عدم وجود مجال لمقارنة حدة وضراوة هاتين الموقعتين . فإذا ما بلغت خسائر الحلف الفاشي في العلمين (٥٥) ألف شخص و (٣٢٠) دبابة ونحو ألف مدفع ففي ستالينغراد كانت خسائر القوات الفاشية أكثر بـ (١٠ ــ ١٥) مرة . فقد بلغ عدد الأسرى وحدهم نحو (١٤٤) ألف شخص . ودمر تجميع من القوات عدده (٣٣٠) ألف شخص . وكان مجموع الخسائر (٨٠٠) ألف شخص . وكانت خسائر القوات السوفييتية أيضاً كبيرة (٤٧٩ ألف شخص من الخسائر التي لا تعوض من ضمنها خسائر في عملية ستالينغراد الهجومية البالغة ١٥٤ ألفاً) .

هذا وكان انتصار الحلفاء ذاته في العلمين ممكناً بفضل المقاومة العنيدة التي أبدتها القوات السوفييتية للعدو أمام ستالينغراد . فنظراً لأن القوى الرئيسية للفيرماخت كانت

منشغلة في المعارك على الفولغا، وأن الجبهة السوفييتية الألمانية قد امتصت كل احتياطات الجيش الألماني، نجد أن الفرصة قد تهيأت للقيادة الانكليزية والأمريكية لنشر الأعمال القتالية الفعالة في مسرح الأعمال الحربية الافريقي. ففي (٢٣) تشرين الأول ١٩٤٢ انتقل إلى الهجوم الجيش الإنكليزي بقيادة الجنرال مونتغمري ضد القوات الألمانية الإيطالية المنهكة بقيادة الجنرال ـ فيلدمارشال روميل، وبتاريخ (٤) تشرين الثاني أحرز النصر في منطقة العلمين. وفي الفترة ما بين (٨ و ١٢) تشرين الثاني ١٩٤٢ قامت القوات الحليفة بإنزال عملياتي على شاطئ إفريقيا الشمالي (عملية تورش) دون أن تلقى مقاومة جدية.

هاهو ذا قائد الحملة الأمريكية الجنرال ايزنهاور يؤكد أن «المقاومة العنيفة التي أظهرها الروس تؤمن للحلفاء حرية اختيار مكان وزمان وكمية القوى من أجل الهجوم الحاسم. ونرى رئيس أركان الجيش الأمريكي «مارشال» أيضاً يقدم تصريحاً مماثلاً ويكتب: «نحن ننطلق من أن القوات الألمانية غائصة حتى أذنيها في روسيا، لذلك فإن هتلر ليس لديه الوقت ليفكر بشمال إفريقيا ولا يمكنه أن يدير وجهه نحو الجنوب».

لقد اعترف كثير من الجنرالات والمؤرخين الألمان بأهمية ملحمة ستالينغراد.

هاهو ذا الجنرال ك. تيبيلسكيرخ يذكر في كتابه الشهير «تاريخ الحرب العالمية الثانية» مايلي: «بالرغم من أنهم ضمن إطار الحرب عموماً يخصصون للأحداث الجارية في شمال إفريقيا مكاناً أبرز من ملحمة ستالينغراد، إلا أن كارثة ستالينغراد زعزعت بشكل أقوى الجيش والشعب في ألمانيا. لذلك سيطرت على أحاسيسها بشكل أقوى، إذ وقع هناك ما لا يمكن تصوره...».

من الأمور المعترف بها بشكل عام أيضاً، المستوى العالي لفن الحرب الذي أظهره الجيش الأحمر في ملحمة ستالينغراد. يكفي أن نقول أنه تم تطويق وتدمير تجميع ضخم للعدو مع كون تناسب القوى متعادلاً تقريباً. وليس على سبيل الصدفة أن تظل الأكاديميات العسكرية في كل أنحاء العالم تدرس خبرة هذه العملية حتى اليوم.

ثانياً لا يمكن مقارنة الأهمية العسكرية السياسية للأحداث الجارية في كلا الموقعين. فملحمة ستالينغراد وقعت في مسرح الأعمال الحربية الرئيسي في أوروبا حيث يتقرر مصير الحرب. أما عملية العلمين فقد جرت في شمال إفريقيا على مسرح ثانوي. ولا يمكن أن يكون تأثيرها على مجرى الأحداث الرئيسية إلا جانبياً. ففي ستالينغراد حلت مسألة جذرية ذات احتمالين في الحرب العالمية الثانية: إما أن يكون النصر إلى جانب ألمانيا الفاشية فتخترق إلى الجنوب الشرقي وتخطو خطوة جديدة للسيادة على العالم، وإما أن يكتسح الاتحاد السوفييتي

العدو ويخطو خطوة حاسمة للنصر على الفاشية . وكان انتباه العالم أجمع مشدوداً حينئذ ليس إلى العلمين بل على وجه التحديد إلى ستالينغراد . ولم يكن قادة الدول المشتركة في الحرب فقط ، بل مئات الملايين من الناس في مختلف الأمصار ، مدركين أن اللحظة الحرجة للحرب العالمية الثانية قد حلّت ، وأنه على مصير المعارك الدائرة بين نهري الدون والغولغا يتوقف إلى حدٍ كبير مصير الإنسانية جمعاء . فقد تمخضت ملحمة ستالينغراد عن نتائج عسكرية سياسية عظيمة . فهي التي أرست بداية التحول الجذري في الصراع المسلح ، ليس على الجبهة السوفييتية الألمانية ، بل وفي مسارح الحرب العالمية الثانية الأخرى . فبمجرد استيلاء الجيش الأحمر على زمام المبادرة الاستراتيجية ، إثر ملحمة ستالينغراد ، لم يفرط بها حتى نهاية الحرب . إذ انتقلت القوات السوفييتية بعد ملحمة ستالينغراد إلى الهجوم العام من لينينغراد حتى حدود القفقاس بادئة بإجلاء المحتلين الفاشيين بصورة جماعية . فحررت المناطق الصناعية والزراعية الهامة . وتعزز انتصار الجيش الأحمر بالروح المعنوية للمواطنين السوفييت في الجبهة وفي المؤخرة . وازدادت أكثر وأكثر حركة الأنصار في مؤخرة العدو . وبفضل العمل المتفاني للمواطنين السوفييت حقق الاقتصاد العسكري للاتحاد السوفييتي أول انتصارات له على الاقتصاد العسكري الألماني رغم الخسائر الفادحة التي مني بها في المرحلة الأولى من الحرب . فأصبح الاتحاد السوفييتي ينتج كميات أكبر بكثير من الدبابات والطائرات والمدافع وغيرها من المعدات القتالية مما كانت تنتجه الصناعة الألمانية المعتمدة على اقتصاد أوروبا الغربية بكاملها .

كان للانتصار في ستالينغراد تأثير عظيم على حركة التحرر لشعوب العالم أجمع . فقد اجتاحت الموجة العارمة لحركة التحرير الوطنية كل البلدان الواقعة تحت نير الفاشية .

وبدورها فإن الهزائم الكبرى والخسائر الفادحة التي مني بها الجيش الألماني الفاشي في ستالينغراد جعلت الوضع السياسي والعسكري والاقتصادي لألمانيا يزداد سوءاً بشكل حاد ووضعها أمام أزمة خانقة . فقد بلغت خسائر العدو بالدبابات والمركبات في ملحمة ستالينغراد مثلاً ما يعادل إنتاج ستة أشهر في معامل ألمانيا ، وبالمدافع إنتاج أربعة أشهر وبالهاون وأسلحة المشاة إنتاج شهرين . وكانت الصناعة العسكرية الألمانية مضطرة للعمل بوتائر عالية جداً لتعويض مثل هذه الخسائر الضخمة .

تفاقمت أزمة الاحتياطات بالأفراد بشكل حاد . ولحل هذه الأزمة لجأ الحكام الفاشيون إلى تدابير خارقة للعادة وهي ما كانت تسمى « بالتعبئة الشاملة » .

كان للأصوات الجنائزية الصادرة عن أجراس الكنائس والحداد المعلن لثلاثة أيام بمناسبة مصرع القوات الألمانية أمام ستالينغراد أن جعلت ملايين الألمان يثوبون إلى رشدهم

ودفعتهم إلى رؤية الحقيقة بأم أعينهم. فقد برز الشبح الرهيب للهزيمة المحتومة لأول مرة في وعي سكان ألمانيا بعد أن خدرته دعاية غيبيلز.

تركت الكارثة على ضفاف الفولغا بصمتها على الحالة المعنوية لقوات الفيرماخت. فازدادت في صفوف الجيش الألماني بشكل حاد حالات الفرار وعصيان الأوامر وتزايد ارتكاب مختلف الجرائم ضمن القوات. فقد ازداد، بعد ستالينغراد، عدد أحكام الإعدام الصادرة بحق العسكريين في ألمانيا بمقدار (٥) مرات. وأصبح الجنود الألمان يخوضون الأعمال القتالية بصمود أقل، وبدؤوا يخافون وتنتابهم الرجفة من الضربات الجانبية والتطويق. وتولدت في أوساط قسم من الجنرالات تيارات معارضة لهتلر. وظهرت دلائل واضحة على وجود أزمة في الفئة الحاكمة من الحزب النازي وفي النسق الأعلى من الحكومة الألمانية.

ها هو ذا غربلز يكتب في يومياته بتاريخ (٦) آذار ١٩٤٣ مايلي:

«يتصور غيرينغ بوضوح أن الأحداث على الجبهة الشرقية في الشتاء المنصرم قد قوضت الثقة بنا.. ويبذل الجنرالات كل ما في وسعهم لينحوا باللائمة في هذه الأحداث على الفوهرر. وهم يأخذون بثأرهم عن الشتاء المنصرم حينما حاول الفوهرر أن ينحي باللائمة عليهم». وجاء انتصار الجيش الأحمر في ستالينغراد ليزعزع أركان الحلف العسكري الفاشي ويلقي عبئاً ثقيلاً على الدول التي تمشي في ركاب ألمانيا ويثير في معسكرها الذعر والتناقضات التي لا حل لها. فانبرت السلطات الحاكمة في إيطاليا ورومانيا وهنغاريا وفنلندا إلى البحث عن المبررات للخروج من الحرب تخلصاً من الكارثة الزاحفة عليها وإلى عقد سلام منفصل بينها وبين الولايات المتحدة وإنكلترا، وأصبحت تتجاهل أوامر هتلر القاضية بدفع القوات إلى الجبهة السوفييتية الألمانية.

كان للهزيمة النكراء التي منيت بها الجحافل الفاشية أمام ستالينغراد أن جعلت الدوائر الحاكمة في اليابان وتركيا تصحو من سكرتها وتثوب إلى رشدها. فعدلت عن عزمها الدخول في حرب ضد الاتحاد السوفييتي. فقد صرح السفير الياباني في برلين أوسيما بتاريخ (٦) آذار ١٩٤٣ لريبنتروب بمايلي: «أن الحكومة اليابانية ... تفهم حق الفهم رغبة حليفتها ألمانيا بأن تدخل اليابان أيضاً الحرب ضد روسيا. لكن بالنظر للموقف العسكري المتشكل في الوقت الحاضر ليس بإمكان الحكومة اليابانية أن تدخل الحرب».

أدى الصراع البطولي للشعب السوفييتي ضد الفاشية، ومأثرة الجيش الأحمر في ملحمة الفولغا، إلى تعزيز وتثبيت حلف القوى المضادة لهتلر. ورأت شعوب وحكومات البلدان كافة، بأم عينها، أن مصير الحرب إنما يتقرر على الجبهة السوفييتية الألمانية بالذات.

فقد رأت الإنسانية في لهيب ملحمة ستالينغراد العظمى انبلاج شفق النصر على الفاشية .

ها هو ذا رئيس جمهورية الولايات المتحدة ف . روزفلت يكتب في شهادة التقدير المسلمة للمدينة الباسلة ستالينغراد مايلي : « بالنيابة عن شعب الولايات المتحدة الأمريكية أسلّم هذه الشهادة إلى مدينة ستالينغراد تعبيراً عن إعجابنا بحماتها البواسل الذين ستكون شجاعتهم وقوة عزيمتهم وبسالتهم التي أظهروها في أثناء الحصار فيما بين (١٣) أيلول و (٣١) كانون الثاني ١٩٤٣ بمثابة إلهام لقلوب الرجال الأحرار إلى الأبد . فقد أوقف انتصارهم المجيد موجة الغزو وغدا نقطة تحول في حرب الأمم المتحالفة ضد قوى العدوان » .

قال رئيس وزراء بريطانيا العظمى تشرتشل في كلمته التي ألقاها في الإذاعة البريطانية بتاريخ (٣٠) تشرين الثاني ١٩٤٢ مايلي : « ها هي ذي الملحمة العملاقة لستالينغراد التي جاءت بنتائج ذات أهمية من الدرجة الأولى ، تقترب من بلوغ ذروتها » . ونراه في (١) شباط ١٩٤٣ ، حينما أصبحت القوات الفاشية في قبضة الأسر أمام ستالينغراد ، يوجه رسالة إلى ستالين يقول فيها : « هذا في الواقع انتصار عجيب » . ويقول ديغول في خطابه عبر إذاعة لندن في كانون الثاني ١٩٤٣ مايلي : « يبارك الشعب الفرنسي بحماس نجاحات الشعب الروسي وتصاعد قواه . ذلك أن هذه النجاحات تقرب فرنسا من هدفها المنشود وهو الحرية والأخذ بالثأر » .

بعد سحق الجحافل الفاشية على ضفاف الفولغا غدت ستالينغراد رمزاً للرجولة والبطولة والنصر .

بتأثير النجاحات المحرزة من قبل الجيش الأحمر أمام ستالينغراد وفي العمليات التالية من الحملة الشتوية (١٩٤٢ ـــ ١٩٤٣) اشتدت عزلة ألمانيا على الساحة الدولية ، وفي الوقت ذاته تألقت سمعة روسيا بين الأمم . فتحسنت العلاقات المتبادلة مع حكومتي تشيكوسلوفاكيا وبولونيا الموجودتين في لندن . وبدأ تشكيل قطعات وتشكيلات عسكرية لعدد من بلدان التحالف المضاد للفاشية على أراضي الاتحاد السوفييتي ، مثل تشكيل السرب الجوي الفرنسي « النورماندي » الذي تطور فيما بعد إلى فوج جوي ، ولواء المشاة التشيكوسلوفاكي الأول والفرقة البولونية الأولى المسماة تاديوشاكوستيوسكو . وكل هذه الوحدات انضمت فيما بعد إلى الصراع ضد القوات الألمانية الفاشية على الجبهة السوفييتية الألمانية .

كل هذا دليل على أن ملحمة ستالينغراد بالذات هي التي حطمت الفيرماخت وأرست البداية لانقلاب جذري في الحرب العالمية الثانية لصالح التحالف المضاد للفاشية .

وكان لجوكوف قسط عظيم في بلوغ هذا النصر إلى جانب فاسيليفسكي وستالين. ونظراً لمآثره القتالية وفنه العسكري منح وسام سوفوروف من الدرجة الأولى الذي ظهر حديثاً، وفاز جوكوف منه بالوسام رقم (١).

٥ ـ في ملحمة كورسك

تعد ملحمة كورسك بحق واحدة من أعظم الملاحم في الحرب العالمية الثانية. فعلى مصيرها توقف الانعطاف النهائي في مجرى الحرب. ودارت الملحمة في رحاب واسعة شملت أقاليم أورولوف، كورسك، بيلغورود، سومي، خاركوف. بولتافا. اشترك فيها ما ينوف على (٤) ملايين شخص ونحو (١٠) آلاف مدفع وهاون و (١٣) ألف دبابة ومدفع ذاتي الحركة وحتى (١٢) ألف طائرة مقاتلة.

إن جسامة الأهداف السياسية والاستراتيجية وتركيز كمية ضخمة من القوات والعتاد القتالي والكثافة العالية لبنية القوات من كلا الجانبين، كل ذلك لم يكن ليحدد سلفاً الأبعاد الكبيرة للمعارك فحسب بل وعنفها وتوترها الخارق. ووقف جوكوف عند منابع هذه المعارك وكان أنشط المشاركين فيها.

حين أوفد القائد الأعلى جوكوف إلى الاتجاه الجنوبي الغربي كلفه بالمهمة التالية: «بآن واحد مع التدابير الخاصة بالقضاء على خرق خاركوف عليك دراسة الموقف على الأرض وإمعان النظر في فكرة العدو المحتملة لفترة الصيف وما هي طرائق الأعمال التي ينبغي على قواتنا المسلحة أن تؤديها. فمن الواضح أن القيادة الهتلرية يمكن أن تبادر إلى شن هجوم كبير من جديد. لكن من المهم أن نحدد قبل كل شيء: أين وفي أي اتجاه؟»

إليك الوصف الذي أعطاه جوكوف لتأملاته غير السهلة في تلك الفترة:

«كنت أتأمل وأنا أنظر إلى الخريطة: في الشمال قام العدو بتطويق لينينغراد، لكنه لن يتمكن من الاستيلاء عليها. حصار المدينة مرفوع جزئياً والعدو غارق في مستنقعات وغابات سينيافينا وفولخوف. ومرة أخرى لم يجرؤ على السير مباشرة نحو موسكو، الأمر الذي يقض مضجع ستالين... وفي الجبهة الجنوبية أي في جبال القفقاس وفي ستالينغراد مني العدو بهزيمة نكراء... أين يمكنه مع ذلك، أن يشن هجومه الرئيسي؟ وقادتني السلسلة المنطقية من المحاكمات العقلية إلى الاستنتاج التالي: سيقرر العدو توجيه ضربته الساحقة فقط إلى روسيا الوسطى على خط اريول ـ كورسك ـ بيلغورود... هناك مجال واسع ومرتع للدبابات

وللأسافين والإحاطات بالأعتدة الميكانيكية ... فقط هناك وليس في مكان آخر. تيقنت من ذلك وكلي شعور بأن حدسي لن يخونني. وبالمناسبة جاءت كل أنواع الاستطلاع لتؤكد صحة هذا التنبؤ. حقاً، وأرجو أن لا يبدو هذا غريباً بالنسبة إليك، عرفت من خبرتي الشخصية كصياد: أن الوحش المفترس الجريح لن يعود للسير على أثره الدامي مرة أخرى ...

والآن كل شيء مضى وانقضى وأصبح في طي التاريخ، لكن بلوغ هذه الفكرة حينذاك كان أمراً شاقاً للغاية. الله أعلم هل وُفّقتُ في الحرب أم أنني ولدت عسكرياً، ومهما يكن من أمر فقد وفقت في هذه المرة وانتشلت حملاً ذا وزن لا يمكن تصوره. لا غرو فقد وضع القائد الأعلى أمامي حينذاك مهمة من أعقد المهام: ليس فقط تصحيح الأوضاع على جبهة فورونيج الواقعة تحت عبء الضربة الثقيلة، بل وكذلك وضع الخطوط العريضة للخطة الاستراتيجية لأعمال الطرفين المتحاربين خلال ربيع وصيف ١٩٤٣. وهذا، ليس بناء بيت من خشب وحتى ليس نقل حجر من مكانه، الأمر الذي تعودت عليه كوني فلاحاً، بل هو التبصر بكل شيء حرفياً: توضّع قواتنا وروحها المعنوية وتوفر الاحتياطات ومقدرة الخطوط الحديدية على تمرير القوات والمناطق الأكثر رحابة التي يمكن أن تدور عليها الموقعات العظمى، وقبل كل شيء التنبؤ بماذا يفكر الجنرالات الألمان وهيئة القيادة العليا وعلى رأسها هتلر. تصور الآن فقط هذه الناحية: لو أن القيادة الألمانية حشدت قواتها في منطقة ما لكنها في واقع الأمر اختارت مسرحاً آخر مختلفاً تماماً ليكون ميداناً للملحمة الجديدة؟

بهذا الشكل ستذهب كل معالم الخطة أدراج الرياح. وأقل هفوة في التنبؤات قد تساوي سيلاً من الدماء وخسارة أراض جديدة من بلادنا».

كان جوكوف يفكر منزوياً بنفسه في الأمسيات والليالي، أما ساعات النهار فكانت غاصة بالزيارات إلى القطعات والاجتماعات في الأركانات، وبالإضافة إلى أركان الجبهة كان يجتمع مع جنرالات وقادة الجيوش (٤٠، ١٣، ٧٠، ٦٥، ٤٣). وكان يتحقق معهم من صحة اقتراحاته دون أن يكشف النقاب عن كل أفكاره، ويجري محادثات رزينة مع فاتوتين وروكوسوفسكي تتحول أحياناً إلى مشادات حامية الوطيس.

بعد القيام بدراسة رصينة للموقف وتأملات طويلة كان يصل إلى استنتاجات محددة تدخل فيما بعد في أساس فكرة أعمال القيادة السوفييتية لصيف ١٩٤٣.

إن الكشف الصحيح عن فكرة الأعمال المقبلة للقوات الألمانية لفترة صيف ١٩٤٣ وإعداد أفضل طريقة لمواجهتها وعموماً التنفيذ الناجح لملحمة كورسك، كل ذلك كان

ممكناً قبل كل شيء بفضل فطنة جوكوف وحساسيته الاستراتيجية وموهبته. تعتبر الأصالة والتصميم المبدع والتنفيذ المرن للعمليات الدفاعية والهجومية في المنظومة العامة لملحمة كورسك واحدة من أنصع الصفحات في نشاط جوكوف القيادي. ولكي نتمكن من إعطاء عظمة الأعمال المنفذة حقها من التقدير يبدو من الضروري التذكير مرة أخرى بالموقف الناشئ في ذلك الوقت وصرامة الأهداف لدى الجانبين والأبعاد الهائلة للصراع المسلح وما إلى ذلك من الظروف التي ترتب على جوكوف تنفيذ المهام الاستراتيجية فيها.

بعد ستالينغراد خارت قوى الجيش الفاشي بشكل كبير نتيجة للعمليات التي جرت على الجبهة السوفييتية الألمانية شتاء ١٩٤٢ ــ ١٩٤٣. ففي أثناء الأعمال القتالية التي جرت في الشتاء المنصرم سُحق ما ينوف على (١٠٠) فرقة ألمانية فاشية تُشكل ما يقارب (٤٠٪) من مجموع تشكيلاتها على الجبهة السوفييتية الألمانية، وحسب معطيات الأركان العامة للقوات البرية الألمانية بلغت الخسائر التي لا تعوض فقط من صفوف القوات الفاشية (١٢٠٠) ألف بين جندي وضابط.

دب الوهن إلى حدٍ كبير في القوات المدرعة الألمانية، التي أثبتت وجودها في عمليات ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ كقوة ضاربة رئيسية في القوات البرية. ها هو ذا الجنرال غودريان، الذي كان حينذاك المفتش العام للقوات المدرعة يلاحظ في آذار ١٩٤٣ مايلي: «مما يدعو للأسف لم يعد لدينا في الوقت الحاضر ولا فرقة واحدة مدرعة تتمتع بالجاهزية القتالية التامة، غير أن نجاح الأعمال القتالية سواء في هذه السنة أو في السنوات القادمة يتوقف على ما إذا أتيح لنا إنشاء مثل هذه التشكيلات من جديد. فإذا ما قيض لنا حل هذه المهمة فإننا بالتعاون مع القوى الجوية الحربية وأسطول الغواصات البحري سنحقق النصر. وإذا لم نتمكن من ذلك فستغدو الحرب البرية مديدة وباهظة الثمن».

تكبد حلفاء ألمانيا خسائر كبيرة للغاية وهي القوات الرومانية والإيطالية والهنغارية. وكما نوه الجنرال موللر هيلليبراند فقد «ذابت قدرتهم القتالية وروحهم القتالية بسرعة». واندلعت أزمة خطيرة داخل الحلف الفاشي وتعقد الموقف داخل ألمانيا ذاتها.

في مجرى الموقعات الحاسمة خلال شتاء ١٩٤٢ ــ ١٩٤٣ امتصت الجبهة السوفييتية ــ الألمانية القوى الرئيسية للجيش الفاشي، مما أتاح للقيادة الأنكلو ــ أمريكية إمكانية إجراء العمليات الهجومية في شمال إفريقيا. وتهيأت الظروف المواتية لفتح جبهة ثانية في أوروبا. مع ذلك حينما عقد مؤتمر واشنطن لرؤساء دول وأركانات بريطانيا العظمى والولايات المتحدة في تموز ١٩٤٣ اتخذ قرار بتأجيل فتح الجبهة الثانية سنة أخرى.

أتاح مثل هذا الموقف الإمكانية أمام القيادة الهتلرية لحشد كل مواردها الصناعية والبشرية لمتابعة الحرب، موجهةً كالسابق قواها الرئيسية ضد الاتحاد السوفييتي.

أصدر هتلر في كانون الثاني ١٩٤٣ مرسوماً «يقضي بالاستخدام الشامل للرجال والنساء في الدفاع عن الأمبراطورية» وبموجبه كان يترتب تعبئة كل الرجال الذين يسكنون أراضي الأمبراطورية الثالثة وأعمارهم تتراوح ما بين (١٦ و ٥٠) سنة، والنساء ما بين (١٧ و ٤٥) سنة. وتعرض كل الرجال فيما بين (١٧ و ٥٠) سنة للتوجه إلى الجبهة. واستخدم على نطاق واسع سكان الأراضي المحتلة والأسرى للعمل في الصناعة والزراعة. وبالمقارنة مع ١٩٤٢ ارتفع إنتاج الدبابات في ألمانيا نحو مرتين والطائرات (١ر٧) مرة والمدافع (٢ر٢) مرة. وقد صممت وأدخلت في صفوف القوات الدبابات الحديثة من طراز «تيغر» و «بانزر» والمدافع الذاتية الحركة «فرديناند» والطائرات المطاردة الجديدة «فوكه ــ فولف ١٩٠ آ» والطائرات القاصفة «هينكيل ــ ١٢٩». وتحسنت بشكل جوهري المزايا القتالية للدبابات السابقة «ت ــ ٣، ت ــ ٤» والمدفعية. وظهرت مدافع مضادة للدبابات أكثر استطاعة ذات عيار (٧٥ و ٨٨) مم.

كل هذا أعطى للقيادة الألمانية الإمكانية، حتى ربيع ١٩٤٣، بتعويض خسائرها من القوات وتأسيس تشكيلات جديدة من المشاة والمدرعات. ففي صيف ١٩٤٣ كان الجيش الهتلري يملك (٤٣) فرقة زيادة عما كان لديه في بداية الحرب ضد الاتحاد السوفييتي. وفي الحقيقة، خلافاً لما كانت عليه في ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ كان كثير منها مشكلاً بملاك مختصر. وفي ربيع ١٩٤٣ رفض تصدير الطائرات والدبابات الألمانية إلى الجيش الإيطالي والحلفاء الآخرين. ووجهت كل التشكيلات الجديدة والعتاد الجديد إلى الجبهة السوفييتية الألمانية.

كانت القيادة الهتلرية تستعد بكل جهودها للأخذ بالثأر لقاء هزيمة شتاء ١٩٤٢ ــ ١٩٤٣.

بالرغم من جملة النجاحات العسكرية ــ السياسية والاستراتيجية فقد ظل الموقف في الاتحاد السوفييتي ربيع ١٩٤٣ متوتراً ومعقداً. ومع أن العدو كان منكسراً لكنه ما زال مفعماً بالتصميم على متابعة الحرب.

اقتضى الأمر أن يؤخذ بعين الاعتبار أيضاً خطر المحاولات التي كانت تبذلها القيادة الهتلرية لعقد سلام منفصل مع الحلفاء الغربيين.

في أثناء المعارك الضارية التي جرت شتاءً تكبدت القوات السوفييتية أيضاً خسائر كبيرة بالأفراد والعتاد. وأصبحت المناطق المحررة قاعاً صفصفاً. وأصبح مطلوباً من الحكومة

السوفييتية والشعب بكامله بذل الجهود الجسمانية والنفسانية المضنية، وتعبئة كل الإمكانات الاقتصادية والعسكرية لتصعيد شن الضربات على العدو إلى أن يتم سحقه بالكامل. ومما زاد الطين بلّة أن ألمانيا مافتئت تعتمد على صناعة وموارد أوروبا الغربية بالكامل. حتى أنها استطاعت في العام ١٩٤٣ أن تسبق الاتحاد السوفييتي في إنتاجها من الحديد الخام والفولاذ وصفائح الحديد بمقدار (٤) مرات، والفحم نحو (٦) مرات والطاقة الكهربائية (٥ر١) مرة... لذلك لم يكن بالإمكان سبق العدو في إنشاء، بالدرجة الأولى، ما يكفي لتحقيق النصر إلا عن طريق الاستخدام الأكثر عقلانية للموارد المتوفرة والعمل المتفاني للمواطنين السوفييت قاطبة. وقد حلت هذه المهمة أيضاً. ففي العام ١٩٤٣ أنتجت الصناعة السوفييتية من الدبابات الثقيلة والمتوسطة بنسبة (٤ر١) مرة أكثر من صناعة ألمانيا الفاشية ومن الطائرات الحربية بنسبة (٣ر١) مرة، ومن المدافع عيار (٧٦) م فما فوق أكثر بـ(٦٣٪) ومن الهواون بـ(٢١٣٪) أكثر. وفي ذلك العام أنتجت مصانع الطائرات نحو (٣٥) ألف طائرة، ومصانع الدبابات (٢٤) ألف دبابة ومدفع ذاتي الحركة. وتزايد إنتاج العتاد القتالي الأساسي وهو الدبابات (ت ــ ٣٤) المعتبرة مفخرة العتاد المدرع. وبدأ في الوقت ذاته الإنتاج المكثف للمدافع ذاتية الحركة (ساو ــ ١٥٢، ساو ــ ٧٦، ساو ــ ٨٥، ايسو ــ ١٥٢، ايسو ــ ١٢٢). وهذا ما سمح بتشكيل خمسة جيوش مدرعة بتنظيم جديد مؤلفة فقط من فيالق مدرعة وآلية، ومعتبرة وسيلة جبارة لشن الضربات المعاكسة في الدفاع وتطوير النجاح في الهجوم.

ظهر مدفع جديد مضاد للدبابات من طراز ١٩٤٣ استطاع أن يدمر دبابات العدو من طراز (تيغر) و (بانزر). وجرى تحسين الطرازات الأخرى من المدفعية. وشكلت فيالق مدفعية للخرق وفرق مدفعية طويلة وألوية مدفعية مضادة للدبابات تابعة لاحتياط القيادة العليا. وتحولت المدفعية بكاملها إلى الجر الآلي مما زاد من قدرتها على المناورة إلى حد كبير. وزودت الجيوش ذات الصنوف المشتركة بمدفعيتها العضوية. وكان لإدخال المدفعية في احتياط القيادة العامة والسيطرة المركزية عليها أن سمح بإمكان دفعها بشكل حيوي إلى القطاعات الحاسمة من الجبهة حيث كانت تنفّذ المهام الرئيسية. في حين كان القسم الأكبر من المدفعية في الجيش الألماني منتشراً في الفرق. وبالنتيجة كان نحو ٥٠ ــ ٦٠٪ من المدفعية في الجيش السوفييتي يشترك على الدوام في الأعمال القتالية الفعالة، أما في الجيش الألماني فلا تزيد هذه النسبة على (٣٠ ــ ٤٠٪).

بدأت تدخل في تسليح الطيران طائرات مطاردة جديدة أكثر حداثة مثل (لا ــ ٤)، (ياك ــ ٣)، وقاذفات القنابل المطورة طراز (بي ــ ٢)، (ايل ــ ٤)، وطائرات

الانقضاض (ايل ـــ ٢) . واكتسبت القوى الجوية للجيش الأحمر ، في الأعمال القتالية في كوبان ، خبرة كبيرة في الصراع من أجل السيطرة الجوية .

تمكنت هيئة القيادة العليا من إنشاء احتياطات استراتيجية ضخمة . فما أن حل صيف ١٩٤٣ حتى كان قوام الجيش الأحمر العامل يتألف من ٦٤٤٢ ألف جندي وصف ضابط وضابط ، و ٩٨٧٩٠ مدفع وهاون و ٩٥٨٠ دبابة ومدفع ذاتي الحركة و ٨٢٩٠ طائرة قتالية .

ما أن انقضت السنة الثانية من الحرب حتى كان الجيش الأحمر ، ولاسيما كوادره القيادية ، قد جربوا سواء الهزائم الصعبة أو الانتصارات الضخمة . واكتسبوا خبرة قتالية كبيرة في خوض العمليات الدفاعية والهجومية . ولأول مرة منذ أن بدأت الحرب يقف الجيش في ملحمة كورسك في ظروف متساوية مع الجيش الفاشي من وجهة نظر المجابهة العسكرية الصرفة وإمكانية إبداء البراعة في فن الحرب . والحق يقال أنه من جراء الأخطاء السياسية الجسيمة فقد وجدت الجبهات في الجيش الأحمر نفسها في ظروف لا تسمح لها بالتعبير عن إمكاناتها القتالية . وبعد الخسائر الجسيمة في الطيران أصبحت المعارك اللاحقة تدور تحت تفوق كاسح للعدو .

وعلى وجه التقريب تكرر الموقف ذاته الذي كان في صيف ١٩٤٢ . وفي العام ١٩٤٣ ، على أثر القرارات السياسية والاستراتيجية الرصينة المتخذة في حينها ، أصبح الجيش الأحمر في وضع آخر أكثر ملاءمة مما كان عليه في عامي ١٩٤١ ـــ ١٩٤٢ .

ويأتي جوكوف ليحلل الأعمال المقبلة مع الأركان العامة مراعياً كل هذه العوامل الخاصة بالموقف العسكري والسياسي والاستراتيجي .

ما هي إذن خطط القيادة الألمانية ؟ لا بدّ قبل كل شيء أن نؤكد أن هتلر كان ينطلق في خططه لعام ١٩٤٣ من منطلق باطل كما لو أن القدرة الحربية للاتحاد السوفييتي على وشك النفاد وأن « الاتحاد السوفييتي يجب أن يمنى بالهزيمة بعد تكبده تلك الخسائر الهائلة » وهنا نجده يكرر خطيئة ستالين عشية الحرب حينما وُضعت على رأس الزاوية الدوافع السياسية المأخوذة بشكل مجرد في معزل عن الاعتبارات الاستراتيجية . فهو لم ينطلق من التقدير الواقعي للموقف العسكري السياسي والاستراتيجي بمقدار ما انطلق من عدم الرغبة العمياء في الاعتراف بالانعطاف الجذري الوشيك في مجرى الحرب في غير صالح ألمانيا ومن السعي إلى إحراز نصر كبير في العام ١٩٤٣ مهما كان الثمن بحيث يأخذ بالثأر لهزيمة شتاء ١٩٤٢ ـــ ١٩٤٣ ويعزز النفوذ المتضعضع للجيش الألماني بين حلفائه ويستعيد المبادرة الاستراتيجية

من هذه الاعتبارات بالذات، وليس على أساس تقدير تناسب القوى الناشئ بشكل موضوعي، تم تحديد قرار القيادة الهتلرية لإجراء عملية هجومية ضخمة في صيف ١٩٤٣.

لدى إعداد الخطط لعام ١٩٤٣ درست أيضاً احتمالات أخرى. هاهو ذا قائد مجموعة جيوش «الجنوب» الجنرال مانشتاين، في مطلع ربيع ١٩٤٣، يتقدم مباشرة بعد الهجوم المعاكس للقوات الألمانية الفاشية على خاركوف، باقتراح يتضمن الانتقال فوراً إلى الهجوم ضد القوات السوفييتية المتواجدة على نتوء كورسك بحيث يتم تدميرها قبل أن تتمكن من تنظيم دفاع متين عليه. وفيما بعد نجد قيادة «الجنوب»، انطلاقاً من أن هجوم القوات السوفييتية في صيف ١٩٤٣ سيتجه على أغلب الظن ضد تجميع القوات الألمانية في حوض الدون، تتوقع أنه من الأفضل الانسحاب مع القتال إلى خط ميليتوبول، دنيبروبتروفسك. وفي آن واحد روعي في أثناء الانسحاب تحضير قوى ضخمة في مؤخرة الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش بهدف تسديد ضربات معاكسة وسحق القوات السوفييتية على الاتجاه الجنوبي.

رُفض هذان الاقتراحان المقدمان من قيادة (الجنوب) كلاهما واستقرت القيادة الهتلرية بشكل نهائي على خيار الأعمال في منطقة نتوء كورسك.

وهذا القرار أملته، إلى حدٍ كبير، ملامح الجبهة في منطقة كورسك. فقد توغل هذا الخط في جبهة الدفاع الألمانية عند ملتقى مجموعتي جيوش (الجنوب) و (المركز)، وأطال من امتداد توضع القوات مسافة (٢٥٠) كم متطلباً لذلك قوى إضافية، وقطع أهم المواصلات في مؤخرة القوات الألمانية الفاشية. كانت منطقة نتوء كورسك أيضاً بمثابة رأس جسر ملائم لهجوم القوات السوفييتية وتسديد الضربات إلى مؤخرة تجميعي العدو في اريول وحوض الدون.

بالإضافة إلى ذلك فإن الوضعية الملتفة التي كانت تحتلها الجيوش الهتلرية، بالنسبة لتجميع القوات السوفييتية في كورسك، كانت تشكل تهديداً خطيراً بالنسبة لها. وهذه الناحية الرابحة لوضع قواتها العملياتي هي التي قررت استغلالها القيادة الألمانية لدى تحضير العمليات الهجومية صيف ١٩٤٣.

كانت فكرة عملية «سيتاديل» (أي الحصن) تنحصر في قيام القوات الألمانية الفاشية، في آن واحد، بالهجوم وتسديد الضربات من الشمال ومن الجنوب في اتجاهات متلاقية لتطويق وتدمير قوى لا يستهان بها من الجبهة المركزية وجبهة فورونيج السوفييتيتين. وروعي لاحقاً سحق الاحتياطات الاستراتيجية المقتربة وعبور المجرى العلوي للدون، وكان القصد من ذلك إما بلوغ خط الفولغا أو تهديد موسكو من الجنوب. وبغية إنشاء تجميعات

ضاربة قوية بما فيه الكفاية على اتجاهات الضربة الرئيسية دُفعت القوى أيضاً من القطاعات الأخرى من الجبهة . ففي شهر/آذار جرى سحب القوات من نتوء رجيف ـــ فيازما ، مما أتاح الفرصة لتحرير (١٥) فرقة مشاة و (٥) فرق مدرعة وآلية . وكان قد دفع عدد من التشكيلات من الاتجاه الجنوبي .

بلغ مجموع ما دفع للاشتراك في العملية في منطقة كورسك ثلاثة جيوش ومجموعة عملياتية واحدة (من أصل ١٢ جيش و ٥ مجموعات عملياتية كانت موجودة على الجبهة السوفييتية الألمانية) ، و٧ فيالق تابعة للجيوش و ٥ فيالق مدرعة أي ما يعادل ٥٠ فرقة (منها ٣٤ مشاة و ١٦ مدرعة وآلية) . وركز أمام كورسك (٧٠٪) من سائر التشكيلات المدرعة . وبلغ تعداد هذه الجحافل والتشكيلات (٩٠٠) ألف شخص و (١٠) آلاف مدفع وهاون و (٢٧٠٠) دبابة . وكانت القوات مدعومة بالأسطولين الجويين (٤ و ٦) اللذين يضمان في قوامهما (٢٠٠٠) طائرة (٦٣٪) .

استخدمت القوات المخصصة للهجوم بأقصى تكثيف لها على اتجاهات الضربات المراد تسديدها . وكما لاحظ المؤرخ الألماني «ف . ادم» فإن «سبع عشرة فرقة مدرعة معززة بدبابات (تايغر) التي وزنها (٦٠) طن وبالمدافع الذاتية الحركة (فرديناند) التي وزنها ٧٠ طن خاضت الهجوم على قطاع من الجبهة بامتداد (٧٠) كم . وهذا معناه أن الفرقة المدرعة الواحدة هاجمت على جبهة أربعة كيلو مترات ! ولم يسبق للفيرماخت أن حشد ، في مجال ضيق ، مثل هذه القدرة الهجومية» . فقد أوليت عناية خاصة لبلوغ القوة الصاعقة للضربة الأولى بحيث تحطم بسرعة مقاومة قوات العدو المدافعة وتطور النجاح في العمق . ومع مراعاة ذلك نجد حتى الفرق المدرعة أصبحت تهاجم في النسق الأول . ونحن نحكم في أيامنا هذه على تلك الخطط استنتاداً إلى الوثائق الألمانية الأصلية . لكنها لم تكن معروفة حينذاك . ومع ذلك استطاع جوكوف بالتعاون مع الأركان العامة أن يقدر فكرة العدو تقديراً سليماً .

على العموم درست ملحمة كورسك ووضعت بشكل متقن بما في ذلك في المصادر الألمانية . إلا أن بعض المساوئ ما زالت تستدعي الجدل ولا تقوّم تقويماً متساوياً . وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بخطط القيادة الألمانية ، وتبرز حيالها المسائل التالية التي تنحصر قبل كل شيء في تقويم الفيرماخت للأهمية الاستراتيجية لهجوم القوات الألمانية الفاشية صيف ١٩٤٣ . ففي علم التدوين التاريخي الغربي ظهرت تصريحات لا يستهان بها مؤداها أن هذا الهجوم كان محدوداً نسبياً في أبعاده وفي أهدافه الاستراتيجية . غير أنه ، من المعطيات المذكورة أعلاه ، يتضح أن القيادة الألمانية ، بغية تنفيذ العمليات على اتجاه كورسك، حشدت من القوى ما لا يقل عما حشدته في العمليات الهجومية المنفذة في صيف ١٩٤٢ . علاوة على

ذلك في حال النجاح أمام كورسك روعي إجراء عملية هجومية ضخمة في الجنوب على الاتجاه العام نحو كوبيانسك (عمليتي «البانزر» و «ياستريب») وعلى اتجاهات أخرى شمال نتوء كورسك بما في ذلك شن هجوم جديد على لينينغراد. وبنتيجة تنفيذ هذه العمليات خطط سحق نحو (١٠٠) فرقة سوفييتية من أصل (٣٨٢) فرقة موجودة في الجيش العامل، أي كانت النية متجهة مبدئياً إلى سحق كل الجناح الاستراتيجي الجنوبي للجبهة السوفييتية.

أما فيما يتعلق بالأهمية العسكرية والسياسية للعملية فالأفضل الحكم عليها استناداً إلى الوثائق الرسمية. ففي الأمر العملياتي رقم (٦) تاريخ ١٩٤٣/٤/١٥ أشار هتلر إلى ما يلي: «قررت ... تنفيذ أول هجوم في هذا العام «سيتاديل». وهذا الهجوم له أهمية حاسمة. يجب أن ينفذ بشكل سريع وحاسم. وهو يجب أن يتيح لنا المبادرة في الربيع والصيف. لذلك يجب أن تجري كل التحضيرات بحذر شديد وهمة عالية. يجب أن تستخدم على اتجاهات الضربة الرئيسية أفضل التشكيلات وأفضل الأسلحة وأفضل القادة وكمية كبيرة من الذخائر ... يجب أن يصبح النصر في كورسك شعلة تسطع على العالم بأسره».

حقاً لو أردنا أن نتكلم بشكل موضوعي فقد كان لنتيجة الموقعات الدائرة أمام كورسك في الواقع أهمية حاسمة على سائر المجرى اللاحق للحرب العالمية الثانية.

بالرغم من تأكيدات بعض كتاب المذكرات والكتاب الاجتماعيين حول ما يسمونه الطابع الإبداعي لفن الحرب الألماني فإننا لا نرى، في الواقع، في السنة الرابعة من الحرب العالمية الثانية في مثال ملحمة كورسك ازدهاراً بل انحطاطاً فيه، ودلائل بارزة على استخدام القوالب الجامدة والسطحية. يكفي أن نتناول ولو فكرة العملية وشكل المناورة العملياتية. فمن ناحية نظرية فن الحرب المجردة يكون من المُغري على الدوام تسديد الضربات إلى أجناب العدو المتوغل بغية تطويقه وتدميره بشكل خاص حينما يتم ذلك بشكل مفاجئ بالنسبة للعدو وتكون الضربات مسددة إلى أجنابه الضعيفة. أما في الظروف الراهنة لصيف ١٩٤٣ لا يمكن أن يكون هناك أي حديث عن المفاجأة في تسديد ضربات رئيسية في منطقة نتوء كورسك، ذلك أن القوات السوفييتية كانت في انتظارها، حاشدة في هذه المنطقة قوى ضخمة بشكل مسبق. وبالتحديد فقد أقيمت على اتجاهات الضربات المقبلة للقوات الألمانية الفاشية بالذات أقوى التجمعات من القوات السوفييتية ونظم دفاع أشد قوة وأكثر تنسيقاً في العمق. ولهذا نجد أن ضربات القوات الألمانية الفاشية أُستهدفت من حيث الشكل أجناب العدو لكنها في واقع الأمر سددت إلى (جبين) جبهة دفاع منظمة تنظيماً جيداً. يدل التحليل العملياتي للخيارات العملية والتصميم الجديد لعملية كورسك الدفاعية، الذي

أُجري في العام ١٩٨٠ على أنه إذا لم ننطلق من المبادئ المجردة لفن الحرب بل من ظروف الموقف الراهن لكان من الأفضل إلى حدٍ كبير للقيادة الألمانية تسديد الضربة الرئيسية إلى أضعف مكان في الدفاع السوفييتي وبالتحديد إلى رأس نتوء كورسك بحيث يتم تشطير الدفاع والوصول إلى التجميعات الرئيسية لجبهتي فورونيج والمركزية اللتين كانتا منتشرتين على التوالي إلى الجنوب وإلى الشمال لمواجهة الضربات المنتظرة من جانب العدو .

لم تتمكن القيادة الألمانية أيضاً من حشد كل القوى والوسائط المخططة لتنفيذ عملية كورسك (لم يجر إعادة تجميع الفرق من رأس جسر كوبان ومن نوفوروسيسك ، ولم تنقل كل التشكيلات من منطقة ديمبانسك ... الخ) . لكن مع مراعاة هذه الأوضاع لم تدخل في خطة إجراء العملية في واقع الأمر أية تعديلات ، باستثناء تأجيل مواعيد بدء العملية أكثر من مرة .

بنيت أعمال الجيش الألماني في صيف ١٩٤٣ تقريباً على نفس المبدأ المطبق عام ١٩٤١ في مطلع الحرب ، بالرغم من أن الظروف لتنفيذ العملية كانت قد تغيرت . وبالرغم من التمركز المنسق في العمق للقوات السوفييتية والدفاع المنظم فقد وضعت القوى الرئيسية في النسق الأول وخصصت التشكيلات المدرعة ليس لتطوير النجاح وإنما لخرق الدفاع وشكلت احتياطات ضئيلة إلى أبعد حد . أثبت السعي إلى تكييف الموقف حسب خططهم وجوده في كل المستويات . وهكذا ففي اليوم الأول من الهجوم الألماني أعلم أحد الطيارين الألمان المرسلين للاستطلاع بدهشة مايلي : « لا أرصد هروب الروس على طريق بيلغورود ــ اوبويان » . ألا ترى ، أنه ما دام هروب القوات السوفييتية مخططاً من قبلهم فلا بُدّ له أن يتم حتماً . وقبل بدء عملية كورسك كان كل ما في احتياط القيادة العامة للجيش الألماني في الشرق لا يتجاوز عدة فرق . وعلى العموم بنيت العملية بكاملها في معزل عما كان يجري في الجانب المقابل ، مع الاستهانة الواضحة بإمكانات القوات السوفييتية . هذا ما اعترف به حتى كيتيل بعد الحرب إذ قال : « ... لم نكن لننتظر في حال من الأحوال أن الجيش الأحمر كان متأهباً لصد ضربتنا فحسب ، بل كان يمتلك بحد ذاته ما يكفي من الاحتياطات لكي ينتقل إلى هجوم معاكس ساحق » . كل هذا حكم منذ البداية على الهجوم الهائل للقوات الألمانية الفاشية بالفشل .

فيما يتعلق بأعمال القيادة السوفييتية فإن أحداث عامي ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ والهزائم الصعبة والانتصارات المحققة لم تمر عبثاً بالنسبة لها . فقد استطاعت أن تستخلص الدروس بشكل كامل وتطبقها في القرارات المبررة والأعمال المحددة انطلاقاً من الموقف المتشكل على الجبهة السوفييتية الألمانية ربيع ١٩٤٣ .

تعزز الوضع السياسي الخارجي للاتحاد السوفييتي، واتسعت وتعمقت صلاته السياسية والاقتصادية والعسكرية مع بلدان التحالف المضاد للهتلرية. طالبت القيادة السوفييتية الحلفاء بإصرار فتح جبهة ثانية، وبالنظر للتسويف في هذا العمل الاستراتيجي الهام كتب ستالين في رسالته مايلي: «لا يمكن للحكومة السوفييتية أن تسكت على مثل هذا التجاهل للمصالح الجذرية للاتحاد السوفييتي في الحرب ضد العدو المشترك... والمهم هنا لا يتعلق فقط بخيبة أمل الحكومة السوفييتية بل بالحفاظ على ثقتها تجاه الحلفاء تلك الثقة التي تعرضت لمحن قاسية. لا ينبغي أن ننسى ناحية هامة وهي أن الكلام يدور حول الحفاظ على ملايين الأرواح في المناطق المحتلة من أوروبا الغربية وروسيا وحول تقليص العدد الهائل من ضحايا الجيوش السوفييتية التي لا تمثل ضحايا القوات الأنكلو أمريكية أمامها إلا نسبة ضئيلة».

كان غياب الجبهة الثانية يفرض على القيادة السوفييتية حشد قوى ووسائط جديدة لتصعيد الضربات على العدو بغية سحقه نهائياً معتمدة بشكل رئيسي على قواها الذاتية، الأمر الذي لم يسمح لها بتخفيف عبء الحرب في الجبهة وفي المؤخرة، وحد من إمكانية إعادة تعمير المناطق المحررة.

بعد أن أخذ درساً قاسياً من خبرة عامي ١٩٤١ و ١٩٤٢ أصبح ستالين يصغي أكثر إلى اقتراحات ممثلي هيئة القيادة العليا وقادة قوات الجبهات.

كان جوكوف، كما رأينا، يولي دوماً الاهتمام الأول للاستطلاع. وخلافاً لفترة ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ أصبح الاستطلاع الاستراتيجي واستطلاع القوات أكثر تناسقاً إلى حد كبير. فهو الذي كشف في الوقت المناسب فكرة أعمال القيادة الألمانية وتحشد التجميعات الرئيسية لقوات العدو على اتجاه كورسك. وبغض النظر عن التأجيلات المتكررة لمواعيد بدء هجوم العدو كان الاستطلاع يحدد بدقة تامة مواعيد انتقال القوات الألمانية الفاشية إلى الهجوم.

على أساس المعرفة الجيدة للأحداث وتطورها المحتمل قام جوكوف، بالتعاون مع الأركان العامة، بإعداد القرارات الاستراتيجية والعملياتية المثلى الأكثر توافقاً مع ظروف الموقف، لاختيار اتجاه تركيز الجهود الرئيسية وإنشاء وحشد التجميعات الضرورية من القوات وبشكل رئيسي اختيار أفضل الطرائق لأعمال القوات على المستويين العملياتي والاستراتيجي.

ففي بادئ الأمر خططت هيئة القيادة والأركان العامة في صيف ١٩٤٣ شن هجوم استباقي على العدو. ولم يعترض جوكوف على ذلك في بادئ الأمر من حيث المبدأ. وجاء

قائدا الجبهتين روكوسوفسكي وفاتوتين ليؤيدا أكثر من مرة وبرأي واحد الخيار الهجومي في الأعمال .

غير أن جوكوف ، نظراً لدراسته العميقة لوضعية الطرفين ولتجميع العدو في منطقة نتوء كورسك ، حيث بقي هناك باستمرار تقريباً اعتباراً من النصف الثاني من آذار ، ظهرت لديه شكوك خطيرة فيما يتعلق بجدوى ادخال الفكرة الأولية التي اتخذتها هيئة القيادة حيز التنفيذ صيف ١٩٤٣. وترسخت هذه الشكوك أكثر بعد ورود معطيات موثوقة من الاستطلاع عن خطط القيادة الألمانية الرامية إلى اختطاف زمام المبادرة الاستراتيجية عن طريق شن هجوم صيفي ضخم في اتجاه كورسك . وتصور جوكوف أنه من غير المجدي على الإطلاق الهجوم في جبهة تجميعات العدو الضاربة الضخمة . وإن القيام بإعادة تجميع قوانا الرئيسية من أجل الهجوم على اتجاه يكون فيه العدو ضعيفاً يضعف قواتنا الواقعة على اتجاه الضربة الرئيسية للعدو ، الأمر الذي سيحكم عليها بالهزيمة . وفوق ذلك ، خلافاً لعامي ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ ، كانت القوات الروسية قد حضرت دفاعاً متيناً على اتجاه كورسك وكان لا بدّ من الإفادة منه . وهذه الاعتبارات نقلها جوكوف إلى فاسيليفسكي الذي توصل بالتدريج إلى الاستنتاج ذاته .

بعد أن وازن كل هذه الاعتبارات وتشاور مع قادة الجبهات أرسل ممثل هيئة القيادة العليا في (٨) نيسان ١٩٤٣ مقترحاته إلى القائد الأعلى . وعلى وجه الخصوص رفع مايلي :

« يبدو أن العدو في المرحلة الأولى ، بعد أن حشد أقصى ما لديه من قوات ، بما في ذلك قرابة (١٣ ــ ١٥) فرقة مدرعة ، سيقوم ، تحت دعم أعداد كبيرة من الطيران ، بتسديد ضربة بتجميعه في اريول وكرومي ملتفاً حول كورسك من الشمال الشرقي ، وبتجميعه في بيلغورود وخاركوف ملتفاً حول كورسك من الجنوب الشرقي ... يجب أن ننتظر من العدو أن تكون الورقة الرابحة في يده هي الفرق المدرعة والطيران . ذلك أن تأهيل مشاته للأعمال الهجومية هو أضعف بكثير مما كان في العام الماضي .

... أرى من غير المفيد انتقال قواتنا إلى الهجوم في الأيام القريبة بهدف استباق العدو . وسيكون من الأفضل لنا لو أنهكنا قوى العدو أمام دفاعنا وضربنا دباباته ومن ثم ، بزج الاحتياطات الطازجة والانتقال إلى الهجوم العام ، نكمل سحق تجميعه الرئيسي » .

أخيراً قُبلت مقترحات جوكوف في (١٢) نيسان في جلسة هيئة القيادة العليا . غير أن ستالين كان ما زال متردداً . ولم يصادق على طريقة الأعمال الدفاعية بشكل نهائي إلا في نهاية أيار ١٩٤٣ . ولما لم ينتقل العدو في حزيران إلى الهجوم فقد توجه قائدا الجبهتين

روكوسوفسكي وفاتوتين إلى هيئة القيادة العليا باقتراح للانتقال إلى هجوم سباق . أما جوكوف فقد أمكنه بعد جهد جهيد التوصل إلى ترجيح كفة الاحتمال الدفاعي للأعمال .

كانت فكرة القيادة السوفييتية بشكلها النهائي تتلخص فيمايلي : بالانتقال إلى الدفاع الاستراتيجي عن سابق تصميم بقوى الجبهة المركزية وجبهة فورونيج وجزئياً جبهة السهوب ، صد الهجوم الصيفي للقوات الألمانية الفاشية واستنزاف دمائها ، ثم الانتقال فيما بعد إلى الهجوم المعاكس وإنزال الهزيمة بالقوى الرئيسية للعدو . بهذا الشكل خططت ونفذت العملية الدفاعية الاستراتيجية ، ذات المعالم الواضحة ، بقوى عدة جبهات وتحت القيادة العامة لهيئة القيادة العليا وممثليها في الجبهات (جوكوف للجبهة المركزية ، فاسيليفسكي لجبهة فورونيج) . وخصصت لإجراء العملية قوى ضخمة . كان يدخل في قوام الجبهة المركزية (بقيادة روكوسوفسكي) وجبهة فورونيج (بقيادة فاتوتين) ختى مطلع شهر تموز ١٩٤٣ : ما يزيد على (٣ر١) مليون شخص ، حتى (٢٠) ألف مدفع وهاون ، حتى (٣٦٠٠) دبابة ومدفع ذاتي الحركة ، (٣١٣٠) طائرة (بما فيها الطيران البعيد المدى) . بذلك أُحرز التفوق التالي على العدو : في الأفراد (٤ر١) ، في الدبابات (٣ر١) ، في المدفعية (٩ر١) ، في الطائرات نحو (٦ر١) مرة . وكانت تدافع على اتجاه الضربات الرئيسية للعدو أشد القوات صلابة ، مثلاً على النتوء الشمالي الجيش (١٣) بقيادة الجنرال بوخوف ن . ب ، وعلى النتوء الجنوبي الجيش (٦) الحرس بقيادة الجنرال تشيستياكوف . ي . م .

كان في هذا القرار الخاص بخوض المعارك وتنظيم الدفاع أمام كورسك كثير من الأحكام الجديدة مبدئياً التي اغتنى فيها فن الحرب السوفييتي وهي :

أولاً — قبل كل شيء ، بفضل مرونة وسعة أفق جوكوف وصلابته في إدخال أفكاره الاستراتيجية إلى حيز الوجود ، خرج الفكر الاستراتيجي السوفييتي لأول مرة خلال الحرب في عام ١٩٤٣ من قيوده الأيديولوجية والأحكام المسبقة بالنسبة للدفاع الاستراتيجي حين كان ينظر إليه على أنه شيء لا يليق بالجيش السوفييتي ويكاد يكون فيه إهانة وإذلال بالنسبة له . وبالرغم من الدروس المستفادة في عام ١٩٤١ وربيع ١٩٤٢ فقد رفض ستالين دون تمعن ، كما أسلفنا ، الاقتراح الداعي إلى الانتقال إلى الدفاع . وكان لا بدّ من تذكر الهزائم الكبرى لصيف ١٩٤٢ للتوصل إلى القرارات المتخذة في ربيع ١٩٤٣ . ومن الأمور المميزة ، كما أسلفنا ، أنه في ربيع ١٩٤٣ أيضاً كانت هيئة القيادة العليا والأركان العامة في بادئ الأمر عازمتين على أن يكون الجيش الأحمر في صيف ١٩٤٣ هو البادئ بالهجوم ، موجهاً الضربة الرئيسية إلى الاتجاه الجنوبي الغربي . وبعد تقرير جوكوف الذي رفعه في (٨) نيسان ١٩٤٣ فقط بدأ

احتمال الأعمال الدفاعية ينظر إليه بشكل جدي . وللحقيقة نقول أن اقتراح جوكوف لم يكن ليلقى القبول من جانب ستالين إلا نتيجة لحصوله على الدعم من الأركان العامة وعلى وجه الخصوص من فاسيليفسكي وانتونوف .

تأتي الجهود الجبارة لوضع القرارات السليمة في صيف ١٩٤٣ ، لتشهد مرة أخرى على أن القرارات والخطط والأعمال التنفيذية للقادة والقوات (القوى) يجب أن تتوافق ليس مع المقاصد الأيديولوجية ــ العسكرية والنظرية ولا مع متطلبات الأنظمة العسكرية (التي لا تعطي سوى توجهات عامة) ، بل يجب أن تنطلق من الظروف العملياتية الاستراتيجية الناشئة وأن تراعيها بالتمام والكمال .

ثانياً ــ نجد أن المستجدات في فن الحرب في ملحمة كورسك والرؤية الجديدة التي اكتسبها جوكوف لجوهر الدفاع الاستراتيجي كانت تنحصر في أن القوات السوفييتية لم تنتقل إلى الدفاع مكرهة ولا بسبب عدم كفاية القوى والوسائط ، كما هو مفروض عمله استناداً إلى المبادئ النظرية ، وإنما عن سابق تصميم وهي تمتلك القوى المتفوقة على العدو .

وعليه ظهرت في المنشورات السوفييتية (وخصوصاً على يد زاخاروف) فكرة تقول « ... إن الدفاع أمام كورسك لا ينبغي أن ينظر إليه على أنه حادثة كلاسيكية نموذجية ومثل يحتذى » . هذا واحد من الأمثلة التي حاولوا فيها إرجاع الظواهر الحديثة المتولدة عن خبرة الحرب إلى المبادئ النظرية السائدة من قبل . فالمسألة وما فيها أن الاعتقاد السائد نظرياً ، لمدة طويلة وحتى اليوم ، هو أنه لصد هجوم العدو يكفي توفر قوى أقل بمرتين أو ثلاث مرات مما يتطلب الهجوم . لكن خبرة الحرب العالمية الثانية لم تؤكد ذلك . ففي مجرى الحرب لم تكن هناك أية عملية دفاعية ناجحة أجريت بقوى أقل بكثير مما لدى العدو المهاجم .

وبالطبع حينما تكون القوى والوسائط غير كافية ليس هناك من مخرج سوى الانتقال إلى الدفاع . كما يمكن « الوقوف » في الدفاع وبقوى قليلة الاحتفاظ بخط دفاعي معين حتى بدء هجوم العدو . لكن إذا ما انتقل العدو إلى هجوم كاسح لا يمكن دوماً ، بقوى ضعيفة ، الوقوف في وجهه وإحباط هجومه وإلحاق الهزيمة به . ومن الممكن صد هجمات قوى متفوقة للعدو في الدفاع على المستوى التكتيكي . لكن على المقياس العملياتي الاستراتيجي لدى توفر وسائط قوية للتدمير الناري وقدرة عالية على المناورة بالقوات والطيران فإن المهاجم ، بقبضه على زمام المبادرة ، ستكون لديه الإمكانية لإنشاء تفوق بأضعاف مضاعفة وتفوق ساحق على الاتجاهات المختارة ، ولدرء اختراقاته العميقة لا بدّ من توفر قوى ضخمة كافية .

ثالثاً ــ بفضل الخبرة المتراكمة والإبداع لدى جوكوف وفاسيليفسكي وقادة الجبهات روكوسوفسكي وفاتوتين وكونيف وقادة الجيوش والفرق، فقد بلغ بناء وتنظيم الدفاع أمام كورسك على المستويين الاستراتيجي والعملياتي أعلى مستوى من الكمال، وبفضل ذلك وصل العمق العام لدفاع الجبهات إلى (١٥٠ــ ١٩٠) كم، ومع حساب جبهة السهوب يكون قد وصل إلى (٢٥٠ ــ ٣٠٠) كم. وكان قد أنشئ وجهز، من الناحية الهندسية، نطاقان دفاعيان، بلغ عمق كل منهما (٥ ــ ٦) كم وهما يشكلان المنطقة التكتيكية للدفاع، وعدة خطوط دفاعية على مستوى الجيش والجبهة في العمق العملياتي (مجموعها ٨ نطاقات وخطوط). وعلى وجه العموم تم حفر وتجهيز (١٠) آلاف كم من الخنادق وطرق المواصلات. وفي أثناء إعداد العملية الدفاعية زار جوكوف كل الجيوش والفرق من النسق الأول وكثيراً من القطعات والوحدات.

أولى جوكوف عناية كبيرة لانشاء منظومة متماسكة من نيران المشاة والنيران المضادة للدبابات ونيران المدفعية والنيران المضادة للطائرات على مختلف المستويات بالتنسيق مع ضربات الطيران والشبكة الكثيفة من الحواجز الهندسية. وكما أشار المارشال روكوسوفسكي فقد حشدت على اتجاهات أعمال العدو تجميعات قوية من المدفعية. «بلغت الكثافة العامة للمدفعية لدينا ٣٥ سبطانة (بما فيها أكثر من ١٠ مدافع مضادة للدبابات) على الكيلو متر الواحد من الجبهة. غير أن هذه الكثافة كانت ضمن نطاق دفاع الجيش (١٣) أعلى بقليل».

كان يدخل في أساس الدفاع كله قابليته لصد الهجمات المكثفة لدبابات العدو، أي أن الدفاع كان قبل كل شيء مضاداً للدبابات. وذات مرة عرض الجنرال بوخوف في الأكاديمية مخططات للدفاع المضاد للدبابات مرسومة بيد جوكوف وهكذا، مع مراعاة خبرة الدفاع أمام كورسك، تم التوصل في سنوات ما بعد الحرب إلى الاستنتاج التالي: وهو أن الدفاع المضاد للدبابات لا يمكن أن ينظر إليه على أنه فقط نوع من أنواع التأمين القتالي أو عنصر إضافي في الدفاع. فقد غدا الدفاع بأكمله مضاداً للدبابات. ووجهت عناية جدية أيضاً إلى الدفاع المضاد للطائرات، لكنه لم يكتسب حينذاك تطوراً على قدم المساواة مع الدفاع المضاد للدبابات.

من الجدير بالذكر أن جوكوف لم يركز فقط على المسائل العملياتية التكتيكية. فقد كان يهتم بالنواحي المعنوية للأفراد ونظام معيشتهم وتموينهم وتأديتهم الخدمة. ففي الجيش (١٣)، الذي كان بقيادة بوخوف، التقى جوكوف بقائد الفوج الرائد م. س. ايفانوف

الذي قاتل منذ اليوم الأول للحرب وجرح ثلاث مرات ، وكان في كل مرة بعد خروجه من المستشفى يعين في المنصب ذاته . ولم يحظ خلال سنتين من الحرب بأي ترفيع لا بالمنصب ولا بالرتبة . وقد أعلم جوكوف القائد الأعلى بذلك من أجل لفت نظر قيادات الجبهات الأخرى والإدارة الرئيسية للكوادر . سرعان ما منح ايفانوف رتبة عقيد وعين قائد فرقة .

رابعاً ــ كان جوكوف وقادة الجبهات يتوخون أن يكتسب الدفاع طابعاً نشيطاً وقابلاً للمناورة إلى حد كبير للغاية . وقد تجلى ذلك في تسديد العديد من ضربات الطيران المكثفة إلى مطارات العدو وقواته قبل انتقالها إلى الهجوم . كما لعب دوراً كبيراً معاكس التمهيد المدفعي المنفذ في (٥) تموز على اتجاهات الضربات المنتظرة من العدو ضمن نطاقات الجبهة المركزية وجبهة فورونيج . وعانى العدو الخسائر في صفوفه وهو لا يزال في قاعدة الانطلاق للهجوم ولم يتمكن من بدء هجماته في المواعيد المرسومة .

استخدمت الأنساق الثانية بما فيها الجيوش والفيالق المدرعة لشن الهجمات والضربات المعاكسة على تجميعات العدو المدرعة المخترقة . وبالنتيجة دارت معارك وموقعات مدرعة لم يُشهد لها مثيل طوال فترة الحرب ، وكان أهمها في منطقة برخوروفكا ، حيث اشترك من كلا الجانبين ما ينوف على (١٢٠٠) دبابة ومدفع ذاتي الحركة .

جرت العادة زمن السلم ، في المشاريع والألعاب العسكرية أن توجه كل الهجمات والضربات المعاكسة إلى جنب تجميعات العدو المخترقة . وكان الهجوم المعاكس الجبهي في مجرى الدروس الأكاديمية يحصل على أدنى تقدير . لكن الهجمات والضربات المعاكسة أمام كورسك وفي بعض الموقعات الأخرى خلال الحرب ، كثيراً ما كانت تحمل طابعاً جبهياً ، ذلك أن قيمة المخاطرة كانت كبيرة للغاية ، فبفضل الهجمات والضربات المعاكسة الجبهية كانت تتاح الفرصة إما لسحق العدو المهاجم وإما لقطع الطريق أمامه من كل بد وإيقاف تجميعاته المخترقة ودفعها إلى الوراء .

لدى تحضير العملية بإشراف جوكوف والأركان العامة وفاسيليفسكي وخرولوف وقادة الجبهات ، كانت تبذل جهود جبارة لاستكمال إمداد القوات بالأفراد والسلاح والعتاد ونقل وتخزين الكمية اللازمة من الذخيرة والوقود والزيوت . وكانت الاحتياطات المشكلة من الوسائط المادية قبل بدء عملية كورسك أعلى بكثير مما في عمليات ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ . ففي جبهتي فورونيج والمركزية كان يتوفر من الذخائر ذات العيارات الأساسية ٥ر٢ ــ ٣ وحدات نارية (٥ وحدات نارية للعيارات الثقيلة) . وفي جيش الحرس ١٣ و ٦ بمعدل ٤ ــ ٥ وحدات نارية . وكان يتوفر من بنزين السيارات في قطعات الجبهة المركزية ٨ر٤ وحدة ملء ،

وفي جبهة فورونيج ٨ر٥ وحدة ، أما المواد الغذائية فكان لدى الجبهتين ما يكفي لـ ٢٠ ـــ ٢٥ يوماً .

يقول غاريبف مدير الأكاديمية العسكرية أنه كان يجري تدريب قتالي عنيف حيث تعالج مع القيادة والأركانات والقوات طرائق الأعمال الخاصة بتنفيذ المهام المسندة في الدفاع . وقد شارك جوكوف غير مرة في تحضير وتنفيذ مثل هذه المشاريع والتمرينات . وكانت تنفذ بجهد خاص التمرينات المتعلقة بالتقدم نحو الخطوط المحددة مع اصطحاب الاحتياطات المضادة للدبابات والأنساق الثانية .

كانت تولي عناية كبرى لتعميم الخبرة القتالية ونقلها إلى القوات لتربية الروح المعنوية العالية . ولم يتحقق ذلك طبعاً بالاقتصار على الأحاديث والاجتماعات الحزبية وتوزيع المنشورات . فالشيء الرئيسي الذي أمن الثقة والثبات لدى القوات هو تدريبهم الجيد ومقدرتهم على إتقان سلاحهم والإصرار على تنفيذ الهدف والتنظيم العالي في أعمال القادة والأركانات على مختلف مراتبهم .

كان هذا العمل المعقد والمتنوع جميعه في تحضير العملية الدفاعية سبباً في نجاحها في التنفيذ . فإذا كانت القوات الألمانية الفاشية في عام ١٩٤١ ـــ ١٩٤٢ ، بانتقالها إلى الهجوم ، تدمر الدفاع تدميراً كاملاً وتتقدم مئات بل أكثر من ألف كيلومتر ، وتمكنت القوات السوفييتية من إيقاف العدو بعد بذل جهود لا يمكن تصديقها وبعد تراجع لمسافات طويلة ، نجد أن الجيش الهتلري بانتقاله إلى الهجوم في (٥) تموز أمام كورسك لم يتمكن من خرق الدفاع ولم يتوغل سوى في المنطقة التكتيكية للدفاع ، وبحلول اليوم العاشر من تموز حين كان يتحتم على القوات الألمانية الفاشية المهاجمة من الشمال والجنوب ، بموجب الخطة المعمول بها ، أن تلتقي في منطقة كورسك فإنها لم تخفق في تنفيذ هذه المهمة فحسب بل إنها لم تفلح حتى في خلق الظروف لتطوير النجاح التكتيكي إلى عملياتي . فعمدت القيادة الألمانية إلى دفع عدة فرق إضافية من الاتجاهات الأخرى آملة بذلك تغذية الجهود وخرق الدفاع السوفييتي ، لكن حتى هذه الهجمات الجديدة صدتها القوات السوفييتية . وبالنتيجة فقد تقدمت القوات الألمانية الفاشية في نطاق الجبهة المركزية لمسافة لا تتجاوز (١٠) كم . وفي نطاق جبهة فورونيج لمسافة حتى (٣٠ ـــ ٣٥) كم ضمن قطاعات ضيقة من الجبهة . وإضافة إلى ذلك تكبدت خسائر فادحة في الأشخاص والدبابات وغير ذلك من العتاد القتالي . أما تجميعات العدو المخترقة فقد أُوقفت ، وفيما بعد ردت على أعقابها إلى قاعدة انطلاقها عن طريق تسديد ضربات معاكسة بقوات الجيوش والجبهات والأنساق الثانية

والاحتياطات. وهكذا تكللت بالنجاح مهمة إحباط هجوم العدو، دون التخلي عن خط الدفاع المحتل، خلال مدة لم تتجاوز (٦ ــ ٧) أيام.

حينما كان جوكوف يعمل في القوات، كان عادة يتوغل في أعماق كل تفاصيل تنظيم وتأمين الأعمال القتالية. وإذا ما تعثرت الأمور لدى قائد جيش أو آخر، لاسيما في اللحظات الحاسمة من تطور العملية، كان يتسلم زمام قيادة القوات في يده دون أية مراسيم. كان صارماً وعند اللزوم تراه يصدر توجيهات واضحة محددة متوخياً تنفيذها دون أي انحراف. ومع ذلك فبوصفه ممثلاً لهيئة القيادة العليا، كان يحاول عدم تقييد أعمال قادة الجبهات دون وجود ضرورة خاصة لذلك.

كتب روكوسوفسكي مايلي: «في الحديث عن المعارك الدفاعية لقوات الجبهة المركزية على قوس كورسك أود أن أشير إلى بعض النواحي المميزة. قبل كل شيء إلى دور ممثل هيئة القيادة العليا. فقد بقي جوكوف مدة طويلة في الجبهة المركزية خلال الفترة التحضيرية، وبالاشتراك معه قمنا بحل المسائل المبدئية في تنظيم وتنفيذ الأعمال الدفاعية والهجوم المعاكس. ودون مساعدة منه لم تكن لتلبي حينذاك طلباتنا الكثيرة المرسلة إلى موسكو. وفي عشية الملحمة بالذات تراه يزورنا من جديد ويتعرف بالتفصيل على الموقف. وفي صباح الخامس من تموز، في عز الموقعة المضطرمة، تراه يرفع تقريراً إلى ستالين يقول فيه: قائد الجبهة يسيطر بحزم على قواته، وهو يحسن أداء المهمة بنفسه، وسلمني زمام المبادرة الكاملة. هذا هو المسلك الصحيح!».

بعد أن تأكد جوكوف من أن قيادة الجبهة تعمل واثقة من نفسها عاد إلى قوات جبهة بريانسك من أجل تحضير عملية اريول الهجومية.

حينما تعقد الموقف بتاريخ (١٢) تموز ضمن نطاق فورونيج انطلق، بناءً على طلب ستالين، إلى منطقة موقعة بروخوروف التي تنفذ بالدبابات. وهو الذي أصر أمام هيئة القيادة العليا على ضرورة زج قسم من قوى جبهة السهوب في الموقعة ضمن نطاق جبهة فورونيج.

كان يرفع إلى القائد الأعلى كل قراراته الهامة وتعليماته. لكن حينما يقتضي الموقف كان يأخذ على عاتقه المسؤولية بجرأة ويصدر التعليمات، التي لا تتحمل التأجيل فوراً. فحينما دعت الضرورة ولم يكن هناك مجال لإضاعة ولا دقيقة واحدة، قام ليلة (٥) تموز باتخاذ القرار بنفسه وأعطى الموافقة لقائد الجبهة المركزية بإجراء معاكس تمهيد مدفعي، وفيما بعد أعلم هيئة القيادة العليا بذلك.

والشيء الرئيسي الذي أمن الأعمال الناجحة للقوات السوفييتية في الدفاع هو ثباتها وصمودها والبطولة الجماعية الحقيقية للجنود والضباط والمهارة العسكرية العالية والرجولة لدى الرؤساء العسكريين الذين ذادوا حتى النهاية عن كل شبر ، من المواضع المحتلة وهم يتعرضون لأشد النيران والضربات الكثيفة من طيران العدو وعتاده المدرع. ودفعوا ثمن ذلك خسائر فادحة ، فقد بلغت الخسائر التي لا تعوض في صفوف القوات السوفييتية في عملية كورسك الدفاعية (٧٠٣٣٠) شخصاً . وكما لاحظ المؤرخ الألماني ب . كاريل في كتابه (الأرض المحروقة ، الموقعات فيما بين الفولغا والفيسلا) ، فقد تصادم العدوَّان في قوس كورسك بقوى هائلة . وبلغت الروح الهجومية للألمان والمقدرة الدفاعية للروس والسلاح من أحدث الطرز وفن القيادة والدهاء العسكري ... كل ذلك بلغ أعلى نقطة في هذا الصراع .

بحثنا في هذا المثال بشكل رئيسي فعالية جوكوف في تنظيم الأعمال الدفاعية أمام كورسك ، حينما لم يكتب النجاح للأعمال الدفاعية في السنتين الأوليتين من الحرب . لكن الإخفاق النهائي الذي منيت به القيادة الهتلرية أمام كورسك في تموز ١٩٤٣ لم يكن بفضل الأعمال الدفاعية فقط بل أيضاً نتيجة لانتقال قوات الجبهة الغربية بريانسك بتاريخ (١٢) تموز إلى الهجوم على اتجاه اريول ، وقوات جبهة السهوب والجبهة الجنوبية الغربية على اتجاه بيلغورود ـــ خاركوف . وفي الوقت ذاته تابعت قوات الجبهة المركزية وجبهة فورونيج ضغطها على العدو ، مستفيدة من نجاح الجبهتين ، لترده إلى مواضع انطلاقه .

بعد سحق تجميعات العدو المخترقة وإعادة الوضع إلى ما كان عليه في الدفاع طلب ستالين من جبهتي فورونيج والسهوب متابعة هجومهما (حسب خطة عملية « رومیانتسيف ») دون أن يمنحهما أي فاصل عملياتي . غير أن جوكوف اعترض على ذلك وأقنع القائد الأعلى بضرورة استئناف الهجوم بعد مرور (٨ ـــ ١٠) أيام بحيث يمكن تحضير العملية بشكل أفضل واستكمال القوات بالأفراد والوسائط المادية . وهكذا بدأ انتقال الجبهات الثلاثة بآن واحد إلى الهجوم في (٣) آب .

لم يُصب جوكوف ، لدى إجراء هذه العمليات ، بالإرهاق ولم ينضب معين إبداعه : فقد كان يقف ضد أي تمسك بالشكليات الخارجية ، ولم يكن ليعترف بالتفكير السطحي ولا بالقوالب الجامدة .

مثلاً مع أنه كان يعتبر ، من حيث المبدأ ، تطويق العدو من أكثر الأشكال فعالية في تنفيذ العمليات ، فقد رفض اقتراح فاتوتين ، عند تخطيط عملية بيلغورود ، بتطويق القوات الألمانية الفاشية في منطقتي بيلغورود وخاركوف . وكان بذلك ينطلق من أن تطويق وتدمير

التجميعات المدرعة الضخمة للعدو سيشغل الكثير من القوات ويضيع الكثير من الوقت، في حين كان الموقف يتطلب خروج القوات بأسرع ما يمكن إلى نهر الدنيبر. وانطلاقاً من هذه الاعتبارات ذاتها قام بزج الجيشين المدرعين (١ و ٥) في الموقعة لمجرد أن توغلت الجيوش الأخرى من مختلف الصنوف في دفاع العدو. وهنا أكملت الجيوش المدرعة خرق المنطقة التكتيكية وباشرت بتطوير الهجوم في العمق.

استطاعت الأركان العامة أن تحقق التمويه العملياتي بمهارة حسب اقتراح جوكوف. فعلى الجنب الأيمن لجبهة فورونيج جرى تقليد تحشد للتجميع الرئيسي لجبهة فورونيج. وحشد العدو على هذا الاتجاه تجميعاً مدرعاً، ساحباً إياه من اتجاه الضربة الرئيسية على جبهة فورونيج.

عند تحضير عملية اريول الهجومية ضمن نطاق الجبهة الغربية وجبهة بريانسك طُبّق نظام مبتكر لا يتوقعه العدو في إجراء الهجوم المدفعي والانتقال إلى الهجوم العام. ففي العمليات الهجومية السابقة كانت القوات السوفييتية تتبع نمطاً واحداً. واعتاد العدو على أن الهجوم يبدأ من تمهيد مدفعي مدته (٥ر١ ـــ ٢) ساعة وأن التمهيد المدفعي يبدأ وينتهي بإطلاق صواريخ «الكاتيوشا». وهكذا بعد الصلية الختامية من المدفعية العديمة التراجع تغادر مشاة العدو على الفور مخابئها وتستعد لصد الهجوم. وفي عملية اريول ظلت المدفعية الثقيلة، بتوجيهات من ممثل هيئة القيادة العليا قبل بدء الهجوم، ترمي مدة (٤) ساعات لتخريب نقاط استناد العدو الأكثر تحصيناً. واختتمت أعمال المدفعية الثقيلة بصلية نارية قصيرة بدأ بعدها استطلاع قتالي بالكتائب المتقدمة. وتلقى العدو أعمال هذه الكتائب على أنها هجوم فاشل للقوى الرئيسية، وحين صد هجماتها كشف كل جهاز النيران الذي لديه. وفي اليوم التالي جرى تمهيد مدفعي لا يتجاوز الخمس دقائق وبعد ذلك استمر إبطال وتدمير الأهداف المكتشفة. وتحت تغطية نيران المدفعية تقدمت الدبابات والمشاة إلى خطوط الانطلاق للهجوم وبشكل مفاجئ اقتحمت دفاع العدو. وهذا ما أعطى الإمكانية لخرق دفاع العدو دون تكبد خسائر كبيرة. ومن خبرة هذه العملية صدرت توجيهات من هيئة القيادة العليا «حول الهجوم المدفعي» تنص على نبذ القوالب الجامدة والتنويع في طرائق إجراء التمهيد والدعم المدفعي للهجوم، وكذلك في طرائق انتقال الدبابات والمشاة إلى الهجوم.

لزيادة وتائر الهجوم كان يطلب جوكوف أن تستمر الأعمال نهاراً وليلاً، مرسلاً، في حالات عدة، وحدات محضرة مسبقاً للأعمال الليلية. وعلى وجه الخصوص فقد بدأ الاستيلاء على مدينة خاركوف بانقضاض ليلي قامت به القطعات الأمامية من جبهة السهوب.

وأكثر ما كان يميز هذه العمليات الهجومية أنها كانت تُجرى ضد تجميعات معادية متراصة جداً، وبناءً عليه امتازت الأعمال القتالية بالتوتر الهائل وكانت القوات تقتحم بصعوبة المقاومة العنيفة للعدو. ويمكن التوقع كما يقول غارييف، أنه لو لم ننهك ونستنزف مسبقاً دماء التجميعات الرئيسية للعدو في الموقعات الدفاعية لاصطدم هجومنا السابق صيف ١٩٤٣ بمصاعب أخرى كبيرة في حال تنفيذه. وهذا ما أكدته أيضاً العمليات الهجومية اللاحقة التي نفذتها الجبهة الغربية على اتجاه سمولنسك. ولهذا السبب ولبعض الأسباب الأخرى لم ينجح تطويق تجميع العدو في نتوء اريول وتدميره تدميراً كاملاً.

من الجدير بالذكر أن عملية الإنزال التي بدأها الحلفاء بتاريخ (١٠) تموز عام ١٩٤٣ في صقلية كان لها أيضاً تأثير معين على المجرى العام للأعمال الحربية في أوروبا. وعلى أقل تقدير لم تسمح للقيادة الألمانية بدفع كمية إضافية من الطيران إلى الجبهة السوفييتية الألمانية.

وعلى العموم، كان تفوق فن الحرب في مجرى ملحمة كورسك مهيباً للغاية. ها هو ذا المارشال جوكوف يوضح، على ضوء تحليله أعمال الطرفين صيف ١٩٤٣، مايلي:

«خلافاً للفترة الأولى من الحرب غدت القيادة الألمانية ثقيلة التفكير محرومة من روح الابتكار ولاسيما في المواقف المعقدة... وكان يُستشم من قراراتها فقدان التقديرات السليمة لإمكانات قواتها وقوات العدو. وكانت هذه القيادة كثيراً ما تتأخر في سحب تجميعاتها من تحت التهديد بالضربات الجانبية والتطويق، وبذلك كانت تضع قواتها في وضع لا مخرج منه. وبعد الهزيمة أمام ستالينغراد، لاسيما أمام قوس كورسك، اقتضى الأمر على الكوادر القيادية العليا للقوات الألمانية، نظراً لفقدان المبادرة، أن تصطدم بعوامل وأساليب جديدة في قيادة العملياتية الاستراتيجية للقوات لم تكن مستعدة لها. وبعد ما لاقته من صعوبات لدى الانسحابات الاضطرارية وتنفيذ الدفاع الاستراتيجي لم تتمكن قيادة القوات الألمانية من إعادة تنظيم نفسها». وبهذا الشكل فإن هجوم القوات الألمانية الفاشية صيف ١٩٤٣ مني بالهزيمة الساحقة. فهي لم تجرؤ، بعد ملحمة كورسك وحتى نهاية الحرب، على القيام ولا بهجوم ضخم واحد على المستوى العملياتي الاستراتيجي. وبعد ملحمة كورسك (١٩٤٣/٨/٧) كان مدير الدعاية النازية غوبلز مضطراً للاعتراف بمايلي: «ليس بمقدور الجيش الألماني الآن الانتقال إلى الهجوم، لذلك يبقى الدفاع مبدأه الأساسي...».

حقق الجيش الأحمر في هذه الملحمة انتصاراً رائعاً كان بمثابة نقطة تحول جذرية نهائية في مجرى الحرب بكاملها، واستخلص من خبرة ملحمة كورسك في مجال فن الحرب عبرة

من أكبر العبر وهي عدم جواز الإهمال في تقدير الدفاع على المستوى العملياتي ــ الاستراتيجي . فقد أشار جوكوف عن قناعة ، لدى إعداد وتنفيذ العمليات في ملحمة كورسك ، إلى أحقية وفائدة الاعتماد على الدفاع في ظروف محددة . مع ذلك وبالرغم من الثمن الغالي للخبرة المكتسبة والنضوج في تقويم أهمية الدفاع نرى القادة العسكريين السوفييت في سنوات ما بعد الحرب (مع ظهور السلاح النووي) ، يتوصلون من جديد إلى الاستنتاج التالي : وهو أن الدفاع على المستويين الاستراتيجي والجبهوي مستحيل في الظروف المعاصرة وهو لا يمكن تطبيقه إلا على المستوى التكتيكي ــ العملياتي . ولم ينبع مثل هذا الاستنتاج من الخبرة ولا من التحليل العلمي لطبيعة الصراع المسلح في المستقبل بل من آراء شخصية صرفة ، على افتراض أنه ، بعد الانتصار ، يمكن إظهار الشجاعة من جديد والاستخفاف بالقوانين الموضوعية لفن الحرب . ففي الطبيعة الدفاعية للعقيدة العسكرية الروسية التي تستبعد نهائياً إمكان بدء الأعمال الحربية في الأول ، يترتب على القوات في البداية الأولى للحرب (إذا لم تثمر الجهود بتلافيها) عند صد العدوان المحتمل ، أن تنفذ بشكل أساسي المهام الدفاعية . لذلك من المفضل التركيز على مسائل الدفاع بشكل جدي .

لكن الدروس المستفادة في عامي ١٩٤١ و ١٩٤٢ ، ومن نضوج الفكر الاستراتيجي الذي بلغته في ملحمة كورسك ، كما يقول الفريق غارييف ، تذكرنا مرة أخرى بوصية جوكوف حول التوفيق بين الهجوم والدفاع ، لا غرو فهذا قانون موضوعي من قوانين فن الحرب ، وكل إهمال للخبرة وللقوانين الموضوعية لن يقود إلى الفلاح .

الفصل الخامس

منسّق الضّربات السّاحقة

«كانت السمة المميزة له كنائب للقائد الأعلى، السعي دوماً إلى تعليم القادة والقوات فن دحر العدو بسرعة وبأقل خسائر ...».

(مارشال الاتحاد السوفييتي آ. م. فاسليفسكي)

في نهاية العام ١٩٤٣ كانت الكوادر القيادية السوفييتية قد حازت على أحدث الخبرات في الفن الاستراتيجي والفن العملياتي ـــ التكتيكي. وفَّر تنظيم العمليات الكبرى في الجبهات ومجموعات الجبهات وخوضها بنجاح، الإمكانية للقيادة العليا وللأركان العامة وللجبهات نفسها لأن تتفهم وتدرك بصورة أعمق الطرائق الأكثر فعالية لسحق تجميعات العدو بأقل الخسائر في القوى البشرية والوسائط المادية.

ارتقت مسائل التنظيم في الأركانات جميعاً، وتحسن أسلوب القيادة، واكتسبت الأركانات والقيادة المهارات في تحليل الموقف بشكل سريع وعميق.

أما بخصوص الفن الاستراتيجي والعملياتي ـــ التكتيكي لدى قيادة الجيش الألماني، فقد تدنى بشكل حاد بعد الكارثة التي حلت بها في منطقة ستالينغراد وكورسك.

قوّم جوكوف القيادة الهتلرية كمايلي: «أصبحت القيادة الألمانية ثقيلة التفكير مسلوبة الإبداع، لاسيما في الموقف المعقد، على نقيض ما كانت عليه في الفترة الأولى من الحرب. كما أخذت قراراتها تتصف بغياب التقديرات السليمة لإمكانات قوات الصديق والعدو، زد على ذلك أن القيادة الألمانية غالباً ما كانت تتأخر في سحب تجميعاتها لتقيها من خطر الضربات الجانبية والتطويق، مما يجعل هذه التجميعات في وضع ميؤوس منه». في أثناء محاكمة نورمبرغ، أشار محامي غورينغ (Goering) باصبعه إلى الفيلد مارشال باولوس الذي حضر

الجلسات كشاهد، وأكد بسخرية أن الفيلد مارشال قد ألقى محاضرة حول الاستراتيجية في الأكاديمية العسكرية العليا في موسكو أثناء وجوده في الأسر. فأجاب باولوس البالغ من العمر (٥٥) سنة وخريج الكلية الحربية القيصرية الألمانية: «من الواضح أن الاستراتيجية السوفييتية أعلى من استراتيجيتنا، إلى درجة أنني قد لا أفيد الروس حتى ولو مارست التدريب في مدرسة صف الضباط. وليس أدل على ذلك من مصير ملحمة ستالينغراد التي قادتني إلى الأسر».

إنها بصراحة تنم عن نكران كبير للذات! فقد كان المارشال باولوس من كبار القادة العسكريين في التاريخ[١]».

ارتبط نجاح الأعمال القتالية للقوات السوفييتية، في المرحلة الثانية من الحرب، بارتقاء الفن الاستراتيجي والعملياتي ــ التكتيكي للقيادة العسكرية السوفييتية وانسجام أعمال الأركانات. يتذكر جوكوف قائلاً: «أصبح العمل علينا جميعاً أخف وطأة وفهم بعضنا الآخر، الأمر الذي كان ينقصنا في السابق، وهذا كان له تأثير على المصلحة العامة».

ها هي ذي القيادة العليا ترسل جوكوف مرة تلو أخرى إلى قطاعات حاسمة من الجبهة لتنسيق أعمال مجموعات الجبهات في سحق القوات الألمانية الفاشية، وفي اللحظات الحساسة جداً كان، بتكليف من ستالين يتولى القيادة العامة للجبهات في آن واحد مع قيادة الجبهة العاملة على الاتجاه الرئيسي. فقد نفذت تحت قيادته أو تنسيقه أكبر عمليات الحرب العالمية الثانية لطرد الهتلريين من أراضي الاتحاد السوفييتي، وتحرير الأقطار الغربية من النير الفاشي، وسحق الوحش الكاسر في عرينه نهائياً. وكان الجنود السوفييت يقولون في سنوات الحرب: «حيثما حل جوكوف ــ فهناك الهجوم والنصر». خططت أكبر العمليات ونفذت تحت إشرافه مباشرة، وهي تدرس الآن في الأكاديميات العسكرية في العالم بعد أن اتسمت بدرجة عالية من النموذجية وسنتناول أهم هذه العمليات.

---

(١) بعد أن وقع الفيلد مارشال باولوس في الأسر... سمح له أن يبقى طليقاً في الاتحاد السوفييتي إذا أراد... وأتيح له ذلك بعد أن تأكد السوفييت أنه كان ينفذ تعليمات هتلر كجندي منضبط دون أن يكون قانعاً في قرارة نفسه بالحرب الظالمة التي تشنها الفاشية على العالم أجمع تقريباً. من هذا المنطلق جاءت شهادته في محكمة نورمبرغ.

١ ــ في معارك تحرير أوكرانيا

في (٢٥) آب ١٩٤٣، بعد انتهاء ملحمة كورسك، استدعي جوكوف إلى القيادة العليا لمناقشة الموقف والمهام اللاحقة لهجوم القوات السوفييتية المنتشرة على جبهة عريضة، بعد سحق القوات الألمانية على قوس كورسك. وافق المارشال جوكوف على استنتاجات الأركان العامة بأن ألمانيا أصبحت الآن غير قادرة على خوض أي هجوم كبير. إلا أن العدو لا يزال يتمتع بقوى ووسائط مادية كافية من أجل تنفيذ أعمال دفاعية نشطة. كما نقلت القيادة العامة الألمانية من الغرب خمساً وسبعين فرقة وكمية كبيرة من العتاد القتالي والأسلحة والوسائط المادية بهدف تقوية ذاتها. وسرعان ما توضع كل ذلك على «السد الشرقي»، الذي أعلن الهتلريون بأنه الخط الذي سيتحطم عليه الجيش الأحمر. وفي واقع الأمر، فإن ضفة الدنيبر الغربية العالية التي جرت أعمال تحصينات «السد الشرقي عليها»، مكنت النازيين من تنظيم دفاع منيع. وما أن وصل هتلر إلى أركان مجموعة جيوش «الجنوب»، حتى أمر بالقتال من أجل الدنيبر حتى آخر رجل، والتشبث به مهما كان الثمن.

خطب هتلر في اجتماع الحزب النازي في برلين معلناً بصوت جهوري: «.... سرعان ما ستجري مياه الدنيبر باتجاه معاكس، قبل أن يستطيع الروس اجتيازه، وهو العائق المائي الضخم الذي يبلغ عرضه ٧٠٠ ــ ٩٠٠ متر والذي يشكل بضفته اليمنى ذات الموانع المتراصة التي يصعب تخطيها، قلعة حصينة طبيعية».

إلا أن الروس لم يضيعوا الوقت، فقد طلب ستالين تطوير الهجوم فوراً كيلا يتاح للعدو أي وقت لتنظيم الدفاع على المشارف المؤدية إلى الدنيبر. وفهم الجميع أهمية الاقتحام الناجح للدنيبر، فهو يؤمن شروطاً ملائمة لتحرير القرم وحوض الدون والضفة اليمنى من أوكرانيا.

لكن كيف يمكن للجيش الأحمر أن يصل بسرعة إلى النهر العظيم ليقتحمه من الحركة؟ اقترح القائد الأعلى شن هجوم على جبهة عريضة مع توسيع الضربات الأمامية الجبهية. إلا أن جوكوف لم يشاطر ستالين بهذا الرأي. إذ كان يرى إمكانية خوض عملية لقطع دابر تجميعات معادية كبيرة وتطويقها على الضفة اليسرى من أوكرانيا في منطقة حوض الدون وبذلك تتشكل الظروف المواتية لقطع دابر التجميع الكبير المعادي في القرم.

على الرغم من فائدة مثل هذه العملية، فإن ستالين لم يوافق على إجرائها قائلاً: «مهمتنا طرد الألمان بأسرع ما يمكن من أراضينا، ثم نطوقهم بعد أن يدب فيهم الوهن» وقد

أشار جوكوف إلى هذا الكلام في مذكراته باقتضاب قائلاً : « عبثاً لم نصر على اقتراحنا . كان علينا أن ندافع بحزم عن وجهة نظرنا . فقواتنا كانت قادرة حينذاك على تطويق العدو وتدميره بآن واحد » . واعتباراً من نيسان كان جوكوف يتحرك باستمرار جواً أو في رحلات على طرقات الجبهة : « أذهب إلى الجيوش ، ولا أحب المكوث في عربات القطار ، فطبيعتي على ما يبدو هكذا ، فأنا مولع بالميدان والقوات ، كالسمك في الماء » . هذا ما كتبه من الجبهة في إحدى رسائله إلى عائلته .

أحصى سائق جوكوف المسافات التي قطعها معه فبلغت (١٧٥ر٠٠٠) كم . زد على ذلك أن جوكوف لا يسافر فقط مع هذا السائق . فقد قطع أيضاً مئات من ساعات الطيران ، كتب جوكوف عن ذلك : « أتلفت ثلاث طائرات كأنها أحذية » . كان الموقف في ذلك الوقت معقداً ومتوتراً إلى حدٍ كبير ، يحمل في طياته بذور النجاح الكبير والفشل المضني إلى أقصى الحدود . يتذكر جوكوف ذلك قائلاً : « أضف إلى ذلك قلة النوم وإجهاد الجسم والذهن ، وهذا ما اتضح أثناء وجودنا في موسكو ، على وجه الخصوص ، حيث الغرف هادئة لا يسمع فيها ضجيج طائرات ولا قصف مدفعية ولا تقارير مثيرة من قطاعات خطرة في الجبهة .

ها هو ذا المارشال جوكوف يطير ثانية في اليوم نفسه ، بعد انتهاء الاجتماع في القيادة العليا ، إلى منطقة الأعمال القتالية في الجبهات المعنية ، حيث كان يجب طبقاً لتوجيه القيادة العليا ، متابعة الأعمال القتالية النشطة لاقتحام « السد الشرقي » الألماني السيئ الصيت . وكان يعرف بأن القوات متعبة منهكة والدبابات قليلة تشكو دوماً النقص في الذخيرة . وكان لا بدّ من الهجوم وطرد العدو من ضفة أوكرانيا اليسرى واقتحام نهر الدنيبير . كتب جوكوف في مذكراته : « لم تكن الإمكانات متوفرة لدينا من أجل التحضير الدقيق للهجوم على الدنيبير ، فقوات الجبهتين تشعر بتعب شديد من الموقعات المتواصلة . زد على ذلك عدم الانتظام في التأمين المادي والفني ، إلا أننا جميعاً من الجندي وحتى المارشال كنا نتوق إلى طرد العدو من أرضنا بأسرع ما يمكن » .

عندما ننطق بكلمة « يجب ! » نكون في واقع الأمر قد أعطينا أجنحة للقوات السوفييتية : هذه كانت إجابة المارشال روكوسوفسكي على طلبات القادة . وقد قال المارشال عن جوكوف « ... القضية والواجب هما أعلى شيء بالنسبة له » .

سرعان ما جاءت نقطة التحول ، ليس بوصول التعزيزات إلى الجبهة فحسب ، بل نتيجة الانتعاش المعنوي الذي عم القوات أيضاً . ولما لم يكن لدى الألمان ما يكفي من القوى

للصمود أمام الضغط المتزايد للقوات السوفييتية ، فقد بدأتِ قواتهم بالانسحاب إلى ما وراء الدنيبير .

طلب جوكوف من قادة الجبهات والجيوش اتخاذ جميع التدابير اللازمة لاقتحام هذا العائق المائي الكبير على أعقاب القوات الألمانية المنسحبة مباشرة . وأصدر التوجيهات على وجه الخصوص لإنشاء طلائع في التشكيلات للنفوذ إلى طرقات المؤخرة والاستيلاء والتشبث بالخطوط التي قد تحتلها القوات الألمانية المنسحبة من أجل الأعمال الدفاعية .

في (٢٠) أيلول رفع جوكوف إلى القيادة العليا خطة بالتدابير المتخذة من أجل اقتحام الدنيبير ، كان أهمها الاستيلاء السريع على معابر نهر الدنيبير . ولهذا الغرض شكلت طلائع من كل جيش بقوام قطعات من الدبابات والمشاة المحمولة والمدفعية والهاون . كانت تنحصر مهمة هذه الطلائع المتحركة بتجنب الاشتباك في قتال مع قطعات تغطية العدو ، ومن ثم الالتفاف حول مفارز مؤخرته والاندفاع بشكل حثيث نحو النهر سعياً للاستيلاء على الجسور والمعابر .

وهكذا باقتحام نهر الدنيبير ، وهو الأول بين العوائق المائية الكبيرة ، التي كان على القوات السوفييتية المهاجمة أن تعبره في سنوات الحرب ، تم وضع أسس تكتيك أعمال الطلائع على يد المارشال جوكوف . إذ استخدمت الطلائع بعد ذلك على نطاق واسع عند اقتحام عوائق مائية كبيرة مثل الفيسلا والاودر ، ناهيك عن الأنهار الأخرى الكبيرة والصغيرة . وبعد تعميم الخبرة المتراكمة ، أدخل تكتيك أعمال الطلائع في أنظمة القتال ، وهو لا يزال قائماً إلى يومنا هذا بعد إدخال تغييرات وإضافات مناسبة حسبما تقتضيه الظروف الحديثة .

كانت الروح المعنوية لدى القوات السوفييتية عالية إلى درجة أن أكثر القادة حزماً قد شرعوا باقتحام النهر تحت جنح الظلام وأحياناً في وضح النهار . وعلى الرغم من تأخر وصول وسائط العبور النظامية ، اندفع تيار القوات نحو الضفة اليمنى مستخدماً المتوفر من عوامات وقوارب صيد ، ومن الطبيعي أن تكون المغابر محضرة على عجل . وفي بعض الأماكن استطاع العدو أن يصد الاقتحام ، ناهيك عن قيامه أحياناً بهجمات معاكسة ضارية مكنته من القضاء على بعض رؤوس الجسور . إلا أن الهتلريين لم يستطيعوا التمسك بـ « الحاجز الشرقي » فقد عبرت القوات السوفييتية ، الدنيبير ضمن قطاع (٧٠٠) كم واستولت على عدد من رؤوس الجسور الهامة التي استخدمت من أجل تطوير الهجوم لاحقاً .

تمتع رأس الجسر الكبير جنوب كييف بأهمية كبيرة ، إذ وفر إمكانية مواتية لتحرير عاصمة أوكرانيا ـــ كييف القديمة ، بتوجيه ضربة نحو الشمال على طول الدنيبير . وما أن شعرت القيادة الألمانية بالخطر الجاثم فوق تجميع كييف حتى استقدمت الاحتياطات الكبيرة إلى هنا . ماذا نفعل؟ أنهاجم ، لقد كان من الممكن أن نهاجم ، طالما أن القيادة السوفييتية كانت متفوقة على العدو بالقوى . غير أن هذا الهجوم كان مقروناً بمعارك دامية كبيرة . فقد تكبدت القوات السوفييتية خسائر جسيمة في هجوم امتد ثلاثة أشهر متواصلة . هنا قرر جوكوف القيام بمناورة جريئة : إذ ترك الاتجاه الهام للأعمال المساعدة ، ليوجه الضربة الرئيسية من رأس الجسر شمال كييف ، حيث أضعفت القيادة الألمانية جبهتها بعد أن نقلت قسماً من القوى إلى منطقة جنوب كييف حيث توقعت الضربة الرئيسية . إلا أنه لتنفيذ هذه الفكرة كان ينبغي نقل القوى الضاربة (جيش مدرع وفيلق مدفعية الخرق) من رأس الجسر الجنوبي إلى رأس الجسر الشمالي . وهذا يعني القيام بمناورة على مسافة مئتي كيلو متر على طول الدنيبير ، أي على طول جبهة العدو وتحت أنظاره ! .

بعد إجراء الحسابات والمناقشات تم التوصل إلى استنتاج بأن إعادة تجميع القوات ممكن ! ورفعت الخطة الجديدة لتحرير كييف إلى القائد الأعلى للمصادقة . وبعد الإطلاع عليها في الأركان العامة تمت المصادقة على الخطة .

في (٢٥) تشرين الأول بدأت إعادة التجميع واتخذت كل إجراءات التمويه والتضليل اللاسلكي . ومن أجل لفت انتباه العدو نحو رأس الجسر الجنوبي ، نفذت القوات هناك أعمالاً نشطة ، زد على ذلك تدابير التضليل بالمعلومات . وهكذا لم تكتشف القيادة الألمانية إعادة تجميع الجيش المدرع وفيلق المدفعية ، وظلت تتوقع الضربة الرئيسية للقوات السوفييتية من رأس الجسر الجنوبي .

من أجل تضليل العدو نهائياً فيما يتعلق بالضربة الرئيسية ، والإبقاء على القوات الألمانية في منطقة الجسر الجنوبي ، شنت قوات الجبهة ضربة مساعدة في (١) تشرين الثاني على هذا الاتجاه . وظنت القيادة الألمانية أن هذه الضربة هي الرئيسية فدفعت إلى هنا فوراً قوى إضافية منها فرقة دبابات اس . اس « رايخ » وهي الاحتياط الشخصي للفيلد مارشال مانشتاين ، وهذا ما كان يصبو إليه المارشال جوكوف . وبعد يومين من الضربة المساعدة أي في (٣) تشرين الثاني ، شنت القوات السوفييتية ضربة مفاجئة نحو كييف من رأس الجسر الشمالي . وقبيل صباح (٦) تشرين الثاني أصبحت كييف محررة .

أبرزت عملية تحرير كييف موهبة جوكوف الاستراتيجية ، وقدرته الدائمة على إيجاد القرار الصحيح الوحيد الذي لا يتوقعه العدو ، وسعيه للانتصار على العدو بأقل خسائر .

استمرت عملية القوات السوفييتية لتحرير أوكرانيا . ونتيجة لتحليل الموقف بعمق ومن الجوانب كافة ، قررت هيئة القيادة العليا تنفيذ العمليات الهجومية الرئيسية ضمن إطار الحملة الشتوية لعام ١٩٤٤ على المسرح الجنوبي ــ الغربي للأعمال الحربية . وذلك من أجل تحرير ضفة أوكرانيا اليمنى وبلاد القرم قبل كل شيء . وإلى هناك بالذات أرسل المارشال جوكوف لتنسيق أعمال الجبهتين الأوكرانيتين الأولى والثانية .

أثناء التعرف بالتفصيل على الموقف ميدانياً ، لفت انتباه جوكوف قبل كل شيء وجود نتوء على خط الجبهة في منطقة كورسون ــ شيفتشنكو يلامس برأسه نهر الدنيبير بالذات ، بينما تمتد قاعدته إلى جانبي القوات الألمانية . وكان يدافع على هذا النتوء تجميع قوي إلى حد كبير يضم (١٠) فرق ، يطل على جوانب الجبهتين الأوكرانيتين الأولى والثانية ويسلبهما إمكانية تنفيذ العمليات الهجومية التالية . يمتد النتوء من الغرب إلى الشرق (٢٧٥) كم بينما يبلغ عرض قاعدته (المحصورة بين الجبهتين الأوكرانيتين الأولى والثانية) (١٣٠) كم .

اختمرت لدى جوكوف خطة تدمير هذا التجميع وهي القيام بضربتي تلاقي تشنهما الجبهتان على قاعدة النتوء ، ومن ثم قطع تجميع كورسون ــ شيفتشنكو وتطويقه وسحقه .

على الرغم من معرفة جوكوف بأن ستالين لعدة أسباب لا يثق تماماً بنجاعة الاستخدام الأكثر حسمية لعمليات تطويق العدو ، فقد أطلع القائد الأعلى على تصوراته . لكن ستالين صادق على الخطة بعد أن قال : « الآن أصبحنا أقوى ، وقواتنا أصبحت أكثر خبرة ، فالآن فقط نحن قادرون بل من واجبنا تنفيذ عمليات لتطويق القوات الألمانية » .

كان جوكوف ، الذي يتمتع بخبرة في تحضير وتنفيذ عمليات التطويق (خالخين ــ غول ، موسكو ، ستالينغراد) يدرك مدى صعوبة العملية المقبلة . فكان لا بدّ من القيام بإعادة تجميع لإنشاء تجميعات ضاربة ، بغية تأمين تفوق بعدة مرات بالقوى ولاسيما بالمدفعية والدبابات على الاتجاهات الرئيسية . وفي هذا الوقت حل موسم التوحل قبل أوانه وتساقطت الثلوج وامتلأت الطرقات بالوحل . إلا أن جوكوف لم يكن معتاداً على التخلي عن القرارات المتخذة ، وكان لا يجوز التأخير ببدء العملية . فتابع المارشال تنفيذ خطة تحضير العملية بدأب ، ساعياً لإيجاد الحلول في أعقد المواقف . « ولإنشاء الحد الأدنى الضروري من مخزونات قذائف المدفعية والهاون ووقود الدبابات كان علينا أن ننظم إحضارها على ظهر الثيران وعلى النقالات ، وبالأكياس ، أي كل حسب استطاعته . وقد أبلى سكان القرى الأوكرانية بلاء حسناً في هذا المضمار » ــ هذا ما كتبه جوكوف في مذكراته عن صعوبة تلك الأيام .

بفضل عزيمة المارشال جوكوف وقيادة الجبهة وجهود الجنود السوفييت والسكان المحليين ، تم تحضير العملية في الموعد المحدد بالرغم من شروط الطقس الرديئة . بدأ الهجوم ذو الفكرة الرائعة في (٢٤) كانون الثاني ١٩٤٤ . وما أن أطبق فكا الكماشة على ظهر التجميع الهتلري في نتوء كوروسون ــ شيفتشنكو بعد أربعة أيام حتى وقعت عشرات الفرق المعادية في التطويق . وتم تدميرها بالجهود المشتركة للجبهتين الأوكرانيتين الأولى والثانية ، بغض النظر عن المحاولات العديدة التي بذلتها القيادة الألمانية لاختراق جبهة التطويق بضربات متلاقية من الداخل والخارج .

خسرت القوات الألمانية في هذه المعارك (٥٥) ألف قتيل و (١٨) ألف أسير . وكان بينهم أسرى تعرفوا على قائدهم الجنرال شتيمرمان الذي كان هتلر قد أرسل إليه برقية : « يمكنكم الاعتماد علي كالجدار الحجري . ستحررون من الحصار ، عليكم بالصمود » .

في أمر القائد الأعلى ، سمى ستالين هذه العملية الجريئة في فكرتها والمتألقة في تنفيذها « عملية ستالينغراد الجديدة على ضفة الدنيبر اليمنى » .

عند تحليل العملية المنفذة رأى جوكوف أن المفاجأة كانت أحد أسباب النجاح . فقد اعتقدت القيادة الألمانية أن القوات السوفييتية لا تستطيع أن تهاجم في مثل هذه الشروط ، مما يتيح لها وقتاً كافياً لإعادة تجميع القوى وتعزيز الدفاع . وقد أراد جوكوف على أساس هذا الاعتقاد غير المعلل أن يقتنص العدو مرة أخرى . موجهاً له عدة ضربات ساحقة . ويشرح المارشال جوكوف خططه للعمليات اللاحقة في أوكرانيا قائلاً : « ... لقد قررنا ثانية الاستفادة من المفاجأة العملياتية التي هي الآن مستوعبة تماماً في الفن العملياتي ــ التكتيكي السوفييتي » .

بهذه التصورات طار جوكوف إلى موسكو وأطلع القائد الأعلى على خطة تطوير هجوم الجبهتين الأوكرانيتين الأولى والثانية وهي : شق الجبهة الاستراتيجية المعادية بضربتين متلاقيتين والوصول إلى التلال عند سفوح الكربات ، ونتيجة لذلك سيتم تحطيم مجموعة جيوش (الجنوب) ، وتصبح المجموعة الجنوبية للجيوش (آ) بكاملها معزولة عن القوى الرئيسية ، وسيضطر هتلر إلى إمدادها بطريق مطول بعيد عبر هنغاريا . وبعد أن صادق ستالين على هذه الفكرة الهامة ، أمر بالبدء بالهجوم دون إضاعة أي وقت . ويوفد جوكوف ثانية لتنسيق أعمال الجبهتين الأوكرانيتين الأولى والثانية لتنفيذ أفكاره .

غير أن هذه المرة لم يكن عليه تنسيق هجوم هاتين الجبهتين فحسب ، بل وقيادة إحداهما على التوازي أيضاً . إذ جرح قائد الجبهة الأوكرانية الأولى الفريق ن . ف . فاتوتين جراحاً مميتة ، فتولى المارشال جوكوف فوراً قيادة الجبهة في خضم تنفيذ العملية .

لإنشاء تجميع ضارب قوي كان ينبغي نقل جيشي الدبابات من الجناح الأيسر للجبهة إلى الأيمن، حيث خططت الضربة الرئيسية، وكان على الجيشين أن يقطعا مسافة (٢٠٠ ـــ ٣٥٠) كم خارج الطرقات في شروط التوحل الربيعي أمام جبهة العدو.

اتخذ قائد الجبهة جميع التدابير لصالح التمويه العملياتي، متوقعاً أن عدوه سيكون من جديد الفيلد مارشال مانشتاين الذي لا يزال يعتبر استراتيجياً بارزاً في الفيرماخت على الرغم من الضربة القوية التي تلقاها في ستالينغراد وكورسك.

نفذت خطة إعادة التجميعات في موعدها، بغض النظر عن كل الصعوبات. إذ لم يكتشف استطلاع العدو إعادة التجميعات هذه المنفذة أساساً تحت جنح الليل، وفي النهار ـــ في الطقس الشتوي.

اخترقت قوات الجبهة بقيادة المارشال جوكوف دفاع العدو بضربة مفاجئة، وفي الفرجة المتشكلة تم زج جيشي الدبابات اللذين تغلبا على مقاومة العدو وتقدما بصورة حثيثة في عمقه العملياتي لملاقاة قوات الجبهة الأوكرانية الثانية المهاجمة.

بعد أن شعر الفيلد مارشال مانشتاين بخطر وقوع كل تجميعه في التطويق، زج خمس عشرة فرقة إضافية ضد تجميع المارشال جوكوف الضارب. كتب جوكوف: « دارت موقعة مريرة لم نشهد مثلها منذ أيام قوس كورسك ». حاول مانشتاين خلال ثمانية أيام طرد القوات السوفييتية وإعادتها إلى قاعدة انطلاقها في محاولة لإنقاذ سمعته دون طائل. وبعد إنهاك وإدماء القطعات الألمانية القائمة بالضربة المعاكسة، تمكنت القوات السوفييتية من القضاء على مقاومة العدو، وبعد معارك قاسية استمرت شهراً أصبح تجميع العدو الذي يضم (٢١) فرقة مطوقاً على وجه العموم، ومن ثم مدمراً بالكامل تقريباً.

تم أثناء العملية تحرير (٣٥٠) كم من الأراضي السوفييتية، كما نشأت فجوة كبيرة، وكان على القيادة الألمانية، من أجل إغلاق هذه الفرجة أن تزج بقوات من قطاعات أخرى من الجبهة. وكذلك من فرنسا ويوغوسلافيا والنروج والدنمارك. هنا فقد هتلر صوابه، إذ كيف يمكن أن يحدث ذلك!

أفل نجم مانشتاين إلى غير رجعة. وفي آذار ١٩٤٤ أبعده هتلر عن قيادة القوات وأحاله إلى المعاش.

منح مارشال الاتحاد السوفييتي جوكوف الوسام القيادي السامي « بوبيدا » أي « النصر »، نظير خدماته الاستثنائية. وكان الوسام الذي سلم إليه يحمل رقم واحد.

٢ ــ تحرير روسيا البيضاء

ما كادت المعارك تخمد من أجل القضاء على التجميعات الألمانية المطوقة على ضفة أوكرانيا اليمنى حتى استدعي جوكوف مرة أخرى في (٢٢) نيسان ١٩٤٤ إلى هيئة القيادة العليا. وكان الموضوع الآن مناقشة الحملة الصيفية ــ الخريفية لعام ١٩٤٤.

طرح المارشال جوكوف أمام ستالين تصوراته حول خطة الحملة الصيفية لعام ١٩٤٤، ولفت انتباهه إلى التجميع الموجود في روسيا البيضاء. فما الذي جذب انتباه جوكوف إلى هنا؟ كانت الجبهة الألمانية تدور حول منسك بقوس كبير، مما جعل جوكوف يعتقد بأن توضع قوات مجموعة جيوش «الوسط» ببروزها إلى جهة القوات السوفييتية قد هيأ شروطاً ملائمة للقيام بضربات إحاطة عميقة عند قاعدة البروز، وبالتالي توجيه ضربتين متلاقيتين نحو الجانبين وتطويق ثم تدمير تجميع جيش «الوسط» تماماً، والذي بسحقه ينهار استقرار الدفاع الألماني على الاتجاه الاستراتيجي الغربي بكامله. يستشم من افتراضات جوكوف هذه أسلوبه في عمليات التطويق الكبيرة التي نفذها بنجاح عند ستالينغراد وكورسون شيفتشنكو.

غير أن ستالين كان يشك في مدى نجاعة تنفيذ العملية عند نتوء روسيا البيضاء. فما هي حججه؟ أولاً لم تكن الأرض المليئة بالغابات والمستنقعات لتسمح باستخدم تجميعات كبيرة من الدبابات التي بدونها لا يمكن تنفيذ الإحاطة الحثيثة بالتجميع الألماني. ثانياً كان التجميع الأوسط للقوات الألمانية أقوى التجميعات، ففيه (٦٣) فرقة، (١ر٢) مليون رجل، (٩ر٥) ألف مدفع، (٩٠٠) دبابة ومدفع اقتحام، (١٣٥٠) طائرة. كانت القدرة على تنفيذ العملية لتطويق مثل هذا التجميع في شروط أرض الغابات والمستنقعات الصعبة موضع شك في نجاحها. لذلك قال ستالين: «أليس من الأفضل أن نبدأ عملياتنا بالجبهة الأوكرانية الأولى، كي نستطيع الإحاطة بالتجميع بصورة أعمق واستدراج احتياطات العدو إلى هناك من الاتجاه الأوسط؟».

فهم جوكوف الذي كان قد وصل لتوه إلى الجبهة الأوكرانية الأولى، بأن القيادة الهتلرية تشعر بشدة الخطر على الرايخ ــ إذ أن الخطر يقبع حيث يكون الجيش الأحمر أقرب ما يمكن من ألمانيا. فحالما تقترب الجبهة الأوكرانية الأولى إلى أقرب حد، فإن هتلر سيأمر بتجميع قوى كبيرة في تلك البقعة. فإذا استأنفنا الهجوم في المنطقة واستولينا على أي مكان حتى نهر الفيسلا نكون أخذنا بيد الألمان ودخلنا معهم منذ البداية في معارك ضارية. وهذا يعني وقوع خسائر جسيمة لقاء نجاح ضئيل. لذلك يجب توجيه ضربات غير متوقعة وكسب المعارك

بأقل خسائر بالاستفادة القصوى من عامل المفاجأة. ولما كانت القيادة الألمانية لا تتوقع الضربة في روسيا البيضاء، إذن يجب توجيهها هنا. وما دام العدو يستعد في أوكرانيا لصد الهجوم يجب القيام بتدابير التمويه على هذا الاتجاه، حتى يتأكد من جدوى تصوراته أكثر فأكثر.

أما بخصوص شروط الهجوم في روسيا البيضاء، فقد كانت فكرة جوكوف عنها تمتلئ بتصورات عميقة. إذ أن الهتلريين استطاعوا إنشاء دفاع قوي في روسيا البيضاء بعمق (٢٥٠ ــ ٢٧٠) كم. غير أن جوكوف اعتقد بأن نقطة الضعف في هذا الدفاع تنحصر بوجود الكتلة الأساسية من القوات والبالغة (٥٢) فرقة ــ في مجال المنطقة التكتيكية. إذ أن مجموع ما في الاحتياط هو (١١) فرقة وهي منشغلة في الوقت نفسه بالصراع ضد حركة أنصار شعب روسيا البيضاء. ولم تكن الخطوط الدفاعية في المؤخرة محضرة بكاملها كما أنها لم تكن محتلة بالقوات. ويرى جوكوف أن مثل هذه الأخطاء في بنية الدفاع التي ارتكبتها القيادة الألمانية قد هيأت الإمكانية لتحطيم قوى العدو الأساسية في الأيام الأولى من العملية بعد توجيه الضربة القوية، ومن ثم تطوير الهجوم الحثيث على عمق كبير.

عند استثمار النجاح في العمق العملياتي بمجموعات الدبابات المتحركة، لم يشك جوكوف بالقدرة على الفوز، بالرغم من الشروط الصعبة في أرض الغابات والمستنقعات. وبهدف العمل الناجح للتشكيلات المدرعة العملياتية الكبيرة اقترح جوكوف زجها في الموقعة بعد اجتياز المنطقة التكتيكية للدفاع وليس على غرار العمليات السابقة، حين كان يتم الزج بعد إكمال خرق الدفاع. وقد ساعد ذلك في الحفاظ على قوى المجموعات المتحركة. وأمن عملها في مؤخرة العدو بفعالية أكبر نظراً لأنها لن تصطدم بمقاومات خطيرة، لعدم وجود احتياطات قوية معادية. وقد هيأ شروطاً مواتية من أجل تقدمها ومناورتها في أرض صعبة الاجتياز.

دعم آ. م. فاسيليفسكي ورئيس الأركان العام آ. ي. أنطونوف خطة جوكوف المتعلقة بتوجيه الضربة الرئيسية للجيش السوفييتي في روسيا البيضاء. وبعد مناقشة الخطة اتخذ القائد الأعلى القرار التالي: تبدأ الحملة الصيفية بضربات على الاتجاه الشمالي بغية جذب أكثر ما يمكن من الاحتياطات الاستراتيجية المعادية، ومن ثم خوض العملية على الاتجاه الاستراتيجي لروسيا البيضاء. بينما تمثل على الاتجاه الجنوبي في أوكرانيا أعمال تحضير لضربة رئيسية للقوات السوفييتية في الحملة الصيفية ١٩٤٤.

لخوض عملية روسيا البيضاء الاستراتيجية التي أطلق عليها تسمية «بغراتيون» اشتركت أربع جبهات: جبهة البلطيق الأولى، جبهات روسيا البيضاء الثالثة والثانية والأولى.

جرى وضع الخطط لمثل هذه العملية الكبرى على التوازي في الأركان العامة وفي أركانات الجبهات تحت إشراف جوكوف كنائب للقائد الأعلى.

طبقاً لحسابات الأركان العامة وبهدف تسهيل عملية «بغراتيون» كان ينبغي الإمداد بـ(٤٠٠) ألف طن من الذخائر، (٣٠٠) ألف طن من الوقود، (٥٠٠) ألف طن من التعيينات والعلف.

كان ينبغي تحشيد (٥) جيوش مشتركة وجيشين مدرعين وجيش جوي واحد، و (٥) فيالق دبابات وفيلقين ميكانيكيين و (٤) فيالق خيالة، و (١٠) أفواج وألوية مستقلة من صنوف القوات كافة في المناطق المطلوبة.

كل ذلك كان يجب تنفيذه بحذر شديد حتى لا ينكشف أمر تحضير الجبهات للهجوم، سيما وأن معطيات الاستطلاع السوفييتي تفيد بأن القيادة العامة للقوات الألمانية كانت تتوقع الضربة الصيفية الأولى في أوكرانيا. بالإضافة إلى ذلك أسندت لقيادة الجبهة الأوكرانية الثالثة مهمة تمثيل حشد قوى كبيرة من أجل الهجوم على الجناح الجنوبي من الجبهة السوفييتية ـــ الألمانية. كما قام الطيران البعيد المدى في فترة تحضير العملية بتوجيه ضربات قوية على أهداف هامة من مطارات في أوكرانيا، الأمر الذي أكد أيضاً مسألة تحشيد القوى الأساسية للجيش السوفييتي في الجنوب. تلقت القيادة الألمانية هذا التمثيل على أنه نوايا حقيقية، معتقدة بأن ما لاحظه الاستطلاع الألماني حول التحركات العسكرية نحو القطاع الأوسط من الجبهة هو مجرد تضليل من جانب القيادة السوفييتية. وكان ذلك من الأخطاء الاستراتيجية الجدية للقيادة العامة الألمانية التي وقعت في الفخ المنصوب لها.

تناولت خطة «بغراتيون» التي وضعت مباشرة تحت إشراف جوكوف مسألة اختراق دفاع العدو على ستة قطاعات في وقت واحد، بغية تقطيع أوصاله وتقسيم قواته إلى أجزاء، ووجهت حينذاك الضربات الرئيسية على الاتجاهات المتلاقية ضد الجوانب بهدف إحكام الطوق حول تجميع روسيا البيضاء الألماني بأكمله في منطقة مينسك.

كانت العملية في واقع الأمر هائلة بفكرتها وأبعادها. فهي نموذج لتحضير وخوض عملية هجومية استراتيجية بأهداف حاسمة. وقد نفذت باشتراك جميع أنواع القوات المسلحة السوفييتية تقريباً على نطاق بلغت جبهته (١١٠٠) كم وعمقه حتى (٦٠٠) كم، وبوتيرة هجوم متوسطة تزيد على (٢٥ ـــ ٣٠) كم. كما اشترك فيها من الجانبين (٣ر٦) مليون فرد و (٣٦) ألف مدفع وما يزيد على (٦) آلاف دبابة و (٦ر٦) ألف طائرة.

عند تنفيذ فكرة جوكوف الهادفة إلى توجيه ضربة قوية على اتجاهات مختارة واختراق المنطقة التكتيكية بصورة حثيثة، عملت الجبهات على التخطيط لتحشيد قوى ووسائط لم يسبق لها مثيل على اتجاهات الضربة الرئيسية. بلغت الكثافة على قطاعات الخرق حتى فرقة واحدة على (٥ر١ — ٢) كم من الجبهة وحتى (١٥٠ — ٢٠٠) مدفع و (٢٢ — ٢٦) دبابة ومدفع ذاتي الحركة على (١) كم من الجبهة. وعلى الرغم من أن العرض العام لقطاعات الخرق المختارة لم يتجاوز (١٥٪) من كل نطاق هجوم الجبهات الأربع، فقد تمركز عليها (٨٠٪) من إجمالي القوى.

تشهد هذه الأرقام بصورة مقنعة على درجة المخاطرة وعلى المستوى العالي الذي بلغه فن الحرب لدى قادة وأركانات القوات السوفييتية في مجال تطبيق المبادئ المتعلقة بحشد القوى على الاتجاهات الرئيسية.

ومن أجل التحضير المباشر لقوات الجبهات للهجوم وتنسيق التنفيذ أرسل ستالين مارشال الاتحاد السوفييتي جوكوف بمهمة تنسيق أعمال الجبهتين الأوكرانيتين الأولى والثانية (ضربة من الجنوب)، والمارشال فاسيليفسكي لتنسيق أعمال الجبهة الأوكرانية الأولى وجبهة روسيا البيضاء الثالثة (ضربة من الشمال).

عند العمل ضمن قوات الجبهات لتنسيق أعمالها، أولى المارشال جوكوف انتباهاً خاصاً لدراسة الأرض بدقة واستطلاع منظومة دفاع العدو، على كامل عمقه التكتيكي، بهدف الاختيار الصحيح لاتجاهات الضربات الرئيسية للجبهات. تم اختيار اتجاه الضربات الرئيسية آنئذ بشكل يحقق المفاجأة في الأعمال. وعلى سبيل المثال اختير اتجاه لشن الضربة الثانوية للجبهة الأوكرانية الأولى على قطاع أرض تكثر فيها المستنقعات حيث لا يملك العدو سوى دفاع بؤري. ناهيك عن عدم توقعه ضربة من جانب القوات السوفييتية.

بغية معالجة مسائل تعاون التشكيلات المهاجمة، قام جوكوف وقائد الجبهة بتنفيذ دروس حول أداء العملية المقبلة، مع قيادة وأركانات الجيوش العاملة على اتجاهات الضربات الرئيسية. استدعي قادة الفيالق والفرق والمدفعية ورؤساء صنوف قوات الجيوش للمشاركة في لعب أدوارهم أيضاً. تم أثناء هذه الدروس معالجة مهام تشكيلات المشاة والدبابات وخطة أعمال المدفعية والتعاون مع الطيران بالتفصيل. وركز الانتباه الرئيسي على الدراسة الدقيقة لخصائص طبيعة الأرض وتنظيم دفاع العدو وأساليب خرقه بأسرع ما يمكن.

ساعد كل ذلك إلى حد كبير على نجاح الهجوم. لم يتكلم جوكوف في هذه الدروس كنائب للقائد الأعلى فحسب، بل كمدرب ومرشد أيضاً، مشيراً إلى جميع أخطاء القادة،

معطياً النصائح والتوصيات الضرورية لسحق العدو بسرعة. ويذكر جوكوف: «استطعنا التعرف عن كثب على القادة الذين سيقودون القوات أثناء سحق ذلك التجميع المعادي الكبير (مجموعة جيوش «الوسط») التي كانت على الاتجاه الاستراتيجي الهام».

كما جرى في الفترة نفسها تدريب لقطعات ووحدات الجبهتين، إذ عولجت مهام الرمي والتكتيك وفن الهجمات والتقدم بالتعاون مع الدبابات والمدفعية والطيران ككل. اهتداءً بمقولة سوفوروف «ما صعب في التدريب ـــ سهل في الحرب»[٢] ـــ طلب جوكوف من القوات أن تعالج تفصيلاً جميع مسائل الهجوم وخرق دفاع العدو حسب الشروط الواقعية لكل قطعة وتشكيل. وقد برهنت النتائج على أهمية مثل هذا التدريب. يكتب جوكوف في مذكراته عن تلك الأيام: «لقد عملت القوات في المعارك بصورة أكثر تنسيقاً ونجاحاً وأقل خسارة».

تزامن هجوم القوات السوفييتية في روسيا البيضاء مع الذكرى السنوية الثالثة لبداية الحرب. تألفت عملية «باغراتيون»... من مرحلتين: ففي المرحلة الأولى (٢٣ حزيران حتى ٤ تموز) ـــ قامت قوات الجبهات بتحطيم دفاع العدو وطوقت تجميعي فيتبسك وبوبرويسك المعاديين اللذين كانا يدافعان على جانبي جيوش «الوسط» ودمرتهما. وبنتيجة ذلك تشكل على جانبي نتوء روسيا البيضاء فجوة كبيرة على كامل العمق التكتيكي لدفاع القوات الألمانية، حيث زجت المجموعات المتحركة التابعة للجبهات والجيوش. وكما افترض جوكوف، اندفعت فيالق وجيوش الدبابات في العمق العملياتي دون أن يعترض سبيلها مقاومات معادية ذات أهمية ودون أن تتيح للاحتياطات الألمانية أية إمكانية للانتقال المنظم إلى الدفاع على خطوط ملائمة، ومن ثم أحكمت الطوق حول القوى الأساسية لمجموعة جيوش «الوسط».

في المرحلة الثانية (من ٥ تموز حتى ٢٩ آب) تم القضاء على التجميع المطوق. في هذه المرحلة تجلت موهبة جوكوف على أشدها كقائد مبدع، زد على ذلك قدرته على اتخاذ قرارات مجدية حسب الموقف الراهن وتجنب العمل النمطي.

كان ينبغي حسب خبرة عمليات التطويق السابقة، إنشاء جبهتي تطويق خارجية وداخلية، وهذا صحيح، إذ كان لدى العدو، في ذلك الوقت احتياطات كبيرة، غير أن الوضع الآن مختلف، فلم يعد لديه احتياطات كبيرة، إذ كانت كلها تقريباً محشدة في المنطقة التكتيكية، ووقعت في التطويق كما توقع جوكوف، ما العمل إذن؟ هل نعمل على

---

(٢) يقابل هذه المقولة في العلم العسكري الغربي «العرق، يوفر الدم».

استقرار الجبهة الخارجية للتطويق ونبدأ بالقضاء على القوات المطوقة؟ لكن كيف يكون الأمر لو طال عناد الطرفين، مما قد يهيىء شروطاً مواتية للقيادة الألمانية كي تأتي بالاحتياطات الاستراتيجية وتقوي الدفاع. لهذا اتخذ جوكوف قراراً آخر: متابعة الهجوم على جبهة التطويق الخارجية واستثمار النجاح باندفاع. ونتيجة لمثل هذه الأعمال لم تتمكن القيادة الألمانية من تدبر أمرها تجاه ضربات مختلفة، وكان عليها أن تنشئ احتياطات ليس من أجل فك الحصار، بل من أجل خوض دفاع قوي على خطوط طبيعية ملائمة.

وماذا بشأن التجميع المطوق؟ إن عدم وجود جبهتي تطويق داخلية وخارجية قويتين، يهيىء لدى هذا التجميع الشروط من أجل الانسحاب المنظم. وكيلا يحدث ذلك اتخذ جوكوف مع قيادة الجبهات قراراً بتدمير هذه القوات أثناء المطاردة. كان ذلك نوعاً فريداً من الحصار المطبق في العمق العملياتي، الذي تم فيه القضاء على القوات المعادية بأشكال من الأعمال المتحركة، أي ـــ أثناء المطاردة الجبهية والمتوازية بالعمل على قطع وتدمير القطعات المعزولة بضربات من جميع الاتجاهات بما فيها من الجو.

زجت جيوش جوية كاملة لشن ضرباتها على التجميعات الكبيرة الألمانية، غير أنه في عملية روسيا البيضاء بالذات نفذت وللمرة الأولى عملية جوية مستقلة بقوى الجيش السادس عشر الجوي، بأمر المارشال جوكوف لتدمير التجميع المطوق المعادي. كتب عن ذلك القائد السابق للجيش السادس عشر الجوي الجنرال رودينكو مبيناً نتائج هذه العملية: «خلال ساعة وثلاثين دقيقة، تم استهلاك (١٥٩) طناً من القنابل، وتكبد العدو خسائر بحدود ألف جندي وضابط، وحتى (١٥٠) دبابة ومدفع اقتحام، وألف مدفع، وحوالي ستة آلاف عربة وقاطرة وحتى (٣) آلاف عربة و (١٥٠٠) حصان».

في أثناء عملية روسيا البيضاء دحرت القوات السوفييتية نحو (٧٠) فرقة معادية منها (٣٠) فرقة طوقت أو أسرت أو دمرت. وخسرت القيادة الألمانية ما يزيد على نصف مليون جندي وضابط، وتقدمت القوات السوفييتية مسافة (٥٥٠ ـــ ٦٠٠) كم. ونشأ موقف عصيب في وجه القيادة العليا الهتلرية. كتب الجنرال الألماني بوتلر حول ذلك: «كان انحدار مجموعة جيوش «الوسط» بمثابة نهاية للمقاومة المنظمة الألمانية في الشرق».

أجهز المارشال جوكوف على تجميع جيوش «الوسط» المعادي، فهو الذي قاد الموقعات ضده أكثر من مرة وكان في كل مرة يربح الموقعة.

قابلت أوساط الرأي العام العالمي النصر المؤزر الجديد للجيش السوفييتي بإعجاب كبير. ففي (٢١) تموز لحظ ف. روزفلت في رسالة وجهها إلى ي. ف. ستالين «أن

اندفاع هجوم جيوشكم أمر مدهش». وفي (٢٧) تموز بعث و. تشرشل ببرقية إلى ي. ف. ستالين وصف فيها الهجوم في روسيا البيضاء بـ«الانتصارات ذات الأهمية الكبيرة». كما نوهت الجريدة الإنكليزية «الديلي تلغراف» بذلك إذ كتبت: «لم يعهد قبلاً استخدامٌ لتكتيك الضربات المكثفة... بمثل هذا الفن، الذي استخدمه الجيش الأحمر الذي قطّع أوصال الجبهة الألمانية بضرباته».

كانت عملية روسيا البيضاء الاستراتيجية التي حضرت ونفذت تحت إشراف جوكوف وفاسيليفسكي عملية نموذجية بجدارة. فمن خلال تحضيرها وتنفيذها اغتنى فن الحرب السوفييتي بعدد كبير من المبادئ الجديدة منها: تحقيق المفاجأة الاستراتيجية في الأعمال، تركيز القوى والوسائط بمهارة على الاتجاهات الحاسمة، استخدام الطريقة الأكثر حسماً في سحق العدو أي تطويقه وتدميره، تنفيذ العمليات الأولى والأخيرة على عمق كبير دون توقفات عملياتية.

كانت هذه العملية ظفراً لفن الحرب السوفييتي من ناحية ونكسة للقيادة الألمانية من ناحية أخرى. كان جوكوف، وهو العسكري النظامي، يتتبع أعمال القيادة الألمانية بشغف: ماذا تتخذ من إجراءات؟ ولخص ذلك بقوله: «من خلال رصدنا وتحليلنا لأعمال القوات الألمانية وقيادتها العامة في تلك العملية، نقول بصراحة أننا دُهشنا من مناوراتهم الخاطئة جداً التي أودت بهم إلى الكارثة. وبدلاً من قيام القوات الألمانية بانسحاب سريع إلى خطوط خلفية، ودفع تجميعات قوية نحو جوانبها المهددة من قبل التجميعات الضاربة السوفييتية، تورطت بمعارك مريرة شرقي وشمال — شرقي مينسك... وعلى العموم فقد ظهر أن القيادة العسكرية السياسية الهتلرية لم تكن قادرة على فهم الموقف الراهن وإيجاد القرار الصحيح في اللحظة الصعبة جداً».

في (٨) تموز استدعي جوكوف مرة أخرى إلى هيئة القيادة العليا، إذ أرادت الأركان العامة أن تتشاور معه حول متابعة العمليات الهجومية التي أتاح لها تطور عملية روسيا البيضاء الناجحة فرصة جديدة لمنظور مستقبلي واسع.

بعد أن تأكدت القيادة العامة الألمانية من خطئها في تحديد اتجاه الضربة الرئيسية للقوات السوفييتية، بادرت إلى نقل مجموعة كبيرة من القوات، بما فيها التشكيلات المدرعة، لسد الفجوة على اتجاه روسيا البيضاء، مما أضعف تجميعها في الجنوب إلى حد خطير. وما أن أدركت الأركان العامة السوفييتية ذلك، حتى قررت البدء بالعملية التي خططتها مسبقاً على الجناح الجنوبي من الجبهة السوفييتية الألمانية.

بعد مناقشة خطة العملية لتحرير أوكرانيا الشمالية، طرح ستالين على جوكوف السؤال التالي: «هل تستطيع قواتنا أن تشرع بتجرير بولونيا وأن تصل إلى نهر الفيسلا دون توقف؟» أجاب جوكوف: «ليس بمقدور قواتنا الوصول إلى نهر الفيسلا فحسب بل عليها أن تستولي هناك على رؤوس جسور مناسبة أيضاً». تعكس هذه الإجابة مبدأ جوكوف الرئيسي لخوض العمليات والذي نوهنا به وهو أن كل معركة سابقة يجب أن تهيئ شروطاً مواتية لتنفيذ عمليات لاحقة. ففي تواصل العمليات وتعاقبها يكمن النجاح في الحرب ككل.

تم التخطيط لتنفيذ عملية تحرير أوكرانيا الشمالية بقوى جبهة أوكرانيا الأولى بالتعاون الوثيق مع جبهة روسيا البيضاء الأولى التي أشرف على أعمالها جوكوف. وعلى ما يظهر فإن ستالين أمر جوكوف بمايلي: «عليك الآن أن تأخذ على عاتقك تنسيق أعمال جبهة أوكرانيا الأولى. ركز الاهتمام الرئيسي على الجناح الأيسر لجبهة روسيا البيضاء الأولى وجبهة أوكرانيا الأولى».

في (١١) تموز وصل جوكوف بالطائرة إلى جبهة أوكرانيا الأولى، نظراً لأن هجوم جبهتي روسيا البيضاء الأولى والثانية يتطور بنجاح في منطقة مينسك.

كان التناسب العام بالقوى والوسائط على اتجاه لفوف لصالح الجيش السوفييتي كمايلي: بالقوى البشرية (١ر٢) مرة، المدفعية (٢ر٦)، الدبابات والمدافع الذاتية الحركة (٢ر٣)، الطائرات (٤ر٦). إلا أن جبهة أوكرانيا الأولى تهاونت بالتحضير نتيجة لتمتعها بمثل هذا التفوق وربما لثقتها بنجاح العملية. وهكذا لم يتمكن الاستطلاع من كشف المنظومة الدفاعية المعادية بالكامل، ولم يحدد أماكن الاحتياطات العملياتية للقيادة الألمانية ولاسيما قواتها المدرعة. لذلك لم تستطع القيادة أن تخمن المناورة المعاكسة من جانب العدو عند اختراق دفاعه، ناهيك عن أن تخطيط التمهيد المدفعي والجوي بني على دراسة غير كافية، مليئة بالأخطاء الكبيرة حول توضع المنظومة النارية المعادية.

لذلك فإن الهجوم البادئ في (١٤) تموز على اتجاه لفوف لم يسر حسب الخطة المرسومة، ولم ينجح في اختراق الدفاع المعادي حالاً. وبعد جهد كبير تيسر اختراق ممر في دفاع العدو على قطاع ضيق بعرض (٤ ــ ٦) كم وبعمق حتى (١٤) كم. ومع هذا راح العدو عندئذ يشن الهجمات المعاكسة مهدداً بإغلاق هذا الممر.

في تلك اللحظة الحرجة اتخذ المارشال جوكوف قراراً بزج المجموعات المتحركة فوراً عبر هذا الممر الضيق المهدد بنيران العدو. وكان الموقف الذي يتطلب التوغل السريع

لمجموعات الدبابات في العمق العملياتي للعدو يبرر هذا القرار الخطير، إذ بمناورتها الواسعة في العمق العملياتي يتحقق توسيع الخرق الحاصل وبلوغ أهداف العملية. وهذه المجازفة لم تكن عشوائية بل معللة. ولتأمين زج المجموعات المتحركة بنجاح، اتخذت الإجراءات للتشبث بالممر وصد الهجمات المعاكسة القوية، زد على ذلك تغطية الممر ودعمه جواً بشكل مضمون.

برهنت الحسابات على صحتها، وتم خلال يومين زج جيشي دبابات في المعركة على نفس المحور، وهذا ما قرر مصير هذه الموقعة. وفي العمق التكتيكي تم تطويق وتدمير ثماني فرق ألمانية.

على الرغم من إحراز النجاح، لم يكن جوكوف راضياً، إذ وقعت لديه ضحايا وخسائر غير مبررة، وذلك بسبب التهاون في تحضير العملية، لاسيما فيما يتعلق بالاستطلاع الذي هو أهم العوامل في الصراع المسلح. كتب جوكوف عند تحليله هذه العملية فيما بعد: «إذا لم يتمكن الاستطلاع من إعطاء معلومات صحيحة، أو إذا وقعت أخطاء عند تحليل هذه المعلومات، يأخذ القرار لدى جميع مستويات القيادة والأركان وجهة خاطئة، وبالنتيجة يتطور سير العملية خلافاً لما هو مقصود».

نتيجة سحق التجميع المعادي المطوق في المنطقة التكتيكية، تهيأت ظروف مواتية للوصول إلى الفيسلا باندفاع. غير أن لفوف كانت تقبع على محاور القوات السوفييتية المهاجمة، وهي المدينة الكبيرة ذات التحصين الجيد مع وجود حامية كبيرة. أضف إلى ذلك أن اقتحام المدينة يقلل من إيقاعات الهجوم، ويمكّن العدو من جلب الاحتياطات، ويعقد الاستيلاء على رؤوس الجسور على الفيسلا. إلا أن جوكوف وقيادة الجبهة لم يأبها لذلك، ولذا تم اتخاذ قرار بتطوير الهجوم نحو الفيسلا مع الاستيلاء على طرق الإمداد الخلفية المؤدية إلى المدينة، مما يجبر القيادة الألمانية، حسب اعتقاد جوكوف على ترك المدينة. وهذا ما حدث فعلاً، فبفضل الالتفاف البارع نتيجة مسير جيش الدبابات السوفييتي ومناوراته على مسافة (١٢٠) كم، انسحب العدو على عجل من المدينة خشية الوقوع في التطويق ثانية.

الآن كل القوى متجهة نحو الفيسلا! ها هي ذي القيادة الألمانية تتخذ الإجراءات لتقوية الدفاع على الضفة الغربية للفيسلا، فاستقدمت إلى هنا على جناح السرعة (١٧) فرقة و (٦) ألوية مدافع اقتحام وعدة كتائب دبابات «النمور الملكية».

فهم المارشال جوكوف وقيادة الجبهة مدى صعوبة اقتحام عائق مائي كبير في حال وجود مقاومة عادية قوية. فكر جوكوف: من الممكن إحراز النجاح في حال اقتحام النهر على

جبهة عريضة مما يؤدي إلى تشتيت احتياطات القوات الألمانية ، ولكن القوى لم تكن لتكفي على ما يبدو ، إذ كان النسق الثاني للجبهة واحتياطاتها تعمل على الجانب الأيسر ، بينما كان يجب اقتحام الفيسلا بالجناح الأيمن للجبهة .

حسب توصيات جوكوف ، أجرى قائد جبهة أوكرانيا الأولى ي . س . كونيف إعادة تجميع صعبة لثلاثة جيوش نحو الجانب الأيمن من الجبهة وبفضل ذلك نجحت القوات السوفييتية باقتحام نهر الفيسلا من الحركة على جبهة (٩٠) كم ، والاستيلاء على رأس جسر ملائم في منطقة ساندومير . وعلى الرغم من الهجمات المعاكسة اليائسة التي قامت بها الاحتياطات الألمانية ، فإن القوات السوفييتية لم تنجح في التمسك برأس الجسر فحسب بل وفي توسيعه على جبهة حتى (١٢٠) كم وبعمق (٥٠) كم أيضاً . وهكذا تم إحباط حسابات قيادة الفيرماخت المتعلقة بتنظيم الدفاع « المنيع » على الضفة الغربية لنهر الفيسلا ، وتمكنت القيادة السوفييتية من حشد تجميعات قوية على رؤوس الجسور المستولى عليها بغية الهجوم التالي نحو الحدود الشرقية لألمانيا الفاشية .

نوه المارشال جوكوف بذلك قائلاً : « كان لسحق مجموعتي جيوش « الوسط » و « أوكرانيا الشمالية » المعاديتين والاستيلاء على ثلاثة رؤوس جسور على نهر الفيسلا والوصول إلى وارسو ، أن قرَّب جبهاتنا الضاربة من برلين ، التي لم يبق للوصول إليها سوى (٦٠٠) كم فقط . هيأت كل هذه العوامل قاعدة ملائمة لانهيار الكتلة الفاشية وسحق ألمانيا النازية » .

قدرت الحكومة السوفييتية عالياً القسط الذي أسهم به جوكوف في مجال تحضير وتنفيذ هذه العمليات الكبرى التي وضعت ألمانيا الفاشية على شفى الكارثة : أصبح عدد الكيلومترات المتبقية حتى برلين يعادل عدد الكيلومترات التي قطعتها جبهة أوكرانيا الأولى خلال شهر . هتف ستالين إلى جوكوف في (٢٩) تموز مهنئاً بمناسبة حصوله على ميدالية « النجمة الذهبية » لبطل الاتحاد السوفييتي تقديراً لجهوده الجبارة في إنجاح عملية روسيا البيضاء وطرد العدو من أوكرانيا .

٣ ـــ سحق الفيرماخت في بولونيا وبروسيا

في أواخر أيلول ١٩٤٤ تلقى جوكوف تعليمات من ستالين بأن يطير مرة أخرى إلى قطاعات جبهتي روسيا البيضاء الأولى والثانية ، وقال له ستالين : « أنت هناك رجل الجبهة ، إبحث الأمور مع وارسو على الطبيعة واتخذ الإجراءات اللازمة » .

ماذا جرى على اتجاه وارسو ؟ .

مع دخول الجيش الأحمر إلى بولونيا ، التي اشترك في تحريرها الجيش البولوني الأول المشكل من الوطنيين الأحرار للشعب البولوني على أرض الاتحاد السوفييتي ، بدأ نشاط اللجنة البولونية للتحرير الوطني التي أسندت إليها السلطة في مناطق البلاد المحررة من البلاد ، ولم يرق ذلك لحكومة المهجر التي أظهرت عدم القدرة على صد عدوان الألمان في العام ١٩٣٩ ، وفرت إلى لندن بعد أن قذفت بالبلاد المتخبطة بدمها إلى مصير مجهول . والآن بعد فقدانها الأمل في الحصول على السلطة قررت حكومة المهجر أن تعلن عن نفسها وأن تحرض على انتفاضة مسلحة في وارسو . في الأول من آب وبتعليمات حكومة المهجر في لندن ، أعلنت الانتفاضة المسلحة في وارسو . ولم تحط بها علماً لا هيئة القيادة العليا في موسكو ولا قائد جبهة روسيا البيضاء الأولى روكوسوفسكي . وبأمر من القائد الأعلى قام روكوسوفسكي بإيفاد ضابطين مظليين إلى الجنرال كوموروفسكي (قائد جيش ترايوفا البولوني) من أجل تنسيق الأعمال معه ، لكنه لم يشأ أن يستقبلهما ، وبقي مصير هذين المظليين مجهولاً . وقبل ذلك استقبل الجنرال كوموروفسكي رسلاً من طرف هتلر للتفاوض معهم لمجابهة القوات السوفييتية .

كان الهدف السياسي للانتفاضة الاستيلاء على وارسو والإعلان بوجود حكومة بولونية هناك ، ولهذه الغاية دفع الزعماء البولونيون الموجودون في لندن ألوف البولونيين من ذوي التسليح السيئ في وجه القوات الألمانية الفاشية في الوقت الذي لم تصل القوات السوفييتية بعد إلى وارسو . ورفض الجنرال كوموروفسكي ، بعد فشل الانتفاضة ، الانضمام إلى جانب القوات السوفييتية لمتابعة النضال من أجل تحرير بولونيا . وهذا دليل على انحيازه إلى الجانب الألماني .

ولتقديم المساعدة للقائمين بالانتفاضة من سكان وارسو ، عبرت قوات سوفييتية إضافة إلى مقاتلي الجيش الأول البولوني نهر الفيسلا ، وتم الاستيلاء على ستة أرصفة رسو في وارسو ، إلا أن قيادة الانتفاضة لم تحاول إقامة التعاون مع هذه القوات . تكبدت عناصر الإنزال خسائر جسيمة بسبب ضربات القطعات الألمانية التي نقلت حديثاً إلى هنا ، وما أن أحسّت قيادة الجبهة السوفييتية بالخيانة من جانب المشرفين على الانتفاضة حتى سحبت قواتها من أرصفة الرسو إلى الضفة الصديقة .

بالإضافة إلى ذلك حاولت القوات السوفييتية الاختراق إلى وارسو من منطقة شمال العاصمة البولونية وحاول الجيشان السوفييتيان ، اللذان كانت قواهما قد خارت في المعارك

السابقة، أثناء تحرير روسيا البيضاء، كسر الدفاع الألماني القوي، فتكبدا خسائر كبيرة. وعندما استسلم قادة الانتفاضة في وارسو للألمان بتاريخ (٢) تشرين الأول، زالت الحاجة إلى هذا الهجوم الدامي غير المحضر، الذي شن بتحريض من حكومة المهجر. كتب جوكوف «لم أفهم الهدف العملياتي لهذا الهجوم الذي أنهك قواتنا بشدة».

بعد أن هتف جوكوف إلى القائد الأعلى وأبلغه الموقف طالباً موافقته على إيقاف المعارك الهجومية في هذه المنطقة، بغية إعطاء القوات الفرصة للراحة والاستكمال، كان الجواب استدعاءه مع قائد الجبهة روكوسوفسكي إلى هيئة القيادة العليا.

أثناء الاستماع إلى مذكرة جوكوف كان القائد الأعلى قد فقد برودة أعصابه: فنائبه يقترح إيقاف الهجوم بعد ما أصبح العدو ــ حسب رأيه ــ غير قادر على إيقاف تدفق القوات السوفييتية المهاجمة، فهل هذا الاقتراح معقول؟ غير أن جوكوف أقنع ستالين بأن العدو قد تمكن من تنظيم الدفاع ومعنى ذلك أن القوات ستتكبد خسائر غير مبررة، ومن وجهة النظر العملياتية، حسب رأي جوكوف فإن المنطقة الواقعة شمال غرب وارسو غير ضرورية، نظراً لأن المدينة يجب أن تؤخذ بالالتفاف من الجنوب الغربي حيث تم الاستيلاء بالفعل على رأس جسر كبير على الضفة الغربية للفيسلا، وتقوم القوات بالتشبث به. وبعد مناقشات حادة وافق ستالين على الانتقال إلى الدفاع.

بدأت هيئة القيادة العليا والأركان العامة السوفييتية بوضع خطط العمليات الختامية للحرب.

حتى ذلك الوقت تضاءل امتداد الجبهة السوفييتية ــ الألمانية بمعدل مرتين تقريباً، وازدادت كثافة دفاع الألمان بغض النظر عن الخسائر الكبيرة التي لحقت بهم في المعارك السابقة، ناهيك عن أن الجيش الألماني كان لا يزال قوياً ويملك على الجبهة الشرقية (٣ر٧) مليون جندي، (٢ر٥٦) ألف مدفع وهاون، (١ر٨) ألف دبابة ومدفع اقتحام، (١ر٤) ألف طائرة. وقد أنشأ الهتلريون على عمق (٣٠٠ ــ ٥٠٠) كم، أي حتى برلين بالذات، سبعة نطاقات دفاعية، وهذا لم يسبق له مثيل طيلة الحرب. ضمت منظومة الدفاع مناطق محصنة سبق أن حضرت قبل الحرب على طول الحدود البولونية القديمة وهي: سور بوميرانيا ومنطقة ميزيريتس المحصنة، كما جرى تجديد الحصون القديمة وإنشاء عقد دفاعية قوية حول المدن الكبرى والمراكز الصناعية.

بعد تحليل الموقف من جميع النواحي ودراسة الإمكانات لدى جميع الأطراف المتحاربة، قررت القيادة العليا تحضير وتنفيذ عمليات هجومية قوية في مطلع ١٩٤٥ على

جميع الاتجاهات الاستراتيجية. تقرر تركيز الجهود الرئيسية للحملة الختامية على اتجاه وارسو ـــ برلين، حيث كان يجب أن تهاجم جبهة روسيا البيضاء الأولى.

نظراً للدور الهام الذي كان يجب أن تلعبه جبهة روسيا البيضاء الأولى، استدعى ستالين جوكوف وأعلمه نبأ تعيينه قائد قوات جبهة روسيا البيضاء الأولى بدلاً من روكوسوفسكي الذي نقل إلى جبهة روسيا البيضاء الثانية. وسلك جوكوف مسلكاً يدل على أصالته، فبعد أن أجاب بأنه مستعد لقيادة أية جبهة كانت، وجد من الضروري التنويه بأن نقل روكوسوفسكي إلى جبهة أقل أهمية قد يسيء إليه. هنا قال القائد الأعلى حسب كلمات جوكوف: «أنت لديك خبرة أكبر، وأنت ستبقى في المستقبل نائبي، أما بخصوص الاستياء فنحن لسنا فتيات جميلات. وأنا سأتكلم الآن مع روكوسوفسكي».

في (١٦) تشرين الثاني وصلت إلى موسكو برقية: «إلى القائد الأعلى مارشال الاتحاد السوفييتي الرفيق ستالين، استلمت قيادة جبهة روسيا البيضاء اعتباراً من تاريخه، جوكوف». الآن على اتجاه برلين، ومن الشمال إلى الجنوب تقف ثلاث جبهات: روسيا البيضاء الثانية (القائد ك. ك. روكوسوفسكي)، روسيا البيضاء الأولى (القائد غ. ك. جوكوف)، أوكرانيا الأولى (القائد ي. س. كونيف) بمهمة عظيمة ومعقدة وهي تدمير الوحش الفاشي في عرينه. أكد الجنرال ك. ف. تلغين بعد الحرب: «إذا أردنا استخدام البلاغة في التعبير لقلنا أن العربة الروسية الجبارة كانت شديدة الاندفاع ثلاثية الجياد (ترويكا)، معدة لتنفيذ هذه المهمة على اتجاه الضربة الرئيسية، ها هو الرفيق ستالين ينطلق من أصالة تفكيره وعمق تجربته فيسلم زمامها لرجل قوي الشكيمة اكتسب خبرة واسعة في خضم الحرب العالمية الثانية على أصعب قطاعاتها ألا وهو القائد المحنك مارشال الاتحاد السوفييتي جوكوف وإلى يمينه تحرك المارشال روكوسوفسكي، وإلى يساره المارشال كونيف، ولعمري أن ترتيب القادة على هذا الشكل قد حدد سلفاً سير العملية ونتيجتها المنطقية».

شرع جوكوف بإعداد القوات للعملية المقبلة فور وصوله إلى قيادة الجبهة، وكان خط الفيسلا الذي كان يجب اقتحامه بالأفضلية الأولى، مجهزاً بمنظومة متطورة من الخنادق والنقاط النارية الاسمنتية والفولاذية المغطاة بحقول الألغام والخنادق المضادة للدبابات وغيرها من الحواجز، وكانت قوات العدو تحتله على عمق (٣٠ ـــ ٧٠) كم، بهدف التشبث بالخط الدفاعي على الفيسلا ومنع وصول القوات السوفييتية إلى حدود ألمانيا على هذا الاتجاه، مهما كان الثمن. ركز قائد مجموعة الجيوش الألمانية (آ). الجنرال ف. شيرنر الجهود الرئيسية في المنطقة التكتيكية، ولم يبق في احتياط مجموعة الجيوش سوى (٨) فرق توضعت على مقربة

مباشرة من الجبهة . وكانت فكرته تقضي بإنهاك وإدماء القوات السوفييتية أثناء قضمها هذا الدفاع المتعدد الأنساق ذي التجهيز الهندسي الجيد .

فهم جوكوف ذلك أيضاً فكتب : « انطلقنا في حساباتنا من أننا نجابه عدواً عنيداً لا يزال محتفظاً بقوته ... فمن ناحية كان تركيز الجهود الرئيسية للعدو في المنطقة التكتيكية وعدم وجود احتياطات كبيرة لديه في العمق العملياتي يسمحان بتطويق قواته وسحقها في المنطقة التكتيكية ، ومن ناحية أخرى كانت الكثافة العالية من القوات في المنطقة التكتيكية تعيق خرق الدفاع ، الأمر الذي يفرض علينا القيام بأعمال غير اعتيادية ، وفكرنا ملياً بأفضل طريقة لخرق الدفاع على كامل عمقه التكتيكي وزج قوات الدبابات بسرعة لهذه الغاية ... » .

كان خط الجبهة يتصف بالاستقامة ولا يهيىء الإمكانيات لتوجيه ضربات مركزة ، كما كان الحال في العمليات التي نفذها جوكوف سابقاً لتطويق الكتل الأساسية من قوات العدو . لذلك اتخذ جوكوف القرار بتوجيه ثلاث ضربات قوية لتمزيق التجميع المعادي على كامل عمقه التكتيكي ، ومن ثم القيام بمناورة في العمق العملياتي لتطويق مجموعات العدو الممزقة والمعزولة عن بعضها بعضاً .

فتوجيه ثلاث ضربات بآن واحد ، حسب فكرة جوكوف ، لن يسمح للقيادة الألمانية باستخدام الاحتياطات للقيام بضربات معاكسة . أما المناورة من أجل التطويق بواسطة أعمال المجموعات المتحركة للجيوش والجبهة على اتجاهات متلاقية فيجب أن ترمي إلى إحباط فكرة شيرنر حول الدفاع المتتالي على خطوط محضرة بين الفيسلا والاودر .

ولشق المنطقة التكتيكية لدفاع القوات الألمانية بصدمة واحدة ، قرر القائد أن يخصص لهذه الضربات القوى الرئيسية للجبهة مستخدماً التركيز الجريء لقوى ووسائط الجبهة على الاتجاهات المختارة . فقد حشد جوكوف على هذه الاتجاهات (٧٥٪) من التشكيلات المشتركة و (٩٠٪) من التشكيلات المدرعة والميكانيكية ، و (٧٥٪) من المدفعية بكثافة (٢٣٠ ــ ٢٥٠) مدفعاً على الكيلو متر الواحد من قطاع الخرق .

لتطوير النجاح بعد خرق الدفاع وللقيام بالمناورة من أجل التطويق ، خصص جوكوف جيشي دبابات للعمل كمجموعات متحركة للجبهة ، وجيشاً مشتركاً واحداً في النسق الثاني .

لدى انتقاء اتجاهات هذه الضربات كان يتوقع طبعاً أن يظن العدو بأن الهجوم سينطلق من رؤوس الجسور . فنادراً ما نجد من يحبذ الهجوم بقوى كبيرة مع اقتحام نهر عريض

قوي كنهر الفيسلا ، وجعل المرحلة الأولى من العملية طويلة . وفي الحقيقة اقترح بعض ضباط العمليات على جوكوف أن يستفيد في قراره من هذه الناحية : معتبرين أن أمام رؤوس الجسور يوجد دفاع معاد بالعمق ، بينما لا توجد سوى قطعات معادية فقط على نهر الفيسلا في أماكن بعيدة عن رؤوس الجسور .

إلا أن اعتماد مثل هذه الحالة كان يعني القيام باقتحام نهر عرضه كيلو متر في شروط غير مواتية كلية ، دون توفر الإمكانية لزج الدبابات في القتال فوراً للعمل كواسطة هامة للاختراق ، إذ أن القوات المتحركة والمدفعية لم تكن في مثل هذه الحالة لتستطيع العبور بسرعة ، كي تؤمن التطور الحثيث للهجوم .

يقرر القائد أنه يجب الهجوم من رؤوس الجسور . كتب جوكوف : « لا جدال في أن الهجوم من رؤوس الجسور يشكل صعوبة كبيرة ، فالعدو يستطيع أن يكبدنا خسائر بالغة بمدفعيته وطيرانه ، إلا أننا كنا قد حضرنا مسبقاً النيران لمعاكسة مدفعية العدو ، أضف إلى ذلك ضربات الطيران » . يستشم من هذه العبارة أن لدى جوكوف تفهماً عميقاً لدرجة المخاطرة وحساباً دقيقاً للتدابير اللازمة للقضاء على الاحتمالات غير المرغوب فيها أثناء سير العملية والتي قد تجر خلفها هذه المخاطرة .

قرر جوكوف الإصرار على المفاجأة في الهجوم ، لهذا أعطى التعليمات لتنفيذ تدابير واسعة في مجال التمويه وتضليل العدو . ولما كان العدو قد حشد القوى الأساسية ضد قوات الجبهة التي تحتل رؤوس جسور على نهر الفيسلا ، فقد وقع في أحابيل التضليل إذ اعتقد أن القوات السوفييتية لن تقوم بتوجيه الضربات الرئيسية من رؤوس الجسور ، في الوقت الذي تم التخطيط لذلك فعلاً ، وساعد على ذلك تمثيل تحشد القوات على الاتجاهات الجنوبية وسحب دبابات من رؤوس الجسور إلى المؤخرة .

كتبت جرائد الجيوش والجبهة مقالات حول ضرورة تعزيز الدفاع ، كما بثت الشبكات اللاسلكية الكاذبة معطيات لتضليل العدو ، بينما تحشدت القوات على اتجاهات الضربات مع التقيد الصارم بتدابير التمويه . نفذت جميع التدابير بعناية خاصة ، فعلى أراضي بولونيا كان يوجد عملاء الأعداء إضافة إلى الأصدقاء الحقيقيين .

كتب جوكوف فيما بعد معلقاً على فكرة التمويه العملياتي لدى جبهة روسيا البيضاء الأولى في حملة فيسلا ـــ اودر الهجومية : « حاولنا أن نخلق لدى العدو انطباعاً يؤكد على تحشد الكتلة الأساسية من قوات الجبهة قبالة وارسو وإلى الشرق منها » .

بفضل الإجراءاتَ المتخذة ، إستطاعت قيادة الجبهة إخفاء فكرة العملية وكمية القوى والوسائط المستدعاة ومواعيد انتقال الجبهة إلى الهجوم .

وقد نوه جوكوف في مذكراته : « ... نجحت خطة تضليل العدو بالكامل ، مما حقق المفاجأة العملياتية ــ التكتيكية ... وحول مدى فعالية التمويه والتضليل الإعلامي ، نورد على سبيل المثال الاستنتاجات الخاطئة التي خرج بها استطلاع شيرنر عن قوام جبهة روسيا البيضاء الأولى ، إذ اعتقد العدو أنها تتألف من (٣١) فرقة وليس من (٦٨) كما كان في واقع الأمر . وقد أكد هتلر في اجتماع جرى في القيادة بتاريخ (٢٤) كانون الأول ١٩٤٤ بأن الروس ليس في نيتهم الانتقال إلى هجوم جدي من خط نهر الفيسلا ، وعاضده هملر الذي أعلن في (٩) كانون الثاني ١٩٤٥ : « أنا لا أعتقد بأن الروس سيهاجمون » .

كان أكثر ما يشغل بال جوكوف احتمال لجوء القيادة الألمانية في آخر لحظة إلى سحب وحداتها الأمامية إلى العمق بحيث تنصب كل مجهودات التمهيد المدفعي في الفراغ . وبذلك سيبقى دفاع العدو غير مبطل ، وستواجه قواتنا مقاومة منظمة قد تؤدي إلى إيقاف هجومها . لذلك نجد قائد الجبهة يقرر عدم تنفيذ التمهيد المدفعي المخطط لمدة ساعتين متواليتين . ففي صباح (١٤) كانون الثاني أجري قصف مدفعي مدته (٢٥) دقيقة ، ثم بدأت الكتائب الأمامية بالانقضاض .

بعد التحليل الشامل ، اتخذ القائد قراراً لتنفيذ استطلاع قوي بالقتال (عنوة) مستخدماً الكتائب الأمامية بعد تمهيد ناري تقليدي .

ظن العدو هذا الهجوم وكأنه بداية هجوم القوات الرئيسية للجبهة . فلم يتحمل الضغط وبدأ بالانسحاب من الحد الأمامي نحو العمق ، عندئذ بدأ جوكوف الضربة بالتمهيد الناري المخطط وقذف بكتلة الطيران الأساسية ضد قوات العدو المنسحبة وأهدافه في عمق الدفاع . وهكذا بفضل تفكير جوكوف البعيد عن النمطية ، تحول التمهيد الناري المخطط في واقع الأمر إلى دعم ناري لهجوم القوى الرئيسية والذي نفذ بسد على عمق (٥ر٢) كم ليؤمن الاختراق بشكل ناجح .

يكتب جوكوف « ... وتطور النجاح بصورة طبيعية ، وتوفر لدينا آلاف الأطنان من القذائف التي كنا بأمس الحاجة إليها فيما بعد عند تطوير العملية » .

وهكذا بدأت عملية فيسلا ــ أودر دون أن تتوقعها القيادة الألمانية ، زد على ذلك أن القيادة الهتلرية كانت تعتقد أيضاً بأن القوات السوفييتية لن تنتقل إلى الهجوم لدواع سياسية .

في نهاية كانون الأول ١٩٤٤ باشر الألمان هجوماً في الغرب، إذ اندفعوا بصورة مفاجئة على القوات الأمريكية ـــ الانكليزية في الأردين، وكانوا يعتقدون أن الولايات المتحدة وانكلترا، عندما تعانيان من الهزيمة، ستلجآن إلى صلح منفرد ومناسب لألمانيا، مما يحرر يديها لخوض الحرب ضد الاتحاد السوفييتي. استطاع الهجوم القوي والمفاجئ للقوات الألمانية أن يجعل القوات الأنكلو أمريكية في حالة صعبة جداً. وجه تشرشل في تلك الأيام الصعبة، رسالة إلى ستالين يلتمس فيها المساعدة، وذكر فيها على وجه الخصوص: «في الغرب تدور معارك ضارية... وسأكون شاكراً لو استطعتم إعلامنا إمكانية الاعتماد على هجوم روسي قوي يشن على جبهة الفيسلا أو... في مكان آخر خلال شهر كانون الثاني... واعتبر أن الأمر عاجل».

لم يشك هتلر بأن الاتحاد السوفييتي سيسمح لألمانيا بأن تدمي الحلفاء كرد على مماطلتهم بفتح «الجبهة الثانية» وتركهم الروس يقاتلون ألمانيا ومن يدور في فلكها، لوحدهم سنوات طويلة. إلا أن ما حدث عكس ذلك تماماً، إذ كان الاتحاد السوفييتي مؤمناً بواجب التحالف، وقد جاء في رد ستالين على الرسالة ـــ «ليس هناك أدنى شك في أننا سنفعل كل ما في وسعنا لمساعدة القوات الحليفة المجيدة».

خططت القيادة العليا للبدء بالهجوم في (٢٠) كانون الثاني، غير أن القائد الأعلى قدم مواعيد الهجوم آخذاً بعين الاعتبار الأزمة في الغرب، فانتقلت جبهة أوكرانيا الأولى إلى الهجوم في (١٢) كانون الثاني، بينما انتقلت جبهتا روسيا البيضاء الأولى والثانية في (١٣) كانون الثاني. بفضل الإجراءات التي اتخذها جوكوف، تمكنت قواته من تطوير الهجوم باندفاع. ومنذ اليوم الأول من العملية جرى في الساعة (١٣) زج فيلق دبابات في الموقعة، وفي اليوم التالي جيشي دبابات إضافة إلى فيلق دبابات آخر (المجموع ـــ أكثر من ٢٠٠٠ دبابة ومدفع ذاتي الحركة). وسرعان ما هزت ضربة هذه القوات المدرعة الدفاع التكتيكي والعملياتي للعدو. وقد وصف الجنرال الألماني ك. تيبلسكيرخ هذه المعارك في مذكراته عن ملحمة الفيسلا قائلاً: «لم يكن لدى الألمان مساء (١٦) كانون الثاني (أي في اليوم الثالث للهجوم) جبهة متماسكة منظمة متواصلة على قطاع يمتد من نهر نيدا حتى نهر بيليسا. وخيم الخطر الداهم على قطاعات الجيش التاسع التي لا تزال تدافع عن وارسو وإلى الجنوب، زد على ذلك عدم توفر احتياطات كبيرة آنئذ».

بهذا الشكل تم، خلال ثلاثة أيام، تحطيم دفاع العدو على الفيسلا بعمق حتى ١٦٠ كم وسحق القوى الأساسية لمجموعة الجيوش (آ)، إلا أن هجوم الجبهات المجاورة لم يحقق النجاح المنتظر، وكانت إيقاعات تقدمها منخفضة إلى حد كبير. لذلك أصبحت

جبهة روسيا البيضاء الأولى مندفعة إلى الأمام بقوة، كاشفة جوانبها، وهذا ما أقلق الأركان العامة السوفييتية. في يوم (٢٥) كانون الثاني هتف جوكوف إلى ستالين، وبعد أن استمع الأخير إلى التقرير، سأل عن النوايا اللاحقة، فأجاب جوكوف: «فقد العدو معنوياته وهو غير قادر الآن على إبداء أية مقاومة جدية، قررنا متابعة الهجوم بهدف وصول قوات الجبهة إلى نهر الأودر». فاعترض القائد الأعلى: «عند وصولك إلى نهر الأودر تكون قد انفصلت عن جانب جبهة روسيا البيضاء الثانية (١٥٠) كم ونيف، ولا يجوز فعل ذلك الآن، لا بدّ من التريث حتى تنهي جبهة روسيا البيضاء الثانية عمليتها في بروسيا الشرقية وتعيد تجميع قواتها فيما وراء الفيسلا».

ولكن كيف ينتظر؟ وفي الأمام خط ميزيريتس المحصن، الذي إذا لم يستول عليه من الحركة لكان عليه أن يخرقه بجهد جهيد، بينما يكفي لتأمين الجانب أن يخصص جيش واحد من احتياط القيادة العليا، ووعد القائد الأعلى بالتفكير بهذا الموضوع. لكنه تراجع فيما بعد عن رأيه ووافق على اقتراح قائد الجبهة حول المثابرة على الهجوم.

لكن ها هو الاستطلاع يبلغ بأن المنطقة المحصنة غير محتلة في العديد من قطاعاتها وأن القطعات الألمانية قد أخذت تتحرك نحوها، ولا يجوز الإبطاء. إلا أن القيادة العليا لم تعط الجواب بعد. قرر جوكوف عدم انتظار احتياطات القيادة العليا بل القيام بتأمين جانب الجبهة الأيمن بقسم من القوى ومتابعة الهجوم بالقوى الباقية، وبعد مكالمات إضافية تراجع ستالين عن رأيه ووافق على اقتراح جوكوف، وطلب منه الاهتمام الجدي بجانبه الأيمن، إلا أنه رفض طلب تخصيص قوى إضافية.

طورت قوات جوكوف الهجوم باندفاع، وبعد أن قامت القوى الرئيسية للجبهة بسحق قطعات العدو المبعثرة وكسر مقاومتها على خط ميزيريتس المحصن، وصلت في (٤) شباط إلى نهر الأودر، واستولت على رأس جسر هام يقع على ضفته الغربية بمنطقة كوسترين يؤدي إلى برلين مباشرة. وكان ظهور القوات السوفييتية على بُعد (٧٠) كم من برلين مفاجأة صاعقة بالنسبة للنازيين، ففي حين اندفعت الدبابات السوفييتية إلى مدينة كينتس، كان الجنود الألمان يتنزهون في شوارعها بهدوء والمقصف يغص بالضباط.

عند تقدير الموقف الراهن خرج المارشال جوكوف باستنتاج حول توفر الإمكانية لتجديد الهجوم على برلين التي أصبحت الآن على مسافة وثبة واحدة، وذلك بعد القيام بإعادة تجميع جزئي، وكان العدو في ذلك الوقت يحتفظ على المنافذ المؤدية إلى برلين بقوى محدودة، ناهيك عن أن دفاعه كان ضعيفاً إلى حدٍ كبير. وبعد الخروج بمثل هذا

الاستنتاج ، قامت قيادة الجبهة بتوجيه القوات لمتابعة العمليات :

١ ــ « ... ليس لدى العدو في مواجهة جبهة روسيا البيضاء الأولى أية تجميعات كبيرة للقيام بضربات معاكسة . كما لا يوجد لديه جبهة دفاع متواصلة ...

٢ ــ مهمة قوات الجبهة ــ القيام ، في الأيام الستة القادمة ، بأعمال نشيطة لتعزيز النجاح الحاصل ، واتخاذ الإجراءات اللازمة واستكمال المخزونات حتى (٢) وحدة ملء من الوقود ، حتى (٢.٠) وحدة نارية من الذخائر ، والاستيلاء على برلين بوثبة واحدة في (١٥ ــ ١٦) شباط ... » .

لكن الموقف بدأ يتغير بحدة وأخذت القيادة الألمانية باستقدام الاحتياطات ، وشرعت بتوجيه ضربات معاكسة متتالية على القوات التي تتشبث برأس جسر كوسترين ، مع تنظيم الدفاع على عجل على خطوط كانت قد جهزت مسبقاً على المنافذ المؤدية إلى برلين . كما ظهرت صعوبات تتعلق باستكمال مخزونات الجبهة التي تقدمت قواتها خلال (٢٠) يوماً من الهجوم ما يزيد على (٥٠٠) كم ، ومن الطبيعي أن تقصر المؤخرة عن القوات في مثل هذه الوتيرة من التقدم . كما أن الطيران لم يتمكن من إعادة تمركزه نظراً لأن جميع المطارات الميدانية كانت موحلة بسبب موسم الأمطار .

إلا أن خطراً رئيسياً أصبح وشيك الوقوع من جهة بوميرانيا الشرقية حيث كان يحتمل وقوع ضربة معاكسة على جانب ومؤخرة قوات الجبهة المندفعة إلى الأمام ، وقد اكتشف استطلاع الطيران والقوات البرية وصول قوات ألمانية كبيرة وتحشدها في بوميرانيا الشرقية . وكان من الطبيعي إغفال هذا الخطر وتوجيه ضربة إلى برلين بالقوى الرئيسية للجبهة ، وفكر جوكوف حول إمكانية العدو في توجيه ضربة من الشمال ، وأن العدو لو فعل ذلك لاستطاع خرق التغطية الجانبية والوصول إلى المعابر على الأودر وجعل قوات الجبهة في منطقة برلين في وضعية بغاية الصعوبة .

وللأسف فقد كان على المارشال جوكوف أن يصلح ثانية خطأ كان قد ارتكبه القائد الأعلى حين لم يوافق على الاقتراح الذي طرحه في الصيف إبان فترة التطور الناجح لعملية روسيا البيضاء بتعزيز قوات الجبهات العاملة على اتجاه البلطيق بغية عزل تجميع بروسيا الشرقية الألماني عن القوى الرئيسية ، وحصره باتجاه البحر ومن ثم تدميره .

كتب م . بورمان ، وهو من أقرب مساعدي هتلر في يومياته بتاريخ (١٨) تموز : « الروس يتواجدون على مقربة من بروسيا الشرقية ، وإذا ما وجهت تشكيلاتهم المدرعة أي ضغط علينا ، فلن نستطيع إيقافهم » . في ذلك الوقت لم يكن المارشال جوكوف يعرف رأي

بورمان ، إلا أنه كان يرى الموقف بوضوح ويشعر به ــ فما هي إلا وثبة واحدة أخرى حتى يغادر العدو بروسيا الشرقية . وكان جوكوف قد كتب تقريراً فورياً إلى ستالين بتاريخ (١٩) تموز أوضح فيه :

١ ــ « ... يجب أن يكون الهدف الاستراتيجي الرئيسي لجبهتي روسيا البيضاء الأولى والثانية ، في المرحلة التالية ، الوصول إلى الفيسلا والاستيلاء على بروسيا الشرقية أو على الأقل ... عزل بروسيا الشرقية عن ألمانيا المركزية .

٢ ــ لتنفيذ المهام المذكورة أعلاه من قبل جبهة روسيا البيضاء الأولى يجب إضافة (٣٠٠) دبابة و (١٠٠) مدفع اقتحام . وتحتاج جبهة روسيا البيضاء الثانية إلى : جيش واحد مؤلف من (٩) فرق ، فيلق مشاة واحد ، (٢ ــ ٣) فيالق دبابات أو جيش دبابات ، أربعة أفواج دبابات ثقيلة ، أربعة أفواج مدافع ذاتية الحركة عيار (١٥٢) مم ، وتعزيز الجبهة بالطيران ... » .

على الرغم من الحسابات الدقيقة التي وضعت لتعليل التغييرات المقترحة بالنسبة لخطط عملية روسيا البيضاء ، بقي ستالين متمسكاً برأيه : أن لا تغيير في الخطط المنسقة سابقاً . والآن ها هو تجميع ألماني قوي في بروسيا الشرقية ، يشكل خطراً شديداً على قوات الجبهة في حال الهجوم على اتجاه برلين .

يفكر قائد الجبهة بألم : ما العمل؟ كان هناك بارقة أمل كبيرة تغري بالاندفاع وتوجيه ضربة موحدة وتطويق برلين طالما أن القيادة الهتلرية لم تمتن الدفاع بعد ، لكن إذا وجه العدو ضربة إلى جنب قوات الجبهة ومؤخرتها ، فلا يستبعد الوقوع في موقف صعب ، كما لا ينبغي الركون إلى أن القيادة الهتلرية ستغفل إمكانية تسديد ضربة معاكسة ، ناهيك عن أن خبرة الأعمال القتالية تؤكد بأنه لا يجوز الإفراط بالمخاطرة .

بعد تقدير الموقف ثانية بتبصر ، وموازنة الأمور بين « مع » و « ضد » ، اتخذ جوكوف قراراً نهائياً : إيقاف الهجوم حتى زوال خطر الضربة المعاكسة التي قد تقوم بها القوات الألمانية من الشمال انطلاقاً من بوميرانيا الشرقية ، ولما كان الأمر يتطلب أعمالاً سريعة وحاسمة بغية سبق العدو ، أمر جوكوف جيش الدبابات الأول أن يترك قطاعاته على الأودر للجيوش المجاورة وأن يشرع بمسير اضطراري بغية إعادة التجميع في الشمال ، كما اندفع إلى هناك أيضاً فيلقان الأول دبابات والثاني فرسان ، وعدد كبير من قطعات المدفعية والهندسة إضافة إلى الوسائط المادية .

اتضح فيما بعد أن الإجراءات المتخذة جاءت في وقتها ، إذ أن جوكوف استطاع هنا أن يخمن أفكار القيادة الألمانية في حينه وبصورة دقيقة . وقد قال الفيلد مارشال كيتل بهذا الصدد : « كان يفترض القيام بهجوم معاكس في شباط ـ آذار ١٩٤٥ ضد القوات التي تهاجم برلين ، وذلك بعد استخدام جسر بوميرانيا لهذا الغرض ، وأن ... تقوم قوات مجموعة جيوش « الفيسلا » بخرق الجبهة الروسية والوصول إلى كوسترين من المؤخرة » .

يؤكد هذه الفكرة أيضاً الجنرال غوديريان إذ قال في كتابه مذكرات جندي : « كانت القيادة الألمانية تنوي توجيه ضربة معاكسة شديدة بقوى مجموعة الفيسلا بسرعة خاطفة قبل أن يدفع الروس بقوات كبيرة إلى الجبهة أو قبل أن يكتشفوا نوايانا » .

لكن القيادة الألمانية كانت عبثاً تمني نفسها بأمل إلحاق الهزيمة بالتجميع الرئيسي للقوات السوفييتية على المنافذ المؤدية إلى برلين ، إذ أن المارشال السوفييتي الذي يرأس هذه القوات تمكن من كشف أفكار العدو في حينه نتيجة تمتعه بالموهبة الاستراتيجية وبعبقرية القائد ، ناهيك عن اتخاذ الإجراءات الفعالة لإحباطها .

في (٣١) كانون الثاني أرسل جوكوف إلى القائد الأعلى التقرير التالي : « من جراء التقصير الحاد للجناح الأيسر لجبهة روسيا البيضاء الثانية عن الجناح الأيمن لجبهة روسيا البيضاء الأولى ، فقد بلغ عرض جبهتنا قبل نهاية (٣١) كانون الثاني (٥٠٠) كم .

وإذا ما استمر الجناح الأيسر لجبهة روكوسوفسكي بالوقوف في مكانه فإن العدو سيقوم حتماً بأعمال نشيطة ضد الجناح الأيمن المتطاول من جبهة روسيا البيضاء الأولى .

أرجو الإيعاز إلى روكوسوفسكي أن يهاجم بالجيش (٧٠) على الاتجاه الغربي ، حتى ولو إلى الفرجة خلف الجناح الأيمن لجبهة روسيا البيضاء الأولى ... » .

في (١٠) شباط بدأت جبهة روسيا البيضاء الثانية الهجوم بمهمة سحق العدو في بوميرانيا الشرقية والوصول إلى شاطئ بحر البلطيق . ولما كانت لا تملك تحت تصرفها ما يكفي من القوى فإنها لم تتمكن من تنفيذ المهمة الملقاة على عاتقها ، وفي (٢٤) شباط عززت هذه الجبهة بالجيش (١٩) واستطاعت المضي في هجومها .

بعد خمسة أيام وصلت قوات جبهة روسيا البيضاء الأولى إلى ساحل البلطيق وإلى الأودر في مجراه السفلي ، وتم القضاء على تجميع بوميرانيا الشرقية الألماني . ها هو ذا الطريق قد أصبح مفتوحاً .

من كل ما ذكرناه يتضح كم هو هام، عند اتخاذ القرار وتخطيط العملية، عدم الاكتفاء بتوفر المعلومات الوافية عن قوام تجميع العدو، بل العمل على إزاحة الستار عن الفكرة المحتملة لأعمال العدو، والتنبؤ وإمعان النظر في الظروف الممكنة لتطوير العملية، والحساب المتقن لتناسب القوى والتجميعات الضرورية وقوام قواتنا، وتحديد طرق الأعمال المناسبة التي لا تخطر على بال العدو وتأمين وتحضير العملية من النواحي كافة: من الناحية المعنوية والسياسية والعملياتية ومن ناحية المؤخرة والشؤون التقنية.

كان لصفاء الذهن المدهش لدى جوكوف ومقدرته على حساب سير تطور العملية على المدى البعيد ورجولته وشعوره بالمسؤولية عن تنفيذ واجبه... أن سمح بالحفاظ على حياة عشرات الألوف من الجنود، والوصول بأقصر مهلة إلى نهر الأودر والاستيلاء على رؤوس الجسور على ضفته الغربية وخلق الوضع العملياتي الملائم لتسديد الضربة الختامية إلى برلين.

٤ ــ اقتحام برلين

كان جوكوف يعتبر عملية برلين من أصعب العمليات التي خاضها. وبرأيه فإن كل عملية لها مصاعبها الخاصة بها. لكن عند تحضير هذه العملية تضافرت، بشكل حاد وغير مألوف، في حزمة واحدة شديدة التعقيد، عدة عوامل عسكرية ــ سياسية واستراتيجية ودبلوماسية ونفسانية، كان لا بدّ من حلها بشكل مترابط فيما بينها.

تجلت الخاصية الرئيسية للموقف في أن الحرب قد اختتمت، وأن القوات السوفييتية التي كانت تدافع عن موسكو تحت قيادة جوكوف وصلت إلى برلين. وحين رأت القيادة الفاشية موتها المحقق بين عينيها حشدت للدفاع عن برلين كل ما لديها من قوى: ما يزيد على مليون شخص، و (٥ر١١) ألف مدفع وهاون، و (١٥٠٠) دبابة ومدفع ذاتي الحركة، و (٣٣٠٠) طائرة.

كانت القيادة الهتلرية مشبعة بالعزيمة لابداء المقاومة اليائسة، وحاولت بأي ثمن التشبث بمنطقة برلين وبشكل عام بالدفاع على الجبهة السوفييتية الألمانية. فقد عمل في مواجهة الجيش السوفييتي (٢١٤) فرقة و (١٤) لواء، أما في مواجهة القوات الأنكلو أمريكية فلم يعمل أكثر من (٦٠) فرقة ضعيفة التجهيز. وقد شكلت في مؤخرة مجموعتي جيوش «فيسلا» و «المركز» احتياطات استراتيجية. وأنشئ في برلين مباشرة (٢٠٠) كتيبة «فولكس شتورم»، وعلى المشارف المؤدية إلى برلين نطاق دفاعي قوي ليس فقط منسق في

العمق بل ومتراص أيضاً وصل عمقه إلى (٦٠ ـــ ٧٠) كم ، وكان يضم خط دفاع اودير ، نيسين بعمق حتى (٢٠ ـــ ٤٠) كم مؤلف من ثلاثة نطاقات ومنطقة دفاع برلين . وأنشئ أقوى تجميع هناك ضد رأس جسر كيوسترين . كانت الكثافة العملياتية للقوى والوسائط على هذا القطاع بمعدل (٣) كم للفرقة . وبلغت الكثافة النارية هناك بمعدل (٦٠) مدفعاً وهاوناً على (١) كم من الجبهة .

إليك ما جاء في أمر هتلر للدفاع عن برلين : « تُحوّل دور السكن إلى قلاع والمنشآت المصنوعة من الاسمنت المسلح إلى نقاط استناد ... لا تتاح للعدو ولا دقيقة من الراحة ، يجب استنزاف دمائه وإنهاكه في الصراع من أجل نقاط الاستناد ... ويجب أن تكون المقدمة للدفاع الناجح ممثلة في الدفاع حتى آخر حي سكني ، وآخر بيت وآخر نافذة ... ليس من الضروري أن يتقن كل مدافع عن عاصمة الامبراطورية الشؤون العسكرية بالتفصيل ، بل الأهم من ذلك أن يكون كل واحد مفعماً بالرغبة المتعصبة والتصميم على النضال وأن يعرف : أن العالم بأسره يقف مشدوهاً ليتتبع هذا الصراع وأن الصراع في سبيل برلين هو الذي يقرر مصير الحرب » .

هُيئت كل الأبنية الأساسية في المدينة من أجل الدفاع ، وبخاصة في القسم المركزي من المدينة ، ورُبطت المواضع الدفاعية فيما بينها بممرات للاتصال . واستخدم المترو للمناورة السرية .

كان هدف الطغمة النازية اللعب على الحبلين بين الحلفاء وكسب الوقت والسعي إلى التوصل إلى سلام منفصل مع الولايات المتحدة وبريطانيا بأي ثمن . ومعروفة أيضاً المفاوضات السرية التي أجرتها مصالح الاستخبارات الأمريكية مع هيملر . هاهم الحلفاء الذين لم يسارعوا قبل ذلك إلى فتح الجبهة الثانية تراهم الآن أيضاً يحثون الخطى للتوغل أبعد ما يمكن في عمق ألمانيا إلى حد احتلال برلين والاستيلاء على المواقع الاستراتيجية الأكثر فائدة قبل اكتمال الحرب .

نجد ونستون تشرشل يصدر حتى تعليمات بعدم حل القطعات الألمانية المستسلمة وذلك لكي تكون مستعدة للتسلح من جديد واستخدامها حسب أهدافه الخاصة فيما إذا فكرت القوات السوفييتية فجأة ، كما كان يتصور انطلاقاً من توجهاته السياسية ، متابعة توغلها نحو الغرب . وكان من الصعب حينذاك الحكم إلى أي حد ستتطور الأوضاع .

ظهرت في السنين الأخيرة منشورات تؤكد أن الحلفاء الغربيين لم يكونوا مصممين على احتلال برلين . لذلك لم يكن هناك من داع أمام جوكوف للسرعة . ويكشف خروشوف

في مذكراته عن « سرٍّ » كما لو أن ستالين صرح بأنه لولا العلاقات الطيبة التي كان يكنها لنا آيزنهاور لما أمكن لجوكوف، بأي حال من الأحوال، الاستيلاء على برلين. لكن هذا غير صحيح .. فهناك تصريحات شهيرة لتشرشل والجنرالين آيزنهاور ومونتغمري تشهد بأنهم كانوا مستعدين للاستيلاء على برلين إذا ما تهيأت أمامهم ظروف معينة. وباعتراف الجنرال باتون الشخصي كان ذلك حلمه الوحيد.

كتب تشرشل في (١) نيسان ١٩٤٥ إلى روزفلت:

«لا ريب في أن الجيوش الروسية ستستولي على النمسا بأكملها وتصل إلى فيينا. وإذا ما تيسر لها الاستيلاء أيضاً على برلين، أفلا ينشأ لديها اعتقاد مبالغ فيه للغاية كما لو أن لها اليد الطولى في انتصارنا العام، ألا يمكن لهذا الاعتقاد أن يقودها كذلك إلى تلك العقلية التي ستخلق مصاعب خطيرة يكون لها أبعاد كبيرة في المستقبل؟ لذلك فإنني أرى أن علينا، من وجهة النظر السياسية، أن نتوغل في ألمانيا إلى أبعد حد ممكن نحو الشرق، وإذا ما غدت برلين في متناول أيدينا فعلينا أن نأخذها دون تردد».

أعلم آيزنهاور مونتغمري: «إذا ما أتيحت لي إمكانية الاستيلاء على برلين فسأحتلها».

كتب الجنرال آيزنهاور للفيلد مارشال الانكليزي مونتغمري: «لا غرو في أن برلين هي الهدف الرئيسي. ومما لا شك فيه أن من واجبنا تركيز كل طاقتنا وقوانا للاندفاع السريع نحو برلين».

كان الجنرال آيزنهاور موافقاً على أن «الهدف الأهم بعد الرور كان برلين»، لكنه كان يعتبر أن برلين لا يمكن أن تكون هدفاً للجيوش الغربية، ذلك أن الجيش الأحمر كان أقرب إليها من القوات الحليفة. وكان قد وضع القيادة السوفييتية العليا بصورة هذا القرار منذ (٢٨) آذار ١٩٤٥. لكن آيزنهاور عانى ضغطاً كبيراً من جانب السياسيين وبعض القادة العسكريين المتنفذين، لذلك كان من الصعب القول فيما إذا كان سيتمسك بهذا الموقف حتى النهاية.

هذا ما تؤكده رسالته التالية الموجهة إلى رئيس اللجنة الموحدة لرؤساء الأركان (بتاريخ ٧ نيسان ١٩٤٥) التي يقول فيها: «إنني أول من يعترف بأن الحرب إنما تُخاض لبلوغ أهداف سياسية. وإذا ما قررت اللجنة الموحدة لرؤساء الأركان أن السعي ... للاستيلاء على برلين يفوق في أهميته الاعتبارات العسكرية الصرفة فإنني سأعيد النظر، بكل سرور، بخططي لتحقيق مثل هذه العملية».

على ضوء ذلك كله ليحكم القارئ بنفسه كم كان صحيحاً تأكيد بوليانوفسكي القائل بأن: «برلين كان محكوم عليها، ولم تكن قوات الحلفاء عازمة على غزوها، كانت من نصيبنا في كل الأحوال». كأنه يقول تعالَ وخذها بلا عناء... لكن علاوة على ذلك كان يتربص هناك حكام ألمانيا النازية الذين ينتظر منهم القيام بكل ما يخطر على البال لو تأخر الاستيلاء على برلين أكثر من ذلك.

هذا ما دعا ستالين إلى حث جوكوف للاستعداد من أجل الهجوم على برلين.

في هذه الظروف من الموقف العسكري ــ السياسي المعقد والمشوش تمكنت القيادة السوفييتية من وضع حد لكل المناورات والدسائس التي تحاك من وراء الكواليس بطريقة واحدة: وهي الإقدام بأسرع ما يمكن على سحق فلول الجيش الألماني ــ الفاشي والاستيلاء على برلين.

شاركت في عملية برلين قوات جبهتي روسيا البيضاء (١ و ٢) والجبهة الأوكرانية (١) وقوى أسطول البلطيق والجيش (١٨) للطيران البعيد المدى وتشكيلات من قوات الدفاع الجوي الإقليمي. ووقع الدور الرئيسي على عاتق قوات جبهة روسيا البيضاء الأولى بقيادة المارشال جوكوف. وكانت فكرة العملية تتلخص في توجيه ضربات من الجبهات الثلاث لخرق دفاع القوات الفاشية على نهري الأودير ونيسه، وتطوير الهجوم إلى جهة الغرب لتطويق وتدمير التجميع الرئيسي للعدو والاستيلاء على برلين والخروج إلى نهر إلبا والاتصال مع قوات الحلفاء الغربيين.

بموجب قرار قائد قوات جبهة روسيا البيضاء الأولى المارشال جوكوف سددت الضربة الرئيسية من رأس الجسر الكائن غرب كيوسترين بقوى خمسة جيوش مشتركة وجيشين مدرعين. وروعي أن تقوم الجيوش المشتركة في اليوم الأول بخرق نطاق دفاع العدو الأول على عمق (٦ ــ ٨) كم ثم يزج الجيشان المدرعان.

بالنظر إلى الموقف المتشكل والمهام المسندة من قبل هيئة القيادة العليا، غدت جبهة روسيا البيضاء الأولى في ظروف يصعب فيها اللجوء إلى أية أشكال أخرى من المناورة العملياتية. لكن جوكوف، على أساس الضربة الأولى المنفذة جبهياً، أرسى الأساس للضربات الالتفافية اللاحقة بهدف تمزيق أوصال تجميع العدو في برلين وتدميره على أقسام.

وكما تأكد في المؤتمر العلمي العسكري لمجموعة قوات الاحتلال السوفييتية في ألمانيا المعقود في نيسان ١٩٤٦، كانت الضربة الجبهية في هذه الحال ترمي بالدرجة الأولى إلى تقطيع أوصال قوى ووسائط العدو المتحشدة على أقصر اتجاه وهو كيوسترين ــ برلين.

وجرى الخرق على جبهة واسعة وثلاثة اتجاهات . وكان عرض الخرق يعادل (٤٤٫٣) كم وهو ما يشكل أكثر من ربع امتداد خط الجبهة بكامله لقوات جبهة روسيا البيضاء الأولى . في حين كان عرض جبهة الخرق مثلاً في عملية وارسو ـــ لودزين ـــ بوزنان يعادل ١/٧ امتداد خط الجبهة بالكامل . وكان للخرق على جبهة واسعة المنفذ على ثلاثة اتجاهات أن استبعد إمكان وقوع مناورة معاكسة بالقوى والوسائط المجمعة لدى العدو من أجل تغطية اتجاه برلين من الشرق . ولم يكن في مقدور العدو أن يضعف جنبي تجميعه في برلين من الشمال أو الجنوب (المواجهين للجناح اليميني واليساري لقوات الجبهة) إذ أن ذلك قد يسهل إمكان تطوير الهجوم على الاتجاهات المساعدة شمال وجنوب برلين وتنفيذ الالتفاف حول برلين من الأجناب . وفي الوقت ذاته لم يكن بمقدور العدو تقوية أجنابه على حساب المركز ، فقد يؤدي ذلك إلى تسهيل تطوير الهجوم الناجح على اتجاه كيوسترين ـــ برلين ، حيث كانت المسافة أقصر ما يكون .

بعد تصديق خطة العملية من قبل الهيئة في (١) نيسان انبرى جوكوف يعمل على تحضير العملية بأقصى طاقته . وأصبح كما لو أن كل الأمور كانت واضحة سواء بالنسبة للقوات الفاشية أو لقواته . فكلا الجانبين وقفا وجهاً لوجه قبل المعركة المصيرية . وبدا كما لو لم يكن هناك ما يذهل العدو ، فهو متأهب لتلقي الضربة الحاسمة . غير أن جوكوف بدأ يبحث عن أساليب جديدة للعمل لا تخطر على بال العدو . ها هو ذا يتخذ قراراً ببدء الهجوم ليلاً منفذاً التمهيد المدفعي قبل الفجر بساعتين ، وبتقديم (١٤٢) منواراً م/ط إلى الحد الأمامي بهدف إعماء بصر العدو وصعقه . وكانت العملية محضرة في المسائل الأخرى أيضاً بشكل أكثر دقة . وبالنتيجة سارت العملية عموماً بشكل ناجح .

مرت عملية برلين في ثلاث مراحل . الأولى من (١٦) حتى (١٩) نيسان تم فيها خرق خط دفاع اودر ـــ نيسين . والثانية من (١٩) إلى (٢٥) نيسان دارت الأعمال القتالية فيها لتطويق وتمزيق أوصال تجميع العدو في برلين . والثالثة من (٢٦) نيسان حتى (٨) أيار حين تم تدمير التجميعات المطوقة . ونتيجة للمعارك العنيفة والحامية الوطيس استولت القوات السوفييتية على برلين واتصلت مع الحلفاء . واستسلمت ألمانيا .

خلافاً للعمليات الأخرى المنفذة سابقاً التي كان يترتب فيها أولاً سحق قوى العدو في نطاق الدفاع الأول وبعد ذلك خوض الصراع ضد احتياطاته العملياتية ، ففي عملية برلين اقتضى الحال القيام بخرق منطقة الدفاع التكتيكية وسحق احتياطاته العملياتية في آن واحد .

وهناك خاصية أخرى وهي أنه بالرغم من وجود تصور كامل لدى جوكوف عن العدو وقواه فقد كان يقض مضجعه ذلك الوضع وهو أن العدو قد يسحب في اللحظة الأخيرة وحدات مشاته إلى العمق، حينذاك قد يغدو التمهيد المدفعي منفذاً في العراء. لذلك عمدت قيادة الجبهة في الفترة ما بين ١٤ و ١٩٤٥/٤/١٥ إلى إجراء استطلاع قتالي على جبهة واسعة قبيل بدء العملية. وبفضل الاستطلاع القتالي عشية عملية برلين دققت نهائياً منظومة نيران العدو على مختلف أنواعها، ومتانة دفاعه ومعالم الحد الأمامي وتم التأكد من تجميع العدو على الخط الأول.

علاوة على ذلك كان «للاستطلاع القتالي» عشية العملية أن ضلل العدو بالنسبة لموعد الهجوم. وكان الهجوم العام البادئ بتاريخ ١٩٤٥/٤/١٦ مفاجأة للعدو.

كان لبعض المشاركين في عملية برلين ولبعض المؤرخين العسكريين رأي بأن العدو كشف فكرة قيادة الجبهة وسحب قواه الرئيسية مسبقاً إلى مرتفعات زييلوف. لكن استمع إلى اعترافات قائد الفيلق (٥٦) المدرع الواقع في الأسر وهو جنرال المدفعية وايدلينغ: «مع ذلك فإن عدم إقدام الروس، بعد أعمال مفارز استطلاعهم بتاريخ ٤/١٤، على الهجوم بتاريخ ٤/١٥ قد أدخل قيادتنا في التضليل. وحينما أدلى رئيس أركاني العقيد فون دوففيغ برأيه بالنيابة عني إلى رئيس أركان الفيلق (١١) المدرع إس إس بأنه لا يجوز عشية الهجوم الروسي تبديل (٢٠) فرقة ميكانيكية وفرقة مدرعة أجاب «ميوخيبيرغ»، رئيس أركان الفيلق (١١) المدرع إس إس: «أعتقد، أنا قائد الفيلق، إذا لم يهجم الروس اليوم فمعنى ذلك أنهم سيشنون هجومهم بعد عدة أيام فقط. وكان يؤيد مثل هذا الرأي أيضاً ضباط آخرون من قيادة الجيش (٩)».

مع بدء هجوم القوى الرئيسية لقوات الجبهة، قبل فجر (١٦) نيسان، دارت أصعب وأشد الأعمال القتالية في منطقة مرتفعات زييلوف، حيث كانت ظروف الأرض معقدة جداً وكان دفاع العدو أكثر تحصيناً، مما أعطى امتيازات بالغة للطرف المدافع.

بعد أن اجتازت الجيوش المشتركة نطاق الدفاع الأول واقتربت من مرتفعات زييلوف، اصطدمت بدفاع منظم وبقوات جديدة احتلت الدفاع هناك مسبقاً. وبعد أن استولت تشكيلات النسق الأول على مرتفعات زييلوف واقتربت من الموضع الوسيط، اصطدمت مرة أخرى باحتياطات جديدة للعدو. أما القطعات التي تمزقت فقد سحبها العدو إلى الخلف مقدماً احتياطات أخرى إلى المواضع الجديدة. وكما قال الجنرال تشويكوف في المؤتمر: سار هجوم الجيش بمثل هذه المعارك القاسية حتى خطه الأخير على الأودير، حتى ميونخيبيرغ.

وما أن تم الاستيلاء على ميونخيبيرغ حتى تم اختراق موضع الأودير ومن هناك فقط أعطيت القوات وتيرة أكثر سرعة في الهجوم . ومهما كانت الرغبة شديدة ورباطة الجأش عالية لدى القوات التي اخترقت إلى برلين ، كان من الصعوبة بمكان ، بالنسبة لها ، اجتياز خطين دفاعيين في يوم واحد من المعركة .

بهذا الشكل تعثر هجوم القوات السوفييتية في هذه المنطقة ، واقتضى الأمر زج الجيوش المدرعة قبل الوقت المعين لها . وفي أثناء تحليل أحد المشاريع في منطقة روسيا البيضاء العسكرية عام ١٩٥٥ صار جوكوف يحلل هذا المشهد المزعج حينما لم يتيسر خرق دفاع العدو في اليوم الأول ذاته وقال أنه هو والقادة كانوا مأخوذين بالخرق الناجح للدفاع في بداية عملية فيسلا ـــ أودير ولذلك لم تقدر صعوبة الخرق المقبل لدفاع العدو في منطقة مرتفعات زييلوف حق قدرها . ومن هنا كان يلاحظ عموماً أن القادة ، بعد التنفيذ الناجح لمهمة صعبة ينسون أحياناً ما هي الصعوبة التي واجهتهم وبأي تركيز للجهود تم تحقيق النجاح السابق .

بعد زج الجيوش المدرعة ارتفعت وتائر الهجوم . والجدير بالذكر أيضاً أنه بانتهاء الحرب ظهر لدى الأفراد شعور بإمكان البقاء في عداد الأحياء . وكان من الصعب على القادة ، معنوياً ، توجيه الوحدات إلى الانقضاض . لذلك كانت تولى عناية كبيرة للاستخدام المكثف للمدفعية والطيران ، ليس فقط قبل الهجوم العام ، بل وقبل كل هجمة .

يكفي القول أن الطيران كان يقوم بمعدل (٦٥٠٠) طلعة طائرة في اليوم . وحين تعثر هجوم القوات على مرتفعات زييلوف أنحى ستالين باللائمة على جوكوف لعدم تقديره دفاع العدو تقديراً كافياً في هذه المنطقة . غير أن فكرة جوكوف كانت ترمي إلى إخراج قوات العدو قدر الإمكان من برلين إلى أرض مكشوفة ، إذ أن تدميرها في الميدان أسهل من تدميرها ضمن المدينة . ولهذه الغاية ذاتها نراه يزج الجيش (١) المدرع ليس في الشمال ، حسب ما كان مقرراً في الخطة المصدقة من قبل الهيئة ، بل يظهر مبادهته ويدفعه نحو التخم الجنوبي الشرقي لبرلين فاصلاً بهذا الشكل الجيش التاسع المعادي وحارماً إياه من إمكانية العودة إلى برلين لكي لا تتصاعد المعركة في المدينة الكبرى .

استخدمت في مجرى الأعمال القتالية في المدينة ، على نطاق واسع ، مفارز الاقتحام التي كانت تضم في قوامها وحدات من المشاة والمدرعات المعززة بالمهندسين وقاذفات اللهب والمدفعية .

لبلوغ أعلى وتائر الهجوم هاجمت الأنساق الأولى نهاراً والثانية ليلاً . ووصلت قوات الجبهة في تطوير هجومها حتى نهاية يوم (٢١) نيسان إلى التخم الشمالي الشرقي لبرلين .

دارت فيما بعد معارك حامية الوطيس لاحتلال العاصمة الألمانية، واقتضى احتلال كل شارع وكل منزل بعد اشتباك حاد. وقد رفع جوكوف تقريراً إلى ستالين مفاده أنه لن يتسنى احتلال العاصمة قبل أول أيار، فلا بدّ من إعادة تجميع القوى. استمع إلى ما كتبه جوكوف: «كنت أتوقع من ستالين إعراضاً حاداً، لكنه أجاب بمايلي: «لا بأس، أول أيار أمامنا. إنه عيد كبير وسيستقبله الشعب بكل سرور. أما بخصوص أننا سنحتل برلين في (٢ أو ٣) أيار فهذا ليس على جانب كبير من الأهمية: أنا موافق معك، يجب أن نحرص على أرواح الناس وأن نخفف من خسارة الجنود. هلم إلى تحضير المرحلة الختامية لهذه العملية على أحسن وجه».

مع ذلك تمكنت القوات من الاستيلاء على برلين في (٢) أيار. فقد حققت القوات السوفييتية في برلين ما عجزت عنه القوات الألمانية الفاشية أمام موسكو ولينينغراد وستالينغراد بعد مجهودات استمرت عدة أشهر. إذ استولت في برهة (٧ ــ ٨) أيام على عاصمة ألمانيا ورفعت العلم السوفييتي فوق الرايخستاغ.

تقديراً لقيادته الحكيمة للقوات وبسالته الشخصية في عملية برلين، فقد منح جوكوف الميدالية الثالثة «النجم الأحمر» وبطل الاتحاد السوفييتي.

استدعت عملية برلين بعد الحرب تقولات مختلفة ومتباينة أكثر من أية عملية أخرى. لذلك من الضروري الوقوف عند بعض المسائل العويصة في تاريخ هذه العملية.

المسألة الأولى، التي طرحت في المؤتمر العلمي العسكري المعقود في كانون الأول ١٩٤٥، ثم أثارها من جديد المارشال تشويكوف في الستينات، وفحواها أنه كان على القوات بعد إنهاء عملية فيسلا ــ أودر عدم التوقف على نهر الأودر، بل متابعة الهجوم رأساً واحتلال برلين من الحركة. وجاء جوكوف ليبرهن بحجج دامغة أن مثل هذه المهمة في آذار ١٩٤٥ لم تكن واقعية عملياً، فهو في أثناء الحرب كثيراً ما أقبل على المخاطرة بجرأة، لكنه هنا وجد المخاطرة غير ممكنة. ومع أن ستالين بعد وصول قوات جبهة روسيا البيضاء الأولى إلى نهر الأودر، طلب بإلحاح متابعة الهجوم وأن جوكوف ذاته وجه قادة الجيوش في بادئ الأمر إلى متابعة الهجوم بلا توقف إلى برلين، لكنه بعد أن وازن كل خصائص الموقف المتغير عدل عن هذا، وبرهن بحجج دامغة أن عملية برلين لا يمكن المباشرة بها إلا بعد فترة توقف عملياتي معين وتحضير متقن، ما هو السبب إذن في أن جوكوف، في شهر شباط، بعد أن وصل إلى خط بيغدوشن كان يسعى إلى تطوير العملية دون توقف نحو نهر الأودر، ثم إذا به يرى من الضروري التوقف على ذلك الخط؟ يأتي بعض المؤرخين ليتساءلوا ما هو المبدأ الذي نتمسك

به : استمرارية الهجوم أم «العملية المتلاشية» (ظهر هنا مثل هذا المصطلح الهزيل المصطنع) . أما سر عظمة جوكوف في القيادة فكان يتجلى في عدم تقيده بالمبادئ المجردة ، بل كان ينطلق من التحليل العميق للموقف العملياتي ــ الاستراتيجي الراهن مؤكداً : «أن الموقف هو الذي يسيّر الجميع» . فقد يكون أفضل مبدأ مبرهن عليه عملياً صالحاً في بعض الحالات وغير صالح في الأخرى .

كان جوكوف يعتبر أنه كان لا بدّ ، لمتابعة العملية الهجومية على اتجاه برلين ، من حل سلسلة من المعضلات التي لا تقبل التأجيل وهي :

أولاً ــ استعادة القدرة القتالية للقوات بما يلزم للعملية الصعبة ، واستكمال القوات بالأفراد والذخيرة والوقود والزيوت وسواها من المواد .

من هنا تتمخض ، في أيامنا هذه ، أفكار حول إنشاء منظومة تأمين إداري مركزية بالشكل الذي يعفي قادة الجيوش من التدخل في «المشاغل الإدارية التافهة» . ففي أثناء الحرب كان تنظيم المؤخرة ، ولاسيما نقل الذخيرة ، يعتبر من أهم المسائل العملياتية الاستراتيجية ، وكان القادة الكبار يكرسون جلّ وقتهم واهتمامهم لهذا العمل . فمن دون هذا تبقى كل المسائل العملياتية معلقة في الهواء . ففي جبهة روسيا البيضاء الأولى ، بعد تنفيذ العملية السابقة وتقدم القوات حتى (٥٠٠) كم ، أصبحت قطعات المؤخرة مقصرة والطيران متمركزاً على عمق كبير . وكان لا بدّ من تقديم كل ذلك إلى الأمام . كما كان لا بدّ من تدمير تجميعات العدو المطوقة في منطقتي شنايديمول وبوزنان التي استمرت في تجميد قوى لا يستهان بها من قوات الجبهة وإعاقة الاتصالات ، وكذلك لا بدّ من توسيع وتدعيم رؤوس الجسور المستولى عليها على نهر الأودر ، ومن دون ذلك لم يكن بالإمكان تحشيد ونشر التجميعات الضاربة هناك استعداداً للهجوم المقبل . وأخيراً كان لا بدّ من إتاحة وقت ، ولو قصير ، للقوات لتلتقط أنفاسها .

ثانياً ــ سحق التجميع الذي يشكل تهديداً في بوميرانيا الشرقية ، وهو باستطاعته تسديد ضربة معاكسة من الشمال إلى قوات جبهة روسيا البيضاء الأولى المندفعة إلى الأمام . ولتنفيذ هذه المهمة أجريت عملية بوميرانيا الشرقية اعتباراً من (١٠) شباط وحتى (٤) نيسان ١٩٤٥ بقوى جبهتي روسيا البيضاء (١ و ٢) بالتعاون مع جبهة البلطيق . وبعد ذلك فقط أصبح بالإمكان إعادة الجيوش المدرعة وعدة جيوش مشتركة من جبهة روسيا البيضاء الأولى إلى اتجاه برلين . ومن الواضح أن الجبهة لم يكن بمقدورها إجراء عمليات على الاتجاه الشمالي والغربي في آن واحد . كما لم يكن بالإمكان استثناء الاحتمال التالي : وهو قيام القيادة

الألمانية بسحب كل القوى الواقفة أمام الجبهة الأنكلو أمريكية وقذفها في وجه القوات السوفييتية .

وكما توقع جوكوف ، ففي الأيام الأولى من شباط بدأ يتصاعد خطر جدي بضربة معاكسة من جهة بوميرانيا الشرقية إلى جنب ومؤخرة التجميع الرئيسي للجبهة الواصل إلى الأودر . إليك ما جاء في استجواب الفيلد مارشال الألماني كيتيل بهذا الصدد :

« كانت النية متجهة في شباط ـــ آذار ١٩٤٥ إلى شن هجوم معاكس ضد القوات المهاجمة نحو برلين باستخدام رأس جسر بوميرانيا لهذه الغاية . وراعت الخطة أن تقوم قوات مجموعة جيوش « فيسلا » المحتمية في منطقة غرودزيوندز باختراق الجبهة الروسية والوصول عبر وادي نهري فارتا ونيتسه من المؤخرة إلى كيوسترين » .

يؤكد هذه الفكرة أيضاً الجنرال غورديان . فقد كتب في مؤلفه « ذكريات جندي » مايلي : « كانت القيادة الألمانية تنوي تسديد ضربة معاكسة قوية بقوى مجموعة جيوش « فيسلا » بسرعة البرق قبل أن يدفع الروس إلى الجبهة بقوى ضخمة ، أو قبل أن يفطنوا إلى نوايانا » .

لا تترك الشواهد المذكورة على لسان القادة العسكريين لألمانيا الفاشية أي شك في أن الخطر المحدق من جهة بوميرانيا الشرقية كان حقيقياً . ولهذا نجد قيادة جبهة روسيا البيضاء الأولى تتخذ التدابير اللازمة في الوقت المناسب لمجابهة العدو مجابهة فعالة .

كان الإقدام على المخاطرة في هذه الحالة غير مرغوب فيه ، لأنه حتى في حال الفشل المؤقت أمام برلين ، على غرار ما حدث مع القوات الأنكلو أمريكية في الأدرين ، فسيكون ذلك كافياً « لمحو » ليس النفوذ العسكري فحسب بل والنفوذ السياسي للاتحاد السوفييتي ، مما قد يعطي أوراقاً رابحة إضافية في يد القيادة الهتلرية لتدبير الدسائس ، ويكون له عواقب أخرى وخيمة . وقد تكون الخسائر في صفوف القوات ضخمة إلى حد كبير . كان جوكوف يريد ، بل توصل إلى أن تكون عملية برلين محضرة ومنفذة على أحسن ما يرام . وقد برز النضوج القيادي لجوكوف أيضاً في أنه لم يحول أعمال جبهته إلى هدف بحد ذاتها ، بل أخضعها للمصالح العامة لسائر عملية برلين الاستراتيجية .

في آذار ١٩٤٥ كانت القيادة الهتلرية تحسب حسابها على أساس قيام السوفييت بهجوم ارتجالي على برلين . فقد غاب عن ذهن تشويكوف وغيره ، علاوة على الأشياء الأخرى ، ما كتبه غيبيلز بتاريخ (١٥) آذار بخيبة أمل عظيمة ، في « يومياته » : « كان ضباط

أركاننا العامة يتوقعون من السوفييت أن يقعوا تماماً في الخطيئة ذاتها التي وقعنا فيها في أواخر خريف ١٩٤١ لدى إعدادنا خطط تطويق موسكو، وبالتحديد: التوجه مباشرة إلى عاصمة العدو دون الالتفات لا إلى اليمين ولا إلى اليسار ودون الاهتمام بتغطية الأجناب. كانت هذه خطيئة لا تغتفر في ذلك الوقت».

المسألة الثانية عن بنية عملية برلين الاستراتيجية: كما هو معلوم فقد قرر ستالين في حملة ١٩٤٥ أن لا يعين ممثلين عن هيئة القيادة العليا في الجبهات وأن يترأس هو بالذات (بمساعدة الأركان العامة) قيادة تنفيذ العمليات الختامية بما فيها على اتجاه برلين. علماً بأنه كان يشجع المنافسة بين قادة الجبهات لاحتلال برلين. وبموجب هذه الاعتبارات فقد ألغى خط الفصل بين جبهة روسيا البيضاء الأولى والجبهة الأوكرانية الأولى أمام برلين تاركاً إياهم ليفهموا أن من يصل في الأول هو الذي سيحتل برلين. والتنافس السليم في الشؤون العسكرية أمر لا بأس به.

لكن مثل هذا المسلك في ذلك الموقف كان له أيضاً بعض العواقب السلبية. فما أن تأخرت قوات جبهة روسيا البيضاء الأولى قليلاً على مرتفعات زييلوف حتى هرع كونيف إلى هيئة القيادة العليا طالباً تكليف قواته باحتلال القسم الجنوبي من برلين.

كان المطلوب من الهيئة والأركان العامة بدلاً من إثارة التنافس أن تقوم بالتنسيق الجيد وفي الوقت المناسب لأعمال الجبهات، الأمر الذي لم يكن قائماً على الدوام. فمع الوصول إلى مشارف برلين اختلطت القوات من هاتين الجبهتين. ها هو ذا جوكوف يعترف في المؤتمر العلمي المعقود بعد الحرب بأنه كان يمكن وجود احتمالات أخرى لبنية عملية برلين. وكتب مايلي:

«الآن، مع انقضاء وقت طويل، وبعد التمعن في خطة عملية برلين، توصلت إلى الاستنتاج التالي: وهو أن سحق تجميع العدو في برلين والاستيلاء على برلين بالذات نفذا بشكل صحيح، لكن كان بالإمكان تحقيق هذه العملية بشكل مختلف قليلاً.

لا مجال للخلاف الآن حينما أصبحت الأمور بكل تأكيد أوضح مما كانت عليه في ذلك الوقت، حينما كان من الضروري عملياً إقرار التوازن بين أمور كثيرة خافية عن الأنظار. وعلى كل حال سأساهم في عرض تصوراتي بهذا الشأن:

كان يجب تكليف الجبهتين منذ البداية باحتلال برلين: وهما جبهة روسيا البيضاء الأولى والجبهة الأوكرانية الأولى وتحديد خط الفصل بينهما كمايلي: فرانكفورت على الأودر ـــ

فيورستينفالده ـــ مركز برلين . في مثل هذا الاحتمال كان يترتب على التجميع الرئيسي لجبهة روسيا البيضاء الأولى توجيه ضربته ضمن قطاع أضيق ، والالتفاف حول برلين من الشمال الشرقي والشمال والشمال الغربي . ولوجهت الجبهة الأوكرانية الأولى الضربة بتجميعها الرئيسي على برلين من أقصر اتجاه ، محيطة بها من الجنوب والجنوب الغربي والغرب .

وقد يكون هناك احتمال آخر أيضاً : أن يناط احتلال برلين بجبهة روسيا البيضاء الأولى بعد تعزيز جناحها الأيسر مما لا يقل عن جيشين مشتركين وجيشين مدرعين وجيش جوي مع ما يتبع ذلك من قطعات مدفعية وهندسية .

في مثل هذا الاحتمال قد يتعقد إلى حدٍ ما تحضير العملية وقيادتها ، لكن سيكون من الأسهل بكثير تحقيق التعاون العام بين القوى والوسائط في سحق تجميع برلين المعادي وخصوصاً حين احتلال المدينة بالذات . ولتضاءلت مختلف الاحتكاكات والتعقيدات » .

يأتي تحليل الأحداث فيما بعد الحرب ، حينما غدت معظم المسائل أكثر وضوحاً ، لتبرهن على أنه كان هناك احتمالان يمكن الخيار بينهما .

الخيار الأول ـــ لو كان جوكوف نائباً لهيئة القيادة العليا وقام بتنسيق أعمال جبهتي روسيا البيضاء الأولى والثانية والجبهة الأوكرانية الأولى لكان بالإمكان تشكيل قيادة عامة برئاسته لاتجاه برلين الاستراتيجي . وهذا كان سيتيح إمكانية حل مسائل التعاون بين الجبهات بصورة أكثر حيوية .

الخيار الثاني ـــ وهو تغيير قوام جبهة روسيا البيضاء الأولى في مجرى تطور العملية بأن يلحق بها الجيشان الجانبيان من الجبهة الأوكرانية الأولى وجيش واحد من جبهة روسيا البيضاء الثانية . حينئذ سيكون بالإمكان احتلال برلين بجبهة واحدة ولتحقق تنسيق أكبر في أعمال القوات . والموضوع هو أن جبهة روسيا البيضاء الأولى كانت محصورة جداً من اليمين والشمال وبظروف الأرض وبالجبهات المجاورة ، مما أعاق حريتها في المناورة . ولو ألحقت بها الجيوش المتاخمة من الجبهتين المجاورتين لتهيأت لها شروط أكثر ملاءمة .

على العموم حينما اندفع المارشال كونيف بشدة إلى برلين زاجاً بقوى كبيرة للغاية لم يكن آخذاً بالحسبان كل خصائص الموقف على الاتجاه الجنوبي الغربي ولم ينتبه إلى إعادة تجميع القوى الضرورية على اتجاه براغ في وقت مسبق ، مما أدى إلى عمل فيما بعد على عجل .

المسألة الثالثة مرتبطة بزج الجيوش المدرعة في الموقعة ـــ في اليوم الأول لإنهاء خرق الدفاع وتطوير الهجوم إلى العمق . وجه اللوم إلى جوكوف لمخالفته « المخطط الكلاسيكي »

القاضي بأن تقوم الجيوش المشتركة بخرق الدفاع التكتيكي وأن لا تزج الجيوش المدرعة إلا بعد ذلك لتطوير النجاح في العمق العملياتي. لكن ميزة جوكوف، بوصفه قائداً، كانت تتلخص في أنه لم يعمل في وقت من الأوقات حسب مخطط مجرد. فكان يأخذ في الحسبان قبل كل شيء خصائص شروط الموقف وينظر فيما يمكن فعله في ذلك الموقف لتنفيذ المهمة القتالية بأكثر فعالية وضمانة. ما هي خاصية الموقف أمام برلين التي أخذها جوكوف بعين الاعتبار، وما هو الشيء الذي غاب عن أنظار بعض النقاد من رجال المدرعات حتى يومنا هذا؟

أولاًــ دارت حينذاك المعارك الختامية، وكان من الضروري الحفاظ على المشاة. لماذا يجوز إرسال جندي المشاة الذي لا يحميه شيء لخرق الدفاع ولا يجوز إرسال العربات القتالية المغطاة بالدروع؟ ربما لجأنا في وسط الحرب أحياناً إلى التضحية بالمشاة للحفاظ على القوات المدرعة الأكثر ندرة لاستخدامها في العمليات التالية. لكن الحرب هنا انتهت ولن تدعو الحاجة إلى استخدام القوات المدرعة في مكان آخر.

في الموقف الذي كانت فيه المدفعية لا تزال تحتل مرابضها السابقة وتحتاج لتنقلاتها ولتنفيذ التمهيد المدفعي في الخط الجديد إلى (١٠ ــ ١٢) ساعة، ولكسب الوقت كان على الكتل الضخمة من الدبابات أن تحل محل المدفعية وتؤمن التطوير الفوري لقوة الضربة والنيران.

ثانياًــ إن طرح مسألة ضرورة زج الجيوش المدرعة في الموقعة مع بلوغها المجال العملياتي ليس له مبرر. فأمام برلين كان يقوم دفاع متراص من مرتفعات زييلوف حتى المدينة ذاتها، ومن حيث المبدأ لم يكن هناك أي مجال عملياتي. وهذا التصور المحذلق قد يعني أن من الضروري خوض المعارك قبل برلين ذاتها بالمشاة، أما في المدينة الضخمة فتزج القوات المدرعة.

استمع إلى ما قاله جنرال الجيش سوكولوفسكي في كلمته التي ألقاها في المؤتمر العلمي العسكري في شهر نيسان ١٩٤٦: «كان لا يجوز التأخر في زج الجيوش المدرعة وهذا التأخير خطأ. خطأ لأنه سيكون علينا هنا أن نغامر بمشاتنا ونجبر الجيوش على استهلاك احتياطاتها وخوض هجوم بطيء وطويل قد يؤدي إلى فقدان المبادرة والوتيرة السريعة ويجعلنا ندفع العدو أمامنا بدلاً من تشتيت شمله وتدميره. وبذلك قد تتهيأ أمام العدو الظروف المواتية لتنظيم دفاع منهجي متسلسل مع تصعيد الكثافة على الخطوط، التي كما ترى، كانت مجهزة بأعداد كبيرة. بتعبير آخر نكون قد منحنا العدو الورقة الرابحة لتعزيز الدفاع عن برلين

بالذات . يعتبر الرفيق تشويكوف أن قرار زج الجيوش المدرعة قبل اجتياز نطاق الدفاع الثاني كان غير صحيح . لكن من المعلوم أن العدو كان لديه علاوة على النطاق الثاني منظومة كاملة من النطاقات الدفاعية حتى برلين ضمناً . في هذه الظروف لم يجر الحساب لإنشاء الظروف الملائمة لزج الجيوش المدرعة في الخرق . كان من الضروري تعزيز ضربة الجيوش المشتركة بضربة من الجيوش المدرعة ، أي تسديد ضربة قوية من شأنها أن لا تسمح بأية توقفات ، مهما كانت ، في مستهل العملية . فقد كان توقيت زج الجيوش المدرعة في الموقعة مستجيباً تماماً للموقف . إذ أجبرت قوة الضربة العدو على الإسراع في زج احتياطاته وبالتالي إضعاف الدفاع عن برلين في واقع الأمر . ونحن بزجنا الجيوش المدرعة حافظنا ، في الجيوش المشتركة ، على الاحتياطات وهي فيالق كاملة للصراع من أجل برلين في قتال الشوارع ، وبالتالي كسبنا الوتيرة والاندفاع في المناورة لتطويق تجميع العدو في برلين والاستيلاء على برلين ذاتها » .

في أثناء المؤتمر العلمي العسكري المذكور قبل صفحات ، قيل أيضاً أنه كان من الواجب التحدث ليس عن عدم جدوى استخدام الدبابات في المدينة بل عن الطرائق الأكثر عقلانية في استخدامها .

طبقت طريقتان للهجوم خلال الأعمال القتالية الجارية في المدينة :

الأولى ـــ حينما أرسلت في البداية المشاة لتطهير الأبنية والعلالي والأقبية وسواها ، ثم حُركت الدبابات والمدفعية ، هذه الطريقة كانت تحتاج إلى إضاعة وقت كبير . الثانية ـــ حينما وجهت المدفعية ضربة قصيرة وبوثبة اقتحمت الدبابات إلى الأمام لمسافة (٥ر١ ـــ ٢) كم ، وجاءت المشاة على أعقابها لتطهير النقطة المأهولة بالسكان أو الحي . وفي برلين غالباً ما كانت تستخدم الطريقة الثانية .

برأي مارشال المدرعات بغدانوف فإن خبرة المعارك في برلين دلت على أن معارك الشوارع لم تكن مخيفة للدبابات إلى الحد الذي نتصوره . فهو يقول : « أعتقد إذا كان لدى أحد مثل هذا الرأي يجب أن يغيره لأنه غير صائب . فالدبابة قبل كل شيء هي عبارة عن مدفع متحرك قوي أكثر حركة بكثير من المدفع العادي الذي يمشي مع الطاقم . هذه حقيقة واقعة . فإذا كان علي إطلاق ثلاث طلقات إلى هناك يكفي أن أضغط على الزر فيدور البرج ثم أطلق النار . وليس بمقدورك نصب المدفع العادي في شارع ضيق . فالدبابة مدفع خطير ، وهي لا تعترف لا بالقذائف الصغيرة ولا بالشظايا ، ولا تعترف بالرصاصات التي تطلق على طاقم المدفع العادي ، لذلك يجب أن تبقى الدبابة في قتال الشوارع سيدة المعركة كما لو كانت على الأرض العادية » .

كانت مهمة الاستيلاء على مدينة ضخمة مثل برلين معقدة إلى أقصى حد . لكن قوات جبهة روسيا البيضاء الأولى بقيادة المارشال جوكوف وبالتعاون مع الجبهة الأوكرانية الأولى وجبهة روسيا البيضاء الثانية ، وبفضل فن الحرب العالي الذي يتحلى به قادة التشكيلات وهم الجنرالات فيديونينسكي ، بيلوف ، بويلافسكي ، بيرخوروفيتس ، كولباكتشين ، غوردوف ، كوزنيتسوف ، غورباتوف ، جادوف ، بيرزادين ، تشويكوف ، تسفيتايف ، كاتوكوف ، بغدانوف ، رودينكو ، غولوفانوف ، الكونتر ادميرال غريغوريف وقادة التشكيلات والقطعات ، وبفضل بطولة وبسالة الضباط والأفراد من صنوف القوات كافة فقد تمكنوا من تأدية المهمة الملقاة على عاتقهم بشكل رائع .

اعترف العالم كله بما في ذلك الحلفاء بأهمية هذا النصر .

استمع إلى تعليق رئيس أركان الجيش الأمريكي جورج مارشال : « تعطي أخبار هذه الملحمة دروساً كثيرة لكل من يمارس فن الحرب . فاقتحام عاصمة ألمانيا النازية هو من أعقد العمليات التي خاضتها القوات السوفييتية خلال الحرب العالمية الثانية ... وهذه العملية هي صفحات رائعة من المجد والعلم العسكري والفن العسكري » .

بتاريخ (٨) أيار عام ١٩٤٥ تزأس المارشال جوكوف ، باحتفال تاريخي ، توقيع صك استسلام ألمانيا النازية دون قيد أو شرط وأدى هذه المهمة بكل جدارة .

يصف سيمونوف أحد الشهود ، لحظة توقيع صك ألمانيا بمايلي :

« مع مشاركة الجبهات الأخرى فإن جبهة جوكوف استولت على القسم الأكبر من برلين والديوان الامبراطوري والرايخستاغ ، فقد كُلف جوكوف بالذات بقبول استسلام الجيش الألماني دون قيد أو شرط ، واستقبل ذلك في صفوف الشعب على أنه قرار منصف تماماً ، واعتبر الناس أن هذا ما يجب أن يكون .

لاغرو ، وبدون مبالغة ، يمكن القول أنه بين الحاضرين من ممثلي القيادة الاتحادية كان هو الذي حمل على عاتقه أكبر وأصعب خبرة للحرب . غير أنه للمرة الأولى يقف لقبول استسلام جيش العدو ، وهذه الاجراءات كانت بالنسبة إليه جديدة وغير مألوفة . ولو أنه اعتبر هذه الإجراءات مراسم دبلوماسية لشعر بثقة أقل بنفسه . وبرأيي أن السر الكامن وراء تلك الثقة الرصينة التي أدار بها هذه الإجراءات هو أنه لم يتلقاها على أنها دبلوماسية . فتوقيع صك استسلام الجيش الألماني دون قيد أو شرط كان بالنسبة إليه استمراراً مباشراً للعمل الذي ظل يمارسه طيلة الحرب : فقد أوكل إليه أن يضع أمامه نقطة الختام كونه شخصاً عسكرياً بالذات ، وقد وضعها بالثقة والصلابة ذاتها التي كانت تميزه في الحرب .

يصعب عليك النفوذ ولو في الخيال إلى نفس شخص آخر ، لكن لا بدّ من التصور أن جوكوف كان يشعر في تلك الساعات بنفسه ليس على أنه قائد الجبهة التي احتلت برلين ، أو على أنه نائب القائد الأعلى ، بل على أنه شخص يمثل في هذه القاعة ذلك الجيش وذلك الشعب اللذين عملا أكثر من غيرهما جميعاً . ولكونه ممثلاً لهذا الجيش وهذا الشعب فهو يعرف أكثر من الآخرين أبعاد المنجزات ومقياس الجهود المبذولة . لم يُظهر في تصرفاته لا تكبراً ولا تواضعاً . فالحرب التي انتهت منذ وقت قليل كانت بالنسبة لشعبه صراعاً ليس من أجل الحياة بل من أجل الموت ، وهو قد أظهر نفسه بتلك البساطة الصارمة التي لازمت المنتصر في الحالات المماثلة » .

فيما بعد عمل جوكوف كثيراً ، كونه القائد العام لقوات الاحتلال في ألمانيا ورئيس الإدارة العسكرية ، وبالحميّة ذاتها التي كان يتحلى بها وقت الحرب ، ومارس بناء القوات لمرحلة ما بعد الحرب في مناطق إقامتها الميدانية في ألمانيا الشرقية .

الفصل السادس

على منصة النصر

«بتصوري فإن جوكوف يبقى رجلاً رابط الجأش، حاسماً، متمتعاً بكل المزايا اللازمة للقائد العسكري ـ الفذ».

(المارشال روكوسوفسكي)

خمدت أصوات المدافع التي صبت نيرانها على مبنى مستشارية الرايخ وجاء النصر أخيراً ودُحِرَ النازيون في عقر دارهم حيث كانت توضع خطط الحملات العدوانية التي شنت على فرنسا وبلجيكا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وانكلترا وشمال إفريقيا والاتحاد السوفييتي... وانتهى بذلك أكبر صدام عسكري في التاريخ، وتحمل الشعب السوفييتي وقواته المسلحة العبء الأكبر، إذ دفع لقاء ذلك (٢٠) مليون شهيد من خيرة أبنائه في حين تحمل العالم كله (٢٠) مليون شهيد. وبذلك فإن الاتحاد السوفييتي لم يدافع عن وطنه الاشتراكي فحسب، بل أسهم بشكل جوهري في تخليص أوروبا من الفاشية أيضاً. وحل السلام في ربوع الإنسانية التي انتظرته طويلاً، اللهم إلا الوطن العربي الذي ابتلى بكارثة لم يتخلص منها حتى الآن وهي اغتصاب جزء من أراضيه وإقامة دولة نازية جديدة في فلسطين وهي إسرائيل.

دخل الجيش الأحمر ألمانيا بعد أن قطع آلافَ الكيلو مترات عبر مدن وقرى مخربة ومحروقة، رأى الجنود السوفييت على جميع هذه الطرقات الطويلة آثار الأعمال الوحشية المنقطعة النظير التي اقترفها المحتلون أبان احتلالهم الأراضي السوفييتية. كان من بين هؤلاء الجنود الواصلين إلى برلين العديد ممن له آباء وأقرباء وقعوا ضحية القتل والتعذيب على يد الفاشيين.

على الرغم من كل ذلك، اتخذت القيادة السوفييتية الإجراءات الحازمة لمنع التجاوزات تجاه السكان الألمان العزل. فقد صدر إلى القوات السوفييتية نداء عن المجلس العسكري لجبهة روسيا البيضاء الأولى بتوقيع جوكوف جاء فيه: «يا جنود الجيش الأحمر لا تقارنوا أنفسكم بالفاشيين أكلة لحوم البشر، ولا تشوهوا سمعة المواطن السوفييتي... الذي لا ينسى الهدف المقدس النبيل الذي من أجله حمل شعبنا السلاح ألا وهو تحطيم الجيش الألماني الفاشي والاقتصاص من الفاشيين المجرمين، نحن لن ننتقم من الشعب الألماني...، بل سنساعده على التخلص من الغول المتعطش للدماء ألا وهو الفاشية».

في الحقيقة تصرف المنتصر بشكل لائق جدير بالاحترام. فلم يكن هناك أي مكان لشبح الانتقام أو التشفي من الشعب الألماني. إذ أن القسم الأكبر منه كان عقله مخدراً بالنازية فخدمها بإخلاص وصدق، ناهيك أن الكثيرين من هذا الشعب قد عانى ما عاناه منها.

كانت الزعامة النازية لا تمقت السلافيين والشعوب الأخرى فحسب، بل حتى شعب ألمانيا أيضاً. فقد أعلن هتلر بكل صلف وغرور: «إذا خسر الشعب الألماني الحرب، فعليه أن يموت ويفنى ويعطي مكانه إلى عرق أكثر جدارة من الناحية البيولوجية...»، ولكي يرغم الشعب الألماني على الموت على مرأى منه أمر هتلر بإغراق أنفاق المترو، التي كانت تضم الملاجئ والمشافي، لكيلا يفكر أحد بالنجاة. كما أمر بتعبئة الشبيبة الذين تتراوح أعمارهم ما بين (١٢ ـــ ١٤) سنة وزجهم في المعركة.

رغم كل هذا تم تقويض الدولة النازية تحت ضربات الحلفاء... لكن الضربة الأقوى جاءت من الشرق... وبكل تأكيد من الجيش الأحمر... وهكذا وجدت القيادة السوفييتية أن على عاتقها مهمة إعادة تنظيم ألمانيا، وعلى هذا الأساس عُين المارشال جوكوف رئيساً للإدارة العسكرية السوفييتية في ألمانيا.

بعد أن تعود على تكريس كل وقته للاعتناء بالمقاتلين، شرع المارشال جوكوف بعمل لم يألفه سابقاً، ألا وهو إعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل الحرب، مكرساً كل ما لديه من حيوية ومثابرة على العمل وباذلاً كل ما أوتي من مواهب تنظيمية.

١ ــ فوز المنتصرين

كان تعيين حكومة جديدة لألمانيا برئاسة الأميرال دينتس (Dentiz) حسب وصية هتلر ، محاولة يائسة لتأجيل انهيار الرايخ وسعياً لجر القيادة العليا السوفييتية إلى مفاوضات طويلة . وكان زعماء الرايخ الثالث يسعون بنفس الوقت للوصول إلى صلح منفرد مع السلطات الأنكلو أمريكية ، فقد كان هؤلاء الزعماء تواقين إلى الصلح مع الغرب مهما كان الثمن . وفي (٧) أيار ١٩٤٥ تم في مدينة ريمس (Reims) توقيع صك الاستسلام دون قيد أو شرط مع القيادة العليا لقوات الحلفاء الأمريكية والإنكليزية .

لم يوافق ستالين على هذه الخاتمة للحرب ، إذ أنه يعتبر بحق أن الشعب السوفييتي هو الذي حمل على عاتقه العبء الرئيسي للحرب وليس الحلفاء الأنكلو أمريكيون . فطالب بأن يكون توقيع صك الاستسلام في برلين ــ مركز العدوان الفاشي وأمام القيادة العليا لجميع أقطاب التحالف المضاد للهتلرية وليس أمام القيادة العليا للقوات الأنكلو أمريكية . وبعد محادثات مع الحلفاء اتخذ قرار باعتبار توقيع الوثيقة في ريمس بروتوكولاً أولياً للاستسلام .

بعد هذا الاتفاق هتف ستالين إلى جوكوف في برلين وأعطاه آخر أمر مَن أوامر سنوات الحرب : « سيصل إلى برلين غداً ممثلو القيادة العامة الألمانية وممثلو القيادة العليا لقوات الحلفاء . عليك تعيين ممثلين عن هيئة القيادة العليا للقوات السوفييتية » .

وصلت نهار (٨) أيار إلى برلين الطائرات التي تقل ممثلي القيادة العليا لقوات الحلفاء . وأوفد جوكوف نائبه سوكولوفسكي مع مجموعة من الجنرالات لاستقبالهم ثم اجتمعوا في مكتب جوكوف وتعرفوا على صك الاستسلام واقترحوا أن يشرف جوكوف على مراسم التوقيع . وفي الساعة (٢٤) من هذا اليوم افتتح جوكوف الجلسة قائلاً : « نحن ممثلي هيئة القيادة العليا للقوات المسلحة السوفييتية والقيادة العليا لقوات الحلفاء المكلفين من حكومات التحالف المضاد للهتلرية بقبول استسلام ألمانيا دون قيد أو شرط » . وأمر بإدخال ممثلي القيادة العامة الألمانية إلى القاعة .

دخل القاعة أولئك الذين تبجحوا بقدرتهم على دحر فرنسا وإنكلترا بحرب صاعقة وعلى سحق الاتحاد السوفييتي خلال (٥ر١ ــ ٢) شهر على أبعد تقدير وإخضاع العالم للسيطرة الفاشية ... وكان أول الداخلين الجنرال فيلد مارشال كيتل ، أكثر المتحمسين لهتلر والمقربين منه ، وكانت عيونه مسمرة على المارشال جوكوف .

جلس الألمان على طاولة صغيرة عند مدخل القاعة محاولين الاحتفاظ برباطة الجأش على الرغم من النظرات الثاقبة التي راح الحضور يرمقونهم بها . وما إن نظر كيتل إلى السجادة حتى تجهم وجهه وتمتم بكلمات إلى الزميل الألماني الذي كان يجلس إلى جانبه . لقد تعرف على سجادة مكتب « الفوهرر » التي كان يسير عليها بتواضع منذ أمد ليس ببعيد عندما كان يقابله ، والآن يشعر أنه جالس فوق كتلة من الشوك .

بعد مراسم التعارف والتحقق من صلاحية الوفد الألماني ، دعا جوكوف الألمان إلى المنضدة لتوقيع صك الاستسلام . ربما كانوا لا يتوقعون أن يدعهم جوكوف ينهضوا ويمروا عبر القاعة بأكملها نحو المنصة حيث جلس ممثلو القيادات العليا الحليفة . اقترب كيتل بتردد من المنصة ووقع على جميع نسخ الوثيقة . كان وجهه مبتلاً مغطى بلطخ حمراء ويداه ترتجفان ... انتهى توقيع صك الاستسلام في الساعة صفر و (٤٣) دقيقة من يوم التاسع من أيار عام ١٩٤٥ . ثم طلب جوكوف من الألمان مغادرة القاعة ، وباسم القيادة العليا السوفييتية هنأ جميع الحاضرين بالنصر الذي انتظروه طويلاً .

على الرغم من بهجة المهرجانات بمناسبة النصر ، لم يستطع جوكوف أن يتفرغ لها ، لقد كان عليه أن يباشر فوراً في إعادة الحياة إلى مدينة برلين المهدمة . ففي أعقاب معارك المدينة ، التي تضم (٢٥٠) ألف بناء ، كان هناك (٢٠٠) ألف بناء مدمر بالكامل أو مصاب بأضرار متوسطة ، زد على ذلك أن ما يزيد على ثلث محطات مترو الأنفاق كان قد أغرق ، ناهيك عن (٢٢٥) جسراً كانت القوات الألمانية قد فجرتها . الشوارع كانت مسدودة بأنقاض المباني ، أعمال منظومة مرافق المدينة معطلة كلية ـــ المحطات الكهربائية ، منشآت ضخ المياه ، معامل الغاز ، الأقنية ... لم يعد في برلين مصلحة للتموين بالأرزاق ، فقد شل عملها قبل دخول القوات السوفييتية إليها .

كان ينبغي إنقاذ سكان برلين من الموت جوعاً ، وتجديد مرافق المدينة ، وتنظيم إزالة الألغام ، وإخماد الحرائق والتنظيف ودفن الجثث .

كان جوكوف قد باشر ، كقائد جبهة ، بتنظيم الشروط الحياتية الاعتيادية من أجل سكان برلين ، منذ أن كانت المعارك لا تزال تدور في المدينة وضواحيها ، وفي (٢٣) نيسان ١٩٤٥ أصدر أمراً أعلن فيه : « تقوم القيادة العسكرية ، بواسطة نظار عسكريين للمدن والمناطق ، بممارسة السلطة الإدارية في أراضي ألمانيا التي يحتلها الجيش الأحمر » . كما قام قائد الجبهة بتعيين الجنرال بير زارين ناظراً سوفييتياً لموقع برلين ورئيساً لحاميتها السوفييتية . وفي (٢٨) نيسان أصدر بير زارين الأمر الأول الذي أذاعه على سكان المدينة ويقضي بحل الحزب

الفاشي الألماني وتنظيماته ومنع نشاطاته . وحدد الأمر نظام سلوك السكان والأحكام الرئيسية اللازمة لتطبيع الحياة في برلين .

في أيار ١٩٤٥ اتخذ المجلس العسكري لجبهة روسيا البيضاء الأولى ، بإشراف المارشال جوكوف ، عدة قرارات هامة لتطبيع الحياة في برلين ، وهي :

(١١) أيار ـــ القرار رقم (٠٦٣) حول تموين سكان برلين الألمان بالأرزاق ، الذي حدد نظام التموين ومعدلات توزيعه .

(١٢) أيار ـــ القرار رقم (٠٦٤) حول تجديد مرافق مدينة برلين وتأمين عملها الاعتيادي .

(٣١) أيار ـــ القرا رقم (٠٨٠) حول تزويد أطفال برلين بالحليب .

أرسل الاتحاد السوفييتي عوناً لبرلين بحدود (٩٦) ألف طن من الحبـــوب ، (٦٠) ألف طن من البطاطا ، حتى (٥٠) ألف رأس من الماشية ، إضافة إلى السكر والزبدة ومنتجات أخرى .

بهذه الإجراءات الفورية زالت مخاطر تعرض السكـان الألمان للمجاعـة ، وكانت معدلات تموين سكان ألمانيا أعلى بكثير من المعدلات أبان العهد الفاشي . وطبعت البطاقات على أساس مليوني نسمة ، وهذا في واقع الأمر ما بقي من السكان في برلين لحظة وصول القوات السوفييتية إليها . غير أن سكان برلين قد تضاعفوا خلال عدة أيام ، إذ سمعوا بأن القيادة السوفييتية لن تنكل بالسكان بل تنوي إطعامهم لذلك غصت الطرقات المؤدية إلى برلين بالناس الذين كانوا قد غادروها قبل اقتحام المدينة مما أوجب زيادة عدد البطاقات إلى أربعة ملايين .

جعل جوكوف نائبه لشؤون المؤخرة اللواء انتيبنكو مسؤولاً شخصياً عن تأمين الحياة الطبيعية في برلين . ذلك الجنرال الذي أحرق الفاشيون قريته في منطقة حوض الدنيبير ، كما قتلوا العديد من السكان فيها ، وكان زوج أخت الجنرال آنتيبنكو بين من أعدموا رمياً بالرصاص . أما أخته فقد حاول الفاشيون إعدامها مرتين . ولم تشف من الاختلال النفساني الذي أصابها إلا بعد ثلاث سنوات من الحرب . ومع ذلك كان على هذا الجنرال الآن أن يحرص على حياة المواطنين الألمان ليحول بينهم وبين الموت جوعاً . ويذكر اللواء آنتيبنكو : « لم يخطر ببالي خلال أربع سنوات من الحرب بأنه سيكون من واجبي إطعام الألمان وأسرتي تكتب لي من أرض الوطن بأنها تعاني الجوع ! » . هنا احتج جوكوف قائلاً :

ـــ كذلك يكتبون لي بأن حياتهم تعيسة هناك . لكن هذا لن يؤثر على سير العمل هنا . القرار ٦٣ واضح تماماً .

ـــ وهل نحن مكلفون بإطعام النازيين .

ـــ علينا إطعام الألمان من المسنين والأطفال والعمال ...

كان جوكوف في هذه الأيام يعيش في صميم الأحداث دائماً ، يزور المنشآت التي يجري ترميمها ويتحدث إلى المواطنين الألمان وجنودهم السابقين الذي تلقوا العلاج في المشافي السوفييتية ، ويحضر اجتماعات دوائر النظار العسكريين واجتماعات هيئة القضاء في برلين ، ويستقبل وجهاء المجتمع الألماني . فقد وجه جوكوف كل موهبته التنظيمية إلى التطبيع السريع للحياة في برلين .

سرعان ما ظهرت النتائج ، ففي نهاية أيار كانت أربع مدن قد أعيدت فيها محطات السكك الحديدية والموانئ النهرية الأساسية إلى العمل ، كما أخذ تموين برلين من الوقود والأرزاق مجراه الطبيعي . وتم تشغيل (٢١) محطة ضخ للمياه في المدينة وجرى توفير الغاز بالكامل للمنشآت والسكان ، وتشغيل الخطوط الخمسة الأولى للمترو . أصبح ترام المدينة ينقل الركاب على (٥١) خطاً بطول (٤٩٨) كم ، واستأنفت شرطة المدينة والمحاكم والنيابة العامة وإذاعة برلين أعمالها ، وافتتحت المسارح ودور السينما واستؤنفت الدروس في المدارس ، وأخذت الجرائد بالصدور ، وسمح للأحزاب المضادة للفاشية بالنشاط . وأعطي للسكان الكادحين الحق في الانضمام إلى النقابات والتنظيمات بهدف تأمين مصالحهم وحقوقهم . استمع إلى ما كتبه زعيم الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني اوتو غرو تيفول : « أين يمكن أن نجد في التاريخ جيش احتلال مثل هذا الجيش ، يعطي ، بعد مرور خمسة أسابيع على انتهاء الحرب ، الحق لسكان دولة محتلة بإنشاء الأحزاب وإصدار الجرائد وبحرية الاجتماعات والخطابات » .

في هذه الفترة برز جوكوف من خلال نشاطاته منظماً موهوباً في أعمال المرافق الاقتصادية وكشخصية سياسية . وكان كثيراً ما يتقابل مع زعماء الحزب الشيوعي الألماني والأحزاب اليسارية . وبفضل وساطته ومساهمته المباشرة ، بدأت المفاوضات لتشكيل حزب اشتراكي موحد من عداد الشيوعيين والديمقراطيين الاشتراكيين ، وما أن انقضى عام واحد حتى تم إنشاء الحزب الاشتراكي الموحد الألماني .

دعي المجلس الجبهة ، بمبادرة منه في منتصف أيار ، إلى اجتماع شاركت فيه الأوساط الاجتماعية والعاملون في الصناعة والنقل والصحة ومرافق المدينة والمنشآت الثقافية وضباط

دوائر النظار العسكريين. وساهم في أعمال الاجتماع شخصيات حزبية واجتماعية ألمانية، ونوقشت مسائل التطبيع اللاحق للحياة في المدينة وتموين السكان والإجراءات المتعلقة بتجديد النقل ومنشآت المدينة وتنظيم الحياة الثقافية في برلين.

كتب عن القادة وضباطهم الكاتب الألماني الشهير فاللادا الذي كان آنئذ رئيساً لبلدية فيلبيرغ: «ليأخذكم الشيطان! لقد جئتم إلينا ظافرين، محررين أوروبا. وقبلكم لم نكن لنعرف النوم أو الراحة طيلة أربع سنوات، لقد رأينا الموت أمامنا أكثر من مرة، كنا ننتظر أن نراكم متوحشين وقلوبكم من حجر... ولكن ماذا رأيت؟ لقد رأيت قادة مولعين بعملهم، لا يرتاحون ولا يدعوننا نرتاح ما دام هناك مخبز واحد للألمان لم يفتتح، وما دام هناك محطة كهربائية لم تعمل، وما دامت دور السينما لم تفتح والمواد الغذائية لم ترسل إلى مشفى الأطفال... لكن كيف كان الحال فيما مضى؟ ألم تكونوا راغبين قبل ذلك بأن تجعلوا الألمان يموتون ويهلكون من الجوع ويطيش صوابهم؟... يا أصدقائي، يا أيها النظار، لو تتركونني أرتاح قليلاً دون أن توقظونني من فراشي بعد بزوغ الشمس لتسألونني: كم أرسلت من الناس لترميم الخرائب؟ كم خبزت من الطحين، وهل جلبت الخضار؟ ثم تذهبون إلى الحقول لتتحققوا من سير عملية البذار، وكأن المسألة في بلادكم ولنقل في مدينة ريازان، وكأن هذا القمح لأولادكم!».

كان للغز الذي تحدث عنه رئيس البلدية تفسير بسيط. فقد قال ميكويان «إن أخلاقنا وتقاليد الشعوب السوفييتية تتسم بالمعاملة الإنسانية للسكان المسالمين المنتمين إلى الشعب المهزوم».

إن هذه الأخلاقيات الاشتراكية مناقضة تماماً لأخلاقيات التطرف القومي النازي التي عبر عنها هتلر عندما تحدث عن مصير موسكو: «يجب أن تطوق المدينة بشكل لا يستطيع أي جندي أو مواطن روسي، رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً أن يغادرها... وهناك حيث تقبع موسكو اليوم، يجب أن يظهر بحر يحجب إلى الأبد عاصمة الشعب الروسي عن العالم المتمدن».

إلا أن للتاريخ رأياً غير ذلك، فموسكو باقية وبرلين باقية. وكذلك درزدن ومتحفها الشهير الذي أنقذه الجنود السوفييت. بهذا يتجلى الانتصار على النازية الذي أسهم فيه المارشال جوكوف بقسط كبير.

٢ ـــ القائد العام لمجموعة القوات السوفييتية في ألمانيا

في نهاية أيار استدعي جوكوف إلى الكريملن، هناك أطلعه ستالين على مسودة بيان حول استلام الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية وانكلترا وفرنسا السلطة العليا لإدارة ألمانيا في فترة احتلالها. لحظ البيان: نزع السلاح التام من جميع القوات المسلحة الألمانية والتنظيمات المسلحة الأخرى، اعتقال جميع زعماء النازية وشخصياتها الرئيسيين المشتبه بارتكابهم جرائم الحرب، اتخاذ الاجراءات من قبل الحلفاء لتجريد ألمانيا من السلاح.

قال ستالين: «في هذا الصدد برزت مسألة إنشاء مجلس رقابة لإدارة ألمانيا يضم ممثلين عن الدول الأربع كافة، قررنا أن نعهد إليكم بوظيفة الرئيس المسؤول عن إدارة ألمانيا ممثلاً للاتحاد السوفييتي».

بعد أن تلقى هذه التعليمات عاد جوكوف إلى برلين، حيث اجتمع مع البعثات العسكرية للحلفاء، وقام بعمل كبير لإنشاء مجلس الرقابة بسرعة وتنفيذ البيان الخاص بإدارة ألمانيا دون تلكؤ. في هذه الفترة برز جوكوف شخصية سياسية ودبلوماسية رائعة. ولما كانت قرارات مجلس الرقابة كافة غير قابلة للتنفيذ إلا في حال إقرار المسألة المبحوثة بالإجماع، تراه يعمل واحداً ضد ثلاثة في العديد من المسائل. وفقط بفضل الطاقة الهائلة والحزم الفولاذي والمنطق والإصرار على المبادئ والقدرة على بلوغ الغايات، استطاع أن يجبر الحلفاء على تنفيذ جميع أحكام البيان دون مواربة، وبغض النظر عن الحيل والتحفظات والمماطلات المختلفة من جانب رؤساء البعثات العسكرية الحليفة، فالعمل مشابه للعمل في الجبهة، إلا أنها جبهة دبلوماسية، ولهذا كان الأمر يتطلب إجراء الاستطلاع والاستخبارات وتكثيف الجهود من أجل تنفيذ المسائل الأساسية والمناورة والاندفاع لبلوغ الأهداف في المحادثات التي تتعلق بالقضايا المختلف عليها، وقاد المارشال جوكوف هذه الحرب الدبلوماسية طبقاً لجميع قواعد فن الحرب والمهارة الفائقة التي يتمتع بها.

كانت مسألة نزع السلاح من الجيش الألماني، في منطقة الاحتلال الغربية، إحدى المسائل الرئيسية الصعبة التي اصطدم بها جوكوف في مجلس الرقابة.

ففي الشرق حيث الوجه المتوحش للفيرماخت الذي تميز بالتنكيل بالناس المسالمين على نحو لم يعهد له مثيل من قبل، ناهيك عن السادية الجماعية، كان الألمان قد قاتلوا حتى آخر لحظة قتالاً يائساً محكوماً عليه بالفشل، إذ زجوا في المعركة حتى الصبية المسلحين من ذوي (١٢ ـــ ١٤) ربيعاً، بينما راحت القطعات الألمانية في الغرب تستسلم بصورة جماعية.

وعلى صعيد سياسة الرياء أرسل تشرشل في الأيام الأخيرة من الحرب برقية سرية إلى الفيلد مارشال مونتغمري يقول فيها: «إجمع أسلحة وأعتدة القتال الألمانية وخزنها بصورة يسهل توزيعها ثانية على القطعات الألمانية التي ربما اضطررنا إلى التعاون معها إذا ما استمر الهجوم السوفييتي».

ولكن ها هي ذي الحرب قد انتهت، واستسلمت ألمانيا الفاشية واتخذ رؤساء التآلف المضاد للهتلرية في مؤتمر بوتسدام قراراً يتعلق بألمانيا، جاء فيه على وجه الخصوص: «العمل على استئصال روح التسلط العسكرية الألمانية والنازية، وعلى الحلفاء المتفقين مع بعضهم بعضاً اتخاذ الإجراءات الضرورية للحيلولة دون عودة ألمانيا إلى تهديد جيرانها ثانية، وللحفاظ على السلام في جميع أنحاء العالم»، بينما كان تشرشل يوقع باسم بلاده على تعهدات لاستئصال روح التسلط العسكرية الألمانية وإزالة الفيرماخت الألماني فوراً وإلى الأبد، كان يعمل في الوقت نفسه على إعطاء أوامر سرية إلى القيادة العسكرية للحفاظ على الأسلحة والقطعات العسكرية للجيش الهتلري السابق كأساس لتكوين جيش ألمانيا الغربية من أجل أهداف مضادة للسوفييت إلى حدٍ كبير.

بينما كان يتم تجريد جميع جنود وضباط الجيش الألماني من السلاح في منطقة الاحتلال السوفييتي، ناهيك عن إرسالهم إلى معسكرات أسرى الحرب، كان الإنكليز يعملون للحفاظ على القوات الألمانية في حالة الاستعداد القتالي التام.

استفاد ضباط هيئات أركان القوات الألمانية السابقون من الحرية التامة، فقاموا بجمع وترتيب سلاح قواتهم وعتادها القتالي، حسب توجيهات مونتغمري.

ألقى المارشال جوكوف في إحدى الجلسات الدورية لمجلس الرقابة تصريحاً حاداً حول ذلك مؤكداً، بكل ما عرف عنه من الصرامة، بأن التاريخ لم يعرف سوى القليل من أمثلة الغدر والخيانة المماثلة لما يحدث بحق تعهدات الحلفاء: «نحن نعتقد بأن القيادة الانكليزية وحكومتها يستحقان الإدانة بكل جد».

حاول الفيلد مارشال مونتغمري نقض التهمة السوفييتية، إلا أن زميله الجنرال الأمريكي لزم الصمت، فقد كان على ما يبدو يعرف أمر هذه التوجهات السرية التي أعطاها رئيس وزراء انكلترا. أعلن تشرشل بصراحة فيما بعد أنه أرسل بالفعل أمراً سرياً إلى الفيلد مارشال مونتغمري، عندما كان الألمان يستسلمون بمئات الألوف، يقضي بالاحتفاظ بالقطعات الألمانية بحالة الاستعداد القتالي، وسرعان ما أكد مونتغمري بنفسه تلقي مثل هذه الأوامر من تشرشل.

وفي الوقت ذاته ظهرت الضرورة لتوفير براهين دامغة لسد الطريق على القيادة الإنكليزية بالحقائق بغية الحصول منها على تقيد صارم بشروط الاتفاق الخاص بألمانيا وأعطى جوكوف توجيهات للاستزادة من تفحص الحقائق المتوفرة ، طالباً تجميع معلومات دقيقة : أية قطعات لم ينزع سلاحها بعد ، أين تتمركز ، ماذا تعمل ، إلى أية هيئات أركان تتبع ... الخ ، وبعد الحصول على معطيات موثقة عن وجود قطعات منظمة من الجيش الهتلري السابق في قطاع الاحتلال الانكليزي قام بتسليم مذكرة إلى مجلس الرقابة ، جاء فيها : « ... لا يزال هناك في قطاع الاحتلال الإنكليزي في ألمانيا قوات مسلحة برية وبحرية وجوية ألمانية ، وحتى الوقت الحاضر لا تزال تتواجد مجموعة الجيش الألمانية ميوللر بعد أن تغير اسمها إلى مجموعة « نورد » . كما أنشئت في قطاع الاحتلال الإنكليزي خمس مناطق عسكرية على مستوى الفيالق مع قياداتها ومصالحها . وتتواجد القوى الجوية الألمانية في القطاع الإنكليزي على شكل منطقة مضادة للطائرات تحتوي على تشكيلات م/ط (قطعات الفرقة ١٨ م/ط) ، وأسراب قاذفة ومقاتلة ، ومجموعات استطلاع قريب ... كما يوجد ما يزيد على خمسة أفواج إشارة وقطعات دبابات ، أما القوى البحرية الألمانية فأصبحت تسمى في الوقت الحاضر بمصلحة صيد السمك الألمانية ولها أركان وفرق واسيطيلات خفارة ... وبالإضافة إلى التشكيلات الألمانية المذكورة ... هناك في أقليم شليزويغ هولشتاين حوالي مليون من الجنود والضباط الألمان ، لم يوضعوا في الأسر ، ويمارسون التدريب القتالي ... ويحمل الأفراد الشارات المميزة والأوسمة ، كما يمنح جميع الأفراد الإجازات وتدفع لهم الرواتب ... » .

عند مناقشة المذكرة في مجلس الرقابة ، اضطر مونتغمري إلى الاعتراف ، تحت ضغط الحقائق ، بوجود قوات ألمانية نظامية في القطاع الإنكليزي . لم تؤخذ بالحسبان محاولاته المبهمة الضعيفة لربط تسريح الجنود الألمان « بصعوبات فنية » وقد ألزم مجلس الرقابة القيادة الإنكليزية بالشروع فوراً بحل القطعات وهيئات الأركان الألمانية ووضعها في الأسر .

بالتوازي مع مسألة نزع السلاح من القطعات الألمانية في منطقة الاحتلال الغربية من ألمانيا جعل جوكوف القوات الحليفة تلتزم بمناطق الاحتلال المخصصة لها حسب اتفاقية مؤتمر القرم .

في الأيام الأخيرة من عهد الرايخ ، احتلت القوات الأمريكية والإنكليزية التي لم تلق مقاومة ألمانية تذكر ، القسم الغربي من ألمانيا بسرعة ، بما فيها مناطق كان يجب ألا تحتل إلا من قبل القوات السوفييتية طبقاً لاتفاق رؤساء حكومات الحلفاء .

وقد فسر ذلك آنئذ بضرورة تدمير الفيرماخت بأسرع ما يمكن، إلا أن القيادة الأنكلو أمريكية بعد أن احتلت ألمانيا لم تشأ سحب قواتها إلى داخل منطقة احتلالها، زد على ذلك أن جوكوف أصبح يعرف أن الأمريكيين في تلك المناطق كانوا يصرون على كسب امتيازات جديدة في البحث عن كبار العلماء الألمان وإرسالهم إلى أمريكا مع الوثائق التكنولوجية وضمناً ما يتعلق بالأسلحة والمعدات. تكررت فوق المنطقة التي تحتلها القوات السوفييتية حوادث تحليق طائرات دون إذن، ناهيك عن تجاهل طياريها طلبات طائرات الاعتراض السوفييتية بالهبوط، كما هبطت عدة طائرات أمريكية وإنكليزية في مطار برلين — تمبلهوف دون إذن، تذرع طواقهما بعدم كفاية الوقود، إلا أنه عند فحص الخزانات تبين أن فيها كمية وفيرة منه.

وفي مجال الرد على احتجاجات القيادة السوفييتية، جاءت عدة إجابات مبهمة من جانب الحلفاء بأن الطائرات قد ضلت سبيلها وما إلى ذلك... وقد عرف الآن من وثائق كشف عنها النقاب بعد ما يزيد على (٤٠) عاماً، أن طيران الولايات المتحدة وإنكلترا قد نفذا عمليتي «كيسي جون» و«غراوند هوك» لتصوير رقاع كبيرة في أوروبا، إذ جرى من الجو مسح مناطق بمساحة (٢) مليون ميل مربع، وقد تطلب ذلك (١٦) سرباً من القاذفات الثقيلة الأمريكية والإنكليزية. قدم رئيس الاستطلاع لدى آيزنهاور الجنرال سيمبرت تقريراً حول النتيجة قال فيه: «كللت العمليات بالنجاح، وأمنت المعطيات لتنفيذ حملات جديدة في أوروبا»... وبأمر من إدارتي الاستخبارات العامة لكل من الولايات المتحدة وإنكلترا، اجتاز عملاؤها في أيام ١٩٤٥ خط الحدود مع ألمانيا، وطمروا وراءه أجهزة لاسلكية بفاصل (٢٠ — ٣٠) كم الواحد عن الآخر، إذ كان ينبغي استخدامها من قبل عملاء الحلفاء الغربيين في حال الضرورة.

لم تكد المدافع تبرد حتى أخذت غيوم خطر الحرب الآتية من الغرب تتكاثف من جديد، لهذا كان يجب الحذر، وقد فهم ذلك المارشال جوكوف بوضوح. فقد فضحت أعمال الحلفاء سياستهم ذات الوجهين، وبرزت أمام جوكوف مهمة صعبة وهي أن يطلب من الحلفاء التقيد بشروط الاتفاقية حول ألمانيا دون نشوب أزمة في العلاقات معهم، مع إظهار الحزم والقوة بلباقة، وأن يمنع الحلفاء من تماديهم الوقح.

أصدر المارشال جوكوف في الرابع من حزيران تعليمات حول اتخاذ الإجراءات الضرورية لتعزيز الحذر والحفاظ على الجاهزية القتالية الدائمة للقوات، كما أسندت المهام لتأمين الدفاع المضمون عن الأراضي المستولى عليها، وعن مناطق توضع القطعات

والتشكيلات. أعطيت الإرشادات لتوقيف وإبعاد جميع الأجانب من رعايا الدول الحليفة الذين يسعون إلى دخول منطقة برلين سواء كانوا عسكريين أو مدنيين.

طرح جوكوف في مجلس الرقابة، في الوقت نفسه، مسألة نظام تحليق الطائرات الأمريكية والإنكليزية إلى برلين عبر المنطقة السوفييتية، وقد اعتقد الحلفاء في البداية أن هذه المسألة لا تستحق الانتباه إذ قال الجنرال سبا أتس دون اكتراث: «إن الطيران الأمريكي طار ويطير إلى أي مكان دون قيود». ولهذا أعلن جوكوف بحدة: «إن طيرانكم لن يطير دون قيود عبر المنطقة السوفييتية، بل سيطير ضمن ممرات جوية محددة فقط».

وهكذا ساعد حزم المارشال جوكوف وحكمته على وضع حد لمناورات الحلفاء. ولكن كيف السبيل إلى إخراج القوات الإنكليزية والأمريكية وإعادتها إلى مناطق احتلالها؟ أيشرع بأعمال حربية؟. رد رؤساء البعثات العسكرية الحليفة على جميع طلبات واحتجاجات الجانب السوفييتي بقطع وعود للبدء بالانسحاب في الأيام القريبة، إلا أن المهل انقضت والانسحاب يتأجل ثانية.

هنا انتقل جوكوف من الإقناع إلى العمل، فوضع الحلفاء في إطارات مماثلة: سيتوقف عندئذ تنفيذ بعض شروط الاتفاقية حول برلين، ما دام الحلفاء لا يتقيدون بالتزاماتهم المتفق عليها.

في إحدى جلسات مجلس الرقابة أطلع الفيلد مارشال مونتغمري المارشال جوكوف على قراره بأن يحتل الإنكليز في برلين المنطقة المخصصة لهم، وطلب فتح المواصلات أمام القوات المحتلة، إلا أن جوكوف أجاب بأن البعثة السوفييتية لن تسمح بمرور قوات الاحتلال الحليفة إلى برلين ما دام هناك قوات إنكليزية وأمريكية في مناطق ألمانيا تخص قطاع الاحتلال السوفييتي.

أخذ المارشال مونتغمري يعترض، إلا أن المارشال جوكوف ظل مصراً، وأخيراً قال الجنرال آيزنهاور: «إن المارشال جوكوف على حق، وينبغي عليكم أن تخرجوا بسرعة من فيتنرغ ونحن من تيور ينغين». وسرعان ما سحب الأمريكيون والإنكليز قواتهم من المنطقتين اللتين احتلهما الجانبان خلافاً للاتفاقية. وصلت إلى برلين إثر ذلك قوات الاحتلال الأمريكية والإنكليزية والفرنسية.

نعم لقد استطاع جوكوف أن يتوصل إلى قطف ثمار انتصار الجيش السوفييتي.

في هذه الفترة من العمل في مجلس الرقابة، قام جوكوف بعمل كبير في مجال إعادة الرعايا السوفييت الذين كانوا في ألمانيا إلى أرض الوطن، فقد عمل الهتلريون أبان الحرب على إرسال ملايين من سكان الاتحاد السوفييتي المسالمين إلى ألمانيا للقيام بالأشغال الإجبارية إو إلى معسكرات الاعتقال، إلا أن قسماً كبيراً من الرعايا، ناهيك عن الجنود والضباط السوفييت الذين كانوا في الأسر الألماني، وجدوا أنفسهم في مناطق الاحتلال الأمريكية والإنكليزية.

اطّلع ستالين على خطة ترحيل الرعايا السوفييت من ألمانيا إلى أرض الوطن، كما طلب اتخاذ جميع الإجراءات لتمكين الرعايا السوفييت من العودة إلى الوطن بأسرع ما يمكن. وفي أثناء تنفيذ جوكوف لهذه التوجيهات عمل بدأب على جلب المواطنين العسكريين السابقين السوفييت إلى القطاع السوفييتي تمهيداً لإعادتهم إلى الاتحاد السوفييتي، ودون أن تجرؤ البعثات العسكرية الحليفة على عرقلة هذه الطلبات القانونية شرعت بترحيل الرعايا السوفييت من مناطقها، غير أن خدماتهم الخاصة أخذت تبث وسط الرعايا والجنود والضباط السوفييت، الموجودين في معسكرات أسرى الحرب، دعاية قوية تدعوهم إلى عدم العودة إلى الوطن، محاولة إقناعهم بالبقاء في الغرب ومبشرة إياهم بعمل ذي أجر كبير وبالخير العميم، كما عمدت إلى الافتراء على الاتحاد السوفييتي، وإلى انتهاج سبل التخويف المعتادة في مثل هذه الحالات.

ما أن عرف جوكوف ذلك حتى أعرب عن احتجاجه الحاد لرؤساء البعثات العسكرية الحليفة تجاه الدعاية الإنكليزية التي كانت تبث منذ البداية، إلا أنهم تحت تأثير البينات أخذوا يتسترون بأهداف إنسآنية.

فاز جوكوف بموافقة على زيارة ضباطه للمواطنين والعسكريين السوفييت الموقوفين في معسكرات القطاع الأمريكي، وبعد الأحاديث والشروح الصريحة التي أجراها الضباط السوفييت مع هؤلاء الناس حول مسائل تقلقهم فهم الكثيرون منهم مدى تضليل وكذب الاستخبارات الأمريكية في دعايتها، فأعلنوا عن عزمهم على العودة إلى الاتحاد السوفييتي، ونقلوا إلى القطاع السوفييتي من أجل ترحيلهم إلى الوطن.

كان نشاط المارشال جوكوف هاماً في مجال إزالة الصبغة العسكرية عن ألمانيا، وتنظيم مسائل الاحتلال والحراسة وحقوق المواطنين والعسكريين السابقين السوفييت وحرياتهم وإعادتهم بسرعة إلى الوطن، وكذلك حل القضايا الأخرى التي تخص إدارة ألمانيا، إلا أن هذا لم يكن النشاط الرئيسي له، إذ يمكن القول بأن ذلك لم يكن إلا مهام تكتيكية تؤمن تنفيذ

المهمة الاستراتيجية ألا وهي إنهاض ألمانيا بمنطلقات ديمقراطية اشتراكية ... يذكر جوكوف باستمرار توجيهات ستالين التي تلقاها عند تعيينه بوظيفة الرئيس المسؤول في إدارة ألمانيا : «إن الهدف الرئيسي لمجلس الرقابة يجب أن ينحصر في توطيد الحياة السلمية بسرعة للشعب الألماني والتدمير الكامل للفاشية وتنظيم عمل السلطات المحلية» .

كان أمام جوكوف ومعاونيه مهمة صعبة وكبيرة : مساعدة القوى التقدمية الألمانية على استئصال النازية من عقول الناس الذين سبق أن تشربوا دعاية غوبيلز . وإعادة بناء ألمانيا على أساس ديمقراطي اشتراكي ، ولم تكن صعوبة هذه المهمة بسبب مخلفات الأيديولوجية الفاشية فحسب ، بل بأفعال الحلفاء الأنكلو أمريكيين أيضاً .

سعت وفود الولايات المتحدة وإنكلترا في مؤتمر بوتسدام إلى تقسيم ألمانيا إلى ثلاث دول ، إلا أن رئيس الوفد السوفييتي رفض هذا الاقتراح بشدة ، قائلاً : «يجب عدم تقسيم ألمانيا ، بل جعلها دولة ديمقراطية محبة للسلام» ، وعلى الرغم من إضافة فقرة إلى قرارات بوتسدام للدول الحليفة ، تحت إلحاح الوفد السوفييتي ، تتعلق بإنشاء إدارات مركزية ألمانية ، إلا أن هذه القرارات قد أحبطت بسبب معارضة السلطات الغربية فيما بعد ، وهكذا لم تشكل الإدارات المركزية ، كما أن ألمانيا الموحدة على أسس محبة للسلام والديمقراطية لم تتحقق كما لحظ في مؤتمر بوتسدام .

لم ينتظر جوكوف حتى تبدأ سلطات الاحتلال الحليفة الغربية بتنفيذ قرارات بوتسدام لإعادة البناء الديمقراطي لألمانيا ، فبدأ العمل لإنهاض ألمانيا في منطقة الاحتلال السوفييتي .

بدأ عمله لرص صفوف القوى التقدمية للشعب الألماني وتنشيطها في قطاع الاحتلال السوفييتي بإصدار الأمر رقم (٢) تاريخ ١٩٤٥/٦/١٠ الذي ينص :

١ ـــ ... يسمح في قطاع الاحتلال السوفييتي بتشكيل جميع الأحزاب المضادة للنازية وممارسة نشاطها بهدف استئصال بقايا النازية نهائياً وإلى توطيد مبادئ الديمقراطية وحريات المواطنين في ألمانيا ...

٢ ـــ يمنح السكان الكادحون في قطاع الاحتلال السوفييتي في ألمانيا حق الانضمام إلى النقابات والتنظيمات المهنية بهدف حماية مصالح وحقوق الكادحين ...

٣ ـــ ... تلغى جميع التشريعات الفاشية ، وكذلك جميع القرارات والأوامر والتعليمات والإرشادات الفاشية... الخ ، التي لها علاقة بنشاط الأحزاب السياسية المضادة للفاشية والنقابات المهنية الحرة وكل ما يعيق الحريات الديمقراطية وحقوق الشعب الألماني ومصالحه ...» .

في مجال توطيد الحياة السلمية في ألمانيا على المبادئ الديمقراطية الاشتراكية، لعبت التنظيمات الشيوعية والاشتراكية دوراً هاماً، إذ أخذ العمال والتقدميون يلتفون حولها في القسم الشرقي من ألمانيا، وأنشئت تحت إشراف هذه القوى التقدمية بالذات هيئات ألمانية للإدارة المحلية. وقد قامت هيئات الإدارة المحلية الديمقراطية في منطقة الاحتلال السوفييتية بالكامل وبمشاركة من القيادة السوفييتية بتنفيذ عدد من التغييرات الاجتماعية الاقتصادية: تم تنفيذ إصلاح زراعي ديمقراطي، أعطيت الأرض إلى مليون من الكادحين الألمان تقريباً، إضافة إلى إزالة الاحتكارات الرأسمالية الكبيرة وحل مؤسسات رجال الأعمال، وإبعاد النازيين السابقين عن المراكز القيادية في مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المختلفة للشعب الألماني، أقر مبدأ (٨) ساعات عمل يومياً في المصانع، كما أدخل نظام موحد لإجازات العمال.

نص الأمر رقم (١٧) تاريخ ١٩٤٥/٧/٢٧ الصادر عن الرئيس المسؤول في الإدارة العسكرية السوفييتية، على إنشاء إدارات مركزية ألمانية حتى ١٩٤٥/٨/١٠ كالنقل، الاتصال، صناعة الوقود، التجارة والتموين، المرافق الصناعية والزراعية والمالية، العمل والتأمين الاجتماعي، الصحة، تعليم الشعب، العدل....

استقبل الشعب الألماني بارتياح جميع الإجراءات المتعلقة بتطوير النزعات الديمقراطية والتحولات الاشتراكية، والمرافق والثقافة والحفاظ على النظام في منطة الاحتلال السوفييتية، وبالتالي فقد عملت الإدارة العسكرية السوفييتية على تطبيق عدد من الإجراءات والحفاظ على جميع التحف الرسمية والوطنية لصالح الشعب الألماني.

في (٣٠) تشرين الأول ١٩٤٥ صدر الأمر (١٢٤) الذي نص على إجراءات لقطع دابر الاختلاس والاستهتار بالممتلكات التي كانت تابعة للدولة الألمانية، والمؤسسات العسكرية والجمعيات والنوادي والاتحادات التي منعتها القيادة السوفييتية وألغتها، وقد انتقلت كل هذه الممتلكات إلى ملكية الشعب الألماني وأصبحت تستخدم حسب توجيهات الهيئات الألمانية للإدارة الذاتية فقط بالتنسيق مع الناظر العسكري المعني.

انطلقت جميع أعمال المارشال جوكوف من المبادئ السياسية والاقتصادية لاتفاقية رؤساء الحكومات الحليفة في بوتسدام من أجل إعادة البناء الديمقراطي لألمانيا، وقد نص أحد المبادئ السياسية في هذه الاتفاقية على: «التهيئة لإعادة بناء الحياة السياسية الألمانية بصورة نهائية على أساس ديمقراطي والمشاركة السلمية لألمانيا في الحياة الدولية».

بعد الحرب راح التقدميون يأملون بأن المجتمع الدولي سيتعظ من عبر الماضي وسيعمل على انتزاع النزعة العسكرية والانتقامية من جذورها، وكان رئيس جمهورية الولايات المتحدة روزفلت قد قال في العام ١٩٤٣: «كنا نعتقد بعد هدنة ١٩١٨ ونأمل بأن النزعة العسكرية الألمانية قد استؤصلت تحت تأثير «نموذج مبارك من الأفكار». وهكذا أضعنا الخمس عشرة سنة التي تلت ذلك ونحن ننزع عن أنفسنا السلاح، بينما راح الألمان يرفعون نداءات مفجعة إلى درجة أن الشعوب الأخرى لم تكتف بأن سمحت لهم بالتسلح فحسب، بل سهلت عليهم تلك المهمة أيضاً... إنني عازم على تجنب تكرار هذه الخطيئة المأساوية ضمن حدود الإمكانات البشرية». إلا أنه بعد وفاة روزفلت سارت سياسة الولايات المتحدة كما هو معروف في طريق مغاير.

لم يجر استئصال النزعة العسكرية والنازية وإعادة بناء ألمانيا على أساس ديمقراطي إلا في القسم الشرقي فقط، حيث ظهرت فيما بعد الجمهورية الألمانية الديمقراطية. وضع المارشال جوكوف أسس إعادة البناء هذه عندما تم، تحت إشرافه المباشر، التنفيذ الحازم لجميع قرارات وتوصيات مؤتمر بوتسدام التي تخص مستقبل ألمانيا.

تألقت مواهب المارشال جوكوف كشخصية سياسية أيضاً في هذه الفترة القصيرة الحافلة بالأحداث الهامة، إذ ارتبطت بنشاطه، في ألمانيا ما بعد الحرب بالذات، الأحداث التي كان لها فيما بعد أهمية حاسمة على تطور الموقف العام في أوروبا، وأصبح الكثير من الألمان يذكرون اسم المارشال جوكوف، كما يذكرونه في أقطار أوروبا الأخرى والعالم أجمع.

على الرغم من الاعتقاد بأن جوكوف كان حقاً قائداً عظيماً، بيد أنه قد يكون دون ذلك كسياسي. لكن نشاطاته كرئيس مسؤول في إدارة ألمانيا وممثل للاتحاد السوفييتي أكدت صفاته البارزة، إذ تحقق النجاح العام لنشاطه باقتران فطنته السياسية والدبلوماسية الواضحة مع حكمة وصرامة القائد العسكري البارز.

٣ ــ غ. ك. جوكوف عضو هيئة القيادة العليا ونائب القائد الأعلى

شغل جوكوف خلال الحرب الوطنية العظمى مكاناً بارزاً في هيئة القيادة العليا. فكان ستالين يعتمد عليه وعلى فاسيليفسكي أكثر من الآخرين ويوكل إليه المهام الأكثر تعقيداً ومسؤولية.

والحق يقال أن جوكوف وفاسيليفسكي وشابوشنيكوف فقط كانوا يمارسون بشكل منهجي قيادة القوات المسلحة على المستوى الاستراتيجي. ووفقاً لإحصائيات الجنرال

غوروكوف بخصوص هذه المسائل، زار جوكوف ستالين في الكريملين نحو (١٣٠) مرة حاملاً معه تقارير عن الموقف الاستراتيجي واستنتاجات منه ومقترحات حول تنفيذ الأعمال الحربية.

وباعتباره عضواً في هيئة القيادة العليا ونائباً للقائد الأعلى فقد عمل جوكوف في الهيئة لمعالجة المسائل الكبرى ذات الطابع الاستراتيجي نحو (٢٥) مرة بمعدل (٥ ــ ٦) أيام دون الأخذ بعين الاعتبار الزيارات القصيرة بخصوص المسائل الطارئة حين كان يستدعي فوراً من الجبهة لعدة ساعات ثم يعود رأساً إلى الجبهة.

شوهد جوكوف في نحو (٨٠) حالة يعمل ضمن صفوف قوات الجبهات حيث كان يقدم المعونة للقيادة في المسائل المعقدة للصراع المسلح وكذلك في تحضير القوات لخوض العمليات ومراقبة جاهزيتها. هذا وخلال الفترة ما بين آب ١٩٤٢ وتشرين الثاني ١٩٤٤، وقع على عاتق جوكوف (١٥) مرة واجب تنسيق أعمال الجبهات مع تحمل المسؤولية الكاملة عن نتائج العملية ومع صلاحية إصدار الأوامر والتعليمات إلى قادة قوات الجبهة. وقد سبق بحث خصائص وأساليب عمله في إعداد وتنفيذ العمليات وقيادة القوات في فصول سابقة.

عمل المارشال أكثر من مائة مرة في الجيوش والفرق مظهراً شجاعة يحسد عليها.

حينما اقتحمت الدبابات ورماة الرشاشات الألمانية مقر قيادة الجبهة في بيرخوشكوف، قرب موسكو، نرى جوكوف يرفع سلاحه الآلي مع الضباط الآخرين ويصد العدو. ويأتي عضو المجلس العسكري ي. س. خونولوف ليقترح عليه نقل مقر القيادة فوراً لمسافة أعمق في المؤخرة. وكان جوكوف متفهماً كذلك أن قائد وأركان الجبهة لا يمكنهم أن يعملوا وهم تحت الرمي المستمر من جانب العدو. لكنه كان مضطراً للتلاؤم مع هذا الخطر مدركاً أن تنقل «م. ق» الجبهة سيجر وراءه تنقل مراكز سيطرة الجيوش والفرق ثم القوات. وفي الموقف الناشئ حينذاك كان مَثَلُ الصمود والشجاعة الشخصية لقائد الجبهة من أهم العوامل النفسية التي ولدت الثقة والصمود لدى القوات في الدفاع.

كان مارشال القوات المدرعة غ. ك. ريباكوف يعتبر أن جوكوف أظهر في نيسان ١٩٤٤ بطولة ورجولة حين طار إلى موقع جيش الحرس المدرع الثالث الواقع في التطويق، وقدم المساعدة لقيادة الجيش في إيجاد أفضل طريقة للخروج من المأزق الصعب.

وهناك حالات عمد فيها إلى التوجه زحفاً إلى الحد الأمامي لكي يدرس بشكل أفضل الأرض وتمركز العدو والقوات الصديقة. استمع إلى الوصف الذي نشرته الصحافة على لسان الرائد ن. خ. بيلوف رئيس الحرس الخاص للمارشال:

« في المعارك الجارية على قوس كورسك ، وقبل إصدار الأمر من هيئة القيادة العليا إلى جبهة بريانسك للهجوم ، وصل جوكوف إلى مكان الضربة المحضرة . كان ذلك في (١١) تموز ١٩٤٣ ، وأوقفت العربة في غابة صغيرة على بُعد كيلو متر تقريباً عن الموضع الأمامي . ومنها ذهب سيراً على الأقدام مع قائد الجبهة م . م . بوبوف . وما أن وصل إلى الحد الأمامي حتى قال : « الآن ابقوا أنتم وأنا سأتابع وحدي ... » وكان من الضروري أن يتأكد بأن الأرض قد اختيرت اختياراً سليماً لانطلاق الدبابات . وزحفتُ خلفه . وصار جوكوف يتأمل بكل انتباه ، في النطاق الحيادي ، الوديان والتلال . وحينما كنا في طريق العودة انتبه إلينا الألمان . ووجدنا ألغاماً مبثوثة : واحد أمامنا والآخر وراءنا . الثالث سيكون من ألغامنا ، هيا انبطح على الأرض ! وبهذه الكلمات وثبتُ وغطيتُ المارشال بجسمي كما يفرض علي واجبي في الخدمة . وانفجر اللغم على بعد أربعة أمتار وانطلقت الشظايا إلى الأعلى . لكننا أصبنا برعشة شديدة على أثر الانفجار . وفقد جوكوف حاسة السمع » .

استمع إلى ما كتبه الجنرال آ . بيلابورودوف : « وصل إلى فرقة الحرس التاسعة التي كنت أقودها ، على حين غرة جوكوف وروكوسوفسكي ... وتبين أنه قبل توجهه إلينا في أركان الفرقة ، زار القطعات الأمامية ذاتها . وحينما تبادلنا الحديث أذهلني قبل كل شيء معرفة جوكوف العميقة للموقف على قطاعات الفرقة ، علماً بأنه كان قائد جبهة ممتدة من تولا حتى كالينين » .

سئل جوكوف بعد الحرب :

ـــ ما لزوم أن تغامر بنفسك طيلة الحرب بالخروج إلى الحد الأمامي !

أجاب جوكوف ، دون إمعان في التفكير ، كما لو أن هذه الفكرة لم تفارقه :

ـــ برأيي من واجب قائد الجبهة أو ممثل هيئة القيادة العليا ، حتى في أحلك الأوقات ، أن يتواجد من كل بد في المواضع الأمامية . هل هذا خطر ؟ نعم خطر . وأين ومتى تخلو الجبهة من الخطر ؟ من أجل هذا خلقت الحرب . لكن القائد العسكري بزيارته المواضع الأمامية يلتقي وجهاً لوجه مع الجنود ويستقي من الأيادي الأولى المعلومات الحقيقية عن وضع قواتنا وقوات العدو ، وهذا من شأنه أولاً ـــ أن يتيح له إمكانية اتخاذ القرار الأقرب إلى الصواب : إما تعزيز هذا القطاع أو نقل القطعة لتأخذ قسطاً من الراحة . وثانياً ـــ يملك جنود الحد الأمامي ، كما هو معروف ، ما يسمى بالاتصال من دون أسلاك ، كتفاً بكتف كما ترى ... ويكفي أن تتواجد بينهم عدة دقائق حتى يصبح معلوماً على امتداد الحد الأمامي أن قائد الجبهة موجود في صفوفهم ، وهذا أمر لا يستهان به » .

بصفته قائد جبهة كان يقتضي على جوكوف، طوال الحرب، أن يعمل بشكل رئيسي على الاتجاهات الاستراتيجية الحاسمة وفي أصعب قطاعات الجبهة حيث تنفذ المهام الرئيسية الأكثر صعوبة. وفي الواقع كان هو وروكوسوفسكي القائدين اللذين لم يتعرضا لأي فشل خطير أو هزيمة طيلة مدة الحرب حينما كانا على رأس القوات مباشرة؛ لذلك ليس على سبيل المصادفة أنهما بالذات ترأسا الاحتفال بالنصر عام ١٩٤٥.

لكي نحكم بحق على النشاط القيادي لجوكوف وفاسيليفسكي وروكوسوفسكي وكونيف وغيرهم من القادة العسكريين لا يجوز أن نغفل أبداً الظروف القاسية والمضايقات السياسية التي تعرضوا لها وهم يُدخلون القرارات الاستراتيجية والعملياتية حيز التطبيق.

كان الجيش الروسي غير موفق بهذا الصدد ما ينوف على (١٥٠) عاماً. فإذا تذكرنا تاريخ حرب القرم ١٨٥٣ ــ ١٨٦٥ والحرب الروسية ــ اليابانية والحرب العالمية الأولى، يتبادر إلى الذهن رأساً في أية ظروف صعبة لا تطاق وضع السياسيون الجيش الروسي، تلك الظروف التي كلفته مجهودات مبرحة للخروج منها.

بهذه المناسبة لا ضير من استعراض كيف يحضّر السياسيون الغربيون استخدام القوات المسلحة سياسياً.

لقد تمكنوا، سواء في زمن الحرب العالمية الثانية أو في سنوات ما بعد الحرب، عموماً (باستثناء بولونيا وفرنسا في فترة ١٩٣٩ ــ ١٩٤٠ أو فيتنام في السبعينات) من خلق الظروف الملائمة إلى أقصى حد، لعمل قواتهم المسلحة وتحضير العمليات من النواحي كافة. فالولايات المتحدة، لإهمالها أحياناً مصالح التحالف العامة وانطلاقاً من مصالحها القومية الأنانية، لم تدخل الحرب العالمية الأولى إلا في نيسان ١٩١٨، حينما كان مصير الحرب قد أصبح واضحاً. وفي الحرب العالمية الثانية لم تتدخل إلا في كانون الأول ١٩٤١ بعد الهجوم المفاجئ لليابان على بيرل هاربور. وقد استغرق تحضير أكبر عمليات الانزال في افريقيا عام ١٩٤٢ وصقلية ١٩٤٣ والنورماندي ١٩٤٤ أكثر من سنة لكل منها. وبهذا يفسّر حجم الخسائر القليل نسبياً. وكانت الأعمال القتالية في منطقة المحيط الهادي أشد وطأة على الأمريكان. وهنا كانت القيادات العسكرية، على مسارح الأعمال القتالية في أوروبا والمحيط الهادي، تتمتع باستقلالية كبيرة إلى حدٍ كاف. وتتميز في هذه الناحية أعمال الحكومة البريطانية خلال الحرب مع الأرجنتين من أجل جزر فولكلاند (مالفين). فقد اكتفت القيادة السياسية بتحديد المهام فقط، وفيما عدا ذلك قامت القيادة العسكرية دون استعجال بتحضير عملية الانزال بشكل منهجي.

لكن هل يتاح ذلك على الدوام؟ واضح أن مثل هذه السياسة وهذا الاقبال على حل المهام الحربية لا يمكن أن تتبناها إلا دول على غرار الولايات المتحدة وبريطانيا وسواهما من الدول التي وجدت نفسها، خلال الحرب العالمية الثانية، في وضع جغرافي ملائم، خصوصاً حينما كانت القوى الرئيسية للعدو المواجه مكبلة على الجبهة السوفييتية ـــ الألمانية أو موجودة في وضع سياسي خاص كالذي نشأ قبل العام ١٩٩١.

مثلاً لم يكن هنا من خيار آخر أمام بولونيا في العام ١٩٣٩ ولا أمام فرنسا في العام ١٩٤٠، ولا أمام الاتحاد السوفييتي عند تعرضه للهجوم في العام ١٩٤١ أو في المواقع أمام موسكو وستالينغراد وكورسك: بأن تنتظر حتى تستعد أو تدخل الحرب وتبدأ بهذه الموقعة أو تلك أم لا. فحينما تكون الحرب قد اندلعت والمعارك قد بدأت ليس هناك سوى خيار واحد: إما الاستسلام وإما خوض هذه المعارك الناشبة. في مثل هذه الظروف فإن الجهود المطلوبة من القوات المسلحة تكون مختلفة.

الفصل السابع

إكليل الفطنة والعبقرية

« جوكوف ــ موهبة عسكرية متألقة بحد ذاته ، وقائد يتمتع بتفكير استراتيجي عميق، خلق من أجل قضايا الكفاح العظيمة » .

(مارشال الاتحاد السوفييتي ي . س . كونيف)

كلما استعرضنا سنوات الحرب العالمية الثانية المنصرمة ، ارتسمت بوضوح وجلاء أكبر ، طلعة القائد السوفييتي البارز الحائز على لقب بطل الاتحاد السوفييتي أربع مرات مارشال الاتحاد السوفيتي غيورغي كونستانتينوفيتش جوكوف ، وذلك على خلفية الملاحم الكبيرة التي جرت في تلك السنوات المريرة .

عند تقدير العمليات التي نفذت تحت إشراف جوكوف وتميزت بأصالة الفكر والاندفاع ... والمفاجأة في أعمال القوات ، وبلوغ الأهداف ... وتحقيق المهام المسندة ، يمكننا القول بثقة أن جوكوف ــ شخصية متألقة بين قادة الحرب العالمية الثانية ، فهو منظم موهوب ومفكر عسكري عبقري وقائد جيد التأهيل على المقياس الاستراتيجي والعملياتي ــ التكتيكي ومتوافق مع طبيعة الحرب الحديثة . وفي مجال التأكيد على المستوى العالي الاستثنائي لتفكير جوكوف القيادي وعلى شفافيته الفريدة ، قال مارشال الاتحاد السوفييتي ف . غ . كوليكوف : « لقد استطاع النفوذ إلى جوهر الأحداث واستعراضها على نطاق واسع ضمن وحدة جدلية وثيقة وتقديرها بصورة صحيحة ، مما سمح له أن يرى التطور المحتمل للموقف العملياتي ــ الاستراتيجي ويأخذه بعين الاعتبار ويخمن أفكار العدو وطبيعة أعماله .

إن كل من يتتبع تاريخ الحرب يعرف أن اسم جوكوف كان يدخل الذعر في نفس العدو . وكانت الأعمال التي قام بها القائد معروفة إلى حد بعيد خارج حدود الاتحاد السوفييتي . فقد كتب عنه الكثير من المقالات والكتب بلغات عالمية عديدة . قال الكاتب

الاجتماعي الأمريكي غ. سولسبيري في كتابه «ملاحم المارشال جوكوف العظيمة» الذي طبع عدة مرات: «عندما تغربل الحبوب الحقيقية عن الشوائب الشائعة يتألق اسم الشخصية القاسية الصارمة فوق جميع القادة العسكريين» أما المؤرخ م. كايدن مؤلف كتاب «النمور تتكلم» فيسمي جوكوف «قائد القادة في خوض الحرب بجيوش القرن العشرين الجماهيرية».

وبدون أدنى شك فإن جوكوف قد أسهم، كقائد بارز ومفكر عسكري، بقسط كبير في تطوير الفن العسكري السوفييتي، كما أظهر تفوقاً تاماً على فن الحرب الألماني. وأثناء عرض النصر الذي جرى في (٢٤) حزيران ١٩٤٥ قال المارشال جوكوف في خطابه من منصة الضريح: «تم على الجبهة السوفييتية ــ الألمانية تمريغ هيبة السلاح الألماني في التراب وفرض نهاية ظافرة للحرب في أوربا. ولم تظهر الحزب القوىٰ الجبارة والبطولة الفريدة لجيشنا فحسب بل التفوق الكامل لاستراتيجيتنا وتكتيكنا على استراتيجية وتكتيك العدو أيضاً...».

عمل المارشال جوكوف في سنوات ما بعد الحرب على تعميم الخبرة القتالية المكتسبة من عمليات الحرب. وقد نفذ تحت إشرافه عدد من المؤتمرات العسكرية العلمية لمناقشة وتعميم خبرة وتحضير وخوض العمليات الكبيرة للقوات العسكرية، التي تعكس إلى حدٍ كبير منجزات فن الحرب السوفييتي. وتتمتع هذه الخبرة، التي بذلت دماء ملايين البشر للحصول عليها، بأهمية تتوافق مع الشروط الحديثة أيضاً.

يجب بحث طبيعة تفكير جوكوف الاستراتيجي وفنه القيادي بشكل أعمق حتى يكون أساساً لتدرج العديد من القادة العسكريين في العصر الحديث والمقبل.

١ ــ المبادئ الأساسية لفكر جوكوف العسكري

أثناء تحليل سير عمليات الحرب ونتائجها في أحد المؤتمرات العلمية التي جرت بعد انتهائها، سعى جوكوف إلى تجميع إنجازات فكره الاستراتيجية العامة، والتعبير عن عدة تصورات للمبادئ الأساسية في تحضير وخوض العمليات التي كان يهتدي بها طيلة الحرب عند إعداده لجميع العمليات.

أبرز في فن الحرب عدداً من المبادئ الأساسية التي يجب التقيد بها لأهميتها الحاسمة في إنجاز العملية والموقعة والمعركة.

وضع في المقام الأول معرفة العدو بشكل ممتاز، التقدير الصحيح لخطط الأعمال، التقدير الدقيق للقوى والوسائط والإمكانات.

أكد المارشال جوكوف أنه بدون معرفة الجوانب القوية والضعيفة لدى العدو، وبدون معرفة ما الذي يستطيعه العدو وما الذي لا يستطيعه، لا يمكن تحضير وتخطيط عملية ناجحة. لذلك يضع الدراسة الدقيقة الشاملة للموقف على رأس قائمة العديد من المسائل الأخرى كافة ويعطيها أهمية حاسمة، بشكل يجعل المعطيات عن العدو، في عمقه، هامة على قدم المساواة مع المعطيات عن أهدافه الكائنة على الحد الأمامي.

للحصول على المعلومات الموثوقة عن العدو يوصي جوكوف بالاستفادة من جميع طرائق وأنواع الاستطلاع الاستراتيجي والعملياتي والتكتيكي، على أن ينفذ الاستطلاع التكتيكي من قبل جميع صنوف القوات وخدماتها ولصالحها، ناهيك عن أنه يولي أهمية كبيرة لدراسة العدو من قبل القائد شخصياً من مقرات الرصد. ويرى جوكوف أن على القادة من جميع المستويات، عند تحضير العملية والمعركة، أن يشاهدوا شخصياً قطاعات الحد الأمامي، حيث ينظم الخرق، وأن يتأكدوا من دقة المعلومات التي يقدمها قادة المستوى الأدنى عن العدو ودفاعه. كما يوصي بإعطاء انتباه خاص لانتقاء الرصاد الدائمين ذوي الخبرة. فهو يقول بأن الراصد الخبير الذكي يمكنه أن يلحظ التفاصيل التي تسمح له بالتعرف الصحيح على أية أعمال هامة وحقيقية تصدر عن العدو. تدل خبرة جوكوف على أن الرصاد القليلي التأهيل أو الذين يجري تبديلهم كثيراً تكون معلوماتهم عادة سطحية وأحياناً مضللة، وقد كان هذا القائد طيلة الحرب يضع الاستطلاع على مختلف المستويات وفي كل صنوف القوات في المقام الأول، وكان يعطي توجيهات واقعية حول التأهيل المتقن للكوادر القيادية لتنظيمات ووحدات الاستطلاع وحول تضافر الوسائل والسبل المختلفة مع بعضها بغية الحصول على المعطيات الأكثر وثوقاً عن العدو التي تسمح بإجراء حساب دقيق للأعمال المناسبة بالمقابل لقوات الصديق بحيث تكون منسقة بالمكان والزمان والهدف مع تخمين الطابع المحتمل لأعمال العدو بأفضل الاحتمالات.

ومهما يكن من أمر فإن جوكوف يعتقد بأن توفير كمية كبيرة من المعلومات عن العدو لا يعني أبداً أن مسألة دراسة العدو قد حلت، إذ يجب أيضاً أن تتوفر المقدرة على معالجة المعطيات الاستطلاعية وتقدير العدو على أساس كل المتغيرات بعد إبداء المعرفة والفن للتمييز بين المعطيات الحقيقية والكاذبة التي يلجأ إليه العدو بهدف التضليل. إنطلاقاً من ذلك، يعطي أهمية كبيرة لتعليم القادة فن تحليل المعطيات الاستطلاعية، إذ أنه يعتقد بأن

أي رئيس ملزم بمساعدة مرؤوسيه في مجال التمعن بالموقف وتقدير العدو بشكل صحيح ، نظراً لأن العدو يتمتع أيضاً بوسائط استطلاع كثيرة وأنه يعمل استنتاجات صحيحة أيضاً عن عدوه .

من أجل تعميم المعلومات عن العدو في هيئات الأركان الأدنى بصورة فعالة ، يوصي المارشال جوكوف باستخدام طريقتين أساسيتين :

أولاً ــ الاحتكاك الشخصي بين الرؤساء والمرؤوسين . إذ أن ذلك يمكّن القادة من تفحص مدى تفهم القادة المرؤوسين للموقف ولأفكار العدو وصحة تقديرهم لها .

ثانياً ــ إيصال المعلومات حول إمكانات العدو إلى القادة المرؤوسين وأركاناتهم على الأقنية المختلفة . وعلى وجه الخصوص يجب على الأركان الأعلى أن تعمم دورياً آراءها حول المعلومات المتوفرة مضمنة إياها تقدير العدو حول المسائل مثل الحالة التي يعيش فيها العدو ، ومكان نقاط ضعفه وقوته ، وماذا يمكن أن نتوقع منه ، وأين يجب أن نضربه كي ننفذ المهمة بصورة أفضل .

يعتقد جوكوف بأنه ليس هناك معطيات يمكن أن يقال عنها أنها ضئيلة الأهمية في مسائل إستطلاع العدو ، إذ لا يجوز إهمال المسائل الصغيرة التي قد يكون لها بالذات صفة القطرات التي ترجح الوزن إلى هذا الجانب أو ذاك . يجب أن نذكر دائماً ــ كما قال جوكوف : « إن إهمال أصغر المسائل عند تحضير العمليات ينعكس بشكل ضار جداً على تنفيذ العملية والمعركة » .

تتبعنا في الفصول السابقة ، كيف أن جوكوف كان يتمتع منذ البداية بالنشاط القيادي ، ويحضر مبدئياً المعلومات المتلقاة عن العدو ، وينفذ إلى جوهر أفكاره ، ويستنتج الطرائق المناسبة للصراع مع العدو ، ويتخذ القرارات الجريئة الوحيدة المدلول ، ويرفعها إلى القيادة العليا السوفييتية ، ويعطي توجيهات واقعية للقوات عن كيفية خوض المعارك والوقائع وأفضل طريقة لضرب العدو باستغلال نقاط الضعف لديه . وقد لحظ ف . غ . كولياكوف بصدق : « أن جميع الخطط الاستراتيجية للقيادة العليا وأفكار العمليات التي تألقت في المجموعة الذهبية لفن الحرب المتعلقة بسحق العدو وتدميره كانت عملياً من إلهام الموهبة الجبارة لجوكوف » .

يعتقد جوكوف بأن المعرفة الشاملة لأوضاع قوات الصديق وإمكاناتها وتدريبها الدقيق والهادف لصالح المعركة هي من المبادئ الهامة في فن الحرب لإحراز النصر . ومع التنويه بذلك

فهو يؤكد وجوب الاستعداد للعملية على أساس أن الصراع سيكون دوماً مع عدو محنك ، قوي وعنيد . فإذا كان العدو أضعف في واقع الأمر مما توقعنا فإننا لن نخسر شيئاً ، إذ أن العملية ستسير بسرعة وسهولة أكبر وبأقل خسائر ، أما إذا وقع العكس ولم يقدر العدو حق قدره ، فإن العملية تفشل ويقع مزيد من الضحايا دونما مبرر ، زد على ذلك ضعف الروح المعنوية لدى القوات .

وكيلا تؤدي المغالاة في تقدير العدو إلى خفض إيقاعات خوض العملية ، يوصي جوكوف بـ « عدم التمسك بالخطة تمسك الأعمى بعصاه » أثناء المواقع القتالية والمعارك . « إن الخطة ـــ كما يقول المارشال ـــ ما هي إلا اتجاه ، أما الأعمال فيجب أن تطور على أساس عقل سليم من خلال القيادة بمساعدة الشروط المواتية ، إلا أن ذلك يتطلب إعداد هيئات الأركان والقوات ، كي تستطيع التوجه بسرعة في الموقف المتغير وإظهار المبادأة والاستفادة بسرعة من أية خطيئة للعدو ومن أية إمكانية متاحة ، دون انتظار توجيهات من الأعلى » . إضافة إلى أن القائد ينظر إلى التخطيط الدقيق والتأهيل التام للقادة والأركانات والقوات كأهم شرط لإنجاح خوض العملية والوصول إلى نهايتها الظافرة . « إن تخطيط العمليات وإعدادها ـــ حسبما يعتقد جوكوف ـــ هو عمل صعب جداً ، متشعب ، لا يتطلب الوقت الكافي فحسب بل الإبداع والجهود المنظمة من جانب عدد كبير من الضباط أيضاً » .

وهذا له دلالة كبيرة جداً في مجال الدراسة ، لذلك كان جوكوف يهتدي بها دائماً في العمل ، فأثناء وجوده في جبهات القتال كممثل للقيادة العليا وقائد للجبهات كان يقدم للقادة المرؤوسين العون الشامل لاتخاذ القرارات المناسبة ودراسة طبيعة أعمال العدو وشروط الأرض وإنشاء تراتيب قتال التشكيلات والقطعات ... الخ بعناية . كما كان أثناء تحضير العملية ينفذ إلى جميع جوانب ومسائل تخطيطها ، فكان يعالج ويحسب بالتفصيل ويدقق كل هذه المسائل مع قادة صنوف القوات ورؤساء الإدارات والمصالح ومع قيادات الجيوش ، ويتمعن بأداء حالات العمل على الخرائط والمجسمات . كما كان يبحث دائماً ويجد السبل لينتصر على العدو بأقل خسائر ممكنة وبأقصر وقت .

يعتقد جوكوف أنه لا يمكن إحراز النجاح في العملية بدون إعداد تمهيدي للقادة والأركانات . وبذلك يعتبر أن اتخاذ القرارات وتخطيط العمليات عندئذ هام جداً ، غير أن ذلك ليس إلا جزءاً أولياً لتحضيرها .

إن تحديد الأسلوب الأنسب لسحق العدو في هذه المرحلة ، حسب رأيه ، يتمتع بأهمية جوهرية . ويعتقد جوكوف أن عملية التطويق هي الأكثر فعالية من حيث الشكل . كما

ينوه بأن الطريقة الأفضل لمثل هذه العمليات هي التي تحتل بها القوات المواضع المحيطة بتجميع العدو ، كما يوصي في حالات أخرى من عمليات التطويق بتوجيه ضربات على اتجاهات متلاقية أو بدفع نحو البحر، وبالتالي توجيه ضربات مهشمة بهدف تقسيم تجميع العدو وتدميره على أجزاء.

يبرز بين مسائل تحضير العملية على وجه الخصوص: تنظيم التعاون، متابعة دراسة العدو باستمرار، تدقيق المهمة، رسم ملامح العملية وأدائها، تنظيم جميع أنواع التأمين، تنفيذ تدابير التمويه والتضليل بالمعلومات وما إلى ذلك، تنفيذ التدريب القتالي مع أخذ طبيعة المهام المقبلة بعين الاعتبار. ويشير جوكوف إلى أن العملية لن تحرز النجاح إذا كانت أركانات القوات غير جاهزة لتنفيذها مهما كانت الخطة جيدة.

يوصي جوكوف بشكل مقنع بالمعالجة الدقيقة والتعاون مع الجوار ووسائط التعزيز والطيران، وبدراسة أصول خوض العملية في جميع مراحلها ووضع الحالات المحتملة لأعمال جميع القوى في هذا الموقف أو ذاك بالتفصيل، ويجب معالجة مسائل القيادة والاتصال بعناية. ومن أجل ذلك يوصي بتنفيذ لعبة حرب ومشاريع قيادة وأركان وكذلك يجب القيام بالتدريب القتالي الهادف للقوات لمساعدتها على العمل بتنسيق ونجاح كبير، ومعالجة المهام النارية والتكتيكية وفن التدمير الناري للعدو والهجمات بالتعاون مع الدبابات والمدفعية والطيران بصورة تامة.

يعتبر مثل هذا الإعداد حتمياً قبل كل عملية كبيرة، كما يعتقد المارشال أن الروح المعنوية العالية للقوات شرط لا بدّ منه لنجاح أية عملية. ويذكر في كتاب «مذكرات وتأملات» (ص ٣٨٢ ـــ مجلد ١) حول ذلك: «أن التاريخ يعرف العديد من الأمثلة عندما تفقد القوات القدرة على المواجهة بسرعة تجاه تفوق السلاح وتعمد إلى الفرار كما يقال بكل بساطة. ومع أنه لا أحد يستطيع أن يضع حداً واضحاً بين دور السلاح الخاص والعتاد الحربي من جهة وأهمية الروح المعنوية لدى القوات من جهة أخرى، فمما لا شك فيه أنه عند تعادل الشروط فإن النصر في أكبر الملاحم والحروب ككل يكون من نصيب تلك القوات التي تتميز بالتصميم الفولاذي على النصر، وتقصي واستيعاب الهدف، وثبات الروح والاستعداد للتضحية والفداء في سبيل الراية التي نذهب إلى المعركة في ظلها».

يتجلى أهم عناصر الموهبة القيادية لدى جوكوف، كما هو واضح من تحليل عملياته الظافرة، بالمهارة في تحقيق المفاجأة.

تتحقق المفاجأة حسب رأي جوكوف على أفضل وجه بواسطة عنصرين :

العنصر الأول ــ تضليل العدو والاندفاع في الأعمال . يتحقق تضليل العدو فيما يتعلق بخطط العملية وأماكن شن الضربات وزمنها بالتمويه العملياتي والتكتيكي الدقيق وبمعالجة الوثائق بطريقة سرية ، والتقيد الصارم بحجم المعلومات الضرورية التي تعطى لكل مستوى بدءاً من القيادة العليا وحتى القوات . على أن يولى عندئذ انتباه خاص إلى تحشيد القوى والوسائط على اتجاهات الضربات الرئيسية وإظهار إعادة تجميعات كاذبة على قطاعات لن يجري الهجوم عليها .

يرى جوكوف أن ينفذ التمويه العملياتي والتكتيكي بالتمازج مع الاستخدام الفعال لجميع طرائق التمويه الأساسية : الإخفاء ، التظاهر ، المحاكاة ، التضليل بالمعلومات .

للحصول على المفاجأة العملياتية يوصي المارشال جوكوف بأن ينفذ التمويه العملياتي على جبهة عريضة وعلى مقياس التشكيل العملياتي والأركان العامة فقط . أما العناصر التكتيكية للتمويه فيمكن أن تنفذ على مقياس القطعة والتشكيل التكتيكي .

إن خطة التمويه العملياتي يجب أن توضع من قبل قائد التشكيل العملياتي شخصياً وأن تنسق في الأركان العامة . وهذا ما يؤكده جوكوف على وجه الخصوص ، إذ أن خطة التمويه العملياتي لتشكيل عملياتي ما ، قد توضع من قبل تشكيل عملياتي آخر أو مجاور .

« أنا أعرف أمثلة عديدة ــ كما يؤكد جوكوف ــ قامت فيها جبهة بتحضير ضربة في قطاع ، بينما تظاهرت بتحشيد قواتها على قطاع آخر بهدف تضليل العدو ، إلا أن العدو استطاع حسب فكرته أن يدفع بقسم من قواته إلى الاتجاه المهدد ، حيث كان الجوار قد أعد ضربة حقيقية » . لذلك كانت خطط التمويه المنسقة بصرامة توضع في أركان الجبهات وبمشاركة ممثلي أنواع القوات المسلحة والصنوف وتصدق من قبل الأركان العامة .

العنصر الثاني ــ الاندفاع في تنفيذ الخرق وخوض العملية ككل ، ويربطه جوكوف مع سرعة اختراق الدفاع التكتيكي للعدو والوصول إلى المنطقة العملياتية وسحق احتياطات العدو . فسرعة المناورة واندفاع الأعمال هما الواسطة الفعالة ضد جميع تدابير العدو ، وضمناً إعادة تجميعاته سواء من العمق أو من قطاعات الجبهة الأخرى ، « إن الاندفاع ــ كما يقول المارشال ــ هو الواسطة الرئيسية لسحق العدو بسرعة . إذ يجب العمل بسرعة كافية لجعل العدو عاجزاً عن الوصول إلى أية نقطة في الوقت المناسب » .

كان الوصول باندفاع إلى جوانب العدو ومؤخرته، يضعه في موقف صعب بعد أن يؤخذ على حين غرة، مما يحقق النجاح في سحق القوى الكبيرة المعادية من قبل قوى محدودة، ومهما يكن من أمر فإن جوكوف يرى أن الناحية التقنية فقط لا تكفي للقيام بأعمال حثيثة، إذ يجب تعليم القوات، ولاسيما أركاناتها، على تقدير الموقف بسرعة واتخاذ القرار العاجل. كانت الأعمال الحثيثة من حيث طبيعتها تتطلب دائماً من القادة مبادأة واسعة وجريئة واستعداداً دائماً لأخذ مسؤولية النشاط القتالي المتصف بالعقل على عاتقهم. ففي هذه الحالة فقط وتحت إشراف مثل هؤلاء القادة، ـــ كما يشير المارشال جوكوف ـــ تستطيع القوات سبق العدو في الاستيلاء على خطوط ملائمة والانتشار وفتح النار والإحاطة بجوانب العدو ومهاجمته باندفاع.

يعطي القائد أهمية كبيرة لدقة حساب القوى والوسائط من أجل تنفيذ العملية، إذ يعتبره أساساً للقرار المناسب. ويؤكد جوكوف أنه لا يجوز أن تسند للقوات مهام تفوق طاقتها، نظراً لأن ذلك لا يعطي أي مردود، ناهيك عن الخسائر واستنفاذ القوى وانهيار الروح العسكرية. ويجب أن تؤمن كل ضربة إلى حدٍ كافٍ، بوسائط الخرق وبوسائط تطوير الخرق والمطاردة وبالاحتياطات أيضاً. يجب أن تتلاءم أية مهام تكتيكية وعملياتية واستراتيجية مع الإمكانيات القتالية للقوات. ويعتقد جوكوف أن لا يجوز تصحيح الأخطاء المرتكبة في حساب القوى والوسائط، بالسلوك البطولي للمشاة أو بالهجوم الجريء للدبابات أو بضربات الطيران. ولن تنفذ المهام في جميع العمليات ولن تبلغ أهدافها إذا لم نراقب باستمرار كمية القوى والوسائط المكلفة بالعملية. «إذا لم تكف القوى ـــ كما يوصي جوكوف ـــ فمن الأفضل الإقلال من تنفيذ المعارك والعمليات الهجومية، وعدم استنفاذ القوى والوسائط بمعارك صغيرة، إذ يجب إدخارها لتنفيذ عمليات أكبر بعد جمعها. ينبغي ضبط النفس، فالقضية ترتبط بالأرواح البشرية، التي يجب إدخارها استعداداً لعمليات أكثر جدية وذات أهداف حاسمة وعميقة».

غير أن التحديد الصحيح للقوام والقوى والوسائط لا يضمن وحده النصر، وقد دلت خبرة الحرب أن العمليات لا تنجح أحياناً حتى في حال التفوق بالقوى، بل على العكس فإن بعض العمليات كانت تحظى بنجاح في حال التعادل، أو حتى في حال تناسب سلبي في بعض أنواع الوسائط.

كان المارشال جوكوف ينفذ دائماً العمليات مع تكثيف القوى والوسائط بمهارة على اتجاهات حاسمة، كما كان يطلب ذلك من قادة الجبهات التي كان ينسق أعمالها كممثل للقيادة العليا. كان المارشال جوكوف يطلب في أوامره من قادة المستويات العملياتية

والتكتيكية التخلي عن الممارسة الخاطئة المتعلِقة بتوزيع متساو للقوى والوسائط على كامل نطاق الهجوم، والسعي لإنشاء تجميعات ضاربة قوية على اتجاهات هامة قادرة على تحطيم الدفاع بسرعة وتطوير النجاح على أساس تكثيف القوى والوسائط بمهارة. ففي حال التفوق غير الكبير في القوى، يشير جوكوف إلى الإمكانية الدائمة للوصول إلى تفوق كبير بالمدفعية والدبابات والطائرات على اتجاهات الضَربات الرئيسية.

يشير جوكوف إلى أن تركيز جميع القوى على الاتجاه الرئيسي يجب ألا يكون عشوائياً. ففي أساس أي تركيز للقوى والوسائط يجب أن يحسب حساب للتوقعات حول أعمال العدو والحالات المخططة للأعمال المعاكسة. إن تركيز القوى والوسائط، كما يقول جوكوف، يتطلب الفن الرفيع من جانب القادة والأركانات.

يعتقد المارشال جوكوف أن المسألة الأعقد في تحضير العملية تتجلى بتنظيم الإمداد المادي، وإعداد المؤخرة للقيام بتأمين العملية بصورة متواصلة.

وفيما يتعلق بأهمية التدابير المتعلقة بالتأمين المادي للعمليات، يلحظ جوكوف أن كثيراً من العمليات قد أحبطت في سنوات الحرب بسبب درجة تأمينها المادي وليس بسبب إعداد المؤخرة. لهذا يوصي، بإصرار من أجل المستقبل، أنه لا يجوز في مثل هذه الظروف خوض عملية غير معدة من الناحية المادية. قد يدفع الموقف العام القيادة العامة وأحياناً القائد بالذات إلى تنفيذ سريع للعملية بعد تقدير الموقف العام والتأكد من ملاءمة خوض العملية بناءً على تصورات عملياتية ـــ تكتيكية. غير أنه إذا ما اتخذت القيادة القرار لتنفيذ العملية دون حساب لتحضيرها من الناحية المادية، فإن مثل هذه العملية ستصاب بالفشل بغض النظر عن النجاح الأول: لا يمكن للعملية أن تبلغ هدفها دون كمية كافية من الذخائر والوقود والوسائط المادية الأخرى. فالنجاح المؤقت الذي لا يتعزز لاحقاً بالتأمين المادي سيتحول إلى الفشل.

بعد إجراء مثل هذه المحاكمة وتعزيزها بأمثلة من خبرة خوض العمليات، يخرج المارشال جوكوف باستنتاج قطعي: «يجب عدم الشروع بالعملية إلا عندما تكون محضرة من جميع الجوانب وضمناً التأمين المادي». وبغض النظر عن الموقف العملياتي ـــ التكتيكي العام المواتي، على القائد المنظم للعملية ـــ حسب اعتقاده ـــ أن يتغلب على الإغراءات ويتخلى عن خوض عملية غير محضرة. أما إذا أصر المستوى الأعلى على التنفيذ، فعليه إظهار الشجاعة والتنويه بعدم جاهزية العملية.

يصوغ جوكوف مطلباً آخر يرتبط بالتأمين المادي لخوض العملية على الشكل التالي : «إن المؤخرة الحديثة يجب أن تكون جاهزة دائماً لمتابعة العملية» . وفي مجال شرح هذا المطلب يقول إن رؤساء المؤخرة يجب أن يكونوا بعيدي النظر ، قادرين على استشفاف شروط الإمداد بالمخزونات المادية وإنشائها على الاتجاهات الحاسمة وتأمين القوات المهاجمة دون انقطاع . هذا ما يراه المارشال أحد العوامل الرئيسية لتطوير العملية الناجح وبلوغ أهدافها ، علماً بأن عدم قدرة المؤخرة على إمداد القوات المهاجمة وتخلفها عن القوات التي تتقدم بنجاح في الأمام يعتبر عاملاً أساسياً مثبطاً يجبر على إيقاف العملية . هكذا يقدر جوكوف دور التأمين الإداري في سير العملية انطلاقاً من خبرة خوض العمليات . فهو يربط نجاح أية عملية مباشرة مع نجاعة تدمير العدو بنيران فعالة ومع القدرة على استخدام المدفعية والطيران .

تبرهن خبرة الحرب على أن النجاح يتوقف قبل كل شيء على الاستطلاع الدقيق للعدو وتنظيم نيران المدفعية وضربات الطيران على الأهداف والأغراض الهامة . ولإبطال منظومة دفاع العدو بشكل مضمون ، كما يشير جوكوف ، ينبغي دراسة توضع منظومة النيران المعادية بدقة وتخطيط التمهيد المدفعي والجوي على أساس ذلك . «إن تنفيذ الرمي والقصف على المساحات ــ كما يؤكد المارشال ــ لا يمكن أن يدمر منظومة الدفاع المعادية» . في هذه الحالة يمكن الرمي بغزارة دون الحصول على النتائج اللازمة . انطلاقاً من هذا يوصي جوكوف بعدم تنفيذ الرمي على المساحات أثناء تمهيد المدفعية ، بل على أهداف وأغراض معينة ، ينبغي تحديد أماكنها بدقة . وهذا من مهام الاستطلاع الأساسية .

فالمهمة النارية بحد ذاتها يجب أن تنفذ بالشدة القصوى كي يتم إطلاق الحد الأقصى من النيران خلال أقل زمن . يقول جوكوف : «إن المفاجأة وضربات المدفعية التي تصعق العدو بنيرانها الضاربة ، تحطم العدو معنوياً وجسمانياً وتساعد على أن تؤمن لنا النجاح الكبير» .

في مجال الضرورة الملحة لضربات المدفعية القوية التي بدونها لا يمكن إبطال المنظومة النارية للعدو ، يشير المارشال إلى أنه يجب أن لا تقل كثافة المدفعية عن (٢٠٠ ــ ٢٣٠) فوهة على (١) كم من الجبهة من أجل اختراق الدفاع المحضر المنسق بالعمق ، كما يلحظ أنه لا يجوز التعويض عن قلة الفوهات بزيادة كمية الذخيرة فهذا يؤدي إلى إطالة زمن تمهيد المدفعية مما يتيح للعدو استقدام الاحتياطات إلى القطاع المهدد والمناورة بالوسائط على طول الجبهة ، ويعطيه الوقت لاحتلال مواضع خلفية .

ولتأمين التفوق الناري على العدو يوصي جوكوف باستخدام المدفعية بصورة مركزة على اتجاهات الضربات الرئيسية، بتحشيد حتى (٨٠٪) من مجموع المدافع والهاونات عليها. يوصي بتدمير العدو بالنار بطريقة جديدة كل مرة. يقول جوكوف: «على كل قائد أن يكون عدواً للنمطية وعدواً لأي مخطط، لاسيما تلك النمطية وتلك الخطة اللتين يعرفهما العدو جيداً. ويجب في كل معركة مفاجأة العدو أو مباغتته بشكل ما».

يسمح استخدام مخططات متنوعة لتدمير العدو نارياً ــ كما أشار جوكوف ــ بإخفاء بداية الهجوم وتأمين نجاح الوثبة الأولى على العدو. وبتنويع نظام تدمير العدو نارياً، تبدأ المهاجمة أثناء التمهيد بأوقات تختلف من مرة إلى أخرى، وبهذه الحالة لا يستطيع العدو معرفة الصبيب الدوري الذي يأتي الهجوم بعده، فيظل في الملاجئ عاجزاً عن إبداء أية مقاومة نارية نشيطة. «يعتبر فن التمويه على بداية الهجوم ــ كما يقول جوكوف ــ العامل الأساسي للنشاط القتالي الرامي إلى إنجاح الوثبة الأولى على العدو».

أعطى جوكوف أهمية كبرى لاستيعاب أحدث إنجازات العلم والتكتيك من قبل الكوادر العسكرية، كما أكد أنه لا يمكن إظهار المستوى الرفيع في زمن الحرب إلا على أساس المعارف العلمية العميقة واستيعاب كل المكتسبات في مجال الاستراتيجية وفن العمليات والتكتيك. ويعتقد بأن الخبرة القتالية ثروة قيمة يجب الاستفادة منها بصورة إبداعية، مع أخذ التغييرات في العتاد والتسليح وفي تطور أشكال الصراع المسلح وطرقه بعين الاعتبار، إضافة إلى الشروط الواقعية لمسرح الأعمال الحربية والموقف العام.

على الرغم من أن المعدلات العملياتية ــ التكتيكية، وطرق تنظيم التدمير بالنار وإنشاء تراتيب القتال وخوض الهجوم أو الدفاع التي كانت تستخدم في سنوات الحرب العالمية الثانية لم تعد تتناسب مع الشروط الحديثة، إلا أن هناك أحكاماً ومفاهيم ومبادئ في هذه الخبرة لم يتقادم عليها الزمن. ينحصر المدخل بحد ذاته لحل المهام العملياتية ــ التكتيكية بالإبداع الواسع في اتخاذ القرار وتخطيط العملية، وبالقدرة على الكشف العميق ليس لتجميع العدو فحسب بل لفكرة أعماله المحتملة أيضاً، وبالقدرة على توقع الشروط المحتملة لتطور العملية والتبصر بها، وبالحساب الدقيق لتناسب قوى التجميعات الضرورية لقوات الصديق وقوامها، وبتحديد طرائق العمل الأفضل والتي لا يتوقعها العدو، وبالتأمين الشامل للعملية وإعدادها من الناحيتين الإدارية والفنية .... الخ.

على أساس ذلك تتمتع خبرة المارشال جوكوف في تحضير العملية الظافرة وخوضها بأهمية ترقى إلى مستوى العصر.

هذه هي تأملات المارشال جوكوف وتعاميمه واستنتاجاته الخاصة في مجال فن الحرب . لنحاول جمع السمات المميزة لأفكاره ونشاطاته وفرزها ، انطلاقاً من حصيلة التحليل لطريق المجد الذي سار عليه هذا القائد .

٢ ــ السمات المميزة لأفكار المارشال جوكوف القيادية ونشاطاته

بعد تحليل المراحل الأساسية للنهج الحياتي والنشاط القيادي الخاص بالمارشال جوكوف ، نصل إلى استنتاج لا شك فيه وهو أن الله تعالى غرس فيه منذ ولادته ملكات فائقة . ويتجلى استنتاجنا الثاني بأن كل ما تحقق على يده كان ثمرة العمل الجبار الذي بفضله تبلورت صفاته كقائد عصري موهوب يتمتع بالتفكير الإبداعي والبداهة النادرة والقدرات التنظيمية الراقية والحسم الفولاذي والعزيمة التي لا تلين لبلوغ أهداف العملية . أما الاستنتاج الثالث فهو أنه ابن الشعب الروسي العظيم ، كما أنه يستحق بكل معنى الكلمة المجد بوصفه الأول بين قادة الحرب الوطنية العظمى والحرب العالمية الثانية .

في كل من العمليات المحضرة والمنفذة بإشراف هذا القائد ، نرى مرحلة جديدة في تطور فن الحرب وقسطاً جديداً شخصياً له في هذا المضمار كاستراتيجي ومفكر عسكري ومنظم مبدع .

وبفضل العبقرية الخلاقة لجوكوف تم تنظيم العمليات الهجومية المتتابعة وتنفيذها ، وإنشاء تجميعات ضاربة قوية على اتجاهات الهجوم الرئيسية ، وشن ضربات جانبية جريئة والوصول إلى مؤخرات القوى الأساسية للعدو المقابل بهدف تطويقها وتدميرها .

كان جوكوف نموذجاً راقياً في مجال تنظيم الدفاع المتزن المنسق بالعمق والقيام بعمليات الهجوم العام المعاكس بأهداف حاسمة . علماً بأن جميع العمليات التي نفذت تحت إشرافه تعطي مادة موسعة للكشف عن جوانب متعددة في الموهبة العسكرية للقائد وفي السمات المميزة لأسلوب قيادته العملياتية ولأصالة وهادفية تفكيره الصارم . فقد كان جوكوف يتصف قبل كل شيء بالقدرة على تقدير الموقف بسرعة وبشكل صحيح والتنبؤ بتطوره ، ومن خلال نشاطه القتالي بدور قائد جبهات وممثل للقيادة العليا ونائب القائد الأعلى ، وقف جوكوف وجهاً لوجه مع نخبة من الضباط الأمراء الألمان مثل الفيلد مارشال ليب Leeb عند لينينغراد ، والفيلد مارشال بوك Bock والجنرال غوردريان Guderian عند موسكو ، والفيلد مارشال باولوس Paulus عند ستالينغراد والفيلد مارشال مانشتين Manstein عند كورسك وفي أوكرانيا والجنرالين د . هاربه D.Harpe وشترنروت على اتجاه برلين .

استخدم كل من هؤلاء القادة الهتلريين الأساليب المختلفة الفعالة إلى حدٍ كبير التي كان يجب فهمها وتقديرها ومواجهتها بأفعال مناسبة من أجل إحراز النصر . لكن بغض النظر عن الأهلية القتالية المعروفة لدى الجنرالات الألمان وقدرتهم على تحضير العمليات وتنفيذها ، كان جوكوف يحرز الانتصار تلو الانتصار بعد أن يفكر في كل حالة كاستراتيجي أصيل في العصر الجديد ، إذ كان ينظر بعيداً إلى الأمام متنبئاً بتطور الأحداث على مسرح الأعمال الحربية دون أن يكتفي بالمعطيات المتوفرة بين يديه .

كانت دراسة الموقف العميقة والشاملة تساعد جوكوف على تقدير الحالة الحقيقية للعدو المقابل لقوته ، مع دراسة نواحي قوته وضعفه باهتمام واحد ، مما أتاح له إمكانية التعمق في أفكار العدو وخططه ، وتخمين نواياه وإيجاد القرارات الصحيحة للمهمة المسندة وتحديد خطة الأعمال ، واتخاذ الإجراءات الضرورية في حينها بهدف صد ضربات العدو .

وهكذا حدد جوكوف ، في ملحمة موسكو ، اتجاهات الضربات الجانبية لمجموعة الجيوش الفاشية « الوسط » بشكل صحيح ، مجابهاً إياها بدفاع منسق بالعمق . كما حدد جوكوف في ملحمة كورسك اتجاه الهجوم الاستراتيجي الألماني بدقة والقوى التي قذف بها هتلر إلى هذا الاتجاه وأصر على ستالين بضرورة الدفاع المسبق . وفي عملية فيسلا ــ أودر ، حيث لم يبق سوى (١٣٠) كم إلى برلين التي لا يحتلها الألمان دفاعياً كما يجب ، أوقف جوكوف القوات نظراً لأنه استشف ضربة معاكسة قوية محضرة نحو جانب الجبهة .

تدل هذه الأمثلة وسواها على أنه كلما كان اتخاذ القرار بتنبؤ صحيح وبما يلائم الموقف الراهن تماماً ، كلما تحققت هادفية التخطيط وواقعيته بصورة أفضل ونشأت شروط مواتية أكثر لبلوغ النجاح في تنفيذ المهام المسندة . وفيما يتعلق بالقدرة على التنبؤ بتطور الأحداث الحربية الأكثر احتمالاً فإن جوكوف لم ينبغ فيها بفضل ذهنه الفطري الفريد المعروف فحسب بل وبفضل المخزون الكبير من المعارف الشاملة والتمتع بأسلوب التفكير الجدلي والقدرة على الدراسة التحليلية لخبرة الحرب بالكامل وإدراكها عملياً ، ودراسة إمكانيات العدو المقابل وصفات شخصيات قيادته العامة أيضاً .

وبالذات فإن موهبة التفكير الجدلي الواسع النطاق والنفوذ إلى جوهر الأحداث بعمق وتوقع الطابع المحتمل لأعمال العدو والتنبؤ به ، ناهيك عن تطوير الموقف العملياتي ــ الاستراتيجي بأكمله ، قد أسفر ويسفر عن تفوق حاسم لشخصية جوكوف كقائد ، على جميع قادة الرايخ ، إضافة إلى تفوقه على قادة آخرين أيضاً ، زد على ذلك أنه كان أثناء قيادته في فترات معينة لهذه الجبهة أو تلك ، مع الاحتفاظ بمنصبه كنائب للقائد الأعلى ، يحيط بفكره

وبصيرته بالجبهة الاستراتيجية المترامية الأطراف كلها ليصل إلى تنبؤات دقيقة في مجال أفكار العدو على طول الجبهة، ويعطي اقتراحات صائبة حول أفضل طبيعة لأعمال القوات السوفييتية، ويمكن القول ببساطة في هذا المضمار بأنه لم يكن له مثيل بين القادة في تلك الحرب.

تتجلى سمة هامة أخرى للفن القيادي لجوكوف بقدرته على الفهم العميق لمبادئ سير الأعمال القتالية واتخاذ القرار الجريء والسريع الذي يؤمن بلوغ النجاح. كان القرار الذي يتخذه يتميز دائماً بالتعليل والوضوح والهادفية، وكان الاستعداد للإقدام على المخاطرة يمتزج عنده دائماً بالتبصر الصارم والحذر الضروري مع الفهم العميق للموقف الحقيقي، ولهادفية خطط العمليات. استندت أفكاره العملياتية إلى حساب دقيق للقوى والوسائط، وكانت المهام التي تسند للقوات لا تتعدى حدود إمكاناتها على الرغم من احتياجها للجهد الشديد.

كان يهتم بكل شيء عند تحضير العملية: مدى استكمال التشكيلات والقطعات بالأفراد والعتاد القتالي، مدى معرفة القادة للمهام وكيف يفكرون بتنفيذها، هل زودت جميع القطعات بالوسائط المادية وكيف يسير تحضيرها للأعمال القتالية على الأرض، هل تشابه أرض التدريب تلك الأرض التي ستعمل عليها... وهكذا.

لما كان جوكوف قائداً في المرتبة العليا، فقد كان يتمتع بصفات معنوية ــ إرادية ممتازة وباطلاع واسع في مجال قيادة القوات، مما ساعده على العمل بنجاح وتسيير أعمال الآخرين في أية مواقف معقدة. فتارة كان جوكوف يقوم في جبهة ما بدور المرشد كيلا يظهر وكأنه بديل للقائد، فيهتم عندئذ بالتطور الإيجابي للأحداث على الاتجاه الراهن بصورة أعمق، وتارة أخرى يعمل جوكوف في مجال تنسيق أعمال عدة جبهات، كرئيس موحد وموجه لجهودها، من أجل تنفيذ المهمة الاستراتيجية المسندة، آخذاً بعين الاعتبار مكانها وأهميتها في منظومة الجبهة السوفييتية ــ الألمانية ككل. وحيثما وجد جوكوف في الأركان العامة أو في القوات ــ كان يشارك إيجابياً في وضع الخطط وتحضيرها من جميع النواحي، ومن ثم كان يقود كلاً منها.

استطاع جوكوف في أحرج المواقف، إيجاد القرار الأمثل الذي يمليه الموقف وقبل كل شيء يحرص على المجابهة الفعالة مع عدو محنك يسعى إلى فرض إرادته والاحتفاظ بالمبادأة الاستراتيجية بغية دحر القوات السوفييتية. وقد أبدى جوكوف في مثل هذه الحالات شجاعة شخصية فائقة وقدرة على إقناع الآخرين بقوة المنطق والبرهان الذي لا يدحض. وهكذا عند تقدير تناسب قوى الجانبين أمام ستالينغراد في أيلول ١٩٤٢، اقترح جوكوف على القيادة العامة العليا الكف عن الضربات المعاكسة غير المحضرة ذات القوى المحدودة والفعالية

الضعيفة ، والاحتفاظ بالاحتياطات من أجل هجوم عام معاكس بأهداف حاسمة . وقد كان ضباط العمليات في الأركان العامة ، وقادة الجبهات متفقين مع اقتراحات جوكوف ، الذي كان عليه أكثر من مرة أن يبرهن في مناقشات حادة قانونية عن صحة عملية تطويق تجميع باولوس الضارب وسحقه كلياً . كانت مثل هذه الاقتراحات لا تتطلب شفافية القائد فحسب بل وشجاعته الشخصية وجرأته واستعداداته لأخذ مسؤولية القرار المتخذ على عاتقه كاملاً .

من الملامح المميزة لهذا القائد الإصرار الفريد والمتابعة والصرامة في تطبيق القرارات المتخذة . وكان دائماً يجد المخرج المناسب في أي موقف يفترض فيه الصعوبات عند تطبيق القرارات المتخذة .

وهكذا عند تحضير عملية كورسون ـــ شفتشنكو في مطلع ربيع ١٩٤٤ ظهر أن من المتعذر عملياً القيام بإعادة القوات وتشكيل المخزونات المادية اللازمة في حينه بسبب أوحال الربيع . ولما كان تنفيذ العملية في مواعيد متأخرة ، يجعل المفاجأة العملياتية ـــ التكتيكية منعدمة ، فقد سارع جوكوف إلى اتخاذ الإجراءات بعزيمة قوية ، حتى أن القذائف كانت تنقل إلى العديد من الكيلومترات بالأيادي مما ساعد على إكمال تحضير العملية في موعدها المحدد .

في مجال التفكير القيادي لجوكوف وطراز أفكاره كقائد عسكري هناك صفات رائعة تلفت النظر مثل سعة الأفكار العملياتية وجرأتها والقدرة على الاختيار الصحيح لاتجاه الضربة الرئيسية الأفضل .

وفي جميع العمليات المنفذة تحت إشرافه ، كانت الضربة الرئيسية توجه كقاعدة نحو مكان ضعيف لدى العدو ، مع الحرص دائماً على أن يؤدي ذلك الاتجاه بالتجميع الرئيسي نحو جانب القوى الرئيسية للعدو ومؤخرتها . فابتداء من العمليات الهجومية الاستراتيجية القوية مثل عمليتي ستالينغراد وروسيا البيضاء من أجل السحق الحاسم للعدو ، كان جوكوف يلجأ إلى توجيه الضربات الرئيسية نحو الجوانب والوصول إلى مواصلات المؤخرة في العمق التكتيكي أو العملياتي .

كان جوكوف ، في جميع العمليات ، يحشد على الاتجاه الرئيسي القوى والوسائط بجرأة مع إنشاء تجميعات القوات المناسبة لضمان التطور الناجح للهجوم . علماً بأن طاقة جوكوف الاستثنائية وإصراره على بلوغ الهدف المسند وتحمله غير الاعتيادي قد ساعده على ألا يضعف القوى على الاتجاه الرئيسي لخوض المعارك على القطاعات الأخرى التي يعتبرها

ثانوية. ينبغي أن ننوه أيضاً بالقدرة على تحديد أماكن وتوقيتات زج الاحتياطات والمفارز المتحركة في الموقعة، تلك القوات التي كانت تستخدم كقاعدة، حيث يتحقق النجاح أو حيث يتقرر مصير العملية. فكانت لا تزج إلا عند نشوء شروط تؤدي إلى نقطة تحول حاسمة من الموقف. وهكذا كانت خطة عملية برلين تفترض زج جيشي الدبابات بعد اختراق منطقة الدفاع التكتيكية، إلا أن المقاومة العنيفة للألمان عند مرتفعات زيلوف قد شككت بنجاح العملية، ولهذا رأى جوكوف أن يزيد من قوة الضربة لتأمين اختراق الدفاع بصورة أكيدة، فعمل على زج جيشي الدبابات من أجل الاقتحام الحاسم لمرتفعات زيلوف. إن مثل هذا القرار لاستخدام المجموعات المتحركة على الاتجاه الرئيسي قد أمن للعملية تطوراً ناجحاً. أولى جوكوف انتباهاً خاصاً لاختيار توقيت توجيه الضربات، وكان يأخذ بعين الاعتبار عند تحديد مواعيد الانتقال إلى الهجوم الوضعية العملياتية للقوات وتبدلها المحتمل، وكذلك الزمن الحقيقي اللازم لإنشاء التجميعات الضاربة وتأمينها بالذخيرة والوقود والوسائط المادية الأخرى، وكان يغض دون حدود تنفيذ عمليات غير محضرة مهما كانت الضرورة أو الهادفية العملياتية المتخيلة. وهكذا في صيف ١٩٤٢ إبان الأيام العصيبة للدفاع عن ستالينغراد، خاطر بوقوعه فريسة لغضب القائد الأعلى مع ما يترتب على ذلك من العواقب البعيدة المدى عند إصراره على تأجيل توجيه الضربات المعاكسة بسبب عدم تحضيرها.

يعتقد جوكوف أن اللحظة الأكثر ملاءمة للانتقال إلى الهجوم العام المعاكس لا تأتي إلا عندما يستنفد العدو إمكانياته الهجومية وتتوقف تجميعاته الضاربة وينفرط عقدها، وتكون احتياطاته العملياتية القريبة قد استنفدت دون أن يتمكن بعد من التشبث بالخطوط التي استولى عليها والانتقال إلى الدفاع. في هذه اللحظة بالذات يطلب جوكوف الانتقال إلى الهجوم. وهكذا نظم الهجوم العام المعاكس عند موسكو الذي أسفر عن سحق التجميعات الضاربة الألمانية وزوال الخطر عن العاصمة السوفييتية.

إن الانتقاء الصحيح لاتجاهات الضربات الرئيسية وتحديد توقيت شنها يعتبر أحد العوامل الهامة لتحقيق المفاجأة في الأعمال، وقد أولى جوكوف لذلك الانتباه الدائم في نشاطه القيادي وبهذا تتجلى إحدى السمات الأساسية لجوكوف.

كان يحقق المفاجأة في الأعمال بتنفيذ عدد من التدابير الرامية إلى تضليل العدو في مجال الخطط الحقيقية، منها المحافظة على سرية نوايا الصديق، التمويه العملياتي الدقيق، إخفاء تحشد القوات، تضليل العدو بالمعلومات، الحفاظ على نشاط إيجابي للقوات على القطاعات التي لا يخطر الهجوم عليها، التظاهر بإعادة التجميع الكاذب، استخدام أساليب لا يتوقعها

العدو في الأعمال القتالية. تجلى فن جوكوف بأنه قادر على اختيار الأساليب التي تساعد على خداع العدو، وذلك على أساس التحليل العميق للموقف الراهن بصورة واقعية، بحيث تشكل هذه التدابير جزءاً لا يتجزأ من فكرة العملية وتعبر عن حداثتها وأصالتها. وكمثال يمكن أن ننوه بالتنفيذ الباهر لعمليات ستالينغراد، روسيا البيضاء، كورسون — شيفتشنكو، فيسلا — أودر وغيرها. ففي أساس نجاحها كانت تكمن قبل كل شيء الأساليب المجدية في خداع العدو.

في ملحمة موسكو على سبيل المثال عملت القوات السوفييتية تحت إشراف جوكوف على صعق العدو بانتقالها إلى الهجوم العام المعاكس بصورة غير متوقعة. أما عند ستالينغراد فقد لعب الدور الهام: فن انتقاء اتجاهات الضربات الرئيسية على أضعف الأماكن في البنية العملياتية الاستراتيجية للقوات الألمانية الفاشية، إنشاء التجميعات الضاربة بصورة مستورة، تطويق التجميع الاستراتيجي المعادي وبالتالي سحقه. وفي عملية روسيا البيضاء، كانت القيادة الألمانية ضحية التضليل نتيجة مجموعة من التدابير، لدرجة أنها ركزت جل اهتمامها على أوكرانيا، حيث كانت تتوقع الهجوم الاستراتيجي السوفييتي، معتبرة أن تحضير عملية روسيا البيضاء ما هو إلا محض تضليل إعلامي. بالإضافة إلى وضع التدابير اللازمة لتحقيق المفاجأة في الأعمال كان جوكوف يولي انتباهاً كبيراً للتدابير الرامية إلى إحباط الأعمال المفاجئة المعادية. وكان جوكوف يعتقد بأن إحباط خطط العدو الرامية إلى تنفيذ ضربات قوية وغير متوقعة، مما يساعد على تأمين المفاجأة لصالح أعمال قوات الصديق، لا يمكن تحقيقه إلا من قبل التشكيلات العملياتية والتكتيكية والقطعات الموضوعة بدرجة عالية من الجاهزية القتالية. يُعتبر الحفاظ على السلاح في حالة سليمة، والدرجة العليا في تأهيل الهيئة القيادية، وتضافر جميع صنوف القوات، وإدخال جميع الدروس الإيجابية المستفادة من المعارك السابقة حيز التطبيق وضمناً ما يتعلق بمسائل المفاجأة، كل ذلك يعتبر ضمانة أكيدة لتنفيذ الأعمال القتالية الناجحة بالأساليب التي لا يتوقعها العدو. ولهذا السبب أولى جوكوف عناية كبيرة لتأهيل القادة والأركانات من الحلقة التكتيكية. وحض على الاستفادة القصوى من فترات الهدوء بين العمليات والمعارك، ومن زمن تواجد القوات في الاحتياط أو قيد الاستكمال، وكان ينظم لأجهزة القيادة وللقوات دروساً مختلفة ومشاريع قيادة وأركان تكتيكية تقدر فيها درجة انسجام التشكيلات والقطعات وجاهزيتها لتنفيذ المهام ومراقبة مدى الاستكمال بالقوى البشرية والسلاح والعتاد القتالي... يتصف نشاط جوكوف القيادي بالنزعة المتقدة إلى خوض الأعمال الهجومية ذات الأهداف الحاسمة، وكان الحرص على تنفيذ المهام بأعمال تتصف بالمبادأة والنشاط يستند إلى ثقة القائد القوية غير المتزعزعة بنجاح الصراع وعلى توفر صفات

هامة مثل الشجاعة الفردية والجرأة والحسمية والاصرار على تحقيق الهدف المسند والاستعداد للمخاطرة المبررة .

اتصفت العمليات التي تم تحضيرها وتنفيذها تحت إشراف جوكوف بأنها مجدية ، وكانت تجري من خلال تطويق تجميعات العدو الكبيرة وتدميرها بسرعة كافية . وهكذا على سبيل المثال تم في اليوم الخامس من عملية ستالينغراد تطويق (٢٢) فرقة من القوات الألمانية الفاشية ، وفي اليوم الرابع من عملية كورسون ـــ شفتشنكو تطويق (١٠) فرق ، وفي اليوم الحادي عشر من عملية مينسك تطويق (٢٠) فرقة .

استخدمت طرائق مختلفة لتطويق تجميعات العدو الكبيرة أثناء العمليات الهجومية ، وكان انتقاء هذه الطريقة أو تلك رهناً بعدد من العوامل . وقد انحصر أهم العوامل ، التي لعبت دوراً كبيراً ، بكمية القوى والوسائط المتوفرة ووجود تشكيلات القوات المتحركة ، إضافة إلى تجميعات العدو وطبيعة أعماله ومعالم الجبهة .

يدل تحليل العديد من العمليات التي نفذها جوكوف على أنه كثيراً ما كان يلجأ إلى التطويق بواسطة توجيه ضربتين قويتين نحو جانبي التجمع المعادي المدافع وعلى اتجاهين متلاقيين . وقد استخدم جوكوف مثل هذه الطريقة بنجاح في عمليات ستالينغراد ، كورسون ـــ شيفتشنكو ، روسيا البيضاء ـــ لفوف ـــ ساندومير وغيرها . وتبدو هذه الطريقة المثمرة جداً الطريقة المحببة إلى جوكوف . كانت الإحاطة المزدوجة الجانب تمكن القوات المهاجمة من الوصول على أقصر الطرق إلى مؤخرة القوات المدافعة وعزلها عن الاحتياطات المتحركة ، ومنع انسحابها من أجل احتلال دفاع على خطوط وسيطة ملائمة .

يتجلى تطوير جوكوف اللاحق لطرائق التطويق بتوجيه عدة ضربات جبهية تجزئ قوى العدو المقابل بهدف سحق تجميعاته الضاربة في المنطقة التكتيكية الدفاعية وتأمين وصول المجموعات المتحركة بسرعة إلى العمق العملياتي وإلى جوانب القوى الرئيسية المعادية ومؤخرتها وبالتالي تطويقها . وكنموذج على استخدام هذه الطريقة في سحق العدو يمكن أن نشير إلى عملية روسيا البيضاء ، فيسلا ، أودر ، برلين وغيرها . فعلى سبيل المثال تم في عملية روسيا البيضاء تطويق التجميعات الجانبية للقوات الألمانية الفاشية وتدميرها عن طريق توجيه عدة ضربات في العمق التكتيكي ، وبذلك نشأت شروط لتطوير هجوم الجبهات على اتجاهات متلاقية نحو مينسك بهدف تطويق وتدمير القوى الرئيسية لمجموعة جيوش « الوسط » على مسافة حتى (٢٠٠) كم من قاعدة انطلاق قوات الجبهة . ففي هذه العملية بالذات أجهز القائد السوفييتي على التجمع الفاشي لجيوش « الوسط » بينما كان قد سدد إلى هذا التجميع الضربة الأولى عند موسكو .

إن خبرة تطويق التجميع الكبير للقوات الألمانية الفاشية عند إنجاز عملية برلين تستحق الاهتمام الكبير دون ريب، إذ لحظت فكرتها توجيه عدة ضربات قوية على جبهة عريضة وتطويق تجميع برلين وتجزئته في الوقت نفسه إلى أجزاء وتدمير كل منها على حدة.

بهذا الشكل انحصر الشرط الإلزامي، عند تنفيذ جميع حالات عمليات التطويق التي تمت تحت إشراف جوكوف، بعمل القوات المهاجمة على الإحاطة بالتجميع المعادي المقابل من جانب واحد أو من جانبين. وكان جوكوف عند تطويق تجميعات كبيرة معادية، يشن الضربات كقاعدة على أكثر الأماكن ضعفاً في بنية العدو العملياتية وعلى اتجاهات تؤمن للقوات المهاجمة الوصول إلى مؤخرة التجميعات المطوقة بأقل زمن وأقصر مسافة. بالإضافة إلى ذلك لم يستثن توجيه الضربات الرئيسية، في عدد من العمليات، على قطاعات قوية من الدفاع المعادي كما في عملية روسيا البيضاء على سبيل المثال، إذ أن جوكوف وجه الضربة الرئيسية آنئذ على أقصر مسافة بهدف الوصول إلى برلين بأسرع ما يمكن.

كان القائد يدمر القوات المطوقة بالأعمال الحاسمة لمختلف صنوف القوات التي كانت ترمي إلى سحق القوى الحية والعتاد القتالي لقوات العدو المعزولة والقضاء على إرادة المقاومة اللاحقة لديها. وكان ينجح في القضاء على تجميعات العدو المطوقة في شروط مختلفة من الموقف العملياتي، وقد استخدم طبقاً لذلك الأساليب الأكثر فعالية في تدميرها. ففي الحالات التي كان يتوفر فيها لدى القيادة الألمانية الفاشية الاحتياطات الضرورية، كان تدمير التجميع المطوق يتم كقاعدة في ظروف جر العدو إلى توجيه ضربات معاكسة قوية على جبهة التطويق الخارجية، بهدف فك الحصار عن القوات المطوقة، كما حدث في عملية ستالينغراد على سبيل المثال، ففي هذه الحالات كان القضاء على التجميع المطوق لا يبدأ إلا بعد زوال الخطر عن الجبهة الخارجية، أي بعد سحق تجميعات الضربات المعاكسة التي كانت تسعى لخرق حلقة التطويق من الخارج.

وفي حالات أخرى لم يكن لدى قيادة الفيرماخت القوى اللازمة لشن ضربات على القوات التي تعمل على الجبهة الخارجية للتجميع الألماني المطوق كما حدث في عملية مينسك. وقد تم القضاء على التجميع المطوق في هذه الحالة أثناء القيام بالتطويق وبعده مباشرة، إذ عملت القوى الرئيسية على الجبهة الخارجية مطورة النجاح العملياتي مع إزاحة خط الجبهة قدماً إلى الأمام.

إلا أنه في جميع الحالات كانت الطريقة الأساسية للقضاء على العدو المطوق، تنحصر في تجزئة تجميعات العدو إلى أقسام معزولة، مع تدمير كل منها فيما بعد على انفراد، وكثيراً

ما كان جوكوف يحقق ذلك بتوجيه ضربات على اتجاهات متلاقية ، مما كان يؤدي إلى إخماد مقاومة القوات المطوقة بشكل حاد وتأمين تدميرها خلال زمن قصير ، كما استخدم في عدة عمليات الضربات بهدف عزل قسم من تجميع العدو المطوق وتدميره ، وفيما بعد يجري القضاء على قواه الأخرى ، إلا أن مثل هذه الطريقة كانت قليلة الجدوى حسب اعترافه شخصياً ، إذ كانت تتطلب وقتاً كبيراً من أجل تدمير العدو المطوق ، ناهيك عن أنها مرتبطة بصعوبات في تنظيم التعاون والقيادة إلى حدٍ كبير .

مهما اختلفت أساليب عمل قوات الجبهات تحت إشراف جوكوف لتطويق تجميعات العدو الكبيرة ، وتدميرها ، فقد تجلت السمات العامة لهذه الأساليب بمايلي : وجود التجميعات الضاربة القوية التي تؤمن الخرق السريع للدفاع والوصول إلى جوانب القوات المطوقة ومؤخراتها ، إنشاء جبهتي تطويق خارجية وداخلية ، خوض أعمال هجومية حاسمة على الجبهة الخارجية بهدف حرمان التجميعات المطوقة من العون الخارجي ، السعي إلى تجزئة القوات المطوقة وتدميرها خلال زمن قصير ، فرض الحصار عليها من الجو بصورة مضمونة .

يتميز فكر جوكوف القيادي ونشاطه أيضاً كقائد عسكري بالسعي الدائم لخوض الأعمال باستخدام المناورة على نطاق واسع . فقد أدرك المارشال أن النجاح الرئيسي للعمليات وأن العامل الأساسي لتحقيق المفاجأة في الأعمال يتوقفان على تنفيذ المناورات الحثيثة . وقد لحظ استخدام أعمال المناورة الواسعة في جميع العمليات التي نفذت تحت إشرافه ، بحيث كانت أهدف المناورة تنبع من ظروف الموقف الراهن والمهام المسندة إلى القوات .

تنحصر المهمة الرئيسية لإجراء المناورة في تركيز الجهود الأساسية على الاتجاهات الحاسمة . وعلى سبيل المثال استطاع جوكوف ، الذي كان قائد جبهة في الموقعتين الدفاعيتين عند كل من ستالينغراد وموسكو ، أن يكشف النقاب عن اتجاهات الضربات الرئيسية للعدو وأن يسوق نحوها بجرأة جميع القوى الأساسية وضمناً الاحتياطات والقطعات من الاتجاهات الثانوية الأخرى . وبفضل مثل هذه الأعمال كان العدو يفقد تفوقه بالقوى والوسائط ويكف عن هجومه . وقد جرى على اتجاهات الضربات الرئيسية تركيز القوى والوسائط بصورة جعل حتى (٨٠٪) من مجمل القوى المكلفة بالعملية محشدة على قطاعات ضيقة لخرق دفاع العدو . وبفضل المناورة بالقوى والوسائط توصل جوكوف إلى أن يحشد على اتجاه الضربة الرئيسية من القوى والوسائط ما لا يمكن لأي دفاع أن يقف في وجهها .

إن مثل هذا التركيز للقوى والوسائط على اتجاهات تحشيد القوى الرئيسية سواء في الدفاع أو في الهجوم ، يدل على درجة عالية من المخاطرة وفن القائد الذي لا يبارى في تنفيذ المناورة بالقوى والوسائط بهدف استخدامها المكثف .

في الحالات الأكثر شيوعاً والتي حدثت في جميع العمليات الهجومية نرى أن جوكوف قد استخدم المناورة بهدف تطويق التجميعات الكبيرة المعادية والوصول إلى مؤخرتها وجوانبها ، لذلك كان ينشئ مجموعات متحركة قوية من التشكيلات المدرعة التكتيكية والعملياتية ويزجها في الخرق بهدف تطوير النجاح والوصول إلى طرق المواصلات المعادية وتطويق التجميعات المعادية .

منذ الأيام الأولى للحرب بدءاً من الهجوم الكبير الأول للقوات السوفييتية عند موسكو ، عمل جوكوف على تعليم القوات ومطالبتها بعدم اللجوء إلى مجرد مطاردة العدو بل تطويقه كلياً أو جزئياً وتدميره بالالتفاف على جوانبه وقطع طرق الانسحاب أمامه .

في بعض الحالات كان جوكوف ، أثناء إجراء المناورة الالتفافية ، يسند للمجموعات المتحركة مهمة إجبار العدو تحت خطر التهديد بالتطويق على أن يترك المناطق المحصنة ، لضربه وتدميره على أرض مكشوفة أو لتخليص مراكز صناعية أو سكانية من تخريبات منظمة . ففي عملية لفوف ـــ ساندومير التي جرت في تموز ١٩٤٤ نفذ الجيش الثالث دبابات مسيرة مناورة التفافية بهدف قطع طرق انسحاب تجميع لفوف . وبالنتيجة ترك العدو لفوف ، وهي المركز الصناعي والإداري الكبير ، على عجل دون قتال خشية الوقوع في التطويق .

في العديد من الحالات كان جوكوف ينفذ المناورة بحد ذاتها بهدف نقل الجهود من اتجاه إلى آخر . كما كان يستخدم مثل هذه المناورة عندما لا يحقق الهجوم على اتجاه الضربة الرئيسية نجاحاً لأسباب ما . في هذه الحالة كان لا يحاول تغذية الجهود على الاتجاه المنتقى ، بل كان ينقل الجهود الرئيسية بحيوية إلى تلك الاتجاهات التي يتضح أو يفترض النجاح عليها . ففي عملية كييف الهجومية كشف العدو اتجاه الضربة الرئيسية للقوات السوفييتية فحشد ضد رأس جسر بوكرين قوات كبيرة من تجميع كييف ، وما أن عرف جوكوف أن أفكاره قد انكشفت حتى قام سراً بإعادة التجميع من رأس جسر بوكرين إلى رأس جسر لوتيج ووجه ضربة مفاجئة من الشمال حيث عمل العدو على تخفيف تجميعه .

لم يكن من طبع جوكوف أن يقتصر على استخدام أعمال المناورة الواسعة بالقوى والوسائط فحسب ، بل كان يناور بنيران المدفعية وضربات الطيران أيضاً . ففي اللحظات الحرجة كان يركز ضربات الطيران والمدفعية بجرأة على الاتجاهات الخطرة ، مما يجبر العدو على

تغيير خططه ناهيك عن إلحاق الخسائر الكبيرة به ، وهذا ما حدث عند يلنيا ، عندما أجبرت ضربات المدفعية القوية العدو على سحب تجميعاته الضاربة وتبديلها بتشكيلات مشاة ذات كفاءة قتالية أقل . أو عند لينينغراد عندما ركز قائد الجبهة مدفعية المشاة والأسطول ، لإقامة حاجز ناري على اتجاهات هجوم التجميعات المدرعة للفيلد مارشال ليب Leeb ، وهذا ما أنزل بهذه التجميعات خسائر فادحة وخفض من إيقاعات هجومها .

وهكذا فإن جوكوف ، الذي يعتبر نصيراً حازماً لأعمال المناورة ، كان ينظر دائماً إلى المناورة كواسطة تساعد على إنشاء تجميع من قوات الصديق يلائم الموقف الراهن إلى أقصى حد ، مع وضع هذا التجميع بشروط أفضل لخوض الأعمال القتالية الرامية إلى تدمير العدو .

تجلى فن جوكوف القيادي بشكل قوي في الدأب على السحق الكامل للعدو بتنفيذ عمليات هجومية متتابعة على عمق كبير دون فترات هدوء .

إن عدم إعطاء العدو فرصة للتنفس هو من أهم المبادئ التي يهتدي بها جوكوف عند تخطيطه وخوضه العمليات .

يتطلب هذا المبدأ ، عند تنفيذ الهجوم العام المعاكس اختياراً دقيقاً ماهراً لتوقيت بداية الانتقال إلى الهجوم العام المعاكس دون فترة هدوء عملياتية ، حتى لا تتاح للعدو أية فرصة للتشبث على الخطوط المستولى عليها وتنظيم الدفاع الوطيد . كانت المهارة في توقيت بداية الهجوم العام المعاكس على أساس اللحظة الأكثر ملاءمة تتضمن عاملين : التقدير الصحيح لحالة العدو ، تحضير الهجوم المعاكس في حينه أثناء الموقعة الدفاعية .

لقد اشتهر القائد بهذه المناورة بالذات . ففي موقعة موسكو على سبيل المثال ، توصل جوكوف بدقة متناهية إلى أن العدو قد لفظ أنفاسه وسينتقل إلى الدفاع على كامل الجبهة وأصر على إعطاء الأمر فوراً للانتقال إلى الهجوم العام المعاكس . فنجاحه حدد مسبقاً ، إذ كان جوكوف يفكر بالهجوم العام المعاكس خلال الموقعات الدفاعية الثقيلة الوطأة ، وعمل على تحشيد الاحتياطات ووضع خطة إعادة التجميع وإعداد خطة الهجوم العام المعاكس بكامل تفاصيلها ، وهذا ما سمح له عملياً بنقل القوات من الدفاع المضني إلى الهجوم العام المعاكس دون فترة هدوء عملياتية . يؤكد العديد من المؤرخين وضمناً الغربيين منهم على هذا الفن الرفيع لدى جوكوف ، وقد لحظ المؤرخ العسكري الألماني الغربي ك . رينهارت في كتابه « التحول عند موسكو » : « لقد أُخذت القيادة الألمانية على حين غرة ، وهذا يؤكد على أن الروس قد نشروا قواتهم بنجاح وانتقوا اللحظة المناسبة للهجوم العام المعاكس » .

أثناء خوض العمليات الهجومية دون فواصل عملياتية كان جوكوف يحرص على تنفيذ شرطين هامين يحققان النجاح وهما : أولاً ـــ تخطيط وتنفيذ كل عملية بحيث تحقق نتائجها شروطاً ملائمة إلى الحد الأقصى للشروع بالعملية التالية ، ثانياً ـــ تحقيق إيقاعات عالية في الهجوم ، مع استباق العدو في الاستيلاء على الخطوط الوسيطة ، لدى تطوير النجاح التكتيكي إلى عملياتي ، والعملياتي إلى استراتيجي .

كان جوكوف لا يعتبر أن العملية الواحدة قد بلغت نهايتها المناسبة ما لم تتشكل الشروط الملائمة لتوجيه ضربات تالية بعد إعادة التجميعات المناسبة وتأمين المخزونات المادية . لذلك كان يسعى دائماً ، في نهاية العملية ، للاستيلاء على رؤوس الجسور الملائمة عند الأنهار الكبيرة أو في المناطق التي تقع على جوانب تجميعات العدو والاحتفاظ بها . وهكذا على سبيل المثال فإن رؤوس الجسور المحتلة على نهر الدنيبير قد أمنت التطور الناجح لسلسلة من العمليات الهجومية لتحرير ضفة أوكرانيا اليمنى من الألمان المحتلين ، بينما أمنت رؤوس الجسور على الفيسلا تحرير بولونيا أيضاً .

لعبت رؤوس الجسور المستولى عليها على نهر الأودر دوراً فريداً في تنفيذ عملية برلين . فقد سمح وجود رؤوس الجسور هذه لجوكوف بأن يحتفظ بوضعية عملياتية ملائمة ، ساعدت على تحشيد تجميعات ضاربة قوية على الضفة المقابلة ، وأعفت القوات المهاجمة من ضرورة عبور النهر في بداية العملية الهجومية التالية . لهذا كان جوكوف يحرص دوماً على الاستيلاء على رؤوس الجسور والمناطق الملائمة والاحتفاظ بها مستخدماً لذلك المفارز المتحركة ومجموعات الإنزال القوية لتطوير الاندفاع إلى الأمام مخاطراً بانقطاعها عن القوى الرئيسية .

عمل جوكوف على تأمين خوض العمليات الهجومية بإيقاعات عالية على أساس إعادة تجميع القوات بالخفاء في الوقت المناسب ، وتجديد الأنساق الثانية والاحتياطات دائماً بعد استخدامها ، ويجدر التنويه بأن خطط العمليات التالية كانت توضع في فترات الهدوء وخلال مهل مختصرة ، وكان أثناء العملية يستجيب لجميع تغييرات الموقف ويدقق المهام للجبهات والجيوش واتجاهات هجومها ، مع تغيير خطوط الفصل بينها وتعزيزها بالاحتياطات ، مما كان يسمح بتصعيد قوة الضربة الموجهة إلى العدو وتطوير النجاح بإيقاعات عالية .

كان تنفيذ العديد من العمليات المتعاقبة يتطلب دائماً من القائد الجهد الشديد والتحليل الدقيق والصحيح للموقف وتوقع كيفية تطور الأحداث والقرارات الجريئة والحينية لمتابعة العملية ، علماً بأن توفر تلك الصفات لدى جوكوف ساعده على تخطيط وتنفيذ سلسلة من العمليات الهجومية على عمق كبير وعلى جبهة عريضة بنجاح . وهكذا قرر

المارشال في المرحلة الختامية من ملحمة كورسك بصورة صحيحة مدى أهمية الاستفادة الفورية من النجاح الحاصل دون إعطاء العدو أية فرصة للتشبث على خطوط دفاعية خلفية، إذ كان يسند للقوات المهمة في حينها لتطوير الهجوم نحو الدنيبير واحتلال رؤوس الجسور عليه. وأثناء عملية روسيا البيضاء الاستراتيجية قامت القوات السوفييتية أيضاً بتنفيذ عدة عمليات جبهوية مباشرة ومتتالية على عمق هام حتى (٤٠٠) كم.

وكيلا يسمح للعدو بإبداء مقاومة نشيطة تجاه القوات المهاجمة، فقد عمل جوكوف على تنظيم التعاون الدقيق بين الجبهات والجيوش التي شنت الضربات في وقت واحد على عدة اتجاهات وعلى جبهة عريضة. وبهذا لم يستطع العدو تحشيد الاحتياطات أو نقل القوات من الاتجاهات غير الخطرة إلى الاتجاهات المهددة، مما حقق سحق تجميعاته على أقسام. بالإضافة إلى ذلك خطط جوكوف عمليات التشكيلات العملياتية المجاورة بصورة تسهل هجوم القوات على الاتجاه الرئيسي، وعلى سبيل المثال عند القيام بضربات جانبية في عمليتي كورسون ــ شيفتشنكو أو ستالينغراد شنت القوات العاملة جبهياً ضربات مساعدة بغية تقييد القوى المعادية المقابلة ومنعها من الانتقال للعمل على اتجاهات الضربات الرئيسية.

كانت استمرارية الهجوم وزيادة إيقاعاته تتحقق إلى درجة كبيرة بتنفيذ توصيات المارشال جوكوف حول خوض الأعمال الليلية على جبهة واسعة، لذلك كان يوصي باستخدام الأنساق الثانية أو الوحدات والقطعات المعدة خصيصاً لهذه الغاية. وفي العمليات التي نفذها جوكوف كان الهجوم الليلي يتعدى الإطار التكتيكي ليصبح عاملاً يتمتع بأهمية عملياتية، فعلى سبيل المثال كانت تراتيب قتال الجيوش عند اقتحام برلين منسقة بالعمق، بحيث كانت الأنساق الأولى تهاجم نهاراً، بينما الأنساق الثانية تهاجم ليلاً. أَوْلى المارشال جوكوف انتباهاً خاصاً للأعمال الليلية كعامل يحقق المفاجأة والتغلب بقوى قليلة على العدو المتفوق. وكان يعد القوات والأركانات على هذا الأساس. فقد رأى في الأعمال القتالية الليلية عاملاً يؤمن خوض أعمال متواصلة تنهك العدو فهو يقول: «إنني عميق الثقة من خلال تقدير طابع الحرب المقبلة، بأن الأعمال القتالية الأساسية ستنتقل إلى الليل، فالمنجزات الجديدة في مجال العتاد الحربي ستساعد على عدم خوض العمليات الرئيسية نهاراً... ولهذا ينبغي إعداد القوات والأركان والعتاد لخوض الأعمال الليلية». وبهذا الشكل استخدم جوكوف العديد من العوامل الموضوعية والذاتية بغية الحفاظ على المبادأة التي تسمح له بإملاء إرادته على العدو وتحقيق إحدى الضمانات الهامة لنجاحه.

من السمات المميزة لفن جوكوف القيادي التعامل الإبداعي التجديدي في مجال اتخاذ القرار حول العملية. فكان لا يسمح لنفسه أبداً الاستخدام المتكرر للأشكال

والأساليب النمطية في خوض الأعمال القتالية. كان يعتقد بأن القائد في أي مستوى كان، لدى تحليل الأحداث، يجب أن يتمتع بقدر كامل من الأسلوب في التفكير والمهارة التي تمليها قوانين الديالكتيكية، ويتلخص جوهر هذا الأسلوب بأن أية واسطة وأي أسلوب يمكن أن يلاقي الاستخدام في موقف معين. فمهارة القائد تتجلى بالقدرة على اختيار تلك الوسائل التي تعطي النتائج الأفضل في الموقف الراهن والزمن الراهن، وذلك من بين العديد من الوسائل المتاحة له.

كان جوكوف عند إعداده لجميع العمليات بدءاً من وضع الفكرة الأساسية وانتهاءً بإنجاز جميع المراحل يبحث عن القرار الأفضل والأصيل الذي يضع العدو في متاهة والذي يلائم الموقف الراهن تماماً. ولم يكن الجميع يفهمون مراميه، فراح بعض المارشالات والجنرالات يتساءلون لماذا البحث عن قرارات جديدة طالما أن هناك قرارات معروفة لا تتعارض مع الموقف؟ فمثلاً وكما ذكرنا أعلاه، عند اختيار فكرة ملحمة كورسك، ساعدت عدة عوامل (التفوق العام بالقوى، المبادأة الاستراتيجية، الوضع الملائم لخط الجبهة العملياتي.... الخ)، بعض القادة السوفييت في الوصول إلى قرار لتوجيه ضربة استباقية. اتفق جوكوف معهم على إمكانية خوض أعمال هجومية ناجحة، إلا أنه برهن على أن الدفاع الاستراتيجي المسبق في الشروط الراهنة يعتبر النوع الأفضل من الأعمال.

كان جوكوف يُدخل دائماً عناصر التجديد في ممارسة خوض الأعمال الهجومية مباشرة ويطلب ذلك من المرؤوسين. كما درس بعناية خبرة العمليات السابقة وفتش فيها عن النقائص التي تؤثر جوهرياً على سير الأعمال واتخذ إجراءات نشيطة لإزالتها. فقد درس باهتمام خبرة العمليات السابقة وحدد النقائص والهفوات التي كان لها تأثير جوهري على مجرى الأعمال القتالية وأوجد التدابير الفعالة لاستئصالها من جذورها.

كان لا يتحمل بشكل خاص الأخطاء التي ترتبط بالقوالب الجامدة في الأعمال. ويحرص على أن تكون المبدئية والنظام هما أساس عمل القادة. وهكذا راح جوكوف يطالب، منذ البدء بالعمليات الهجومية على قوس كورسك، بتنفيذ التمهيد الناري للهجوم بطريقة جديدة في كل مرة، بغية إيقاع الفوضى في صفوف العدو. كان يطلب من القادة أثناء خوض الهجوم في العمق العملياتي أعمالاً تتصف بالجرأة والمبادأة والحسم. ولما كان من الصعب أثناء تخطيط المعركة توقع كيفية تبلور الموقف وما هي المفاجآت التي يمكن أن تظهر، فقد كان المارشال جوكوف يعلّم القادة المرؤوسين عدم التمسك الأعمى بالخطة، بل إظهار التجديد والمبادأة والعمل حسب الموقف. وقد كان لهم قدوة، فعلى سبيل المثال عرف في المرحلة الختامية من عملية فيسلا ــ أودر أن الخط الدفاعي المحصن الذي أعده الألمان في

الأمام، لم يكن قد احتل بالقوات بعد، فأعطى الأمر بجرأة لمتابعة العملية بغض النظر عن الخطر الذي يتهدد الجوانب. كما اتخذ في الوقت نفسه الإجراءات لدرء الضربة المعاكسة الجانبية المحتملة. وأثناء عملية روسيا البيضاء وبعد خرق المنطقة الدفاعية التكتيكية التي كانت تتحشد فيها القوى الرئيسية الألمانية، تبين للقوات السوفييتية فجأة عدم وجود احتياطات معادية أمامها، فاتخذ جوكوف قراراً بتطوير الهجوم في العمق العملياتي، وأمر بتدمير العدو المطوق أثناء المطاردة المتوازية التي أطلق عليها «الحصار العائم».

لما كان جوكوف لا يطيق أن تقوم قوات الصديق بأية أعمال نمطية فقد كان يدرس ذلك عند العدو بانتباه، فإذا ما اكتشف لديه أية أعمال نمطية عمد فوراً إلى اقتناصه. وهكذا اكتشف أن القيادة الألمانية كثيراً ما تسحب قواتها من الحد الأمامي إلى العمق، مما يجعل التمهيد الناري للهجوم الذي تنفذه المدفعية السوفييتية بكتلتها الأساسية يجري على مكان خاو، وبعد أن عرف ذلك أصبح ينظم العمل لمفارز أمامية قوية، تقوم بتدقيق الحد الأمامي بالقتال وتستولي على المواضع المتقدمة للعدو. وفي بعض الحالات، كما حدث في عملية برلين على سبيل المثال، أخذت مثل هذه المفارز تطور قتالها بنجاح، مما جعل القيادة الألمانية تحسب أن ذلك هو بداية الهجوم، فأخذت تستقدم الاحتياطات تحت ضربات المدفعية السوفييتية.

وبهذا الشكل يدل تحليل العمليات التي نفذت تحت إشراف جوكوف بأنها لا تشبه بعضها بعضاً، لا من حيث الفكرة ولا من حيث تفاصيل تنفيذها. ففي كل حالة واقعية كان يجد تلك القرارات التي تناسب الأهداف المعينة للعملية وللموقف الراهن، ولم تكن لحكمة القائد التي يتمتع بها في واقع الأمر أية حدود. يجدر التنويه بتلك السمة من التفكير القيادي والنشاط لدى جوكوف مثل المرونة النادرة والفعالية في قيادة القوات. فقد ساعدته قيادته الحازمة والمستمرة للقوات على خوض جميع العمليات المحضرة من قبله بنجاح كبير. ناهيك عن نجاح المستويات المرؤوسة لديه — من الوحدات حتى الجبهة. وفي الموقف الديناميكي الصعب كان المارشال يستجيب بدقة لتغيراته، ويعيد دفع القوى والوسائط بنجاعة إلى الاتجاه الذي لاقى نجاحاً أو لصد الضربات القوية المعادية.

وبعد أن يعطي الأمر كان يتخذ أشد الإجراءات حزماً لتأمين تنفيذه، ويستفسر بحزم عن عدم تنفيذه في حينه أو تنفيذه غير الدقيق. وسواء كان جوكوف قائد جبهة أو ممثلاً للقيادة العليا فقد كان يشرف على الأعمال القتالية بنشاط، دون أن يكتفي بالإشراف العملياتي العام، زد على ذلك أنه كان يأتي في الوقت اللازم من الموقعة كي يقود القوات على

الأرض ويبعث فيها الحماس . فالزيارات الشخصية لجوكوف إلى القطعات أو المواضع الأمامية كانت تساعد على تصور الموقف بدقة . فكان يظهر دوماً في المكان الذي يحتاج إلى مساهمته المباشرة لتحقيق النصر . فعلى سبيل المثال حرك أحد قادة الفرق ، أثناء الهجوم عند يلنيا ، القطعات إلى الأمام بلا تبصر ودون التأمين القتالي الضروري . فاستغل العدو هذه الخطيئة لاكتساح تراتيب قتال الفرقة وتهديد جنب الجيش. وقد كتب جوكوف عن ذلك: « اضطررت لأن أعمل سوية مع القائد في مقر رصده حتى مساء التاسع من أيلول لتصحيح الهفوة المرتكبة » .

تدل خبرة النشاط القتالي لجوكوف على أن الاتصال الشخصي للقادة مع المرؤوسين ، لاسيما في المواقف المتأزمة ، يعتبر الطريقة الأكثر فعالية لقيادة القوات . وقد استخدمها على نطاق واسع ، فكان لتقريب مقرات قيادة ورصد جوكوف من القوات دور كبير في استقرار قيادتها . كما استفاد من هيبته ونفوذه لدى الجميع من القادة وحتى الأفراد لتحقيق ذلك . وساعد ظهور جوكوف في أية جبهة على رفع روح القوات وتمتين الثقة بالقيادة والحض على الحسمية والاستعداد لتنفيذ أي أمر له .

يعتبر المارشال جوكوف ، على غرار الكثير من القادة البارزين الآخرين ، مربياً عسكرياً شهيراً . فقد عرف نفسية المقاتلين بصورة جيدة ، وكان معلماً كبيراً في مجال التربية والتعليم السياسي والعسكري . كما أولى عناية كبيرة لتدريب الكوادر العسكرية وتعيينها وتربيتها ، إذ رأى في ذلك أحد العوامل لتحقيق المرونة في قيادة القوات واتزانها واستمرارها . لقد كان مشرفاً ومربياً صارماً جداً بل قاسياً إلى حدٍ ما . وكان ينطلق عند انتقاء الكوادر العسكرية وتعيينها من مبدأ تدرج الضباط الأكثر كفاءة في المراتب القيادية ، فالنفوذ والطيبة لا يعوضان أهمية معرفة الواجب الذي يعتبر المحك الأكثر أهمية في تربية القادة وتعيين الكوادر .

اعتقد جوكوف أن أكبر حيف يلحق بالخدمة العسكرية يأتي من فقدان الثقافة العسكرية لدى الرئيس الأقدم ، إذ بسبب ضعف كفاءته لا يستطيع أن يؤدي عمله المكلف به بصورة تامة . زد على ذلك عجزه عن توجيه المرؤوسين وعدم قدرته على التحليل العميق للتقارير التي ترفع إليه . تنحصر المتطلبات التي طرحها القائد لترقية الكوادر القيادية ، والتي لا يزال لها صدى كبير في الشروط الحديثة بمايلي : الكفاءة والقدرة على التفكير والعمل في شروط الوقت المحدد جداً بشكل صارم ، تحمل الجهد المعنوي ــ النفساني والجسماني الكبير ، شدة الشعور بالواجب ، القدرة على أخذ المسؤولية في حل المسائل المعقدة على عاتقه ، الحفاظ على المبادأة ، تعبئة قوة الإرادة والمهارات لتنفيذ المهمة المسندة .

تجلى فن جوكوف القيادي بالوحدة الوثيقة العرى بين المعارف العسكرية العميقة والقدرة على استخدامها الإبداعي في الممارسة. وهذا ما يجب أن يتصف به الرؤساء العسكريون في هذه الأيام أيضاً. وتدل خبرة جميع الحروب والحياة اليومية على أن كل قائد ورئيس يحتاج إلى مؤهلات تنظيمية عالية وصفات إرادية ومهارات متزنة في تنظيم الأعمال القيادية وقيادة القوات، بالإضافة إلى القدرة على الاستخدام المبدع للمعارف في شروط الموقف الراهن، وعلى هذا الأساس تكون الممارسة القتالية للمارشال جوكوف مثالاً يحتذى.

يتميز تفكير جوكوف القيادي ونشاطه بسعة غير اعتيادية وبتعدد الجوانب. لقد عمل الكثير من أجل تنظيم حماية روسيا السوفييتية وتطوير العلم العسكري السوفييتي. ويجدر التنويه بأن أفكاره وإسهامه العملي في الفن العسكري السوفييتي وفن الحرب ككل لم يفقدا أهميتهما في الشروط الحديثة أيضاً. وفي الموقف الذي يشتد فيه خطر العدوان من جانب الامبريالية العالمية، يعتبر التراث الإبداعي لهذا القائد العظيم أداة هامة لدى القوى التقدمية في نضالها من أجل القضية العادلة والتقدم الاجتماعي واستقلال الشعوب المحبة للسلام.

٣ ـ نشاط القائد في سنوات ما بعد الحرب

كان تراث جوكوف القيادي في سنوات ما بعد الحرب ينحصر عموماً في تعميم واستيعاب أغنى خبرة خلفتها الحرب الوطنية العظمى مع مراعاة آفاق التطوير اللاحق لفن الحرب.

أجرى الجيش العامل، خلال فترة الحرب بالتعاون مع الأسطول، (٥١) عملية استراتيجية وأكثر من (٢٥٠) عملية جبهوية ونحو (١٠٠٠) عملية على مستوى الجيش وموقعات ومعارك لا تحصى على الأرض وفي الجو وفي البحر. وأجريت كل هذه العمليات والموقعات والمعارك تحت إشراف هيئة القيادة العليا برئاسة ستالين والقادة العسكريين.

اكتسب جوكوف خبرة قتالية عظيمة بممارسته ليس فقط القيادة الاستراتيجية، بدور ممثل هيئة القيادة العليا، بل وبدور قائد قوات الجبهة. وبلغت قيادته لمختلف الجبهات خلال فترة الحرب نحو سنتين (٢٢ شهراً) وهذه فترة طويلة بالنسبة لهذه الحرب.

تميزت كل عملية نفذها جوكوف، في المرحلة الختامية من الحرب، بأصالتها والتجديد في طرائق الأعمال المستخدمة، ولذلك غدت، كقاعدة، غير متوقعة من جانب العدو. لم تكن قراراته وطرائق أعماله مكررة في كل عملية ولم تكن تشبه سابقتها على الدوام، والشيء

الدائم فيها كان ينحصر في الانتصارات الباهرة والمنجزات الجديدة يوماً بعد يوم في فن الحرب . كان هناك أيضاً آفاق عامة لها تعبر عن جوهر فن الحرب السوفييتي في قمة ازدهاره وتحتفظ بأهميتها للظروف الحديثة أيضاً .

وصف مارشال الاتحاد السوفييتي جوكوف في المؤتمر العسكري النظري المعقود عام ١٩٤٥ المبادئ الأساسية لفن الحرب التي كان ينتهجها على النحو التالي :

أولاً ـــ المعرفة الممتازة للعدو ، التقويم السليم لنواياه وقواه ووسائطه ، المقدرة على مراعاة ماهي الأمور التي في وسعه القيام بها أو التي يعجز عنها ، وفي أي ناحية يجب اقتناصه . وهذا يتحصل بالاستطلاع المتواصل والعميق .

ثانياً ـــ معرفة قواتنا وإعدادُها للمعركة بإتقان . ولا بدّ من إعداد القيادة والأركانات من النواحي كافة ، ومعالجة كل احتمالات الأعمال المقبلة للقوات .

ثالثاً ـــ المفاجأة العملياتية والتكتيكية . وهي تتحقق بتضليل العدو بالنسبة لنوايانا الحقيقية . يجب العمل بسرعة بحيث يتأخر العدو دوماً وفي كل مكان ، وبذلك يقع في وضع صعب .

رابعاً ـــ الحساب الدقيق للقوى والوسائط بما يتناسب والمهمة المسندة . لا يجوز أن نسند للقوات مهام ليست في حدود طاقتها . فهذا لن يؤدي إلا إلى الخسائر ونسف الروح المعنوية . ومن المفضل الإقلال من شن العمليات الهجومية وتوفير القوى والوسائط للضربات الحاسمة .

خامساً ـــ التأمين المادي للعمليات . لا يجوز في حال من الأحوال تنفيذ عملية غير محضرة من الناحية المادية . وقد يدفع الموقف العام القيادة العليا إلى سرعة تنفيذ العملية . لكن لا يمكن المباشرة بها إلا بعد تحضير متقن وتأمين من النواحي كافة .

كان جوكوف يعتبر الشرط الهام في تطوير العملية الهجومية هو الاستخدام الحاذق للمدفعية والمناورة الجزيئة بقصد تطويق العدو وتدميره . ويعتبر الضربة الجبهية مرحلة هامة فقط لبلوغ الهدف . وليس الخرق هدفاً بحد ذاته بل الغاية منه اكتساب حرية المناورة ، مما يتيح الإمكانية لدحر العدو من الاتجاه الأكثر سوءاً بالنسبة للعدو . واعتبر هذا القائد أن لإنشاء الاحتياطات واستخدامها بمهارة ، أهمية كبيرة في أية حرب . ففي الدفاع عن لينينغراد أو موسكو كان يبذل جهده لإنشاء أدنى حد ممكن من الاحتياطات الضرورية ، حتى في ظروف النقص الحاد في القوى والوسائط على الخط الأول للقوات . فإذا كان كوتوزوف يعتبر

أن القائد المحتفظ بالاحتياط لا يقهر ، نجد نابليون يقول أن القائد الذي يتمسك كثيراً بالاحتياط لا بدّ سيهزم . ويأتي جوكوف ليوصي بالمزج بين هذا وذاك ، مع الاهتمام دوماً بتجديد الاحتياطات .

كان جوكوف ، منذ الحرب وبشكل خاص بعد الحرب ، يفكر على الدوام كيف يمكن استخدام الخبرة والحكمة المكتسبة ، بذلك الثمن الباهظ ، استخداماً عقلانياً لحل مهام البناء العسكري . لكنهم لم يتيحوا له الإمكانية لتحقيق مآربه بالشكل الكامل . إذ بقي ملاحقاً ، شأنه شأن القادة العسكريين الآخرين ، بموجب النظام الستاليني الذي كان مفروضاً حينذاك . وجمعوا من « الذنوب » ما يكفي تماماً للتنكيل به . لكن ستالين رأى أن لا مجال للاستغناء عن جوكوف ما دامت الحرب قائمة . لذلك سايره إلى وقت معلوم ، في أمجاده ونفوذه ، وكان أكثر ما يقض مضجعه استقلالية جوكوف والتزامه بالمبادئ . لكن كما حدث أكثر من مرة في التاريخ ، ما أن وضعت الحرب أوزارها حتى غدا القادة العسكريون ، على غرار جوكوف لا لزوم لهم . وحسب نية « ستالين وبيريا » كان قد دُبّر لجوكوف أسوأ مصير ، ولم ينقذه من الكارثة سوى السمعة الرائعة التي كان يتمتع بها لدى الشعب والجيش وفي الخارج . فقد شاء الديكتاتور أن يكون « هو شعاع الضوء في المملكة المظلمة » وأن ينسب كل المجد وكل الفضل من أجل النصر لنفسه . وكالعادة كان يلزم في زمن السلم أشخاص يمتازون بالمرونة . وهكذا وصل إلى الصدارة بولغانين و سوكولوفسكي اللذان نحيا عن منصبهما في العام ١٩٤٤ لعدم كفاءتهما بالمرة في تحضير وتنفيذ العمليات الهجومية ، في ظروف كان الجيش السوفييتي بكامله يقاتل بكل مهارة . لكن جوكوف لم يحن رأسه ، وظل يعمل بتفان في كل المناصب التي أوكلت إليه .

حينما كان جوكوف بعد الحرب قائداً عاماً لمجموعة قوات الاحتلال السوفييتي في ألمانيا وقائداً عاماً للقوات البرية وقائداً لقوات منطقتي أوديسا وأورال العسكريتين والنائب الأول لوزير الدفاع ثم وزير دفاع الاتحاد السوفييتي ، كان يولي عناية كبيرة لتفهم خبرة الحرب الوطنية العظمى وإدخالها حيز التطبيق في التدريب القتالي والعملياتي لأجهزة القيادة وللقوات (القوى) . ولدى رجوعنا إلى هذا الكنز الأكثر غنى في الخبرة القتالية والنشاط القيادي لجوكوف فإننا نجد اليوم أيضاً بذوراً أثمن لاكتشافات جديدة ، هذه البذور التي تتولد عنها أفكار عميقة وتقود إلى استنتاجات على قدر كبير من الأهمية النظرية والعملية .

حين كان جوكوف يولي عناية كبيرة للخبرة الماضية كان يُعنى إلى جانب ذلك ، بالاتجاهات الأساسية للتقدم العلمي التقني ولتطور التسليح . ومع ظهور السلاح النووي

كان من المهم جداً تحديد ما هي الواسطة الأساسية لنقله: الطيران الاستراتيجي أم الصواريخ. وبقي الأمريكيون يركزون على الطيران الاستراتيجي. أما القيادة السوفييتية فكانت متوجهة بشكل أساسي إلى الصواريخ بما في ذلك تشكيل قوات صاروخية ذات استخدام استراتيجي، الأمر الذي أعطى الاتحاد السوفييتي إمكانية عمل قفزة هائلة نحو الأمام والحصول على تقدم كبير لبلوغ التكافؤ الاستراتيجي.

كانت أفكار المارشال جوكوف تتجه أكثر وأكثر نحو المستقبل. فقد استطاع أن يتصور بوضوح ذلك الأثر الهائل الذي سيخلفه ظهور السلاح النووي وغيره من وسائط الصراع المسلح الجديدة على التطور اللاحق لفن الحرب. وعلاوة على ذلك كان، كالعادة، يتخذ موقفاً متزناً وحكيماً على الدوام من هذه المستجدات جميعاً دون أن يسير وراء وجهات النظر المتطرفة.

فمن جهة أولى تصاعدت أصوات تقول بأن المهام الاستراتيجية في الحرب ستنفذ بمساعدة السلاح النووي الذي يسمح بوضع أهداف سياسية واستراتيجية لا حدّ لها.

ومن جهة ثانية أصبح واضحاً أن السلاح الجديد سيضع حدوداً معينة أمام المطامح السياسية والاستراتيجية. لكن هذا السلاح لم يؤخذ بعين الاعتبار على المستوى الكامل وظهر تصور بأن الحرب العالمية المقبلة لا بدّ وأن تكون نووية. وظهرت نظرية الحرب النووية التي تتبعت بشكل أساسي الخصائص القتالية للسلاح النووي ــ الصاروخي وطرائق استخدامه المحتمل وتدابير وقاية القوات والسكان من سلاح التدمير الشامل.

بالغ بعض الباحثين النظريين، بشكل صريح، في العواقب الممكنة حتى في الاستخدام المحدود للسلاح النووي. فقد كتب بعض العلماء في حالة استخدام (١٨٠) قنبلة نووية ضد الاتحاد السوفييتي بموجب خطة «دروب شوت» سيحصل تلوث شديد بالرواسب النووية على شكل نويات إشعاعية (Radionuclides) (وهي ذرات تتميز بتركيب نواتها الشاذ) لا يقتصر على رقعة الاتحاد السوفييتي بل يتعداه إلى الولايات المتحدة وبالمحصلة سيفنى كلا البلدين. لكن في الواقع أجري في سنوات ما بعد الحرب ما ينوف على ألفي انفجار نووي منها (٥١٢) انفجار فقط في الجو، ولا تخفى نتائجها على أحد. وهناك آخرون لم يعيروا اهتماماً كافياً لعواقب استخدام السلاح النووي.

افترضت في نظرية الحرب النووية تدابير غير واقعية للغاية، مثلاً إمكانية استعادة القدرة القتالية للقوات ولقوى الأساطيل بعد تبادل الضربات النووية المكثفة بوقت قصير

ومتابعة خوض الأعمال القتالية والهجوم بوتيرة تصل إلى (١٠٠) كم في اليوم . وكثيراً ما كانت هذه المعضلة الأشد تعقيداً تبسّط بشكل غير جدي تماماً في مجرى التدريب القتالي .

من الجدير بالذكر أنه في المرحلة التي كان الطرفان المتقابلان فيها يملكان كمية محدودة نسبياً من السلاح النووي ورسمت الخطط الأولى للحرب النووية (« دروب شوت » والنماذج الأولى من منظومة « سيوب » والخطط السوفييتية لاستخدام القوى النووية الاستراتيجية) كان من الممكن الافتراض أنه حتى في ظروف استخدام السلاح النووي ، من المحتمل حدوث أعمال قتالية محدودة ولو أنها ستكون محفوفة بخسائر فادحة وعواقب وخيمة .

وقد تأكد ذلك من المشاريع التجريبية في كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي باستخدام السلاح النووي .

ففي العام ١٩٥٥ نُفّذَ في الجيش الأمريكي في ولاية نيفادا مشروع Desert Rock VI حيث أجري انفجار أرضي لجهاز نووي طاقته (٣٠) كيلو طن . وبالنظر للمستوى العالي للتلوث الإشعاعي فقد توضعت القوات المشاركة في المشروع (مجموعة مدرعة مختلطة) على بُعد (٣) كم من مركز الانفجار ، ثم اقتربت منه حتى مسافة (٩٠٠) متر ممثلة الهجوم .

وفي الاتحاد السوفييتي أجري في أيلول ١٩٥٤ مشروع في منطقة توتسكويه ، حيث أطلقت قنبلة ذرية من الطائرة وأجري انفجار جوي طاقته (٢٠) كيلو طن على ارتفاع (٣٥٠) متر . كانت القوات قبل بدء الانفجار متمركزة في مساتر على مسافة لا أقل من (٥ ــ ٧) كم . ووقف الجهاز القيادي لوزارة الدفاع السوفييتي ووزراء دفاع العديد من البلدان الحليفة وقادة قوات المناطق العسكرية لمشاهدة المشروع بشكل مكشوف (حاملين معهم النظارات الواقية فقط) على بعد ١١ كم من مركز الانفجار . وتقدمت القطعات الأمامية من القوات المهاجمة إلى منطقة الانفجار بعد مضي (٥ر٢) ساعة .

مرت الوحدات المهاجمة ، المزودة بوسائط الوقاية ، على بُعد (٥٠٠ ــ ٦٠٠) متر من مركز الانفجار وتلقت جرعة تلوث إشعاعي عيارها (٠٢ر٠ ــ ٠٣ر٠) رونتجن ، والعناصر التي كانت في الدبابات كانت جرعتها أقل بمقدار (٤ ــ ٥) مرّات . لكن ظهرت بالنتيجة آثار أشد للنشاط الإشعاعي والتلوث الإشعاعي للأرض الأمر الذي عانى منه السكان المحليون .

على العموم ظلت العوامل ، ذات التأثير الطويل للتلوث الإشعاعي على أعضاء الإنسان ، مدة طويلة دون تقييم كاف . وإلى جانب ذلك أطلقت إشاعات كثيرة من جراء

التستر بلا مبرر على المعلومات الخاصة بهذا المشروع . ها هو ذا ف . ف . كاريوف يكتب : « تحول الرجال الذين في الثلاثين من عمرهم الذين كانوا لوقت قريب من ذوي القوة الشديدة إلى شيوخ هرمين . وربما لقي كل المشاركين في هذه المشاريع حتفهم ... ولعل هذا كان أتعس يوم في حياة وخدمة المارشال جوكوف ، كونه مديراً للمشروع » .

يبدو أن فلاديمير كاريوف استمد مثل هذه المعلومات من جرائد عهد « البيريسترويكا » حينما اخترعت بعض الأقاويل . فأولاً ـــ أجري المشروع بأمر من حكومة الاتحاد السوفييتي . وكلفت وزارة الدفاع بالتنفيذ . وأوكل بولغانين أمر تنفيذ المشروع إلى جوكوف ، وكان نائبه للمشروع جنرال الجيش ي . ي . بتروف . ثانياً ـــ يقول كاريوف ، لقد اشتركت أنا في هذا المشروع حين كنت أخدم في أركان منطقة روسيا البيضاء العسكرية (كانت تعمل في الجانب المهاجم قوات منطقة روسيا البيضاء والفيلق ١٢٨ من بريست) ، وها أنذا ، والحمد لله ، ما زلت حياً وأعرف عشرات من الضباط الذين كانوا في ذلك المشروع ، وبقوا في منطقة الانفجار مدة أطول من بتروف ، وهم أحياء حتى الآن .

أما فيما يتعلق « بالقليل ممن بقوا على قيد الحياة » ، فكما كتب الجنرال ب . ب . ايفانوف (أيضاً من المشاركين في ذلك المشروع) : بقي على قيد الحياة من الأشخاص الذين هم من جيلنا من رجال الجبهة ومن بين الذين شاركوا في مشروع تورتسك ، مع الأسف ، لا أكثر من (٣ ـــ ٤) من أصل مائة .

حقاً كان لهذا المشروع عواقب أشد مما كان متوقعاً في البداية . ومع الأسف كان هناك أشخاص قد عانوا بشكل عنيف وأشخاص ماتوا ، وهذه الحقيقة المرة لا بدّ من التصريح بها بما في ذلك فيما يتعلق بجوكوف ، لكن دون اختراع الترهات . غير أن الحكومة ووزارة الدفاع في تلك الحال اعتمدتا على علماء الفيزياء الذين كان عليهم أن يتنبؤوا بشكل أفضل بعواقب تجربة السلاح الذري .

حسب خبرة هذه المشاريع والعديد من التجارب الأخرى ، دون إشراك الأفراد من جيوش الناتو أو من جيوش حلف واسو ، أُلفت كراسات خاصة بخوض أعمال القتال مع استخدام السلاح النووي . بعد ذلك لقيت هذه المسائل انعكاساً لها في أنظمة قتال العديد من البلدان .

بعد تدخل الصين في الحرب الكورية كانت القيادة الأمريكية متأهبة لبدء الحرب النووية ، وبفضل تدخل رئيس وزراء بريطانيا العظمى « ك . إيتلي » أمكن كبح جماح الرئيس ترومان عن استخدام القنبلة النووية في كوريا . وفيما بعد ظهر التهديد مراراً باستخدام السلاح النووي .

على سبيل المثال «نجد «غ . كاهن»، وهو يبرهن على نجاعة الحرب النووية الحرارية كوسيلة للسياسة، يؤكد أن «الحرب مخيفة، لكن السلام أيضاً مخيف. وأن الانسانية ستعاني من الحرب العالمية الثالثة باستخدام السلاح النووي الصاروخي وأن التخريبات والضحايا الهائلة لن تحرم الناجين وذريتهم من الحياة الطبيعية». وبتحديد أكبر يتكلم بهذه الروح أيضاً «ب . غولدووتر»، داعياً إلى عدم الفزع من الحرب النووية: «نحن أقوياء، نحن سننتصر، لا موجب للخوف من الضحايا والأنقاض، المهم أن ننتصر على الشيوعية». لكن ما أن ظهر السلاح النووي لدى الاتحاد السوفييتي وازدادت كميته حتى بدأت تتغير العقلية في الغرب. وكانت التصريحات الرسمية للنشطاء السياسيين والعسكريين تشير إلى أن الاتحاد السوفييتي يملك قوة مسلحة بطاقة هائلة تمكنها من سحق أي معتد.

الجدير بالذكر أن ظهور أول الكراسات في الجيش السوفييتي حول خوض الأعمال القتالية، في ظروف استخدام السلاح النووي، (المأخوذة على عجل من الكراسات الأمريكية) قوبل بمعارضة ضمنية من قبل بعض الرؤساء العسكريين وكثير من الضباط، وفي بعض الأماكن بمعارضة مكشوفة. حتى أن قائد قوات منطقة روسيا البيضاء العسكرية تيموشينكو أصدر أوامره بعدم إطلاع أحد بشكل عام على هذه الكراسات. وبعد طلبات ملحة من وزير الدفاع وزعت هذه الكراسات على قوات المنطقة. فالمارشال تيموشينكو لم يكن ليصدق أن السلاح النووي يمكن أن يستخدم، وأعرب عن ثقته بأن مصيره سيكون مثل مصير السلاح الكيميائي أبان الحرب العالمية الثانية. وكان أكثر ما يقض مضجع الضباط، من ذوي الخبرة القتالية، أن إجراء الحسابات حول إمكانية تنفيذ المهام القتالية الأساسية جميعاً باستخدام السلاح النووي سيؤدي إلى انحطاط في فن الحرب. وقام هؤلاء الضباط بتوجيه انتقاداتهم بلا هوادة باعتبارهم محافظين. لكن كان يظهر لدى الأشخاص الخبيرين، غير الحائزين على مستوى عال من الثقة، شعور خاص كان يثبت صحته أحياناً في خضم الحياة.

خلال المشروع الكبير المنفذ بالقوات في منطقة روسيا البيضاء العسكرية عام ١٩٥٥ تبادل تيموشينكو تصوراته حيال هذه المسألة مع جوكوف. وأكد وزير الدفاع، لدى تحليل المشروع، على ضرورة إتقان طرائق خوض الأعمال القتالية باستخدام سلاح التدمير الشامل. وإضافة إلى ذلك دعا إلى عدم الاعتماد عليه فقط بل التمرن على استخدام السلاح العادي أيضاً.

هناك بعض المنظّرين العسكريين الذين يأسفون حتى الآن بخصوص أن فن الحرب لا يحسب حساباً كافياً لتأثير استخدام السلاح النووي على طرائق الصراع المسلح. لكن ليس هناك أي جدوى من تكييف فن الحرب فقط مع سلاح لا يمكن استخدامه.

مع ذلك فبالرغم من القعقعة المستمرة بالسلاح النووي، وعلى مقدار تكدس الألوف من الذخائر النووية ووسائط إيصالها إلى الهدف، أصبح واضحاً أكثر وأكثر (ولو لم يُدرك هذا من قبل الجميع) أن الحرب بالاستخدام الكثيف للسلاح النووي غير ممكنة ولن يكون فيها منتصرون.

مهما يكن من أمر فبعد أن توصل القادة السياسيون والعسكريون الكبار إلى استنتاج بعدم إمكان تحصيل النصر في الحرب النووية، فهذا السلاح المسلط على رؤوس البشرية كالسيف ما زال يمارس تأثيراً هائلاً على السياسة وعلى الاستراتيجية العسكرية. معطياً إياهما ثقة معينة مع توليد الفزع في الوقت نفسه.

مثلاً لولا التهديد باستخدام السلاح النووي لما أمكن حل أزمة الكاريبي في العام ١٩٦٢ بأسلوب المفاوضات. وأن الطابع الخطر للحرب الحديثة من شأنه أن يكبح إلى حدٍ ما استخدام، ليس السلاح النووي فحسب، بل والسلاح العادي. مثلاً حسب تقدير كلية بروكلين حول «استخدام القوات المسلحة الأمريكية أداة للسياسة الخارجية في فترة ١٩٤٦ ــ ١٩٧٥» استخدمت الولايات المتحدة (باستثناء حربي كوريا وفيتنام) قواتها المسلحة لحماية مصالحها القومية في (٢١٥) حالة. وفي (١٨) حالة فتحت النار (لكن خارج حدود المجابهة بين الشرق والغرب!). وفي باقي الحالات كان استخدام القوة العسكرية لإثبات الوجود العسكري وعرض العضلات فقط.

بالطبع، لم يكن هذا ليعني العدول عن الأهداف السياسية والاستراتيجية ذاتها، بل تم البحث عن طرائق جديدة لبلوغها:

أولاً ــ أعدت بعض الدول الريادية طرائق للضغط السياسي والاقتصادي على الدول الأخرى، التي تعيق تحقيق مصالحها، عن طريق نسفها من الداخل مما يسمح ببلوغ الأهداف السياسية دون استخدام القوة الحربية.

ثانياً ــ بأسلوب إشعال الحروب المحلية. وفي الواقع في فترة «الحرب الباردة» بين الناتو وحلف وارسو حاولت الدولتان العظميان، اللتان تترأسان هذين الحلفين، أن تزاحم الواحدة الأخرى، وتوسع مناطق نفوذها بأسلوب خوض حروب محلية (كالحروب في كوريا وفيتنام والشرق الأوسط وأفغانستان وغيرها).

حتى مع بدء الستينات، حينما ظهرت لدى الاتحاد السوفييتي إمكانية شن ضربات صاروخية، ليس فقط على أراضي أوروبا الغربية بل وعلى الولايات المتحدة، بدأ كثير من

النشطاء السياسيين والمنظرين العسكريين بطرح سؤال حول ضرورة العدول عن مفهوم الحرب الشاملة والانتقال إلى الحروب المحلية المحدودة.

تقبلت الولايات المتحدة وبلدان حلف الناتو في آخر المطاف «استراتيجية الاستجابة المرنة» التي كانت تتجه ليس فقط إلى الحرب العالمية النووية بل وتأخذ بعين الاعتبار المجال الواسع للحروب والنزاعات العسكرية دون استخدام السلاح النووي. وبناءً عليه اتُّخِذَ منحى بزيادة القوى ذات الاستخدام العام زيادة كبيرة، فقد ارتفع التعداد العام للقوات المسلحة الأمريكية في الفترة ما بين ١٩٦١ ــ ١٩٦٨ من (٢ر٥) حتى (٣ر٥) مليون شخص وارتفع عدد الفرق البرية والمشاة البحرية من (١٤) حتى (٢٤). وكذلك في الدول النووية الأخرى كان التسليح العادي يشكل نحو (٨٠٪) من كل النفقات الحربية، زج فيه مالا يقل عن (٩٠٪) من تعداد الأفراد في القوات المسلحة. وشيئاً فشيئاً غدا السلاح النووي وسيلة للضغط الاستراتيجي وليس سلاحاً في ميدان المعركة. وهكذا نجد أن تقديرات جوكوف وحذره في هذه المسألة أيضاً قد صدقت. ها هو ذا يصوغ في العام ١٩٧٢ استنتاجه النهائي قائلاً: ببساطة من غير الممكن وقوع حرب نووية في المستقبل.

يكتب كاربوف في كتابه عن جوكوف أن «مجرى الأحداث يبين كم هو مؤلم أن لا يستوعب استراتيجيونا، بما فيهم جوكوف، ولا يفهموا مقاصد العدو الجديد المتجهة نحو نسف الاتحاد السوفييتي من الداخل، بما في ذلك عن طريق فرض سباق التسلح عليه». وهذه المسألة أكثر تعقيداً بكثير مما يخيل للكاتب المذكور وتتطلب بحثاً خاصاً بها. ومن المفيد هنا التحدث بإيجاز عن ذلك لكن فقط فيما يتعلق بجوكوف.

يستشهد كاربوف بكلمات مونتغمري التي ألقاها في أحد المؤتمرات المعقودة في ١٩٥٦ إذ يقول: «بإمكاننا طبعاً إنشاء قوات مسلحة واكتساح الشرق في الحرب. لكن ما هي الثمار التي سنجنيها من هذا النصر إذا انتصرت الشيوعية في الغرب؟ فالصراع بين الشرق والغرب هو صراع بين عقول وقلوب الناس... إنه موضوع سياسي أكثر منه عسكري». (كورسيف م. غ). غير أن القصة وما فيها أن الأعداء في ذلك الوقت كانوا لا يمارسون أعمال التفجير فقط بل صعدوا من سباق التسلح وطفقوا يستعدون للحرب بصورة جدية. استمع إلى ما ورد في تقرير رئيس أركان الجيش الأمريكي الجنرال م. تيلور: «يمكن تحقيق أمن البلاد عن طريق إنشاء قوى إرهاب بموجب برنامج عسكري يراعي... الحفاظ على قدرة حربية مستعدة لإرهاب أي عدو في الجو وعلى الأرض وفي البحر، وهذه القدرة يجب أن تكون على درجة من المرونة وتعدد الجوانب بحيث يمكن استخدامها بنجاح في أي نزاع عسكري». وكانت سياسة «الإرهاب» تعني قبل كل شيء وجود قوى نووية جبارة

ووسائط تسليح عادية. وبالتالي كان على القيادة السوفييتية، لمواجهة خطط الولايات المتحدة، أن تعمل على اتجاهين: الأول ــ على خط سياسي واقتصادي وأيديولوجي، الثاني ــ امتلاك وسائط إرهاب خاصة بها. ولم يكن لها أن تقف من دون سلاح في ظروف كان الأمريكيون فيها ينشؤون بشكل حثيث سلاحهم النووي ــ الصاروخي ويرفعون من مستوى أنواع التسليح العادي دون توان. ولم توضع خطط «دروب شوت» و «سيوب» وغيرهما من أجل الألعاب العسكرية بل لكي تطبق فعلاً. وهذا ما قد يحدث لو لم يكن لدى الاتحاد السوفييتي ما يواجه به التخويف النووي. مع أنه أصبح واضحاً الآن بأنه كان على الاتحاد السوفييتي أن لا يتورط باتباع المجرى الذي أُملي عليه (أي سباق التسلح)، فلم تكن قليلة تلك الأخطاء الناجمة عن قصر نظر القيادة العسكرية ومن جراء تحول القيادة العسكرية السياسية إلى دولة ضمن دولة. لكن المهم أن التكافؤ الاستراتيجي و «الإرهاب» قد تحققا على الاتجاه الذي كان مسؤولاً عنه جوكوف وخلفاؤه (ومعهم السياسيون). ونرى أن لدى المارشال أوغاركوف كل الحق ليخاطب كاربوف قائلاً: «لقد حققنا أعظم نصر استراتيجي بأن أنقذنا بلادنا والعالم أجمع من الكارثة النووية». أما على الاتجاه الذي كان من اختصاص السياسيين فقد حصل أسوأ ما يكون. وإذا أردنا أن نتحدث جدياً في هذا الموضوع لنتساءل: ماذا كان على جوكوف فعله وما الذي استطاع فعله؟ لنفرض أنه اكتشفت وقدر تقديراً صحيحاً خطط الغرب الرامية إلى نسف الاتحاد السوفييتي من الداخل. ما العمل؟

أولاً ــ كان من الممكن ومن الضروري تقليص القوى المسلحة والنفقات العسكرية إلى حدٍ معين، وهذا ما جرى إلى حدٍ ما في تلك السنوات. وتحديداً حين كان جوكوف في الفترة ما بين ١٩٥٦ ــ ١٩٥٧ وزيراً للدفاع بدأت خطة استمرت (٥ ــ ٦) سنوات لتقليص تعداد الجيش والأسطول. ففي سنوات ١٩٥٥ ــ ١٩٥٨ اختصر التعداد من (٥٧٦٣) ألف إلى (٣٦٢٣) ألف شخص أي بمقدار (٢١٤٠) ألف شخص. ونفذ هذا بالطبع بقرار من القيادة السياسية. لكن المنفذ كان جوكوف، وبقرار منه ألغيت في سنة ١٩٥٥ حلقة القيادة في الفيالق وبعض الحلقات الأخرى التي لا لزوم لها، مما سمح بتقليص تعداد جهاز القيادة. وإلى جانب اختصار التعداد ازدادت المؤشرات النوعية لبناء القوات المسلحة وتدريبها، وقد بذلت في هذا المجال جهود أخرى كثيرة.

ثانياً ــ كان من الضروري، لمواجهة الخطط السياسية والاستراتيجية الجديدة للولايات المتحدة، رفع فعالية الاقتصاد. مع ذلك لا يمكن أن نتناسى أن الاقتصاد السوفييتي، في الوقت الذي كان جوكوف يمارس سلطته، كان يعمل بشكل لا بأس فيه. فخلال فترة وجيزة تم تجديد الاقتصاد الوطني المدمر من جراء الحرب وتطور بفعالية كافية.

ودخلت البلاد عصر الذرة والسرعات فوق الصوتية وصناعة الصواريخ والرحلات الفضائية . لكن والحق يقال لوحظ تقصير تكنولوجي . ففي السنوات التالية كما يسمونها بسنوات « الجمود » أصبحت النجاحات الأخرى أيضاً أقل . ولما كان الزعماء غير مؤهلين للحصول على أكاليل غار جديدة فقد مالوا إلى القناعة وصاروا يكللون أنفسهم بغار النصر في الحرب الماضية . وكالسابق ظل الأشخاص المنتصرون يعيشون عيشة متواضعة . فبعد أن زار جوكوف قريته سترلكوفكا بعد الحرب اعتراه الفزع لما رآه من الإهمال والفاقة . وسأل المواطنين :

ـــ كيف تعيشون هذه العيشة السيئة كالمعدمين .

أجابوه :

ـــ نحن بالفعل معدمون . لم نصل إلى حد الاستقرار بعد الحرب : فلا عزب لدينا بل أكواخ . قطعت الأشجار وسحبت الأبقار .

وكان كل ما في استطاعته أن قال لهم :

« هذه داري بين أيديكم استفيدوا منها » .

روى جوكوف هذه القصة لرئيس مجلس السوفييت الأعلى فوروشيلوف ورجاه أن يروي لخروشوف إلى أي حد وصلت القرية . ويصف جوكوف ردة فعله قائلاً : « أجابني بالنفي قائلاً : أنا أريد أن يدفنوني في الساحة الحمراء » . انظر إلى أي حد وصل الثوريون ... وماذا كان باستطاعة جوكوف أن يجيبه ؟ لم يعد في اليد حيلة .

لتجاوز نقط الضعف في الاقتصاد كان لا بدّ من إجراء إصلاحات اقتصادية جذرية . وحتى اليوم لا يمكن بلوغ ذلك . ففي زمن جوكوف لم يتم إنشاء هذه الإصلاحات عموماً . وحتى الإصلاحات الطفيفة نسبياً على يد كوسيغين أصبحت طي النسيان . فبدون تجديدات اقتصادية جذرية سنجد أنفسنا ، في وقت مبكر أو متأخر ، على طريق مسدود حتى ولو لم يكن هناك أعمال تخريبية من الخارج .

ثالثاً ـــ كان من الضروري تعديل ، ليس السياسة الداخلية فقط ، بل والخارجية أيضاً والتخلص من المجابهة الدولية ، وعموماً من « الحرب الباردة » .

ففي العام ١٩٥٥ دار الحديث في جنيف بين جوكوف وآيزنهاور ، إلى حد ما ، في هذا الخصوص .

قال جوكوف : الشيء الرئيسي هو اختصار القوى المسلحة وتصفية السلاح الذري ووضع نهاية للأحلاف العسكرية .

اعترف آيزنهاور بضرورة ذلك. لكن كان حديثه كله ينصب على مسائل الرقابة والتفتيش، واعتبر من الضروري حل هذه المسألة تدريجياً، علماً بأن كلا الموضوعين: السلاح النووي، والأحلاف، كانا في مرحلة النشوء وكان تفاديهما أسهل مما في السنوات اللاحقة. لنفرض أن جوكوف، بعد الحديث مع آيزنهاور، خرج باقتراح إلى القيادة السياسية للبلاد حول التغيير الجذري لكل الاستراتيجية السياسية والعسكرية. ليس من الصعب التصور كيف سيفهمونه... كيف إذن يجب التعبير حينئذ، كما كتب عن ذلك كاربوف، عن تفهم «استراتيجيتنا وجوكوف لمقاصد العدو الجديدة؟».

لنطرح الآن افتراضاً خيالياً بأن مقترحات جوكوف قبلت وبدأ تطبيقها. ماذا كان سيحدث حينذاك؟ يمكن الحكم على ذلك مما يتوفر في أيدينا اليوم. فقد غدا الاتحاد السوفييتي و «التهديد العسكري السوفييتي» أثراً بعد عين. انفكت عرى حلف وارسو. وفي روسيا الجديدة يجري كما يقال، بناء دولة ديمقراطية يمينية تعتمد على اقتصاد السوق. وفي الغرب قليلاً ما أجريت تغييرات جوابية على هذه الخطوات، لدرجة أن روسيا لا تملك حتى علاقات تجارية طبيعية. بقي حلف الناتو وغيره من التنظيمات كما هو، والآن يستفزون روسيا من جديد بنواياهم في توسيع حلف الناتو وبأفعال أخرى مشابهة. وهكذا لم تتخلص البلاد من وصمة الذنب الأبدية: فهي سواء أكانت قوية أم ضعيفة إلى أقصى حد، على الدوام تشكل تهديداً لجهة ما.

أعطي جواب شاف لكل هذه الأسئلة «المحيرة» في الحديث الذي أدلى به تشرشل في فولتون عام ١٩٤٦ الذي، كما كتب عنه كاربوف بحق، ينحصر فيما يلي: «اعترفوا طوعاً بسيادتنا، حينئذ سيكون كل شيء على ما يرام، وإلا فالحرب لا مندوحة عنها». وبالنسبة ليومنا الحاضر فقد أعطي جواب لا يقل عن ذلك وضوحاً بالنسبة للاستراتيجية القومية للولايات المتحدة التي ينحصر هدفها الرئيسي في أنه لا يجوز أن يكون هناك في العالم دولة أخرى قادرة على المنافسة والمزاحمة مع الأمريكيين. هذه هي اليوم المصالح القومية الاستراتيجية للولايات المتحدة التي لا بدّ من أخذها في الحسبان. لكن هناك في الوقت نفسه مصالح قومية لروسيا وهي ليست عبارة عن رغبات وأهداف لفئة أو أخرى من السياسيين (الذين يمكن أن يتغيروا) بل هي قبل كل شيء تعبير عن متطلبات سياسية اقتصادية وروحية موضوعية للبلاد والشعوب الروسية، يتوقف على تحقيقها الحفاظ على روسيا دولة عظمى قوية، وتحدد التوجهات الثابتة الطويلة الأجل لتطويرها.

إن الادعاءات القائلة بأن روسيا لا يمكن أن تكون بعد الآن دولة عظمى ليس لها أساس من الصحة. فهي لا يمكن إلا أن تكون دولة عظمى. وإلا فلا يمكن الحفاظ على

وحدتها وعلى نظام الدولة القائم ولا يمكن أن تفرض وجودها في القارة الأوروبية ــ الآسيوية. وسيعاني العالم أجمع من الويلات ولن يعود قادراً على التماشي مع مهمة تأمين الاستقرار لنفسه إذا بدأت النزاعات والخصومات في هذه القارة، المليئة بكمية كبيرة من السلاح النووي ومراكز الطاقة الذرية والانتاج الكيميائي.

كل ما حصل لا يمكن لجوكوف ولا لأي شخص آخر أن يتنبأ به بشكل كامل. فالكثير كان مفاجئاً حتى للغرب.

لن نتكلم الآن عما كان يجب فعله وأي طريق كان يجب سلوكه. فهذا الموضوع يتطلب نقاشاً مستقلاً. لكن هذا هو الواقع القاسي الذي لا يمكن استبداله بقوالب مبسطة واتهامات بما فيها ما وجه إلى جوكوف.

عبر جوكوف بشكل كامل عن موقفه من الظواهر الحديثة في العمل العسكري من خلال مؤتمر العلوم العسكرية للعناصر القيادية في القوى المسلحة المعقود في أيار ١٩٥٧.

بعد أن نوه بمنجزات معينة في إنتاج نماذج جديدة من التسليح وتحسين البنية التنظيمية للقوات، وفي إنشاء منظومة جديدة للدفاع الجوي وبناء الأسطول البحري الحربي، تكلم بالتفصيل عن المعضلات والمهام الناشئة الواجب حلها. وطرح بشكل حاد مسألة لزوم التحليل النقدي لخبرة الحرب الماضية واستنباط الدروس اللازمة منها.

ثم قال: لكي تبقى القوى المسلحة دوماً على مستوى مهامها ينبغي علينا، نحن القادة المباشرون للجيش والأسطول وعلى كوادرنا العلمية العسكرية، أن ننظر بعيداً إلى الأمام ونراعي تلك العمليات الديناميكية الجارية في العلم والتقنية التي تتصف بها مرحلة ما بعد الحرب. وأوضح بقلق أن منجزات العلم والتقنية أصبحت تسبق بوضوح فكرنا العسكري النظري.

وسرد المعضلات الرئيسية التي يجب الاهتمام بها في الدرجة الأولى، وهي معضلات المرحلة الابتدائية للحرب، مع مراعاة الخبرة المريرة في العام ١٩٤١. فعلى القوى المسلحة أن تكون، على الدوام، جاهزة بفعاليتها لإحباط الضربة الجاري تحضيرها وهي في مهدها وذلك بحرمان العدو أية إمكانية لنشر الأعمال القتالية بشكل منظم. وفي الوقت ذاته رفض وزير الدفاع مقترحات بغرميان وروتميستروف وسواهما بإعلان التوجيه الهجومي للاستراتيجية العسكرية التي تخطِّط لجملة من الضربات المفاجئة السباقة بقصد سحق الضربة المحتملة أو الجاري تحضيرها لدى العدو. وأكد جوكوف أنه لا يجوز طرح الموضوع هكذا، وأن العقيدة العسكرية السوفييتية تبقى دفاعية على المستوى السياسي ــ الاستراتيجي. وإليك وجهة نظره بالتفصيل:

— بخصوص طرق خوض الصراع المسلح في الظروف الحديثة، نجده يرفض النظريات القائلة بأن على القوات، في ظروف استخدام السلاح الذري، أن تهاجم في تراتيب ما قبل القتال. وأشار إلى أن أي هجوم يتطلب تنظيماً متقناً وتنسيق النار والحركة. وطالب بإجراء تجهيز هندسي متقن لمنطقة الانطلاق للهجوم وعدم حشد تجميعات ضخمة من القوات سلفاً بل تحريكها إلى مواضع الانطلاق للهجوم تباعاً وفي اللحظة الأخيرة فقط، واعتبر أنه من الخطر اتباع طرائق وقوالب جامدة لبناء الدفاع، ونصح ببناء الدفاع بأكثر مرونة وبإخفاء وتمويه نطاق الدفاع الرئيسي مع نقله في حالات معينة إلى العمق.

— نظراً لأن التركيز الرئيسي، للأعداء المحتملين، يقع على الضربة المفاجئة القوية من الجو بالطيران والصواريخ مع استخدام السلاح الذري، فإن دور القوى الجوية والدفاع الجوي يزداد، وتكتسب أهمية حاسمة مسائل الصراع على السيطرة الجوية، فقد أكد وزير الدفاع أن هذه المهمة يجب أن تحل قبل كل شيء بالأعمال الفعالة مع استخدام القوى والوسائط من أنواع القوى المسلحة كافة. وكان التركيز بشكل خاص على إنشاء منظومة جديدة للدفاع الجوي والدفاع المضاد للصواريخ.

— تحديد أسس استخدام الطيران والسلاح الصاروخي ضد الأغراض الاستراتيجية للعدو، وطرائق الاستخدام القتالي لقوى الغواصات بالتعاون مع الطيران ضد خطوط مواصلات العدو في البحار والمحيطات.

قُدم في المؤتمر اقتراح حول تشكيل قيادات على مسارح الأعمال الحربية. واعترف وزير الدفاع بعدم جدوى إنشاء حلقات وسيطة للقيادة الاستراتيجية. وقال: دعونا نتمسك بالمنظومة الأكثر بساطة ومرونة وحركية، بإنشاء هيئة عليا مع تنسيق أعمال مجموعات الجبهات (عند اللزوم) من قبل ممثلين عن الهيئة.

أحدث جوكوف تعديلات جذرية في التدريب العملياتي للقيادة والأركانات، والتدريب القتالي للقوات وقوى الأسطول. وقبل كل شيء طرح مسألة إلغاء الموسمية في التدريب القتالي حين يجري في بداية العام الدراسي التدريب الفردي، ثم التدريب المتتابع للوحدات، وفي النصف الثاني من السنة فقط وعموماً في نهاية السنة كان يأتي دور التنسيق القتالي لأعمال القطعات والتشكيلات. والنتيجة أنهم يبقون نصف عام على أقل تقدير ليس لديهم قدرة قتالية كافية. وطالب جوكوف بإجراء مشاريع مع الوحدات والقطعات والتشكيلات وكذلك رمايات ودروس أخرى على امتداد السنة بأكملها بحيث تكون القوات على أهبة الاستعداد في أي وقت لتنفيذ المهام القتالية. وأولى عناية خاصة لتعليم الكوادر العسكرية وتربيتها القتالية،

ولإعادة بناء العملية التدريبية في المنشآت التعليمية العسكرية. ومما له فائدة استثنائية إشراك الأساتذة والمدربين العاملين في الأكاديميات العسكرية في مشاريع القيادة والأركان ومشاريع القوات.

بعد رحلته إلى الهند، قام بإدخال التربية البدنية الإجبارية لكل فئات الجنرالات والضباط، وجعلها واجباً مسلكياً مما أدى إلى رفع اللياقة البدنية لدى فئة الضباط بشكل جوهري.

لما كان فن الحرب ينمو زمن السلم، في المشاريع والدروس العملياتية التكتيكية بشكل رئيسي، فقد أعطى العديد من النصائح والتوصيات القيمة حول أسلوب تحضيرها وتنفيذها وإزالة النقائص الموجودة في هذا المجال.

كان يرى النقص الرئيسي في تعليم القادة وتربيتهم القتالية في عدم توجيه العناية اللازمة لإعداد القائد المتصف بالإرادة وسعة الخيال، القادر على التمعن بمفرده بالموقف الناشئ في حقل المعركة واتخاذ القرار اللازم على مسؤوليته الخاصة.

كان جوكوف يعتبر أن من الضروري إتاحة قدر أكبر من المبادرة لقادة أنواع القوى المسلحة وقادة قوات المناطق العسكرية والأساطيل في تخطيط تدريب أجهزة القيادة والقوات، وفي تحديد مواضيع المشاريع. وحظّر إجراء تخطيط مفصل إلى حد كبير لمجرى المشروع وفرض أية خطط وقرارات جاهزة من طرف القيادة على القادة والأركانات المتدربين، وكان المطلوب الاقتصار في لعب الأعمال القتالية على قرارات المتدربين. ومنح القادة أقصى حرية في الأعمال وإمكانية إظهار مبادهتهم واتخاذ القرارات الجريئة لاختيار طرائق الأعمال المتنوعة مع مراعاة ظروف الموقف الفعلية.

بناءً على توجيهات جوكوف ازداد الثقل النوعي للرمايات والمشاريع الليلية في التدريب القتالي. فقد رأى في ذلك واحدة من الإمكانيات الإضافية لرفع القدرات القتالية للقوات والحصول على مزايا متفوقة على العدو. وكان جوكوف يروّج على الدوام للفكرة القائلة بعدم لزوم الخوف من الأخطاء والنقائص التي يرتكبها المرؤوسون وتسهيل أعمالهم.

ازيلت كل النقائص. المهم أن ينفذ التدريب القتالي عن جدارة. وحين طرح عليه سؤال: كيف إذن ندرب؟ أجاب بشكل صارم ومحدد: «ليس هناك سوى جواب واحد: تخلصوا بسرعة من النظرة السطحية للموضوع وحطموا كل القوالب الجامدة».

بعد إزاحة جوكوف عن منصب وزير الدفاع، كان من جملة التهم التي وجهت إليه أنه منع تأليف كراسة لخوض العمليات. وبرروا هذه التهمة كما لو أن جوكوف يعتبر أن القادة

الذين على طرازه ليسوا بحاجة إلى أنظمة وكراسات عسكرية. لكن الأمر كان مختلفاً إلى حدٍ ما. فمشروع الكراسة الذي قدم إليه لم يكن مؤلفاً بشكل ناجح. إذ وصف فيه، بتفصيل زائد عن اللزوم، نظام عمل قادة الجبهات والجيوش والأركانات الذي خرجوا بالأمس من الحرب وهم ليسوا بحاجة إلى مثل هذه الكراسات في الواقع. وهذه الكراسة دفعت إلى اتباع قوالب جامدة، الأمر الذي كان يعارضه جوكوف على الدوام. لذلك أصدر أوامره إلى الأركان العامة لإعداد «أسس تحضير وتنفيذ العمليات» حيث تذكر المسائل المبدئية التي تكشف طبيعة العمليات الحديثة وأهم المتطلبات المفروضة على تحضيرها وتنفيذها.

كان لجوكوف تصورات وتعليمات خاصة بتحسين العمل العلمي العسكري اللاحق، وهي مفيدة وواقعية جداً بالنسبة ليومنا هذا أيضاً. ويمكن الحكم على اهتمامه بهذا الوجه من أوجه النشاط من تأسيس إدارة للعلوم العسكرية الرئيسية التابعة للأركان العامة تحت إشراف جنرال الجيش ف. ف. كوراسوف. كما أحدث منصب النائب الأول لوزير الدفاع للعلوم العسكرية، عُين فيه فاسيليفسكي. وكما قال جوكوف فإن العلم العسكري وفن الحرب لا يمكنهما أن يكونا تقدميين إذا بقيا يعتمدان على العوامل التي انقضى زمانها وليس فيها نظرة إلى المستقبل. وأكد بشكل خاص خوفه من إعداد مؤلفات مستقلة أساسية جديدة. وكان يتحدث بحدة عن أن عبادة شخصية ستالين اتخذت أشكالاً قميئة وجمدت كل تطوير تقدمي للفكر العسكري.

لعل جوكوف كان وزير الدفاع الوحيد الذي اطّلع بنفسه على عشرات الأطروحات المكرسة لمعضلات فن الحرب. وأصابه الغم لعجزها وابتعادها عن الحياة والمعضلات الواقعية. وفي تعليقه عليها أفاد بأن هذه المجهودات الرامية إلى الحصول على الدرجات العلمية لا تتضمن سوى تعليقات على توجيهات الرؤساء الأقدم والتفسيرات الرسمية، وهي عبارة عن إعادة رواية أفكار الآخرين. وعبر عن فكرة تقضي برفع مستوى التكيف والصرامة تجاه هؤلاء «العلماء» وإمكانية نزع الثقة منهم. وحسب قناعته، بغية إثبات الأهلية للوظيفة المعين فيها العالم وللمعارف العلمية العالمية، يجب عليه أن يدخل في هذه المؤلفات أفكاره الخاصة. وأن تكون المبادئ والاستنتناجات المطروحة نتاجاً لعقله الخاص به. وبغية رفع سمعة وخصوصية العلم العسكري طالب بالمساهمة الفعالة للمارشالات والجنرالات المشتركين في الحرب وعموماً الجهاز القيادي للقوى المسلحة في العمل العلمي العسكري. وبناءً على توجيهاته أوفد إلى الأركان العامة كبار القادة من مستوى الجبهة والجيش لتعميم خبرة أهم عمليات الحرب الوطنية العظمى وتأليف المراجع الخاصة بفن الحرب لمرحلة ما بعد الحرب.

كان يفترض بالبحوث العلمية أن تسترشد بالقاعدة المادية المستقبلية للصراع المسلح . وفرض جوكوف الحفاظ بشدة على السر العسكري والتقني العسكري . وإلى جانب ذلك صرح بحزم أنه لا يمكن أن يكون هناك بحوث علمية جدية ما لم يكن لدى الباحث المعلومات الضرورية الموثوقة . وأصدر تعليماته بأن يسمح للباحثين ليس فقط بالوصول إلى أحدث طرازات الأسلحة والعتاد الحربي ، بل وكذلك بأن يطلعوا على أعمال البحوث العلمية والتصاميم المستقبلية . وقام جوكوف بلفت النظر إلى ضرورة ، ليس فقط ابتكار أفكار علمية جديدة ، بل وإيصالها في حينها إلى فئة الضباط . وكان واضحاً أنه إذا أعطيت كل البحوث درجة السرية حتى فيما يتعلق بعمليات الحرب الفائتة فلن تصل المعارف اللازمة إلى مسامع الضباط أبداً . وكان قد وجه اللوم بحق إلى المؤرخين الأجانب ، لكنهم بسبب إخفاء المؤلفات السوفييتية اضطروا إلى وصف العمليات حسب المصادر الألمانية . ومع الأسف لم ينظم حتى الآن الوصول إلى وثائق الأرشيف حتى للمواطنين وللمحاربين القدماء . وفي عهد جوكوف بالذات بدأ تأليف وإصدار سلسلة من الكتب التي تشكلت منها « مكتبة الضابط » وأسند وزير الدفاع المهمة لعقد مؤتمرات علمية ــ عسكرية في القوى المسلحة سنوياً ، وفي المناطق العسكرية والأساطيل مرتين في السنة .

اعتبر جوكوف أنه من العيب الإنكار بشكل متعجرف ، لما يسمى بالعلم العسكري البرجوازي ، وطالب بدراسة كل منجزات الفكر العسكري النظري والفكر العسكري التقني الأجنبي دراسة وافية . فبعد فترات قصيرة من انتهاء الحرب صدرت باللغة الروسية مذكرات آيزنهاور ــ ديغول وغودريان ومانشتاين وكثير من الكتاب الأجانب الآخرين ، وهذه المذكرات نشرت في الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا وغيرها من البلدان . وبذلك أتيحت الفرصة أمام الجنرالات والأدميرالات والضباط تتبع كل جديد يصدر في العالم . وقد أدى ذلك إلى إحياء الفكر الإبداعي والعمل العلمي العسكري وأغنى فن تدريب الكوادر العسكرية .

أولى جوكوف أهمية كبيرة للتثقيف الذاتي للضباط . وكان على قناعة بأن المعارف التي يصل إليها الضابط . بجهوده الخاصة فقط، يمكن أن تكون راسخة . ومن المهم جداً اكتساب ثقافة جيدة وإنهاء الأكاديمية ، لكن الأهم من ذلك أن يغرس لدى الضباط حب المعرفة والتعطش إلى الرفد المستمر لمعارفه . ما هي الفائدة مثلاً من كون وزير الحرب في الحكومة القيصرية الجنرال ف . آ . سوخملينوف قد تخرج من أكاديمية الأركان العامة إذا كان يتباهى بأنه منذ (٢٠) سنة لم يقرأ أي كتاب . مع الأسف كان يصادف مثل هؤلاء الجنرالات في العهد السوفييتي أيضاً .

وحين تذكر جوكوف خدمته العسكرية أكد أنه كان يدرس بتمعن وصبر خبرة القادة الآخرين ومؤلفات الكتاب العسكريين .

روى في إحدى المقابلات أن هذه الدراسة أكسبته مهارات راسخة في عمله الفردي في المؤلفات التاريخية العسكرية والنظرية . فقد قال : « عندما كنت قائد فوج وفرقة قيض لي أن أدرس وأتمعن في كثير من عمليات الحرب العالمية الأولى والحرب الأهلية وأن أستخدم المعلومات المكتسبة لدى إجراء الدروس مع عناصر القيادة ، كما أنني درست على انفراد المؤلفات التاريخية والنظرية لفرونزوه ، شابوشينكوف ، يغوروف ، كامينيف ، توخاتشيفسكي وكثير غيرهم من المؤرخين والمنظرين في ذلك الزمان .

لكن الحق يقال أنك إذا جلست خلف مقعد الدراسة من الصعب أن تصبح قائداً حقيقياً . ففي الممارسة العملية في القوات ـــ في المشاريع والمناورات بغض النظر عن الأعمال القتالية ـــ تصقل المزايا القيادية مثل : برودة الأعصاب ، قوة الإرادة ، الرجولة ، البسالة .

وقال : « بالنسبة لي شخصياً لعب دوراً كبيراً في إنضاج الخصال القيادية المعينة ، إلى جانب العمل المنهجي الإفرادي حيال المسائل النظرية ومسائل التاريخ العسكري ، الاشتراك في الألعاب العملياتية ومشاريع القيادة والأركان والمناورات التي غالباً ما كانت تنفذ في منطقة روسيا البيضاء العسكرية بقيادة آ . ي . يغوروف وي . ب . اوبوريفيتش وكذلك مفوض الشعب للدفاع . وتعلمت الكثير حين قدت في العام ١٩٣٩ مجموعة الجيوش الأولى للقوات السوفييتية المنغولية على نهر خالخين غول .

وفي سنوات الحرب العالمية الثانية ، كانت كل عملية أُتيح لي الاشتراك في تخطيطها وتحضيرها أو تسلم قيادة القوات فيها تغني معلوماتي وتضطرني إلى التفكير عميقاً واستنباط الدروس العملية . فمن عملية إلى عملية أصبحنا أكثر نضوجاً . فإذا ما تذكرنا ، على سبيل المثال ، كيف حُضرت أكبر العمليات مثل : الهجوم المعاكس أمام موسكو وستالينغراد وكورسك ، لوجدنا أنها نفذت جميعاً في موقف مختلف مع اشتراك عدد متفاوت من القوات . لكن التحليل يدل على أن مهارتنا العملياتية والاستراتيجية كانت تتكامل من عملية إلى أخرى . وكنا نحاول أن نتلاقى الهفوات التي ظهرت في إحدى العمليات لدى تحضير وتنفيذ عملية جديدة .

استناداً إلى خبرتي الشخصية أود أن أنصح الضباط الجدد بمايلي : « لا تبخلوا بمجهوداتكم لدراسة التاريخ سواء للحرب الماضية أو الحروب المحلية ... ادرسوا خبرة المناورات ومختلف المشاريع فهذا سيقدم لكم مساعدة كبيرة في المستقبل . لا تكتفوا بمجرد

دراسة الحقائق بل اعملوا فكركم فيها أكثر، حللوا وقيّموا القرارات المتخذة وأعمال القوات وتعودوا على التفكير المستقل. هذا هو المغزى من دراسة خبرة الماضي. وإليك نصيحة أخرى: إعمل دوماً وحيثما كنت على دراسة العدو المحتمل بدقة ومن النواحي كافة ونظريته وممارسته، وكن قادراً على تحليل وتعميم المعطيات المتلقاة، وعمل الاستنتاجات الصحيحة منها». كما يقول جنرال الجيش غاريييف:

«خلّف جوكوف وراءه تراثاً عسكرياً نظرياً كبيراً. ففي العام ١٩٧٤ بعد وفاته، ولكوني مدير إدارة العلوم العسكرية التابعة للأركان العامة، ألحقوني في قوام لجنة الدولة المكلفة بجمع وثائق ومخطوطات جوكوف وتسليمها إلى الأرشيف لحفظها هناك. ومع ذلك قبل وصولنا إلى عزبته كان قد سبقنا إلى هناك العاملون في فرع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي وفي لجنة أمن الدولة (ك ج ب) المرسلون بأمر من ل. و. تشيرنينكو، وجمعوا كل ما كان له أهمية بالنسبة إليهم وحملوه معهم، لكنهم فعلوا ذلك بكل استخفاف، حتى أنهم استولوا على بعض المخطوطات في فن الحرب التي لا علاقة لهم بها. وقد أمكن العثور على جزء منها في الآونة الأخيرة فقط بفضل الحمية التي أظهرها اللواء غوركوف. يو. آ والعقيد سيمين. يو. ن.

ومن بين البحوث العسكرية النظرية لجوكوف هناك تقرير ممتع جداً وهو الذي ألفه في العام ١٩٤٠ في موضوع: «الشروط العامة لتنفيذ العمليات الهجومية الحديثة والمبادئ الأساسية لبنائها».

وإليه تعود عدة بحوث علمية عسكرية مؤلفة في سنوات ما بعد الحرب منها: «الاستراتيجية العسكرية السوفييتية في عامي ١٩٤١ ــ ١٩٤٢»، «تحليل موجز للعمليات في الحرب الوطنية العظمى».

قام ف. كوركين وآ. كروغلوف العاملان في مركز الأرشيف التاريخي والمذكرات العسكرية بإعداد مادة بعنوان «غ. ك. جوكوف، وثائق ومواد» تقع في نحو (٦٠٠) صفحة مع الوثائق والمقالات غير المنشورة لجوكوف. وكان لخطبه الملقاة في المؤتمرات العلمية العسكرية وفي تحاليل المشاريع فائدة كبيرة. وقد نشر معهد التاريخ العسكري لوزارة الدفاع الروسية مختارات من وثائق عملية برلين. ويجري تحضير مختارات من المواد الخاصة بفنه القيادي بإشراف العميد زلوتاريف. ف. آ.

كان جوكوف قد حضر ما ينوف على (١٥) تقريراً ومحاضرة علمية في فترة قيادته لقوات منطقتي أوديسا والأورال العسكريتين.

نشرت عدة مقالات ذات مغزى كبير تكريساً لملحمتي موسكو وكورسك وعمليات روسيا البيضاء وفيسلا ـــ اودير وبرلين في مجلتي « الفكر العسكري » و « مجلة التاريخ العسكري » .

ويبقى النتاج الرئيسي لجوكوف « تأملات وذكريات » معروفاً على نطاق واسع . وفي الإصدار الأخير لهذا الكتاب أعيد النص إلى الأصل الذي كتبه المؤلف .

ها هو ذا كلاوزيفتيس يقول بعد أن ترك مخطوطه غير المكتمل تحت عنوان « حول الحرب » ما يلي : « كان بالنسبة إلي شرف كبير أن أكتب مثل ذلك الكتاب الذي قد لا ينسى بعد (٢ ـــ ٤) سنوات والذي قد يعمد المهتمون بموضوعه إلى إعادة قراءته أكثر من مرة » . وقد فاقت المدة التي احتفظ فيها كتابه بالشهرة كل توقعات المؤلف . ويجب أن نتوقع أن كتاب جوكوف الفريد من نوعه لن يكون أقل شهرة من ذلك الكتاب .

في آب ١٩٦٦ عقد في هيئة تحرير « مجلة التاريخ العسكري » لقاءٌ تعليمي ممتع بين مجموعة من المؤرخين العسكريين وجوكوف . وفي أثنائه طُرحت ، علاوة على الأسئلة التي تستحق الاعتبار بالنسبة لجوكوف ، بعض الأسئلة الساذجة التي تدل على بعد الشقة في فهم فن الحرب بين هذا القائد والمؤرخين الأحداث حينذاك ، الذين حاولوا أن يحكموا بشيء من الغطرسة وبأسلوبهم الخاص على نشاطه القيادي . من هذه الأسئلة مثلاً :

ـــ ألم يكن بالإمكان الفصل زمنياً بين الضربة المعاكسة والهجوم المعاكس أمام موسكو ؟ (يتبادر إلى الذهن سؤال معاكس وهو كيف ولماذا نفصل بينهما إذا كان الهجوم المعاكس منبثقاً من الضربات المعاكسة) .

ـــ لماذا غيرت قرارك في عملية برلين حول استخدام جيش كاتوكوف ؟ (يسألون لماذا يجب أن يكون القرار غير قابل للتغيير ؟) . وهنا أعطى جوكوف إجابة مقنعة وهي أنه لم يلتزم في أعماله أبداً بما كان يقوله سابقاً بل أنه كان يتتبع الموقف . فإذا ما تغير بشكل يخالف التوقعات السابقة ، حينئذ كان يدخل التعديلات على القرار دون تباطؤ .

هذا هو جوهر فن الحرب : كلما تغير الموقف يتغير القرار وطرائق الأعمال .

يقال أيضاً أن جوكوف لم يكن يتمالك أعصابه . من الصعب أن تجد من القادة الكبار بل من القادة العاديين من يصغي إلى مثل هذه الأسئلة ثم يجيب عنها بأناة وصبر . وبقيت كل المحاولات اللاحقة لبعض المؤرخين من أجل تجريد جوكوف من أفكاره الاستراتيجية على

المستوى البدائي الذي لا يهدف إلى استقصاء خبرات جوكوف بشكل جدي بل إلى عدم فهم هذا القائد كما يجب .

شارك جوكوف ، بوصفه وزيراً للدفاع ، مشاركة فعالة في الحياة السياسية والاجتماعية للبلاد . وحينما برز خطر أن يحاول مولوتوف ومالينكوف وبيريا إعادة الحياة في البلاد من جديد إلى الأساليب الستالينية ، وقف جوكوف بحزم ضد هذه الطغمة ودعم خروشوف . وكان الأخير مذعوراً لتزايد نفوذ وتأثير جوكوف فقرر التخلص منه في أول فرصة تتاح له . وفي الاجتماع العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي المعقود في تشرين الأول ١٩٥٧ ألصقت بجوكوف تهم مختلفة منها استخفافه بالعمل السياسي الحزبي في القوات المسلحة . كانت هذه التهمة غير معقولة إذ أن جوكوف كان يولي عناية كبيرة للتدريب المعنوي ـــ السياسي للمقاتلين ولتربيتهم العسكرية ، معتبراً ذلك أهم شرط في تأمين القدرة القتالية العالية للقوات . وكان يقف ضد التطرف والشكليات في هذا العمل ، ضد تحويل ما يسمى بالعمل الحزبي ـــ السياسي إلى هدف قائم بذاته . كان جوكوف يسعى إلى رفع دور القادة في العمل التربوي واختصار عدد العاملين السياسيين المتفرغين لهذه الغاية . وكان يقلقه بشكل خاص تلك الحالة التي أصبح فيها العمل التربوي أكثر جموداً وبعيداً عن الواقع وعن مهام التدريب القتالي للقوات . ووصل الأمر إلى درجة السخافة حينما كان أفراد التشكيلات والقطعات المختصرة في تعدادها ، يركزون جل اهتمامهم على التدريب السياسي ولا يبقى عموماً أي وقت للتدريب القتالي .

بعد أن ترك جوكوف منصب وزير الدفاع تفاقم هذا المنحى المضني أكثر فأكثر . فازداد إلى حدٍ كبير تعداد العاملين السياسيين الداخلين في ملاك القطعات ، وأدخلوهم في كل إدارات الجهاز المركزي لوزارة الدفاع مهما كانت ضئيلة في أهميتها ، والتي لم يكن لها وجود حتى زمن الحرب . وهكذا جرى تفتيت وحدة القيادة بشتى الوسائل .

أصبحنا نعرف الآن ما هي القيمة والفاعلية التي كان يتمتع بها ذلك التدريب السياسي الذي طغى على كل شيء وقمع كل شيء . فما أن حُلَّ الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي حتى انهارت بسهولة لا تصدق كل المنظومة السياسية والأيديولوجية الهائلة المتخمة بالشكليات . فلم يتفاعل ولا شيوعي واحد ولا عسكري مشبع بالتدريب السياسي حيال ذلك أبداً . إذ أن الحياة من جهة والعمل الايديولوجي البيروقراطي المنفصل عن المواطنين من جهة أخرى كانا يسيران كل في سبيله ولا يلتقي أحدهما مع الآخر . وظهر أن الجهود الهائلة والوقت التدريبي الثمين المأخوذ من حساب التدريب القتالي قد ذهبت كلها تقريباً أدراج الرياح .

على ضوء كل ذلك ليس من الصعب أن تفهم كم كانت التهم الموجهة إلى جوكوف باطلة في الاجتماع العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي المعقود في تشرين الأول ١٩٥٧ ، وإلى أي حد من النقاء والحيوية ظهر موقف المارشال في هذا الصدد .

بعد إعفاء جوكوف من منصب وزير الدفاع عاد الكثير من الأمور إلى الأطر الجامدة ، فأصبحت الأطروحات تكتب ، ما عدا النادر منها ، تلبية للحاجات الداخلية لمجالس البحوث وللكتّاب ذاتهم وقليلاً ما كانت تغني الفكر العسكري ، وصاروا يضعون درجة السرية على ماله لزوم وعلى ما ليس له لزوم ، حتى على وصف أهم العمليات والآمال القتالية من خبرة الحرب . كل ذلك أفقر الفكر العسكري النظري وجعل من الصعب وصول المنجزات الجديدة في نظرية وممارسة الحرب إلى دائرة واسعة من الضباط . حتى أن الفكر المبدع والعمل العلمي العسكري أصبح مكبوحاً ومنحطاً في السنوات الأخيرة في روسيا .

لم تكن لتنشر أية مؤلفات عسكرية نظرية سواء كانت وطنية أم أجنبية . وكان يظهر على أوراق الصحف من الجهل المطبق والديماغوجية ما لم يشاهد كما يبدو ، طيلة هذا القرن .

بعد ابتعاد جوكوف بدأ هبوط كبير بشكل خاص في أسلوب التدريب العملياتي والقتالي . وكثيراً ما كان التعليم العسكري يستبدل بأفكار نظرية وشكليات في عمل القيادة والأركانات » .

يتابع غارييف حديثه قائلاً :

« كثيراً ما كنا نتذكر خبرة تحضير الأعمال القتالية ومدرسة جوكوف في أخذ الأمور على محمل الجد وبشكل واضح ملموس في المشاريع الأخيرة ، حينما أصبح يعلن أمر القتال الموسع بحماس وبصوت عال ، وتعطى تعليمات عن التعاون تستمر عدة ساعات وبعد ذلك لا يمكن لنا أن نفهم بجلاء ما هي المهام المسندة على وجه التحديد وكيف يجب أن نعمل . أو كنا نهرع إلى رئيس فرع العمليات ونرجوه أن يحدد لنا خطوط الفصل ووسائط التعزيز وجدول التمهيد المدفعي وغير ذلك من المسائل . إذ كان كل مجرى إنضاج القرار وإسناد المهام وتنظيم الأعمال القتالية مشبعاً بالروح الشكلية ، وكان الاهتمام الرئيسي للقادة والأركان منصباً ليس على كيفية تنفيذ المهمة بأفضل ما يمكن (كانت المشاريع غالباً ما تسير وفق الخطة المرسومة ، وكانت القيادة تهتم بذلك أكثر من المتدربين) بل في السعي إلى « إظهار » شخصيتهم على أحسن ما يرام . وأكثر من ذلك كانوا يحكمون على القادة عموماً بالأسلوب الذي رفعوا فيه تقريرهم . فمن حيث الشكل كان كل شيء يبدو كأنه « صحيح » لكنه بعيد عن لب الموضوع .

لقد جعلوا كل العمل المعقد في تحضير المعركة والعملية يقتصر عموماً على إنجاز عدد كبير من الوثائق الضخمة حيث تغرق، في خضم النصوص النظرية المجردة، المهام المحددة ولب الموضوع. وأصبح الجانب العام من عمل القادة والأركانات في تنظيم المعركة يتحول إلى الأفضلية الثانية. وبدأنا نفقد تدريجياً أثمن ما اكتسبناه خلال الحرب. وقد لحق الضرر الأكبر بالمشاريع التي كان قادة الجحافل والتشكيلات أنفسهم يمثلون دور مدراء المشاريع المنفذة مع هذه الجحافل والتشكيلات ذاتها، وعملوا فيها وهم عارفون الموقف على كلا الجانبين ومجرى تطوره.

وهكذا تولد عن النظام المشوه للتدريب العملياتي والقتالي قادة عسكريون من عيار مختلف أصبحوا دعاة سيئين للعمل العسكري أكثر من أن يكونوا قادة عسكريين».

بعد تنحية جوكوف المفاجئة، التي لا مبرّر لها أبداً، عن منصب وزير الدفاع، نجده يتعرض لنقمة جديدة مضنية إلى أقصى حد. وكان تسريحه بالذات من الجيش في العام ١٩٥٨ غير قانوني لأن مارشالات الاتحاد السوفييتي، حسب منطوق النظام المطبق، لا يجوز تسريحهم. وقد حُرم هذا الرجل الذي لا يجاريه أحد لا في خبرته ولا في موهبته، من إمكانية ممارسة العمل ليس فقط في معضلات العلم العسكري الحديث، التي قد تعطي فائدة عظيمة، بل وكذلك في تعميم خبرة الحرب. وقد أمكن له أن يكتب مؤلفه المشهور «ذكريات وتأملات» عن الحرب مجتازاً كل ما هنالك من العقبات البيروقراطية، وأي قارئ محب للاطلاع بحق يمكنه قراءته والتأكد من أنه أكثر الكتب عمقاً وصدقاً وغنى بالاستنتاجات والأفكار المعممة.

صدر بعد الحرب كثير من المذكرات الجيدة. وأكثرها غنى وعبرة هي مذكرات: فاسيليفسكي، كونيف، روكوسوفسكي، مالينوفسكي، بغرميان، كوزنتسوف، فورونوف، باتوف، تشويكوف، لاشينكو وغيرهم كثير.

مع إيلاء كل المذكرات ما تستحقه من اعتبار يمكن أن نقول دون خجل أو مبالغة أن كتاب جوكوف يحتل بينها المكان المرموق ويدل على أن الكاتب لم يكن قائداً عظيماً فحسب بل ومفكراً عسكرياً مرموقاً.

كتب ياكوفليف مؤخراً أنه كان قد اختير في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي من أجل التعتيم على مخطوطات جوكوف وإعاقة نشر كتابه. وهنا نجده يؤكد عن ثقة بأن الكتاب صدر بالرغم من معارضة جهاز اللجنة المركزية للحزب والإدارة السياسية الرئيسية وذلك بفضل التعليمات التي أصدرها بريجينيف شخصياً. فقد اتصل بريجينيف

هاتفياً بالمارشال لتهنئته بعيد ميلاده. واستغل جوكوف المناسبة ليذكره بمصير مذكراته. وهنا أيد السكرتير العام فكرة إصدارها. لكن ما هو دور منفذي هذا القرار «الذين ساعدوا» جوكوف والذين عتموا على مخطوطاته ؟

ها هو غريتشكو وييبشيف في رسالتهما إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي حول مخطوطات كتاب جوكوف يشيران إلى ما يلي من جملة الأخطاء والعيوب : «يعمد جوكوف إلى تجسيم النقائص في الجاهزية القتالية للقوات المسلحة التي كانت متمركزة في المناطق العسكرية الغربية، وفي تعليم الأفراد وتدريب الكوادر القيادية. ويولي عناية فائقة إلى عمليات القمع التي حدثت في عام ١٩٣٧ــ ١٩٣٨». والسؤال الآن ماذا كان بالإمكان تهويله في ذلك الوضع المأساوي الذي وصل إليه الجيش في العام ١٩٤١ ؟ بالطبع كان ما كتبه غريتشكو وييبشيف لا يتعدى كونه ترهات. لقد سطرا هذه الرسالة لأن مصالحهما تتطلب ذلك. ففي الإدارة السياسية العامة وجهاز اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي كان هناك أيديولوجيون يشيدون بذكر جوكوف وفي الوقت ذاته يعطون إجابات رادعة على الاقتراحات الكثيرة المطالبة بنصب تمثال جوكوف. وقد نشرت اليوم وثائق يظهر فيها من عارض إقامة احتفال رسمي ولائق بالذكرى إلى (٧٥) لميلاد جوكوف.

أقيم حول جوكوف حصار إعلامي ومعنوي ــ نفسي حقيقي. وفرض كل ما هنالك من عوائق للاتصال معه. تجسسوا على أحاديثه وكثيراً ما استجوبوه وحققوا معه حيال أقوال صدرت عنه فعلاً أو دست عليه، وكانت مقالاته تنشر بصعوبة كبيرة. وفي المنشورات الرسمية والموسوعات كانوا إما يغضون الطرف عن اسمه أو يستخفون به. مثلاً في إحصائيات بافلينيكو لم يذكر اسم رئيس الأركان العامة في «تاريخ الحرب الوطنية العظمى للاتحاد السوفييتي» ولا مرة واحدة (كما لو لم يكن له وجود) بينما يصور غالدير (١٢) مرة. أما خروشوف عضو المجلس الحربي السابق للجبهة فقد ورد اسمه في المجلد الثالث فقط (٤١) مرة، والقائد الأعلى ستالين (٢١) مرة.

أصدرت دار النشر العسكرية سجلاً لأحداث تاريخ الحرب الوطنية العظمى، غير أن اسم المارشال جوكوف لم يرد بين قادة الجبهات (انظر كيف يمكن أن يكون هناك جبهة من دون قائد). ولم يقتصر ذلك على النتاجات الرسمية. ففي رواية ي. كازاكيفيتش «ربيع على الأودر» نرى أن كل القرارات العملية يتخذها أحد أعضاء المجلس العسكري. وحتى ستالين كان مندهشاً لماذا لم يظهر هناك قائد الجبهة، جوكوف.

عموماً كان النشطاء الفعليون المشاركون في الحرب تحذف أسماؤهم من صفحات الإصدارات الرسمية أكثر فأكثر. وكانت قرارات وأعمال الأشخاص المسؤولين الحقيقيين تنسب إلى «الحزب واللجنة المركزية والمجلس العسكري» وغيرها. وغدا تاريخ الحرب في الواقع مقفراً من الرجال.

نجد ياكوفليف، في المقالة المذكورة أعلاه يهتف: «من الذي وضع أخيراً في موسكو تمثال القائد؟ الديمقراطيون أم البلاشفة» الشكر الجزيل من أجل التمثال يستحقه قبل كل شيء رئيس روسيا الاتحادية ب. ن. يلتسين ورئيس بلدية موسكو يو. م. لوجكوف. لكن يجب أن نعتبر أن هذا لا يقتصر على رأي الديمقراطيين بل وعلى إرادة معظم أبناء وطننا.

كان أوليغ دافيدوف محقاً حين قال: «لا يمكن أن نتصرف تجاه الحرب تصرفنا تجاه شيء مقدس إلا إذا كان الأحياء والأموات فيها بشراً بمعنى الكلمة. ها هم ارتفعوا فوق نزواتهم الحيوانية وساروا نحو الموت ليس لكي يغنموا ويملؤوا بطونهم، وليس لأن وراءهم ينتصب رشاش مفرزة الحواجز، بل لأن فيهم قناعات إنسانية معينة (كحب الوطن، الشعور بالواجب، الشرف، الشعور بالكرامة المهانة، الشعور بالعدالة... الخ). هذا ينطبق على أي جيش وأية حرب، فإذا ما اختفى ذلك حينئذ يدور الكلام عن المجازر، عن الفك والتركيب، قطع المسافات، النهب والسلب من أجل الطعام... ولكن ليس في حال من الأحوال عن الحرب المقدسة. وينظر الكاتب إلى الحرب من شق أرضي لا يمكن أن يرى منه إلا النذر القليل».

على العموم حصل الانقلاب نحو تكريم ذكرى جوكوف والدراسة المحكمة لفنه القيادي مع تسنم المارشال سوكولوف منصب وزير الدفاع، والمارشال اخرومييف منصب رئيس الأركان العامة. فقد صدر في العام ١٩٨٥ عدد خاص (إضافي) من مجلة «الفكر العسكري» نشرت فيه الكلمة الفريدة من نوعها التي ألقاها جوكوف في مؤتمر العلم العسكري المعقود في تشرين الأول ١٩٤٥ ضمن مجموعة القوات السوفييتية في ألمانيا. وتبع ذلك مؤتمرات علمية ومحاضرات للضباط في صفوف القوات وفي المعاهد العلمية العسكرية، مكرسة لدراسة التراث العسكري النظري للقائد العظيم.

حين كان الجنرال رودينوف مديراً لأكاديمية الأركان العامة، أولى عناية كبيرة لدراسة وتفهم المدربين والطلاب فن القيادة لدى جوكوف، ومع تولي ايغور نيكولايفتيش منصب وزير الدفاع نشأ هناك أمل بأن تنبعث تقاليد جوكوف بكل تأكيد في صفوف الجيش الروسي.

كان جوكوف ذاته يعترف عن طيب خاطر بجدارة ليس زملائه من القادة الكبار فحسب، بل وكذلك بجدارة الكثير من قادة الفرق والأفواج، ويحاول الإفادة من خبراتهم

حيثما لزم الأمر . وكان يحلل كل عملية أجراها دون أية مواربة منوهاً بالنجاحات المحرزة وبالنواحي السلبية أيضاً . ولا بدّ من الاعتراف بالحقيقة التالية وهي أن جوكوف رجل حرب ، وفي الحرب سطعت موهبته ومقدرته بمزيد من الإشراق . أما زمن السلم ، وحتى في منصب وزير الدفاع ، فهو لم يكن ليجد على الدوام أدوات التأثير التي بإمكانها أن توجه تلك الكتلة الهائلة والمعقدة من القوى المسلحة في المجرى اللازم لها . فكان يحاول في كثير من الحالات أن يطبق زمن السلم الأساليب ذاتها التي كانت زمن الحرب . وينطبق هذا بشكل خاص على تعزيز الانضباط في القوات . ولما كان قائداً صارماً وغير متسامح بحق تجاه ظواهر التفكك والفوضى فقد حاول (عن طريق فرض العقوبات الصارمة إلى حد عزل القادة من مناصبهم من أجل حوادث وقعت لديهم) فرض النظام العسكري في أسرع وقت . حتى وصل الأمر ببعض القادة إلى ، الاحتراس من إخراج قطعاتهم إلى المشاريع خوفاً من تعرضها « لظروف قاهرة » . وبالمناسبة لم يتغير الوضع كثيراً حتى زمن مالينوفسكي . لا غرو فإن تحول الجيش من الحرب إلى السلم محفوف دوماً بالمصاعب ، لاسيما إذا علمنا أن القوى المسلحة السوفييتية بعد الحرب كانت تتعرض في كثير من الأحيان إلى تقليص حاد أو زيادة في تعدادها . وبالنتيجة كانت القوات تعيش في ظروف من التغيرات التنظيمية المستمرة . في هذه الظروف لم يكن يُراعى دوماً ، حتى من قبل جوكوف أيضاً ، أنه إذا حدثت بعض الظواهر السلبية فقط في بعض الجحافل والتشكيلات يجب البحث عن الأسباب والاجراءات الضرورية لإزالتها في مكانها بالذات ، أما إذا حدثت في معظم المناطق العسكرية والجبهات فيجب البحث عن الأسباب الرئيسية في الجهاز المركزي والبحث عن أدوات التأثير والإجراءات التي من شأنها إزالة أسباب الظواهر السلبية ، وتبديل ظروف تأدية الخدمة العسكرية . وتحسين أوضاع العمل بشكل جذري .

مع الأسف لم يتم التوصل إلى مثل هذه التدابير الرئيسية . وعوضاً عن ذلك كانوا يحاولون ، في ذلك الحين وفيما بعد حتى الآن ، حل كل المعضلات الخاصة بتعزيز الانضباط بأسلوب واحد وهو الضغط الإداري والقيادي على القوات . وحرصاً على النزاهة نقول : حتى لو أن جوكوف أو أي وزير دفاع آخر أراد إدخال تغييرات جذرية ، ففي تلك الظروف من الرقابة المستبدة والتدخل الأعمى في الشؤون العسكرية من جانب جهاز اللجنة المركزية للحزب الشيوعي وغيره من الأجهزة ، لكان من الصعوبة بمكان تحقيق شيء ما مما يخطر على باله .

« نعم ليس الناس كلهم متساوين في طبيعتهم . وهنا كما يقول غاربيف ، تخطر في بالي حادثة وقعت في مشروع القيادة والأركان ، المنفذ في منطقة روسيا البيضاء العسكرية صيف

١٩٥٧ في مقر القيادة التبادلي للجبهة الذي أوكل إلي ترؤسه. إذ وصل المارشال روكوسوفسكي في وقت متأخر من الليل. وتحت وابل من المطر سرنا معه إلى الخيمة التي كان يتوضع فيها مقر القيادة القتالي. وفي الطريق تعثر روكوسوفسكي بسلك هاتفي ممدود بشكل سيئ وسقط مباشرة. وكنا بالطبع مستائين لذلك وقدمنا المساعدة للمارشال لإخراجه من البركة معتذرين له عما حصل، متوقعين أسوأ رد فعل منه. لكنه ابتسم ووقف على قدميه بسرعة وقال بلهجة طبيعية تماماً: «كنا نحن خلال الحرب نطمر الأسلاك الهاتفية في الأرض». ولو كان جوكوف مكانه لكان رد فعله مختلفاً. ففي مثل هذا الموقف (أحكم انطلاقاً من نفسي) قليلاً ما تجد من القادة من يضبط أعصابه».

لا غرو فإن العقل الرائع والإرادة القوية للقائد يجب أن يقترنا بملامح أخرى للشخصية ليست أقل أهمية، مثل ضبط الأعصاب والرصانة. إليك ما كتبه روكوسوفسكي: «... يعتبر ضبط النفس والهدوء واحترام المرؤوسين من الصفات اللازمة لكل رئيس... ثق بالجندي القديم: فليس أغلى على الإنسان في المعركة من شعوره بأنهم يثقون به وبقوته ويعتمدون عليه...».

لكن يمكن أن نفهم كيف كان جوكوف أيضاً يقيّم نشاطه بروح من النقد الذاتي. فقد كتب في هذا المجال:

«بالطبع كل ذلك لم يكن بالأمر السهل، ووقعت أيضاً أخطاء في غمرة العمل. لكن من ذا الذي لا يخطئ؟ الكل يخطئون ما عدا الذي يعمل بتوجيهات من الأعلى دون أن يظهر مبادهة مبدعة في عمله. وعموماً فالقضية في مفهومي ليست في الأخطاء بمقدار ما هي في سرعة اكتشافها وإزالتها».

حتى القادة المشهورين ليسوا متساوين. ولحسن حظنا قدمت الحرب نجوماً لامعة من القادة العسكريين الذين كانوا يكملون بعضهم بعضاً بصورة جيدة لدى حل مختلف المهام.

وهكذا علينا أن نتقبل جوكوف أيضاً في مثل هذا التعقيد والتناقض الواقعي دون أن نشطب عظمة مجده وموهبته القيادية، لأخطاء معينة ارتكبها ولخشونة طبعه. ومهما جُنَّ جنون خصومه، فخدمات المارشال جوكوف دخلت على الدوام وبقوة في تاريخ البلاد، ولن يتمكن أحد في وقت من الأوقات أن يمحيها من الوجود.

كما لاحظ جوكوف بإنصاف: أن الزمان يضع كل واحد في مكانه ويحاكم الكل. فقد حاول البعض خداع التاريخ والتلاعب عليه لكن دون جدوى... فخدمة الشعب الواجبة لا يمكن تأديتها إلا باتباع النهج الحق والنضال في سبيله.

كان جوكوف أعظم قائد، ورجلاً رائعاً ذا مواهب روحية، وعلى حد قول فاسيليفسكي: لقد خلق لكي يمارس النشاط العسكري والأعمال الحربية الكبرى... «ولا يمكن إلا أن نغبط الرجل الذي كان يشعر أن حياته وحياة الشعب متصلتان اتصالاً لا تفصم عراه». إن حياة وفعالية رجل من هذا القبيل جديرة بالاقتداء بها. فشخصيته البسيطة كجندي، والملهمة، وطلعته البهية، ومظهر القائد العبقري القوي الإرادة الشجاع... كل ذلك فرض ويفرض احتراماً خاصاً وتقديراً عميقاً له. هذا وإجمالاً لكل ما قيل نستشهد بكلمات غوركي عن كل من تولستوي وجوكوف: «إذا نظرت إليه لشعرت بكل سرور أنك إنسان أيضاً، ولشعرت أن الإنسان والضابط الروسي إنما هو جوكوف».

٤ ـ بعض الاستنتاجات للعمل العلمي العسكري على ضوء الوصايا والدروس المستفادة من جوكوف

كان المارشال جوكوف سواء في زمن الحرب أو في سنوات ما بعد الحرب يولي عناية خاصة لمشاركة الكوادر القيادية والدائرة الواسعة من الضباط في العمل العلمي العسكري مشاركة خلاقة وفعالة. فإذا ما تكلمنا عن الاستنتاجات والدروس المستخلصة من خبرة تطوير العلم العسكري وفن الحرب فهذه الخبرة تبين لنا قبل كل شيء أن المسألة الجذرية في كل مرحلة من مراحل تطوير العمل العسكري هي الكشف الصحيح لطبيعة الصراع المسلح المقبل. وكان حل هذه المعضلة وسيبقى المهمة الأساسية في العلم العسكري. وإلى جانب ذلك فإن الرؤية المسبقة للأسس النظرية للصراع المسلح الذي لم يندلع بعد، وتحضير هذه الأسس على ضوء تزايد الفجوة النوعية بين وسائط خوض الحرب السابقة والمقبلة سيكون أصعب وأصعب.

في الظروف الحديثة للتقدم العلمي التقني العام ليس فقط في المجال العسكري بل وفي الميادين الأخرى من النشاط البشري، يقتضي الأمر اتخاذ القرارات في أغلب الأحيان دون الاستناد إلى الخبرة بل في ظروف عدم توفر أية خبرة. فالممارسة الحربية زمن السلم هي على الدوام محدودة نسبياً. فلا يمكن في المشاريع التدريبية تدارك كل ما يمكن وقوعه في الحرب. ولهذا السبب بالذات تكتسب خبرة الحروب الماضية والمشاريع المنفذة وعموماً الممارسة الحربية قيمة أكبر.

كانت هناك محاولات في التاريخ بعد الحروب الكبرى (الفرنسية، البروسية، الروسية، اليابانية، العالمية الأولى) بتصوير الأمر على أنه لم يبق شيء من فن الحرب السابق.

ولكن الحرب التالية التي تولدت فيها طرائق جديدة في خوض الصراع المسلح حافظت على عدد غير قليل من الطرائق السابقة . ولا تجد في التاريخ حتى الآن حرباً استطاعت أن تلغي كل ما كان في فن الحرب الذي قبلها .

أتيح للعلم العسكري في العشرينات والثلاثينات أن يحدد ، بشكل صحيح عموماً ، تعاقب تطور العمل العسكري وكذلك العناصر الجديدة فيه . لكن في الثلاثينات ارتكبت أخطاء خطيرة حينما كانوا يقتبسون مثلاً من خبرة الأعمال القتالية في إسبانيا (خصوصاً ما يتعلق باستخدام الدبابات) أحياناً ما ليس بنابع فعلاً من هذه الخبرة . وبعد ظهور السلاح النووي حاولوا نفي خبرة الحرب العالمية الثانية تماماً . وبقيت خبرة الحرب الأفغانية مدة طويلة دون أن يكتمل تقديرها . هذا إضافة إلى الخبرة الجديدة فعلاً في حرب تحرير الكويت عام ١٩٩١ وما فيها من مبالغات . في كل هذه الحالات ليست خبرة الحرب بالذات هي التي خيبت الآمال وإنما الاستنتاجات الخاطئة المأخوذة منها .

مع ذلك لا بدّ من أن نأخذ بعين الاعتبار أن كل حرب تالية تحافظ أقل فأقل على عناصر الماضي وتثمر أكثر فأكثر عناصر جديدة . وهذا القانون ليس فقط باقٍ على الدوام لكنه يكتسب أيضاً قوة كامنة جديدة . وعليه تنشأ في الظروف الحديثة ، على درجة كبيرة من الحدة ، مسألة التنبؤ والتوقع العلمي بطبيعة وطرائق خوض الحرب المقبلة المحتملة . ولهذه الغاية ، علاوة على الطرائق التقليدية في البحوث الخاصة بالتحليل التاريخي للخبرة القديمة والحديثة والبحوث والتجارب المطبقة في المشاريع وعلى تجارب الأسلحة وغيرها من أساليب البحث العلمي المعروفة ، نجد أن ما يحوز على أهمية كبيرة بشكل خاص هو نمذجة العمليات (الأعمال القتالية) المستقبلية ، وعلى العموم الاستخدام الواسع للطرق الرياضية في استقصاء أكثر المعضلات تعقيداً في العلم العسكري .

لا يخفى أيضاً أن لظهور السلاح الجديد والمادة البشرية الجديدة تأثيراً حاسماً على طرائق خوض الأعمال القتالية وبالتالي على تطور النظرية العسكرية أيضاً . ففي الماضي كان العلم العسكري يقدِّر ، من حيث الأساس ، تقديراً صحيحاً هذه المصادر الأكثر أهمية في تطويره . لكن في عصرنا هذا أصبحت هذه المهمة تتعقد بما لا يقبل القياس ، لاسيما من جراء التطور الحثيث للسلاح والعتاد الحربي ولوجود نوايا بالتحول إلى الجيوش المحترفة .

ومما له تأثير خطير على تطور العلم العسكري ورفع دوره ، تلك القفزة النوعية الجديدة في إنشاء تكنولوجيات جديدة وأسلحة ذات دقة عالية ، وفي تحسين وسائط الصراع المسلح للجيل الجديد المرتكز على آخر ما توصل إليه العلم والتقنية . وهذه الناحية تتطلب من العلم

العسكري معالجة نظرية لكثير من المعضلات الهامة في بناء القوى المسلحة وتدريبها متوخية نقل مركز الثقل إلى مجال البحوث العلمية ـــ العسكرية والعلمية ـــ التقنية .

ومما يكتسب أهمية كبيرة بشكل خاص القيام ، في الوقت المناسب ، بإعداد تصور عملياتي تكتيكي سليم لتطور التسليح . ويبقى مبدأ إنكلز ، القائل بأن تطور السلاح يحدد تطور طرائق خوض الصراع المسلح ، صحيحاً حتى يومنا هذا . لكن العلم العسكري الآن لن يقتصر فقط على مراعاة هذا التأثير . ففي الظروف الحديثة يتصاعد بشكل حاد التأثير العكسي للعلم العسكري الذي يترتب عليه أن يحدد ، بفعالية أكبر ، أهم الاتجاهات في تطوير السلاح والعتاد ، موجهاً التركيز الرئيسي على أنواع الأسلحة ذات الأفق الأوسع التي ستكون لها الأهمية الحاسمة في المستقبل .

على ضوء الصعوبات الاقتصادية القائمة ، حيث أصبح السلاح أغلى ثمناً ، يجب أن يَبْذُل الفكر العسكري النظري جهوده على الدوام لكي يستخدم الوسائط المخصصة للاحتياطات العسكرية استخداماً عقلانياً ضمن حدود الضرورة الصارمة بحيث يكون الدفاع جيداً وفي الوقت ذاته لا يشكل عبئاً كبيراً على ميزانية الدولة . وتتجلى فحوى هذه المعضلة والشيء الرئيسي الذي يجب أن يتخلل كل البحوث العلمية في : رفع فعالية كل التدابير المتخذة لبناء وتحضير القوات المسلحة بكل الوسائل ، مراعاة الاعتبارات العسكرية ـــ الاقتصادية بعمق وحزم أكبر ، تحسين المستوى العلمي لقيادة القوات وقوى الأسطول ، الاستخدام الأكمل لمنجزات العلم في النشاط العلمي .

لتنشيط العمل الخاص بمعالجة معضلات المستقبل لا بدّ من جهة ، أن يشترك في هذا العمل حشد كبير من فئة الضباط ، ومن جهة أخرى أن تتوفر مؤسسات اختصاصية في البحوث العلمية لاستقصاء أكثر المعضلات العلمية تعقيداً . ومما له أهمية خاصة إعداد علماء شبان من ذوي الأفق الواسع القادرين على تفهم الظواهر المعقدة للحرب من مواقع جديدة مع الإحاطة بكل العوامل الاجتماعية ـــ السياسية والاقتصادية والعسكرية .

تظهر الضرورة لإعداد مثل هذه الكوادر ظهوراً واضحاً في عصرنا هذا ، إذ كلما ارتفع مستوى التخصص والتمايز بين مختلف فروع المعارف العسكرية ، حسب أنواع القوات المسلحة وصنوف القوات ، ترتفع قيمة البحوث المنهجية للمشكلات المعقدة في الحرب والعلم العسكري مع مراعاة كل العوامل المؤثرة على تطورها التي تكشف الفكرة العميقة للتغيرات النوعية الجذرية في العمل العسكري وفي آفاق تطوره . ويلزمنا هنا ، علاوة على إبداع

الكوادر القيادية، توفر علماء معاصرين من ذوي التأهيل العالي متمتعين بأفق واسع في التفكير العسكري ــ السياسي والعملياتي ــ الاستراتيجي والتقني ــ العسكري.

هناك رأي شاع في حالات متعددة مفاده: أن النظرية العسكرية تتكوّن وتتطور عموماً في مجرى النشاط العملي للكوادر القيادية، بينما وظيفة العلماء ما هي إلا تعليل وصوغ الأفكار المطروحة، وهذا الرأي أدّى إلى خفض المستوى العلمي النظري للمهام المراد حلّها. وقد وقف جوكوف ضد هذه الممارسات في المؤتمر المعقود في العام ١٩٥٧.

وفي الحقيقة نجد، في مجال فن الحرب، أن القادة والرؤساء العسكريين يبرزون أكثر من أي مجال آخر كأول المكتشفين للأفكار الجديدة. ومع ذلك، فإن التعميم العلمي الواسع والعلم الأساسي إنما يعمله عادة كبار العلماء وكبار المفكرين العسكريين، بما فيهم من قوام القادة العسكريين. وهكذا لا يكفي من أجل البحوث العلمية الأساسية امتلاك المعارف والخبرات، بل وكذلك الوقت الكافي والمهارات والكفاءات اللازمة.

أظهرت تعقيدات المهام العلمية العسكرية، منذ الثلاثينات، أن استقصاء المعضلات الضخمة لم يعد مقصوراً على علماء معينين، ولهذا يتطلب وجود فئات علمية كبيرة تملك تحت تصرفها القاعدة التجريبية العلمية الضرورية، وفي وقتنا هذا أجهزة الكمبيوتر. وقد تم فهم وتطبيق هذا المبدأ على الفور بخصوص إيجاد أنواع جديدة من السلاح والعتاد. لم يأخذ أحد في الحسبان أن يقوم كل قائد في القوات باختراع سلاح بنفسه. لكن في المجال العسكري النظري لم تُعطَ حق قدرها أحياناً ضرورة إنجاز مثل هذا العمل المنظم تنظيماً جيداً في البحث العلمي على يد اختصاصيين من ذوي التأهيل العالي.

حذر جوكوف عناصر القيادة من اتخاذ موقف متغطرس بالنسبة للعلم العسكري المطبق في البلدان الأجنبية. فقد أثبتت الحياة في الآونة الأخيرة أن قوانين الحرب وظروف خوضها واحدة بشكل موضوعي لكلا الطرفين المتحاربين، فإلى جانب الخبرة الوطنية والخصائص القومية فإن العلم العسكري يستوعب ويستشف لنفسه الخبرة والمعلومات المتجمعة في مختلف البلدان، وهناك أشياء كثيرة متشابهة فيها. لذلك من المفضل أن يدرس الضباط، على نطاق أوسع وبشكل موضوعي، التاريخ العسكري وفن الحرب المعاصر لمختلف البلدان الأجنبية وبالدرجة الأولى للولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا وبريطانيا العظمى وفرنسا والصين والهند واليابان وإسرائيل وغيرها من الدول، وإذا أرادت الجيوش، بما فيها الجيوش العربية أن لا تتخلف فلا بدّ لها من اتخاذ التدابير الفورية لإعادة نشر المراجع العسكرية الوطنية منها والأجنبية وتعميمها على العسكريين.

٥ ــ معاناة جوكوف بعد الحرب

بالرغم من انتهاء الحرب استمر جوكوف في دراسة خبرة الحرب وهو في برلين . ففي خريف ١٩٤٥ نظم مؤتمراً للعلوم العسكرية لدراسة عملية وارسو ــ بوزنان حضره ممثلون عن الأركان العامة والأكاديميات العسكرية القادمون من موسكو . يقول جوكوف :

« ما أن توزع المشتركون في المؤتمر على أماكن عملهم حتى قدم إلى مقر قيادة القوات السوفييتية الجنرال اباكوموف نائب بيريا ، دون أن يكون لدي علم عن هدف الزيارة . وبدأ يعمل بنشاط عارم . وحينما اتضح لي أنه يقوم بحملة اعتقالات في صفوف الجنرالات والضباط ، أمرت بإحضاره على الفور . وطرجت عليه سؤالين : لماذا لم يتفضل فور وصوله بتقديم نفسه إليّ كوني أنا القائد العام هنا ، ولماذا يقوم من ورائي باعتقال الضباط الذين تحت إمرتي ؟

كانت إجاباته مبهمة وعويصة . وهنا أمرته : عليك بإطلاق سراح كل الضباط والجنرالات المعتقلين وعد من حيث أتيت . وفي حال عدم تنفيذ الأمر سأرسلك موجوداً إلى موسكو .

وعاد أباكوموف من حيث أتى !

في نهاية العام ١٩٤٥ عقد ستالين في الكريملين اجتماعاً للعسكريين ضم عدداً من المسؤولين . ولم توجه الدعوة إلى جوكوف . وألقى ستالين كلمة استعرض فيها ذكرياته واتهم جوكوف بأنه كان يقلل من دور هيئة القيادة ويدعي لنفسه كل الفضل . وانبرى الحضور للتعبير عن رأيهم في إدانة جوكوف بحذر مع التزلف لستالين . وتليت مقاطع من الاعترافات التي انتزعت تحت التعذيب من مارشال الطيران نوفيكوف ، وقيل أن جوكوف وصف ستالين بأنه مدني لا يفهم في الأمور العسكرية .

وفي أواخر آذار ١٩٤٦ استدعي جوكوف إلى موسكو ليتسلم قيادة القوى البرية . استمع إلى ما قاله جوكوف : « أُبلغت في حزيران ١٩٤٦ أن المجلس العسكري الأعلى سيعقد جلسته غداً . وفي ساعة متأخرة من المساء عدت إلى العزبة . وفيما كنت أستعد لأخذ قسط من الراحة إذا بالجرس يقرع ويصدر ضجيج وراء الباب . دخل ثلاثة شبان وقدم كبيرهم نفسه قائلاً : أنه مكلف بتفتيشي ، وكان واضحاً من أرسلهم ، لكنهم لم يكونوا يحملوا أمراً بالتفتيش . واضطررت إلى طرد هؤلاء السفهاء مهدداً باستخدام السلاح ...

في اليوم التالي عُقِدَتْ جلسة المجلس العسكري الأعلى التي دعي إليها مارشالات الاتحاد السوفييتي. واجتمعوا وأخذ كل منهم مكانه. واحتل الجنرال شتيمينكو المنصة سكرتيراً للمجلس. وظهر ستالين متجهماً يرتدي سترة عسكرية تعود إلى ما قبل الحرب وكان مزاجه معكراً.

تقدم ستالين بخطا وئيدة إلى منصة سكرتير المجلس ثم رمق الحاضرين بنظرة متفحصة. ثم قال بصوت خافت: يا رفيق شتيمينكو اقرأ لنا من فضلك هذه الوثائق، وإذا به يقرأ اعترافات مارشال الطيران نوفيكوف (الموجود في زنزانات بيريا) التي تنص على أن المارشال جوكوف يتزعم مؤامرة ترمي إلى إحداث انقلاب عسكري في البلاد.

كان عدد الذين كشف النقاب عن تورطهم في المؤامرة (٧٥) شخصاً، منهم (٧٤) اعتقلوا قبل انعقاد الجلسة وظلوا رهن التحقيق عدة أشهر. وكان اسمي في آخر القائمة.

هنا وقف ستالين طالباً من الحاضرين بيان رأيهم في التهم الموجهة بحقي. فتكلم عضوا المكتب السياسي للحزب الشيوعي مالينكوف ومولوتوف، وغيرهما من المارشالات، محاولين إقناع الحضور بإدانتي، متحدثين عن العيوب في شخصيتي وأخطائي في العمل. ثم تكلم مارشال المدرعات ريبالكو مختتماً كلمته بالعبارات التالية: «الرفيق ستالين أنا لا أصدق أن المارشال جوكوف متآمر، فهو إنسان مخلص لوطنه، وهذا ما ثبت بما لا يقبل الشك في معارك الحرب الوطنية العظمى».

اقترب ستالين مني وسألني «ما قولك يا رفيق جوكوف؟» نظرت إليه بدهشة وأجبت بنبرة حازمة: «لا حاجة لي إلى تبرير أي شيء... أرجوك رجاءً حاراً أن تتأكد تحت أية ظروف انتزعت هذه الاعترافات من تيليغين ونوفيكوف وغيرهما — وأنا على قناعة تامة بأن شخصاً ما انتزع منهما هذه الافتراءات بالإكراه».

أصغى ستالين بهدوء، وحَدَّقَ في عينيّ باهتمام، ثم قال «على كل حال، عليك يا رفيق جوكوف أن تغادر موسكو لبعض الوقت...» وصدر أمر بتعييني قائداً لمنطقة أوديسا العسكرية على البحر الأسود».

عاد رجال المباحث مرة أخرى وهم مدججون بالسلاح لينقضوا على شقة جوكوف حينما كان نائماً. وفتحت لهم الباب ابنته «إيرا» وسحبوا كل ما وقع تحت أيديهم من تحف نادرة، ووقف جوكوف لا حول له ولا قوة مُسْبِلاً ذراعيه على سترة موشحة بثلاث نجوم لبطل

الاتحاد السوفييتي ... ومن الشقة انطلق رجال المباحث إلى العزبة في قرية سوسنوفكا . وانتزعوا منها بعض الوثائق والمذكرات التي كتبها والتي لم يعرف أحد مصيرها حتى الآن .

بعد ذلك فصل جوكوف من قوام اللجنة المركزية للحزب .

في أواخر العام ١٩٤٧ استدعي جوكوف على جناح السرعة إلى موسكو . ولم يعرف سبب استدعائه . وجاء بعض زملائه ليخبروه أن عدداً كبيراً من الضباط العاملين معه قد اعتقلوا ... وفي شباط ١٩٤٨ عُين قائداً لمنطقة الأورال العسكرية .

يقول جوكوف : « حينما كنت قائداً لمنطقة الأورال أعد الجنرال أباكوموف ، بإشراف بيريا ، إضبارة كاملة عن مؤامرة عسكرية جديدة . واعتقل عدداً من الضباط وطرح موضوع اعتقالي على أساس أنني أقود هذه المؤامرة ضد ستالين . لكن ستالين قال بعد أن استمع إلى اقتراح بيريا باعتقالي :

ــ لا لن أدعك تمسك جوكوف . لا أصدق كل هذا ، فأنا أعرفه حق المعرفة . عرفته خلال سنوات الحرب الأربع أكثر مما عرفت نفسي !

وسرعان ماأعيد لجوكوف اعتباره ورشح للعضوية في مجلس السوفييت الأعلى . وبدأ نشاطه في المحافل الدولية . وفي نهاية شباط ١٩٥٣ استدعي إلى موسكو . وبعد موت ستالين في ٥ آذار ١٩٥٣ عين كنائب أول لوزير الدفاع . ولدى اجتماعه بخروشوف كلفه بمهمة صعبة وحساسة وهي اعتقال بيريا ! وتذكر جوكوف كيف كان بيريا مطبقاً على خوانيقه سنوات طويلة ودس افتراءات كثيرة عليه وخلق أمامه الأزمات .

في اليوم التالي يصل جوكوف مع اثنين من الجنرالات الموثوقين ، على أساس أنهم مدعوون لحضور جلسة رئاسة اللجنة المركزية لبحث أمور عسكرية . وكما اتفقوا مع خروشوف كمنوا في غرفة قريبة من قاعة الجلسة وبرنة الجرس كان عليهم دخول القاعة واعتقال بيريا . ودخلوا القاعة واقتربوا من صف الكراسي الذي وراء بيريا ، كما لو أنهم يهمون بالجلوس . وإذا بجوكوف يقترب من بيريا من الخلف ويعطي الايعاز :

ــ قف أنت معتقل !

هنا ارتعد الجلاد خوفاً ، وإذا بجوكوف يمسكه ويلوي ذراعيه ويرفعه ، وبالتعاون مع الجنرالين جره إلى الغرفة المجاورة . يقول جوكوف : «إن سخطي على بيريا لا حدود له واقتربت منه وقلت له وأنا أنظر إلى عينيه المرتاعتين :

ـ هذا جزاؤك أيها الوغد. كنت تريد أن تودع البلد كلها في السجن، الآن تحمل مسؤولية ذلك كله.

وانطلقنا إلى الكريملين ثم إلى سجن الموقع ثم أودع في سرداب البهو الداخلي لأركان منطقة موسكو حيث لقي حتفه.

بعد أن ارتاح خروشوف من «بيريا» بدأ يوجه أنظاره إلى جوكوف الذي لمع نجمه كثيراً وأصبح يخشى من خطر وصوله إلى سدة الرئاسة. ففي غياب جوكوف بمهمة إلى يوغسلافيا أصدر خروشوف أمراً بتنحية جوكوف من منصب رئاسة اللجنة المركزية للحزب ومن منصب وزير دفاع الاتحاد السوفييتي. لا غرو ففي أمريكا انتخب أحد زملاء جوكوف وهو المارشال آيزنهاور رئيساً للولايات المتحدة مما جعل خروشوف عرضة للأوهام الحزينة خوفاً على منصبه.

وظل جوكوف في طي النسيان ما عدا حضوره بعض الاحتفالات بالأعياد الوطنية، وفي (١٨) حزيران ١٩٧٤ غادر هذه الدنيا ودفن في الساحة الحمراء قرب جدار الكريملين.

الفصل الثامن

بعض ما نشر في الصحف عن جوكوف في الآونة الأخيرة

مقدمة بقلم ماريا جوكوفا الابنة الصغرى للمارشال جوكوف[1]

لم تنشر هذه المادة وبعض المواد الأخرى في حياة أبي. فقد كتبها وأودعها «طاولة الكتابة» أو بالأحرى «الخزانة الفولاذية» لكيلا يعلم بها أحد قبل الأوان (ما عدا أقرب المقربين إليه). وكان يؤمن بأن التاريخ سيضع كل واحد في مكانه. حينئذ سيجد كل ما كتبه اهتماماً لدى الجميع.

كثيراً ما نصطدم برأي يدور على لسان أشخاص من الجيل القديم مؤداه أن ما ينشر اليوم عن ستالين وجرائمه التي اقترفها بحق الشعب إنما هو من بنات أفكار أشخاص مفترين. ها هو ذا جوكوف الذي كان يعرف ستالين حق المعرفة وعمل معه جنباً إلى جنب خلال الحرب يكتب في مذكراته بشكل مختلف تماماً. لكنهم لا يأخذون بعين الاعتبار في أية سنوات كتبت المذكرات والوضع الذي كان يعانيه المارشال.

لم يكن بالإمكان أن يدخل في كتاب الوالد إلا ما كان يتماشى إلى حدٍ ما مع وجهات نظر قيادة البلاد في ذلك الحين. ففي تلك السنين كان ل. ي. بريجنيف يشجع بكل الوسائل عبادة شخصيته، وكان يغض الطرف عن عبادة شخصية ستالين وظواهرها بكل الوسائل. فقد حذفت من كتاب جوكوف بعض المواد، بما في ذلك باب بكامله تقريباً يتناول موضوع الاضطهادات التي تعرض لها الجيش (وهذا الباب سيدخل في الطبعة المقبلة لكتاب «ذكريات وتأملات» المعدة من قبل دار نشر وكالة الأنباء السياسية).

---

(١) جريدة البرافدا عدد ٢٠ كانون الثاني ١٩٩٨.

ذات يوم، وهذا كان خلال ١٩٧٠ ــ ١٩٧١، جلسنا مع الوالد أمام التلفار وشاهدنا اجتماعاً مهيباً خطب فيه بريجنيف. وفي إحدى موجات التصفيق الحاد على شرفه توجهت بالسؤال التالي: «بابا، ما هذا، هل عدنا من جديد إلى عبادة الشخصية؟» وإذا بأبي يبتسم ابتسامة مريرة ويجيب: «لكنها الآن تسمى تسمية أخرى، وسماها «بالنفوذ المطلق».

كانت عقيدة والدي كما يلي: «المهم في الإبداع الأدبي إما كتابة الحقيقة أو الكف عن الكتابة على الإطلاق». والمرة الوحيدة التي انحاز فيها عن هذا المبدأ حينما أدخلوا في كتاب مذكراته بعض المعلومات «المُختلَقَة»، إذا صح التعبير، عن العقيد بريجينيف الذي لم يسمع والدي عنه شيئاً خلال الحرب على العموم. وقد عانى والدي عدة ليالي من الأرق وانشغال الفكر المستمر حتى أصيب بوجع الرأس (كان الوالد حينذاك في سن متقدمة) بعد ما طُلب إليه «من فوق» إدخال تلك الأسطر في الكتاب. وحينئذ قامت ماما ــ غالينا الكسندروفنا ــ بإقناع والدي بقبول ذلك على أساس: أولاً ــ أنه لن يصدق أحد من قراء المستقبل بأن هذه الأسطر مكتوبة بخط يده وثانياً ــ أنه إذا لم يقبل بالحل الوسط فلن يرى الكتاب النور إطلاقاً. وكان الوالد يدرك ذلك. فكان يخاف أن يموت دون أن يرى ثمرة أتعابه لسنوات طويلة.

الآن وبعد مرور (٢٠) عاماً يصعب القول هل كانت المادة المقترحة الآن للقارئ مُقَدمةً لبحث ينوي عمله في المستقبل أم كان له غرض آخر من ورائها. لقد أطلق على هذه المقالة اسم «نبذة عن ستالين» وربما كان في نيته الكتابة عن ستالين بشكل مفصل. وهذه الصفحات القليلة نضدتها على الآلة الكاتبة جدتي كلافديا يفغينيفنا، التي نفذت أيضاً لوالدي كل أعمال الطباعة. كانت محفوظة مع رسالة ف. روسكولنيكوف الموجهة إلى ستالين، في الخزانة لكي لا يكتشفها أحد (كانت بمثابة قنبلة موقته في تلك السنين). وما أن توفي الوالد، بكلام أدق بعد مضي يوم على دفنه، داهمتنا في العزبة وكذلك في الشقة لجنة على مستوى عال وهَرَعَت إلى مصادرة أرشيف والدي. ولو قدر لهذه المادة وسواها أن تصادر لما تمكن أحد أن يعرف عنها شيئاً ولخسر تاريخنا أدلة هامة.

أعرف أن بعض القراء سيصيبهم الشك وبعضهم سيصابون بالذهول والبعض الآخر لن يصدقوا ما جاء في المادة. لكن إرادة والدي كانت تهدف إلى نشر كل ما خلفه بخط يده، تدريجياً. وأنا أنفذ وصية أبي التي عهد بها إلي.

١ ـــ نبذة عن ستالين بقلم غ . ك . جوكوف

لم يصدف أن اجتمعت بستالين وجهاً لوجه قبل ١٩٤٠ أبداً . وكنت أحكم عليه فقط مما أقرأ في الصحافة ومن القصص التي أسمعها ممن كانوا على احتكاك به .

ولاستخفافه بالتعاليم الماركسية اللينينية ، القائلة بأن الشعب فقط هو الذي يصنع تاريخه بنفسه ، لم يعد ستالين منذ بداية الثلاثينات يحسب حساباً خاصاً للجنة المركزية للحزب . وباختياره أشخاصاً منفذين منصاعين لأمره في المكتب السياسي أصبح يعتمد في كل فعالياته على المكتب السياسي وأمانة اللجنة المركزية ، وبترؤسه لهما غدا ديكتاتوراً بكل معنى الكلمة . وأصبحا ينفذان كل ما يأمر به ستالين . ويمجدان اسمه كأعظم قائد للحزب والشعب مسقطين أحياناً اسم ف . ي . لينين من الحساب .

هذه كانت بداية عبادة الشخصية التي اكتسبت في السنوات التالية أبعاداً هائلة .

هكذا نشأ الوثن ، وسرعان ما بدأ عَبَدَةُ الأوثان بالتكاثر . وبرز من بينهم بشكل خاص : بيريا ، فوروشيلوف ، مولوتوف ، كاغانوفيتش ، جدانوف ، بولغانين ، شكيرياتوف ... وغيرهم .

لم أذكر هنا رؤساء المنظمات في الجمهوريات والأقاليم والمناطق الذين يمجدون شجاعة ستالين بكل الوسائل المتاحة في مواقعهم .

أما الذين كانوا يعارضون عبادة الشخصية لدرجة ما ، أو كانوا غير مرضي عنهم من ناحية ستالين فقد أزيحوا عن طريقه بأسرع ما يمكن .

كانت الفترة ما بين ١٩٣٧ ـــ ١٩٣٩ من أصعب الفترات التي عانى منها الحزب والشعب . إذ بسبب الذعر المتفاقم ، وبسبب فقدان الإحساس لدى المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب ، قتل على يد ستالين ألوف مؤلفة من العاملين البارزين في الحزب والقوات المسلحة وهم من كبار الوطنيين وقادة البلاد الموهوبين .

بالطبع لا يمكن أن نسامح ستالين على إصدار التوجيهات لقتل الألوف المؤلفة من الأشخاص الذين لا ذنب لهم وما تبع ذلك من البلاء الذي أصاب حياة أطفالهم وعائلاتهم . لكن ليس من العدالة توجيه اللوم كله إلى ستالين وحده .

ومما لاشك فيه أن المسؤولية يجب أن يتحملها معه أعضاء المكتب السياسي في ذلك الوقت، الذين كانوا على إطلاع بكل ما يجري ضد شرف وكرامة الحزب، ولاسيما ما كان يُقترف على يد أعضاء اللجنة الشعبية للشؤون الداخلية في كل أنحاء بلادنا.

في المؤتمر العام للجنة المركزية المنعقد عام ١٩٥٧، حينما نوقشت فعاليات مجموعة مولوتوف وكاغانوفيتش ومالينكوف وسواهم، أتيح لي الاطلاع على جزء من اللوائح المرفوعة إلى ستالين من قبل يجوفي وغيره من العاملين في اللجنة الشعبية للشؤون الداخلية. وكانت الأسماء المدرجة في هذه اللوائح قد حصلت على تصديق من ستالين ومولوتوف وفوروشيلوف وكاغانوفيتش بالإعدام رمياً بالرصاص دون محاكمة.

لما كان ستالين، وأعضاء المكتب السياسي المحيطون به، خائفين حتى الموت مما سمعوه حول المؤامرة العسكرية السياسية الضخمة التي تحاك ضدهم فإنهم لم يلتفتوا إلى أحد من المعتقلين لكي يسمعوا أقواله ويعرفوا بأية وسائل انتزعت منهم الاعترافات بخصوص قيامهم بالنشاطات المعادية. وقد عمل الخوف البهيمي والشك الحاد وتأكيد ستالين بحتمية تفاقم الصراع الطبقي في مرحلة بناء الاشتراكية عمله الأسود. ومما زاد الطين بلة وعقّد الوضع تسرب المخابرات الأجنبية إلى داخل أجهزة أمن الدولة، حين صارت تقدم عن طريق عملائها روايات مركبة من قبلها عن وجود نشاط ضد الاتحاد السوفييتي يقوم به أشخاص من بلادنا، الأمر الذي ألحق أضراراً لا يمكن إصلاحها في وطننا وفي الدفاع عن البلاد.

تعرفت على ستالين عن قرب في الفترة ما بين ١٩٤١ و١٩٤٦ حين كنت كثيراً ما أجتمع معه بحكم عملي في المناصب التالية: رئيس الأركان العامة، قائد العديد من الجبهات، نائب القائد الأعلى، القائد العام لقوات الاحتلال في ألمانيا.

بذلت جهدي لدراسة ستالين دراسة دقيقة، لكن كان من العسير جداً فهمه. كان قليلاً ما يتكلم، وكان يصوغ أفكاره بإيجاز.

أعتقد أن ستالين، لعدم وجود علاقة مباشرة بينه وبين الشعب بما في ذلك نشاطه العملي وظروف حياته وأفكاره ومعاناته، فإنه كان يتعرف على ظروف معيشة الشعب من تقارير أعضاء المكتب السياسي والسكرتارية. لكن لما كانت المسائل ترفع عادة إلى ستالين بشكل مبهرج فمن الطبيعي أن لا يكون عارفاً بالوضع الحقيقي القائم في البلاد وفي أعماق حياة الشعب.

مهما يكن من أمر لا بدّ من إيفاء ستالين حق قدره. فقد كان، كقاعدة عامة، لا يتخذ قراراته بسرعة. وكان عادة يحيل المسائل الهامة للبحث التفصيلي إلى لجنة الدولة للتخطيط أو اللجان المختصة التي يترأسها أحد أعضاء المكتب السياسي...

... لما كان يشعر بضعفه في تنظيم العمليات، وكذلك تحت تأثير الهزائم الضخمة في جنوب البلاد، فقد اقترح عليّ ستالين في العام ١٩٤٢ منصب نائب القائد الأعلى.

في بادئ الأمر اعتذرت عن هذه الوظيفة متذرعاً بطبعي الخاص وبأنه من الصعب علينا أن نعمل سوية، لكن ستالين خاطبني قائلاً: «الموقف يهدد البلاد بالموت، علينا أن ننقذ الوطن من العدو بأية وسيلة وبأية تضحيات. أما بخصوص طبائعنا فدعنا نسخرها لمصالح الوطن».

أجبت بأنني مستعد على الدوام لخدمة الوطن.

ومن الجدير بالذكر أن ستالين، منذ تلك اللحظة، لم يعد تقريباً يتخذ القرارات في مسائل تنظيم العمليات دون التشاور معي.

كنت طيلة الحرب تقريباً أحظى بتعاطفه وثقته، مما ساعدني على النجاح في تحقيق التدابير الخاصة بتنظيم وتنفيذ العمليات.

حين أشرفت الحرب على الانتهاء، أو بالأحرى بعد ملحمة قوس كورسك، أصبح ستالين عموماً يستوعب الأمور العسكرية بشكل لا بأس فيه.

لكنني أرى من واجبي هنا أن أؤكد ناحية: وهي أن ستالين، لدى تنفيذ العمليات الكبرى، وحينما تكلل هذه العمليات بالنجاح، كان يحاول بطريقة ما وضع الأشخاص المنظمين لهذه العمليات في الظل ويعزي لنفسه المقام الأول فيها متبعاً الأساليب التالية: حينما يصبح معلوماً لديه سير العملية بشكل ناجح تراه يبدأ بإجراء أحاديث بالهاتف مع قيادة وأركانات الجبهات وقيادة الجيوش، حتى أنه كان يصل أحياناً إلى قيادة الفيالق، وعلى أساس آخر المعلومات عن الموقف، المرفوعة إليه عن طريق الأركان العامة، يسألهم عن تطور العملية ويقدم لهم النصائح ويهتم باحتياجاتهم ويعطيهم الوعود، وبذلك كان يخلق أمامهم تصوراً بأن قائدهم الأعلى يقف في مركزه متبصراً بالأمور وممسكاً قيادة العملية الجاري تنفيذها بيد من حديد.

لم أكن لا أنا ولا فاسيليفسكي نعرف عن هذه المكالمات الهاتفية إلا من قيادة الجبهات ، ذلك أنه كان يعمل من فوق رؤوسنا . وحينما تم طرد العدو من حدود وطننا وانتقلت العمليات إلى أراضي بولونيا وبروسيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا ، ألغى ستالين بالمرة وظائف ممثلي هيئة القيادة العليا الذين كانوا في ذلك الوقت ينسقون أعمال مجموعة الجبهات ، وأصدر أوامره بربط قيادة الجبهات كلها بهيئة القيادة العليا مباشرة .

صدرت الأوامر إلي وإلى فاسيليفسكي بأن نتولى قيادة الجبهات . فأُسندت إلي قيادة جبهة روسيا البيضاء الأولى بدلاً من روكوسوفسكي ، وأُسندت إلى فاسيليفسكي قيادة جبهة روسيا البيضاء الثانية بدلاً من جنرال الجيش المتوفى تشيرنياخوفسكي .

كان الحساب هنا واضحاً . أراد ستالين أن يتوج النصر المؤزر على العدو بقيادته الشخصية ، أي تكرار ما فعله عام ١٨١٣ الاسكندر الأول حين نحّى كوتوزوف عن القيادة العامة وتولى بنفسه القيادة العليا لكي يختال على ظهر جواده الأبيض عند السفر إلى باريز على رأس القوات الروسية الشجاعة التي هزمت جيش نابليون .

ذات يوم من أيام خريف ١٩٤٤ تحدث ستالين إليَّ قائلاً :

« تقع جبهة روسيا البيضاء الأولى على اتجاه برلين ، نحن نفكر بوضعك أنت على هذا الاتجاه الأكثر أهمية ونعين روكوسوفسكي في جبهة أخرى » .

أجبت بأنني على استعداد لقيادة أية جبهة لكنني أرى أن روكوسوفسكي سيستاء فيما إذا نحي عن قيادة جبهة روسيا البيضاء الأولى .

أجاب ستالين : « لديك خبرة أكبر ، وستبقى في المستقبل نائبي . وفيما يتعلق بالاستياء فنحن لسنا فتيات حسناوات . الآن سأتكلم مع روكوسوفسكي » .

على الفور قام بوسكريبيشيف بوصل ستالين على خط الهاتف مع روكوسوفسكي ، وأبلغه قراره ثم سأله فيما إذا كان لديه اعتراض على نقله إلى جبهة روسيا البيضاء الثانية . وهنا طلب روكوسوفسكي أن يبقيه في الجبهة الأولى . لكن ستالين أعلن : « هذا غير ممكن . فقد تقرر وضع جوكوف على الاتجاه الرئيسي ، وعليك أن تقبل جبهة روسيا البيضاء الثانية » .

لم يكن تصرف ستالين هنا عملاً بسيطاً .

منذ تلك اللحظة لم تعد بين روكوسوفسكي وبيني تلك الصداقة الرفاقية القلبية الوثيقة التي كانت قائمة بيننا سنوات طويلة . وكلما اقتربت الحرب من نهايتها كلما صعَّد

ستالين من دسائسه بين المارشالات أي بين قادة الجبهات ، وبين نوابه ، وكثيراً ما كان يجعلهم يتناطحون ، زارعاً الحقد والتفرقة فيما بينهم ، ساعياً إلى المجد على أساس غير سليم .

مع الأسف كان بعض القادة، يتناسون الصداقة الرفاقية ويهملون مبادئ الشرف الأولية ويسعون إلى المنافع الخاصة ، وكانوا يستغلون ضعف ستالين محاولين غرس بذور عدم الثقة فيه تجاه أولئك الذين كان يعتمد عليهم في أحلك سنوات الحرب .

كان أمثال هؤلاء الأشخاص يوحون إلى ستالين بمختلف الافتراءات محاولين إظهار أنفسهم أمامه على أحسن وجه . وكان من بين الذين يلجؤون إلى مثل هذه الأسباب في نهاية الحرب بشكل خاص المارشال كونيف .

بدءاً من ملحمة قوس كورسك ، حينما لم يعد العدو قادراً على مجابهة ضربات قواتنا ، ترى كونيف خلافاً لكل القادة ، يتزلف أمام ستالين « بأعماله البطولية » خلال تنفيذ العمليات مستهيناً في الوقت ذاته بأعمال القوات المجاورة له .

تخطر في بالي هنا عملية كورسون ــ شيفتشينكو التي نفذت بقوى الجبهة الأوكرانية الأولى بقيادة فاتوتين والجبهة الأوكرانية الثانية بقيادة كونيف . وجرى التنسيق بين أعمال الجبهتين من قبلي أنا .

سارت العملية بنجاح . وعملت قوات فاتوتين بشكل أفضل . لكن في أواخر العملية قامت بقايا قوات العدو المطوقة ، مستفيدة من العاصفة الثلجية الهوجاء ، باختراق تراتيب قتال قوات فاتوتين . وإذا بستالين يكلمني بالهاتف ، في هذا الوقت بالذات ، ويسألني بلهجة متوترة : « هل عَلِمتَ بأن العدو اخترق جبهة فاتوتين وهو يخرج من التطويق في منطقة كورسون ــ شيفتشينكو ؟ » .

أجبته قائلاً : « كلا لم أعلم ، أظن أن هذا لا يتفق مع الواقع » . هنا قال ستالين ، بعد أن انهال عليَّ بالشتائم ، بأن كونيف أعلمه منذ قليل بالهاتف عن الخرق ثم قال : « أرى تسليم موضوع إنهاء العملية ليد كونيف ، أما أنت وفاتوتين فمن الأفضل أن تركزا اهتمامكما على الجبهة الخارجية وعلى تحضير عملية بروسكوروف ــ تشيرنوفيتس » .

حينئذ أجبت ستالين بأنه لم يبق لانتهاء العملية أكثر من ثلاثة أيام . وأن الدور الرئيسي في عملية كورسون ــ شيفتشينكو لعبته الجبهة الأوكرانية الأولى ، وسيصاب فاتوتين والقوات التي تحت أمرته بخيبة الأمل فيما إذا تجاهلنا جهودهم الجبارة .

هنا أطبق ستالين سماعة الهاتف منهياً الحديث معي ، وبعد ساعتين وصلتنا توجيهات بخصوص تسليم الأعمال الختامية الخاصة بالقضاء على العدو المطوق ليد كونيف .

ترى هل من داع لمثل هذا الإجراء لصالح العمل ؟

كلا لا داعي لذلك . لكن ذلك كان لازماً لستالين لكي يدق الأسفين بشكل أعمق بين كونيف وفاتوتين وبيني . وفاز كونيف في هذه المسألة بدور غير محمود .

ولمعرفته بعمق تدقيقي للأمور حاول ستالين ، لدى تنفيذ العمليات التالية ، تحريضي أكثر من مرة على كونيف وروكوسوفسكي وغيرهما وتحريضهم في الوقت نفسه عليَّ . فكان يشي بي أمام فاسيليفسكي ويشي بفاسيليفسكي أمامي .

نُفذت في نهاية نيسان ١٩٤٥ عملية برلين التي أنهت الحرب . فبعد أن خرقت قوات جبهة روسيا البيضاء الأولى بنجاح دفاع الألمان على الأودر وسحقت نطاق دفاعه الأول ، لاقت مقاومة عنيفة من العدو على نطاق دفاعه الثاني الذي يمر فوق مرتفعات زييل التي كانت غير صالحة إلى أقصى حد لهجمات قواتنا .

بغية عدم إحباط العملية وعدم فتح المجال أمام العدو لصد هجماتنا على اتجاه برلين قررتُ المبادرة إلى زج الجيشين المدرعين الأول والثاني في الموقعة أملاً بسحق دفاع العدو على مرتفعات زييل .

مساء ١٧ نيسان اتصل معي ستالين بالهاتف حينما كنت في مقر قيادة الجيش الثامن عند تشويكوف . وقال : « يبدو أنك لم تقدّر العدو على اتجاه برلين تقديراً جيداً . كنت أعتبرك على منافذ برلين بينما أنت لا تزال واقفاً على مرتفعات زييل . الأمور بدأت تسير بنجاح لدى كونيف . أليس من الأفضل تعديل الحدود بين الجبهات وتحويل القوى الرئيسية لدى كونيف وروكوسوفسكي نحو برلين ؟ » .

أجبته : « لا بأس أن يدفع العدو بكل احتياطاته من منطقة برلين لمواجهة القوات الموضوعة في عهدتي . ونحن سنسحقها بعيداً عن برلين الأمر الذي سيسهل ويسارع في احتلال برلين . أما فيما يتعلق بالبداية الأكثر نجاحاً لقوات الجبهة الأوكرانية الأولى فهي تجابه هناك عدداً قليلاً من قوات العدو ، لكن على ما يبدو سيضطر العدو إلى دفع قوات أكبر لمواجهة كونيف وحينئذ سينخفض إيقاع الهجوم هناك . لا موجب لتبديل الحدود بين الجبهات الآن . فالتجميع الرئيسي لكونيف يجب أن يتحرك بسرعة أكبر نحو الألب وأن يحتل

تيورينغيا وبعدها يجب تحضيره للتوجه نحو براغ. أعتقد أن قوات الجبهة ستخترق برلين في موعد لا يتجاوز ٢٢ نيسان. أما فيما يتعلق بروكوسوفسكي فلن يستطيع حتى ٢٢ نيسان سوى عبور الأودير بقواه الرئيسية، ولن يتمكن بحال من الأحوال من الوصول في الوقت المناسب بتجميعه الرئيسي إلى منطقة برلين علماً أنه لا ضرورة لذلك».

بعد مضي ساعة اتصلت مع الجنرال انطونوف رئيس الأركان العامة مستوضحاً منه عن أسباب قلق ستالين حول مصير عملية برلين. فأجاب انطونوف: «أنا لست مطلعاً على ملابسات الأمور. لكنني أعرف أن كونيف اتصل معه وأعلمه عن السير الناجح للعملية».

في بداية آذار ١٩٤٦ اتصل بي ستالين وأنا في برلين قائلاً: «رفع بولغانين إليَّ مشروعاً لتعديل قيادة قواتنا المسلحة لفترة ما بعد الحرب. واسمك غير مذكور في عداد القادة الأساسيين للقوات المسلحة. أعتقد هذا غير صحيح. ما هو المنصب الذي تطمح إليه؟ فقد أعرب فاسيليفسكي عن رغبته بتسلم منصب رئيس الأركان العامة. ألا تود أن تتسلم منصب القائد العام للقوات البرية، فهي لدينا أكبر القوات عدداً».

أجبت أنني لم أفكر بمثل هذه المسألة وأنني على استعداد لتنفيذ أي عمل تسنده إلي اللجنة المركزية.

تابع ستالين حديثه: «في الوقت ذاته قدم إليَّ بولغانين مشروعاً حول وضع نظام لمفوضية الشعب للدفاع. وأتمنى لو أنك تأتي وتشارك في إقرار هذا المشروع مع بولغانين وفاسيليفسكي».

بعد يومين وصلت إلى موسكو وتوجهت إلى بولغانين. كان يبدو عليه الانزعاج، والظاهر أنه مطلع على حديثي مع ستالين.

بعد الاطلاع على مشروع نظام مفوضية الشعب للدفاع نشأت عندي وجهات نظر مختلفة اختلافاً خطيراً عن بولغانين حول الوضع القانوني لقادة صنوف القوات المسلحة والنائب الأول لمفوض الشعب. فبموجب مشروعه كان قادة الصنوف يخضعون في نشاطهم العملي ليس لمفوض الشعب للدفاع بل لنائبه الأول. وفي الدفاع عن مشروعه حاول تبرير ذلك بأن مفوض الشعب للدفاع، وهو ستالين، غارق في شؤون الحزب والدولة.

أجبت بولغانين محاولاً دحض حججه: «هذا ليس مبرر، فاليوم ستالين مفوض الشعب للدفاع وغداً يمكن أن يكون غيره. فالقوانين لا تسطر لأشخاص معينين بل لمنصب معين».

هنا قام بولغانين بإبلاغ ستالين كل ذلك بشكل محرّف مضيفاً مايلي : « جوكوف وهو مارشال الاتحاد السوفييتي لا يريد أن يتعامل معي أنا الجنرال » . وكان قصد بولغانين من كل ذلك أن يحصل من ستالين لنفسه على لقب مارشال الاتحاد السوفييتي . وبالفعل صدر في اليوم التالي مرسوم بمنح بولغانين رتبة مارشال الاتحاد السوفييتي ، وتوجه ستالين إلي قائلاً إنه لا بدّ من متابعة العمل حيال نظام مفوضية الشعب للدفاع .

هذا وقد تبين لي بوضوح أن بولغانين أصبح الساعد الأيمن لستالين في مفوضية الشعب للدفاع . كانت معرفة بولغانين سيئة جداً في الأمور العسكرية ، وبالطبع لم يكن لديه أي تصور حول المسائل العملياتية ــ الاستراتيجية . لكن لما كان شخصاً على قدر كبير من البداهة والدهاء فقد استطاع التقرب إلى ستالين وحيازة ثقته .

بالطبع كان ستالين يعتقد أن بولغانين ليس هو اللُقطة اللازمة للقوات المسلحة ، لكن كان يلزمه دبلوماسي ماهر وفي الوقت نفسه عابد وثن خاضع له دون أي اعتراض . وكان ستالين عارفاً أن بولغانين سيسايره في كل الأمور .

وهكذا بعد أن سلمتُ منصب القائد العام للقوات في برلين إلى نائبي سوكولوفسكي ، عدت إلى موسكو لأتسلم منصب القائد العام للقوات البرية .

في هذه الفترة انتهى عموماً تسريح الجنود المتقدمين في السن من الجيش والأسطول ، ولم تأخذ الحياة العسكرية مجراها الطبيعي . ولم يستقر النظام والخدمة العسكرية في المستوى اللازم لهما . وبغية إدخال الجيش في الوضع الطبيعي له قمنا باتخاذ العديد من التدابير التدريبية للقوات البرية ، وأعددنا مشروع أمر باسم القائد العام للقوات البرية للتدريب القتالي لعام ١٩٤٦ .

أرسل مشروع الأمر الذي سيصدر عن القائد العام للقوات البرية إلى ستالين مع نسخة إلى بولغانين .

وبوحي من بولغانين ، رأى ستالين في هذا المشروع استقلالية في أعمالي كما لو أن فيها استخفافاً بأهميته .

جرى بيني وبين ستالين حديث طويل وغير سار حول مضمون مشروع أمري ، ولا سيما فيما يخص اشتراك القوات البرية وقطعات وتشكيلات احتياط القيادة العامة في المشاريع الميدانية ومشاريع القيادة والأركان المشتركة .

استمع إلى ما قاله بولغانين : « يريد جوكوف أن يجمّع تحت سلطة القائد العام للقوات البرية حتى كل احتياطات القيادة العامة وأن يتركنا صفر اليدين » .

هنا أجبته أن هذا كلام أطفال . إلا أن تعليقي هذا لم يرق لستالين .

أشاروا عليَّ بتعديل مشروع الأمر ، وبالفعل قمت بتعديله ، ومع ذلك من جديد ، لم يصدقه ستالين .

قال لي فاسيليفسكي على المكشوف: « يريد ستالين أن يكون الأمر صادراً عن مفوضية الشعب وليس عن القائد العام للقوات البرية » . وإذا بهم يأخذون مشروع أمري ، ويعدلونه ليصبح أمراً صادراً عن مفوض الشعب للدفاع . وعلى الفور وقعه ستالين . بهذا الشكل كان أفضل . ربما لم أكن على حق في إصراري على إصدار الأمر بتوقيع قائد القوات البرية في غياب مفوض الشعب للدفاع .

كلما تقدم بي الزمان ازداد تراكم المادة المحرقة في علاقاتي مع بولغانين وستالين . وكنت أشعر أن هناك أموراً لا تحمد عقباها تدور حولي . وفي آخر المطاف ظهرت مصيبة كبيرة أمامي .

ها هو ذا ستالين يعقد اجتماعاً للمجلس العسكري الرئيسي دعا إليه كل أعضاء المكتب السياسي والمارشالات والجنرالات بما فيهم غوليكوف وخروشوف .

دخل ستالين قاعة الاجتماع متجهماً كالغيمة السوداء . ودون أن ينبس ببنت شفة أخرج من جيبه ورقة ورماها إلى سكرتير المجلس العسكري الرئيسي الجنرال شتيمينكو وقال له : « اقرأ » . هرع شتيمينكو إلى المنصة وبدأ بالقراءة . كان ذلك اعترافاً ضد المارشال جوكوف أدلى به مرافقه السابق المقدم سيموتشكين والمارشال الرئيسي للطيران آ . آ . نوفيكوف المعتقلين في السجن والموقوفين على يد أجهزة أمن الدولة . كان الاعتراف مكتوباً على عدة أوراق ويتلخص فحواه بأن المارشال جوكوف لم يكن موالياً لستالين ، ويعتبر أنه هو وليس ستالين الذي أدار الأمور الرئيسية خلال الحرب الماضية ، وأن جوكوف كان كثيراً ما يخوض في أحاديث يتهجم بها على ستالين . وكما لو أنني خلال الحرب شكلت حولي مجموعة من الجنرالات والضباط الحاقدين .

بعد تلاوة هذا الاعتراف طلب ستالين من الحضور أن يعلقوا على ما سمعوه . وانبرى كل من مولوتوف وبيريا وبولغانين بانتقادي لأنني كنت جاحداً لستالين رغم علاقاته الجيدة

معي وأنني كنت مغروراً بنفسي ولا أحسب حساباً ليس فقط لسلطة المكتب السياسي بل ولستالين شخصياً ، وأنه لا بدّ من اتخاذ تدابير زاجرة بحقي وإيقافي عند حدي .

تكلم أيضاً الجنرال غوليكوف على المنوال ذاته مشيراً إلى أنني عبثاً أعفيته من منصب قائد الجبهة لفشل أعمال القوات أمام خاركوف في العام ١٩٤٣ . غير أن معظم المارشالات المتكلمين أعربوا عن دعمهم لي . وكان من أكبر الداعمين مارشال القوات المدرعة ب . س . ريبالكو الذي شرح كيف أن جوكوف في أحلك الظروف وأخطر اللحظات كان يساعد القوات في إيجاد القرارات السليمة وفي سحق العدو .

انتهى الأمر بأن نحّوني عن منصب القائد العام للقوات البرية وأرسلوني لقيادة قوات منطقة أوديسا العسكرية . وفي المؤتمر المنعقد للجنة المركزية للحزب الشيوعي عزلوني من قوات اللجنة المركزية دون أية صياغة للأمر . وهنا علق جدانوف بقوله : « لا يزال جوكوف فتياً ولم ينضج للعمل في اللجنة المركزية » .

تم في العام ١٩٤٧ اعتقال مجموعة كبيرة من الجنرالات والضباط وبشكل رئيسي من بين الذين عملوا معي في وقت ما . وكان من بين المعتقلين الجنرالات مينيوك ، فيلاتوف ، فارينيكوف ، كريوكوف ، والعضو السابق في المجلس العسكري لجبهة روسيا البيضاء الأولى ل . ف . تيليغين وغيرهم . وانتزعت من أفواههم جميعاً اعترافات في الإعداد « لمؤامرة عسكرية » ضد قيادة ستالين نظمها المارشال جوكوف .

كان يتولى هذه « القضية » اباكوموف وبيريا .

كانت جهودهما مكرسة لاعتقالي . لكن ستالين لم يكن ليصدق أنني يمكن أن أحاول تنظيم مؤامرة عسكرية ، ولم يُصدر الموافقة على اعتقالي .

حدثني خروشوف فيما بعد أن ستالين قال لبيريا : « أنا لا أصدق أبداً بأن جوكوف يمكنه الإقدام على مثل هذا التصرف . فأنا أعرفه جيداً . إنه رجل مستقيم وحازم ويمكنه أن يقول كلاماً كريهاً في وجه أي إنسان لكنه لن يسير في منحى معاد للجنة المركزية » .

وهكذا لم يسمح ستالين باعتقالي .

وحينما اعتُقل أباكوموف بالذات تبين أنه هو الذي اختلق كل هذه القصص كما اختلقها في أعوام ١٩٣٧ ــ ١٩٣٩ المظلمة .

وكان أن أعدم أباكوموف رمياً بالرصاص، أما أنا فقد أُعِدْتُ من جديد إلى قوائم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي.

وطيلة هذا الوقت العصيب لم يصدر عن ستالين أية كلمة سيئة ضدي. وكنت، بالطبع، ممتناً له هذه الموضوعية.

نشرته ماريا جوكوفا

٢ ـ ثلاثة لقاءات لقائد الفرقة مع المارشال جوكوف
(بقلم العقيد آ. كوتشكوف)[١]

ربما كانت معرفتي ببطل الاتحاد السوفييتي اللواء المتقاعد ف. س. أنطونوف متوغلة في حياتي كلها. وربما كنت عارفاً كل سيرة حياته المدهشة في الجبهة بدءاً من أول معركة في ٢٢ حزيران ١٩٤١ على الحدود الدولية غرب كاوناس حتى ٢ أيار ١٩٤٥ حينما خاضت الفرقة (٣٠١) مشاة بقيادة العقيد أنطونوف معركتها الأخيرة في برلين مقتحمة الديوان الامبراطوري حيث كانت تتمركز هيئة قيادة هتلر. وفي كل لقاء جديد كان أنطونوف يتحفني بحقيقة ومشهد لم يسمع بهما أحد قبل الآن. وفي هذه المرة حينما سألته عن أكثر اللقاءات الجبهوية رسوخاً في ذاكرته أجاب بما يلي:

ـ الذكريات كثيرة. لكن اللقاءات مع مارشال الاتحاد السوفييتي غيورغي كونستانتينوفيتش جوكوف لها وقع خاص سواء في الحرب أو بعدها...

اللقاء الأول مع انطونوف: كانون الثاني ١٩٤٥. على رأس جسر ماغنوشيف. عقد الجنرال بيرزارين، قائد الجيش الخامس، اجتماعاً لقادة التشكيلات في مقر قيادته.

سرعان ما ظهرت على الطريق الميدانية سيارتان، خرج من الأولى عسكري مربوع القامة عريض المنكبين يرتدي بزة بلون خاكي. وهنا خاطبه بيرزارين قائلاً:

ـ مارشال جوكوف أرجوا أن تكون منتبهاً!.

وتوجه بيرزارين لاستقبال قائد الجبهة، وهنا ناداه المارشال جوكوف قائلاً:

---

(١) النجم الأحمر ١٩٨٨/١/٢٤.

ـــ نيكولاي ايراستوفيتش ! كونك أقدم ضابط يبدو أنك أيقظت الجميع قبل ساعتين من موعد الاستيقاظ ؟

علت الابتسامة شفاه الجميع لهذه النكتة العسكرية القديمة .

وقال جوكوف :

ـــ لن نضيع الوقت .

ووقف أمام الصف قائلاً :

ـــ لنبدأ بالتسلسل . قائد الفرقة العاملة على الجناح الأيمن : هلم إليَّ !

يروي انطونوف القصة قائلاً : «صعقت لهذا الطلب وتقدمت بخطوات متزنة نحو المارشال . وبعد أول جملة قلتها صدر مني تنهد طويل بشكل عفوي . ها هو ذا المارشال يقف دون أن يلتفت إلي ويسأل عن طيبة قلب متأملاً الأفق المعتم :

ـــ هل بَلَعْتَ ريقك ؟

ودون أن ينتظر مني الجواب قال :

ـــ تابع تقريرك بهدوء .

حينما رفعت تقريري عن بنية قتال الفرقة إذا به يستدير نحوي فجأة ويقول :

ـــ لماذا تخالف تعليماتي حول أعمال الأنساق الثانية ؟

كان لنظراته الحادة والنبرة الفولاذية في صوته أن أوقعني في الارتباك . وبعد أن هدأت نفسي أوضحت له أن فوج النسق الثاني للفرقة يتمركز على مسافة بعيدة أكبر مما يتطلبه نظام القتال ، لكن الأرض هي التي أملت علي ذلك : هناك سفوح قليلة الانحدار للمرتفعات تمتد على بُعد كيلومترين تقريباً نحو العدو . ولكي يتمركز النسق الثاني للفرقة هنا كان لا بدّ من حفر خنادق إضافية وتمويه المواقع ...

بعد أن أصغى المارشال إلى حديثي قال :

التقرير معقول . وكل شيء فيه منطقي . لكن إياك أن تضيّع النسق الثاني للفرقة أيها العقيد ... » .

سكت انطونوف وكان وجهه مشدوهاً بالتفكير . وبدا لي أنه انغمس بكليته في هذه الذكريات ...

اللقاء الثاني : بتاريخ ٢ أيار ١٩٤٥ انقضّت الفرقة (٣٠١) مشاة على الديوان الامبراطوري واحتلته . وفي صباح اليوم التالي قَدِمَ إلى هنا مارشال الاتحاد السوفييتي غ . ك . كوجوف يرافقه الجنرالات بيرزارين وتيليغين وبوكوف . وعبر بوابة المراسم دخلوا إلى الحديقة الصيفية .

يتذكر انطونوف قائلاً : « كان جوكوف يبدو شاباً بمعطفه الخفيف وقبعته . حقاً لم يكن سنه كبيراً فهو لم يكمل الخمسين من عمره . كان يمزح وعيناه تشعان بالسعادة . أصغى إلى تقريري باهتمام ثم مد يده وسألني والابتسامة تعلو وجهه :

— أين إذن هتلر ؟

— لقد عثرنا على جثمان غيبلز أما جثمان هتلر فلم نعثر عليه بعد .

— حاول العثور عليه أيها الرفيق قائد الفرقة . وبعد أن أنهى كلامه بدأ المارشال يتفرج على الحديقة وعلى صومعة الفوهرر .

غدا عضو المجلس العسكري لجيشنا الجنرال بوكوف حتى ذلك الحين واسع الاطلاع على هيئة قيادة هتلر وصار يقص على جوكوف بالتفصيل كيف تم اقتحام الديوان الامبراطوري ، وعن المبرزين في تلك المعركة ، وأطلعه على شعار هتلر (وهو نسر ذهبي) المستولى عليه من خريطته المحمل عليها الموقف . وأشار قائلاً : لقد عثرنا أيضاً على صولجان روميل .

نظر جوكوف إلى اللواء بيرزارين قائلاً :

— آمل أن تكون كل هذه الشعارات والصولجانات قد دخلت على القيود .

— هذا هو الصحيح . فكل التجهيزات المغنومة مسجلة وستسلم حسب الأصول .

ابتسم المارشال جوكوف وقال :

— تابعوا عملكم ، تابعوا عملكم . فسيطلب أحفادنا براهين مادية على هذه الانتصارات المحققة .

لم يعرف ولم يكن ليتصور قائد الفرقة العقيد أنطونوف ، الذي لم يتجاوز السادسة والثلاثين من عمره ، أنه ستمر فترة قصيرة من الزمن يبدأ بعدها القدر ينكل تنكيلاً شديداً بأولئك الذين وقفوا أمام أنقاض عرين الفاشية وقلبهم مبتهج لتحقيق النصر . ها هو ذا بطل الاتحاد السوفييتي اللواء بيرزارين يقضي نحبه وهو يؤدي واجبه الوطني قبل أسبوع من العرض العسكري بمناسبة النصر . وبموجب تهمة باطلة نراهم يعتقلون الجنرال تيليغين ويعتصرون منه ، وهو العضو السابق في المجالس العسكري لجبهة روسيا البيضاء الأولى ، اعترافات ضمن

زنزانات بيريا ، تعدت كل حدود المنطق وتنص على أن مارشال الاتحاد السوفييتي غ . ك . جوكوف يترأس مؤامرة عسكرية . وقد استدعي جوكوف بالذات في حزيران ١٩٤٦ إلى جلسة يعقدها المجلس العسكري الأعلى ، تقرر على أثرها إبعاد جوكوف عن موسكو لبعض الوقت ، استمر بعض الوقت هذا نحو سبع سنوات . ثم عاد مارشال الاتحاد السوفييتي جوكوف إلى موسكو في العام ١٩٥٣ . وبعد موت ستالين عُين في منصب النائب الأول لوزير دفاع الاتحاد السوفييتي ، وفي العام ١٩٥٥ عُين وزيراً للدفاع .

كما هو معلوم لم يبق جوكوف في هذا المنصب سوى سنتين . ويدور دولاب القدر من جديد . وتبدأ ليالي الأرق المليئة بالتأملات حول السنوات الماضية وحول المصائب الواضحة التي أصابت النظام الذي تمخض عن عبادة الشخصية والاستبداد ... وقرر جوكوف كتابة مذكراته .

خلال عمله في كتابة مسودة الكتاب كثيراً ما كان جوكوف يلتقي رفاق السلاح من قادة الجبهات والجيوش السابقين وأعضاء المجالس العسكرية ... وفي أحد أيام حزيران ١٩٦٦ دعى لزيارته العضو السابق للمجلس العسكري التابع للجيش الضارب الخامس الجنرال بوكوف الذي لم يأت وحده بل اصطحب معه الجنرال أنطونوف وكان لهذه الزيارة مبرراتها .

ظهرت في مجلة « اكتوبر » مقالة بخط مارشال الاتحاد السوفييتي تشويكوف حاول فيها القائد السابق للجيش الثامن الحرس البرهان على أنه كان بالإمكان احتلال برلين قبل ثلاثة أشهر لو أظهرت هيئة القيادة العليا وقيادة جبهة روسيا البيضاء الأولى حسمية أكبر .

قام جوكوف بدحض الترهات التي أدلى بها قائد الجيش بحجج دامغة ، جمعها في مقالته بعنوان « على اتجاه برلين » المنشورة في مجلة التاريخ العسكري .

كان الجنرال أنطونوف يخدم في ذلك الوقت تحت إمرة المارشال تشويكوف . ومهما كان يحترم تشويكوف لم يؤيد موقفه من تقديره للمرحلة الختامية لعملية برلين . وبعد أن كان تشويكوف معجباً بأنطونوف الذي كان يعمل لديه كمدير إدارة إذا به يتذكر اليوم كل « ذنوبه » الصغيرة ويشكل على الفور لجنة استطاعت أن تكتشف العيوب لدى أنطونوف . وكانت النتيجة أن تقرر إحالة الجنرال ذي المستقبل الباهر المتخرج من الأكاديمية العسكرية للأركان العامة إلى الاحتياط ...

اللقاء الثالث : يقول أنطونوف جرى هذا اللقاء في عزبة جوكوف .

استقبلنا غيورغي كونستانيتنوفيتش في قاعة واسعة وزُيِّنت جدرانها بصور ذات أبعاد واسعة... كان يرتدي لباساً عادياً وهو الذي يرتديه في بيته : قميصاً بلون فاتح وأكمام قصيرة وتحته بنطال رمادي اللون . وكان يتكلم على سجيته ويلقي بكثير من النكات . واتجه بالكلام ليس إلي بل إلى الجنرال بوكوف قائلاً :

— إذن تشويكوف يؤكد عدم وقوع أية معركة نهائية من أجل الديوان الامبراطوري ؟
— هكذا يبدو ياغيورغي كونستانتينوفيتش . وعموماً فهو ينكر قيام الجيش الضارب الخامس باقتحام مبنى هيئة قيادة هتلر ، كما لو أن الذي قام بهذا الاقتحام هم قادة تشكيلات جيشه الثامن الحرس .
— هذا شيء غريب . إذن لماذا لم يرفعوا هم وإنما أنطونوف هو الذي رفع التقرير إليَّ في ٣ أيار ١٩٤٥ من أمام جدران الديوان الامبراطوري ؟

استمعت إلى كلام جوكوف وبشكل عفوي قارنت جوكوف في ربيع ١٩٤٥ المكلل بالغار مع جوكوف ١٩٦٦ . فقد تقدم به السن وامتلأ رأسه شيباً .

استدار جوكوف إليَّ وقال بلهجة صارمة :
— سأكتب في مذكراتي وصفاً لآخر معركة في برلين ، المعركة من أجل الديوان الامبراطوري .

ضبط القائد المجيد لسانه في الكلام . وإنك لتقرأ في كتابه « ذكريات وتأملات » السطور التالية : « عدة كلمات حول المعركة الأخيرة الختامية في برلين... بتاريخ ١ أيار اقتحمت الفرقة (٣٠١) من جيش ن . ي . بيرزارين (قائد الفرقة العقيد ف . س . انطونوف) متعاونة مع الفرقة (٢٤٨) مشاة واحتلت مبنى الغستابو ووزارة الطيران ...

كانت هذه المعركة الأخيرة ، من أجل الاستيلاء على الديوان الامبراطوري ، التي خاضتها الفرقة (٣٠١) والفرقة (٢٤٨) مشاة صعبة جداً . وكان الاشتباك على منافذ هذا المبنى وفي داخله ذا طابع عنيف للغاية » ...

بعد ظهور مذكرات غ . ك جوكوف إلى النور ، أُعطي « الضوء الأخضر » لمخطوطات الجنرال ف . س . انطونوف . وصدر له كتابات : « الطريق إلى برلين » و « إلى الحد الأخير » .
— يا فلاديمير سيميونوفيتش (انطونوف) كم من الوقت استمر لقاؤك الثالث هذا مع المارشال جوكوف ؟

ـــ ثلاث ساعات على الأقل. ضيّفنا غيورغي كونستانتينوفيتش الشاي. وحدثنا عن الصعوبات التي يلاقيها في العمل على إصدار كتاب مذكراته. ولدى توديعه إياي أهداني هذه الصورة الشخصية.

رفع انطونوف بحذر من على الحائط الإطار مع صورة بطل الاتحاد السوفييتي أربع مرات مارشال الاتحاد السوفييتي غ. ك. جوكوف. القائد الممجد بكل أوسمته. وقد كتب على زاوية الصورة بخط عريض: «إلى فلاديمير سيميونوفيتش انطونوف المحترم، تخليداً لذكرى احتلال برلين».

٣ ـــ غ. ك. جوكوف ومكانته بين القادة العسكريين في الحرب العالمية الثانية

إن الصراع ضد ألمانيا النازية التي تعتبر من أقوى الدول الأوروبية خلال الحرب العالمية الثانية قد أعطى العالم مجموعة من القادة العسكريين البارزين الذين يستحقون كل الإهتمام. وهؤلاء القادة هم زملاء ورفاق في الميدان للقائد العسكري غ. ك. جوكوف: مارشال الاتحاد السوفييتي آ. م. فاسيليفسكي د. ي. س. كونيف وك. ك. روكوسوفسكي ومارشال بريطانيا العظمى مونتغمري وجنرال الجيش في الولايات المتحدة الأمريكية دوايت أيزنهاور. أما من بين القيادة العسكرية لألمانيا النازية فمن الممكن أن نذكر الجنرال ـــ المارشال فريد ريخ باولوس. إن جَميع هؤلاء القادة العسكريين قد ساهموا بالقدر اللازم في تطوير التكتيك وفن العمليات والاستراتيجية واحتلوا مكانتهم في التاريخ العسكري.

وباعتبار أن الثقل الأساسي خلال الحرب العالمية الثانية قد وقع على كاهل الاتحاد السوفييتي لذلك فقد ترعرع ضمن صفوف القوات المسلحة السوفييتية كوكبة من المارشالات والجنرالات الذين يستحقون المجد والتقدير لقاء قيادتهم الماهرة للقوات وتحقيق النصر في الحرب.

يؤكد هذا ما كتبه وزير الدعاية في ألمانيا النازية غوبلز في مذكراته اليومية حيث كان يشغل في شهر آذار /مارس /من عام ١٩٤٥ منصب مفوّض دفاع برلين. وقد كتب في مذكراته بتاريخ ١٨ آذار ما يلي:

«لقد قدمت لي الأركان العامة ملفاً يتضمن سيرة حياة الجنرالات والمارشالات السوفييت وصورهم. إن جميع هؤلاء المارشالات والجنرالات هم تقريباً دون الـ ٥٠ سنة من

العمر، وعلى أكتافهم نشاط ثوري ــ سياسي حافل. إنهم رجال من البلاشفة مؤمنون بعقيدتهم، رجال نشيطون للغاية، خرجوا من صفوف الشعب وجذوره... وبكلمة مختصرة، علينا أن نستنتج استنتاجاً غير مستحب وهو أن القيادة العسكرية السوفييتية تتكون من الطبقات الجيدة بالمقارنة مع القيادة الألمانية...».

من خلال مذكرات غوبلز نجد صدى لشعور الاحترام الذي يكنه لقوة الشعب السوفييتي المنتصر واللعنات على الجنرالات الألمان الذين أطلق عليهم مع هتلر اسم «الخائنون».

بالإضافة إلى ذلك فقد كتب وقيل الكثير الكثير في الغرب، بما في ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، عن شجاعة الشعب السوفييتي وبطولة قواته المسلحة الباسلة التي لا مثيل لها خلال الحرب العالمية الثانية.

لا بدّ من الإشارة هنا إلى أقوال ف. روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية والقائد العام الأعلى لقواتها المسلحة، حيث أن التقدير العالي الذي عبر عنه القادة الأمريكيون لخدمات الشعب السوفييتي وقواته المسلحة قد كان، بالطبع، صادقاً جداً. ولتأكيد ذلك نذكر مثلاً الرسائل السرية لروزفلت وتشرشل التي نشرت عام ١٩٧٥ (مجلدين) والوثائق السرية لأيزنهاور التي نشرت عام ١٩٧٠ في خمسة مجلدات.

ولقد أعجب العديد من القادة العسكريين والمؤرخين الأمريكيين بمنجزات الفن العسكري السوفييتي في بداية الحرب العالمية الثانية، وقدروا ذلك على الشكل التالي: حيث قال أيزنهاور: «أظهر السوفييت إرادة صلبة وفناً عسكرياً عالياً بصدهم ضربة القوات الألمانية الضخمة». وقد أشار أحد القادة العسكريين الأمريكيين الجنرال د. ماك آرثر إلى الهجوم العام المعاكس الذي بدأت به القوات السوفييتية في شهر كانون الأول / ديسمبر / من عام ١٩٤١ قرب موسكو، علماً بأن القوات الألمانية كانت متفوقة بالقوى والوسائط (باستثناء الطيران)، حيث ساهم غ. ك. جوكوف في التحضير لهذا الهجوم. وقال د. ماك آرثر في هذا الخصوص:

«لم أرَ في حياتي تنظيماً رائعاً للهجوم العام المعاكس مثل الذي بدأ قرب موسكو».

تجدر الإشارة أيضاً إلى أقوال الجنرال د. ماك آرثر بخصوص مرحلة معركة ستالينغراد حيث قال: «إن الباحثين سيهتمون في المستقبل بدراسة الأساليب التي مكنت السوفييت من إيقاف هجوم الألمان القوي على ستالينغراد».

وكما هو معلوم، يعود للقوات المسلحة السوفييتية الدور الحاسم في إكمال سحق ألمانيا الهتلرية، وقد كان القائد العام الأعلى لقوات الحلفاء في أوروبا الشرقية د. أيزنهاور موافقاً بالكامل على هذا الاستنتاج عندما كتب يقول:

«لم تكن جهودنا في المعارك الأخيرة متفقة تماماً مع الإمكانات المتوفرة. وقد كانت هناك أسباب منعت القوات الإنكليزية ـــ الأمريكية من خوض الأعمال الواسعة والفعالة. ويعود للروس الفضل في إجبار النازيين على الاستسلام».

الجدير بالذكر هنا أنه خلال المرحلة الممتدة من النصف الثاني لعام ١٩٤٥ ولغاية عام ١٩٦١ كانت تعمل في فرع التاريخ العسكري التابع لأركان القوات المسلحة الأمريكية في أوروبا مجموعة كبيرة من الجنرالات والضباط الهتلريين الذين قاموا بإعداد أكثر من ٢٤٠٠ مذكرة، ومن ثم بدأت تطبع تباعاً كتب المارشالات والجنرالات السابقين التابعين للرايخ الثالث المنهار. وإضافة إلى ذلك بدأت تنشر بشكل دوري ومطول مذكرات الحلفاء السابقين للاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية مثل د. تشرشل ود. برادلي وب. مونتغمري ود. أيزنهاور وغيرهم.

لقد عرف غ. ك. جوكوف جيداً مضمون هذه المطبوعات ولم يكن من الممكن أن يخفى عليه التمجيد الذي يبهر الأعين بسياسة الدول الغربية والفن العسكري لقواتها المسلحة، بما في ذلك «الفيرماخت» الهتلري الذي هزم شر هزيمة.

وفي عام ١٩٥٨ نضجت لدى غ. ك. جوكوف فكرة تأليف كتاب بهذا الخصوص بعنوان «مذكرات وأفكار»، حيث عمل على إعداده حتى عام ١٩٦٦ ثم تمت طباعته في عام ١٩٦٩ من قبل وكالة الصحافة والأنباء للطباعة والنشر. وفي الوقت نفسه كانت تجري طباعة هذا الكتاب في عدد من دول العالم الأخرى. ولقد نجح هذا الكتاب نجاحاً فاق كل التوقعات واحتل مكاناً رائداً بين كتب المذكرات العسكرية. فسر مارشال الاتحاد السوفييتي آ. م. فاسيليفسكي سبب نجاح هذا الكتاب كما يلي: «إن سبب نجاح هذا الكتاب هو قبل كل شيء وطنيته العميقة واتساع نطاقه وواقعيته في سرد الحوادث التاريخية التي كان غ. ك. جوكوف ـــ القائد العسكري السوفييتي البارز ـــ شاهداً حياً عليها ومشاركاً فيها. لقد شرح الحقائق التاريخية الضخمة بشكل ممتع وعلى نحو فريد من نوعه، واستطاع سرد أهم أحداث التاريخ العسكري للدولة السوفييتية بصورة مقنعة». حقاً لقد كان هذا النجاح ثمرة عمل مضنٍ بذله غ. ك. جوكوف طوال سنين عديدة. وينبغي أن نشير هنا إلى الحادثة التالية:

بعد أن درس غ . ك . جوكوف بصورة دقيقة للغاية مذكرات رئيس الأركان العامة الألمانية الجنرال ف . غالدير الذي شغل هذا المنصب بين عامي ١٩٤١ ـــ ١٩٤٢ ، قال عن دفاتر هذا الجنرال السبعة الضخمة مايلي : تعتبر هذه الدفاتر أكثر الوثائق الألمانية جدية وشاهداً واقعياً .

كانت تسيطر على نشاطات جوكوف وأعماله « ضرورة التقدير الموضوعي لقوى وإمكانات العدو وهل يدور الحديث عن التاريخ أو عن اليوم والغد » . قال غ . ك . جوكوف حول هذا الموضوع مايلي :

« يجب في النهاية أن نواجه الحقيقة وألّا نخجل من ذكر الواقع الفعلي . علينا أن نقدر جدارة الجيش الألماني الذي اصطدمنا معه في الأيام الأولى للحرب . فنحن لم نتراجع آلاف الكيلومترات أمام جيش بسيط ، بل أمام واحد من أقوى جيوش العالم . يجب أن نقول صراحة أن الجيش الألماني كان في بداية الحرب أفضل من جيشنا وأحسن إعداداً وتدريباً وتسليحاً وأكثر استعداداً من الناحية المعنوية للحرب . لقد كان لدى الجيش الألماني خبرة في الحرب ، علاوة على أن الحرب التي خاضها كانت ناجحة ، وهذا مايلعب دوراً كبيراً . ويجب أن نعترف أيضاً أن الأركان العامة الألمانية والأركانات الألمانية بشكل عام كانت تعمل بشكل أفضل من أركاننا العامة ومن أركاناتنا بشكل عام ، كما أن القادة الألمان في تلك الفترة كانوا يفكرون بشكل أفضل وأعمق من قادتنا . أما نحن فقد تدربنا خلال الحرب ، وأتقنا التدريب وبدأنا نضرب الألمان . لكن هذه العملية كانت طويلة ، حيث أنها قد بدأت عندما أصبح التفوق واضحاً لصالح الألمان في جميع المجالات .

تعودنا خلال المرحلة الأولى من الحرب على أن نتعرض مراراً لهجوم العدو وعلى وتيرة هذا الهجوم ، كما تعودنا على الإخفاق والهزيمة في بعض محاولاتنا ، غير أننا تعودنا في الوقت نفسه على إيجاد المخرج المناسب من المواقف الصعبة واتخاذ التدابير المضادة . أما الألمان الذين ساروا في بداية الحرب نحو الأمام بشجاعة ومجازفة ووجهوا لنا الضربات المؤلمة وهاجمونا وشقوا صفوفنا فلم يستطيعوا أن يعتادوا في المرحلتين الثانية والثالثة من الحرب على أنهم مضطرون الآن للانتقال إلى الدفاع والتراجع والهزيمة . فإذا تابعنا تاريخ الحرب في المرحلتين الثانية والثالثة منها ، وعلى الرغم من تكرار هذه الحالات ، لم يعتد الألمان بعد على القتال في هذا الموقف الجديد وغير الاعتيادي بالنسبة لهم من حيث الهزيمة والتراجع مما أدى إلى الإخفاق .. » .

إن غ . ك . جوكوف يتمتع بصفة التحليل العميق للأمور ، حيث أنه كان يدرس بشكل دوري جميع الوثائق والمواد المتعلقة بمرحلة الحرب العالمية الثانية .

وعلى الرغم من ضخامة العمليات الحربية التالية من حيث متانة القيادة ودقة التنفيذ كعملية المارشال مونتغمري في عام ١٩٤٢ لسحق تجميع قوات رومل الإيطالية ــ الألمانية قرب العلمين في شمال إفريقيا وعملية الجنرال أيزنهاور في إنزال قوات الحلفاء في النورماندي عام ١٩٤٤ وافتتاح الجبهة الثانية في أوروبا الغربية ، إلا أن هذه العمليات لا يمكن أن تقارن ولا بأي حال من الأحوال مع العمليات العديدة من حيث المضمون وفن التنفيذ والنتائج النهائية ، التي كان لجوكوف علاقة شخصية ومباشرة بها .

كتب أحد قادة الحرب العالمية الثانية زميل غ . ك . جوكوف مارشال الاتحاد السوفييتي آ . م . فاسيليفسكي في مذكراته ما يلي :

« لقد ظهرت قوة فن وإرادة غ . ك . جوكوف كقائد عسكري بشكل واضح في المواقع الضخمة التي جرت في أعوام ١٩٤٣ ــ ١٩٤٥ . وتيسر لي أن أقضي بعض الوقت معه ، حيث كنا نفكر بالتدابير المتعلقة بتنظيم صد العدو وتنفيذ مهام لجنة الدفاع الحكومية والقيادة العليا ومساعدة قيادة الجبهات على حل المهام القتالية بنجاح . وقد أعجبت بنشاطه الدائم واتساع وعمق تفكيره الاستراتيجي . وكانت الصفة المميزة له دائماً هي سعيه لتدريب القادة والقوات على فن إحراز النصر على العدو بأقل قدر ممكن من الخسائر وفي أقصر وقت . وينبغي علينا هنا الإشارة أيضاً إلى عبقريته الرائعة في التنظيم ؛ فبعد أن يتخذ القرار كان يقوم فوراً بتعبئة جميع الجهود من أجل تنفيذه عملياً » .

وليس من قبيل الصدفة أن يمنح هذان القائدان العسكريان المجيدان مارشال الاتحاد السوفييتي غ . ك . جوكوف وآ . م . فاسيليفسكي وسام « النصر » وقد منح هذا الوسام أيضاً لكل من د . أيزنهاور وروب مونتغمري بتاريخ ٥ حزيران / يونيو / ١٩٤٥ . وبالإضافة إلى ذلك منح غ . ك . جوكوف أيضاً وسام الولايات المتحدة الأمريكية « جوقة الشرف » ووسامي بريطانيا العظمى « باني » من الدرجة الأولى وصليب الفروسية الكبير .

ومن خلال دراسة مجموعة القادة العسكريين في الحرب العالمية الثانية يمكننا الاستنتاج أن كل واحد منهم كان يتمتع بصفات القائد العسكري الخاصة به فقط وكانت لديه « أسرار » القائد العسكري الفردية و « النمط » الشخصي وطريقته الخاصة في تحقيق المبادئ الأساسية للفن العسكري في الحياة أثناء التحضير للعمليات وقيادة القوات خلال سير الأعمال القتالية . ولهذا السبب فإن الدراسة الشاملة والعميقة للصفات القيادية والإمكانات التنظيمية للقادة العسكريين البارزين في الحرب العالمية الثانية هي أحد الأشكال الهامة لتطوير وتحسين المهارة المهنية للكوادر العسكرية ، لأن من يسير على خطا العظماء لا يخطئ ..

وطالما نحن في مجال المقارنة .. بين القادة الكبار في الحرب العالمية الثانية .. فلا بدّ من القول أنه قد تيسرت لي قراءة مذكرات معظمهم ... بالإضافة إلى تاريخ الحرب من المصادر السوفييتية والغربية ، ولذلك باستطاعتي الحكم والتمييز على أعمال كل منهم من موقف الحياد التام .. ذلك أن معظمهم الآن إن لم أقل جميعهم رحل إلى الأبدية .. ومن هذا المنطلق ليس من مصلحتي أن أحابي واحداً على حساب الآخرين ..

وبنظرة فاحصة إلى أعمال وسلوك من ذكرت تبين لي أن المارشال جوكوف يأتي في المقدمة . ذلك أن الإمكانات التي وضعت تحت تصرفه (من قوى بشرية وأعتدة قتالية ووسائط تأمين) تمكن من استخدامها على نهج مثالي لا يضاهي .. وكان بحق أحد أعلام الاستراتيجية العسكرية في القرن العشرين .

وباختصار يمكنني أن أضيف إلى ما ذكرت أهم المزايا والمناقب التي كان يتمتع بها القائد المبدع جوكوف :

أ ـــ الشمولية :

وأعني بها سعة الأفق العسكري فهو على سبيل المثال عندما كان يفكر في موقعة موسكو لم يكن ينظر إلى هذه الموقعة بشكل مجرد ومبسط وإنما كان يضع في اعتباره كل مجريات الصراع المسلح الدائر على باقي الجبهات . أي لم يكن جوكوف أسير الموقف المحلي وإنما كان نظره يمتد ليشمل كافة المواقف على شكل بانورامي .

ب ـــ الجرأة :

لعل اتخاذ القرار من أصعب المواقف التي يمر بها القائد في عمله العسكري وبخاصة أثناء خوض القتال . وللتاريخ أقول إن قادة كثيرين وموهوبين كانت لديهم إمكانية اتخاذ القرار في الوقت المناسب .

ولكن جوكوف كان إضافة إلى ذلك صاحب القرار الجريء بآن معاً ... فعندما يوازن في فكره كل جوانب الموقف يكون القرار حاسماً كحد السيف دون أن يعبأ بالنتائج مهما بلغت الخسائر ومهما كانت التضحيات .

ويمكنني أن أقدم مثالاً ساطعاً على ذلك : فعندما عينه المارشال جوزيف ستالين قائداً لجبهة لينينغراد في أيلول / سبتمبر / ١٩٤١ أمر بتغيير كافة أوامر الجبهة ومنها أمر ستالين ذاته الذي كان يقضي بتدمير الأسطول الروسي في بحر البلطيق حتى لا يستفيد الأعداء الألمان

منه ، فقد رفض جوكوف هذا الأمر وقال : يجب أن يشارك الأسطول السوفييتي في العملية الدفاعية ، وبذلك تم إنقاذ أسطول بحر البلطيق من التدمير .

ج ــ الإحاطة بعوامل تقدير الموقف كافة :

يحتل تقدير الموقف للصديق والعدو أهمية بارزة في العلم العسكري وفي هذا المجال كان المارشال جوكوف يعطي هذه الناحية ما تستحق من إهتمام ، فقد كان يدخل في حسابه كافة العوامل العسكرية والجيوبوليتكية والإقتصادية والمعنوية وحالة الأرض والطقس والبيئة وعواطف السكان المحليين ... إلخ . لذلك كانت قراراته صائبة لأنها مبنية على أسس صحيحة .

د ــ القدرة على التنبؤ :

استشفاف آفاق المستقبل أو ما اصطلح على تسميته في الغرب الحاسة السادسة ، صفة مميزة اختص بها الله الأنبياء والمرسلين ولكن جوكوف كان يتمتع بهذه الموهبة دون أن يصعد إلى السماء .

وإذا استعرضنا كافة الملاحم والمواقع والمعارك التي خاضها في حياته لوجدنا أنه كان يقرأ أفكار العدو وكأنها أمامه في كتاب مفتوح . وكان دائماً يتنبأ بأعمال العدو المستقبلية ويتخذ الإجراءات المناسبة لإحباطها في الوقت المناسب .

هـ ــ التفاضل والتكامل :

هذه الميزة أيضاً هي أحد المناقب البارزة للمارشال جوكوف ، فقد كان يحيط بتفاصيل الأمور حتى الصغيرة منها ، وكانت لديه بنفس الوقت المقدرة على إعادة تركيبها وتجميعها من جديد .. أي القدرة على التحليل .. ثم القدرة على الخلق والإبداع أي فن « التشكيل » .

٤ ــ جوكوف وستالين مرة أخرى

في الحقيقة ، لا يمكن أن يكتمل الحديث عن جوكوف دون التطرق إلى الحديث عن القيادة العامة للقوات المسلحة بعامة ، وعن ستالين بخاصة طوال فترة الحرب العالمية الثانية .

لقد كتب الكثير حول هذا الموضوع الذي أثار ، ولا يزال يثير ، جدلاً كبيراً داخل الاتحاد السوفييتي وخارجه وأنا لا أريد أن أتخذ موقفاً أو أصدر أحكاماً في هذا المجال الوعر ،

ولكن لا بدّ من الاعتراف بأن مركزية ستالين الشديدة كانت لها آثار سيئة على المرحلة الأولى من الحرب، وعلى حرية الفكر المبدع الخلّاق للمارشال جوكوف وغيره من كبار القادة السوفييت الخالدين، الذين استطاعوا تحقيق النصر رغم كل شيء، بفضل عبقريتهم الفذة، ووطنيتهم الخالصة وإرادتهم الجبارة، وإيمانهم العميق، وكذلك بفضل حيوية الشعب السوفييتي ووعيه وتضحياته وتصميمه على تحرير أرضه.

تشير عِبَر التاريخ العسكري إلى أن تفادي أكبر قدر من الأخطاء لا يمكن أن يتحقق إلا بوجود الكوادر القيادية ذات المستوى الرفيع، والمعرفة العميقة الشاملة للخبرات القتالية وطرائق أعمال العدو. وهذه الكوادر بالذات، كانت تنقص القوات السوفييتية في المرحلة الأولى ١٩٣٧ و ١٩٣٨، «حرم البلاد من أربعين ألف قائد وموجه سياسي ومهندس عسكري واختصاصي» كما يقول الدكتور في العلوم التاريخية، نيكولاي غريغور يفيتش بافلينكو... وفي هذا الصدد يقول المارشال أ. م. فاسيليفسكي «لولا ما حدث في العام ١٩٣٧، لما كانت هناك حرب ١٩٤١، إذ أن تقويم هتلر لما حدث في صفوف الجيش السوفييتي من تدمير للكوادر العسكرية، كان له دور كبير في قرار شن الحرب ضدنا في عام ١٩٤١... فقد كان هناك عدد من الفرق التي يقودها ضباط برتبة نقيب، وذلك بسبب اعتقال الضباط الآخرين ذوي الرتب الأعلى».

وهنا يؤكد الكثيرون من المؤرخين والقادة السوفييت أن الأخطاء الكبرى ذات الطابع التراجيدي، حدثت في الحلقة الاستراتيجية لقيادة القوات، وأن العديد منها ارتكبها ستالين شخصياً، الذي كانت له قبل الحرب وفي بدايتها حسب تقديرات جوكوف ــ تصورات غامضة حول العمل العسكري. زد على ذلك أنه لم يأخذ إلا قليلاً بآراء الاختصاصيين العسكريين طيلة أكثر من عام ونصف ابتداءً من ربيع عام ١٩٤١. ولا شك في أن أحداث خريف عام ١٩٤٢ القاسية «هي وحدها التي حطت من كبريائه كقائد عام»، كما يقول بافلينكو.

ها هو جوكوف يصف نشاط هيئة القيادة العامة العليا وتعاونها مع مجلس الدفاع عن الدولة، في أثناء لقائه مع المؤرخين العسكريين في خريف عام ١٩٦٦، وفي دار تحرير «مجلة التاريخ العسكري» فيقول:

«كان من الصعب معرفة أين تنتهي لجنة الدفاع عن الدولة وأين تبدأ هيئة القيادة العليا، ذلك لأن ستالين كان رئيساً للجنة الدفاع عن الدولة، ويقود في الوقت نفسه هيئة القيادة العليا. والذي كان يحدث أحياناً، هو أنك كنت تصل إلى مكتب ستالين ولا تعرف

إلى أين وصلت : إلى جلسة لمجلس الدفاع عن الدولة أم إلى اجتماع للهيئة العليا ، ولا تسمع سوى السباب والتقريع هنا وهناك . من الناحية العملية كان ستالين هو الهيئة العامة العليا ولجنة الدفاع عن الدولة ... لقد قاد وتزعم الجميع وكل شيء ، وكانت كلمته هي الكلمة الفصل ، ولا تقبل أي شكوى أو اعتراض ... » .

كذلك قوَّم المارشال أ . م . فاسيليفسكي هيئة القيادة العليا على النحو التالي :

« خلال أكثر من ثلاثين شهراً قضيتها في العمل كرئيس للأركان العامة ، وكعضو فيما بعد في هيئة القيادة العليا ، لم تجتمع هذه الهيئة بكامل نصابها المقرر ولو مرة واحدة » . كما يؤكد فاسيليفسكي أن ستالين كان لا يعلق الأهمية الكافية على عضوية هذا أو ذاك من القادة العسكريين في الهيئة العامة .

من المعلوم أن ستالين تولى ، خلال فترة الحرب الوطنية العظمى ، إدارة عدد كبير من أهم المناصب الحزبية والحكومية : فقد كان الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي لعموم روسيا ، ورئيساً لمجلس المفوضين الشعبيين (مجلس الوزراء) والقائد الأعلى للقوات المسلحة ، والمفوض الشعبي للدفاع (وزير الدفاع) للاتحاد السوفييتي . وإضافة إلى ذلك ، أُنيطت به مهام ووظائف قيادية عليا أخرى ، مثل : قيادة لجنة النقل ، والإشراف اليومي تقريباً على أعمال الوزراء (مفوضي الشعب) المسؤولين عن إنتاج الأسلحة والذخائر ، والعمل مع اللجان والمصممين في معالجة مسائل تطوير العتاد الحربي ... إلخ . ومن الطبيعي أن مثل هذا العبء الزائد على كاهل القائد الأعلى ، لابد وأن ينعكس سلبياً على نوعية نشاطه العسكري ، ويعيقه عن الإلمام بجوهر المشاكل وحقائق الأمور .

عند تقويم القيادة الاستراتيجية للقوات في المرحلة الأولى من الحرب ، لا بد من العودة إلى تلك الحقائق والقرائن الخطيرة المختلفة ، التي لا يجوز إهمالها أو التغاضي عنها بتلك البساطة ... فالمحاولات المتكررة التي كان يقوم بها الطيران الألماني مثلاً ، لخرق المجال الجوي السوفييتي ، وإرسال مجموعات الاستطلاع إلى عمق الأراضي السوفييتية ، وقيام السلطات الألمانية بتجهيز البولونيين بأعداد كبيرة من المناطق الحدودية ، ونقل وسائط العبور إلى المناطق القريبة من ضفاف الأنهار ، وتفريغ الذخائر على الأرض مباشرة ، ونزع حواجز الأسلاك الشائكة ، كل ذلك من القرائن التي تعد دوماً إشارة تنذر بهجوم العدو الوشيك ، بعد أسابيع أو أيام أو حتى ساعات ...

رغم كل هذا ، وعلى ضوء التقييم الخاطئ لنوايا القيادة النازية ، منع ستالين القيادة العسكرية السوفييتية من إتخاذ الإجراءات الدفاعية المطلوبة ، وإعادة تجميع القوات في المناطق

الحدودية ، ووضعها في حال الجاهزية القتالية العالية ، وألقيت على بيريا وجهازه مهمة تنفيذ توجيهات ستالين بكل حزم وصرامة .

وعندما كان المارشال شابوشنيكوف لا يزال رئيساً للأركان العامة ، استخلص ، على ضوء تحليل العوامل التاريخية والجغرافية والعملياتية والاستراتيجية ، أن القيادة الألمانية ستوجه ضربتها الرئيسية ، في حال نشوب الحرب ، على الإتجاه : سمولنسك ـــ موسكو . غير أن ستالين لم يأبه لهذا الإستنتاج ، وقال بأن ألمانيا ستبحث عن الخبز عندما تخوض الحرب ، ولذلك فإن ضربتها الرئيسية ستوجه نحو أوكرانيا .

إن العديد من المشاكل الهامة والقضايا الأساسية ، بما في ذلك الطرائق الجديدة التي تستخدمها القوات الألمانية في خوض الأعمال القتالية ، أغفلت أو عولجت بصورة سطحية ، نتيجة التغيرات السريعة بين الكوادر وعلى أعلى المستويات . وهنا يكفي القول أن منصب رئيس الأركان العامة شهد ثلاثة تغيرات خلال عام واحد فقط ، من صيف ١٩٤٠ حتى صيف ١٩٤١ : ب . م . شابوشنيكوف استبدل ب . ك . أ . ميريتسكوف ، ثم تسلم هذا المنصب غ . ك . جوكوف ، الذي حلَّ محله من جديد شابوشنيكوف ...

من الجدير بالذكر هنا أن جوكوف أشار إلى أن القوة الضاربة للجيش الألماني كانت مفاجئة ، حيث حققت على الاتجاهات الحاسمة تفوقاً بمقدار ٦ ـــ ٨ أضعاف . لذلك يردف جوكوف قائلاً : « وهذا هو العامل الرئيسي الذي كان السبب في إلحاق الخسائر بنا خلال الفترة الأولى من الحرب » .

يجمع المؤرخون على أن الأخطاء التي ارتكبت على المستوى الاستراتيجي العسكري هي التي أدت إلى إلحاق الهزائم الكبرى بالجيش الأحمر في صيف عام ١٩٤١ . ومن المناسب هنا أن نشير إلى ما قاله جوكوف بهذا الصدد :

« لو أن قوات المناطق العسكرية الحدودية وضعت مسبقاً في حالة الجاهزية القتالية العالية ، لكان في مقدورنا تكبيد العدو أفدح الخسائر خلال الأيام الأولى للحرب ، وإعاقة تقدمه لمدة أطول على الخطوط الدفاعية الغربية ولكان من شأن هذا كله أن يسمح بزج القطعات القادمة من المناطق العسكرية الداخلية بشكل منتظم » .

إن هذا القول يعني ، بكلمات أخرى ، إحباط خطة العدو المسماة بـ« الحرب الخاطفة » ، ليس على خطوط لينينغراد وموسكو وروستوف ، بل على الخطوط الواقعة غربها بمسافات بعيدة .

نتيجة الصراع القاسي والمرير ، نجحت القوات السوفييتية في إيقاف تقدم العدو على امتداد الجبهة وإلحاق بعض الهزائم به في نهاية عام ١٩٤١ . غير أن النجاحات الكبرى تحققت ، كما هو معلوم ، في شتاء ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ في ضواحي موسكو وعلى الاتجاه الغربي ، حيث تكبدت مجموعة جيوش « الوسط » هزيمة نكراء . هنا تقرر الاستفادة من هذه النجاحات لتطوير الهجوم العام . وقد رأى ستالين أن العدو فقد صوابه بعد ملحمة موسكو ، وأن « اللحظة المواتية جداً » قد حانت للقيام بمثل هذا الهجوم . وفي الخامس من كانون الثاني / يناير / عام ١٩٤٢ ، جرى بحث الخطة في مقر هيئة القيادة العليا ، والامتناع عن الأعمال الهجومية على الاتجاهات الأخرى . ويستفاد من أقوال جوكوف أيضاً أن رئيس لجنة تخطيط الدولة ن . أ . فوزنيسينسكي ، الذي شارك في الجلسة ، عارض فكرة الهجوم العام ، وبرر معارضته هذه بالنقص الشديد في الوسائط المادية ، وعدم إمكانية تأمين الجبهات بما يلزمها منها في وقت واحد .

إلّا أن ستالين أصرّ على فكرة الهجوم العام ، الذي لم يحقق نتائج تذكر ويقول جوكوف في حديثه أمام المؤرخين العسكريين عام ١٩٦٦ :

« طلب منا ستالين أن نهاجم ، وقال لنا : إذا لم تحصلوا على نتيجة اليوم ، فإنكم ستحصلون عليها غداً ، أو على الأقل تتوصلون إلى تثبيت العدو ، وفي الوقت نفسه تتحقق النتائج الإيجابية على القطاعات الأخرى . إنها تصورات أطفال طبعاً ... لقد أسفر ذلك عن خسائر وضحايا كثيرة ، واستهلاك المزيد من الوسائط المادية دون جدوى ،، ودون الحصول على أية نتيجة استراتيجية عامة . ولو أن ما كان لدينا من القوى والوسائط استخدم آنذاك على الاتجاه الغربي ، لكانت النتيجة مختلفة تماماً » .

وفي شهر آذار عام ١٩٤٢ ، يذكر ن . بافلينكو أن اجتماعاً جديداً عقد بحضور ستالين ، بحثت خلاله طبيعة الأعمال المحتملة للجيش الأحمر خلال مرحلة الصيف القادم . ونظراً لتفوق العدو ، وغياب « الجبهة الثانية » اقترح رئيس الأركان العامة شابوشنيكوف في مذكرته التي قدمها ، الاكتفاء بالدفاع الإيجابي خلال الفترة القادمة ، وحشد الاحتياطات الاستراتيجية الأساسية على الاتجاه الأوسط ، وجزئياً في منطقة فارونيج ، حيث يمكن أن تدور الأحداث الهامة ــ حسب رأي الأركان العامة ــ ولكن دون زج هذه الاحتياطات الآن . وعند دراسة خطة قيادة الاتجاه الجنوبي ــ الغربي المتعلقة بتنفيذ عملية خاركوف الهجومية ، حاول المارشال شابوشنيكوف لفت الانتباه إلى صعوبة تنظيم هذ العملية . وبناء على شهادة جوكوف ، قاطع ستالين رئيس الأركان قائلاً : « هل نظل قابعين في الدفاع مكتوفي

الأيدي إلى أن يوجه الألمان ضربتهم أولاً؟ يجب علينا نحن أن نوجه عدداً من الضربات الوقائية على جبهة عريضة، ونختبر بذلك جاهزية العدو». وانتهى الاجتماع بتوجيهات القائد الأعلى، القاضية بالتحضير لعمليات محددة وتنفيذها في أقرب وقت ممكن في شبه جزيرة القرم، وباتجاه خاركوف، وفي عدد من المناطق الأخرى.

وبناء على هذه التوجيهات، جرى تنظيم وإعداد مجموعة من العمليات الهجومية الجزئية (المحدودة) على جبهة عريضة، ممتدة من بحر بارينتس إلى شبه جزيرة القرم. إلا أن معظم هذه العمليات لم تحصل على التأمين الكافي من الناحية المادية، ولم يحقق الأهداف المرجوة. زد على ذلك «أن العمليتين على اتجاه خاركوف وفي شبه جزيرة القرم انتهتا بالكوارث»، كما يؤكد ن. بافلينكو، «الأمر الذي شكل بداية لهزيمة جديدة. وبنتيجة هذه الإخفاقات، ومن ثم هزيمة قواتنا في ضواحي فارونيج، استعاد العدو زمام المبادرة الاستراتيجية وشن هجوماً سريعاً باتجاه الفولغا والقفقاس. وكان على القوات السوفييتية إزاء ذلك، بذل أقصى الجهود لإيقاف الهجوم المعادي على مشارف سلسلة القفقاس الكبرى، وعلى ضفاف الفولغا والدون».

لقد وجدت من المناسب تقديم هذه اللمحة الموجزة عن أسلوب عمل القيادة العامة بشكلٍ عام، والقائد العام بشكلٍ خاص، حتى نأخذ فكرة عن الوسط الذي تعامل معه جوكوف في بداية الحرب، وعن الصعوبات التي واجهها وتغلب عليها بشخصيته القوية وتفانيه المنقطع النظير في خدمة بلده وشعبه.

لا بدّ من القول هنا بأنه في خريف عام ١٩٤٢، ظهرت أولى القرائن الدالة على أن نمط وطرائق القيادة الاستراتيجية قد بدأت تتغير: حيث عين ستالين المارشال جوكوف نائباً للقائد العام الأعلى، الأمر الذي أثر إيجابياً على طرائق تحضير وإعداد القرار، بفضل جرأة جوكوف في عرض مقترحاته، وحرصه الدائم على كرامته الشخصية وتعزيز مكانة الأركان العامة. وقد بدا ذلك واضحاً أثناء التحضير والإعداد للهجوم المعاكس في ضواحي ستالينغراد في خريف العام ١٩٤٢ كما رأينا آنفاً. اعتباراً من هذا التاريخ، أصبح ستالين يستمع باهتمام كبير إلى آراء الخبراء العسكريين وإلى أركانه ومعاونيه. ولا بدّ من القول أخيراً بأن المؤتمرين العشرين والثاني والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي قد استنكرا عبادة شخصية ستالين، وأتاحا للمؤرخين العسكريين وللقادة الكبار من أمثال جوكوف ورفاقه إمكانيات واسعة لمعالجة ودراسة تاريخ الحرب العالمية الثانية بأسلوب علمي سليم. وهكذا أعد المؤرخون السوفييت دراسات علمية مفصلة وموضوعية وجادة، ومقالات تسلط الضوء

على أهم أحداث الحرب ، بما لا بدّ أن يتخللها من أخطاء ومعوقات ، وأخذت تنشر وثائق ومذكرات الذين شاركوا في الحرب ، فأصبح تاريخ الحرب أكثر موضوعية وتضاءل دور « الفرد » ليفسح المجال بحق أمام دور القادة العظام والجماهير الشعبية والجنود البواسل في تحقيق النصر .

إلا أن المذكرات ، مهما كان صاحبها ، لا يمكن النظر إليها كمصادر إضافية متممة فقط . وهي بطبيعتها لا يمكن أن تكون موضوعية بصورة كاملة ، لأنها عبارة عن آراء ذاتية لمؤلفيها وأصحابها ، حول الأحداث التي شاركوا فيها ، وحول الأشخاص الذين التقوا بهم أو تعاملوا معهم ، وحول أنفسهم ونتائج أعمالهم ونشاطاتهم . لذلك لا بد أن نأخذ في الحسبان ، ليس شخصية صاحب المذكرات فحسب ، بل والظروف التي كتبت فيها هذه المذكرات ، والهدف من نشرها أيضاً . ولعل خير مثال على ذلك تطور واختلاف التصريحات التي أدلى بها جوكوف نفسه حولّ ستالين : ففي عامي ١٩٦٥ ـــ ١٩٦٦ ، ومن خلال اللقاءات التي أجراها جوكوف مع ك . سيمونوف تلخص رأيه حول ستالين على النحو التالي : « أن معارف ستالين العسكرية كانت غير كافية ، ليس في بداية الحرب فحسب ، بل وحتى نهايتها . إلا أنه في معظم الحالات كان لا بد من الإقرار برجاحة عقله وفكره السليم وفهمه للموقف . لقد أصدر ستالين الأوامر ، واتخذ المواقف المتشددة ، بصرف النظر عن مدى تأثيرها السيء والضار على القضية . غير أن غالبية أوامره وتوجيهاته كانت صحيحة وعادلة » .

وفي مناسبة أخرى نشر عنه قوله : « في المسائل الاستراتيجية ، كان ستالين ضليعاً بشكل كاف منذ البداية الأولى للحرب ، لأن الاستراتيجية كانت قريبة من مجال نشاطه المعتاد ، ألا وهو السياسة . وفي مسائل فن العمليات ، كان سيئاً في مطلع الحرب ، غير أنني بدأت أشعر بأنه أخذ يتفهم المسائل العملياتية في المرحلة الأخيرة من ملحمة ستالينغراد . وحتى فترة موقعة كورسك يمكن القول ، بدون مبالغة ، إنه كان يشعر بثقة في النفس أكثر مما كان عليه في الماضي . أما في مسائل التكتيك ، فيمكن القول أنه لم يفقه شيئاً منها حتى آخر يوم في الحرب » .

إن هذا النوع من المحاكمات التي أجراها جوكوف أخذت شكلها النهائي بعد إخراجها بدقة فأصبحت : « لقد درست دراسة وافية شخصية ستالين كقائد عسكري ، نظراً لأنني خضت الحرب كلها معه جنباً إلى جنب . لقد أجاد ستالين مسائل تنظيم عمليات الجبهات ، وعمليات مجموعات الجبهات ، وقادها بكل جودة وإتقان ، وتفهم بصورة جيدة

القضايا الاستراتيجية الكبرى، وهذه القدرات التي تمتع بها ستالين كقائد عام، لم تظهر إلا إبتداءً من ملحمة ستالينغراد. ومما ساعد ستالين في قيادة الصراع المسلح بشكلٍ عام، عقله الطبيعي وبديهته وبصيرته الثاقبة، فقد كان بارعاً في إيجاد الحلقة الرئيسية للموقف الاستراتيجي. ولاشك في أنه كان قائداً عاماً كفوءاً».

وهكذا نلمس بسهولة الفوارق في إعطاء التقييمات، ونستطيع أن نقوّم بجدارة فن «الصياغة والتحرير» على ضوء الظروف السياسية المختلفة.

إن مثل هذه الإختلافات وجدت أيضاً في مذكرات القادة الآخرين، الأمر الذي يؤكد عدم إمكانية الاكتفاء بالمذكرات، ولو كانت لهؤلاء القادة البارزين الإمكانية، لدراسة جميع جوانب الحرب العالمية الثانية. غير أن ذلك لا يعني أنه يمكن تجاهلها... فمن المعروف مثلاً، أن ستالين كان قد منع نسخ محاضر كافة الاجتماعات والجلسات التي عقدتها هيئة القيادة العامة العليا ولجنة الدفاع عن الدولة. لذلك لا يمكن الحصول على المعلومات الضرورية عن هذه الاجتماعات إلا بالعودة إلى هذه المذكرات.

لذلك أيضاً يجد الباحث صعوبة في العثور عل مراجع علمية تتناول بالبحث والدراسة نشاط وأعمال هيئات السلطة العليا في البلاد أثناء الحرب، مثل: اللجنة المركزية للحزب، لجنة الدفاع عن الدولة، هيئة القيادة العليا، الأركان العامة، أو تبحث في عملية إنضاج القرارات واتخاذها من قبل هذه الهيئات، ووضع الخطط الاستراتيجية والعملياتية والإدارية.

وهكذا لا بدّ، عند تقصي تاريخ الحرب العالمية الثانية أو الكتابة عن قادتها الكبار، من العودة ــ إضافة إلى المذكرات المنشورة ــ إلى الرسائل والوثائق والمستندات الشخصية، وشهادات المشاركين في الحرب والشهود العيان على الأحداث، ومواد الأرشيف.

الخاتمــة

يؤكد التاريخ أن القائد العسكري لن يتمكن من إحراز النصر إذا تجاوز إطارات الظروف الموضوعية. بينما قد يظفر بالنصر في إطارات هذه الظروف وعليه أن يحرص على ذلك. ومن الطبيعي أنه لا يجوز تضخيم دوّر الظرف الموضوعي، غير أنه يجب التنويه بأنه عند توفر المقدمات الموضوعية تسلط الأضواء على القيادة الصحيحة القادرة على تنظيم القوى وتوجيهها نحو التنفيذ الناجح للمهام التي تقرر مصير العملية والخطة الاستراتيجية بالكامل.

تترك ذهنية القائد البارز وثقافته وإرادته أثراً عميقاً في تطور فن الحرب. غير أن نشاط القادة العسكريين يتطور تبعاً لدعم الشعب لهم وصفات الجيش المعنوية ـــ القتالية وعوامل أخرى. زد على ذلك أن أفضال القائد العسكري غير منفصلة عن مآثر الجماهير، فالشعب والجيش لا يعطيان القائد الواسطة فحسب بل والإمكانيات المعنوية التي من دونها يصبح عبداً للظروف. كما أن التقرب من الشعب ومن جماهير الجنود يعطي دائماً القوة للقادة العسكريين. والقادة الذين نالوا المجد العالمي كانوا محبوبين لدى جنودهم إذ أنهم عرفوا الطريق إلى قلوب الجنود، وقدروا الإمكانيات المعنوية حق قدرها.

كان مارشال الاتحاد السوفييتي جوكوف بالذات نموذجاً، بكل معنى الكلمة، لمثل ذلك القائد المتوافق مع عصر الجيوش الجماهيرية والنظام الاجتماعي الجديد. وإني واثق تماماً من أن شخصيته تنتمي حقاً إلى المقام الأول بين عدد من قادة العصر الجديد البارزين، وأن إنجازات جوكوف في فن الحرب ليست ثروة للتاريخ فحسب بل أساساً وطيداً لإعداد جيوش العصر الجديد أيضاً.

بعد نصف قرن من إنتهاء الحرب العالمية الثانية نجد تمثال جوكوف ينتصب في الساحة الحمراء في موسكو بالرغم من تغير النظام الشيوعي، فجوكوف هو بطل الشعب الذي تصدى لهتلر، وستظل روسيا تفخر به كما تفخر بالقائد كوتوزوف الذي حرر روسيا من قوات نابليون.

وفي الختام نقول أن الظلم لا يدوم مهما استمر . وهتلر مهما طغا وبغا واحتل من بلاد وسيطر على أراضي روسيا الشاسعة فإنه لم يستطع الوقوف أمام إرادة الشعب الروسي الذي دفعه العدوان إلى رص صفوفه والوقوف في وجه المغتصب وإلحاق الهزيمة الساحقة به . وبعد هذا الدرس القاسي صار يقدم المساعدة لباقي الشعوب للتحرر من نير الفاشية .

أما الصهاينة فبعد أن وقعوا تحت ظلم هتلر وتعرضوا للمذابح المبالغ فيها ، إذا بهم ، على عكس الشعب الروسي ، يهربون من الظلم الفاشي لينتقموا من شعب بريء وهو الشعب الفلسطيني ، الذي قبل في بادئ الأمر هجرة اليهود المظلومين من تحت نير الفاشية . وإذا بهم يردون على كرم الضيافة باستعمال أساليب القمع والظلم نفسها التي تعرضوا لها تحت الحكم الفاشي .

لكن التاريخ لا بدّ وأن يعيد نفسه . وسيأتي يوم يستعيد فيه الشعب الفلسطيني حقوقه . وستتكرر عملية الإنزال في النورمندي على الساحل الفلسطيني وتتكرر عمليات موسكو وستالينغراد وروسيا البيضاء في نابلس والخليل وحيفا ويافا . وسينتحر نتنياهو وباراك وشارون وعصاباتهم كما انتحر هتلر وغيبلز في آخر المطاف . وسيرمي اليهود المتطرفون أنفسهم في مذبحة جديدة شبيهة بالمذبحة التي حلت بهم في ألمانيا وسيعودون إلى أرض الشتات من جديد ... وسيعود الحق إلى نصابه ما دام الشعب العربي متمسكاً بحقوقه ومحتفظاً بكرامته .

كشف بالمراجع الأساسية المستخدمة

١ ــ غورباتشوف م. س. المأثرة الخالدة للشعب السوفييتي. موسكو. النشر السياسي ١٩٨٥.

٢ ــ جوكوف غ. ك. مذكرات وتأملات. م. دار نشر آب م، ١٩٨٥.

٣ ــ روكوسوفسكي ك. ك. الواجب العسكري. م. النشر العسكري ١٩٨٥.

٤ ــ كونيف ي. س. مذكرات قائد الجبهة ١٩٤٣ ــ ١٩٤٤. م. النشر العسكري ١٩٦٥.

٥ ــ كونيف ي. س. خمس وأربعون. م. النشر العسكري ١٩٧٠.

٦ ــ فاسيليفسكي آ. م. قضية الحياة بأكملها. م. النشر العسكري ١٩٨٤.

٧ ــ بغراميان ي. خ. أبناء الشعب العظيم. م. النشر العسكري ١٩٨٥.

٨ ــ بغراميان ي. خ. هكذا بدأت الحرب. م. النشر العسكري ١٩٧٧.

٩ ــ ميريتسكوف ك. آ. في خدمة الشعب. م. النشر العسكري ١٩٧١.

١٠ ــ شتيمنكو س. م. الأركان العامة في سنوات الحرب. م. النشر العسكري ١٩٨٥.

١١ ــ تيليغين ك. ف. في أيام الخطر الكبير. م. النشر العسكري ١٩٨١.

١٢ ــ ليلوشينكو د. د موسكو ــ ستالينغراد ــ برلين ــ براغ. مذكرات قائد. م. «دار العلم ــ ناوكا»، ١٩٧٥.

١٣ ــ رودينكو س. ي. أجنحة النصر. م. النشر العسكري، ١٩٧٦.

١٤ ــ آنتيبنكون آ. على الاتجاه الرئيسي. م. «دار العلم ناوكا»، ١٩٦٧.

١٥ ــ بريبلس ن. ك. إلى الأمام ــ برلين. م. نشر منظمة دوساف (الجمعية المتطوعة للتعاون مع الجيش والطيران والأسطول) ١٩٧٠.

١٦ ــ داشيتشيف ف. ي. إفلاس استراتيجية الفاشية الألمانية م. «دار العلم ــ ناوكا»، ١٩٧٣.

١٧ ــ فوروبيف ف. د. بورتكين ي. ف، شيمانسكي آ. ن. الاقتحام الأخير. م. النشر العسكري ١٩٧٥.

١٨ ــ بلوتنيكوف يو. ف. تحرير روسيا البيضاء م. النشر العسكري ١٩٨٤.

١٩ ــ تاريخ الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥. المجلدات ١ ــ ١٢. م. النشر العسكري ١٩٨٢.

٢٠ ـ الموسوعة العسكرية السوفييتية . م . النشر العسكري ، **١٩٧٦** .
٢١ ـ الحرب الوطنية العظمى ١٩٤١ ـ ١٩٤٥ . الموسوعة م. نشر الموسوعة السوفييتية . **١٩٨٥** .
٢٢ ـ قادة الحرب الوطنية العظمى ورؤساؤها العسكريون . مجموعة حياة المشهورين م. نشر « الحرس الفتي ـ مولدايا غفارديا » ، **١٩٧٩** .
٢٣ ـ الحرب العالمية الثانية . نتائج ودروس . م . النشر العسكري **١٩٨٥** .
٢٤ ـ فن الحرب في الحرب العالمية الثانية وفي فترة ما بعد الحرب . م . نشر أكاديمية الأركان العامة **١٩٨٥** .
٢٥ ـ ملحمة كورسك . م . « دار العلم ـ ناوكا » ، **١٩٧٠** .
٢٦ ـ عملية برلين عام ١٩٤٥ . م . النشر العسكري **١٩٥٠** .
٢٧ ـ عمليات القوات المسلحة السوفييتية في الحرب الوطنية العظمى ١٩٤١ ـ ١٩٤٥ . م . النشر العسكري **١٩٥٨** .
٢٨ ـ نقطة التحول الجذرية في الحرب العالمية الثانية . م . النشر العسكري ، **١٩٨٥** .
٢٩ ـ تحرير روسيا البيضاء ١٩٤٤ . م . « دار العلم ـ ناوكا » ، **١٩٧٤** .
٣٠ ـ الاتحاد السوفييتي في الصراع ضد العدوان الفاشي ، ١٩٣٣ ـ ١٩٤٥ . م . « دار العلم ناوكا » . **١٩٧٦** .
٣١ ـ « الفكر العسكري » ـ مجلات ، العدد رقم ١٩٦٦/١١ ، العدد رقم ١٩٧٠/٥ ، العدد رقم ١٩٧٦/١١ ، العدد رقم ١ والإصدار الخاص/١٩٨٥ ، العدد رقم ١٩٨٦/٦ ... الخ .
٣٢ ـ د. آيزنهاور . حرب صليبية في أوروبا .
٣٣ ـ غ . سولسبيري . الملاحم العظيمة للمارشال جوكوف .
٣٤ ـ م . كايدن . النمور تتكلم .
٣٥ ـ ف . غالدر ـ يوميات الحرب . م . النشر العسكري ، **١٩٧١** .
٣٦ ـ بلايرف وآخرون . ألمانيا في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) . م . النشر العسكري **١٩٧١** .
٣٧ ـ « سري للغاية ! للقيادة العامة فقط » . وثائق ومواد . « دار العلم ـ ناوكا » ، **١٩٦٧** .
٣٨ ـ ياكوفليف ن : جوكوف حياة القادة الأفذاذ ، موسكو **١٩٩٢** .
٣٩ ـ محمود أحمد وفيتش غارييف : أصالة المارشال جوكوف وعظمته في فن القيادة ، موسكو **١٩٩٦** .
٤٠ ـ مجلة التاريخ العسكري لعام ١٩٦١ ـ ١٩٧٦ رقم ٦ .

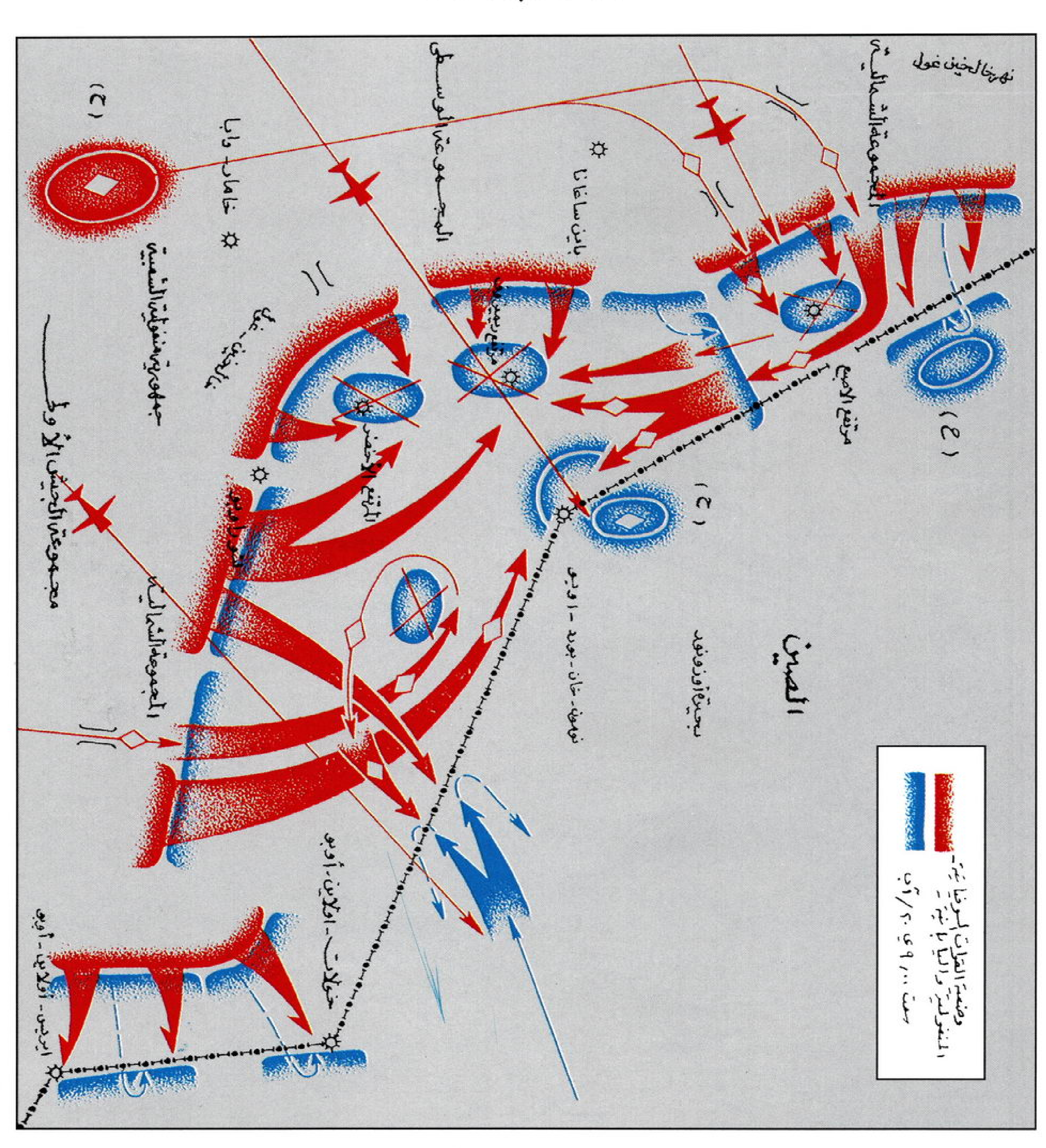
٤١ ــ القرارات المصيرية ، موسكو ١٩٥٨ .
٤٢ ــ النجم الأحمر ١٩٥٧ ــ ٣ تشرين الثاني .
٤٣ ــ المارشال جوكوف ــ موسكو ــ إصدار الآداب السياسية ١٩٨٩ .
٤٤ ــ الجريدة الحرة ١٩٩٤ ، روسيا ، ٣ آذار .
٤٥ ــ المارشال جوكوف كما نفهمه ، موسكو ١٩٨٩ .
٤٦ ــ الأرشيف المركزي لوزارة الدفاع الروسية .
٤٧ ــ من مقتبسات سفيليشين ــ الدرجات الحادة للمصير ــ خاباروفسك ١٩٩٢ .
٤٨ ــ الحرب الوطنية العظمى (١٩٤١ ــ ١٩٤٥) ملامح عسكرية تاريخية ، موسكو ١٩٩٥ .
٤٩ ــ ياكوفليف . الحرب الأخيرة لروسيا القديمة ، موسكو ١٩٩٤ . وكتاب جوكوف ١٩٩٢ .
٥٠ ــ بيزيمينسكي ل . آ . التغلب على الطيفون ، موسكو ١٩٧٨ .
٥١ ــ راينهارت ك . الانقلاب على مشارف موسكو . مترجم إلى الروسية من الألمانية ، موسكو ١٩٨٠ .
٥٢ ــ ملحمة ستالينغراد ، موسكو ١٩٦٨ .
٥٣ ــ ميلينتين ف . موقعات الدبابات لأعوام ٣٩ ــ ١٩٤٥ ، موسكو ١٩٥٧ .
٥٤ ــ تيبيلسكيرخ ك . تاريخ الحرب العالمية الثانية ، موسكو ١٩٥٦ .
٥٥ ــ تاريخ الدبلوماسية ، موسكو ١٩٧٥ .
٥٦ ــ غودريان هـ . مذكرات جندي . هيلبيرغ ١٩٥١ .
٥٧ ــ موللر هيلليبراند . القوات المسلحة ١٩٣٣ ــ ١٩٤٥ ، فرانكفورت ١٩٦٩ .
٥٨ ــ الصناعة في ألمانيا خلال فترة ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ ، موسكو ١٩٥٦ .
٥٩ ــ آدم فيلهيلم . القرار الصعب ، موسكو ١٩٦٧ .
٦٠ ــ ١٤١٨ يوماً من الحرب ، موسكو ١٩٩٠ .
٦١ ــ ونستون تشرشل . الحرب العالمية الثانية ١٩٥٠ .
٦٢ ــ أهم القرارات . مترجم من الإنكليزية إلى الروسية ، موسكو ١٩٦٤ .
٦٣ ــ ايرمان ج . الاستراتيجية الكبرى ، موسكو ١٩٥٨ .
٦٤ ــ غوركوف يو . آ . الكريملين هيئة الأركان العامة ، موسكو ١٩٩٥ .
٦٥ ــ كاربوف ف . المارشال جوكوف ، موسكو ١٩٩٤ .
٦٦ ــ G.Kahn في الحرب النووية الحرارية ، برينستون ١٩٦٠ .
٦٧ ــ غولدووتر ب . ما المانع من النصر ؟ نيويورك ١٩٦٠ .
٦٨ ــ القادة العظام ، الجريدة الروائية ، موسكو ١٩٩٥ .

ملحق المخططات والخرائط



سحق الغزاة اليابانيين
عند نهر خالخين غول

٢٠ - ٣١ آب ١٩٣٩

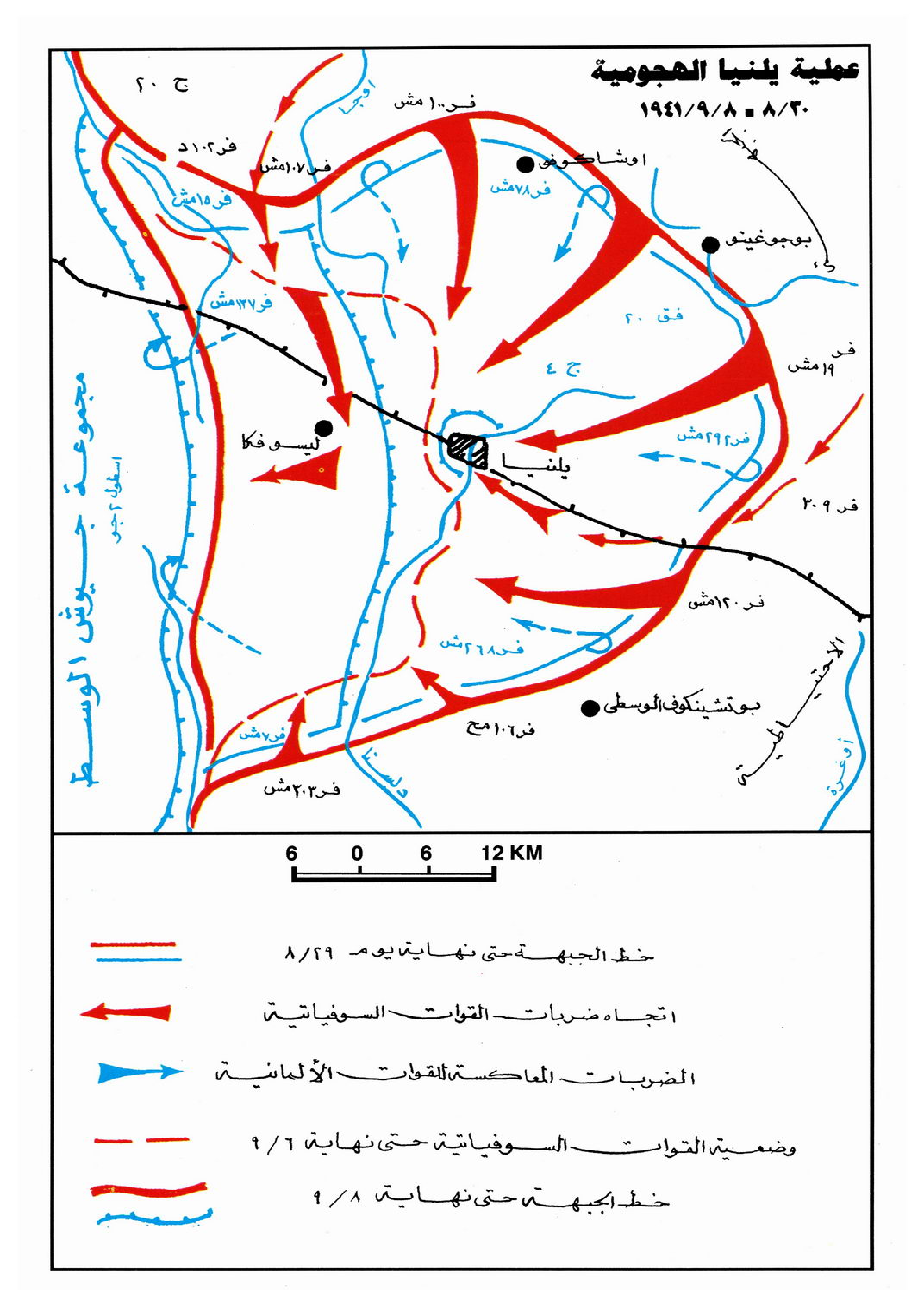


خطة حرب
المانيا الفاشية ضد الاتحاد السوفييتي
خطة باربا روسا



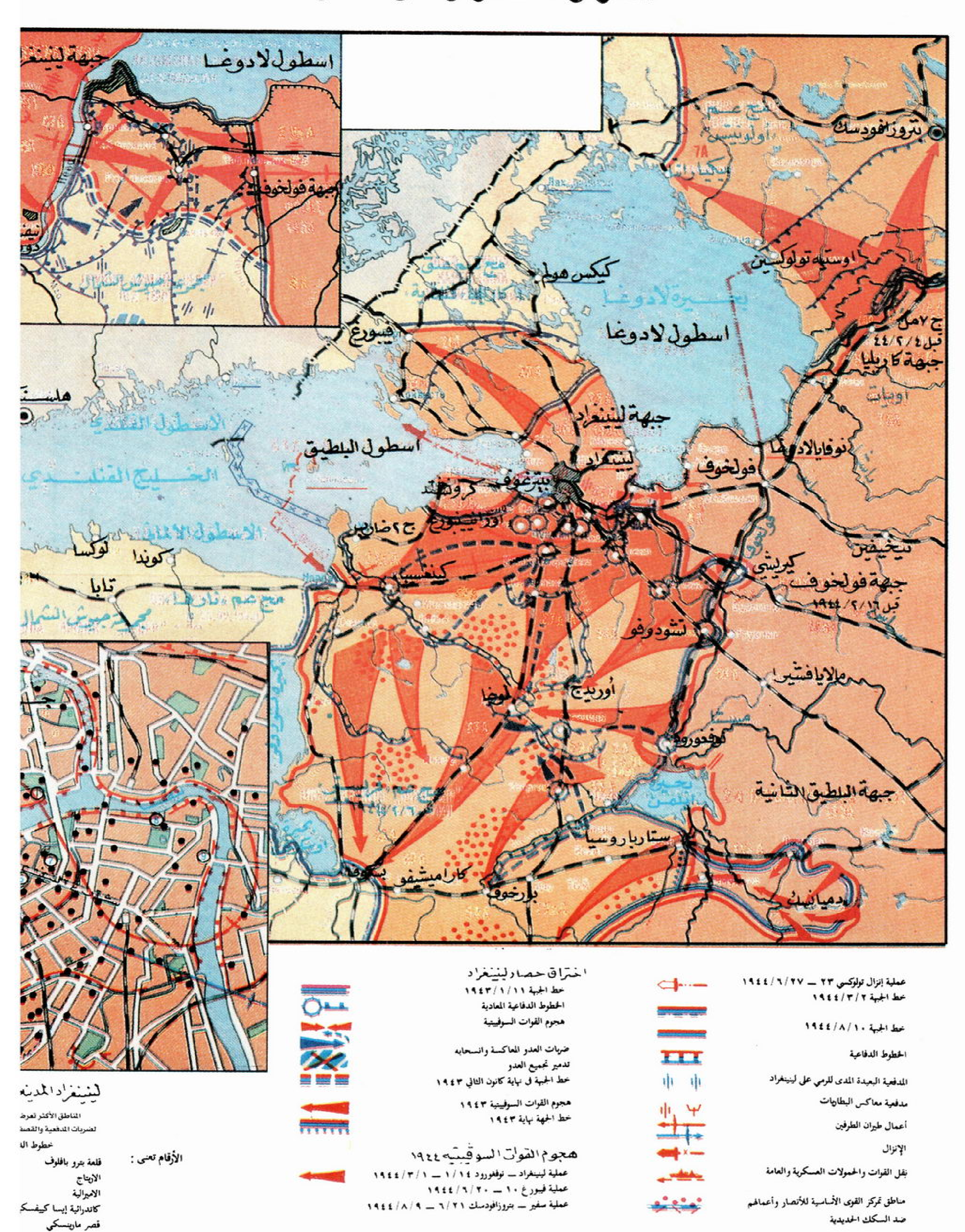
مناطق احتلها المعتدون حتى حزيران ١٩٤١

الخط النهائي الذي يجب على القوات الألمانية الفاشية الوصول إليه حسب خطة بار بار وسا



عملية يلنيا الهجومية
٨/٣٠ - ١٩٤١/٩/٨
يلنيا
اوشاكوفو
بوجوغينو
ليسوفكا
بوتشينكوف الوسطى
مجموعة جيوش الوسط
الاحتياطية
6 0 6 12 KM
خط الجبهة حتى نهاية يوم ٨/٢٩
اتجاه ضربات القوات السوفياتية
الضربات المعاكسة للقوات الألمانية
وضعية القوات السوفياتية حتى نهاية ٩/٦
خط الجبهة حتى نهاية ٩/٨

اختراق الحصار وسحق العدو



الصراع عند منافذ لينينغراد

خط الجبهة ١٠ ــ ١٩٤١/٧/١٢
هجوب القوات الألمانية والفنلندية ١٩٤١
أعمال القوات المدرعة الألمانية
ضربات القوات السوفييتية المعاكسة ١٩٤١
خط الجبهة ٦ ــ ١٩٤١/٨/١٠
خط الجبهة ١٩٤١/٩/٢٧، بداية حصار لينينغراد ١٩٤١/٩/٨
عملية تيخفين الدفاعية ١٦/١٠ ــ ١٩٤١/١١/١٨
خط الجبهة في تشرين الثاني ١٩٤١
هجوم القوات السوفييتية العام المعاكس عند تيخفين ١٩/١١ ــ ١٩٤١/١٢/٣٠
خط الجبهة ١٩٤١/١٢/٣١
الأعمال القتالية ١٩٤٢
خط الدفاع في كانون الثاني ١٩٤٣
السكة الحديدية المنشأة في ١٩٤٢
طريق الحياة



الأعمال القتالية لأسطول البلطيق السوفييتي

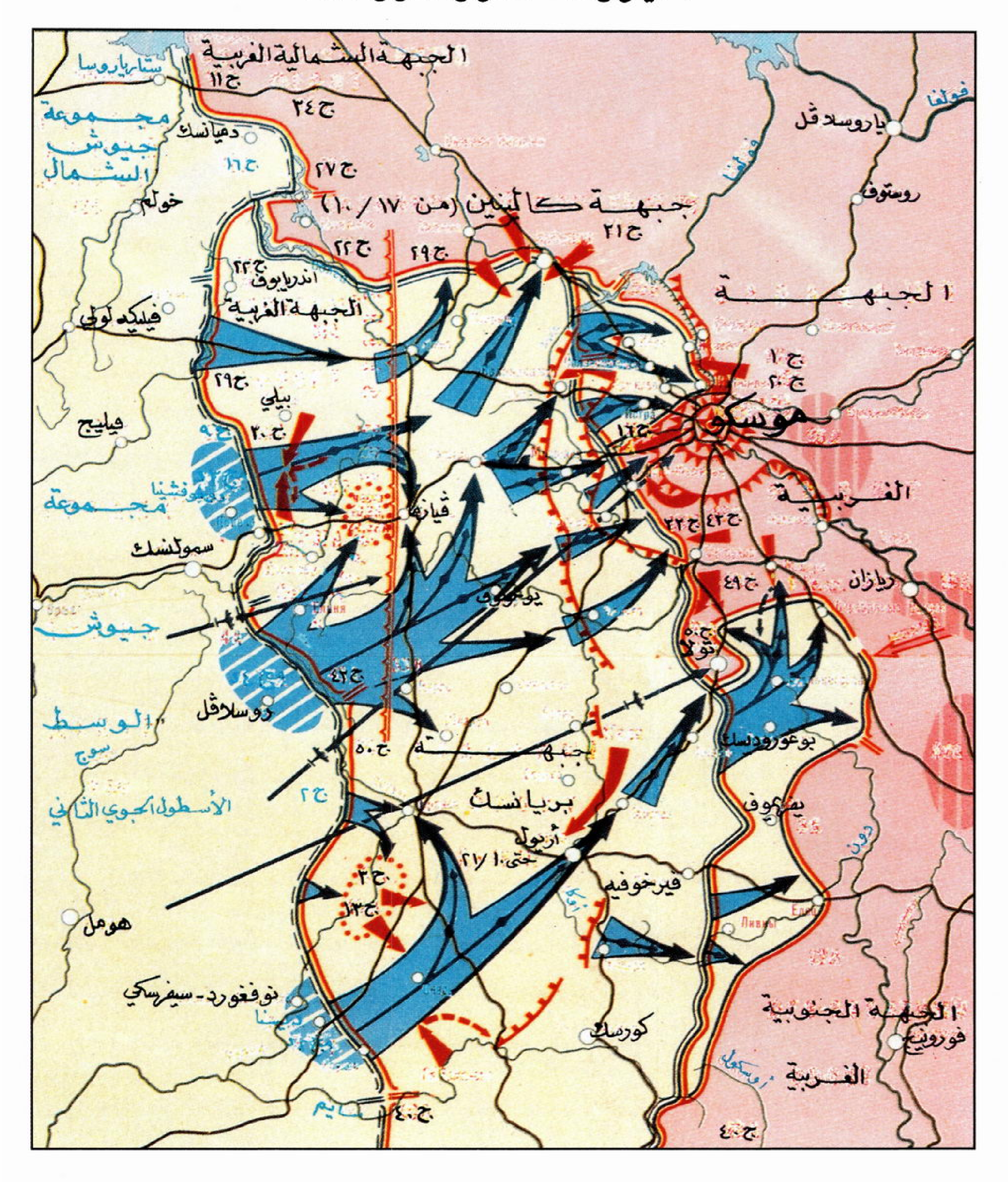
القواعد البحرية العسكرية ونقاط التمركز
الأعمال المشتركة للجيش والبحرية:
الدفاع عن خانكو ٢٢/٦ ــ ١٩٤١/١٢/٢
الدفاع عن تالين ٥ ــ ١٩٤١/٨/٢٨
الدفاع عن الجزء الشمالي الشرقي من الخليج الفنلندي ٢٢/٦ ــ ١٩٤١/١١/١
الدفاع عن جزر مو أو ندزوند ٧/٩ ــ ١٩٤١/١٠/٢٢
خروج الأسطول من تالين إلى كرونشتات، إخلاء الحاميات والقواعد بحراً
حواجز الغام لكل من أسطول البلطيق وأسطول العدو
منطقة الأعمال المنتظمة لسفن وطائرات أسطول البلطيق ضد خطوط العدو البحرية ١٩٤١

مواقع العدو المضادة للغواصات ١٩٤٢ ــ ١٩٤٤
اندفاع الغواصات في بحر البلطيق ١٩٤٢
نقل الجيش الضارب الثاني إلى رأس جسر أورا نيينبورغ ١٩٤٣/١١/٥ ــ ١٩٤٤/١/٢١
أعمال مدفعية الساحل والسفن
أعمال طيران أسطول البلطيق

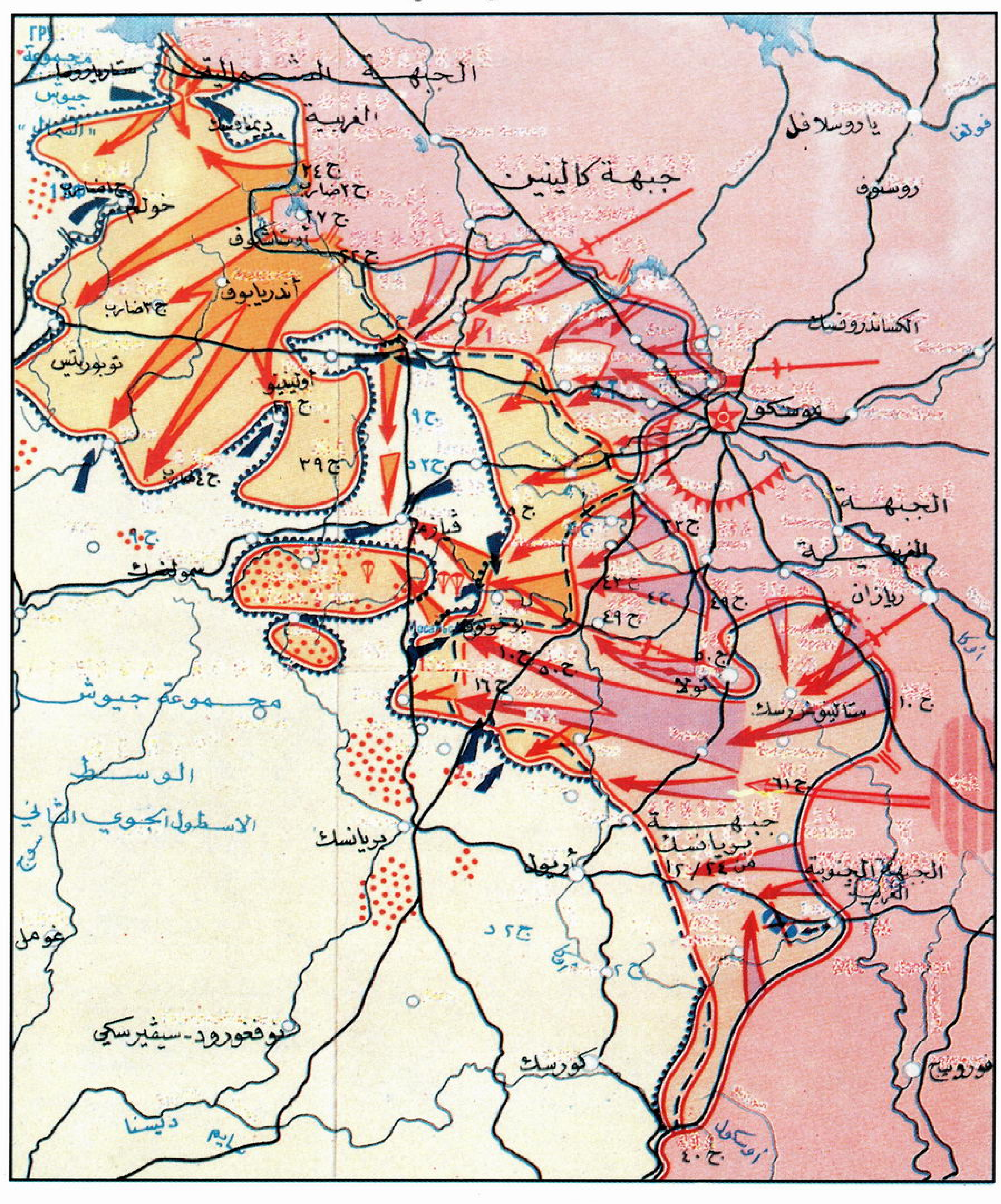
كاتدرائية قازانسكي ٦
المتحف الروسي ٧
قصر تافريتشسكي ٨
سمولني ٩

دفاع موسكو البطولي

٣٠ أيلول ـ ٥ كانون الأول ١٩٤١



سحق القوات الألمانية الفاشية
عند موسكو



هجوم القوات السوفياتية في كانون ٢-نيسان ١٩٤٢

خط الجبهة في بداية هجوم القوات السوفياتية العام المعاكس (٥/١٢/١٩٤١)

هجوم الطيران السوفياتي المكثف

احتياطات القيادة العامة العليا

مناطق الإنزالات الجوية السوفياتية

مناطق تحشد الأنصار

هجوم القوات السوفياتية العام المعاكس (من ٥/١٢/١٩٤١ حتى ٧-١٠/١/١٩٤٢)

الضربات المعاكسة وانسحاب القوات الألمانية

تطويق تجميع العدو في يلفس والقضاء عليه

خط الجبهة في نهاية نيسان ١٩٤٢

خط الجبهة ٧-١٠ كانون الثاني ١٩٤٢

المعارك الدفاعية عند مشارف ستالينغراد

١٧ تموز - ١٢ ايلول ١٩٤٢



خط الجبهة حتى نهاية ٢٢ تموز

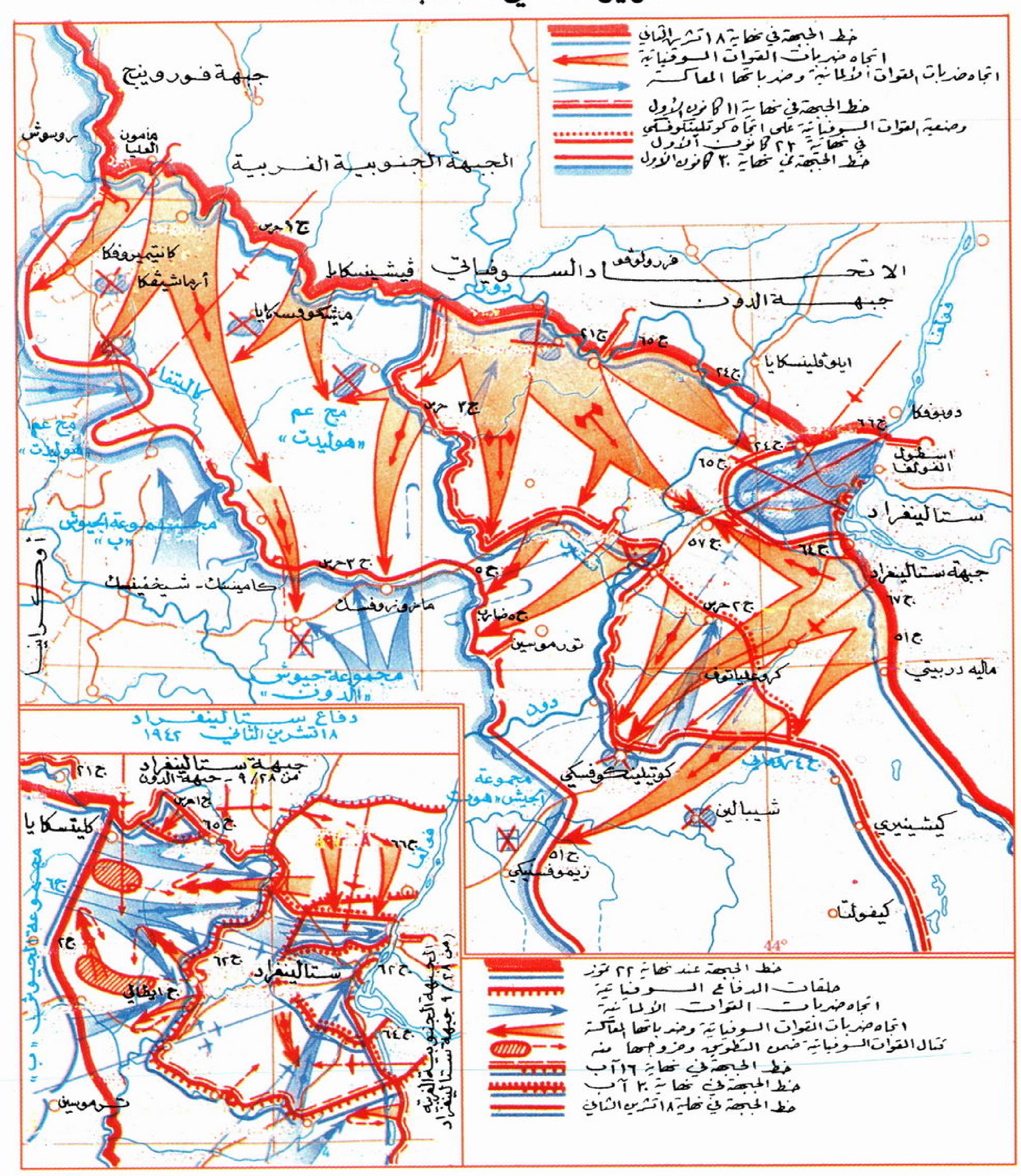
وضعية الجناح الأيسر للجيش ٥١ السوفياتي حتى نهاية ٢٩ تموز

وضعية القوات السوفياتية
٥ - ٦ آب
حتى نهاية ١٦ آب
حتى نهاية ٣٠ آب
حتى نهاية ١٢ أيلول

معركة ستالينغراد

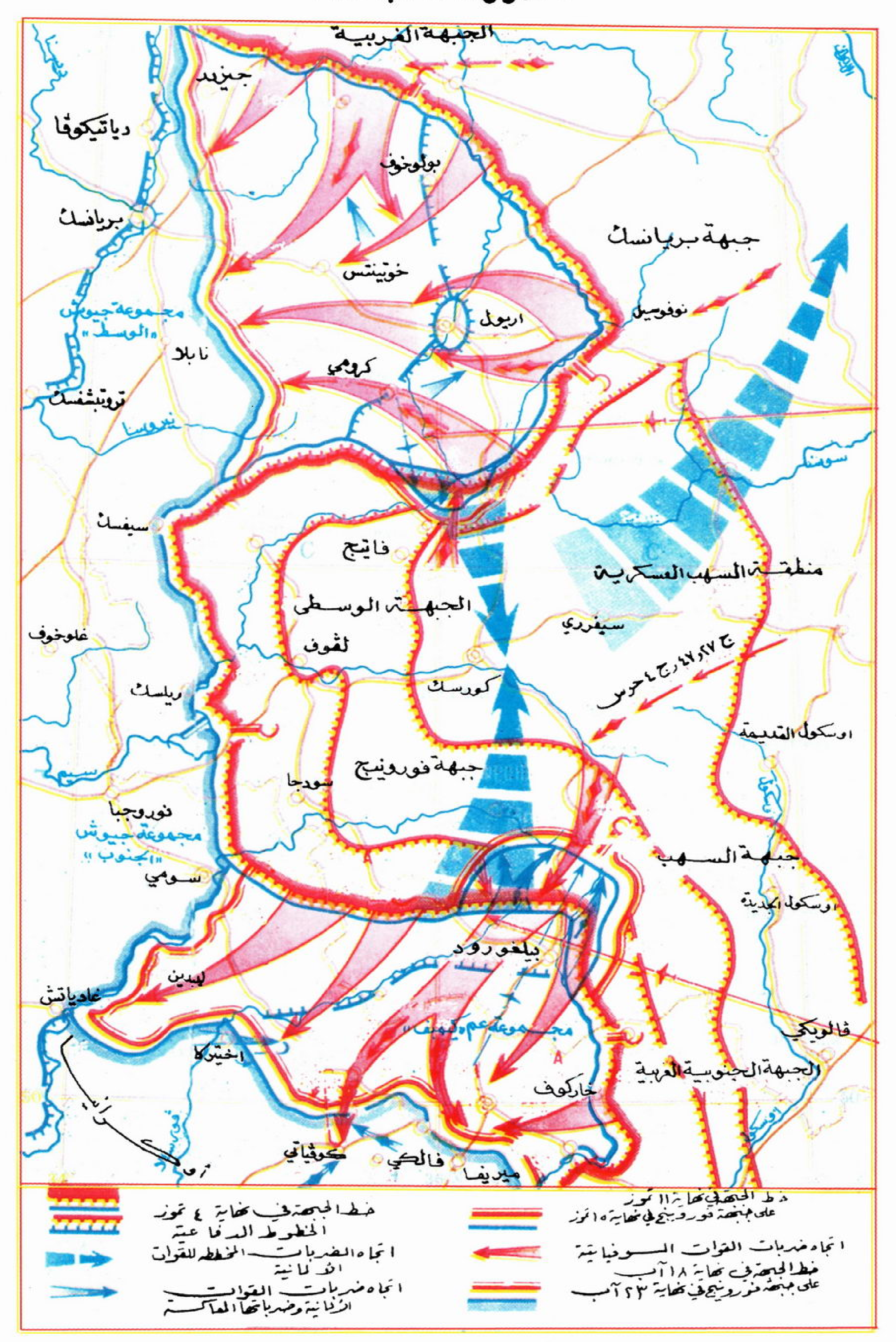
هجوم القوات السوفياتية العام المعاكس

١٩ تشرين الثاني - ٢ شباط ١٩٤٣

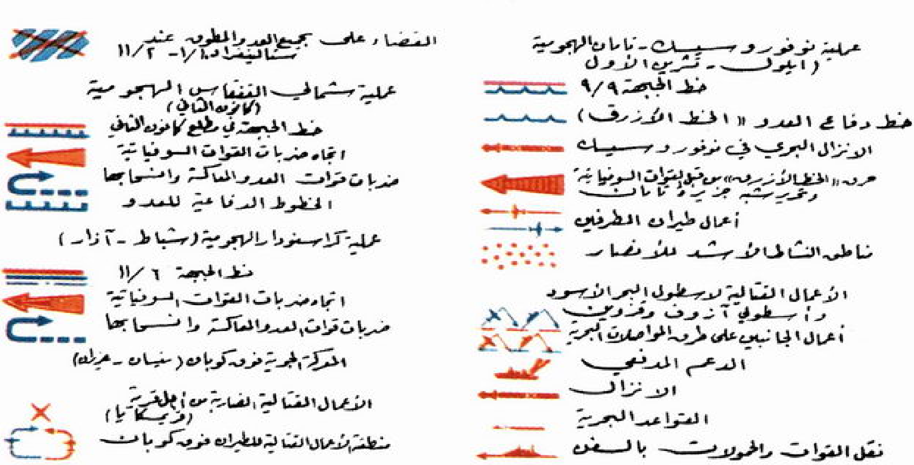


معركة كورسك

٥ تموز - ٢٣ آب ١٩٤٣

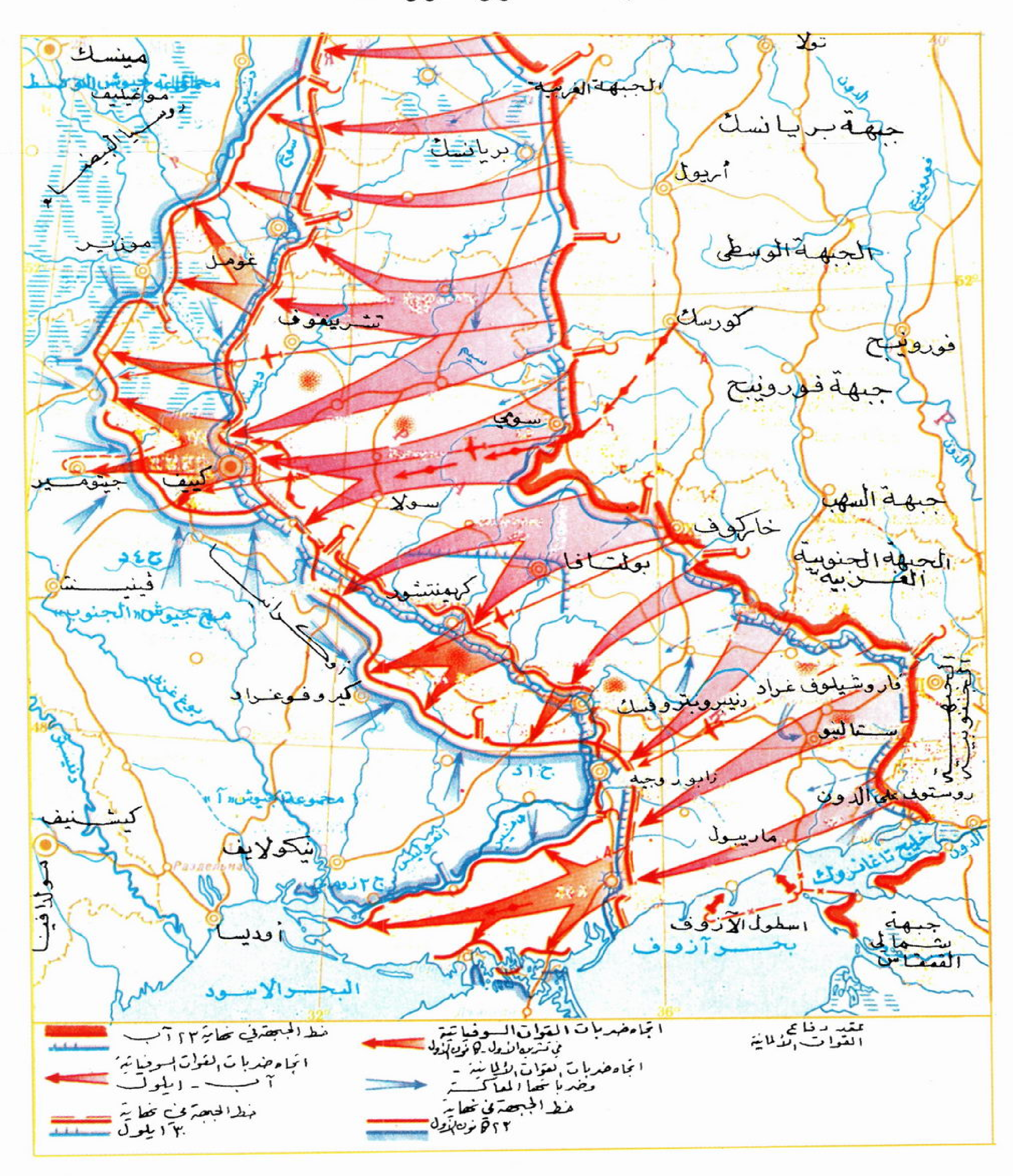


طرد المحتلين الالمان الفاشيين من شمالي القفقاس
كانون الثاني - كانون الأول ١٩٤٣



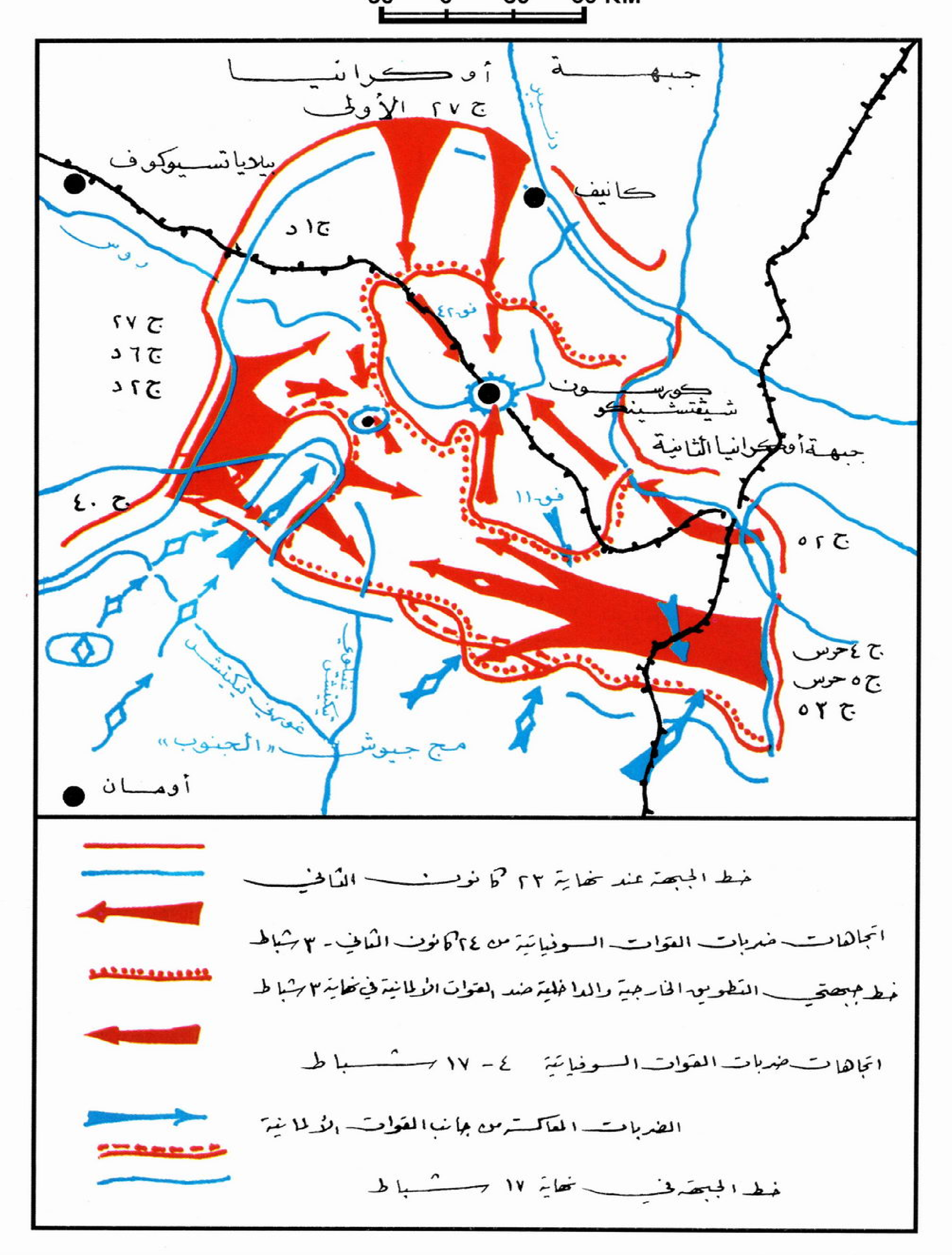
معركة الدنيبر

٢٤ آب - ٢٣ كانون الأول ١٩٤٣



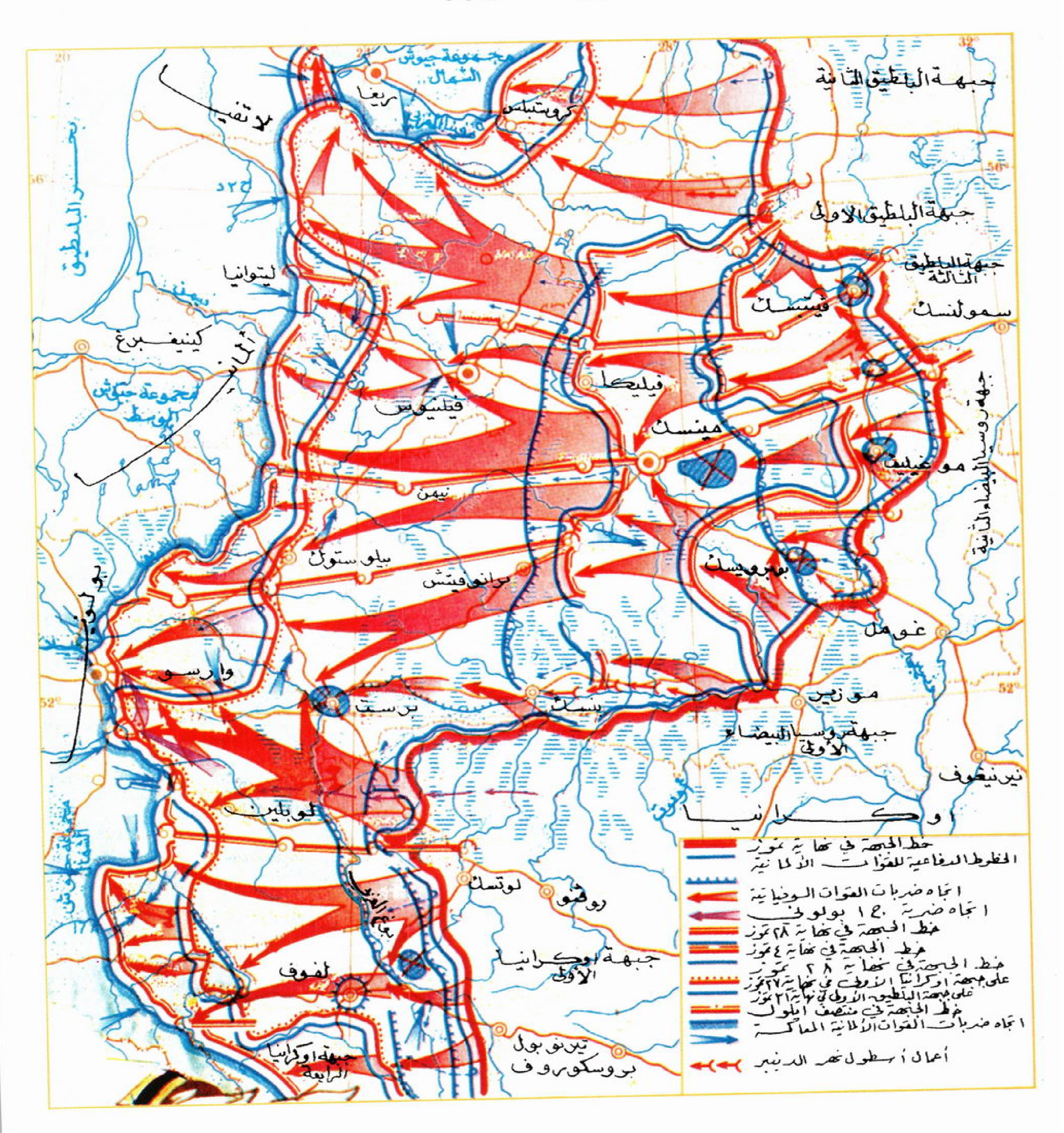
عملية كورسون ـ شيفتشنكو الهجومية

٢٤ كانون الثاني ـ ١٧ شباط ١٩٤٤



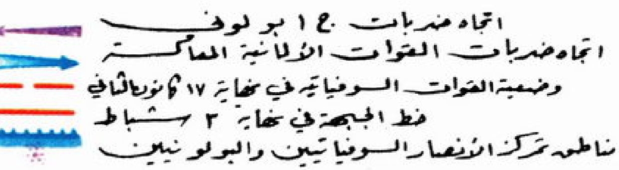
عملية روسيا البيضاء - تحرير بولونيا الشرقية

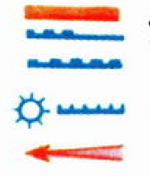
٢٣ تموز - ١٤ ايلول ١٩٤٤



عملية ڤيسلا ـ أودر ـ انجاز تحرير بولونيا

١٢ كانون الثاني ـ ٣ شباط ١٩٤٥



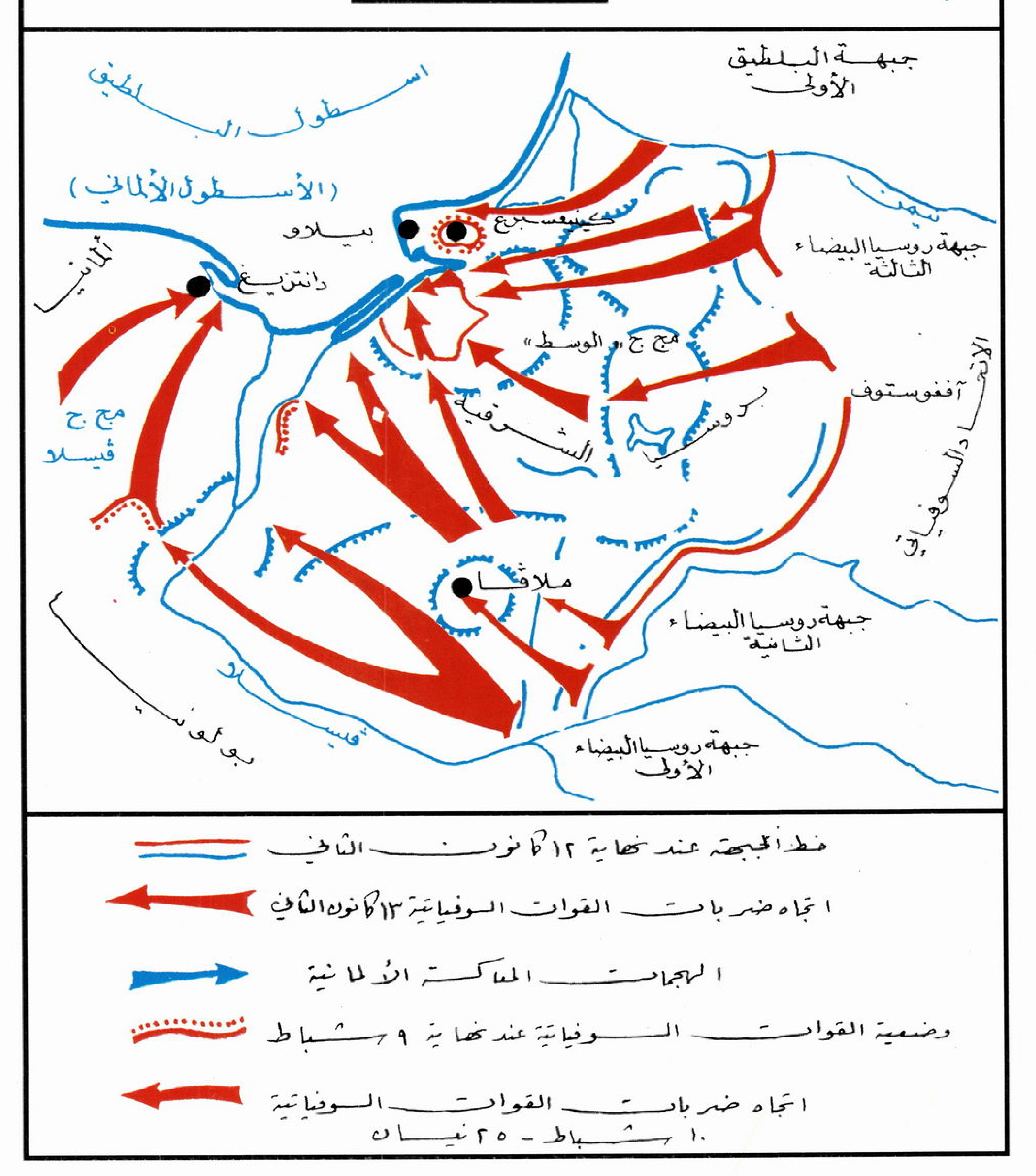


خط الجبهة في نهاية ١١ كانون الثاني
النطاق الرئيسي لخط دفاع ڤيسلا للقوات الألمانية
عقد الدفاع
الخطوط الدفاعية للقوات الألمانية
اتجاه ضربات
القوات السوفياتية

عملية بروسيا الشرقية

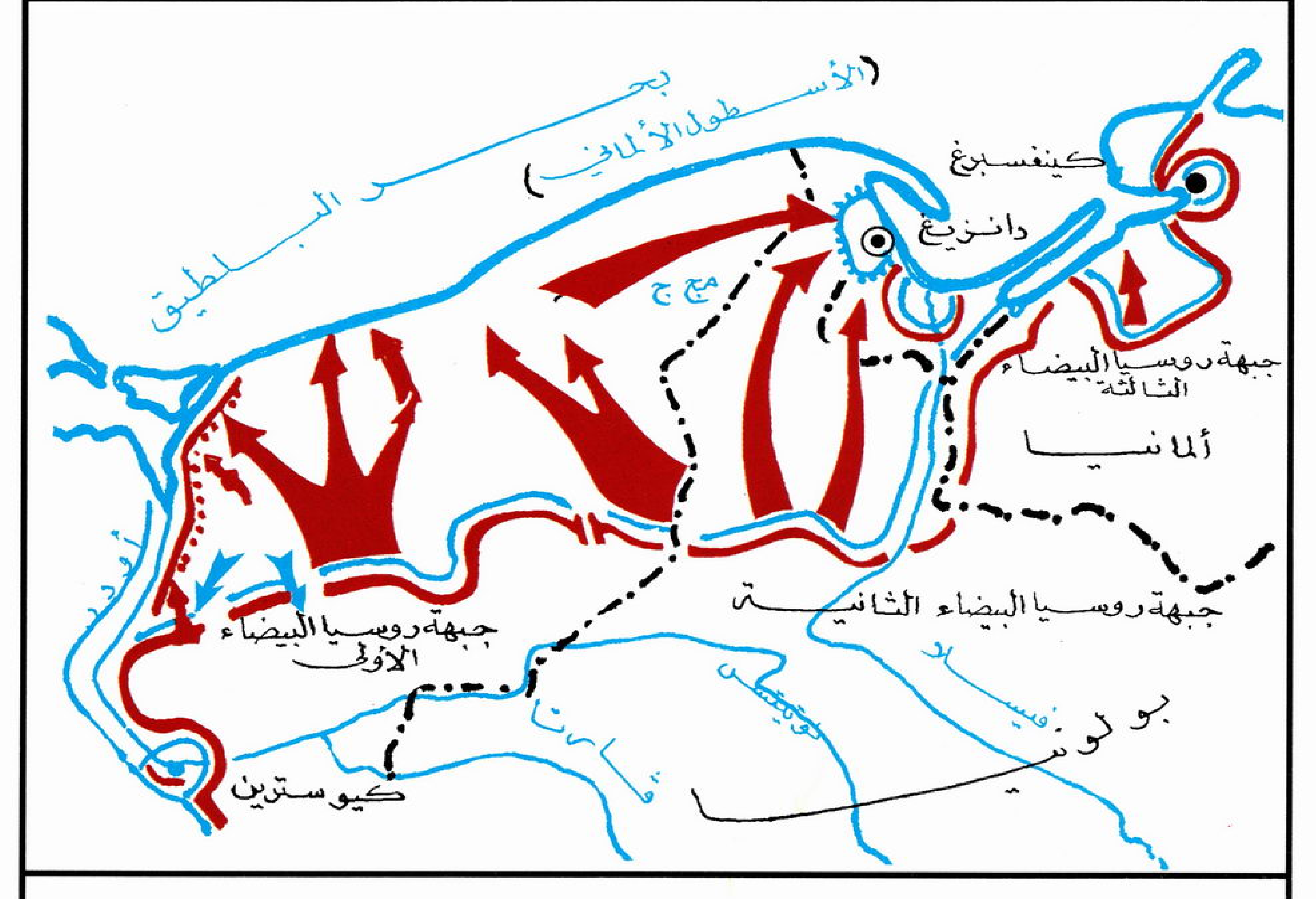
١٣ كانون الثاني - ٢٥ نيسان ١٩٤٥

70 0 70 140 210 KM



عملية بوميرانيا الشرقية ١٠ شباط - ٤ نيسان ١٩٤٥

80 0 80 160 KM



خط الجبهة عند نهاية ٩ شباط

اتجاه القوات السوفياتية

اتجاه ضربات الجيش الأول البولوني

الضربات المعاكسة الألمانية

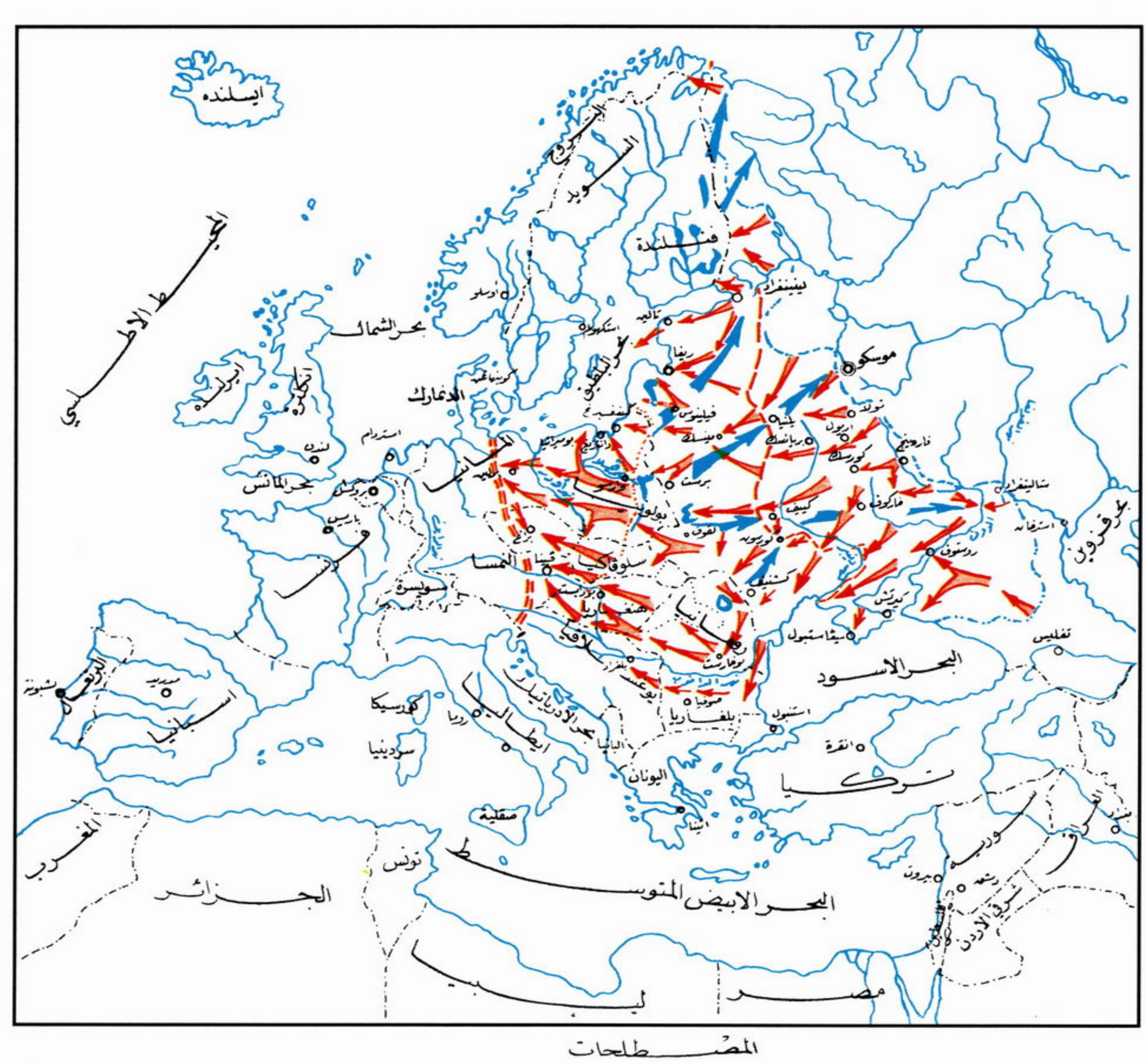
خط الجبهة عند نهاية ٤ نيسان

عملية برلين

١٦ نيسان - ٨ أيار ١٩٤٥



أعمال القوات السوفياتية في الحرب العالمية الثانية ١٩٤١ - ١٩٤٥



المصطلحات

القوات الالمانية واتجاهات عملها حسب خطة عملية بارباروسا:

- ١ مجموعة الشمال المتطرف
- ٢ مجموعة جيوش الشمال
- ٣ مجموعة جيوش الوسط
- ٤ مجموعة جيوش الجنوب
- ٥ قوات المانية ورومانية من مجموعة جيوش الجنوب
- اتجاهات عمل القوات السوفياتية

- الحدود الدولية .... تقسيمات فرعية
- الخط الاعمق لتقدم القوات الالمانية على الجبهة السوفياتية الالمانية
- وضعية القوات السوفياتية في نهاية كانون الاول ١٩٤٣
- وضعية القوات السوفياتية في نهاية كانون الاول ١٩٤٤
- خط تلاقي القوات السوفياتية مع قوات الحلفاء



الفهرس

هذا الكتاب

- **يبحث:** في النهج الاستراتيجي للمارشال جوكوف، الذي اعترف العالم به قائداً عظيماً ومفكراً عسكرياً من الطراز الأول.
- **يدرس:** عصامية هذا القائد الذي بدأ حياته العسكرية جندياً ومع ذلك قاد الجحافل السوفييتية في الحرب العالمية الثانية على الجبهات كافة، وكيف انتزع بعبقريته القتالية وصفاء ذهنه النصر، ليس للاتحاد السوفييتي فحسب، بل للعالم كله.
- **يرصد:** إنجازات جوكوف العسكرية والفكرية بقدر كبير من الشفافية والدقة دون تحيُّز المؤلف العماد أول مصطفى طلاس لصديقه المارشال الفذّ.
- **يضع:** بين أيدي الضباط العرب منهجاً علمياً لانتزاع النصر بعيدين عن النمطية في تطبيق قواعد فن الحرب.

